رحلة ابن بطوطة

المسمّاة

تحفة النظار في غرائب الأمصار
وعجائب الأسفار

(فهرست الجزء الاول من كتاب رحلة ابن بطوطه)

صحيفه

صحيفه

كتاب رحلة ابن بطوطه

المسماة

تحفة النظار فى غرائب الامصار
وعجائب الاسفار

م

(الطبعة الاولى)

بقاعدة حروف مطبعة وادى النيل الجديدة

فى مطبعة وادى النيل بمصر القاهرة بالموسكى

سنة ١٢٨٧ ه

Ibn Batutah

(كتاب)

(رحلة ابن بطوطه)

المسماة

تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار

بسم الله الرّحمن الرّحيم

قال الشيخ الفقيه العالم الثقة النبيه الناسك الابر وفد الله المعتمر شرف الدين المعتمد فى سياحته على رب العالمين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتى ثم الطنجى المعروف بابن بطوطة رحمه الله ورضى عنه بمنه وكرمه آمين

الحمد لله الذى ذلل الارض لعباده ليسلكوا منها سبلا فجاجا وجعل منها واليها تاراتهم الثلاث نباتا واعادة واخراجا دحاها بقدرته فكانت مهادا للعباد وأرساها بالاعلام الراسيات والاطواد ورفع فوقها سمك السماء بغير عماد واطلع الكواكب هداية فى ظلمات البر والبحر وجعل القمر نورا والشمس سراجا ثم أنزل من السماء ماء فأحيا به الارض بعد الممات وأنبت فيها من كل الثمرات وفطر أقطارها بصنوف النبات وفجر البحرين عذبا فراتا وملحا أجاجا وأكمل على خلقه الانعام بتذليل مطايا الانعام وتسخير المنشآت كالاعلام لتمتطوا من صهوة القفر ومتن البحر اثباجا وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الذى أوضح للخلق منهاجا وطلع نور هدايته وهاجا بعثه الله تعالى رحمة للعالمين واختاره خاتما للنبيين وأمكن صوارمه من رقاب المشركين حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا وأيده بالمعجزات الباهرات وأنطق بتصديقه الجمادات وأحيا بدعوته الرمم الباليات وفجر من بين أنامله ماء ثجاجا ورضى الله تعالى عن المتشرفين بالانتماء اليه أصحابا وآلا وأزواجا المقيمين قناة الدين فلا تخشى بعدهم اعوجاجا فهم الذين آزروه على جهاد الاعداء وظاهروه على اظهار الملة البيضاء وقاموا بحقوقها الكريمة من

الهجرة

الهجرة والنصرة والايواء واقتحموا دونه نار البأس حامية وخاضوا بحر الموت عجاجا ونستوهب الله تعالى لمولانا الامام الخليفة أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين المجاهد في سبيل الله المؤيد بنصر الله أبي عنان فارس ابن موالينا الائمة المهتدين الخلفاء الراشدين نصرا يوسع الدنيا وأهلها ابتهاجا وسعدا يكون لزمانة الزمان علاجا كما وهبه الله بأسا وجودا لم يدع طاغيا ولا محتاجا وجعل بسيفه وسيبه لكل ضيقة انفراجا وبعد فقد قضت العقول وحكم المعقول والمنقول بأنّ هذه الخلافة العلية المجاهدة المتوكلية الفارسية هي ظل الله الممدود على الانام وحبله الذي به الاعتصام وفي سلك طاعته يجب الانتظام فهي التي أبرأت الدين عند اعتلاله وأغمدت سيف العدوان عند انسلاله وأصلحت الايام بعد فسادها ونفقت سوق العلم بعد كسادها وأوضحت طرق البر عند انهاجها وسكنت أقطار الارض عند ارتجاجها وأحيت سنن المكارم بعد مماتها وأماتت رسوم المظالم بعد حياتها وأخمدت نار الفتنة عند اشتعالها ونقضت أحكام البغي عند استقلالها وشادت مباني الحق على عمد التقوى واستمسكت من التوكل على الله بالسبب الاقوى فلها العز الذي عقد تاجه على مفرق الجوزاء والمجد الذي جرّ أذياله على مجرة السماء والسعد الذي رد على الزمان غض شبابه والعدل الذي مد على أهل الايمان مديد أطنابه والجود الذي قطر سحابه اللجين والنضار والبأس الذي فيض غمامه الدم الموار والنصر الذي نفض كتائبه الاجل والتأييد الذي بعض غنائمه الدول والبطش الذي سبق سيفه العذل والاناة التي لا يمل عندها الامل والحزم الذي يسد على الاعداء وجوه المسارب والعزم الذي يفل جموعها قبل قراع الكتائب والحلم الذي يجني العفو من ثمر الذنوب والرفق الذي جمع على محبته بنات القلوب والعلم الذي يجلو نوره دياجي المشكلات والعمل المقيد بالاخلاص والاعمال بالنيات ولما كانت حضرته العلية مطمح الامال ومسرح همم الرجال ومحط رحال الفضائل ومثابة أمن الخائف ومنية السائل توخى الزمان خدمتها ببدائع تحفه وروائع طرفه فانثال عليها العلماء انثيال جودها على الصفات وتسابق اليها الادباء تسابق عزماتها الى العدات وحج العارفون حرمها الشريف وقصد السائحون استطلاع معناها المنيف ولجأ الخائفون الى الامتناع بعز جنابها واستجارت الملوك بخدمة أبوابها فهي القطب الذي عليه مدار العالم وفي القطع بتفضيلها تساوت بديهة عقل الجاهل والعالم وعن مآثرها الفائقة يسند صحاح الآثار كل مسلم وبإكمال محاسنها الرائقة يفصح كل معلم وكان ممن وفد على بابها السامي وتعدى أوشال البلاد الى بحرها الطامي الشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوق جواب الارض ومخترق الاقاليم بالطول

والعرض أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة المعروف في البلاد الشرقية بشمس الدين وهو الذي طاف الارض معتبرا وطوى الامصار مختبرا وباحث فرق الامم وسبر سير العرب والعجم ثم ألقى عصا التسيار بهذه الحضرة العليا لما علم أن لها مزية الفضل دون شرط ولا ثنيا وطوى المشارق الى مطلع بدرها بالغرب وآثرها على الاقطار ايثار التبر على الترب اختيارا بعد طول اختبار البلاد والخلق ورغبة في اللحاق بالطائفة التي لا تزال على الحق فغمره من احسانه الجزيل وامتنانه الحفي الحفيل ما أنساه الماضي بالحال وأغناه عن طول الترحال وحقر عنده ما كان من سواه يستعظمه وحقق لديه ما كان من فضله يتوهمه فنسي ما كان ألفه من جولان البلاد وظفر بالمرعى الخصب بعد طول الارتياد ونفذت الاشارة الكريمة بأن يملي ما شاهده في رحلته من الامصار وما علق بحفظه من نوادر الاخبار ويذكر من لقيه من ملوك الاقطار وعلمائها الاخيار وأوليائها الابرار فأملى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر من كل غريبة أفاد باجتلائها وعجيبة أطرف بانتحائها وصدر الامر العالي لعبد مقامهم الكريم المنقطع الى بابهم المتشرف بخدمة جنابهم محمد بن محمد بن جزى الكلبي أعانه الله على خدمتهم وأوزعه شكر نعمتهم ان يضم أطراف ما أملاه الشيخ أبو عبد الله من ذلك في تصنيف يكون على فوائده مشتملا ولنيل مقاصده مكملا متوخيا تنقيح الكلام وتهذيبه معتمدا ايضاحه وتقريبه ليقع الاستمتاع بتلك الطرف ويعظم الانتفاع بدرها عند تجريده عن الصدف فامتثل ما أمر به مبادرا وشرع في منهله ليكون بمعونة الله عن توفية الغرض منه صادرا ونقلت معاني كلام الشيخ أبي عبد الله بألفاظ موفية للمقاصد التي قصدها موضحة للمناحي التي اعتمدها وربما أوردت لفظه على وضعه فلم أخل بأصله ولا فرعه وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والاخبار ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار على انه سلك في اسناد صحاحها أقوم المسالك وخرج عن عهدة سائرها بما يشعر من الالفاظ بذلك وقيدت المشكل من أسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط ليكون أنفع في التصحيح والضبط وشرحت ما أمكنني شرحه من الاسماء العجمية لانها تلتبس بعجمتها على الناس ويخطئ في فك معماها معهود القياس وأنا أرجو أن يقع ما قصدته من المقام العلي أيده الله بمحل القبول وأبلغ من الاغضاء عن تقصيره المأمول فعوائدهم في السماح جميلة ومكارمهم بالصفح عن الهفوات كفيلة والله تعالى يديم لهم عادة النصر والتمكين ويعرفهم عوارف التأييد والفتح المبين

قال

قال الشيخ أبو عبد الله كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة معتمدا حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام منفردا عن رفيق آنس بصحبته وركب أكون في جملته لباعث من النفس شديد العزائم وشوق الى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازم فجزمت أمري على هجر الاحباب من الاناث والذكور وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور وكان والدي بقيد الحياة فتحملت لبعدهما وصبا ولقيت كما لقيا من الفراق نصبا وسني يومئذ ثنتان وعشرون سنة قال ابن جزي أخبرني أبو عبد الله بمدينة غرناطة ان مولده بطنجة في يوم الاثنين السابع عشر من رجب الفرد سنة ثلاث وسبعمائة

(رجع) وكان ارتحالي في أيام أمير المؤمنين وناصر الدين المجاهد في سبيل رب العالمين الذي رويت أخبار جوده موصولة الاسناد بالاسناد وشهرت آثار كرمه شهرة واضحة الاشهاد وتحلت الايام بحلى فضله ورتع الانام في ظل رفقه وعدله الامام المقدس أبو سعيد ابن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين الذي فل حد الشرك صدق عزائمه واطفأت نار الكفر جداول صوارمه وفتكت بعباد الصليب كتائبه وكرمت في اخلاص الجهاد مذاهبه الامام المقدس أبو يوسف بن عبد الحق جدد الله عليهم رضوانه وسقى ضرائحهم المقدسة من صوب الحياء الله وتهتانه وجزاهم أفضل الجزاء عن الاسلام والمسلمين وابقى الملك في عقبهم الى يوم الدين فوصلت مدينة تلمسان وسلطانها يومئذ أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان ووافقت بها رسولي ملك افريقية السلطان أبي يحيى رحمه الله وهما قاضي الانكحة بمدينة تونس أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن علي بن ابراهيم النفزاوي والشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشي الزبيدي (بضم الزاي نسبة الى قرية بساحل المهدية) وهو أحد الفضلاء ووفاته عام أربعين وفي يوم وصولي الى تلمسان خرج عنها الرسولان المذكوران فأشار علي بعض الاخوان بمرافقتهما فاستخرت الله عز وجل في ذلك وأقمت بتلمسان ثلاثا في قضاء مآربي وخرجت أجد السير في آثارهما فوصلت مدينة مليانة وأدركتهما بها وذلك في ابان القيظ فلحق الفقيهين مرض أقمنا بسببه عشرا ثم ارتحلنا وقد اشتد المرض بالقاضي منهما فأقمنا ببعض المياه على مسافة أربعة أميال من مليانة ثلاثا وقضى القاضي نحبه ضحى اليوم الرابع فعاد ابنه أبو الطيب ورفيقه أبو عبد الله الزبيدي الى مليانة فقبروه بها وتركتهم هنالك وارتحلت مع رفقة من تجار تونس منهم الحاج مسعود بن المنتصر والحاج العدولي ومحمد بن الحجر فوصلنا مدينة الجزائر وأقمنا بخارجها أياما الى أن قدم الشيخ أبو عبد الله وابن القاضي فتوجهنا جميعا على متيجة الى

جبل الزان ثم وصلنا الى مدينة بجاية فنزل الشيخ أبو عبد الله بدار قاضيها أبى عبد الله
الزواوى ونزل أبو الطيب ابن القاضى بدار الفقيه أبى عبد الله المفسر وكان أمير بجاية
اذ ذاك ابا عبد الله محمد بن سيد الناس الحاجب وكان قد توفى من تجار تونس الذين صحبتهم
من مليانة محمد بن الحجر الذى تقدم ذكره وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب وأوصى بها
لرجل من أهل الجزائر يعرف بابن حديدة ليوصلها الى ورثته بتونس فانتهى خبره لابن سيد
الناس المذكور فانتزعها من يده وهذا أول ما شاهدته من ظلم عمال الموحدين وولاتهم
ولما وصلنا الى بجاية كما ذكرته أصابتنى الحمى فأشار على أبو عبد الله الزبيدى بالاقامة فيها
حتى يتمكن البرء منى فأبيت وقلت ان قضى الله عز وجل بالموت فتكون وفاتى بالطريق
وأنا قاصد أرض الحجاز فقال لى أما ان عزمت فبع دابتك وثقل المتاع وأنا أعيرك دابة وخباء
وتصحبنا خفيفا فاننا نجد السير خوف غارة العرب فى الطريق ففعلت هذا وأعارنى ما وعد به
جزاه الله خيرا وكان ذلك أول ما ظهر لى من الالطاف الالاهية فى تلك الوجهة الحجازية
وسرنا الى ان وصلنا الى مدينة قسنطينة فنزلنا خارجها واصابنا مطر جود اضطرنا الى الخروج
عن الاخبية ليلا الى دور هنالك فلما كان من الغد تلقانا حاكم المدينة وهو من الشرفاء
الفضلاء يسمى بأبى الحسن فنظر الى ثيابى وقد لوثها المطر فأمر بغسلها فى داره وكان الاحرام
منها خلقا فبعث مكانه احراما بعلبكيا وصر فى أحد طرفيه دينارين من الذهب فكان ذلك
أول ما فتح به على فى وجهتى ورحلنا الى أن وصلنا مدينة بونة ونزلنا بداخلها وأقمنا بها أياما
ثم تركنا بها من كان فى صحبتنا من التجار لاجل الخوف فى الطريق وتجردنا للسير وواصلنا
الجد واصابتنى الحمى فكنت أشد نفسى بعمامة فوق السرج خوف السقوط بسبب الضعف
ولا يمكننى النزول من الخوف الى أن وصلنا مدينة تونس فبرز أهلها للقاء الشيخ أبى عبد الله
الزبيدى ولقاء أبى الطيب ابن القاضى أبى عبد الله النفزاوى فأقبل بعضهم على بعض
بالسلام والسؤال ولم يسلم على أحد لعدم معرفتى بهم فوجدت من ذلك فى النفس ما لم أملك
معه سوابق العبرة واشتد بكائى فشعر بحالى بعض الحجاج فاقبل على بالسلام والايناس
ومازال يؤنسنى بحديثه حتى دخلت المدينة ونزلت منها بمدرسة الكتبيين قال ابن جزى
أخبرنى شيخى قاضى الجماعة أخطب الخطباء أبو البركات محمد بن محمد بن ابراهيم السلمى
هو ابن الحاج البلفيقى انه جرى له مثل هذه الحكاية قال قصدت مدينة بلش من بلاد
الاندلس فى ليلة عيد برسم رواية الحديث المسلسل بالعيد عن أبى عبد الله ابن الكماد
وحضرت المصلى مع الناس فلما فرغت الصلاة والخطبة أقبل الناس بعضهم على بعض
بالسلام وأنا فى ناحية لا يسلم على أحد فقصد الى شيخ من أهل المدينة المذكورة واقبل على

بالسلام

بالسلام والايناس وقال نظرت اليك فرأيتك منتبذا عن الناس لا يسلم عليك أحد فعرفت انك غريب فأحببت ايناسك جزاه الله خيرا (رجع)

(ذكر سلطان تونس)

وكان سلطان تونس عند دخولي اليها السلطان أبو يحيى ابن السلطان أبي زكريا يحيى ابن السلطان أبي اسحاق ابراهيم ابن السلطان أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص رحمه الله وكان بتونس جماعة من اعلام العلماء منهم قاضي الجماعة بها أبو عبد الله محمد بن قاضي الجماعة أبي العباس أحمد بن محمد بن حسن بن محمد الانصاري الخزرجي البلنسي الاصل ثم التونسي هو ابن الغماز ومنهم الخطيب أبو اسحاق ابراهيم بن حسين بن علي بن عبد الرفيع الربعي وولي أيضا قضاء الجماعة في خمس دول ومنهم الفقيه أبو علي عمر بن علي ابن قداح الهواري وولي أيضا قضاءها وكان من اعلام العلماء ومن عوايده انه يستند كل يوم جمعة بعد صلاتها الى بعض اساطين الجامع الاعظم المعروف بجامع الزيتونة ويستفتيه الناس في المسائل فلما أفتى في أربعين مسألة انصرف عن مجلسه ذلك واظلني بتونس عيد الفطر فحضرت المصلى وقد احتفل الناس لشهود عيدهم وبرزوا في أجمل هيئة وأكمل شارة ووافى السلطان أبو يحيى المذكور راكبا وجميع أقاربه وخواصه وخدام مملكته مشاة على أقدامهم في ترتيب عجيب وصليت الصلاة وانقضت الخطبة وانصرف الناس الى منازلهم وبعد مدة تعين لركب الحجاز الشريف شيخه يعرف بأبي يعقوب السوسي من أهل أقلمن بلاد افريقية وأكثره المصامدة فقدموني قاضيا بينهم وخرجنا من تونس في أواخر شهر ذي القعدة سالكين طريق الساحل فوصلنا الى بلدة سوسة وهي صغيرة حسنة مبنية على شاطئ البحر بينها وبين مدينة تونس أربعون ميلا ثم وصلنا الى مدينة صفاقس وبخارج هذه البلدة قبر الامام أبي الحسن اللخمي المالكي مؤلف كتاب التبصرة في الفقه قال ابن جزي في بلدة صفاقس يقول علي ابن حبيب التنوخي (كامل)

سقيا الارض صفاقس * ذات المصانع والمصلى
محمى القصير الى الخليج * فقصرها السامي المعلى
بلد يكاد يقول حين * تزوره أهلا وسهلا
وكأنه والبحر يحسر تارة عنه ويملا
صب يريد زيارة * فاذا رأى الرقباء ولى

وفي عكس ذلك يقول الاديب البارع أبو عبد الله محمد ابن أبي تميم وكان من المجيدين المكثرين (رجز)

صفاقس لاصفا عيش لدا كنها * ولاسقى أرضها غيث اذا انسكبا
ناهيك من بلدة من حل ساحتها * عانى بها العاديين الروم والعربا
كم ضل فى البر مسلوبا بضاعته * وبات فى البحر يشكوا الاسر والعطبا
قد عاين البحر من لوم لقاطنها * فكلماهم ان يدنو لها هربا

(رجع) ثم وصلنا الى مدينة قابس ونزلنا بداخلها وأقمنا بها عشرا لتوالى نزول الامطار قال ابن جزى فى ذكر قابس يقول بعضهم (رجز)

لهفى على طيب ليال خلت * بجانب البطحاء من قابس
كأن قلبى عند تذكارها * جذوة نار بيدى قابس

(رجع) ثم خرجنا من مدينة قابس قاصدين طرابلس وصحبنا فى بعض المراحل اليها نحو مائة فارس أو يزيدون وكان بالركب قوم رماة فهابتهم العرب وتحامت مكانهم وعصمنا الله منهم وأظلنا عيد الاضحى فى بعض تلك المراحل وفى الرابع بعده وصلنا الى مدينة طرابلس فأقمنا بها مدة وكنت عقدت بصفاقس على بنت لبعض أمناء تونس فبنيت عليها بطرابلس ثم خرجت من طرابلس أواخر شهر المحرم من عام ستة وعشرين ومعى أهلى وفى صحبتى جماعة من المصامدة وقد رفعت العلم وتقدمت عليهم وأقام الركب فى طرابلس خوفا من البرد والمطر وتجاوزنا مسلاتة ومسراتة وقصور سرت وهنالك أرادت طوائف العرب الايقاع بنا ثم صرفتهم القدرة وحالت دون ما راموه من اذايتنا ثم توسطنا الغابة وتجاوزناها الى قصر برصيص العابد الى قبة سلام وأدركنا هنالك الركب الذين تخلفوا بطرابلس ووقع بينى وبين صهرى مشاجرة أوجبت فراق بنته وتزوجت بنتا لبعض طلبة فاس وبنيت بها بقصر الزعافية وأولمت وليمة حبست لها الركب يوما وأطعمتهم ثم وصلنا فى أول جمادى الاولى الى مدينة الاسكندرية حرسها الله وهى الثغر المحروس والقطر المأنوس العجيبة الشان الاصيلة البنيان بها ماشئت من تحسين وتحصين ومآثر دنيا ودين كرمت مغانيها ولطفت معانيها وجمعت بين الضخامة والاحكام مبانيها فهى الفريدة تجلى سناها والخريدة تجلى فى حلاها الزاهية بجمالها المغرب الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب فكل بديعة بها اجتلاؤها وكل طرفة فاليها انتهاؤها وقد وصفها الناس فأطنبوا وصنفوا فى عجائبها فأغربوا وحسب المشرف الى ذلك ما سطره أبو عبيد فى كتاب المسالك

(ذكر أبوابها ومرساها)

وللمدينة الاسكندرية أربعة أبواب باب السدرة واليه يشرع طريق المغرب وباب رشيد

وباب

وباب البحر والباب الاخضر وليس يفتح الا يوم الجمعه فيخرج الناس منه الى زيارة القبور ولها المرسى العظيم الشان ولم أر في مراسى الدنيا مثله الا ما كان من مرسى كولم وقالقوط ببلاد الهند ومرسى الكفار بسوداق ببلاد الاتراك ومرسى الزيتون ببلاد الصين وسيقع ذكرها

(ذكر المنار)

تصدت المنار في هذه الوجهة فرأيت أحد جوانبه متهدما وصفته انه بناء مربع ذاهب في الهواء وبابه مرتفع على الارض وازاء بابه بناء بقدر ارتفاعه وضعت بينهما ألواح خشب يعبر عليها الى بابه فاذا أزيلت لم يكن له سبيل وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار وداخل المنار بيوت كثيرة وعرض الممر بداخله تسعة أشبار وعرض الحائط عشرة أشبار وعرض المنار من كل جهة من جهاته الاربع مائة وأربعون شبرا وهو على تل مرتفع ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحد في بر مستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات الى أن يتصل البحر بسور البلد فلا يمكن التوصل الى المنار في البر الا من المدينة وفي هذا البر المتصل بالمنار مقبرة الاسكندرية وقصدت المنار عند عودي الى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمائة فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود الى بابه وكان الملك الناصر رحمه الله قد شرع في بناء منار مثله بازائه فعاقه الموت عن اتمامه

(ذكر عمود السوارى)

ومن غرائب هذه المدينة عمود الرخام الهائل الذي بخارجها المسمى عندهم بعمود السوارى وهو متوسط في غابة نخل وقد امتاز عن شجراتها سموا وارتفاعا وهو قطعة واحدة محكمة النحت قد أقيم على قواعد حجارة مربعة أمثال الدكاكين العظيمة ولا تعرف كيفية وضعه هنالك ولا يتحقق من وضعه قال ابن جزى أخبرني بعض أشياخي الرحالين ان أحد الرماة بالاسكندرية صعد الى أعلى ذلك العمود ومعه قوسه وكنانته واستقر هنالك وشاع خبره فاجتمع الجم الغفير لمشاهدته وطال العجب منه وخفي على الناس وجه احتياله وأظنه كان خائفا أو طالب حاجة فانتج له فعله الوصول الى قصده لغرابة ما أتى به وكيفية احتياله في صعوده انه رمى بنشابة قد عقد فوقها خيطا طويلا وعقد بطرف الخيط حبلا وثيقا فتجاوزت النشابة أعلى العمود معترضة عليه ووقعت من الجهة الموازية للرامي فصار الخيط معترضا على أعلى العمود فجذبه حتى توسط الحبل أعلى العمود مكان الخيط فأوثقه من احدى الجهتين في الارض وتعلق به صاعدا من الجهة الاخرى واستقر بأعلاه وجذب الحبل واستصحب من احتمله فلم يهتد الناس لحيلته وعجبوا من شأنه (رجع) وكان أمير الاسكندرية في عهد وصولي اليها يسمى صلاح الدين وكان فيها أيضا في ذلك العهد سلطان افريقية المخلوع وهو زكرياء أبو يحيى بن

أحمد بن أبي حفص المعروف باللحياني وأمر الملك الناصر بانزاله بدار السلطنة من اسكندرية وأجرى له مائة درهم في كل يوم وكان معه أولاده عبد الواحد ومصري واسكندري وحاجبه أبو زكرياء بن يعقوب ووزيره أبو عبد الله ابن ياسين وبالاسكندرية توفي اللحياني المذكور وولده الاسكندري وبقي المصري بها الى اليوم قال ابن جزي من الغريب ما اتفق من صدق الزجر في اسمي ولدي اللحياني الاسكندري والمصري فمات الاسكندري بها وعاش المصري دهرا طويلا بها وهي من بلاد مصر (رجع) وتحول عبد الواحد لبلاد الاندلس والمغرب وافريقية وتوفي هنالك بجزيرة جربة

(ذكر بعض علماء الاسكندرية)

فمنهم قاضيها عماد الدين الكندي امام من أئمة علم اللسان وكان يعتم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم لم أر في مشارق الارض ومغاربها عمامة أعظم منها رأيته يوما قاعدا في صدر محراب وقد كادت عمامته ان تملأ المحراب ومنهم فخر الدين بن الريغي وهو أيضا من القضاة بالاسكندرية فاضل من أهل العلم

(حكاية) يذكر ان جد القاضي فخر الدين الريغي كان من أهل ريغة واشتغل بطلب العلم ثم رحل الى الحجاز فوصل الاسكندرية بالعشي وهو قليل ذات اليد فأحب أن لا يدخلها حتى يسمع فالا حسنا فقعد قريبا من بابها الى ان دخل جميع الناس وجاءت سد الباب ولم يبق هنالك سواه فاغتاظ الموكل بالباب من ابطائه وقال متهكما ادخل يا قاضي فقال قاض ان شاء الله ودخل الى بعض المدارس ولازم القراءة وسلك طريق الفضلاء فعظم صيته وشهر اسمه وعرف بالزهد والورع واتصلت أخباره بملك مصر واتفق ان توفي قاضي الاسكندرية وبها اذ ذاك الجم الغفير من الفقهاء والعلماء وكلهم متشوف للولاية وهو من بينهم لا يتشوف لذلك فبعث اليه السلطان بالتقليد وهو ظهير القضاء وأتاه البريد بذلك فأمر خديمه أن ينادي في الناس من كانت له خصومة فليحضر لها وقعد للفصل بين الناس فاجتمع الفقهاء وسواهم الى رجل منهم كانوا يظنون ان القضاء لا يتعداه وتفاوضوا في مراجعة السلطان في أمره ومخاطبته بأن الناس لا يرتضونه وحضر لذلك أحد الحذاق من المنجمين فقال لهم لا تفعلوا ذلك فاني عدلت طالع ولايته وحققته فظهر لي انه يحكم أربعين سنة فأضربوا عما هموا به من المراجعة في شأنه وكان أمره على ما ظهر للمنجم وعرف في ولايته بالعدل والنزاهة ومنهم وجيه الدين الصنهاجي من قضاتها مشتهر بالعلم والفضل ومنهم شمس الدين ابن بنت التنيسي فاضل شهير الذكر ومن الصالحين بها الشيخ أبو عبد الله الفاسي من كبار أولياء الله تعالى يذكر انه كان يسمع رد السلام عليه اذا سلم من صلاته ومنهم الامام العالم الزاهد الخاشع الورع خليفة صاحب المكاشفات

(

(كرامة له) أخبرنى بعض الثقاة من أصحابه قال رأى الشيخ خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم فقال يا خليفة زرنا فرحل الى المدينة الشريفة وأتى المسجد الكريم فدخل من باب السلام وحيا المسجد وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقعد مستندا الى بعض سوارى المسجد ووضع رأسه على ركبتيه وذلك يسمى عند المتصوفة الترفيق فلما رفع رأسه وجد أربعة أرغفة وآنية فيها لبن وطبقا فيه تمر فأكل هو وأصحابه وانصرف عائدا الى الاسكندرية ولم يحج تلك السنة ومنهم الامام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الاعرج من كبار الزهاد وافراد العباد لقيته أيام مقامى بالاسكندرية وأقمت فى ضيافته ثلاثا

(ذكر كرامة له) دخلت عليه يوما فقال لى أراك تحب السياحة والجولان فى البلاد فقلت له نعم انى أحب ذلك ولم يكن حينئذ خطر بخاطرى التوغل فى البلاد القاصية من الهند والصين فقال لابد لك ان شاء الله من زيارة أخى فريد الدين بالهند وأخى ركن الدين زكرياء بالسند وأخى برهان الدين بالصين فاذا بلغتهم فابلغهم منى السلام فعجبت من قوله وألقى فى روعى التوجه الى تلك البلاد ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم وأبلغتهم سلامه ولما ودعته زودنى دراهم لم تزل عندى محوطة ولم أحتج بعد الى انفاقها الى ان سلبها منى كفار الهنود فيما سلبوه لى فى البحر ومنهم الشيخ ياقوت الحبشى من افراد الرجال وهو تلميذ أبى العباس المرسى وأبو العباس المرسى تلميذ ولى الله تعالى أبى الحسن الشاذلى الشهير ذى الكرامات الجليلة والمقامات العالية

(كرامة لابى الحسن الشاذلى) أخبرنى الشيخ ياقوت عن شيخه أبى العباس المرسى ان أبا الحسن كان يحج فى كل سنة ويجعل طريقه على صعيد مصر ويجاور بمكة شهر رجب وما بعده الى انقضاء الحج ويزور القبر الشريف ويعود على الدرب الكبير الى بلده فلما كان فى بعض السنين وهى آخر سنة خرج فيها قال لخديمه استصحب فاسا وقفة وحنوطا وما يجهز به الميت فقال له الخديم ولم ذا ياسيدى فقال له فى حميثرا سوف ترى وحميثرا فى صعيد مصر فى صحراء عيذاب وبها عين ماء زعاق وهى كثيرة الضباع فلما بلغا حميثرا اغتسل الشيخ أبو الحسن وصلى ركعتين وقبضه الله عز وجل فى آخر سجدة من صلاته ودفن هنالك وقد زرت قبره وعليه تبرية مكتوب فيها اسمه ونسبه متصلا الى الحسن بن على رضى الله عنه

(ذكر حزب البحر المنسوب اليه) كان يسافر فى كل سنة كما ذكرناه على صعيد مصر وبحر جدة فكان اذا ركب السفينة يقرؤه فى كل يوم وتلامذته الى الآن يقرؤنه فى كل يوم وهو هذا

(ياالله يا على ياعظيم ياحليم ياعليم أنت ربى وعلمك حسبى فنعم الرب ربى ونعم
الحسب حسبى تنصر من تشاء وأنت العزيز الرحيم نسألك العصمة فى الحركات والسكنات
والكلمات والارادات والخطرات من الشكوك والظنون والاوهام الساترة القلوب
عن مطالعة الغيوب فقد ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا واذ يقول المنافقون والذين
فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا فثبتنا وانصرنا وسخر لنا هذا البحر
كما سخرت البحر لموسى عليه السلام وسخرت النار لابراهيم عليه السلام وسخرت الجبال
والحديد لداود عليه السلام وسخرت الريح والشياطين والجن لسليمان عليه السلام
وسخر لنا كل بحر هو لك فى الارض والسماء والملك والملكوت وبحر الدنيا وبحر الآخرة
وسخر لنا كل شئ يامن بيده ملكوت كل شئ كهيعص انصرنا فانك خير الناصرين
وافتح لنا فانك خير الفاتحين واغفر لنا فانك خير الغافرين وارحمنا فانك خير الراحمين
وارزقنا فانك خير الرازقين واهدنا ونجنا من القوم الظالمين وهب لنا ريحا طيبة كما هى
فى علمك وانشرها علينا من خزائن رحمتك واحملنا بها حمل الكرامة مع السلامة والعافية
فى الدين والدنيا والآخرة انك على كل شئ قدير اللهم يسر لنا أمورنا مع الراحة لقلوبنا
وأبداننا والسلامة والعافية فى ديننا ودنيانا وكن لنا صاحبا فى سفرنا وخليفة فى أهلنا واطمس
على وجوه أعدائنا وامسخهم على مكانتهم فلا يستطيعون المضى ولا المجئ الينا ولو نشاء
لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم
فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون يس شاهت الوجوه عم وعنت الوجوه للحى
القيوم وقد خاب من حمل ظلما طس حم عسق مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ
لا يبغيان حم حم حم حم حم حم حم حُمَّ الامر وجاء النصر فعلينا لا ينصرون حم
تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا اله
الا هو اليه المصير بسم الله بابنا تبارك حيطاننا يس سقفنا كهيعص كفايتنا حم عسق
حمايتنا فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ستر العرش مسبول علينا وعين الله ناظرة الينا
بحول الله لا يقدر علينا والله من ورائهم محيط بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ فالله خير
حافظا وهو أرحم الراحمين ان وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين حسبى الله
لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم وبسم الله الذى لا يضر مع اسمه شئ فى
الارض ولا فى السماء وهو السميع العليم له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من
أمر الله ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم)

*(

(حكايه)

مما جرى بمدينة الاسكندرية سنة سبع وعشرين وبلغنا خبر ذلك بمكة شرفها الله انه وقع
بين المسلمين وتجار النصارى مشاجرة وكان والى الاسكندرية رجل يعرف بالكركى فذهب
الى حماية الروم وأمر بالمسلمين فحضروا بين فصيلى باب المدينة وأغلق دونهم الابواب نكالا
لهم فأنكر الناس ذلك وأعظموه وكسروا الباب وثاروا الى منزل الوالى فتحصن منهم
وقاتلهم من أعلاه وطير الحمام بالخبر الى الملك الناصر فبعث أميرا يعرف بالجمالى ثم اتبعه
أميرا يعرف بطوغان جبار قاسى القلب متهم فى دينه يقال انه كان يعبد الشمس فدخلا
الاسكندرية وقبضا على كبار أهلها وأعيان التجار بها كاولاد الكوبك وسواهم وأخذا منهم
الاموال الطائلة وجعلت فى عنق عماد الدين القاضى جامعة حديد ثم ان الاميرين قتلا من
أهل المدينة ستة وثلاثين رجلا وجعلوا كل رجل قطعتين وصلبوهم صفين وذلك فى يوم
جمعة وخرج الناس على عادتهم بعد الصلاة لزيارة القبور وشاهدوا مصارع القوم فعظمت
حسرتهم وتضاعفت أحزانهم وكان فى جملة أولئك المصلوبين تاجر كبير القدر يعرف بابن
رواحة وكان له قاعة معدة للسلاح فمتى كان خوف أو قتال جهز منها المائة والمائتين من
الرجال بما يكفيهم من الاسلحة وبالمدينة قاعات على هذه الصورة لكثير من أهلها فزل لسانه
وقال للاميرين أنا أضمن هذه المدينة وكل ما يحدث فيها أطالب به وأحوط على السلطان
مرتبات العساكر والرجال فأنكر الاميران قوله وقالا انما تريد الثورة على السلطان وقتلاه
وانما كان قصده رحمه الله اظهار النصح والخدمة للسلطان فكان فيه حتفه وكنت سمعت
أيام كونى بالاسكندرية بالشيخ الصالح العابد المنقطع المنفق من الكون أبى عبد الله
المرشدى وهو من كبار الاولياء المكاشفين انه منقطع بمنية بنى مرشد له هنالك زاوية
هو منفرد فيها لا خديم له ولا صاحب ويقصده الامراء والوزراء وتأتيه الوفود من
طوائف الناس فى كل يوم فيطعمهم الطعام وكل واحد منهم ينوى أن يأكل عنده طعاما
أو فاكهة أو حلواء فيأتى لكل واحد بما نواه وربما كان ذلك فى غير ابانه ويأتيه الفقهاء لطلب
الخطط فيولى ويعزل وذلك كله من أمره مستفيض متواتر وقد قصده الملك الناصر مرات
بموضعه فخرجت من مدينة الاسكندرية قاصدا هذا الشيخ نفعنا الله به ووصلت قرية تروجة
(وضبطها بفتح التاء المعلوة والراء وواو وجيم مفتوحة) وهى على مسيرة نصف يوم من مدينة
الاسكندرية قرية كبيرة بها قاض ووال وناظر ولاهلها مكارم اخلاق ومروءة صحبت قاضيها
صفى الدين وخطيبها فخر الدين وفاضلا من أهلها يسمى بمبارك وينعت بزين الدين ونزلت بها
على رجل من العباد الفضلاء كبير القدر يسمى عبد الوهاب وأضافنى ناظرها زين الدين ابن

الواعظ وسألني عن بلادي وعن مجباه فأخبرته ان مجباه نحو اثني عشر ألفا من دينار الذهب فعجب وقال لي رأيت هذه القرية فان مجباها اثنان وسبعون ألف دينار ذهبا وانما عظمت مجابي ديار مصر لان جميع املاكها لبيت المال ثم خرجت من هذه القرية فوصلت مدينة دمنهور وهي مدينة كبيرة جباياتها كثيرة ومحاسنها أثيرة أم مدن البحيرة بأسرها وقطبها الذي عليه مدار أمرها (وضبطها بدال مهملة وميم مفتوحين ونون ساكنة وهاء مضمومة وواو وراء) وكان قاضيها في ذلك العهد فخر الدين بن مسكين من فقهاء الشافعية وتولى قضاء الاسكندرية لما عزل عنها عماد الدين الكندي بسبب الوقعة التي قصصناها وأخبرني الثقة ان ابن مسكين أعطى خمسة وعشرين ألف درهم وصرفها من دنانير الذهب ألف دينار على ولاية القضاء بالاسكندرية ثم رحلنا الى مدينة فوا وهذه المدينة عجيبة المنظر حسنة المخبر بها البساتين الكثيرة والفوائد الخطيرة الاثيرة (وضبطها بالفاء والواو المفتوحتين مع تشديد الواو) بها قبر الشيخ الولي أبي النجاة الشهير الاسم خبير تلك البلاد وزاوية الشيخ أبي عبد الله المرشدي الذي قصدته بقربة من المدينة يفصل بينها خليج هنالك فلما وصلت المدينة تعديتها ووصلت الى زاوية الشيخ المذكور قبل صلاة العصر وسلمت عليه ووجدت عنده الامير سيف الدين يلملك وهو من الخاصكية (وأول اسمه ياء آخر الحروف ولامه الاولى مسكنة والثانية مفتوحة مثل الميم) والعامة تقول فيه الملك فيخطئون ونزل هذا الامير بعسكره خارج الزاوية ولما دخلت على الشيخ رحمه الله قام الي وعانقني وأحضر طعاما فواكلني وكانت عليه جبة صوف سوداء فلما حضرت صلاة العصر قدمني للصلاة اماما وكذلك لكل ما حضرني عنده حين اقامتي معه من الصلاة ولما أردت النوم قال لي اصعد الى سطح الزاوية فنم هنالك وذلك أوان القيظ فقلت للامير بسم الله فقال لي وما منا الا له مقام معلوم فصعدت السطح فوجدت به حصيرا ونطعا وآنية للوضوء وجرة ماء وقدحا للشرب فنمت هنالك

(كرامة لهذا الشيخ) رأيت ليلتي تلك وأنا نائم بسطح الزاوية كأني على جناح طائر عظيم يطير بي في سمت القبلة ثم يتيامن ثم يشرق ثم يذهب في ناحية الجنوب ثم يبعد الطيران في ناحية الشرق وينزل في أرض مظلمة خضراء ويتركني بها فعجبت من هذه الرؤيا وقلت في نفسي ان كاشفني الشيخ برؤياي فهو كما يحكى عنه فلما غدوت لصلاة الصبح قدمني اماما لها ثم أتاه الامير يلملك فودعه وانصرف وودعه من كان هنالك من الزوار وانصرفوا أجمعين من بعد ان زودهم كعيكات صغارا ثم سبحت سبحة الضحى ودعاني وكاشفني برؤياي فقصصتها عليه فقال سوف تحج وتزور النبي صلى الله عليه وسلم وتجول في بلاد اليمن

والعراق

راق وبلاد الترك وبلاد الهند وتبقى بها مدة طويلة وستلقى بها أخى دلشاد الهندى
صل من شدة تقع فيها ثم زودنى كعيكات ودراهم وودعته وانصرفت ومنذ فارقته لم
اسفارى الاخيرا وظهرت على بركاته ثم لم ألق فيمن لقيته مثل الا اولى سيدى محمد
المو بأرض الهند ثم رحلنا الى مدينة النحرارية وهى رحبة الفناء حديثة البناء أسواقها
حسنة الرؤياء (وضبطها بفتح النون وحاء مهمل مسكن وراء ين) وأميرها كبير القدر يعرف
بالسعدى وولده فى خدمة ملك الهند وسنذكره وقاضيها صدر الدين سليمان المالكى من
كبار المالكية سفر عن الملك الناصر الى العراق وولى قضاء البلاد الغربية وله هيئة
جميلة وصورة حسنة وخطيبها شرف الدين السخاوى من الصالحين ورحلت منها الى مدينة
ابيار وهى قديمة البناء أرجة الارجاء كثيرة المساجد ذات حسن زائد (وضبط
اسمها بفتح الهمزة واسكان الباء الموحدة وياء آخر الحروف وألف وراء) وهى بمقربة من
النحرارية ويفصل بينهما النيل وتصنع بأبيار ثياب حسان تغلو قيمتها بالشأم والعراق ومصر
وغيرها ومن الغريب قرب النحرارية منها والثياب التى تصنع بها غير معتبرة ولا مستحسنة عند
أهلها ولقيت بأبيار قاضيها عز الدين المليحى الشافعى وهو كريم الشمائل كبير القدر حضرت
عنده مرة يوم الركبة وهم يسمون بذلك يوم ارتقاب هلال رمضان وعادتهم فيه ان يجتمع فقهاء
المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضى ويقف على
الباب نقيب المتعممين وهو ذو شارة وهيئة حسنة فاذا أتى أحد الفقهاء أو الوجوه تلقاه ذلك
النقيب ومشى بين يديه قائلا بسم الله سيدنا فلان الدين فيسمع القاضى ومن معه فيقومون
له ويجلسه النقيب فى موضع يليق به فاذا تكاملوا هنالك ركب القاضى وركب من معه
أجمعين وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان وينتهون الى موضع مرتفع
خارج المدينة وهو مرتقب الهلال عندهم وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش فينزل فيه
القاضى ومن معه فيرتقبون الهلال ثم يعودون الى المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم
الشمع والمشاعل والفوانيس ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع ويصل الناس مع القاضى
الى داره ثم ينصرفون هكذا فعلهم فى كل سنة ثم توجهت الى مدينة المحلة الكبيرة وهى جليلة
المقدار حسنة الآثار كثير أهلها جامع بالمحاسن شملها واسمها بين ولهذه المدينة قاضى
القضاة ووالى الولاة وكان قاضى قضاتها أيام وصولى اليها فى فراش المرض ببستان له على
مسافة فرسخين من البلد وهو عز الدين ابن الاشمرين فقصدت زيارته صحبة نائبه الفقيه أبى
القاسم بن بنون المالكى التونسى وشرف الدين الدميرى قاضى محلة منوف وأقمنا عنده يوما
وسمعت منه وقد جرى ذكر الصالحين ان على مسيرة يوم من المحلة الكبيرة بلاد البراس ونسترو

وهى بلاد الصالحين وبها قبر الشيخ مرزوق صاحب المكاشفات فقصدت تلك البلاد ونزلت بزاويه الشيخ المذكور وتلك البلاد كثيرة النخل والثمار والطير البحرى والحوت المعروف بالبورى ومدينتهم تسمى ملطين وهى على ساحل البحيرة المجتمعة من ماء النيل وماء البحر المعروفة ببحيرة تنيس ونسترو بمقربة منها نزلت هنالك بزاوية الشيخ شمس الدين القلوى من الصالحين وكانت تنيس بلدا عظيما شهيرا وهى الآن خراب قال ابن جزى (تنيس بكسر التاء المثناة والنون المشددة و ياء وسين مهمل) واليه ينسب الشاعر المجيد أبو الفتح بن وكيع وهو القائل فى خليجها

(بسيط)

قم فاسقنى والخليج مضطرب * والريح تثنى ذوائب القصب
كأنها والرياح تعطفها * صب قنا سندسية العذب
والجو فى حلة ممسكة * قد طرزتها البروق بالذهب

(ونسترو بفتح النون واسكان السين وراء مفتوحة وواو مسكن) (والبراس بباء موحدة وراء وآخره سين مهمل وقيده بعضهم بضم حروفه الاول الثلاث وتشديد اللام وقيده أبو بكر بن نقطة بفتح الاولين) وهو على البحر ومن غريب ما اتفق به ما حكاه أبو عبد الله الرازى عن أبيه ان قاضى البراس وكان رجلا صالحا خرج ليلة الى النيل فبينما أسبغ الوضوء وصلى ماشاء الله ان يصلى اذ سمع قائلا يقول

(بسيط)

لولا رجال لهم سرد يصومونا * وآخرون لهم ورد يقومونا
لزلزلت أرضكم من تحتكم سحرا * لانكم قوم سوء لاتبالونا

قال فتجوزت فى صلاتى وأدرت طرفى فما رأيت أحدا ولا سمعت حسا فعلمت ان ذلك زاجر من الله تعالى (رجع) ثم سافرت فى أرض رملة الى مدينة دمياط وهى مدينة فسيحة الاقطار متنوعة الثمار عجيبة الترتيب آخذة من كل حسن بنصيب (والناس يضبطون اسمها باعجام الذال وكذلك ضبطه الامام أبو محمد عبد الله بن على الرشاطى وكان شرف الدين الامام العلامة أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطى امام المحدثين يضبطها باهمال الدال ويتبع ذلك بأن يقول خلاف الرشاطى وغيره وهو أعرف بضبط اسم بلده) ومدينة دمياط على شاطئ النيل وأهل الدور الموالية له يستقون منه الماء بالدلاء وكثير من دورها بها دركات ينزل فيها الى النيل وشجر الموز بها كثير يحمل ثمره الى مصر فى المراكب وغنمها سائمة هملا بالليل والنهار ولهذا يقال فى دمياط سورها حلو وكلابها غنم واذا دخلها أحد لم يكن له سبيل الى الخروج عنها الا بطابع الوالى فمن كان من الناس معتبرا طبع له فى قطعة كاغد يستظهر به لحراس بابها وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به والطير البحرى بهذه المدينة كثير متناهى السمن

وبها

وبها الالبان الجاموسية التي لامثل لها في عذوبة الطعم وطيب المذاق وبها الحوت البوري يحمل منها الى الشأم وبلاد الروم ومصر وبخارجها جزيرة بين البحر والنيل تسمى البرزخ بها مسجد وزاوية لقيت بها شيخها المعروف بابن قفل وحضرت عنده ليلة جمعة ومعه جماعة من الفقراء الفضلاء المتعبدين الاخيار قطعوا ليلتهم صلاة وقراءة وذكرا ودمياط هذه حديثة البناء والمدينة القديمة هي التي خربها الافرنج على عهد الملك الصالح وبها زاوية الشيخ جمال الدين الساوي قدوة الطائفة المعروفة بالقرندرية وهم الذين يحلقون لحاهم وحواجبهم ويسكن الزاوية في هذا العهد الشيخ فتح التكروري

(حكاية)

يذكر ان السبب الداعي للشيخ جمال الدين الساوي الى حلق لحيته وحاجبيه انه كان جميل الصورة حسن الوجه فعلقت به امرأة من أهل ساوة وكانت تراسله وتعارضه في الطرق وتدعوه لنفسها وهو يمتنع ويتهاون فلما أعياها أمره دست له عجوزا تصدت له ازاء دار على طريقه الى المسجد وبيدها كتاب مختوم فلما مر بها قالت له ياسيدي أتحسن القراءة قال نعم قالت له هذا الكتاب وجهه الي ولدي وأحب أن تقرأه علي فقال لها نعم فلما فتح الكتاب قالت له ياسيدي ان لولدي زوجة وهي بأسطوان الدار فلو تفضلت بقراءته بين بابي الدار بحيث تسمعها فأجابها لذلك فلما توسط بين البابين غلقت العجوز الباب وخرجت المرأة وجواريها فتعلقن به وأدخلنه الى داخل الدار وراودته المرأة عن نفسه فلما رأى ان لاخلاص له قال لها اني حيث تريدين فأريني بيت الخلاء فأرته اياه فأدخل معه الماء وكانت عنده موسى حديدة فحلق لحيته وحاجبيه وخرج عليها فاستقبحت هيئته واستنكرت فعله وأمرت باخراجه وعصمه الله بذلك فبقي على هيئته فيما بعد وصار كل من يسلك طريقته يحلق رأسه ولحيته وحاجبيه

(كرامة لهذا الشيخ) ذكر انه لما قصد مدينة دمياط لزم مقبرتها وكان بها قاض يعرف بابن العميد فخرج يوما الى جنازة بعض الاعيان فرأى الشيخ جمال الدين بالمقبرة فقال له أنت الشيخ المبتدع فقال له وأنت القاضي الجاهل تمر بدابتك بين القبور وتعلم ان حرمة الانسان ميتا كحرمته حيا فقال له القاضي وأعظم من ذلك حلقك لحيتك فقال له اياي تعني وزعق الشيخ ثم رفع رأسه فاذا هو ذو لحية سوداء عظيمة فعجب القاضي ومن معه ونزل اليه عن بغلته ثم زعق ثانية فاذا هو ذو لحية بيضاء حسنة ثم زعق ثالثة ورفع رأسه فاذا هو بلا لحية كهيئته الاولى فقبل القاضي يده وتتلمذ له وبنى له زاوية حسنة وصحبه أيام حياته ثم مات الشيخ فدفن بزاويته ولما حضرت القاضي وفاته أوصى أن يدفن بباب الزاوية حتى يكون كل داخل الى زيارة الشيخ يطأ

قبره وبخارج دمياط المزار المعروف بشطا (بفتح الشين المعجمة والطاء المهملة) وهو ظاهر البركة يقصده أهل الديار المصرية وله أيام في السنة معلومة لذلك وبخارجها أيضا بين بساتينها موضع يعرف بالمنية فيه شيخ من الفضلاء يعرف بابن النعمان قصدت زاويته وبت عنده وكان بدمياط أيام اقامتي بها وال يعرف بالمحسني من ذوي الاحسان والفضل بنى مدرسة على شاطئ النيل بها كان نزولي في تلك الايام وتأكدت بيني وبينه مودة ثم سافرت الى مدينة فارس كور وهي مدينة على ساحل النيل (والكاف الذي في اسمها مضموم) ونزلت بخارجها ولحقني هنالك فارس وجهه الي الامير المحسني فقال لي ان الامير سأل عنك وعرف بسيرتك فبعث اليك بهذه النفقة ودفع الي جملة دراهم جزاه الله خيرا ثم سافرت الى مدينة أشمون الرمان (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان الشين المعجم) ونسبت الى الرمان لكثرته بها ومنها يحمل الى مصر وهي مدينة عتيقة كبيرة على خليج من خلج النيل ولها قنطرة خشب ترسو المراكب عندها فاذا كان العصر رفعت تلك الخشب وجازت المراكب صاعدة ومنحدرة وبهذه البلدة قاضي القضاة ووالي الولاة ثم سافرت عنها الى مدينة سمنود وهي على شاطئ النيل كثيرة المراكب حسنة الاسواق وبينها وبين المحلة الكبيرة ثلاثة فراسخ (وضبط اسمها بفتح السين المهمل والميم وتشديد النون وضمها وواو ودال مهمل) ومن هذه المدينة ركبت النيل مصعدا الى مصر ما بين مدائن وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض ولا يفتقر راكب النيل الى استصحاب الزاد لانه مهما أراد النزول بالشاطئ نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك والاسواق متصلة من مدينة الاسكندرية الى مصر ومن مصر الى مدينة اسوان من الصعيد ثم وصلت الى مدينة مصر هي أم البلاد وقرارة فرعون ذي الاوتاد ذات الاقاليم العريضة والبلاد الاريضة المتناهية في كثرة العمارة المتباهية بالحسن والنضارة مجمع الوارد والصادر ومحط رحل الضعيف والقادر وبها ما شئت من عالم وجاهل وجاد وهازل وحليم وسفيه ووضيع ونبيه وشريف ومشروف ومنكر ومعروف تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وامكانها شبابها يجد على طول العهد وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد قهرت قاهرتها الامم وتمكنت ملوكها نواصي العرب والعجم ولها خصوصية النيل التي جل خطرها وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها وأرضها مسيرة شهر لمجد السير كريمة التربة مؤنسة لذوي الغربة قال ابن جزي وفيها يقول الشاعر (طويل)

لعمرك ما مصر بمصر وانما * هي الجنة الدنيا لمن يتبصر
فأولادها الولدان والحور عينها * وروضتها الفردوس والنيل كوثر

وفيها

وفيها يقول ناصر الدين بن ناهض (رجز)

شاطئ مصر جنة * ما مثلها من بلد
لاسيما مذ زخرفت * بنيلها المطرد
وللرياح فوقه * سوابغ من زرد
مسرودة ما مسها * داود ها بمبرد
سائلة هواؤها * يرعد عاري الجسد
والفلك كالافلاك بين حادر ومصعد

(رجع) ويقال ان بمصر من السقائين على الجمال اثنى عشر ألف سقاء وان بها ثلاثين ألف مكار وان بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفا للسلطان والرعية تمر صاعدة الى الصعيد ومنحدرة الى الاسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة وهو مكان النزهة والتفرج وبه البساتين الكثيرة الحسنة وأهل مصر ذو طرب وسرور ولهو شاهدت بها مرة فرجة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده فزين كل أهل سوق سوقهم وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلى وثياب الحرير وبقوا على ذلك أياما

(ذكر مسجد عمرو بن العاص والمدارس والمارستان والزوايا)

ومسجد عمرو بن العاص مسجد شريف كبير القدر شهير الذكر تقام فيه الجمعة والطريق يعترضه من شرق الى غرب وبشرقه الزاوية حيث كان يدرس الامام أبو عبد الله الشافعي وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها وأما المارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه وقد أعد فيه من المرافق والادوية مالا يحصر ويذكر ان مجباه ألف دينار كل يوم وأما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق واحدتها خانقة والامراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم الاعاجم وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف ولكل زاوية شيخ وحارس وترتيب أمورهم عجيب ومن عوايدهم في الطعام انه يأتي خديم الزاوية الى الفقراء صباحا فيعين له كل واحد ما يشتهيه من الطعام فاذا اجتمعوا للاكل جعلوا لكل انسان خبزه ومرقه في أناء على حدة لا يشاركه فيه أحد وطعامهم مرتان في اليوم ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ومرتب شهري من ثلاثين درهما للواحد في الشهر الى عشرين ولهم الحلاوة من السكر في كل ليلة جمعة والصابون لغسل أثوابهم والاجرة لدخول الحمام والزيت للاستصباح وهم اعزاب وللمتزوجين زوايا على حدة ومن المشترط عليهم حضور الصلوات

الخمس والمبيت بالزاوية واجتماعهم بقبة داخل الزاوية ومن عوايدهم أن يجلس كل واحد
منهم على سجادة مختصة به واذا صلوا صلاة الصبح قرأوا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم
ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجزأة فيأخذ كل فقير جزأ ويختمون القرآن ويذكرون
ثم يقرأ القراء على عادة أهل المشرق ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر ومن عوايدهم مع
القادم انه يأتي باب الزاوية فيقف به مشدود الوسط وعلى كاهله سجادة وبيمناه العكاز
وبيسراه الابريق فيعلم البواب خديم الزاوية بمكانه فيخرج اليه ويسأله من أي البلاد أتى
وبأي الزوايا نزل في طريقه ومن شيخه فاذا عرف صحة قوله أدخله الزاوية وفرش له سجادته
في موضع يليق به وأراه موضع الطهارة فيجدد الوضوء ويأتي الى سجادته فيحل وسطه ويصلي
ركعتين ويصافح الشيخ ومن حضر ويقعد معهم ومن عوايدهم انهم اذا كان يوم الجمعة أخذ
الخادم جميع سجاجيدهم فيذهب بها الى المسجد ويفرشها لهم هنالك ويخرجون مجتمعين
ومعهم شيخهم فيأتون المسجد ويصلي كل واحد على سجادته فاذا فرغوا من الصلاة قرأوا
القرآن على عادتهم ثم ينصرفون مجتمعين الى الزاوية ومعهم شيخهم

(ذكر قرافة مصر ومزاراتها)

ولمصر القرافة العظيمة الشان في التبرك بها وقد جاء في فضلها أثر أخرجه القرطبي وغيره لأنها
من جملة الجبل المقطم الذي وعد الله أن يكون روضة من رياض الجنة وهم يبنون بالقرافة
القباب الحسنة ويجعلون عليها الحيطان فتكون كالدور ويبنون بها البيوت ويرتبون القراء
يقرأون ليلا ونهارا بالاصوات الحسان ومنهم من يبني الزاوية والمدرسة الى جانب التربة
ويخرجون في كل ليلة جمعة الى المبيت بها بأولادهم ونسائهم ويطوفون على المزارات الشهيرة
ويخرجون أيضا للمبيت بها ليلة النصف من شعبان ويخرج أهل الاسواق بصنوف المآكل
ومن المزارات الشريفة المشهد المقدس العظيم الشان حيث رأس الحسين بن علي عليهما
السلام وعليه رباط ضخم عجيب البناء على أبوابه حلق الفضة وصفائحها أيضا كذلك وهو
موفى الحق من الاجلال والتعظيم ومنها تربة السيدة نفيسة بنت زيد بن علي بن الحسين بن علي
عليهم السلام وكانت مجابة الدعوة مجتهدة في العبادة وهذه التربة أنيقة البناء مشرقة
الضياء عليها رباط مقصود ومنها تربة الامام أبي عبد الله محمد بن ادريس الشافعي رضي
الله عنه وعليها رباط كبير ولها جراية ضخمة وبها القبة الشهيرة البديعة الاتقان العجيبة
البنيان المتناهية الاحكام المفرطة السمو وسعتها أزيد من ثلاثين ذراعا وبقرافة مصر من
قبور العلماء والصالحين ما لا يضبطه الحصر وبها عدد جم من الصحابة وصدور السلف
والخلف رضي الله تعالى عنهم مثل عبد الرحمن بن القاسم وأشهب بن عبد العزيز وأصبغ

ابن

ابن الفرج وابني عبد الحكم وأبي القاسم بن شعبان وأبي محمد عبد الوهاب لكن ليس لهم بها اشتهار ولا يعرفهم الامن له بهم عناية والشافعي رضي الله عنه ساعده الجد في نفسه وأتباعه وأصحابه في حياته ومماته فظهر من أمره مصداق قوله (كامل)

الجد يدني كل أمر شاسع * والجد يفتح كل باب مغلق

(ذكر نيل مصر)

ونيل مصر يفضل أنهار الارض عذوبة مذاق واتساع قطر وعظم منفعة والمدن والقرى بضفتيه منتظمة ليس في المعمور مثلها ولا يعلم نهر يزدرع عليه ما يزدرع على النيل وليس في الارض نهر يسمى بحرا غيره قال الله تعالى فاذا خفت عليه فالقيه في اليم فسماه يما وهو البحر وفي الحديث الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وصل ليلة الاسراء الى سدرة المنتهى فاذا في أصلها أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان فسأل عنها جبريل عليه السلام فقال أما الباطنان ففي الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات وفي الحديث أيضا ان النيل والفرات وسيحان وجيحان كل من أنهار الجنة ومجرى النيل من الجنوب الى الشمال خلافا لجميع الانهار ومن عجائبه ان ابتداء زيادته في شدة الحر عند نقص الانهار وجفوفها وابتداء نقصه حين زيادة الانهر وفيضها ونهر السند مثله في ذلك وسيأتي ذكره وأول ابتداء زيادته في حزيران وهو يونيه فاذا بلغت زيادته ستة عشر ذراعا تم خراج السلطان فان زاد ذراعا كان الخصب في العام والصلاح التام فان بلغ ثمانية عشر ذراعا أضر بالضياع وأعقب الوباء وان نقص ذراعا عن ستة عشر نقص خراج السلطان وان نقص ذراعين استسقى الناس وكان الضرر الشديد والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار وهي النيل والفرات والدجلة وسيحون وجيحون وتماثلها أنهار خمسة أيضا نهر السند ويسمى بنج اب ونهر الهند ويسمى الكنك واليه تحج الهنود واذا حرقوا أمواتهم رموا برمادهم فيه ويقولون هو من الجنة ونهر الجون بالهند أيضا ونهر أتل بصحراء قفجق وعلى ساحله مدينة السرا ونهر السرو بأرض الخطا وعلى ضفته مدينة خان بالق ومنها ينحدر الى مدينة الخنسا ثم الى مدينة الزيتون بأرض الصين وسيذكر ذلك كله في مواضعه ان شاء الله والنيل يفترق بعد مسافة من مصر على ثلاثة أقسام ولا يعبر نهر منها الا في السفن شتاء وصيفا وأهل كل بلد لهم خلجان تخرج من النيل فاذا مد أترعها فافاضت على المزارع

(ذكر الاهرام والبرابي)

وهي من العجائب المذكورة على مر الدهور وللناس فيها كلام كثير وخوض في شأنها وأولية بنائها ويزعمون ان جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان أخذت عن هرمس الاول

الساكن بصعيد مصر الاعلى ويسمى خنوخ وهو ادريس عليه السلام وانه أول من تكلم في الحركات الفلكية والجواهر العلوية وأول من بنا الهياكل ومجد الله تعالى فيها وانه أنذر الناس بالطوفان وخاف ذهاب العلم ودروس الصنائع فبنى الاهرام والبرابي وصور فيها جميع الصنائع والآلات ورسم العلوم فيها لتبقى مخلدة ويقال ان دار العلم والملك بمصر مدينة منوف وهي على بريد من الفسطاط فلما بنيت الاسكندرية انتقل الناس اليها وصارت دار العلم والملك الى ان أتى الاسلام فاختط عمرو بن العاص رضى الله عنه مدينة الفسطاط فهى قاعدة مصر الى هذا العهد والاهرام بناء بالحجر الصلد المنحوت متناهى السمو مستدير متسع الاسفل ضيق الاعلى كالشكل المخروط ولا أبواب لها ولا تعلم كيفية بنائها ومما يذكر في شأنها ان ملكا من ملوك مصر قبل الطوفان رأى رؤيا هالته وأوجبت عنده انه بنى تلك الاهرام بالجانب الغربي من النيل لتكون مستودعا للعلوم ولجثة الملوك وانه سأل المنجمين هل يفتح منها موضع فأخبروه انها تفتح من الجانب الشمالى وعينوا له الموضع الذى تفتح منه ومبلغ الانفاق في فتحه فأمر ان يجعل بذلك الموضع من المال قدر ما أخبروه انه ينفق في فتحه واشتد في البناء فأتمه في ستين سنة وكتب عليها بنينا هذه الاهرام في ستين سنة فليهدمها من يريد ذلك في ستمائة سنة فان الهدم أيسر من البناء فلما أفضت الخلافة الى أمير المؤمنين المأمون أراد هدمها فأشار عليه بعض مشايخ مصر ان لا يفعل فلج في ذلك وأمر أن تفتح من الجانب الشمالى فكانوا يوقدون عليها النار ثم يرشونها بالخل ويرمونها بالمنجنيق حتى فتحت الثلمة التي بها الى اليوم ووجدوا بازاء النقب مالا أمر أمير المؤمنين بوزنه فحصر ما أنفق في النقب فوجدهما سواء فطال عجبه من ذلك ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعا

(ذكر سلطان مصر)

وكان سلطان مصر على عهد دخولى اليها الملك الناصر أبو الفتح محمد بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى وكان قلاوون يعرف بالالفى لان الملك الصالح اشتراه بألف دينار ذهبا وأصله من قفجق وللملك الناصر رحمه الله السيرة الكريمة والفضائل العظيمة وكفاه شرفا انتماؤه لخدمة الحرمين الشريفين ومايفعله في كل سنة من افعال البر التي تعين الحجاج من الجمال التي تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء وتحمل من تأخر وضعف عن المشى في الدربين المصرى والشامى وبنى زاوية عظيمة بسرياقص خارج القاهرة لكن الزاوية التي بناها مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين وكهف الفقراء والمساكين خليفة الله في أرضه القائم من الجهاد بنفله وفرضه أبو عنان أيد الله أمره وأظهره وسنى له الفتح المبين ويسره بخارج حضرته العلية المدينة البيضاء حرسها الله لانظير لها في المعمور في اتقان الوضع وحسن

البناء

البناء والنقش فى الجص بحيث لا يقدر أهل المشرق على مثله وسيأتى ذكر ما عمره أيده الله من المدارس والمارستان والزوايا ببلاده حرسها الله وحفظها بدوام ملكه

(ذكر بعض أمراء مصر)

منهم ساقى الملك الناصر وهو الامير بكتمور (وضبط اسمه بضم الباء الموحدة وكاف مسكن وتاء معلوة مضمومة وآخره راء) وهو الذى قتله الملك الناصر بالسم وسيذكر ذلك ومنهم نائب الملك الناصر ارغون الدوادار وهو الذى يلى بكتمور فى المنزلة (وضبط اسمه بفتح الهمزة واسكان الراء وضم الغين المعجمة) ومنهم طشط المعروف بحمص أخضر (واسمه بطاءين مهملين مضمومين بينهما شين معجم) وكان من خيار الامراء وله الصدقات الكثيرة على الايتام من كسوة ونفقة واجرة لمن يعلمهم القرآن وله الاحسان العظيم للحرافيش وهم طائفة كبيرة أهل صلابة وجاه ودعارة وسجنه الملك الناصر مرة فاجتمع من الحرافيش آلاف ووقفوا بأسفل القلعة ونادوا بلسان واحد يا أعرج النحس يعنون الملك الناصر أخرجه فاخرجه من محبسه وسجنه مرة أخرى ففعل الايتام مثل ذلك فأطلقه ومنهم وزير الملك الناصر يعرف بالجمالى بفتح الجيم ومنهم بدر الدين بن البابه ومنهم جمال الدين نائب الكرك ومنهم تقزدمور (واسمه بضم التاء المعلوة وضم القاف وزاء مسكن ثم دال مضموم وميم مثله وآخره راء) ودمور بالتركية الحديد ومنهم بهادور الحجازى (واسمه بفتح الباء الموحدة وضم الدال المهمل وآخره راء) ومنهم قوصون (واسمه بفتح القاف وصاد مهمل مضموم) ومنهم بشتك (واسمه بفتح الباء الموحدة واسكان الشين المعجم وتاء معلوة مفتوحة) وكل هؤلاء يتنافسون فى افعال الخيرات وبناء المساجد والزوايا ومنهم ناظر جيش الملك الناصر وكاتبه القاضى فخر الدين القبطى وكان نصرانيا من القبط فأسلم وحسن اسلامه وله المكارم العظيمة والفضائل التامة ودرجته من أعلى الدرجات عند الملك الناصر وله الصدقات الكثيرة والاحسان الجزيل ومن عادته ان يجلس عشى النهار فى مجلس له باسطوان داره على النيل ويليه المسجد فاذا احضر المغرب صلى فى المسجد وعاد الى مجلسه وأوتى بالطعام ولا يمنع حينئذ أحد من الدخول كائنا من كان فمن كان ذا حاجة تكلم فيها فقضاها له ومن كان طالب صدقة أمر مملوكا له يدعى بدر الدين واسمه لؤلؤ بان يصحبه الى خارج الدار وهنالك خازنه معه صرر الدراهم فيعطيه ما قدر له ويحضر عنده فى ذلك الوقت الفقهاء ويقرأ بين يديه كتاب البخارى فاذا صلى العشاء الاخيرة انصرف الناس عنه

(ذكر القضاة بمصر فى عهد دخولى اليها)

فمنهم قاضى القضاة الشافعية وهو أعلاهم منزلة وأكبرهم قدرا واليه ولاية القضاة بمصر

وعزلهم وهو القاضى الامام العالم بدر الدين بن جماعة وابنه عز الدين هو الان متولى ذلك ومنهم قاضى القضاة المالكية الامام الصالح تقى الدين الاخنائى ومنهم قاضى القضاة الحنفية الامام العالم شمس الدين الحريرى وكان شديد السطوة لا تأخذه فى الله لومة لائم وكانت الامراء تخافه ولقد ذكر لى ان الملك الناصر قال يوما لجلسائه انى لا أخاف من أحد الا من شمس الدين الحريرى ومنهم قاضى القضاة الحنبلية ولا أعرفه الان الا انه كان يدعى بعز الدين

(حكاية)

كان الملك الناصر رحمه الله يقعد للنظر فى المظالم ورفع قصص المشتكين كل يوم اثنين وخميس ويقعد القضاة الاربعة عن يساره وتقرأ القصص بين يديه ويعين من يسأل صاحب القصة عنها وقد سلك مولانا أمير المؤمنين ناصر الدين أيده الله فى ذلك مسلكا لم يسبق اليه ولا مزيد فى العدل والتواضع عليه وهو سؤاله بذاته الكريمة لكل متظلم وعرضه بين يديه المستقيمة أبى الله ان يحضرها سواه أدام الله أيامه وكان رسم القضاة المذكورين أن يكون أعلاهم منزلة فى الجلوس قاضى الشافعية ثم قاضى الحنفية ثم قاضى المالكية ثم قاضى الحنبلية فلما توفى شمس الدين الحريرى وولى مكانه برهان الدين بن عبد الحق الحنفى أشار الامرا على الملك الناصر بأن يكون مجلس المالكى فوقه وذكروا ان العادة جرت بذلك قديما اذ كان قاضى المالكية زين الدين بن مخلوف يلى قاضى الشافعية تقى الدين بن دقيق العيد فأمر الملك الناصر بذلك فلما علم به قاضى الحنفية غاب عن شهود المجلس أنفة من ذلك فأنكر الملك الناصر مغيبه وعلم ما قصده فأمر باحضاره فلما مثل بين يديه أخذ الحاجب بيده وأقعده حيث نفذ أمر السلطان مما يلى قاضى المالكية واستمر حاله على ذلك

(ذكر بعض علماء مصر وأعيانها)

فمنهم شمس الدين الاصبهانى امام الدنيا فى المعقولات ومنهم شرف الدين الزواوى المالكى ومنهم برهان الدين بن بنت الشاذلى نائب قاضى القضاة بجامع الصالح ومنهم ركن الدين بن القوبع التونسى من الائمة فى المعقولات ومنهم شمس الدين بن عدلان كبير الشافعية ومنهم بهاء الدين بن عقيل فقيه كبير ومنهم أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الغرناطى وهو أعلمهم بالنحو ومنهم الشيخ الصالح بدر الدين عبد الله المنوفى ومنهم برهان الدين الصفاقسى ومنهم قوام الدين الكرمانى وكان سكناه بأعلى سطح الجامع الازهر وله جماعة من الفقهاء والقراء يلازمونه ويدرس فنون العلم ويفتى فى المذاهب ولباسه عباءة صوف خشنة وعمامة صوف سوداء ومن عادته أن يذهب بعد صلاة العصر الى مواضع الفرج

والنزهات

والنزاهات منفردا عن أصحابه ومنهم السيد الشريف شمس الدين ابن بنت الصاحب تاج الدين بن حناء ومنهم شيخ شيوخ الفقراء بديار مصر مجد الدين الاقصرائى نسبة الى اقصرا من بلاد الروم ومسكنه سرياقص ومنهم الشيخ جمال الدين الحويزائى والحويزا على مسيرة ثلاثة أيام من البصرة ومنهم نقيب الاشراف بديار مصر السيد الشريف المعظم بدر الدين الحسينى من كبار الصالحين ومنهم وكيل بيت المال المدرس بقبة الامام الشافعى مجد الدين بن حرمى ومنهم المحتسب بمصر نجم الدين السهرتى من كبار الفقهاء وله بمصر رياسة عظيمة وجاه

(ذكر يوم المحمل بمصر)

وهو يوم دوران الجمل يوم مشهود وكيفية ترتيبهم فيه انه يركب قضاة القضاة الاربعة ووكيل بيت المال والمحتسب وقد ذكرنا جميعهم ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة ويقصدون جميعا باب القلعة دار الملك الناصر فيخرج اليهم المحمل على جمل وامامه الامير المعين لسفر الحجاز فى تلك السنة ومعه عسكره والسقاؤون على جمالهم ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ثم يطوفون بالمحمل وجميع من ذكرنا معه بمدينتى القاهرة ومصر والحداة يحدون امامهم ويكون ذلك فى رجب فعند ذلك تهيج العزمات وتنبعث الاشواق وتتحرك البواعث ويلقى الله تعالى العزيمة على الحج فى قلب من يشاء من عباده فيأخذون فى التأهب لذلك والاستعداد ثم كان سفرى من مصر على طريق الصعيد برسم الحجاز الشريف فبت ليلة خروجى بالرباط الذى بناه الصاحب تاج الدين بن حناء بدير الطين وهو رباط عظيم بناه على مفاخر عظيمة وآثار كريمة أودعها فيه وهى قطعة من قصعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والميل الذى كان يكتحل به والدرفش وهو الاشفا الذى كان يخصف به نعله ومصحف أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى بخط يده رضى الله عنه ويقال ان الصاحب اشترى ما ذكرناه من الآثار الكريمة النبوية بمائة ألف درهم وبنى الرباط وجعل فيه الطعام للوارد والصادر والجراية لخدام تلك الآثار الشريفة نفعه الله تعالى بقصده المبارك ثم خرجت من الرباط المذكور ومررت بمنية القائد وهى بلدة صغيرة على ساحل النيل ثم سرت منها الى مدينة بوش (وضبطها بضم الباء الموحدة وآخرها شين معجم) وهذه المدينة أكثر بلاد مصر كتانا ومنها يجلب الى سائر الديار المصرية والى افريقية ثم سافرت منها فوصلت الى مدينة دلاص (وضبط اسمها بفتح الدال المهمل وآخره صاد مهمل) وهذه المدينة كثيرة الكتان أيضا كمثل التى ذكرناقبلها ويحمل أيضا منها الى ديار مصر وافريقية ثم سافرت منها الى مدينة ببا (وضبط اسمها بباءين موحدتين أولاهما مكسورة) ثم سافرت منها الى مدينة البهنسة وهى مدينة كبيرة وبساتينها كثيرة (وضبط اسمها بفتح الموحدة واسكان

الهاء وفتح النون والسين) وتصنع بهذه المدينة ثياب الصوف الجيدة وممن لقيته بها قاضيها العالم شرف الدين وهو كريم النفس فاضل ولقيت بها الشيخ الصالح أبا بكر العجمى ونزلت عنده وأضافني ثم سافرت منها الى مدينة منية ابن خصيب وهى مدينة كبيرة الساحة متسعة المساحة مبنية على شاطئ النيل وحق حقيق لها على بلاد الصعيد التفضيل بها المدارس والمشاهد والزوايا والمساجد وكانت فى القديم منية لخصيب عامل مصر

(حكاية خصيب)

يذكر ان أحد الخلفاء من بنى العباس رضى الله عنهم غضب على أهل مصر فآلى أن يولى عليهم أحقر عبيده وأصغرهم شأنا قصد الارذالهم والتنكيل بهم وكان خصيب أحقرهم اذ كان يتولى تسخين الحمام فخلع عليه وأمره على مصر وظنه انه يسير فيهم سيرة سوء ويقصدهم بالاذاية حسبما هو المعهود ممن ولى عن غير عهد بالعز فلما استقر خصيب بمصر سار فى أهلها أحسن سيرة وشهر بالكرم والايثار فكان أقارب الخلفاء وسواهم يقصدونه فيجزل العطاء لهم ويعودون الى بغداد شاكرين لما أولاهم وان الخليفة افتقد بعض العباسيين وغاب عنه مدة ثم أتاه فسأله عن مغيبه فأخبره انه قصد خصيبا وذكر له ما أعطاه خصيب وكان عطاء جزيلا فغضب الخليفة وأمر بسمل عينى خصيب واخراجه من مصر الى بغداد وان يطرح فى أسواقها فلما ورد الامر بالقبض عليه حيل بينه وبين دخول منزله وكانت بيده ياقوتة عظيمة الشان فخبأها عنده وخاطها فى ثوب له ليلا وسملت عيناه وطرح فى أسواق بغداد فمر به بعض الشعراء فقال له يا خصيب انى كنت قصدتك من بغداد الى مصر مادحا لك بقصيدة فوافقت انصرافك عنها وأحب أن تسمعها فقال كيف بسماعها وأنا على ما تراه فقال انما قصدى سماعك لها وأما العطاء فقد أعطيت الناس وأجزلت جزاك الله خيرا قال فافعل فانشده

(كامل) أنت الخصيب وهذه مصر * فتدفقا فكلاكما بحر

فلما أتى على آخرها قال له افتق هذه الخياطة ففعل ذلك فقال له خذ الياقوتة فأبى فأقسم عليه أن يأخذها فأخذها وذهب بها الى سوق الجوهريين فلما عرضها عليهم قالوا له ان هذه لا تصلح الا للخليفة فرفعوا أمرها الى الخليفة فأمر الخليفة باحضار الشاعر واستفهمه عن شان الياقوتة فأخبره بخبرها فتأسف على ما فعله بخصيب وأمر بمثوله بين يديه وأجزل له العطاء وحكمه فيما يريد فرغب ان يعطيه هذه المنية ففعل ذلك وسكنها خصيب الى أن توفى وأورثها عقبه الى ان انقرضوا وكان قاضى هذه المنية أيام دخولى اليها فخر الدين النويرى المالكى وواليها شمس الدين أمير خير كريم دخلت يوما الحمام بهذه البلدة فرأيت الناس بها لا يستترون فعظم ذلك علىّ وأتيته فأعلمته بذلك فأمرنى أن لا ابرح وأمر باحضار المكترين للحمامات

وكتبت عليهم العقود انه متى دخل أحد الحمام دون ميزر فانهم يؤاخذون على ذلك واشتد عليهم أعظم الاشتداد ثم انصرفت عنه وسافرت من منية ابن خصيب الى مدينة منلوى وهى صغيرة مبنية على مسافة ميلين من النيل (وضبط اسمها بفتح الميم واسكان النون وفتح اللام وكسر الواو) وقاضيها الفقيه شرف الدين الدميرى (بفتح الدال المهمل وكسر الميم الشافعى وكبارها قوم يعرفون ببنى فضيل بنى أحدهم جامعا أنفق فيه صميم ماله وبهذه المدينة احدى عشرة معصرة للسكر ومن عوايدهم انهم لا يمنعون فقيرا من دخول معصرة منها فيأتى الفقير بالخبزة الحارة فيطرحها فى القدر التى يطبخ السكر فيها ثم يخرجها وقد امتلأت سكرا فينصرف بها وسافرت من منلوى المذكورة الى مدينة منفلوط وهى مدينة حسن رواؤها مؤنق بناؤها على ضفة النيل شهيرة البركة (وضبط اسمها بفتح الميم واسكان النون وفتح الفاء وضم اللام وآخرها طاء مهمل)

(حكاية)

أخبرنى أهل هذه المدينة ان الملك الناصر رحمه الله أمر بعمل منبر عظيم محكم الصنعة بديع الانشاء برسم المسجد الحرام زاده الله شرفا وتعظيما فلما تم عمله أمر أن يصعد به فى النيل ليجاز الى بحر جدة ثم الى مكة شرفها الله فلما وصل المركب الذى احتمله الى منفلوط وحاذى مسجدها الجامع وقف وامتنع من الجرى مع مساعدة الريح فعجب الناس من شأنه أشد العجب وأقاموا أياما لا ينهض بهم المركب فكتبوا بخبره الى الملك الناصر رحمه الله فأمر أن يجعل ذلك المنبر بجامع مدينة منفلوط ففعل ذلك وقد عاينته بها ويصنع بهذه المدينة شبه العسل يستخرجونه من القمح ويسمونه النيدا يباع بأسواق مصر وسافرت من هذه المدينة الى مدينة أسيوط وهى مدينة رفيعة أسواقها بديعة (وضبط اسمها بفتح الهمزة والسين المهملة والياء آخر الحروف وواو وطاء مهملة) وقاضيها شرف الدين بن عبد الرحيم الملقب بحاصل ما ثم لقب شهر به وأصله ان القضاة بديار مصر والشام بأيديهم الاوقاف والصدقات لابناء السبيل فاذا أتى فقير لمدينة من المدن قصد القاضى بها فيعطيه ما قدر له فكان هذا القاضى اذا أتاه الفقير يقول له حاصل ماثم اى لم يبق من المال الحاصل شئ فلقب بذلك ولزمه وبها من المشايخ الفضلاء الصالح شهاب الدين ابن الصباغ أضافنى بزاويته وسافرت منها الى مدينة اخميم وهى مدينة عظيمة أصلية البنيان عجيبة الشان بها البربى المعروف باسمها وهو مبنى بالحجارة فى داخله نقوش وكتابة للاوائل لا تفهم فى هذا العهد وصور الافلاك والكواكب ويزعمون انها بنيت والنسر الطائر ببرج العقرب وبها صور الحيوانات وسواها وعند الناس فى هذه الصور أكاذيب لا يعرج عليها وكان باخميم رجل يعرف بالخطيب أمر على هدم

بعض هذه البرابى وابتنى بحجارتها مدرسة وهو رجل موسر معروف باليسار ويزعم حساده انه استفاد ما بيده من المال من ملازمته لهذه البرابى ونزلت من هذه المدينة بزاوية الشيخ أبى العباس بن عبد الظاهر وبها تربة جده عبد الظاهر وله من الاخوة ناصر الدين ومجد الدين وواحد الدين ومن عادتهم ان يجتمعوا جميعا بعد صلاة الجمعة ومعهم الخطيب نور الدين المذكور واولاده وقاضى المدينة الفقيه مخلص وسائر وجوه أهلها فيجتمعون للقرآن ويذكرون الله الى صلاة العصر فاذا صلوها قرأوا سورة الكهف ثم انصرفوا وسافرت من أخميم الى مدينة هو مدينة كبيرة بساحل النيل (وضبطها بضم الهاء) نزلت منها بمدرسة تقى الدين ابن السراج ورأيتهم يقرأون بها فى كل يوم بعد صلاة الصبح حزبا من القرآن ثم يقرأون أوراد الشيخ أبى الحسن الشاذلى وحزب البحر وبهذه المدينة السيد الشريف أبو محمد عبد الله الحسنى من كبار الصالحين

(كرامة له) دخلت الى هذا الشريف متبركا برؤيته والسلام عليه فسألنى عن قصدى فاخبرته انى أريد حج البيت الحرام على طريق جده فقال لى لا يحصل لك هذا فى هذا الوقت فارجع وانما تحج أول حجة على الدرب الشامى فانصرفت عنه ولم اعمل على كلامه ومضيت فى طريقى حتى وصلت الى عيذاب فلم يتمكن لى السفر فعدت راجعا الى مصر ثم الى الشام وكان طريقى فى أول حجاتى على الدرب الشامى حسبما أخبرنى الشريف نفع الله به ثم سافرت الى مدينة قنا وهى صغيرة حسنة الاسواق (واسمها بقاف مكسورة ونون) وبها قبر الشريف الصالح الولى صاحب البراهين العجيبة والكرامات الشهيرة عبد الرحيم القناوى رحمة الله عليه ورأيت بالمدرسة السيفية منها حفيده شهاب الدين أحمد وسافرت من هذا البلد الى مدينة قوص (وهى بضم القاف) مدينة عظيمة لها خيرات عميمة بساتينها مورقة واسواقها مونقة ولها المساجد الكثيرة والمدارس الاثيرة وهى منزل ولاة الصعيد وبخارجها زاوية الشيخ شهاب الدين بن عبد الغفار وزاوية الافرم وبها اجتماع الفقرا المتجردين فى شهر رمضان من كل سنة ومن علمائها القاضى بها جمال الدين ابن السديد والخطيب بها فتح الدين ابن دقيق العيد أحد الفصحاء البلغاء الذين حصل لهم السبق فى ذلك لم أر من يماثله الا خطيب المسجد الحرام بهاء الدين الطبرى وخطيب مدينة خوارزم حسام الدين المشاطى وسيقع ذكرهما ومنهم الفقيه بهاء الدين بن عبد العزيز المدرس بمدرسة المالكية ومنهم الفقيه برهان الدين ابراهيم الاندلسى له زاوية عالية ثم سافرت الى مدينة الاقصر (وضبط اسمها بفتح الهمزة وضم الصاد المهمل) وهى صغيرة حسنة وبها قبر الصالح العابد أبى الحجاج الاقصرى وعليه زاوية وسافرت منها الى مدينة ارمنت (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون الراء وميم

مفتوحة

مفتوحة ونون ساكنة وتاء معلوة) وهى صغيرة ذات بساتين مبنية على ساحل النيل أضافنى قاضيها وأنسيت اسمه ثم سافرت منها الى مدينة أسنا (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان السين المهمل ونون) مدينة عظيمة متسعة الشوارع ضخمة المنافع كثيرة الزوايا والمدارس والجوامع لها أسواق حسان وبساتين ذات أفنان قاضيها قاضى القضاة شهاب الدين بن مسكين أضافنى وأكرمنى وكتب الى نوابه باكرامى وبها من الفضلاء الشيخ الصالح نور الدين على والشيخ الصالح عبد الواحد المكناسى وهو على هذا العهد صاحب زاوية بقوص ثم سافرت منها الى مدينة أدفو (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان الدال المهمل وضم الفاء) وبينها وبين مدينة اسنا مسيرة يوم وليلة فى صحرا ثم جزنا النيل من مدينة ادفو الى مدينة العطوانى ومنها اكترينا الجمال وسافرنا مع طائفة من العرب تعرف بدغيم (بالغين المعجمة) فى صحراء لا عمارة بها الا انها آمنة السبل وفى بعض منازلها نزلنا حميثرا حيث قبر ولى الله ابى الحسن الشاذلى وقد ذكرنا كرامته فى اخباره انه يموت بها وأرضها كثيرة الضباع ولم نزل ليلة مبيتنا بها نحارب الضباع ولقد قصدت رحلى ضبع منها فخرقت عدلا كان به واجترت منه جراب تمر وذهبت به فوجدناه لما اصبحنا ممزقا مأكولا معظم ما كان فيه ثم لما سرنا خمسة عشر يوما وصلنا الى مدينة عيذاب وهى مدينة كبيرة كثيرة الحوت واللبن ويحمل اليها الزرع والتمر من صعيد مصر وأهلها البجاة وهم سود الالوان يلتحفون ملاحف صفرا ويشدون على رؤسهم عصائب يكون عرض العصابة منها أصبعا وهم لا يورثون البنات وطعامهم البان الابل ويركبون المهارى ويسمونها الصهب وثلث المدينة للملك الناصر وثلثاها الملك البجاة وهو يعرف بالحدربى (بفتح الحاء المهمل واسكان الدال وراء مفتوحة وباء موحدة وياء) وبمدينة عيذاب مسجد ينسب للقسطلانى شهير البركة رأيته وتبركت به وبها الشيخ الصالح موسى والشيخ المسن محمد المراكشى زعم انه ابن المرتضى ملك مراكش وان سنه خمس وتسعون سنة ولما وصلنا الى عيذاب وجدنا الحدربى سلطان البجاة يحارب الاتراك وقد خرق المراكب وهرب الترك امامه فتعذر سفرنا فى البحر فبعنا ما كنا أعددناه من الزاد وعدنا مع العرب الذين اكترينا الجمال منهم الى صعيد مصر فوصلنا الى مدينة قوص التى تقدم ذكرها وانحدرنا منها فى النيل وكان اوان مده فوصلنا بعد مسيرة ثمان من قوص الى مصر فبت بمصر ليلة واحدة وقصدت بلاد الشام وذلك فى منتصف شعبان سنة ست وعشرين فوصلت الى مدينة بلبيس (وضبط اسمها بفتح الموحدة الاولى وفتح الثانية ثم ياء آخر الحروف مسكنة وسين مهملة) وهى مدينة كبيرة ذات بساتين كثيرة ولم الق بها من يجب ذكره ثم وصلت الى الصالحية ومنها دخلنا الرمال ونزلنا منازلها مثل السوادة والورادة والمطيلب والعريش والخروبة وبكل

منزل منها فندق وهم يسمونه الخان ينزله المسافرون بدوابهم وبخارج كل خان ساقية للسبيل وحانوت يشترى منها المسافر ما يحتاجه لنفسه ودابته ومن منازلها قطيا المشهورة وهى (بفتح القاف وسكون الطاء وياء آخر الحروف مفتوحة وألف) والناس يبدلون ألفها هاء تأنيث وبها تؤخذ الزكاة من التجار وتفتش أمتعتهم ويبحث عما لديهم أشد البحث وفيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود ومجباها فى كل يوم ألف دينار من الذهب ولا يجوز عليها أحد من الشأم الا ببراءة من مصر ولا الى مصر الا ببراءة من الشام احتياطا على أموال الناس وتوقيا من الجواسيس العراقيين وطريقها فى ضمان العرب قد وكلوا بحفظه فاذا كان الليل مسحوا على الرمل لا يبقى به أثر ثم يأتى الامير صباحا فينظر الى الرمل فان وجد به اثرا طالب العرب باحضار مؤثره فيذهبون فى طلبه فلا يفوتهم فيأتون به الامير فيعاقبه بما شاء وكان بها فى عهد وصولى اليها عز الدين استاذ الدار اقارى من خيار الامراء أضافنى وأكرمنى واباح الجواز لمن كان معى وبين يديه عبد الجليل المغربى الوقاف وهو يعرف المغاربة وبلادهم فيسأل من ورد منهم من أى البلاد هو لئلا يلبس عليهم فان المغاربة لا يعترضون فى جوازهم على قطيا ثم سرنا حتى وصلنا الى مدينة غزة وهى اول بلاد الشام مما يلى مصر متسعة الاقطار كثيرة العمارة حسنة الاسواق بها المساجد العديدة ولا سور عليها وكان بها مسجد جامع حسن والمسجد الذى تقام الآن به الجمعة فيها بناه الامير المعظم الجاولى وهو انيق البناء محكم الصنعة ومنبره من الرخام الابيض وقاضى غزة بدر الدين السلختى الحورانى ومدرسها علم الدين بن سالم وبنو سالم كبراء هذه المدينة ومنهم شمس الدين قاضى القدس ثم سافرت من غزة الى مدينة الخليل صلى الله على نبينا وعليه وسلم تسليما وهى مدينة صغيرة الساحة كبيرة المقدار مشرقة الانوار حسنة المنظر عجيبة المخبر فى بطن واد ومسجدها انيق الصنعة محكم العمل بديع الحسن سامى الارتفاع مبنى بالصخر المنحوت فى احدى اركانه صخرة أحد اقطارها سبعة وثلاثون شبرا ويقال ان سليمان عليه السلام امر الجن ببنائه وفى داخل المسجد الغار المكرم المقدس فيه قبر ابراهيم واسحاق ويعقوب صلوات الله على نبينا وعليهم ويقابلها قبور ثلاثة هى قبور ازواجهم وعن يمين المنبر بلصق جدار القبلة موضع يهبط منه على درج رخام محكمة العمل الى مسلك ضيق يفضى الى ساحة مفروشة بالرخام فيها صور القبور الثلاثة ويقال انها محاذية لها وكان هنالك مسلك الى الغار المبارك وهو الآن مسدود وقد نزلت بهذا الموضع مرات ومما ذكره اهل العلم دليلا على صحة كون القبور الثلاثة الشريفة هنالك مانقلته من كتاب على بن جعفر الرازى الذى سماه المسفر للقلوب عن صحة قبر ابراهيم واسحاق ويعقوب أسند فيه الى أبى هريرة قال قال رسول الله

صلى

صلى الله عليه وسلم لما أسرى بى الى بيت المقدس مر بى جبريل على قبر ابراهيم فقال انزل فصل ركعتين فان هنا قبر أبيك ابراهيم ثم مر بى على بيت لحم وقال انزل فصل ركعتين فان هنا ولد أخوك عيسى عليه السلام ثم أتى بى الى الصخرة وذكر بقية الحديث ولما لقيت بهذه المدينة المدرس الصالح المعمر الامام الخطيب برهان الدين الجعبرى أحد الصلحاء المرضيين والائمة المشتهرين سألته عن صحة كون قبر الخليل عليه السلام هنالك فقال لى كل من لقيته من أهل العلم يصححون ان هذه القبور قبور ابراهيم واسحاق ويعقوب على نبينا وعليهم السلام وقبور زوجاتهم ولا يطعن فى ذلك الا اهل البدع وهو نقل الخلف عن السلف لا يشك فيه وذكران بعض الائمة دخل الى هذا الغار ووقف عند قبر سارة فدخل شيخ فقال له أى هذه القبور هو قبر ابراهيم فاشار له الى قبره المعروف ثم دخل شاب فسأله كذلك فاشار له اليه ثم دخل صبى فسأله أيضا فاشار له اليه فقال الفقيه اشهد ان هذا قبر ابراهيم عليه السلام لا شك ثم دخل الى المسجد فصلى به وارتحل من الغد وبداخل هذا المسجد أيضا قبر يوسف عليه السلام وبشرقى حرم الخليل تربة لوط عليه السلام وهى على تل مرتفع يشرف منه غور الشأم وعلى قبره بنية حسنة وهو فى بيت منها حسن البناء مبيض ولا ستور عليه وهنالك بحيرة لوط وهى اجاج يقال انها موضع ديار قوم لوط وبمقربة من تربة لوط مسجد اليقين وهو على تل مرتفع له نور واشراق ليس لسواه ولا يجاوره الا دار واحدة يسكنها قيمه وفى المسجد بمقربة من بابه موضع منخفض فى حجر صلد تدهى فيه صورة محراب لا يسع الا مصليا واحدا ويقال ان ابراهيم سجد فى ذلك الموضع شكرا لله تعالى عند هلاك قوم لوط فتحرك موضع سجوده وساخ فى الارض قليلا وبالقرب من هذا المسجد مغارة فيها قبر فاطمة بنت الحسين بن على عليهما السلام وبأعلى القبر واسفله لوحان من الرخام فى احدهما مكتوب منقوش بخط بديع بسم الله الرحمن الرحيم لله العزة والبقاء وله ماذرأ وبرأ وعلى خلقه كتب الفناء وفى رسول الله أسوة هذا قبر ام سلمة فاطمة بنت الحسين رضى الله عنه وفى اللوح الآخر منقوش صنعه محمد ابن أبى سهل النقاش بمصر وتحت ذلك هذه الابيات (بسيط)

أسكنت من كان فى الاحشاء مسكنه * بالرغم منى بين الترب والحجر
يا قبر فاطمة بنت ابن فاطمة * بنت الائمة بنت الانجم الزهر
يا قبر ما فيك من دين ومن ورع * ومن عفاف ومن صون ومن خفر

ثم سافرت من هذه المدينة الى القدس فزرت فى طريقى اليه تربة يونس عليه السلام وعليها بنية كبيرة ومسجد وزرت أيضا بيت لحم موضع ميلاد عيسى عليه السلام وبه اثر جذع النخلة وعليه عمارة كثيرة والنصارى يعظمونه أشد التعظيم ويضيفون من نزل به ثم وصلنا الى بيت

المقدس شرفه الله ثالث المسجدين الشريفين فى رتبة الفضل ومصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ومعرجه الى السماء والبلدة كبيرة منيفة مبنية بالصخر المنحوت وكان الملك الصالح الفاضل صلاح الدين بن أيوب جزاه الله عن الاسلام خيرا لما فتح هذه المدينة هدم بعض سورها ثم استنقض الملك الظاهر هدمه خوفا ان يقصدها الروم فيمتنعوا بها ولم يكن بهذه المدينة نهر فيما تقدم وجلب لها الماء فى هذا العهد الامير سيف الدين تنكيز أمير دمشق

(ذكر المسجد المقدس)

وهو من المساجد العجيبة الرائقة الفائقة الحسن يقال انه ليس على وجه الارض مسجد أكبر منه وان طوله من شرق الى غرب سبعمائة واثنتان وخمسون ذراعا بالذراع المالكية وعرضه من القبلة الى الجوف اربعمائة ذراع وخمس وثلاثون ذراعا وله أبواب كثيرة فى جهاته الثلاث وأمّا الجهة القبلية منه فلا أعلم بها الا بابا واحدا وهو الذى يدخل منه الامام والمسجد كله فضاء غير مسقف الا المسجد الاقصى فهو مسقف فى النهاية من احكام العمل واتقان الصنعة مموه بالذهب والاصبغة الرائقة وفى المسجد مواضع سواه مسقفة

(ذكر قبة الصخرة)

وهى من أعجب المبانى وأتقنها وأغربها شكلا قد توفر حظها من المحاسن وأخذت من كل بديعة بطرف وهى قائمة على نشز فى وسط المسجد يصعد اليها فى درج رخام ولها أربعة أبواب والدائر بها مفروش بالرخام أيضا محكم الصنعة وكذلك داخلها وفى ظاهرها وباطنها من أنواع الزواقة ورائق الصنعة ما يعجز الواصف وأكثر ذلك مغشى بالذهب فهى تتلألأ نورا وتلمع لمعان البرق يحار بصر متأملها فى محاسنها ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها وفى وسط القبة الصخرة الكريمة التى جاء ذكرها فى الآثار فان النبى صلى الله عليه وسلم عرج منها الى السماء وهى صخرة صماء ارتفاعها نحو قامة وتحتها مغارة فى مقدار بيت صغير ارتفاعها نحو قامة أيضا ينزل اليها على درج وهنالك شكل محراب وعلى الصخرة شباكان اثنان محكما العمل يغلقان عليها احدهما وهو الذى يلى الصخرة من حديد بديع الصنعة والثانى من خشب وفى القبة درقة كبيرة من حديد معلقة هنالك والناس يزعمون انها درقة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه

(ذكر بعض المشاهد المباركة بالقدس الشريف)

فمنها بعدوة الوادى المعروف بوادى جهنم فى شرقى البلد على تل مرتفع هنالك بنية يقال انها مصعد عيسى عليه السلام الى السماء ومنها أيضا قبر رابعة البدوية منسوبة الى البادية وهى خلاف رابعة العدوية الشهيرة وفى بطن الوادى المذكور كنيسة يعظمها النصارى ويقولون ان قبر مريم عليها السلام بها وهنالك أيضا كنيسة أخرى معظمة يحجها النصارى وهى التى

يكذبون

يكذبون عليها ويعتقدون ان قبر عيسى عليه السلام بها وعلى كل من يحجها ضريبة معلومة للمسلمين وضروب من الاهانة يتحملها على رغم أنفه وهنالك موضع مهد عيسى عليه السلام يتبرك به

(ذكر بعض فضلاء القدس)

فنهم قاضيه العالم شمس الدين محمد بن سالم الغزى (بفتح الغين) وهو من أهل غزة وكبرائها ومنهم خطيبه الصالح الفاضل عماد الدين النابلسى ومنهم المحدث المفتى شهاب الدين الطبرى ومنهم مدرس المالكية وشيخ الخانقاة الكريمة أبو عبد الله محمد بن مثبت الغرناطى نزيل القدس ومنهم الشيخ الزاهد أبو على حسن المعروف بالمحجوب من كبار الصالحين ومنهم الشيخ الصالح العابد كمال الدين المراغى ومنهم الشيخ الصالح العابد أبو عبد الرحيم عبد الرحمن بن مصطفى من أهل أرزالروم وهو من تلامذة تاج الدين الرفاعى صحبته ولبست منه خرقة التصوف ثم سافرت من القدس الشريف برسم زيارة ثغر عسقلان وهو خراب قد عاد رسوما طامسة واطلالا دارسة وقل بلد جمع من المحاسن ما جمعته عسقلان اتقانا وحسن وضع وأصالة مكان وجمعا بين مرافق البر والبحر وبها المشهد الشهير حيث كان رأس الحسين بن على عليه السلام قبل ان ينقل الى القاهرة وهو مسجد عظيم سامى العلو فيه جب للماء أمر ببنائه بعض العبيديين وكتب ذلك على بابه وفى قبلة هذا المزار مسجد كبير يعرف بمسجد عمر لم يبق منه الا حيطانه وفيه أساطين رخام لا مثل لها فى الحسن وهى ما بين قائم وحصيد ومن جملتها اسطوانة حمراء عجيبة يزعم الناس ان النصارى احتملوها الى بلادهم ثم فقدوها فوجدت فى موضعها بعسقلان وفى القبلة من هذا المسجد بئر تعرف ببئر ابراهيم عليه السلام ينزل اليها فى درج متسعة ويدخل منها الى بيوت وفى كل جهة من جهاتها الاربع عين تخرج من أسراب مطوية بالحجارة وماؤها عذب وليس بالغزير ويذكر الناس من فضائلها كثيرا وبظاهر عسقلان وادى النمل ويقال انه المذكور فى الكتاب العزيز وبجبانة عسقلان من قبور الشهداء والاولياء ما لا يحصر لكثرته وقفنا عليهم قيم المزار المذكور وله جراية يجريها له ملك مصر مع ما يصل اليه من صدقات الزوار ثم سافرت منها الى مدينة الرملة وهى فلسطين مدينة كبيرة كثيرة الخيرات حسنة الاسواق وبها الجامع الابيض ويقال ان فى قبلته ثلاثمائة من الانبياء مدفونين عليهم السلام وفيها من كبار الفقهاء مجد الدين النابلسى ثم خرجت منها الى مدينة نابلس وهى مدينة عظيمة كثيرة الاشجار مطردة الانهار من أكثر بلاد الشام زيتونا ومنها يحمل الزيت الى مصر ودمشق وبها تصنع حلواء الخروب وتجلب الى دمشق وغيرها وكيفية عملها ان يطبخ الخروب ثم يعصر ويؤخذ ما يخرج منه من الرب فتصنع منه

الحلواء ويجلب ذلك الرب أيضا الى مصر والشام وبها البطيخ المنسوب اليها وهو طيب عجيب والمسجد الجامع فى نهاية من الاتقان والحسن وفى وسطه بركة ماء عذب ثم سافرت منها الى مدينة عجلون (وهى بفتح العين المهملة) وهى مدينة حسنة لها أسواق كثيرة وقلعة خطيرة ويشقها نهر ماؤه عذب ثم سافرت منها بقصد اللاذقية فمررت بالغور وهو واد بين تلال به قبر أبى عبيدة بن الجراح أمين هذه الامة رضى الله عنه زرناه وعليه زاوية فيها الطعام لابناء السبيل وبتنا هنالك ليلة ثم وصلنا الى القصير وبه قبر معاذ بن جبل رضى الله عنه تبركت أيضا بزيارته ثم سافرت على الساحل فوصلت الى مدينة عكة وهى خراب وكانت عكة قاعدة بلاد الافرنج بالشام ومرسى سفنهم وتشبه قسطنطينية العظمى وبشرقيها عين ماء تعرف بعين البقر يقال ان الله تعالى أخرج منها البقر لادم عليه السلام وينزل اليها فى درج وكان عليها مسجد بقى منه محرابه وبهذه المدينة قبر صالح عليه السلام ثم سافرت منها الى مدينة صور وهى خراب وبخارجها قرية معمورة وأكثر أهلها ارفاض ولقد نزلت بها مرة على بعض المياه اريد الوضوء فاتى بعض أهل تلك القرية ليتوضأ فبدأ بغسل رجليه ثم غسل وجهه ولم يتمضمض ولا استنشق ثم مسح بعض رأسه فاخذت عليه فى فعله فقال لى ان البناء انما يكون ابتداؤه من الاساس ومدينة صور هى التى يضرب بها المثل فى الحصانة والمنعة لان البحر محيط بها من ثلاث جهاتها ولها بابان أحدهما للبر والثانى للبحر ولبابها الذى يشرع للبر أربعة فصلات كلها فى ستائر محيطة بالباب وأما الباب الذى للبحر فهو بين برجين عظيمين وبناؤها ليس فى بلاد الدنيا اعجب ولا اغرب شأنا منه لان البحر محيط بها من ثلاث جهاتها وعلى الجهة الرابعة سور تدخل السفن تحت السور وترسو هنالك وكان فيما تقدم بين البرجين سلسلة حديد معترضة لا سبيل الى الداخل هنالك ولا الى الخارج الا بعد حطها وكان عليها الحراس والامناء فلا يدخل داخل ولا يخرج خارج الا على علم منهم وكان لعكة أيضا ميناء مثلها ولكنها لم تكن تحمل الا السفن الصغار ثم سافرت منها الى مدينة صيدا وهى على ساحل البحر حسنة كثيرة الفواكه يحمل منها التين والزبيب والزيت الى بلاد مصر نزلت عند قاضيها كمال الدين الاشمونى المصرى وهو حسن الاخلاق كريم النفس ثم سافرت منها الى مدينة طبرية وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة ولم يبق منها الا رسوم تنبئ على ضخامتها وعظم شأنها وبها الحمامات العجيبة لها بيتان أحدهما للرجال والثانى للنساء وماؤها شديد الحرارة ولها البحيرة الشهيرة طولها نحو ستة فراسخ وعرضها أزيد من ثلاثة فراسخ وبطبرية مسجد يعرف بمسجد الانبياء فيه قبر شعيب عليه السلام وبنته زوج موسى الكليم عليه السلام وقبر سليمان عليه السلام وقبر يهودا وقبر روبيل صلوات الله

وسلامه

وسلامه على نبينا وعليهم وقصدنا منها زيارة الجب الذى ألقى فيه يوسف عليه السلام وهو فى صحن مسجد صغير وعليه زاوية والجب كبير عميق شربنا من مائه المجتمع من ماء المطر وأخبرنا قيمه ان الماء ينبع منه أيضا ثم سرنا الى مدينة بيروت وهى صغيرة حسنة الاسواق وجامعها بديع الحسن وتجلب منها الى ديار مصر الفواكه والحديد وقصدنا منها زيارة أبى يعقوب يوسف الذى يزعمون انه من ملوك المغرب وهو بموضع يعرف بكرك نوح من بقاع العزيز وعليه زاوية يطعم بها الوارد والصادر ويقال ان السلطان صلاح الدين وقف عليها الاوقاف وقيل السلطان نور الدين وكان من الصالحين ويذكر انه كان ينسج الحصر ويقتات بثمنها

(حكاية أبى يعقوب يوسف المذكور)

يحكى انه دخل مدينة دمشق فمرض بها مرضا شديدا واقام مطروحا بالاسواق فلما برئ من مرضه خرج الى ظاهر دمشق ليلتمس بستانا يكون حارسا له فاستؤجر لحراسة بستان للملك نور الدين وأقام فى حراسته ستة أشهر فلما كان فى أوان الفاكهة أتى السلطان الى ذلك البستان وأمر وكيل البستان أبا يعقوب ان يأتى برمان يأكل منه السلطان فأتاه برمان فوجده حامضا فأمره ان يأتى بغيره ففعل ذلك فوجده أيضا حامضا فقال له الوكيل أتكون فى حراسة هذا البستان منذ ستة أشهر ولا تعرف الحلو من الحامض فقال انما استأجرتنى على الحراسة لا على الاكل فأتى الوكيل الى الملك فاعلمه بذلك فبعث اليه الملك وكان قد رأى فى المنام انه يجتمع مع أبى يعقوب وتحصل له منه فائدة فتفرس انه هو فقال له أنت أبو يعقوب قال نعم فقام اليه وعانقه واجلسه الى جانبه ثم احتمله الى مجلسه فاضافه بضيافة من الحلال المكتسب بكد يمينه وأقام عنده اياما ثم خرج من دمشق فارا بنفسه فى أوان البرد الشديد فأتى قرية من قراها وكان بها رجل من الضعفاء فعرض عليه النزول عنده ففعل وصنع له مرقة وذبح دجاجة فأتاه بها وبخبز شعير فأكل من ذلك ودعا للرجل وكان عنده جملة أولاد منهم بنت قد آن بناء زوجها عليها ومن عوايدهم فى تلك البلاد ان البنت يجهزها أبوها ويكون معظم الجهاز أوانى النحاس وبه يتفاخرون وبه يتبايعون فقال أبو يعقوب للرجل هل عندك شئ من النحاس قال نعم قد اشتريت منه لتجهيز هذه البنت قال ائتنى به فأتاه به فقال له استعر من جيرانك ما أمكنك منه ففعل وأحضر ذلك بين يديه فأوقد عليه النيران وأخرج صرة كانت عنده فيها الاكسير فطرح منه على النحاس فعاد كله ذهبا وتركه فى بيت مقفل وكتب كتابا الى نور الدين ملك دمشق يعلمه بذلك وينبهه على بناء مارستان للمرضى من الغرباء ويوقف عليه الاوقاف ويبنى الزوايا بالطرق ويرضى

أصحاب النحاس ويعطى صاحب البيت كفايته وقال له فى آخر الكتاب وان كان ابراهيم ابن أدهم قد خرج عن ملك خراسان فانا قد خرجت من ملك المغرب وعن هذه الصنعة والسلام وفر من حينه وذهب صاحب البيت بالكتاب الى الملك نور الدين فوصل الملك الى تلك القرية واحتمل الذهب بعد ان أرضى أصحاب النحاس وصاحب البيت وطلب أبا يعقوب فلم يجد له أثرا ولا وقع له على خبر فعاد الى دمشق وبنى المارستان المعروف باسمه الذى ليس فى المعمور مثله ثم وصلت الى مدينة طرابلس وهى احدى قواعد الشام وبلدانها الضخام تخترقها الانهار وتحفها البساتين والاشجار ويكتنفها البحر بمرافقه العميمه والبر بخيراته المقيمه ولها الاسواق العجيبة والمسارح الخصيبة والبحر على ميلين منها وهى حديثة البناء واما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر وتملكها الروم زمانا فلما استرجعها الملك الظاهر خربت واتخذت هذه الحديثة وبهذه المدينة نحو أربعين من أمراء الاتراك وأميرها طيلان الحاجب المعروف بملك الامراء ومسكنه منها بالدار المعروفة بدار السعادة ومن عوايده ان يركب فى كل يوم اثنين وخميس ويركب معه الامراء والعساكر ويخرج الى ظاهر المدينة فاذا عاد اليها وقارب الوصول الى منزله ترجل الامراء ونزلوا عن دوابهم ومشوا بين يديه حتى يدخل منزله وينصرفون وتضرب الطبلخانة عند دار كل أمير منهم بعد صلاة المغرب من كل يوم وتوقد المشاعل وممن كان بها من الاعلام كاتب السر بهاء الدين بن غانم أحد الفضلاء الحسباء معروف بالسخاء والكرم وأخوه حسام الدين هو شيخ القدس الشريف وقد ذكرناه وأخوهما علاء الدين كاتب السر بدمشق ومنهم وكيل بيت المال قوام الدين ابن مكين من أكابر الرجال ومنهم قاضى قضاتها شمس الدين ابن النقيب من أعلام علماء الشام وبهذه المدينة حمامات حسان منها حمام القاضى القرمى وحمام سندمور وكان سندمور أمير هذه المدينة ويذكر عنه أخبار كثيرة فى الشدة على أهل الجنايات منها ان امرأة شكت اليه بأن أحد مماليكه الخواص تعدى عليها فى لبن كانت تبيعه فشربه ولم تكن لها بينة فامر به فوسط فخرج اللبن من مصرانه وقد اتفق مثل هذه الحكاية للعتريس أحد أمراء الملك الناصر أيام امارته على عيذاب واتفق مثلها للملك كبك سلطان تركستان ثم سافرت من طرابلس الى حصن الاكراد وهو بلد صغير كثير الاشجار والانهار باعلى تل وبه زاوية تعرف بزاوية الابراهيمى نسبة الى بعض كبراء الامراء ونزلت عند قاضيها ولا أحقق الآن اسمه ثم سافرت الى مدينة حمص وهى مدينة مليحة ارجاؤها مؤنقة واشجارها مورقة وانهارها متدفقة واسواقها فسيحة الشوارع وجامعها متميز بالحسن الجامع وفى وسطه بركة ماء وأهل حمص عرب لهم فضل وكرم وبخارج هذه المدينة قبر خالد

ابن

ابن الوليد سيف الله ورسوله وعليه زاوية ومسجد وعلى القبر كسوة سوداء وقاضى هذه المدينة جمال الدين الشريشى من أجمل الناس صورة واحسنهم سيرة ثم سافرت منها الى مدينة حماه احدى أمهات الشام الرفيعة ومدائنها البديعة ذات الحسن الرائق والجمال الفائق تحفها البساتين والجنات عليها النواعير كالافلاك الدائرات يشقها النهر العظيم المسمى بالعاصى ولها ربض سمى بالمنصورية أعظم من المدينة فيه الاسواق الحافلة والحمامات الحسان وبحماة الفواكه الكثيرة ومنها المشمش اللوزى اذا كسرت نواته وجدت فى داخلها لوزة حلوة قال ابن جزى وفى هذه المدينة ونهرها ونواعيرها وبساتينها يقول الاديب الرحال نور الدين أبو الحسن على بن موسى بن سعيد العنسى العمارى الغرناطى نسبة لعمار بن ياسر رضى الله عنه (طويل)

حمى الله من شطى حماة مناظرا * وقفت عليها السمع والفكر والطرفا
تغنى حمام أو تميل خمائل * وتزهى مبانى تمنع الواصف الوصفا
يلومونى ان أعصى الصون والنهى * وأطيع الكأس واللهو والقصفا
اذا كان فيها النهر عاص فكيف لا * أحاكيه عصيانا وأشربها صرفا
وأشدو لدى تلك النواعر شدوها * وأغلبها رقصا وأشبهها غرفا
تئن وتذرى دمعها فكأنها * تهيم بمرآها وتسألها العطفا

ولبعضهم فى نواعيرها ذاهبا مذهب التورية (طويل)

وناعورة رقت لعظم خطيئتى * وقد عاينت قصدى من المنزل القاصى
بكت رحمة لى ثم باحت بشجوها * وحسبك ان الخشب تبكى على العاصى

ولبعض المتأخرين فيها أيضا من التورية (كامل)

يا سادة سكنوا حماة وحقكم * ماحلت عن تقوى وعن اخلاص،
والطرف بعدكم اذا ذكر اللقا * يجرى المدامع طائعا كالعاصى

(رجع) ثم سافر الى مدينة المعرة التى ينسب اليها الشاعر أبو العلاء المعرى وكثير سواه من الشعراء قال ابن جزى وانما سميت بمعرة النعمان لان النعمان بن بشير الانصارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى له ولد أيام امارته على حمص فدفنه بالمعرة فعرفت به وكانت قبل ذلك تسمى ذات القصور وقيل ان النعمان جبل مطل عليها سميت به

(رجع) والمعرة مدينة صغيرة حسنة أكثر شجرها التين والفستق ومنها يحمل الى مصر والشام وبخارجها على فرسخ منها قبر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ولا زاوية عليه ولا خديم له وسبب ذلك انه وقع فى بلاد صنف من الرافضة ارجاس يبغضون العشرة من الصحابة رضى

الله عنهم ولعن مبغضهم و يبغضون كل من اسمه عمر وخصوصا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لما كان من فعله فى تعظيم على رضى الله عنه ثم سرنا منها الى مدينة سرمين وهى حسنة كثيرة البساتين وأكثر شجرها الزيتون وبها يصنع الصابون الاجرى ويجلب الى مصر والشام ويصنع بها أيضا الصابون المطيب لغسل الايدى ويصبغونه بالحمرة والصفرة ويصنع بها ثياب قطن حسان تنسب اليها وأهلها سبابون يبغضون العشرة ومن العجب انهم لايذكرون لفظ العشرة وينادى سماسرتهم بالاسراق على السلع فاذا بلغوا الى العشرة قالوا تسعة وواحد وحضر بها بعض الاتراك يوما فسمع سمسارا ينادى تسعة وواحد فضربه بالدبوس على رأسه وقال قل عشرة بالدبوس وبها مسجد جامع فيه تسع قباب ولم يجعلوها عشرة قياما بمذهبهم القبيح ثم سرنا الى مدينة حلب المدينة الكبرى والقاعدة العظمى قال أبو الحسين بن جبير فى وصفها قدرها خطير وذكرها فى كل زمان يطير خطابها من الملوك كثير ومحلها من النفوس أثير فكم هاجت من كفاح وسل عليها من بيض الصفاح لها قلعة شهيرة الامتناع بائنة الارتفاع تنزهت حصانة ان ترام أو تستطاع منحوتة الاجزاء موضوعة على نسبة اعتدال واستواء قد طاولت الايام والاعوام ووسعت الخواص والعوام أين أمراؤها الحمدانيون وشعراؤها فنى جميعهم ولم يبق الابناؤها فيا عجبا للبلاد تبقى ويذهب املاكها ويهلكون ولاتقضى هلاكها وتخطب بعدهم فلا يتعذر املاكها وترام فيتيسر بأهون شئ ادراكها هذه حلب كم ادخلت ملوكها فى خبر كان ونسخت صرف الزمان بالمكان أنث اسمها فتحلت بحلية الغوان واتت بالعذر فيمن دان وانجلت عروسا بعد سيف دولتها ابن حمدان هيهات سيهرم شبابها ويعدم خطابها ويسرع فيها بعد حين خرابها وقلعة حلب تسمى الشهباء وبداخلها جبان ينبع منهما الماء فلاتخاف الظماء ويطيف بها سوران وعليها خندق عظيم ينبع منه الماء وسورها متدانى الابراج وقد انتظمت بها العلالى العجيبة المفتحة الطيقان وكل برج منها مسكون والطعام لايتغير بهذه القلعة على طول العهد وبها مشهد يقصده بعض الناس يقال ان الخليل عليه السلام كان يتعبد به وهذه القلعة تشبه قلعة رحبة مالك بن طوق التى على الفرات بين الشام والعراق ولما قصد قازان طاغية التتر مدينة حلب حاصر هذه القلعة أياما ونكص عنها خائبا قال ابن جزى وفى هذه القلعة يقول الخالدى شاعر سيف الدولة

(طويل)

وخرقاء قد قامت على من يرومها * بمرقبها العالى وجانبها الصعب

يجر عليها الجو اجيب غمامة * ويلبسها عقدا بانجمه الشهب

اذا

اذا ماسرى برق بدت من خلاله * كما لاحت العذراء من خلل السحب
فكم من جنود قد اماتت بغصة * وذى سطوات قد ابانت على عقب

وفيها يقول أيضا وهو من بديع النظم (بسيط)

وقلعة عانق العنقاء سافلها * وجاز منقطقة الجوزاء عاليها
لا تعرف القطر اذ كان الغمام لها * أرضا توطأ قطريه مواشيها
اذا الغمامة راحت غاض ساكنها * حياضها قبل ان تهمى عواليها
يعد من أنجم الافلاك مرقبها * لو أنه كان يجرى فى مجاريها
ردت مكايد أقوام مكايدها * ونصرت لدواهيهم دواهيها

وفيها يقول جمال الدين على بن ابى المنصور (كامل)

كادت لبون سموها وعلوها * تستوقف الفلك المحيط الدائرا
وردت قواطنها المجرة منهلا * ورعت سوابقها النجوم زواهرا
ويظل صرف الدهر منها خائفا * وجلا فما يمسى لديها حاضرا

(رجع) ويقال فى مدينة حلب حلب ابراهيم لان الخليل صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه كان يسكنها وكانت له الغنم الكثيرة فكان يسقى الفقراء والمساكين والوارد والصادر من البانها فكانوا يجتمعون ويسألون حلب ابراهيم فسميت بذلك وهى من أعز البلاد التى لا نظير لها فى حسن الوضع واتقان الترتيب واتساع الاسواق وانتظام بعضها ببعض واسواقها مسقفة بالخشب فأهلها دائما فى ظل ممدود وقيساريتها لا تماثل حسنا وكبرا وهى تحيط بمسجدها وكل سماط منها محاذى لباب من أبواب المسجد ومسجدها الجامع من أجل المساجد فى صحنه بركة ماء ويطيف به بلاط عظيم الاتساع ومنبرها بديع العمل مرصع بالعاج والابنوس وبقرب جامعها مدرسة مناسبة له فى حسن الوضع واتقان الصنعة تنسب لامراء بنى حمدان وبالبلد سواها ثلاث مدارس وبها مارستان وأما خارج المدينة فهو بسيط أفيح عريض به المزارع العظيمة وشجرات الاعناب منتظمة به والبساتين على شاطئ نهرها وهو النهر الذى يمر بحماة ويسمى العاصى وقيل انه سمى بذلك لانه يخيل لناظره ان جريانه من أسفل الى علو والنفس تجد فى خارج مدينة حلب انشراحا وسرورا ونشاطا لا يكون فى سواها وهى من المدن التى تصلح للخلافة قال ابن جزى أطنبت الشعراء فى وصف محاسن حلب وذكر داخلها وخارجها وفيها يقول أبو عبادة البحترى (كامل)

يا برق أسفر عن قويق فطرتى * حلب فأعلى القصر من بطياس
عن منبت الورد المعصفر صبغه * فى كل ضاحية ومجنى الآس

ارض اذا استوحشتكم بتذكر * حشدت على فاكثرت ايناسى

وقال فيها الشاعر المجيد أبو بكر الصنوبرى (متقارب)

سقى حلب المزن مغنى حلب * فكم وصلت طربا بالطرب
وكم مستطاب من العيش لذ * بها اذ بها العيش لم يستطب
اذا نشر الزهر اعلامه * بها ومطارفه والعذب
غدا وحواشيه من فضة * تروق واوساطه من ذهب

وقال فيها أبو العلاء المعرى (خفيف)

حلب للوراد جنة عدن * وهى للغادرين نار سعير
والعظيم العظيم يكبر فى عيـ * ـنيه منها قدر الصغير الصغير
فقويق فى أنفس القوم بحر * وحصاة منه مكان ثبير

وقال فيها ابو الفتيان ابن جبوس (بسيط)

يا صاحبى اذا أعيا كما سقمى * فلقيانى نسيم الريح من حلب
من البلاد التى كان الصبا سكنا * فيها وكان الهوا العذرى من أربى

وقال فيها أبو الفتح كشاجم (متقارب)

وما أمتعت جارها بلدة * كما أمتعت حلب جارها
بها قد تجمع ما تشتهى * فزرها فطوبى لمن زارها

وقال فيها أبو الحسن على بن موسى بن سعيد الغرناطى العنسى (خفيف)

حادى العيس كم تنيخ المطايا * سق بروحى من بعدهم فى سياق
حلب انها مقر غرامى * ومرامى وقبلة الاشواق
لك خلا جوشن وبطياس والـ * ـعبد ومن كل وابل غيداق
كم بها مرتع لطرف وقلب * فيه سقى المنى بكأس دهاق
وتغنى طيورها لارتياح * وتثنى غصونها للعناق
وعلو الشهباء حيث استدارت * انجم الافق حولها كالنطاق

رجع وبحلب ملك الامراء أرغون الدوادار أكبر امراء الملك الناصر وهو من الفقهاء موصوف بالعدل لكنه بخيل والقضاة بحلب أربعة للمذاهب الاربعة فمنهم القاضى كمال الدين ابن الزملكانى شافعى المذهب عالى الهمة كبير القدر كريم النفس حسن الاخلاق متفنن بالعلوم وكان الملك الناصر قد بعث اليه ليوليه قضاء القضاة بحضرة ملكه فلم يقض له ذلك وتوفى ببلبيس وهو متوجه اليها ولما ولى قضاء حلب قصدته الشعراء من دمشق وسواها

وكان

وكان فيمن قصده شاعر الشام شهاب الدين أبو بكر محمد ابن الشيخ المحدث شمس الدين ابى عبد الله محمد بن نباتة القرشي الاموى الفارقي فامتدحه بقصيدة طويلة حافلة اولها (كامل)

أسفت لفقدك جلق الفيحاء * وتباشرت لقدومك الشهباء
وعلا دمشق وقد رحلت كآبة * وعلا ربا حلب سنا وسناء
قد أشرقت دار سكنت فناءها * حتى غدت ولنورها لألاء
ياسائرا سقى المكارم والعلى * ممن يخل عنده الكرماء
هذا كمال الدين لذ بجنابه * تنعم فثم الفضل والنعماء
قاضى القضاة اجل من أيامه * تغنى بها الايتام والفقراء
قاض زكى اصلا وفرعا فاعتلى * شرفت به الآباء والابناء
من الاله على بنى حلب به * لله وضع الفضل حيث يشاء
كشف المعمى فهمه وبيانه * فكأنما ذاك الذكاء ذكاء
ياحاكم الحكام تدرك سابق * عن ان تسرك رتبة شماء
ان المناصب دون همتك التى * فى الفضل دون محلها الجوزاء
لك فى العلوم فضائل مشهورة * كالصبح شق له الظلام ضياء
ومناقب شهد العدو بفضلها * والفضل ماشهدت به الاعداء

وهى أزيد من خمسين بيتا وأجازه عليها بكسر دوراهم وانتقد عليه الشعراء ابتداءه بلفظ أسفت قال ابن جزى وليس كلامه فى هذه القصيدة بذاك وهو فى المقطعات أجود منه فى القصائد واليه انتهت الرياسة فى الشعر على هذا العهد فى جميع بلاد المشرق وهو من ذرية الخطيب أبي يحيى عبد الرحيم بن نباتة منشى الخطب الشهيرة ومن بديع مقطعاته فى التورية قوله (كامل)

علقتها غيداء حالية العلى * تجنى على عقل المحب وقلبه
بخلت بلؤلؤ ثغرها عن لاثم * فغدت مطوقة بما بخلت به

(رجع) ومن قضاة حلب قاضى قضاة الحنفية الامام المدرس ناصر الدين بن العديم حسن الصورة والسيرة اصيل مدينة حلب (كامل)

تراه اذا ماجئته متهللا * كأنك تعطيه الذى أنت سائله

ومنهم قاضى قضاة المالكية لا اذكره كان من الموثقين بمصر وأخذ الخطة عن غير استحقاق ومنهم قاضى قضاة الحنابلة لا اذكر اسمه وهو من أهل صالحية دمشق ونقيب الاشراف بحلب بدر الدين ابن الزهراء ومن فقهائها شرف الدين ابن العجمى واقاربه هم كبراء مدينة حلب

ثم سافرت منها الى مدينة تيزين وهى على طريق قنسرين (وضبط اسمها بتاء معلوة مكسورة وياء مد وزاى مكسورة وياء مد ثانية ونون) وهى حديثة اتخذها التركمان وأسواقها حسان ومساجدها فى نهاية من الاتقان وقاضيها بدر الدين العسقلانى وكانت مدينة قنسرين قديمة كبيرة ثم خربت ولم يبق الا رسومها ثم سافرت الى مدينة انطاكية وهى مدينة عظيمة اصلية وكان عليها سور محكم لا نظير له فى أسوار بلاد الشام فلما فتحها الملك الظاهر هدم سورها وانطاكية كثيرة العمارة ودورها حسنة البناء كثيرة الاشجار والمياه وبخارجها نهر العاصى وبها قبر حبيب النجار رضى الله عنه وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر شيخها الصالح المعمر محمد بن على سنه ينيف على المائة وهو ممتع بقوته دخلت عليه مرة فى بستان له وقد جمع حطبا ورفعه على كاهله ليأتى به منزله بالمدينة ورأيت ابنه قد أناف على الثمانين الا انه محدودب الظهر لا يستطيع النهوض ومن يراهما يظن الوالد منهما ولدا والولد والدا ثم سافرت الى حصن بغراس (وضبط اسمه بباء موحدة مضمومة وغين معجمة مسكنة وراء وآخره سين مهمل) وهو حصن منيع لا يرام عليه البساتين والمزارع ومنه يدخل الى بلاد سيس وهى بلاد كفار الارمن وهم رعية للملك الناصر يؤدون اليه مالا ودراهمهم فضة خالصة تعرف بالبغلية وبها تصنع الثياب الدبيزية وأمير هذا الحصن صارم الدين ابن الشيبانى وله ولد فاضل اسمه علاء الدين وابن اخ اسمه حسام الدين فاضل كريم يسكن الموضع المعروف بالرصص (بضم الراء والصاد المهمل الاول) ويحفظ الطريق الى بلاد الارمن

(حكاية)

شكى الارمن مرة الى الملك الناصر بالامير حسام الدين وزوروا عليه امورا لا تليق فنفذ أمره لامير الامراء بحلب ان يخنقه فلما توجه الامير بلغ ذلك صديقا له من كبار الامراء فدخل على الملك الناصر وقال يا خوندان الامير حسام الدين هو من خيار الامراء ينصح للمسلمين ويحفظ الطريق وهو من الشجعان والارمن يريدون الفساد فى بلاد المسلمين فيمنعهم ويقهرهم وانما أرادوا اضعاف شوكة المسلمين بقتله ولم يزل به حتى انفذ امرا ثانيا بسراحه والخلع عليه ورده لموضعه ودعا الملك الناصر بريديا يعرف بالاقوش وكان لا يبعث الا فى مهم وامره بالاسراع والجد فى السير فسار من مصر الى حلب فى خمس وهى مسيرة شهر فوجد أمير حلب قد احضر حسام الدين وأخرجه الى الموضع الذى يخنق به الناس فخلصه الله تعالى وعاد الى موضعه ولقيت هذا الامير ومعه قاضى بغراس شرف الدين الحموى بموضع يقال له العمق متوسط بين انطاكية وتيزين وبغراس ينزله التركمان بمواشيهم لخصبه وسعته ثم سافرت الى حصن القصير تصغير قصر وهو حصن حسن اميره علاء الدين الكردى وقاضيه شهاب الدين

الارمنتى

الارمنتى من أهل الديار المصرية ثم سافرت الى حصن الشغر بكاس (وضبط اسمه بضم الشين المعجم واسكان الغين المعجم وضم الراء والباء الموحدة وآخره سين مهملة) وهو منيع فى رأس شاهق أميره سيف الدين الطنطاش فاضل وقاضيه جمال الدين ابن شجرة من أصحاب ابن التيمية ثم سافرت الى مدينة صهيون وهى حسنة بها الانهار المطردة والاشجار المورقة ولها قلعة جيدة وأميرها يعرف بالابراهيمى وقاضيها محيي الدين الحمصى وبخارجها زاوية فى وسط بستان فيها الطعام للوارد والصادر وهى على قبر الصالح العابد عيسى البدوى رحمه الله وقد زرت قبره ثم سافرت منها فررت بحصن القدموس (وضبط اسمه بفتح القاف واسكان الدال المهمل وضم الميم وآخره سين مهمل) ثم بحصن المينقة (وضبط اسمه بفتح الميم واسكان الياء وفتح النون والقاف) ثم بحصن العليقة واسمه على لفظ واحدة العليق ثم بحصن مصياف (وصاده مهملة) ثم بحصن الكهف وهذه الحصون لطائفة يقال لهم الاسماعيلية ويقال لهم الفداوية ولا يدخل عليهم احد من غيرهم وهم سهام الملك الناصر بهم يصيب من يعدو عنه من اعدائه بالعراق وغيرها ولهم المرتبات واذا أراد السلطان ان يبعث أحدهم الى اغتيال عدو له أعطاه ديته فان سلم بعد تأتى ما يراد منه فهى له وان اصيب فهى لولده ولهم سكاكين مسمومة يضربون بها من بعثوا الى قتله وربما لم تصح حيلهم فقتلوا كما جرا لهم مع الامير قراسنقور فانه لما هرب الى العراق بعث اليه الملك الناصر جملة منهم فقتلوا ولم يقدروا عليه لاخذه بالحزم

(حكاية)

كان قراسنقور من كبار الامراء وممن حضر قتل الملك الاشرف أخى الملك الناصر وشارك فيه ولما تمهد الملك للملك الناصر وقربه القرار واشتدت اواخى سلطانه جعل يتتبع قتلة اخيه فيقتلهم واحدا واحدا اظهارا للاخذ بثار اخيه وخوفا ان يتجاسروا عليه بما تجاسروا على اخيه وكان قراسنقور أمير الامراء بحلب فكتب الملك الناصر الى جميع الامراء ان ينفروا بعساكرهم وجعل لهم ميعادا يكون فيه اجتماعهم بحلب ونزولهم عليها حتى يقبضوا عليه فلما فعلوا ذلك خاف قراسنقور على نفسه وكان له ثمانمائة مملوك فركب فيهم وخرج على العساكر صباحا فاخترقهم وأعجزهم سبقا وكانوا فى عشرين الفا وقصد منزل أمير العرب مهنا بن عيسى وهو على مسيرة يومين من حلب وكان مهنا فى قنص له فقصد بيته ونزل عن فرسه والقى العمامة فى عنق نفسه ونادى الجوار يا امير العرب وكانت هنالك أم الفضل زوج مهنا وبنت عمه فقالت له قد اجرناك وأجرنا من معك فقال انما أطلب اولادى ومالى فقالت له لك ما تحب فانزل فى جوارنا ففعل ذلك واتى مهنا فاحسن نزله وحكمه فى ماله فقال انما احب اهلى ومالى الذى

تركته يحارب فدعى مهنا باخوته و بني عمه فشاورهم في أمره فمنهم من اجابه الى ما اراد ومنهم من قال له كيف نحارب الملك الناصر ونحن في بلاده بالشام فقال لهم مهنا أما أنا فافعل لهذا الرجل ما يريده وأذهب معه الى سلطان العراق وفي اثناء ذلك ورد عليهم الخبر بأن أولاد قراسنقور سير واعلى البريد الى مصر فقال مهنا لقراسنقور أما أولادك فلا حيلة فيهم وأما مالك فنجتهد في خلاصه فركب فيمن أطاعه من أهله واستنفر من العرب نحو خمسة وعشرين ألفا وقصدوا حلب فأحرقوا باب قلعتها وتغلبوا عليها واستخلصوا منها مال قراسنقور ومن بقي من أهله ولم يتعدوا الى سوى ذلك وقصدوا ملك العراق وصحبهم أمير حمص الافرم ووصلوا الى الملك محمد خدابنده سلطان العراق وهو بموضع مصيفه المسمى قراباغ (بفتح القاف والراء والباء الموحدة والغين المعجمة) وهو ما بين السلطانية وتبريز فأكرم نزلهم وأعطى مهنا عراق العرب وأعطى قراسنقور مدينة مراغة من عراق العجم وتسمى دمشق الصغيرة وأعطى الافرم همدان وأقاموا عنده مدة مات فيها الافرم وعاد مهنا الى الملك الناصر بعد مواثيق وعهود أخذها منه وبقي قراسنقور على حاله وكان الملك الناصر يبعث له الفداوية مرة بعد مرة فمنهم من يدخل عليه داره فيقتل دونه ومنهم من يرمي بنفسه عليه وهو راكب فيضربه وقتل بسببه من الفداوية جماعة وكان لا يفارق الدرع أبدا ولا ينام الا في بيت العود والحديد فلما مات السلطان محمد وولى ابنه أبو سعيد وقع ما سنذكره من أمر الجوبان كبير أمرائه وفرار ولده الدمرطاش الى الملك الناصر ووقعت المراسلة بين الملك الناصر وبين أبي سعيد واتفقا على أن يبعث أبو سعيد الى الملك الناصر برأس قراسنقور ويبعث اليه الملك الناصر برأس الدمرطاش فبعث الملك الناصر برأس الدمرطاش الى أبي سعيد فلما وصله أمر بحمل قراسنقور اليه فلما عرف قراسنقور بذلك أخذ خاتما كان له مجوفا في داخله سم ناقع فنزع فصه وامتص ذلك السم فمات لحينه فعرف أبو سعيد بذلك الملك الناصر ولم يبعث له برأسه ثم سافرت من حصون الفداوية الى مدينة جبلة وهي ذات أنهار مطردة وأشجار والبحر على نحو ميل منها وبها قبر الولي الصالح الشهير ابراهيم بن أدهم رضي الله عنه وهو الذي نبذ الملك وانقطع الى الله تعالى حسبما اشتهر ذلك ولم يكن ابراهيم من بيت ملك كما يظنه الناس انما ورث الملك عن جده أبي أمه وأما أبوه أدهم فكان من الفقراء الصالحين السائحين المتعبدين الورعين المنقطعين

(حكاية أدهم)

يذكر انه مر ذات يوم ببساتين مدينة بخارى وتوضأ من بعض الانهار التي تتخللها فاذا بتفاحة يحملها ماء النهر فقال هذه لا خطر لها فأكلها ثم وقع في خاطره من ذلك وسواس فعزم على أن

يستحل

يستحل من صاحب البستان فقرع باب البستان فخرجت اليه جارية فقال لها ادعى لى صاحب المنزل فقالت انه لامرأة فقال استأذنى لى عليها ففعلت فأخبر المرأة بخبر التفاحة فقالت له ان هذا البستان نصفه لى ونصفه للسلطان والسلطان يومئذ ببلخ وهى مسيرة عشر من بخارى وأحلته المرأة من نصفها وذهب الى بلخ فاعترضه السلطان فى موكبه فأخبره الخبر واستحله فأمره أن يعود اليه من الغد وكان للسلطان بنت بارعة الجمال قد خطبها أبناء الملوك فتمنعت وحببت اليها العبادة وحب الصالحين وهى تحب أن تزوج من ورع زاهد فى الدنيا فلما عاد السلطان الى منزله أخبر بنته بخبر أدهم وقال ما رأيت أورع من هذا يأتى من بخارى الى بلخ لاجل نصف تفاحة فرغبت فى تزوجه فلما أتاه من الغد قال لا أحلك الا أن تتزوج بنتى فانقاد لذلك بعد استعصاء وتمنع فتزوج منها فلما دخل عليها وجدها متزينة والبيت مزين بالفرش وسواها فعمد الى ناحية من البيت وأقبل على صلاته حتى أصبح ولم يزل كذلك سبع ليال وكان السلطان ما أحله قبل فبعث اليه أن يحله فقال لا أحلك حتى يقع اجتماعك بزوجتك فلما كان الليل واقعها ثم اغتسل وقام الى الصلاة فصاح صيحة وسجد فى مصلاه فوجد ميتا رحمه الله وحملت منه فولدت ابراهيم ولم يكن لجده ولد فأسند الملك اليه وكان من تخليه عن الملك ما اشتهر وعلى قبر ابراهيم بن أدهم زاوية حسنة فيها بركة ماء وبها الطعام للصادر والوارد وخادمها ابراهيم الجمحى من كبار الصالحين والناس يقصدون هذه الزاوية ليلة النصف من شعبان من سائر أقطار الشام ويقيمون بها ثلاثا ويقوم بها خارج المدينة سوق عظيم فيه من كل شئ ويقدم الفقراء المتجردون من الآفاق بحضور هذا الموسم وكل من يأتى من الزوار لهذه الزاوية يعطى لخادمها شمعة فيجتمع من ذلك قناطير كثيرة وأكثر أهل هذه السواحل هم الطائفة النصيرية الذين يعتقدون ان على بن أبى طالب اله وهم لا يصلون ولا يتطهرون ولا يصومون وكان الملك الظاهر ألزمهم بناء المساجد بقراهم فبنوا بكل قرية مسجدا بعيدا عن العمارة ولا يدخلونه ولا يعمرونه وربما آوت اليه مواشيهم ودوابهم وربما وصل الغريب اليهم فينزل بالمسجد ويؤذن للصلاة فيقولون له لا تنهق علفك يأتيك وعددهم كثير

(حكاية)

ذكر لى ان رجلا مجهولا وقع ببلاد هذه الطائفة فادعى الهداية وتكاثروا عليه فوعدهم بتملك البلاد وقسم بينهم بلاد الشام وكان يعين لهم البلاد ويأمرهم بالخروج اليها ويعطيهم من ورق الزيتون ويقول لهم استظهروا بها فانها كالاوامر لكم فاذا خرج أحدهم الى بلد أحضره أميره فيقول له ان الامام المهدى أعطانى هذا البلد فيقول له أين الامر فيخرج ورق الزيتون

فيضرب ويحبس ثم انه أمرهم بالتجهيز لقتال المسلمين وان يبدأوا بمدينة جبلة وأمرهم ان يأخذوا عوض السيوف قضبان الآس ووعدهم انها تصير في أيديهم سيوفا عند القتال فغدروا بمدينة جبلة وأهلها في صلاة الجمعة فدخلوا الدور وهتكوا الحريم وثار المسلمون من مسجدهم فاخذوا السلاح وقتلوهم كيف شاءوا واتصل الخبر باللاذقية فاقبل أميرها بهادر عبد الله بعسكره وطيرت الحمام الى طرابلس فاتى امير الامراء بعساكره واتبعوهم حتى قتلوا منهم نحو عشرين الفا وتحصن الباقون بالجبال وراسلوا ملك الامراء والتزموا ان يعطوه دينارا عن كل رأس ان هو حاول ابقاءهم وكان الخبر قد طير به الحمام الى الملك الناصر وصدر جوابه ان يحمل عليهم السيف فراجعه ملك الامراء والقى له انهم عمال المسلمين في حراثة الارض وانهم ان قتلوا ضعف المسلمون لذلك فامر بالابقاء عليهم ثم سافرت الى مدينة اللاذقية وهي مدينة عتيقة على ساحل البحر يزعمون انها مدينة الملك الذى كان يأخذ كل سفينة غصبا وكنت انما قصدتها لزيارة الولي الصالح عبد المحسن الاسكندرى فلما وصلتها وجدته غائبا بالحجاز الشريف فلقيت من أصحابه الشيخين الصالحين سعيد البجائي ويحيى السلاوى وهما بمسجد علاء الدين بن البهاء احد فضلاء الشام وكبرائها صاحب الصدقات والمكارم وكان قد عمر لهما زاوية بقرب المسجد وجعل بها الطعام للوارد والصادر وقاضيها الفقيه الفاضل جلال الدين عبد الحق المصرى المالكي فاضل كريم تعلق بطيلان ملك الامراء فولاه قضاءها

(حكاية)

كان باللاذقية رجل يعرف بابن المؤيد هجاء لا يسلم أحد من لسانه متهم في دينه مستخف يتكلم بالقبائح من الالحاد فعرضت له حاجة عند طيلان ملك الامراء فلم يقضها له فقصد مصر وتقول عليه امورا شنيعة وعاد الى اللاذقية فكتب طيلان الى القاضي جلال الدين ان يتحيل في قتله بوجه شرعى فدعا القاضي الى منزله وباحثه واستخرج كامن الحاده فتكلم بعظائم أيسرها يوجب القتل وقد اعد القاضي الشهود خلف الحجاب فكتبوا عقدا بمقاله وثبت عند القاضي وسجن واعلم ملك الامراء بقضيته ثم أخرج من السجن وخنق على بابه ثم لم يلبث ملك الامراء طيلان ان عزل عن طرابلس ووليها الحاج قرطية من كبار الامراء وممن تقدمت له فيها الولاية وبينه وبين طيلان عداوة فجعل يتبع سقطاته وقام لديه اخوة ابن المؤيد شاكين من القاضي جلال الدين فامر به وبالشهود الذين شهدوا على ابن المؤيد فأحضروا وأمر بخنقهم وأخرجوا الى ظاهر المدينة حيث يخنق الناس واجلس كل واحد منهم تحت مخنقته ونزعت عمائمهم ومن عادة أمراء تلك البلاد انه متى أمر أحدهم بقتل أحد من الناس يمر الحاكم

من

من مجلس الامير سبقا على فرسه الى حيث المأمور بقتله ثم يعود الى الامير فيكرر استئذانه يفعل ذلك ثلاثا فاذا كان بعد الثلاث انفذ الامر فلما فعل الحاكم ذلك قامت الامراء فى المرة الثالثة وكشفوا رؤسهم وقالوا أيها الامير هذه سبة فى الاسلام يقتل القاضى والشهود فقبل الامير شفاعتهم وخلى سبيلهم وبخارج اللاذقية الدير المعروف بدير الفاروص وهو أعظم دير بالشام ومصر يسكنه الرهبان ويقصده النصارى من الآفاق وكل من نزل به من المسلمين فالنصارى يضيفونه وطعامهم الخبز والجبن والزيتون والخل والكبر وميناء هذه المدينة عليها سلسلة بين برجين لا يدخلها أحد ولا يخرج منها حتى تحط له السلسلة وهى من أحسن المراسى بالشام ثم سافرت الى حصن المرقب وهو من الحصون العظيمة يماثل حصن الكرك ومبناه على جبل شامخ وخارجه ربض ينزله الغرباء ولا يدخلون قلعته وافتتحه من أيدى الروم الملك المنصور قلاوون وعليه ولد ابنه الملك الناصر وكان قاضيه برهان الدين المصرى من افاضل القضاة وكرمائهم ثم سافرت الى الجبل الاقرع وهو أعلى جبل بالشام وأول ما يظهر منها من البحر وسكانه التركمان وفيه العيون والانهار وسافرت منه الى جبل لبنان وهو من اخصب جبال الدنيا فيه أصناف الفواكه وعيون الماء والظلال الوافرة ولا يخلو من المنقطعين الى الله تعالى والزهاد والصالحين وهو شهير بذلك ورأيت به جماعة من الصالحين قد انقطعوا الى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه

(حكاية)

اخبرنى بعض الصالحين الذين لقيتهم به قال كنا بهذا الجبل مع جماعة من الفقراء ايام البرد الشديد فاوقدنا نارا عظيمة واحدقنا بها فقال بعض الحاضرين يصلح لهذه النار ما يشوى فيها فقال احد الفقراء ممن تزدريه الاعين ولا يعبأ به انى كنت عند صلاة العصر بمتعبد ابراهيم ابن ادهم فرأيت بمقربة منه حمار وحش قد احدق الثلج به من كل جانب واظنه لا يقدر على الحراك فلو ذهبتم اليه لقدرتم عليه وشويتم لحمه فى هذه النار قال فقمنا اليه فى خمسة رجال فالفيناه كما وصف الينا فقبضناه واتينا به اصحابنا وذبحناه واشوينا لحمه فى تلك النار وطلبنا الفقير الذى نبه عليه فلم نجده ولا وقعنا له على أثر فطال عجبنا منه ثم وصلنا من جبل لبنان الى مدينة بعلبك وهى حسنة قديمة من أطيب مدن الشام تحدق بها البساتين الشريفة والجنات المنيفة وتخترق ارضها الانهار الجارية وتضاهى دمشق فى خيراتها المتناهية وبها من حب الملوك ما ليس فى سواها وبها يصنع الدبس المنسوب اليها وهو نوع من الرب يصنعونه من العنب ولهم تربة يضعونها فيه فيجمد وتكسر القلة التى يكون بها فيبقى قطعة واحدة وتصنع منه الحلواء ويجعل فيها الفستق واللوز ويسمون حلواءه بالملبن ويسمونها أيضا بجلد الفرس

وهى كثيرة الالبان وتجلب منها الى دمشق وبينهما مسيرة يوم للمجد وأما الرفاق فيخرجون من بعلبك فيبيتون ببلدة صغيرة تعرف بالزبدانى كثيرة الفواكه ويغدون منها الى دمشق ويصنع ببعلبك الثياب المنسوبة اليها من الاحرام وغيره ويصنع بها اوانى الخشب وملاعقه التى لانظير لها فى البلاد وهم يسمون الصحاف بالدسوت وربما اصنعوا الصحفة وصنعوا صحفة أخرى تسع فى جوفها وأخرى فى جوفها الى ان يبلغوا العشرة يخيل لرائيها انها صحفة واحدة وكذلك الملاعق يصنعون منها عشرة واحدة فى جوف واحدة ويصنعون لها غشاء من جلد ويمسكها الرجل فى حزامه واذا حضر طعاما مع أصحابه أخرج ذلك فيظن رائيه انها ملعقة واحدة ثم يخرج من جوفها تسعا وكان دخولى لبعلبك عشية النهار وخرجت منها بالغدو لفرط اشتياقى الى دمشق ووصلت يوم الخميس التاسع من شهر رمضان المعظم عام ستة وعشرين الى مدينة دمشق الشام فنزلت منها بمدرسة المالكية المعروفة بالشرابشية ودمشق هى التى تفضل جميع البلاد حسنا وتتقدمها جمالا وكل وصف وان طال فهو قاصر عن محاسنها ولا أبدع مما قاله أبو الحسين ابن جبير رحمه الله تعالى فى ذكرها قال وأما دمشق فهى جنة المشرق ومطلع نورها المشرق وخاتمة بلاد الاسلام التى استقريناها وعروس المدن التى اجتليناها قد تحلت بازاهير الرياحين وتجلت فى حلل سندسية من البساتين وحلت من موضع الحسن بالمكان المكين وتزينت فى منصتها أجمل تزيين وتشرفت بان آوى المسيح عليه السلام وامه منها الى ربوة ذات قرار ومعين ظل ظليل وماء سلسبيل تنساب مذانبه انسياب الاراقم بكل سبيل ورياض يحيى النفوس نسيمها العليل تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل وتناديهم هلموا الى معرس للحسن ومقيل وتدسمت ارضها كثرة الماء حتى اشتاقت الى الظماء فتكاد تناديك بها الصم الصلاب أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب وقد احدقت البساتين بها احداق الهالة بالقمر والاكمام بالثمر وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر وكل موضع لحظت بجهاتها الاربع نضرته اليانعة قيد البصر ولله صدق القائلين عنها ان كانت الجنة فى الارض فدمشق لاشك فيها وان كانت فى السماء فهى تساميها وتحاذيها قال ابن جزى وقد نظم بعض شعرائها فى هذا المعنى فقال (خفيف)

ان تكن جنة الخلود بارض * فدمشق ولا تكون سواها
ان تكن فى السماء فهى عليها * قد أبدت هواءها وهواها
بلد طيب ورب غفور * فاغتنمها عشية وضحاها

وذكرها شيخنا المحدث الرحال شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر بن حسان القيسى الوادى أشى نزيل تونس ونص كلام ابن جبير ثم قال ولقد أحسن فيما وصف منها واجاد وتوق

الانفس لتطلع على صورتها بما اقاد هذا وان لم تكن له بها اقامة فيعرب عنها بحقيقة علامة ولا وصف ذهبيات أصيلها وقد حان من الشمس غروبها ولا ازمان جفولها المنوعات ولا أوقات سرورها المنبهات وقد اختص من قال الفيتها كما تصف الالسن وفيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين قال ابن جزى والذى قالته الشعراء فى وصف محاسن دمشق لا يحصر كثرة وكان والدى رحمه الله كثيرا ما ينشد فى وصفها هذه الابيات وهى لشرف الدين بن محسن رحمه الله تعالى (طويل)

دمشق بنا شوق اليها مبرح * وان لج واش اوألح عذول
بلاد بها الحصباء در وتربها * عبير وأنفاس الشمال شمول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق * وصح نسيم الروض وهو عليل

وهذا من النمط العالى من الشعر وقال فيها عرقلة الدمشقى الكلبى (كامل)

الشام شامة وجنة الدنيا كما * انسان مقلتها الغضيضة جلق
من آسها لك جنة لا تنقضى * ومن الشقيق جهنم لا تحرق

وقال أيضا فيها (بسيط)

اما دمشق فجنات معجلة * للطالبين بها الولدان والحور
ما صاح فيها على أوتاره قمر * الا يغنيه قمرى وشحرور
يا حبذا ودروع الماء تنسجها * أنامل الريح الا انها زور

وله فيها أشعار كثيرة سوى ذلك وقال فيها أبو الوحش سبيع بن خلف الاسدى (رجز)

سقى دمشق الله غيثا محسنا * من مستهل ديمة دهاقها
مدينة ليس يضاهى حسنها * فى سائر الدنيا ولا آفاقها
تود زوراء العراق انها * منها ولا تعزى الى عراقها
فأرضها مثل السماء بهجة * وزهرها كالزهر فى اشراقها
نسيم روضها متى ما قد سرى * فك أخا الهموم من وثاقها
قد ارتبع الربيع فى ربوعها * وسيقت الدنيا الى أسواقها
لا تسأم العيون والانوف من * رؤيتها يوما ولا استنشاقها

ومما يناسب هذا للقاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى فيها من قصيدة وقد نسبت أيضا لابن المنير (كامل)

يا برق هل لك فى احتمال تحية * عذبت فصارت مثل مائك سلسلا
باكر دمشق بمشرق اقلام الحيا * زهر الرياض مرصعا ومكللا

واجر بجيرون ذيولك واختصص * مغنى تأزر بالعلى وتمر بلا
حيث الحيا الربعى محلول الحبا * والوابل الربعى مفرى الكلا

وقال فيها أبو الحسن على بن موسى بن سعيد العنسى الغرناطى المدعو نور الدين (بسيط)

دمشق منزلنا حيث النعيم بدا * مكملا وهو فى الآفاق مختصر
القصب راقصة والطير صادحة * والزهر مرتفع والماء منحدر
وقد تجلت من اللذات اوجهها * لكنها بظلال الدوح تستتر
وكل واد به موسى يفجره * وكل روض على حافاته الخضر

وقال أيضا فيها (بسيط)

خيم بجلق بين الكأس والوتر * فى جنة هى ملء السمع والبصر
ومتع الطرف فى مرأى محاسنه * وروض الفكر بين الروض والنهر
وانظر الى ذهبيات الاصيل بها * واسمع الى نغمات الطير فى الشجر
وقل لمن لام فى لذاته بشرا * دعنى فانك عندى من سوى البشر

وقال فيها أيضا (كامل)

أما دمشق فجنة * ينسى بها الوطن الغريب
لله أيام السبوت * بها ومنظرها العجيب
انظر بعينك هل ترى * الا محبا أو حبيب
فى موطن غنى الحمام * به على رقص القضيب
وغدت ازاهر روضه * تختال فى فرح وطيب

واهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملا انما يخرجون الى المنتزهات وشطوط الانهار ودوحات الاشجار بين البساتين النضرة والمياه الجارية فيكونون بها يومهم الى الليل وقد طال بنا الكلام فى محاسن دمشق فلنرجع الى كلام الشيخ ابى عبد الله

(ذكر جامع دمشق المعروف بجامع بنى أمية)

وهو أعظم مساجد الدنيا احتفالا وأتقنها صناعة وابدعها حسنا وبهجة وكمالا ولا يعلم له نظير ولا يوجد له شبيه وكان الذى تولى بناءه واتقانه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان ووجه الى ملك الروم بقسطنطينية يأمره ان يبعث اليه الصناع فبعث اليه اثنى عشر الف صانع وكان موضع المسجد كنيسة فلما افتتح المسلمون دمشق دخل خالد بن الوليد رضى الله عنه من احدى جهاتها بالسيف فانتهى الى نصف الكنيسة ودخل أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه من الجهة الغربية صلحا فانتهى الى نصف الكنيسة فصنع المسلمون

من نصف الكنيسة الذى دخلوه عنوة مسجدا وبقى النصف الذى صالحوا عليه كنيسة فلما عزم الوليد على زيادة الكنيسة فى المسجد طلب من الروم ان يبيعوا منه كنيستهم تلك بما شاؤا من عوض فأبوا عليه فانتزعها من أيديهم وكانوا يزعمون ان الذى يهدمها يجن فذكروا ذلك للوليد فقال انا اول من يجن فى سبيل الله وأخذ الفأس وجعل يهدم بنفسه فلما رآى المسلمون ذلك تتابعوا على الهدم وأكذب الله زعم الروم وزين هذا المسجد بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء تخالطها أنواع الاصبغة الغريبة الحسن وذرع المسجد فى الطول من الشرق الى الغرب مائتا خطوة وهى ثلاثمائة ذراع وعرضه من القبلة الى الجوف مائة وخمس وثلاثون خطوة وهى مائتا ذراع وعدد شمسات الزجاج الملونة التى فيه أربع وسبعون وبلاطاته ثلاثة مستطيلة من شرق الى غرب سعة كل بلاط منها ثمان عشرة خطوة وقد قامت على أربع وخمسين سارية وثمانى أرجل جصية تتخللها وست أرجل مرخمة مرصعة بالرخام الملون قد صور فيها اشكال محاريب وسواها وهى تقل قبة الرصاص التى امام المحراب المسماة بقبة النسر كأنهم شبهوا المسجد نسرا طائرا والقبة رأسه وهى من أعجب مبانى الدنيا ومن أى جهة استقبلت المدينة بدت لك قبة النسر ذاهبة فى الهواء منيفة على جميع مبانى البلد وتستدير بالصحن بلاطات ثلاثة من جهاته الشرقية والغربية والجوفية سعة كل بلاط منها عشر خطا وبها من السوارى ثلاث وثلاثون ومن الارجل أربع عشرة وسعة الصحن مائة ذراع وهو من أجمل المناظر وأتمها حسنا وبها يجتمع أهل المدينة بالعشايا فمن قارئ ومحدث وذاهب ويكون انصرافهم بعد العشاء الاخيرة واذا لقى أحد كبرائهم من الفقهاء وسواهم صاحبا له اسرع كل منهما نحو صاحبه وحط رأسه وفى هذا الصحن ثلاث من القباب احداها فى غربيه وهى اكبرها وتسمى قبة عائشة أم المؤمنين وهى قائمة على ثمان سوارى من الرخام مزخرفة بالفصوص والاصبغة الملونة مسقفة بالرصاص يقال ان مال الجامع كان يختزن بها وذكر لى ان فوائد مستغلات الجامع ومجابيه نحو خمسة وعشرين الف دينار ذهبا فى كل سنة والقبة الثانية من شرقى الصحن على هيئة الاخرى الا انها اصغر منها قائمة على ثمان من سوارى الرخام وتسمى قبة زين العابدين والقبة الثالثة فى وسط الصحن وهى صغيرة مثمنة من رخام عجيب محكم الالصاق قائمة على أربع سوارى من الرخام الناصع وتحتها شباك حديد فى وسطه أنبوب نحاس يمج الماء الى علو فيرتفع ثم ينثنى كأنه قضيب لجين وهم يسمونه قفص الماء ويستحسن الناس وضع افواههم فيه للشرب وفى الجانب الشرقى من الصحن باب يفضى الى مسجد بديع الوضع يسمى مشهد على بن أبى طالب رضى الله عنه ويقابله من الجهة الغربية حيث يلتقى البلاطان الغربى والجوفى موضع يقال ان عائشة رضى الله عنها سمعت الحديث هنالك وفى قبلة المسجد

المقصورة العظمى التى يؤم فيها امام الشافعية وفى الركن الشرقى منها ازاء المحراب خزانة كبيرة فيها المصحف الكريم الذى وجهه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه الى الشام وتفتح تلك الخزانة كل يوم جمعة بعد الصلاة فيزدحم الناس على لثم ذلك المصحف الكريم وهنالك يحلف الناس غرماءهم ومن ادعوا عليه شيأ وعن يسار المقصورة محراب الصحابة ويذكر اهل التاريخ انه اول محراب وضع فى الاسلام وفيه يؤم امام المالكية وعن يمين المقصورة محراب الحنفية وفيه يؤم امامهم ويليه محراب الحنابلة وفيه يؤم امامهم ولهذا المسجد ثلاث صوامع احداها بشرقيه وهى من بناء الروم وبابها داخل المسجد وباسفلها مطهرة وبيوت للوضوء يغتسل فيها المعتكفون والملتزمون للمسجد ويتوضؤن والصومعة الثانية بغربيه وهى أيضا من بناء الروم والصومعة الثالثة بشماله وهى من بناء المسلمين وعدد المؤذنين به سبعون مؤذنا وفى شرقى المسجد مقصورة كبيرة فيها صهريج ماء وهى لطائفة الزيالعة السودان وفى وسط المسجد قبر زكريا عليه السلام وعليه تابوت معترض بين اسطوانتين مكسو بثوب حرير اسود معلم فيه مكتوب بالابيض يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيي وهذا المسجد شهير الفضل وقرأت فى فضائل دمشق عن سفيان الثورى ان الصلاة فى مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة وفى الاثر عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال يعبد الله فيه بعد خراب الدنيا اربعين سنة ويقال ان الجدار القبلى منه وضعه نبى الله هود عليه السلام وان قبره به وقد رأيت على مقربة من مدينة ظفار اليمن بموضع يقال له الاحقاف بنية فيها قبر مكتوب عليه هذا قبر هود بن عابر صلى الله عليه وسلم ومن فضائل هذا المسجد انه لا يخلو عن قراءة القرآن والصلاة الا قليلا من الزمان كما سنذكره والناس يجتمعون به كل يوم اثر صلاة الصبح فيقرأون سبعا من القرآن ويجتمعون بعد صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية يقرأون فيها من سورة الكوثر الى آخر القرآن وللمجتمعين على هذه القراءة مرتبات تجرى لهم وهم نحو ستمائة انسان ويدور عليهم كاتب الغيبة فمن غاب منهم قطع له عند دفع المرتب بقدر غيبته وفى هذا المسجد جماعة كبيرة من المجاورين لا يخرجون منه مقبلون على الصلاة والقراءة والذكر لا يفترون عن ذلك ويتوضؤن من المطاهر التى بداخل الصومعة الشرقية التى ذكرناها واهل البلد يعينونهم بالمطاعم والملابس من غير ان يسألوهم شيأ من ذلك وفى هذا المسجد أربعة أبواب باب قبلى يعرف بباب الزيادة وباعلاه قطعة من الرمح الذى كانت فيه راية خالد بن الوليد رضى الله عنه ولهذا الباب دهليز كبير متسع فيه حوانيت السقاطين وغيرهم ومنه يذهب الى دار الخيل وعن يسار الخارج منه سماط الصفارين وهى سوق عظيمة ممتدة مع جدار المسجد القبلى من احسن اسواق دمشق وبموضع هذه السوق كانت دار معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه

ودور

ودور قومه وكانت تسمى الخضراء فهدمها بنو العباس رضى الله عنهم وصار مكانها سوقا وباب شرقى وهو أعظم ابواب المسجد ويسمى بباب جيرون وله دهليز عظيم يخرج منه الى بلاط عظيم طويل امامه خمسة ابواب لها ستة اعمدة طوال وفى جهة اليسار منه مشهد عظيم كان فيه رأس الحسين رضى الله عنه وبازائه مسجد صغير ينسب الى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وبه ماء جار وقد انتظمت امام البلاط درج ينحدر فيها الى الدهليز وهو كالخندق العظيم يتصل بباب عظيم الارتفاع تحته اعمدة كالجذوع طوال وبجانبى هذا الدهليز أعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة فيها دكاكين البزازين وغيرهم وعليها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصناع اوانى الزجاج العجيبة وفى الرحبة المتصلة بالباب الاول دكاكين لكبار الشهود منها دكانان للشافعيه وسايرها لاصحاب المذاهب يكون فى الدكان منها الخمسة والستة من العدول والعاقد للانكحة من قبل القاضى وسائر الشهود مفترقون فى المدينة وبمقربة من هذه الدكاكين سوق الوراقين الذين يبيعون الكاغد والاقلام والمداد وفى وسط الدهليز المذكور حوض من الرخام كبير مستدير عليه قبة لا سقف لها تقلها أعمدة رخام وفى وسط الحوض أنبوب نحاس يزعج الماء بقوة فيرتفع فى الهواء أزيد من قامة الانسان يسمونه الفوارة منظره عجيب وعن يمين الخارج من باب جيرون وهو باب الساعات غرفة لها هيئة طاق كبير فيه طيقان صغار مفتحة لها أبواب على عدد ساعات النهار والابواب مصبوغ باطنها بالخضرة وظاهرها بالصفرة فاذا ذهبت ساعة من النهار انقلب الباطن الاخضر ظاهرا والظاهر الاصفر باطنا ويقال ان بداخل الغرفة من يتولى قلبها بيده عند مضى الساعات والباب الغربى يعرف بباب البريد وعن يمين الخارج منه مدرسة للشافعية وله دهليز فيه حوانيت للشماعين وسماط لبيع الفواكه وباعلاه باب يصعد اليه فى درج له اعمدة سامية فى الهواء وتحت الدرج سقايتان عن يمين وشمال مستديرتان والباب الجوفى يعرف بباب النطفانيين وله دهليز عظيم وعن يمين الخارج منه خانقاة تعرف بالشميعاتية فى وسطها صهريج ماء ولها مطاهر يجرى فيها الماء ويقال انها كانت دار عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وعلى كل باب من ابواب المسجد الاربعة دار وضوء يكون فيها نحو مائة بيت تجرى فيها المياه الكثيرة

(ذكر الائمة بهذا المسجد)

وائمته ثلاثة عشر اماما اولهم امام الشافعية وكان فى عهد دخولى اليها امامهم قاضى القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزوينى من كبار الفقهاء وهو الخطيب بالمسجد وسكناه بدار الخطابة ويخرج من باب الحديد ازاء المقصورة وهو الباب الذى كان يخرج منه معاوية

رضى الله عنه وقد تولى جلال الدين بعد ذلك قضاء القضاة بالديار المصرية بعد ان ادى عنه الملك الناصر نحو مائة الف درهم كانت عليه دينا بدمشق واذا سلم امام الشافعية من صلاته اقام الصلاة امام مشهد على ثم امام مشهد الحسين ثم امام الكلاسة ثم امام مشهد أبي بكر ثم امام مشهد عمر ثم امام مشهد عثمان رضى الله عنهم اجمعين ثم امام المالكية وكان امامهم فى عهد دخولى اليها الفقيه أبو عمر بن أبي الوليد بن الحاج التجيبي القرطبي الاصل الغرناطي المولد نزيل دمشق وهو يتناوب الامامة مع اخيه رحمهما الله ثم امام الحنفية وكان امامهم فى عهد دخولى اليها الفقيه عماد الدين الحنفى المعروف بابن الرومى وهو من كبار الصوفية وله شياخة الخانقاة الخاتونية وله أيضا خانقاة بالشرف الاعلى ثم امام الحنابلة وكان فى ذلك العهد الشيخ عبد الله الكفيف احد شيوخ القراءة بدمشق ثم بعد هؤلاء خمسة ائمة لقضاء الفوائت فلا تزال الصلاة فى هذا المسجد من اول النهار الى ثلث الليل كذلك قراءة القرآن وهذا من مفاخر هذا الجامع المبارك

(ذكر المدرسين والمعلمين به)

وبهذا المسجد حلقات التدريس فى فنون العلم والمحدثون يقرأون كتب الحديث على كراسى مرتفعة وقراء القرآن يقرأون بالاصوات الحسنة صباحا ومساء وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم الى سارية من سوارى المسجد يلقن الصبيان ويقرئهم وهم لا يكتبون القرآن فى الالواح تنزيها لكتاب الله تعالى وانما يقرأون القرآن تلقينا ومعلم الخط غير معلم القرآن يعلمهم بكتب الاشعار وسواها فينصرف الصبى من التعليم الى التكتيب وبذلك جاد خطه لان المعلم للخط لا يعلم غيره ومن المدرسين بالمسجد المذكور العالم الصالح برهان الدين ابن الفركح الشافعى ومنهم العالم الصالح نور الدين أبو اليسر بن الصايغ من المشتهرين بالفضل والصلاح ولما ولى القضاء بمصر جلال الدين القزوينى وجه الى أبي اليسر الخلعة والامر بقضاء دمشق فامتنع من ذلك ومنهم الامام العالم شهاب الدين بن جهبل من كبار العلماء هرب من دمشق لما امتنع أبو اليسر من قضائها خوفا من ان يقلد القضاء فاتصل ذلك بالملك الناصر فولى قضاء دمشق شيخ الشيوخ بالديار المصرية قطب العارفين لسان المتكلمين علاء الدين القونوى وهو من كبار الفقهاء ومنهم الامام الفاضل بدر الدين على السخاوى المالكى رحمة الله عليهم أجمعين

(ذكر قضاة دمشق)

تقدم ذكرنا قاضى القضاة الشافعية بها جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزوينى واما قاضى المالكية فهو شرف الدين ابن خطيب الفيوم حسن الصورة والهيئة من كبار الرؤساء وهو شيخ

شيوخ

شيوخ الصوفية والنائب عنه فى القضاء شمس الدين بن القفصى ومجلس حكمه بالمدرسة الصمصامية واما قاضى قضاة الحنفية فهو عماد الدين الحورانى وكان شديد السطوة واليه يتحاكم النساء وازواجهن وكان الرجل اذا سمع اسم القاضى الحنفى أنصف من نفسه قبل الوصول اليه واما قاضى الحنابلة فهو الامام الصالح عز الدين ابن مسلم من خيار القضاة ينصرف على حماره ومات بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما لما توجه للحجاز الشريف

(حكايه)

وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقى الدين بن تيمية كبير الشام يتكلم فى الفنون الا ان فى عقله شيأ وكان أهل دمشق يعظمونه اشد التعظيم ويعظهم على المنبر وتكلم مرة بامر انكره الفقهاء ورفعوه الى الملك الناصر فامر باشخاصه الى القاهرة وجمع القضاة والفقهاء بمجلس الملك الناصر وتكلم شرف الدين الزواوى المالكى وقال ان هذا الرجل قال كذا وكذا وعدد ما انكر على ابن تيمية واحضر العقود بذلك ووضعها بين يدى قاضى القضاة وقال قاضى القضاة لابن تيمية ما تقول قال لا اله الا الله فاعاد عليه فاجاب بمثل قوله فامر الملك الناصر بسجنه فسجن اعواما وصنف فى السجن كتابا فى تفسير القرآن سماه بالبحر المحيط فى نحو أربعين مجلدا ثم ان امه تعرضت للملك الناصر وشكت اليه فامر باطلاقه الى ان وقع منه مثل ذلك ثانية وكنت اذ ذاك بدمشق فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم فكان من جملة كلامه ان قال ان الله ينزل الى سماء الدنيا كنزولى هذا ونزل درجة من درج المنبر فعارضه فقيه مالكى يعرف بابن الزهراء وانكر ما تكلم به فقامت العامة الى هذا الفقيه وضربوه بالايدى والنعال ضربا كثيرا حتى سقطت عمامته وظهر على رأسه شاشية حرير فانكروا عليه لباسها واحتملوه الى دار عز الدين بن مسلم قاضى الحنابلة فامر بسجنه وعزره بعد ذلك فانكر فقهاء المالكية والشافعية ما كان من تعزيره ورفعوا الامر الى ملك الامراء سيف الدين تنكيز وكان من خيار الامراء وصلحائهم فكتب الى الملك الناصر بذلك وكتب عقدا شرعيا على ابن تيمية بامور منكرة منها ان المطلق بالثلاث فى كلمة واحدة لا تلزمه الا طلقة واحدة ومنها ان المسافر الذى ينوى بسفره زيارة القبر الشريف زاده الله طيبا لا يقصر الصلاة وسوى ذلك مما يشبهه وبعث العقد الى الملك الناصر فامر بسجن ابن تيمية بالقلعة فسجن بها حتى مات فى السجن

(ذكر مدارس دمشق)

اعلم ان للشافعية بدمشق جملة من المدارس أعظمها العادلية وبها يحكم قاضى القضاة وتقابلها المدرسة الظاهرية وبها قبر الملك الظاهر وبها جلوس نواب القاضى ومن نوابه فخر الدين

القبطى كان والده من كتاب القبط واسلم ومنهم جمال الدين بن جملة وقد تولى قضاء قضاة الشافعية بعد ذلك وعزل لامر أوجب عزله

(حكاية)

كان بدمشق الشيخ الصالح ظهير الدين العجمى وكان سيف الدين تنكيز ملك الامراء يتلمذ له ويعظمه فحضر يوما بدار العدل عند ملك الامراء وحضر القضاة الاربعة فحكى قاضى القضاة جمال الدين بن جملة حكاية فقال له ظهير الدين كذبت فأنف القاضى من ذلك وامتعض له فقال للامير كيف يكذبنى بحضرتك فقال له الامير احكم عليه وسلمه اليه وظن انه يرضى بذلك فلا يناله بسوء فأحضره القاضى بالمدرسة العادلية وضربه مائتى سوط وطيف به على حمار فى مدينة دمشق ومناد ينادى عليه فتى فرغ من ندائه ضربه على ظهره ضربة وهكذا العادة عندهم فبلغ ذلك ملك الامراء فأنكره أشد الانكار وأحضر القضاة والفقهاء فأجمعوا على خطأ القاضى وحكمه بغير مذهبه فان التعزير عند الشافعى لا يبلغ به الحد وقال قاضى القضاة المالكية شرف الدين قد حكمت بتفسيقه فكتب الى الملك الناصر بذلك فعزله وللحنفية مدارس كثيرة وأكبرها مدرسة السلطان نور الدين وبها يحكم قاضى قضاة الحنفية وللمالكية بدمشق ثلاث مدارس احداها الصمصامية وبها سكن قاضى القضاة المالكية وتعوده للاحكام والمدرسة النورية عمرها السلطان نور الدين محمود بن زنكى والمدرسة الشرابشية عمرها شهاب الدين الشرابشى التاجر وللحنابلة مدارس كثيرة اعظمها المدرسة النجمية

(ذكر أبواب دمشق)

ولمدينة دمشق ثمانية أبواب منها باب الفراديس ومنها باب الجابية ومنها الباب الصغير وفيما بين هذين البابين مقبرة فيها العدد الجم من الصحابة والشهداء فمن بعدهم قال محمد بن جزى لقد احسن بعض المتأخرين من أهل دمشق فى قوله (رجز)

دمشق فى اوصافها * جنة خلد راضيه
أما ترى ابوابها * قد جعلت ثمانيه

(ذكر بعض المشاهد والمزارات بها)

فمنها بالمقبرة التى بين البابين باب الجابية والباب الصغير قبر ام حبيبة بنت ابى سفيان ام المؤمنين وقبر أخيها امير المؤمنين معاوية وقبر بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم اجمعين وقبر أويس القرنى وقبر كعب الاحبار رضى الله عنهما و وجدت فى كتاب المعلم فى شرح صحيح مسلم للقرطبى ان جماعة من الصحابة صحبهم اويس القرنى من

المدينة

المدينة الى الشام فتوفى فى اثناء الطريق فى برية لا عمارة فيها ولا ماء فتحيروا فى أمره فنزلوا فوجدوا حنوطا وكفنا وماء فتعجبوا من ذلك وغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه ثم ركبوا فقال بعضهم كيف نترك قبره بغير علامة فعادوا للموضع فلم يجدوا للقبر من أثر قال ابن جزى ويقال ان أويسا قتل بصفين مع على عليه السلام وهو الاصح ان شاء الله ويلى باب الجابية باب شرقى عنده جبانة فيها قبر أبى بن كعب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها قبر العابد الصالح رسلان المعروف بالباز الاشهب

(حكاية فى سبب تسميته بذلك)

يحكى ان الشيخ الولى احمد الرفاعى رضى الله عنه كان مسكنه بام عبيدة بمقربة من مدينة واسط وكانت بين ولى الله تعالى ابى مدين شعيب بن الحسين وبينه مؤاخاة ومراسلة ويقال ان كل واحد منهما كان يسلم على صاحبه صباحا ومساء فيرد عليه الآخر وكانت للشيخ أحمد نخيلات عند زاويته فلما كان فى احدى السنين جذها على عادته وترك عذقا منها وقال هذا برسم أخى شعيب فحج الشيخ أبو مدين تلك السنة واجتمعا بالموقف الكريم بعرفة ومع الشيخ أحمد خديمه رسلان فتفاوضا الكلام وحكى الشيخ حكاية العذق فقال له رسلان عن امرك ياسيدى اتيه به فأذن له فذهب من حينه وأتاه به ووضعه بين ايديهما فأخبر أهل الزاوية انهم رأوا عشية يوم عرفة بازا اشهب قد انقض على النخلة فقطع ذلك العذق وذهب به فى الهواء وبغربى دمشق جبانة تعرف بقبور الشهداء فيها قبر ابى الدرداء وزوجه ام الدرداء وقبر فضالة ابن عبيد وقبر واثلة بن الاسقع وقبر سهل بن حنظلة من الذين بايعوا تحت الشجرة رضى الله عنهم أجمعين وبقرية تعرف بالمنيحة شرقى دمشق وعلى أربعة اميال منها قبر سعد بن عبادة رضى الله عنه وعليه مسجد صغير حسن البناء وعلى رأسه حجر فيه مكتوب هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وبقرية قبلى البلد وعلى فرسخ منها مشهد أم كلثوم بنت على بن أبى طالب من فاطمة عليهم السلام ويقال ان اسمها زينب وكناها النبى صلى الله عليه وسلم أم كلثوم لشبهها بخالتها أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه مسجد كريم وحوله مساكن وله أوقاف ويسميه أهل دمشق قبر الست أم كلثوم وقبر آخر يقال انه قبر سكينة بنت الحسين بن على عليه السلام وبجامع النيرب من قرى دمشق فى بيت بشرقيه قبر يقال انه قبر أم مريم عليها السلام وبقرية تعرف بداريا غربى البلد وعلى أربعة أميال منها قبر أبى مسلم الخولانى وقبر أبى سليمان الدارانى رضى الله عنهما ومن مشاهد دمشق الشهيرة البركة مسجد الاقدام وهو فى قبلى دمشق على ميلين منها على قارعة الطريق الاعظم الآخذ الى الحجاز الشريف والبيت المقدس وديار مصر وهو

مسجد عظيم كثير البركة وله اوقاف كثيرة ويعظمه أهل دمشق تعظيما شديدا والاقدام التى
ينسب اليها هى اقدام مصورة فى حجر هنالك يقال انها أثر قدم موسى عليه السلام وفى هذا
المسجد بيت صغير فيه حجر مكتوب عليه كان بعض الصالحين يرى المصطفى صلى الله عليه
وسلم فى النوم فيقول له هاهنا قبر أخى موسى عليه السلام وبقربة من هذا المسجد على
الطريق موضع يعرف بالكثيب الاحمر وبقربة من بيت المقدس وأريحا موضع يعرف أيضا
بالكثيب الاحمر تعظمه اليهود

(حكاية)

شاهدت ايام الطاعون الاعظم بدمشق فى أواخر شهر ربيع الثانى سنة تسع وأربعين من
تعظيم أهل دمشق لهذا المسجد ما يعجب منه وهو ان ملك الامراء نائب السلطان ارغون شاه
أمر منادياً ينادى بدمشق ان يصوم الناس ثلاثة ايام ولا يطبخ احد بالسوق ما يؤكل نهارا
وأكثر الناس بها انما يأكلون الطعام الذى يصنع بالسوق فصام الناس ثلاثة ايام متوالية
كان آخرها يوم الخميس ثم اجتمع الامراء والشرفاء والقضاة والفقهاء وسائر الطبقات على
اختلافها فى الجامع حتى غص بهم وباتوا ليلة الجمعة به ما بين مصل وذاكر وداع ثم صلوا الصبح
وخرجوا جميعا على اقدامهم وبايديهم المصاحف والامراء حفاة وخرج جميع أهل البلد
ذكورا واناثا صغارا وكبارا وخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بانجيلهم ومعهم النساء والولدان
وجميعهم باكون متضرعون متوسلون الى الله بكتبه وانبيائه وقصدوا مسجد الاقدام
واقاموا به فى تضرعهم ودعائهم الى قرب الزوال وعادوا الى البلد فصلوا الجمعة وخفف الله
تعالى عنهم ما انتهى عدد الموتى الى الفين فى اليوم الواحد وقد انتهى عددهم بالقاهرة ومصر
الى أربعة وعشرين الفا فى يوم واحد وبالباب الشرقى من دمشق منارة بيضاء يقال انها التى
ينزل عيسى عليه السلام عندها حسبما ورد فى صحيح مسلم

(ذكر ارباض دمشق)

وتدور بدمشق من جهاتها ماعدا الشرقية ارباض فسيحة الساحات وداخلها املح من داخل
دمشق لاجل الضيق الذى فى سككها وبالجهة الشمالية منها ربض الصالحية وهى مدينة
عظيمة لها سوق لانظير لحسنه وفيها مسجد جامع ومارستان وبها مدرسة تعرف بمدرسة ابن عمر
موقوفة على من اراد ان يتعلم القرآن الكريم من الشيوخ والكهول وتجرى لهم ولمن يعلمهم
كفايتهم من المآكل والملابس وبداخل البلد أيضا مدرسة مثل هذه تعرف بمدرسة ابن منجا
وأهل الصالحية كلهم على مذهب الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه

*(

(ذكر قاسيون ومشاهده المباركة)

وقاسيون جبل فى شمال دمشق والصالحية فى سفحه وهو شهير البركة لانه مصعد الانبياء عليهم السلام ومن مشاهده الكريمة الغار الذى ولد فيه ابراهيم الخليل عليه السلام وهو غار مستطيل ضيق عليه مسجد كبير وله صومعة عالية ومن ذلك الغار رأى الكوكب والقمر والشمس حسبما ورد فى الكتاب العزيز وفى ظهر الغار مقامه الذى كان يخرج اليه وقد رأيت ببلاد العراق قرية تعرف ببرص (بضم الباء الموحدة وآخرها صاد مهمل) مابين الحلة وبغداد يقال ان مولد ابراهيم عليه السلام كان بها وهى بمقربة من بلد ذى الكفل عليه السلام وبها قبره ومن مشاهده بالغرب منه مغارة الدم وفوقها بالجبل دم هابيل بن آدم عليه السلام وقد أبقى الله منه فى الحجارة أثرا محمرا وهو الموضع الذى قتله أخوه به واجتره الى المغارة ويذكر ان تلك المغارة صلى فيها ابراهيم وموسى وعيسى وأيوب ولوط صلى الله عليهم أجمعين وعليها مسجد متقن البناء يصعد اليه على درج وفيه بيوت ومرافق للسكنى ويفتح فى كل يوم اثنين وخميس والشمع والسرج توقد فى المغارة ومنها كهف بأعلى الجبل ينسب لآدم عليه السلام وعليه بناء واسفل منه مغارة تعرف بمغارة الجوع يذكر انه آوى اليها سبعون من الانبياء عليهم السلام وكان عندهم رغيف فلم يزل يدور عليهم وكل منهم يؤثر صاحبه به حتى ماتوا جميعا صلى الله عليهم وعلى هذه المغارة مسجد مبنى والسرج تقد به ليلا ونهارا ولكل مسجد من هذه المساجد أوقاف كثيرة معينة ويذكران فيما بين باب الفراديس وجامع قاسيون مدفن سبعمائة نبى وبعضهم يقول سبعين الفا وخارج المدينة المقبرة العتيقة وهى مدفن الانبياء والصالحين وفى طرفها مما يلى البساتين ارض منخفضة غلب عليها الماء يقال انها مدفن سبعين نبيا وقد عادت قرارا للماء ونزهت من ان يدفن فيها أحد

(ذكر الربوة والقرى التى تواليها)

وفى آخر جبل قاسيون الربوة المباركة المذكورة فى كتاب الله ذات القرار والمعين ومأوى المسيح عيسى وامه عليهما السلام وهى من اجمل مناظر الدنيا ومتنزهاتها وبها القصور المشيدة والمبانى الشريفة والبساتين البديعة والمأوى المبارك مغارة صغيرة فى وسطها كالبيت الصغير وازاءها بيت يقال انه مصلى الخضر عليه السلام يبادر الناس الى الصلاة فيها وللمأوى باب حديد صغير والمسجد يدور به وله شوارع دائرة وسقاية حسنة ينزل لها الماء من علو وينصب فى شاذروان فى الجدار يتصل بحوض من رخام ويقع فيه الماء ولا نظير له فى الحسن وغرابة الشكل وبقرب ذلك مطاهر للوضوء يجرى فيها الماء وهذه الربوة المباركة هى رأس بساتين دمشق وبها منابع مياهها وينقسم الماء الخارج منها على سبعة أنهار كل نهر آخذ فى جهة

ويعرف ذلك الموضع بالمقاسم وأكبر هذه الانهار النهر المسمى بتورة وهو يشق تحت الربوة وقد نحت له مجرى فى الحجر الصلد كالغار الكبير وربما انغمس ذوالجسارة من العوامين فى النهر من أعلى الربوة واندفع فى الماء حتى يشق مجراه ويخرج من اسفل الربوة وهى مخاطرة عظيمة وهذه الربوة تشرف على البساتين الدائرة بالبلد ولها من الحسن واتساع مسرح الابصار ما ليس لسواها وتلك الانهار السبعة تذهب فى طرق شتى فتحار الاعين فى حسن اجتماعها واقترانها واندفاعها وانصبابها وجمال الربوة وحسنها التام اعظم من ان يحيط به الوصف ولها الاوقاف الكثيرة من المزارع والبساتين والرباع تقام منها وظائفها للامام والمؤذن والصادر والوارد وباسفل الربوة قرية النيرب وقد تكاثرت بساتينها وتكاثفت ظلالها وتدانت أشجارها فلا يظهر من بنائها الا ما سما ارتفاعه ولها حمام مليح ولها جامع بديع مفروش صحنه بفصوص الرخام وفيه سقاية ماء رائقة الحسن ومطهرة فيها بيوت عدة يجرى فيها الماء وفى القبلى من هذه القرية قرية المزة وتعرف بمزة كلب نسبة الى قبيلة كلب بن وبرة بن ثعلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة وكانت اقطاعا لهم واليها ينسب الامام حافظ الدنيا جمال الدين يوسف بن الزكى الكلبى المزى وكثير سواه من العلماء وهى من أعظم قرى دمشق بها جامع كبير عجيب وسقاية معينة وأكثر قرى دمشق فيها الحمامات والمساجد الجامعة والاسواق وسكانها كاهل الحاضرة فى مناحيهم وفى شرقى البلد قرية تعرف ببيت الاهية وكانت فيها كنيسة يقال ان آزر كان ينحت فيها الاصنام فيكسرها الخليل عليه السلام وهى الآن مسجد جامع بديع مزين بفصوص الرخام الملونة المنتظمة باعجب نظام وازين التئام

(ذكر الاوقاف بدمشق وبعض فضائل أهلها وعوايدهم)

والاوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته ومنها أوقاف على تجهيز البنات الى أزواجهن وهى اللواتى لا قدرة لاهلهن على تجهيزهن ومنها أوقاف لفكاك الاسارى ومنها أوقاف لابناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم ومنها أوقاف على تعديل الطرق ورصفها لان أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان فى جنبيه يمر عليهما المترجلون ويمر الركبان بين ذلك ومنها أوقاف لسوى ذلك من افعال الخير

(حكاية)

مررت يوما ببعض أزقة دمشق فرأيت به مملوكا صغيرا قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصينى وهم يسمونها الصحن فتكسرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الاوانى فجمعها وذهب الرجل معه اليه فأراه اياها فدفع له ما اشترى به

مثل

مثل ذلك الصحن وهذا من أحسن الاعمال فان سيد الغلام لا بد له ان يضربه على كسر الصحن أو ينهره وهو أيضا ينكسر قلبه ويتغير لاجل ذلك فكان هذا الوقف جبر القلوب جزى الله خيرا من تسامت همته فى الخير الى مثل هذا وأهل دمشق يتنافسون فى عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد وهم يحسنون الظن بالمغاربة ويطمئنون اليهم بالاموال والاهلين والاولاد وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لا بد ان يتأتى له وجه من المعاش من امامة مسجد أو قراءة بمدرسة أو ملازمة مسجد يجئ اليه فيه رزقه أو قراءة القرآن أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة أو يكون بجملة الصوفية بالخوانق تجرى له النفقة والكسوة فمن كان بها غريبا على خير لم يزل مصونا عن بذل وجهه محفوظا عما يزرى بالمروءة ومن كان من أهل المهنة والخدمة فله أسباب أخر من حراسة بستان او أمانة طاحونة أو كفالة صبيان يغدو معهم الى التعليم ويروح ومن أراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الاعانة التامة على ذلك ومن فضائل أهل دمشق انه لا يفطر أحد منهم فى ليالى رمضان وحده البتة فمن كان من الامراء والقضاة والكبراء فانه يدعو أصحابه والفقراء يفطرون عنده ومن كان من التجار وكبار السوقة صنع مثل ذلك ومن كان من الضعفاء والبادية فانهم يجتمعون كل ليلة فى دار أحدهم أو فى مسجد ويأتى كل أحد بما عنده فيفطرون جميعا ولما وردت دمشق وقعت بينى وبين نور الدين السخاوى مدرس المالكية صحبة فرغب منى ان أفطر عنده فى ليالى رمضان فحضرت عنده أربع ليالى ثم اصابتنى الحمى فغبت عنه فبعث فى طلبى فاعتذرت بالمرض فلم يسعنى عذرا فرجعت اليه وبت عنده فلما اردت الانصراف بالغد منعنى من ذلك وقال لى أحسب دارى كانها دارك أو دار ابيك أو اخيك وأمر باحضار طبيب وان يصنع لى بداره كل ما يشتهيه الطبيب من دواء أو غذاء وأقمت كذلك عنده الى يوم العيد وحضرت المصلى وشفانى الله تعالى مما اصابنى وقد كان ما عندى من النفقة نفد فعلم بذلك فاكترى لى جمالا واعطانى الزاد وسواه وزادنى دراهم وقال لى تكون لما عسى ان يعتريك من أمر مهم جزاه الله خيرا وكان بدمشق فاضل من كتاب الملك الناصر يسمى عماد الدين القيصرانى من عادته انه متى سمع ان مغربيا وصل الى دمشق بحث عنه واضافه وأحسن اليه فان عرف منه الدين والفضل أمره بملازمته وكان يلازمه منهم جماعة وعلى هذه الطريقة أيضا كاتب السر الفاضل علاء الدين ابن غانم وجماعة غيره وكان بها فاضل من كبرائها وهو الصاحب عز الدين القلانسى له مآثر ومكارم وفضائل وايثار وهو ذو مال عريض وذكروا ان الملك الناصر لما قدم دمشق أضافه وجميع أهل دولته ومماليكه وخواصه ثلاثة ايام فسماه اذ ذاك بالصاحب ومما يؤثر من فضائلهم ان أحد ملوكهم السالفين لما نزل به الموت أوصى ان يدفن بقبلة الجامع المكرم ويخفى قبره

وعين أوقافا عظيمة لقراء يقرأون سبعا من القرآن الكريم في كل يوم أثر صلاة الصبح بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة رضي الله عنهم حيث قبره فصارت قراءة القرآن على قبره لا تنقطع ابدا وبقي ذلك الرسم الجميل بعده مخلدا ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد انهم يخرجون بعد صلاة العصر من يوم عرفة فيقفون بصحون المساجد كبيت المقدس وجامع بني امية وسواها ويقف بهم أئمتهم كاشفي رؤسهم داعين خاضعين خاشعين ملتمسين البركة ويتوخون الساعة التي يقف فيها وفد الله تعالى وحجاج بيته بعرفات ولا يزالون في خضوع ودعا وابتهال وتوسل الى الله تعالى بحجاج بيته الى ان تغيب الشمس فينفرون كما ينفر الحاج باكين على ما حرموه من ذلك الموقف الشريف بعرفات داعين الى الله تعالى ان يوصلهم اليها ولا يخليهم من بركة القبول فيما فعلوه وهم أيضا في اتباع الجنائز رتبة عجيبة وذلك انهم يمشون امام الجنازة والقرآء يقرأون القرآن بالاصوات الحسنة والتلاحين المبكية التي تكاد النفوس تطير لها رقة وهم يصلون على الجنائز بالمسجد الجامع قبالة المقصورة فان كان الميت من ائمة الجامع اومؤذنيه اوخدامه أدخلوه بالقراءة الى موضع الصلاة عليه وان كان من سواهم قطعوا القرآءة عند باب المسجد ودخلوا بالجنازة وبعضهم يجتمع له بالبلاط الغربي من الصحن بمقربة من باب البريد فيجلسون وامامهم ربعات القرآن يقرأون فيها ويرفعون اصواتهم بالنداء لكل من يصل للعزآء من كبار البلدة واعيانها ويقولون بسم الله فلان الدين من كمال وجمال وشمس وبدر وغير ذلك فاذا أتموا القراءة قام المؤذنون فيقولون افتكروا واعتبروا صلاتكم على فلان الرجل الصالح العالم ويصفونه بصفات من الخير ثم يصلون عليه ويذهبون به الى مدفنه ولاهل الهند رتبة عجيبة في الجنائز أيضا زائدة على ذلك وهي انهم يجتمعون بروضة الميت صبيحة الثلاث من دفنه وتفرش الروضة بالثياب الرفيعة ويكسى القبر بالكسى الفاخرة وتوضع حوله الرياحين من الورد والنسرين والياسمين وذلك النوار لا ينقطع عندهم ويأتون باشجار الليمون والاترج ويجعلون فيها حبوبها ان لم تكن فيها ويجعل صيوان يظلل الناس نحوه ويأتي القضاة والامرا ومن يماثلهم فيقعدون ويقابلهم القراء ويؤتى بالربعات الكرام فيأخذ كل واحد منهم جزأ فاذا اتمت القراءة من القرا بالاصوات الحسان يدعو القاضي ويقوم قائما ويخطب خطبة معدة لذلك ويذكر فيها الميت ويرثيه بأبيات شعر ويذكر أقاربه ويعزيهم عنه ويذكر السلطان داعيا له وعند ذكر السلطان يقوم الناس ويحطون رؤسهم الى سمت الجهة التي بها السلطان ثم يقعد القاضي ويأتون بماء الورد فيصب على الناس صبا يبتدأ بالقاضي ثم من يليه كذلك الى ان يعم الناس اجمعين ثم يؤتى بأواني السكر وهو الجلاب محلولا بالما فيسقون الناس منه ويبدأون بالقاضي ومن يليه ثم يؤتى بالتنبول وهم يعظمونه

ويكرمون

ويكرمون من يأتي لهم به فاذا أعطى السلطان أحدا منه فهو أعظم من اعطاء الذهب والخلع واذا مات الميت لم يأكل أهل التنبول الا فى ذلك اليوم فيأخذ القاضى او من يقوم مقامه اوراقا منه فيعطيها ولى الميت فيأكلها او ينصرفون حينئذ وسيأتى ذكر التنبول ان شاء الله تعالى

(ذكر سماعى بدمشق ومن أجازنى من أهلها)

سمعت بجامع بنى امية عمره الله بذكره جميع صحيح الامام ابى عبد الله محمد بن اسماعيل الجعفى البخارى رضى الله عنه على الشيخ المعمر رحلة الآفاق ملحق الاصاغر بالاكابر شهاب الدين احمد بن أبى طالب بن أبى النعم بن حسن بن على بن بيان الدين مقرئ الصالحى المعروف بابن الشحنة الحجازى فى أربعة عشر مجلسا اولها يوم الثلاثا منتصف شهر رمضان المعظم سنة ست وعشرين وسبعمائة وآخرها يوم الاثنين الثامن والعشرين منه بقراءة الامام الحافظ مؤرخ الشام علم الدين ابى محمد القاسم بن محمد بن يوسف البرزالى الاشبيلى الاصل الدمشقى فى جماعة كبيرة كتب اسماءهم محمد بن طغريل بن عبد الله بن الغزال الصيرفى بسماع الشيخ ابى العباس الحجازى لجميع الكتاب من الشيخ الامام سراج الدين أبى عبد الله الحسين بن أبى بكر المبارك بن محمد بن يحيى بن على بن المسيح بن عمران الربيعى البغدادى الزبيدى الحنبلى فى أواخر شوال وأوائل ذى القعدة من سنة ثلاثين وستمائة بالجامع المظفرى بسفح جبل قاسيون ظاهر دمشق وباجازته فى جميع الكتاب من الشيخين ابى الحسن محمد بن أحمد بن عمر ابن الحسين بن الخلف القطيعى المؤرخ وعلى بن ابى بكر بن عبد الله بن روبة القلانسى العطار البغدادى ومن باب غيرة النسا ووجدهن الى آخر الكتاب من أبى المنجا عبد الله بن عمر بن على بن زيد بن اللتى الخزاعى البغدادى بسماع أربعتهم من الشيخ سديد الدين ابى الوقت عبد الاول بن عيسى بن شعيب بن ابراهيم السجزى الهروى الصوفى فى سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ببغداد قال اخبرنا الامام جمال الاسلام ابو الحسن عبد الرحمن ابن محمد بن المظفر بن محمد بن داود بن أحمد بن معاذ بن سهل بن الحكم الداودى قراءة عليه وأنا أسمع ببوشنج سنة خمس وستين وأربعمائة قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حوية ابن يوسف بن أعين السرخسى قراءة عليه وانا اسمع فى صفر سنة احدى وثمانين وثلاثمائة قال اخبرنا عبد الله محمد بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر بن ابراهيم الفربرى قراءة عليه وأنا اسمع سنة ست عشرة وثلاثمائة بفربر قال اخبرنا الامام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى رضى الله عنه سنة ثمان وأربعين ومائتين بفربر ومرة ثانية بعدها سنة ثلاث وخمسين وممن أجازنى من أهل دمشق اجازة عامة الشيخ أبو العباس الحجازى المذكور سبق الى ذلك وتلفظ لى به ومنهم الشيخ

الامام شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن احمد بن محمد المقدسي ومولده في ربيع الاول سنة ثلاث وخمسين وستمائة ومنهم الشيخ الامام الصالح عبد الرحمن بن محمد بن احمد بن عبد الرحمن النجدي ومنهم امام الائمة جمال الدين ابو المحاسن يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف المزني الكلبي حافظ الحفاظ ومنهم الشيخ الامام علاء الدين علي بن يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعي والشيخ الامام الشريف محيي الدين يحيى بن محمد بن علي العلوي ومنهم الشيخ الامام المحدث مجد الدين القاسم بن عبد الله بن أبي عبد الله بن المعلى الدمشقي ومولده سنة أربع وخمسين وستمائة ومنهم الشيخ الامام العالم شهاب الدين أحمد بن ابراهيم ابن فلاح بن محمد الاسكندري ومنهم الشيخ الامام ولي الله تعالى شمس الدين بن عبد الله بن تمام والشيخان الاخوان شمس الدين محمد وكمال الدين عبد الله ابنا ابراهيم بن عبد الله بن أبي عمر المقدسي والشيخ العابد شمس الدين محمد بن أبي الزهراء بن سالم الهكاري والشيخة الصالحة أم محمد عائشة بنت محمد بن مسلم بن سلامة الحراني والشيخة الصالحة رحلة الدنيا زينب بنت كمال الدين احمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي كل هؤلاء أجازني اجازة عامة في سنة ست وعشرين بدمشق ولما استهل شوال من السنة المذكورة خرج الركب الحجازي الى خارج دمشق ونزلوا القرية المعروفة بالكسوة فأخذت في الحركة معهم وكان امير الركب سيف الدين الجوبان من كبار الامراء وقاضيه شرف الدين الاذرعي الحوراني وحج في تلك السنة مدرس المالكية صدر الدين الغماري وكان سفري مع طائفة من العرب تدعى العجارمة أميرهم محمد بن رافع كبير القدر في الامراء وارتحلنا من الكسوة الى قرية تعرف بالصنمين عظيمة ثم ارتحلنا منها الى بلدة زرعة وهي صغيرة من بلاد حوران نزلنا بالقرب منها ثم ارتحلنا الى مدينة بصرى وهي صغيرة ومن عادة الركب ان يقيم بها أربعا ليلحق بهم من تخلف بدمشق لقضاء مأربه والى بصرى وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعث في تجارة خديجة وبها مبرك ناقته قد بني عليه مسجد عظيم ويجتمع اهل حوران لهذه المدينة ويتزود الحاج منها ثم يرحلون الى بركة زيزة (زيزا) ويقيمون عليها يوما ثم يرحلون الى اللجون وبها الماء الجاري ثم يرحلون الى حصن الكرك وهو من أعجب الحصون وأمنعها وأشهرها ويسمى بحصن الغراب والوادي يطيف به من جميع جهاته وله باب واحد قد نحت المدخل اليه في الحجر الصلد ومدخل دهليزه كذلك وبهذا الحصن تحصن الملوك واليه يلجأون في النوائب وله لجأ الملك الناصر لانه ولي الملك وهو صغير السن فاستولى على التدبير مملوكه سلار النائب عنه فاظهر الملك الناصر انه يريد الحج ووافقه الامراء على ذلك فتوجه الى الحج فلما وصل عقبة ايلة لجأ الى الحصن وأقام به اعواما الى ان قصده أمراء الشام واجتمعت عليه المماليك وكان قد ولي الملك في تلك المدة

بيبرس الششنكير وهو أمير الطعام وتسمى بالملك المظفر وهو الذى بنا الخانقاة البيبرسية بقربة من خانقاة سعيد السعداء التى بناها صلاح الدين ابن أيوب فقصده الملك الناصر بالعساكر ففر بيبرس الى الصحراء فتبعته العساكر وقبض عليه واوتى به الى الملك الناصر فامر بقتله فقتل وقبض على سلار وحبس فى جب حتى مات جوعا ويقال انه اكل جيفة من الجوع نعوذ بالله من ذلك واقام الركب بخارج الكرك أربعة أيام بموضع يقال له الثنية وتجهزوا لدخول البرية ثم ارتحلنا الى معان وهو آخر بلاد الشام ونزلنا من عقبة الصوان الى الصحراء التى يقال فيها داخلها مفقود وخارجها مولود وبعد مسيرة يومين نزلنا ذات حج وهى حسيان لا عمارة بها ثم الى وادى بلدح ولا ماء به ثم الى تبوك وهو الموضع الذى غزاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها عين ماء كانت تبض بشئ من الماء فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوضأ منها جادت بالماء المعين ولم تزل الى هذا العهد ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن عادة حجاج الشام اذا وصلوا منزل تبوك أخذوا أسلحتهم وجردوا سيوفهم وحملوا على المنزل وضربوا النخيل بسيوفهم ويقولون هكذا دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وينزل الركب العظيم على هذه العين فيروى منها جميعهم ويقيمون أربعة أيام للراحة وارواء الجمال واستعداد الماء للبرية المخوفة التى بين العلا وتبوك ومن عادة السقائين انهم ينزلون على جوانب هذه العين ولهم أحواض مصنوعة من جلود الجواميس كالصهاريج الضخام يسقون منها الجمال ويملأون الروايا والقرب ولكل أمير أو كبير حوض يسقى منه جماله وجمال أصحابه ويملأ رواياهم وسواهم من الناس يتفق مع السقائين على سقى جمله وملأ قربته بشئ معلوم من الدراهم ثم يرحل الركب من تبوك ويجدون السير ليلا ونهارا خوفا من هذه البرية وفى وسطها الوادى الاخيضر كانه وادى جهنم اعاذنا الله منها واصاب الحجاج به فى بعض السنين مشقة بسبب ريح السموم التى تهب فانتشفت المياه وانتهت شربة الماء الى ألف دينار ومات مشتريها وبائعها وكتب ذلك فى بعض صخر الوادى ومن هنالك ينزلون بركة المعظم وهى ضخمة نسبتها الى الملك المعظم من اولاد أيوب ويجتمع بها ماء المطر فى بعض السنين وربما جف فى بعضها وفى الخامس من أيام رحيلهم عن تبوك يصلون الى بئر الحجر حجر ثمود وهى كثيرة الماء ولكن لا يردها أحد من الناس مع شدة عطشهم اقتداء بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بها فى غزوة تبوك فأسرع براحلته وأمر أن لا يسقى منها أحد ومن عجن به أطعمه الجمال وهنالك ديار ثمود فى جبال من الصخر الاحمر منحوتة لها عتب منقوشة يظن رائيها انها حديثة الصنعة وعظامهم نخرة فى داخل تلك البيوت ان فى ذلك لعبرة ومبرك ناقة صالح عليه السلام بين جبلين هنالك وبينهما أثر مسجد يصلى الناس فيه وبين الحجر والعلا نصف يوم

اودونه والعلا قرية كبيرة حسنة لها بساتين النخل والمياه المعينة يقيم بها الحجاج أربعا يتزودون وويغسلون ثيابهم ويدعون بها ما يكون عندهم من فضل زاد ويستصحبون قدر الكفاية وأهل هذه القرية أصحاب امانة واليها ينتهي تجار نصارى الشام لا يتعدونها ويبايعون الحجاج بها الزاد وسواه ثم يرحل الركب من العلا فينزلون في غد رحيلهم الوادي المعروف بالعطاس وهو شديد الحر تهب فيه السموم المهلكة هبت بعض السنين على الركب فلم يخلص منهم الا اليسير وتعرف تلك السنة سنة الامير الجالقي ومنه ينزلون هدية وهي حسيان ماء بواد يحفرون به فيخرج الماء وهو زعاق وفي اليوم الثالث ينزلون بظاهر البلد المقدس الكريم الشريف

(طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم)

وفي عشي ذلك اليوم دخلنا الحرم الشريف وانتهينا الى المسجد الكريم فوقفنا بباب السلام مسلمين وصلينا بالروضة الكريمة بين القبر والمنبر الكريم واستلمنا القطعة الباقية من الجذع الذي حن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي ملصقة بعمود قائم بين القبر والمنبر عن يمين مستقبل القبلة وأدينا حق السلام على سيد الاولين والآخرين وشفيع العصاة والمذنبين الرسول النبي الهاشمي الابطحي محمد صلى الله عليه وسلم تسليما وشرف وكرم وحق السلام على ضجيعيه وصاحبيه أبي بكر الصديق وأبي حفص عمر الفاروق رضي الله عنهما وانصرفنا الى رحلنا مسرورين بهذه النعمة العظمى مستبشرين بنيل هذه المنة الكبرى حامدين لله تعالى على البلوغ الى معاهد رسوله الشريفة ومشاهده العظيمة المنيفة داعين ان لا يجعل ذلك آخر عهدنا بها وان يجعلنا ممن قبلت زيارته وكتبت في سبيل الله سفرته

(ذكر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وروضته الشريفة)

المسجد المعظم مستطيل تحفه من جهاته الاربع بلاطات دائرة به ووسطه صحن مفروش بالحصى والرمل ويدور بالمسجد الشريف شارع مبلط بالحجر المنحوت والروضة المقدسة صلوات الله وسلامه على ساكنها في الجهة القبلية مما يلي الشرق من المسجد الكريم وشكلها عجيب لا يتأتى تمثيله وهي مدورة بالرخام البديع النحت الرائق النعت قد علاها تضمخ المسك والطيب مع طول الازمان وفي الصفحة القبلية منها مسمار فضة هو قبالة الوجه الكريم وهنالك يقف الناس للسلام مستقبلين الوجه الكريم مستدبرين القبلة فيسلمون وينصرفون يمينا الى وجه أبي بكر الصديق ورأس أبي بكر رضي الله عنه عند قدمي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ينصرفون الى عمر بن الخطاب ورأس عمر عند كتفي أبي بكر رضي الله عنهما وفي الجوفي من الروضة المقدسة زادها الله طيبا حوض صغير مرخم في قبلته شكل محراب يقال

انه

انه كان بيت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ويقال أيضا هو قبرها والله أعلم وفي وسط المسجد الكريم دفة مطبقة على وجه الارض مقفلة على سرداب له درج يفضي الى دار أبي بكر رضي الله عنه خارج المسجد وعلى ذلك السرداب كان طريق بنته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها الى داره ولاشك انه هو الخوخة التي ورد ذكرها في الحديث وأمر النبي صلى الله عليه وسلم تسليما بابقائها وسد ما سواها وبازاء دار أبي بكر رضي الله عنه دار عمر ودار ابنه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وبشرقي المسجد الكريم دار امام المدينة أبي عبد الله مالك بن أنس رضي الله عنه وبمقربة من باب السلام سقاية ينزل اليها على درج ماؤها معين وتعرف بالعين الزرقاء

(ذكر ابتداء بناء المسجد الكريم)

قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما المدينة الشريفة دار الهجرة يوم الاثنين الثالث عشر من شهر ربيع الاول فنزل على بني عمرو بن عوف واقام عندهم ثنتين وعشرين ليلة وقيل أربع عشرة ليلة وقيل أربع ليال ثم توجه الى المدينة فنزل على بني النجار بدار أبي أيوب الانصاري رضي الله عنه واقام عنده سبعة أشهر حتى بنى مساكنه ومسجده وكان موضع المسجد مربدا لسهل وسهيل ابني رافع بن أبي عمر بن عائذ بن ثعلبة بن غانم بن ملك بن النجار وهما يتيمان في حجر أسعد بن زرارة رضي الله عنهم أجمعين وقيل كانا في حجر أبي أيوب رضي الله عنه فابتاع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ذلك المربد وقيل بل أرضاهما أبو أيوب عنه وقيل انهما وهباه لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما المسجد وعمل فيه مع أصحابه وجعل عليه حائطا ولم يجعل له سقفا ولا اساطين وجعله مربعا طوله مائة ذراع وعرضه مثل ذلك وقيل ان عرضه كان دون ذلك وجعل ارتفاع حائطه قدر القامة فلما اشتد الحر تكلم أصحابه في تسقيفه فاقام له أساطين من جذوع النخل وجعل سقفه من جريدها فلما أمطرت السماء وكف المسجد فكلم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمله بالطين فقال كلا عريش كعريش موسى أو ظلة كظلة موسى والامر اقرب من ذلك قيل وما ظلة موسى قال صلى الله عليه وسلم كان اذا قام أصاب السقف رأسه وجعل للمسجد ثلاثة أبواب ثم سد الجنوبي منها حين حولت القبلة وبقي المسجد على ذلك حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وحياة أبي بكر رضي الله عنه فلما كانت ايام عمر بن الخطاب رضي الله عنه زاد في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وقال لولا اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما يقول ينبغي ان نزيد في المسجد مازدت فيه فانزل اساطين الخشب وجعل مكانها اساطين اللبن وجعل الاساس حجارة

الى القامة وجعل الابواب ستة منها فى كل جهة ماعدا القبلة بابان وقال فى باب منها ينبغى ان ايترك هذا للنساء فما رئى فيه حتى لقى الله عز وجل وقال لو زدنا فى هذا المسجد حتى يبلغ الجبانة لم يزل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم واراد عمر ان يدخل فى المسجد موضعا للعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ورضى عنهما فمنعه منه وكان فيه ميزاب يصب فى المسجد فنزعه عمر وقال انه يؤذى الناس فنازعه العباس وحكما بينهما أبى بن كعب رضى الله عنهما فأتيا داره فلم يأذن لهما الا بعد ساعة ثم دخلا اليه فقال كانت جاريتى تغسل رأسى فذهب عمر ليتكلم فقال له أبى دع أبا الفضل يتكلم لمكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فقال العباس خطة خطها لى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وبنيتها معه وما وضعت الميزاب الا ورجلاى على عاتقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء عمر فطرحه وأراد ادخالها فى المسجد فقال أبى ان عندى من هذا علما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما يقول أراد داود عليه السلام أن يبنى بيت الله المقدس وكان فيه بيت ليتيمين فراودهما على البيع فأبيا ثم رادهما فباعاه ثم قاما بالغبن فرد البيع واشتراه منهما ثم رداه كذلك فاستعظم داود الثمن فأوحى الله اليه ان كنت تعطى من شئ هولك فأنت أعلم وان كنت تعطيهما من رزقنا فأعطهما حتى يرضيا وان أغنى البيوت عن مظلمة بيت هولى وقد حرمت عليك بناءه قال يا رب فاعطه سليمان فأعطاه سليمان عليه السلام فقال عمر من لى بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما قاله فخرج أبى الى قوم من الانصار فاثبتوا له ذلك فقال عمر رضى الله عنه أما انى لو لم أجد غيرك أخذت قولك ولكنى أحببت أن أثبت ثم قال للعباس رضى الله عنه والله لا ترد الميزاب الا وقدماك على عاتقى ففعل العباس ذلك ثم قال أما اذا أثبتت لى فهى صدقة لله فهدمها عمر وأدخلها فى المسجد ثم زاد فيه عثمان رضى الله عنه وبناه بقوة وباشره بنفسه فكان يظل فيه نهاره وبيضه وأتقن محله بالحجارة المنقوشة ووسعه من جهاته الا جهة الشرق منها وجعل له سوارى حجارة مثبتة بأعمدة الحديد والرصاص وسقفه بالساج وصنع له محرابا وقيل ان مروان هو أول من بنى المحراب وقيل عمر ابن عبد العزيز فى خلافة الوليد ثم زاد فيه الوليد بن عبد الملك تولى ذلك عمر بن عبد العزيز فوسعه وحسنه وبالغ فى اتقانه وعمله بالرخام والساج المذهب وكان الوليد بعث الى ملك الروم انى أريد أن أبنى مسجد نبينا صلى الله عليه وسلم تسليما فأعنى فيه فبعث اليه الفعلة وثمانين ألف مثقال من الذهب وأمر الوليد بادخال حجر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم تسليما فيه فاشترى عمر من الدور ما زاده فى ثلاث جهات من المسجد فلما صار الى القبلة امتنع عبيد الله ابن عبد الله بن عمر من بيع دار حفصة وطال بينهما الكلام حتى ابتاعها عمر على أن لهم ما بقى

منها

منها وعلى ان يخرجوا من باقيها طريقا الى المسجد وهى الخوخة التى فى المسجد وجعل عمر للمسجد أربع صوامع فى اربعة اركانه وكانت احداها مطلة على دار مروان فلما حج سليمان ابن عبد الملك نزل بها فاطل عليه المؤذن حين الاذان فامر بهدمها وجعل عمر للمسجد محرابا ويقال هو اول من احدث المحراب ثم زاد فيه المهدى بن أبى جعفر المنصور وكان أبوه هم بذلك ولم يقض له وكتب اليه الحسن ابن زيد يرغبه فى الزيادة فيه من جهة الشرق ويقول انه ان زيد فى شرقيه توسطت الروضة الكريمة المسجد الكريم فاتهمه أبو جعفر بانه انما اراد هدم دار عثمان رضى الله عنه فكتب اليه انى قد عرفت الذى اردت فاكفف عن دار الشيخ عثمان وأمر أبو جعفر ان يظلل الصحن أيام القيظ بستور تنشر على حبال ممدودة على خشب تكون فى الصحن لتكن المصلين من الحر وكان طول المسجد فى بناء الوليد مائتى ذراع فبلغه المهدى الى ثلاثمائة ذراع وسوى المقصورة بالارض وكانت مرتفعة عنها بمقدار ذراعين وكتب اسمه على مواضع من المسجد ثم أمر الملك المنصور قلاوون ببناء دار للوضوء عند باب السلام فتولى بناءها الامير الصالح علاء الدين المعروف بالاقمر واقامها متسعة الفناء تستدير بها البيوت واجرى اليها الماء واراد ان يبنى بمكة شرفها الله تعالى مثل ذلك فلم يتم له فبناه ابنه الملك الناصر بين الصفا والمروة وسيذكر ان شاء الله وقبلة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما قبلة قطع لانه صلى الله عليه وسلم تسليما اقامها وقيل اقامها جبريل عليه السلام وقيل كان جبريل يشير له الى سمتها وهو يقيمها وروى ان جبريل عليه السلام أشار الى الجبال فتواضعت فتنحت حتى بدت الكعبة فكان صلى الله عليه وسلم تسليما يبنى وهو ينظر اليها عيانا وبكل اعتبار فهى قبلة قطع وكانت القبلة أول ورود النبى صلى الله عليه وسلم تسليما المدينة الى بيت المقدس ثم حولت الى الكعبة بعد ستة عشر شهرا وقيل بعد سبعة عشر شهرا

(ذكر المنبر الكريم)

وفى الحديث ان رسول الله صلى عليه وسلم تسليما كان يخطب الى جذع نخلة بالمسجد فلما صنع له المنبر وتحول اليه حن الجذع حنين الناقة الى حوارها وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما نزل اليه فالتزمه فسكن وقال لولم ألتزمه لحن الى يوم القيامة واختلفت الروايات فيمن صنع المنبر الكريم فروى ان تميم الدارى رضى الله عنه هو الذى صنعه وقيل ان غلاما للعباس رضى الله عنه صنعه وقيل غلام لامرأة من الانصار وورد ذلك فى الحديث الصحيح وصنع من طرفاء الغابة وقيل من الاثل وكان له ثلاث درجات فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد على علياهن ويضع رجليه الكريمتين فى وسطاهن فلما ولى أبو بكر الصديق رضى الله عنه قعد على وسطاهن وجعل رجليه على أولاهن فلما ولى عمر رضى الله عنه جلس على أولاهن

وجعل رجليه على الارض وفعل ذلك عثمان رضى الله عنه صدرا من خلافته ثم ترقى الى الثالثة ولما ان صار الامر الى معاوية رضى الله عنه اراد نقل المنبر الى الشام فضج المسلمون وعصفت ريح شديدة وخسفت الشمس وبدت النجوم نهارا وأظلمت الارض فكان الرجل يصادم الرجل ولا يتبين مسلك فلما رأى ذلك معاوية تركه وزاد فيه ست درجات من أسفله فبلغ تسع درجات

(ذكر الخطيب والامام بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم)

وكان الامام بالمسجد الشريف فى عهد دخولى الى المدينة بهاء الدين ابن سلامة من كبار أهل مصر وينوب عنه العالم الصالح الزاهد بغية المشايخ عز الدين الواسطى نفع الله به وكان يخطب قبله ويقضى بالمدينة الشريفة سراج الدين عمر المصرى

(حكاية)

يذكر ان سراج الدين هذا اقام فى خطة القضاء بالمدينة والخطابة بها نحو اربعين سنة ثم انه اراد الخروج بعد ذلك الى مصر فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم ثلاث مرات فى كل مرة ينهاه عن الخروج منها وأخبره باقتراب أجله فلم ينته عن ذلك وخرج فمات بموضع يقال له سويس على مسيرة ثلاث من مصر قبل ان يصل اليها نعوذ بالله من سوء الخاتمة وكان ينوب عنه الفقيه أبو عبد الله محمد بن فرحون رحمه الله وابناؤه الآن بالمدينة الشريفة أبو محمد عبد الله مدرس المالكية ونائب الحكم وأبو عبد الله محمد وأصلهم من مدينة تونس ولهم بها حسب واصالة وتولى الخطابة والقضاء بالمدينة الشريفة بعد ذلك جمال الدين الاسيوطى من أهل مصر وكان قبل ذلك قاضيا بحصن الكرك

(ذكر خدام المسجد الشريف والمؤذنين به)

وخدام هذا المسجد الشريف وسدنته فتيان من الاحابيش وسواهم وهم على هيآت حسان وصور نظاف وملابس ظراف وكبيرهم يعرف بشيخ الخدام وهو فى هيئة الامراء الكبار ولهم المرتبات بديار مصر والشام ويؤتى اليهم بها فى كل سنة ورئيس المؤذنين بالحرم الشريف الامام المحدث الفاضل جمال الدين المطرى من مطرية قرية بمصر وولده الفاضل عفيف الدين عبد الله والشيخ المجاور الصالح أبو عبد الله محمد بن محمد الغرناطى المعروف بالتراس قديم المجاورة وهو الذى جب نفسه خوفا من الفتنة

(حكاية)

يذكر ان أبا عبد الله الغرناطى كان خديما لشيخ يسمى عبد الحميد العجمى وكان الشيخ حسن الظن به يطمئن اليه بأهله وماله ويتركه متى سافر بداره فسافر مرة وتركه على عادته بمنزله

فعلقت

فعلقت به زوجة الشيخ عبد الحميد وراودته عن نفسه فقال اني اخاف الله ولا أخون من ائتمنني على اهله وماله فلم تزل تراوده وتعارضه حتى خاف على نفسه الفتنه وجب نفسه وغشي عليه ووجده الناس على تلك الحالة فعالجوه حتى برئ وصار من خدام المسجد الكريم ومؤذنا به ورأس الطائفتين وهو باق بقيد الحياة الى هذا العهد

(ذكر المجاورين بالمدينة الشريفه)

منهم الشيخ الصالح الفاضل أبو العباس أحمد بن محمد بن مرزوق كثير العبادة والصوم والصلاة بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما صابر محتسب وكان ربما جاور بمكة المعظمة رأيته بها في سنة ثمان وعشرين وهو أكثر الناس طوافا وكنت أعجب من ملازمته الطواف مع شدة الحر بالمطاف والمطاف مفروش بالحجارة السود وتصير بحر الشمس كانها الصفائح المحماة ولقد رأيت السقائين يصبون الماء عليها فما يجاوز الموضع الذي يصب فيه الا ويلتهب الموضع من حينه وأكثر الطائفين في ذلك الوقت يلبسون الجوارب وكان أبو العباس بن مرزوق يطوف حافي القدمين ورأيته يوما يطوف فاحببت ان أطوف معه فوصلت المطاف وأردت استلام الحجر الاسود فلحقني لهب تلك الحجارة واردت الرجوع بعد تقبيل الحجر فما وصلته الا بعد جهد عظيم ورجعت فلم أطف وكنت أجعل بجادي على الارض وأمشي عليه حتى بلغت الرواق وكان في ذلك العهد بمكة وزير غرناطة وكبيرها أبو القاسم محمد بن محمد ابن الفقيه أبي الحسن سهل بن مالك الازدي وكان يطوف كل يوم سبعين أسبوعا ولم يكن يطوف في وقت القائلة لشدة الحر وكان ابن مرزوق يطوف في شدة القائلة زيادة عليه ومن المجاورين بالمدينة كرمها الله الشيخ الصالح العابد سعيد المراكشي الكفيف ومنهم الشيخ أبو مهدي عيسى بن حزرون المكناسي

(حكاية)

جاور الشيخ أبو مهدي بمكة سنة ثمان وعشرين وخرج الى جبل حراء مع جماعة من المجاورين فلما صعدوا الجبل ووصلوا المتعبد النبي صلى الله عليه وسلم تسليما ونزلوا عنه تأخر أبو مهدي عن الجماعة ورأى طريقا في الجبل فظنه قاصرا فسلك عليه ووصل الصحابة الى اسفل الجبل فانتظروه فلم يأت فتطلعوا فيما حولهم فلم يروا له أثرا فظنوا انه سبقهم فمضوا الى مكه شرفها الله تعالى ومر عيسى على طريقه فافضى به الى جبل آخر وتاه عن الطريق واجهده العطش والحر وتمزقت نعله فكان يقطع من ثيابه ويلف على رجليه الى ان ضعف عن المشي واستظل بشجرة ام غيلان فبعث الله اعرابيا على جمل حتى وقف عليه فاعلمه بحاله فاركبه واوصله الى مكة وكان على وسطه هميان فيه ذهب فسلمه اليه واقام نحو شهر لا يستطيع القيام على قدميه

وذهبت جلدتهما ونبتت لهما جلدة اخرى وقد جرى مثل ذلك لصاحب لي اذكره ان شاء الله
ومن المجاورين بالمدينة الشريفة أبو محمد الشروى من القراء المحسنين وجاور بمكة في السنة
المذكورة وكان يقرأ بها كتاب الشفاء للقاضي عياض بعد صلاة الظهر وأم في التراويح بها
ومن المجاورين الفقيه أبو العباس الفاسي مدرس المالكية بها وتزوج ببنت الشيخ الصالح
شهاب الدين الزرندى

(حكاية)

يذكر ان أبا العباس الفاسي تكلم يوما مع بعض الناس فانتهى به الكلام الى ان تكلم بعظيمة ارتكب فيها بسبب جهله بعلم النسب وعدم حفظه للسانه مرتكبا صعبا عفا الله عنه فقال ان الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام لم يعقب فبلغ كلامه الى أمير المدينة طفيل بن منصور بن جماز الحسني فانكر كلامه ويحق انكاره واراد قتله فكلم فيه فنفاه عن المدينة ويذكر انه بعث من اغتاله والى الآن لم يظهر له أثر نعوذ بالله من عثرات اللسان وزلله

(ذكر أمير المدينة الشريفة)

كان أمير المدينة كبيش بن منصور بن جماز وكان قد قتل عمه مقبلا ويقال انه توضأ بدمه ثم ان كبيشا خرج سنة سبع وعشرين الى الفلاة في شدة الحر ومعه أصحابه فادركتهم القائلة في بعض الايام فتفرقوا تحت ظلال الاشجار فما راعهم الا وابناء مقبل في جماعة من عبيدهم ينادون يالثارات مقبل فقتلوا كبيش بن منصور صبرا ولعقوا دمه وتولى بعده أخوه طفيل بن منصور الذي ذكرنا انه نفى أبا العباس الفاسي

(ذكر بعض المشاهد الكريمة بخارج المدينة الشريفة)*

فمنها بقيع الغرقد وهو بشرقي المدينة المكرمة ويخرج اليه على باب يعرف بباب البقيع فاول ما يلقى الخارج اليه على يساره عند خروجه من الباب قبر صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنهما وهي عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وام الزبير بن العوام رضى الله عنه وامامها قبر امام المدينة أبي عبد الله مالك بن أنس رضى الله عنه وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء وامامه قبر السلالة الطاهرة المقدسة النبوية الكريمة ابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وعليه قبة بيضاء وعن يمينها تربة عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما وهو المعروف بأبي شحمة وبازائه قبر عقيل بن أبي طالب رضى الله عنه وقبر عبد الله بن ذى الجناحين جعفر بن أبي طالب رضى الله عنهما وبازائهم روضة يذكر ان قبور أمهات المؤمنين بها رضى الله عنهن ويليها روضة فيها قبر العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام وهي قبة ذاهبة في الهواء بديعة

الاحكام

الاحكام عن يمين الخارج من باب البقيع و رأس الحسن الى رجلى العباس عليهما السلام
وقبراهما مرتفعان عن الارض متسعان مغشيان بالواح بديعة الالصاق مرصعة بصفائح
الصفر البديعة العمل وبالبقيع قبور المهاجرين والانصار وسائر الصحابة رضى الله عنهم
الا انها لا يعرف أكثرها وفى آخر البقيع قبر أمير المؤمنين أبى عمر عثمان بن عفان رضى الله
عنه وعليه قبة كبيرة وعلى مقربة منه قبر فاطمة بنت أسد بن هاشم أم على بن أبى طالب
رضى الله عنها وعن ابنها ومن المشاهد الكريمة قباء وهو قبلى المدينة على نحو ميلين منها
والطريق بينهما فى حدائق النخل وبه المسجد الذى اسس على التقوى والرضوان وهو
مسجد مربع فيه صومعة بيضاء طويلة تظهر على البعد وفى وسطه مبرك الناقة بالنبى صلى
الله عليه وسلم تسليما يتبرك الناس بالصلاة فيه وفى الجهة القبلية من صحنه محراب على
مسطبة هو أول موضع ركع فيه النبى صلى الله عليه وسلم تسليما وفى قبلى المسجد دار كانت لابى
أيوب الانصارى رضى الله عنه ويليها دور تنتسب لابى بكر وعمر وفاطمة وعائشة رضى الله
عنهم وبازائه بئر اريس وهى التى عاد ماؤها عذبا لما تفل فيه النبى صلى الله عليه وسلم تسليما
بعد ان كان أجاجا وفيها وقع الخاتم الكريم من عثمان رضى الله عنه ومن المشاهد قبة حجر الزيت
بخارج المدينة الشريفة يقال ان الزيت رشح من حجر هنالك للنبى صلى الله عليه وسلم تسليما
والى جهة الشمال منه بئر بضاعة وبازائها جبل الشيطان حيث صرخ يوم أحد وقال قتل نبيكم
وعلى شفير الخندق الذى حفره رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما عند تحزب الاحزاب
حصن خرب يعرف بحصن العزاب يقال ان عمر بناه لعزاب المدينة وامامه الى جهة الغرب بئر
رومة التى اشترى أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه نصفها بعشرين الفا ومن المشاهد الكريمة
أحد وهو الجبل المبارك الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ان أحدا جبل يحبنا
ونحبه وهو بحوفى المدينة الشريفة على نحو فرسخ منها وبازائه الشهداء المكرمون رضى الله
عنهم وهنالك قبر حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ورضى الله عنه وحوله الشهداء
المستشهدون فى أحد رضى الله عنهم وقبورهم لقبلى أحد وفى طريق أحد مسجد ينسب لعلى
ابن أبى طالب رضى الله عنه ومسجد ينسب الى سلمان الفارسى رضى الله عنه ومسجد الفتح
حيث أنزلت سورة الفتح على رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وكانت اقامتنا بالمدينة
الشريفة فى هذه الوجهة أربعة أيام وفى كل ليلة نبيت بالمسجد الكريم والناس قد حلقوا فى
صحنه حلقا واوقدوا الشمع الكثير وبينهم ربعات القرآن الكريم يتلونه وبعضهم يذكرون الله
وبعضهم فى مشاهدة التربة الطاهرة زادها الله طيبا والحداة بكل جانب يترنمون بمدح رسول
الله صلى الله عليه وسلم تسليما وهكذا دأب الناس فى تلك الليالى المباركة ويجودون بالصدقات

الكثيرة على المجاورين والمحتاجين وكان فى صحبتى فى هذه الوجهة من الشام الى المدينة الشريفة رجل من أهلها فاضل يعرف بمنصور بن شكل واضافنى بها واجتمعنا بعد ذلك بحلب وبخارى وكان فى صحبتى أيضا قاضى الزيدية شرف الدين قاسم بن سنان وصحبنى أيضا أحد الصلحاء الفقراء من أهل غرناطة يسمى بعلى بن حجر الاموى

(حكاية)

لما وصلنا الى المدينة كرمها الله على ساكنها أفضل الصلاة ذكر لى على بن حجر المذكور انه رأى تلك الليلة فى النوم قائلا يقول له اسمع منى واحفظ عنى (طويل)

هنيأ لكم يا زائرين ضريحه * أمنتم به يوم المعاد من الرجس
وصلتم الى قبر الحبيب بطيبة * فطوبى لمن يضحى بطيبة أو يمسى

وجاور هذا الرجل بعد صحبه بالمدينة ثم رحل الى مدينة دهلى قاعدة بلاد الهند فى سنة ثلاث وأربعين فنزل فى جوارى وذكرت حكاية رؤياه بين يدى ملك الهند فأمر باحضاره فحضر بين يديه وحكى له ذلك فاعجبه واستحسنه وقال له كلاما جيلا بالفارسية وأمر بانزاله واعطاه ثلاثمائة تنكة من ذهب ووزن التنكة من دنانير المغرب ديناران ونصف دينار واعطاه فرسا محلى السرج واللجام وخلعة وعين له مرتبا فى كل يوم وكان هنالك فقيه طيب من أهل غرناطة ومولده ببجاية يعرف هنالك بجمال الدين المغربى فصحبه على بن الحجر المذكور وواعده على ان يزوجه بنته وأنزله بدويرة خارج داره واشترى جارية وغلاما وكان يترك الدنانير فى مفرش ثيابه ولا يطمئن بها لاحد فاتفق الغلام والجارية على أخذ ذلك الذهب واخذاه وهربا فلما اتى الدار لم يجد لهما أثرا ولا للذهب فامتنع من الطعام والشراب واشتد به المرض أسفا على ماجرى عليه فعرضت قضيته بين يدى الملك فامر ان يخلف له ذلك فبعث اليه من يعلمه بذلك فوجده قد مات رحمه الله تعالى وكان رحيلنا من المدينة نريد مكة شرفهما الله تعالى فنزلنا بقرب مسجد ذى الحليفة الذى أحرم منه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما والمدينة منه على خمسة أميال وهو منتهى حرم المدينة وبالقرب منه وادى العقيق وهنالك تجردت من مخيط الثياب واغتسلت ولبست ثوب احرامى وصليت ركعتين واحرمت بالحج مفردا ولم أزل ملبيا فى كل سهل وجبل وصعود وحدور الى ان اتيت شعب على عليه السلام وبه نزلت تلك الليلة ثم رحلنا منه ونزلنا بالروحاء وبها بئر تعرف ببئر ذات العلم ويقال ان عليا عليه السلام قاتل بها الجن ثم رحلنا ونزلنا بالصفراء وهو واد معمور فيه ماء ونخل وبنيان وقصر يسكنه الشرفاء الحسنيون وسواهم وفيها حصن كبير وتواليه حصون كثيرة وقرى متصلة ثم رحلنا منه ونزلنا ببدر حيث نصر الله رسوله صلى الله عليه وسلم تسليما وانجز وعده الكريم

واستأصل

واستأصل صناديد المشركين وهي قرية فيها حدائق نخل متصلة وبها حصن منيع يدخل اليه من بطن واد بين جبال وببدر عين فوارة يجري ماؤها وموضع القليب الذي سحب به اعداء الله المشركون هو اليوم بستان وموضع الشهداء رضي الله عنهم خلفه وجبل الرحمة الذي نزلت به الملائكة على يسار الداخل منه الى الصفراء وبازائه جبل الطبول وهو شبه كثيب الرمل ممتد ويزعم اهل تلك البلاد انهم يسمعون هنالك مثل اصوات الطبول في كل ليلة جمعة وموضع عريش رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان به يوم بدر يناشد ربه جل وتعالى متصل بسفح جبل الطبول وموضع الوقيعة امامه وعند نخل القليب مسجد يقال له مبرك ناقة النبي صلى الله عليه وسلم تسليما وبين بدر والصفراء نحو بريد في واد بين جبال تطرد فيه العيون وتتصل حدائق النخل ورحلنا من بدر الى الصحراء المعروفة بقاع البزواء وهي برية يضل بها الدليل ويذهل عن خليله الخليل مسيرة ثلاث وفي منتهاها وادي رابغ يتكون فيه بالمطر غدران يبقى بها الماء زمانا طويلا ومنه يحرم حجاج مصر والمغرب وهو دون الجحفة وسرنا من رابغ ثلاثا الى خليص ومررنا بعقبة السويق وهي على مسافة نصف يوم من خليص كثيرة الرمل والحجاج يقصدون شرب السويق بها ويستصحبونه من مصر والشام برسم ذلك ويسقونه الناس مخلطا بالسكر والامراء يملأون منه الاحواض ويسقونها الناس ويذكران رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بها ولم يكن مع أصحابه طعام فأخذ من رملها فاعطاهم اياه فشربوه سويقا ثم نزلنا بركة خليص وهي في بسيط من الارض كثيرة حدائق النخل لها حصن مشيد في قنة جبل وفي البسيط حصن خرب وبها عين فوارة قد صنعت لها أخاديد في الارض وسربت الى الضياع وصاحب خليص شريف حسني النسب وعرب تلك الناحية يقيمون هنالك سوقا عظيمة يجلبون اليها الغنم والتمر والادام ثم رحلنا الى عسفان وهي في بسيط من الارض بين جبال وبها آبار ماء معين تنسب احداها الى عثمان بن عفان رضي الله عنه والمدرج المنسوب الى عثمان ايضا على مسافة نصف يوم من خليص وهو مضيق بين جبلين وفي موضع منه بلاط على صورة درج وأثر عمارة قديمة وهنالك بئر تنسب الى علي عليه السلام ويقال انه احدثها وبعسفان حصن عتيق وبرج مشيد قد اوهنه الخراب وبه من شجر المقل كثير ثم رحلنا من عسفان ونزلنا بطن مر ويسمى أيضا مر الظهران وهو واد مخصب كثير النخل ذو عين فوارة سيالة تسقي تلك الناحية ومن هذا الوادي تجلب الفواكه والخضر الى مكة شرفها الله تعالى ثم أدلجنا من هذا الوادي المبارك والنفوس مستبشرة ببلوغ آمالها مسرورة بحالها ومآلها فوصلنا عند الصباح الى البلد الامين مكة شرفها الله تعالى فوردنا منها على حرم الله تعالى ومبوأ خليله ابراهيم ومبعث صفيه محمد صلى الله عليه

وسلم ودخلنا البيت الحرام الشريف الذى من دخله كان آمنا من باب بنى شيبة وشاهدنا الكعبة الشريفة زادها الله تعظيما وهى كالعروس تجلى على منصة الجلال وترفل فى برود الجمال محفوفة بوفود الرحمان موصلة الى جنة الرضوان وطفنا بها طواف القدوم واستلمنا الحجر الكريم وصلينا ركعتين بمقام ابراهيم وتعلقنا باستار الكعبة عند الملتزم بين الباب والحجر الاسود حيث يستجاب الدعاء وشربنا من ماء زمزم وهو لما شرب له حسبما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم تسليما ثم سعينا بين الصفا والمروة ونزلنا هنالك بدار بمقربة من باب ابراهيم والحمد لله الذى شرفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم وجعلنا ممن بلغته دعوة الخليل عليه الصلاة والتسليم ومتع أعيننا بمشاهدة الكعبة الشريفة والمسجد العظيم والحجر الكريم وزمزم والحطيم ومن عجائب صنع الله تعالى انه طبع القلوب على النزوع الى هذه المشاهد المنيفة والشوق الى المثول بمعاهدها الشريفة وجعل حبها متمكنا فى القلوب فلا يحلها أحد الا أخذت بمجامع قلبه ولا يفارقها الا اسفا لفراقها متولها لبعاده عنها شديد الحنين اليها ناو بالتكرار الوفادة عليها فارضها المباركة نصب الاعين ومحبتها حشو القلوب حكمة من الله بالغة وتصديقا لدعوة خليله عليه السلام والشوق يحضرها وهى نائية ويمثلها وهى غائبة ويهون على قاصدها ما يلقاه من المشاق ويعانيه من العناء وكم من ضعيف يرى الموت عيانا دونها ويشاهد التلف فى طريقها فاذا جمع الله بها شمله تلقاها مسرورا مستبشرا كانه لم يذق لها مرارة ولا كابد محنة ولا نصبا انه لامر الاهى وصنع ربانى ودلالة لا يشوبها لبس ولا تغشاها شبهة ولا يطرقها تمويه وتعز فى بصيرة المستبصرين وتبدو فى فكرة المتفكرين ومن رزقه الله تعالى الحلول بتلك الارجاء والمثول بذلك الفناء فقد أنعم الله عليه النعمة الكبرى وخوله خير الدارين الدنيا والاخرى فحق عليه ان يكثر الشكر على ما خوله ويديم الحمد على ما أولاه جعلنا الله تعالى ممن قبلت زيارته وربحت فى قصدها تجارته وكتبت فى سبيل الله آثاره ومحيت بالقبول أوزاره بمنه وكرمه

(ذكر مدينة مكة المعظمة)

وهى مدينة كبيرة متصلة البنيان مستطيلة فى بطن واد تحف به الجبال فلا يراها قاصدها حتى يصل اليها وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ والاخشبان من جبالها هما جبل أبى قبيس وهو فى جهة الجنوب منها وجبل قعيقعان وهو فى جهة منها وفى الشمال منها الجبل الاحمر ومن جهة أبى قبيس أجياد الاكبر واجياد الاصغر وهما شعبان والخندمة وهى جبل وستذكر والمناسك كلها منى وعرفة والمزدلفة بشرقى مكة شرفها الله ولمكة من الابواب ثلاثة باب المعلى باعلاها وباب الشبيكة من أسفلها ويعرف أيضا بباب الزاهر

وباب العمرة وهو الى جهة المغرب وعليه طريق المدينة الشريفة ومصر والشام وجدة ومنه يتوجه الى التنعيم وسيذكر ذلك وباب المسفل وهو من جهة الجنوب ومنه دخل خالد بن الوليد رضى الله عنه يوم الفتح ومكة شرفها الله كما اخبر الله فى كتابه العزيز حاكيا عن نبيه الخليل بواد غير ذى زرع ولكن سبقت لها الدعوة المباركة فكل طرفة تجلب اليها وثمرات كل شئ تجبى لها ولقد أكلت بها من الفواكه العنب والتين والخوخ والرطب مالا نظير له فى الدنيا وكذلك البطيخ المجلوب اليها لا يماثله سواه طيبا وحلاوة واللحوم بها سمان لذيذات الطعوم وكل ما يفترق فى البلاد من السلع فيها اجتماعه وتجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ووادى نخلة وبطن مر لطفا من الله بسكان حرمه الامين ومجاورى بيته العتيق

(ذكر المسجد الحرام شرفه الله وكرمه)

والمسجد الحرام فى وسط البلد وهو متسع الساحة طوله من شرق الى غرب ازيد من أربعمائة ذراع حكى ذلك الازرقى وعرضه يقرب من ذلك والكعبة العظمى فى وسطه ومنظره بديع ومرآه جميل لا يتعاطى اللسان وصف بدائعه ولا يحيط الواصف بحسن كماله وارتفاع حيطانه نحو عشرين ذراعا وسقفه على اعمدة طوال مصطفة ثلاثة صفوف بأتقن صناعة وأجملها وقد انتظمت بلاطاته الثلاثة انتظاما عجيبا كانها بلاط واحد وعدد سواريه الرخامية اربعمائة واحدى وتسعون سارية ماعدا الجصية التى فى دار الندوة المزيدة فى الحرم وهى داخلة فى البلاط الآخذ فى الشمال ويقابلها المقام مع الركن العراقى وفضاؤها متصل يدخل من هذا البلاط اليه ويتصل بجدار هذا البلاط مساطب تحت قسى حنايا يجلس بها المقرئون والنساخون والخياطون وفى جدار البلاط الذى يقابله مساطب تماثلها وسائر البلاطات تحت جداراتها مساطب بدون حنايا وعند باب ابراهيم مدخل من البلاط الغربى فيه سوارى جصية وللخليفة المهدى محمد بن الخليفة أبى جعفر المنصور رضى الله عنهما آثار كريمة فى توسيع المسجد الحرام واحكام بنائه وفى أعلى جدار البلاط الغربى مكتوب أمر عبد الله محمد المهدى أمير المؤمنين اصلحه الله بتوسعة المسجد الحرام لحاج بيت الله وعمارته فى سنة سبع وستين ومائة

(ذكر الكعبة المعظمة الشريفة زادها الله تعظيما وتكريما)

والكعبة ماثلة فى وسط المسجد وهى بنية مربعة ارتفاعها فى الهواء من الجهات الثلاث ثمان وعشرون ذراعا ومن الجهة الرابعة التى بين الحجر الاسود والركن اليمانى تسع وعشرون ذراعا وعرض صفحتها التى من الركن العراقى الى الحجر الاسود أربعة وخمسون شبرا وكذلك

عرض الصفحة التي تقابلها من الركن اليماني الى الركن الشامي وعرض صفحتها التي من الركن العراقي الى الركن الشامي من داخل الحجر ثمانية وأربعون شبرا وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن الشامي الى الركن العراقي وأما خارج الحجر فانه مائة وعشرون شبرا والطواف انما هو خارج الحجر وبناؤها بالحجارة الصم السمر قد ألصقت بابدع الالصاق واحكمه واشده فلا تغيرها الايام ولا تؤثر فيها الازمان وباب الكعبة المعظمة في الصفح الذي بين الحجر الاسود والركن العراقي وبينه وبين الحجر الاسود عشرة أشبار وذلك الموضع هو المسمى بالملتزم حيث يستجاب الدعاء وارتفاع الباب عن الارض احد عشر شبرا ونصف شبر وسعته ثمانية أشبار وطوله ثلاثة عشر شبرا وعرض الحائط الذي ينطوي عليه خمسة أشبار وهو مصفح بصفائح الفضة بديع الصنعة وعضادتاه وعتبته العليا مصفحات بالفضة وله نقارتان كبيرتان من فضة عليهما قفل ويفتح الباب الكريم في كل يوم جمعة بعد الصلاة ويفتح في يوم مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ورسمهم في فتحه ان يضعوا كرسيا شبه المنبر له درج وقوائم خشب لها أربع بكرات يجري الكرسي عليها ويلصقونه الى جدار الكعبة الشريفة فيكون درجه الاعلى متصلا بالعتبة الكريمة ثم يصعد كبير الشيبيين وبيده المفتاح الكريم ومعه السدنة فيمسكون الستر المسبل على باب الكعبة المسمى بالبرقع بخلال ما يفتح رئيسهم الباب فاذا فتحه قبل العتبة الشريفة ودخل البيت وحده وسد الباب واقام قدر ما يركع ركعتين ثم يدخل سائر الشيبيين ويسدون الباب أيضا ويركعون ثم يفتح الباب ويبادر الناس بالدخول وفي اثناء ذلك يقفون مستقبلين الباب الكريم بابصار خاشعة وقلوب ضارعة وأيد مبسوطة الى الله تعالى فاذا فتح كبروا ونادوا اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك يا ارحم الراحمين وداخل الكعبة الشريفة مفروش بالرخام المجزع وحيطانه كذلك وله اعمدة ثلاثة طوال مفرطة الطول من خشب الساج بين كل عمود منها وبين الآخر اربع خطا وهي متوسطة في الفضاء داخل الكعبة الشريفة يقابل الاوسط منها نصف عرض الصفح الذي بين الركنين العراقي والشامي وستور الكعبة الشريفة من الحرير الاسود مكتوب فيها بالابيض وهي تتلألأ عليها نورا واشراقا وتكسو جميعها من الاعلى الى الارض ومن عجائب الآيات في الكعبة الكريمة ان بابها يفتح والحرم غاص بأمم لا يحصيها الا الله الذي خلقهم ورزقهم فيدخلونها أجمعين ولا تضيق عنهم ومن عجائبها انها لا تخلو عن طائف ابدا ليلا ولا نهارا ولم يذكر أحد انه رآها قط دون طائف ومن عجائبها ان حمام مكة على كثرته وسواه من الطير لا ينزل عليها ولا يعلوها في الطيران وتجد الحمام يطير على اعلى الحرم كله فاذا حاذى الكعبة الشريفة عرج عنها الى احدى الجهات ولم يعلها ويقال انه لا ينزل عليها طائر الا اذا كان

به مرض فاما ان يموت لحينه أو يبرأ من مرضه فسبحان الذى خصها بالتشريف والتكريم وجعل لها المهابة والتعظيم

(ذكر الميزاب المبارك)

والميزاب فى أعلى الصفح الذى على الحجر وهو من الذهب وسعته شبر واحد وهو بارز بمقدار ذراعين والموضع الذى تحت الميزاب مظنة استجابة الدعاء وتحت الميزاب فى الحجر هو قبر اسماعيل عليه السلام وعليه رخامة خضراء مستطيلة على شكل محراب متصلة برخامة خضراء مستديرة وكلتاهما سعتها مقدار شبر ونصف شبر وكلتاهما غريبة الشكل رائقة المنظر والى جانبه مما يلى الركن العراقى قبر أمه هاجر عليها السلام وعلامته رخامة خضراء مستدير سعتها مقدار شبر ونصف وبين القبرين سبعة أشبار

(ذكر الحجر الاسود)

وأما الحجر فارتفاعه عن الارض ستة أشبار فالطويل من الناس يتطامن لتقبيله والصغير يتطاول اليه وهو ملصق فى الركن الذى الى جهة المشرق وسعته ثلثا شبر وطوله شبر وعقد ولا يعلم قدر ما دخل منه فى الركن وفيه أربع قطع ملصقة ويقال ان القرمطى لعنه الله كسره وقيل ان الذى كسره سواه ضربه بدبوس فكسره وتبادر الناس الى قتله وقتل بسببه جماعة من المغاربة وجوانب الحجر مشدودة بصفيحة من فضة يلوح بياضها على سواد الحجر الكريم فتجتلى منه العيون حسنا باهرا ولتقبيله لذة يتنعم بها الفم ويود لاثمه ان لا يفارق لثمه خاصية مودعة فيه وعناية ربانية به وكفى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم انه يمين الله فى أرضه نفعنا الله باستلامه ومصافحته واوفد عليه كل شيق اليه وفى القطعة الصحيحة من الحجر الاسود مما يلى جانبه الموالى ليمين مستلمه نقطة بيضاء صغيرة مشرقة كأنها خال فى تلك الصفحة البهية وترى الناس اذا طافوا بها يتساقط بعضهم على بعض ازدحاما على تقبيله فقلما يتمكن أحد من ذلك الا بعد المزاحمة الشديدة وكذلك يصنعون عند دخول البيت الكريم ومن عند الحجر الاسود مبتدا الطواف وهو أول الاركان التى يلقاها الطائف فاذا استلمه تقهقر عنه قليلا وجعل الكعبة الشريفة عن يساره ومضى فى طوافه ثم يلقى بعد الركن العراقى وهو الى جهة الشمال ثم يلقى الركن الشامى وهو الى جهة الغرب ثم يلقى الركن اليمانى وهو الى جهة الجنوب ثم يعود الى الحجر الاسود وهو الى جهة الشرق

(ذكر المقام الكريم)

اعلم ان بين باب الكعبة شرفها الله وبين الركن العراقى موضعا طوله اثنا عشر شبرا وعرضه نحو النصف من ذلك وارتفاعه نحو شبرين وهو موضع المقام فى مدة ابراهيم عليه السلام

ثم صرفه النبي صلى الله عليه وسلم الى الموضع الذى هو الآن مصلى وبقى ذلك الموضع شبه الحوض واليه ينصب ماء البيت الكريم اذا غسل وهو موضع مبارك يزدحم الناس للصلاة فيه وموضع المقام الكريم يقابل ما بين الركن العراق والباب الكريم وهو الى الباب أميل وعليه قبة تحتها شباك حديد متجاف عن المقام الكريم قدر ما تصل أصابع الانسان اذا ادخل يده من ذلك الشباك الى الصندوق والشباك مقفل ومن ورائه موضع محو زقد جعل مصلى لركعتى الطواف وفى الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما لما دخل المسجد اتى البيت فطاف به سبعا ثم اتى المقام فقرأ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وركع خلفه ركعتين وخلف المقام مصلى امام الشافعية فى الحطيم الذى هنالك

(ذكر الحجر والمطاف)

ودور جدار الحجر تسع وعشرون خطوة وهى أربعة وتسعون شبرا من داخل الدائرة وهو بالرخام البديع المجزع المحكم الالصاق وارتفاعه خمسة أشبار ونصف شبر وسعته أربعة أشبار ونصف شبر وداخل الحجر بلاط واسع مفروش بالرخام المجزع المنظم المعجز الصنعة البديع الاتقان وبين جدار الكعبة الشريفة الذى تحت الميزاب وبين ما يقابله من جدار الحجر على خط استواء أربعون شبرا وللحجر مدخلان أحدهما بينه وبين الركن العراق وسعته ستة أذرع وهذا الموضع هو الذى تركته قريش من البيت حين بنته كما جاءت الآثار الصحاح والمدخل الاخر عند الركن الشامى وسعته أيضا ستة أذرع وبين المدخلين ثمانية وأربعون شبرا وموضع الطواف مفروش بالحجارة السود محكمة الالصاق وقد اتسعت عن البيت بمقدار تسع خطا الا فى الجهة التى تقابل المقام الكريم فانها امتدت اليه حتى احاطت به وسائر الحرم مع البلاطات مفروش برمل أبيض وطواف النساء فى آخر الحجارة المفروشة

(ذكر زمزم المباركة)

وقبة بئر زمزم تقابل الحجر الاسود وبينهما أربع وعشرون خطوة والمقام الكريم عن يمين القبة ومن ركنها اليه عشر خطا وداخل القبة مفروش بالرخام الابيض وتنور البئر المباركة فى وسط القبة مائلا الى الجدار المقابل للكعبة الشريفة وهو من الرخام البديع الالصاق مفروغ بالرصاص ودوره أربعون شبرا وارتفاعه أربعة أشبار ونصف شبر وعمق البئر احد عشرة قامة وهم يذكرون ان ماءها يتزايد فى كل ليلة جمعة وباب القبة الى جهة الشرق وقد استدارت بداخل القبة سقاية سعتها شبر وعمقها مثل ذلك وارتفاعها عن الارض نحو خمسة أشبار تملأ ماء للوضوء وحولها مسطبة دائرة يقعد الناس عليها للوضوء ويلى قبة زمزم قبة الشراب المنسوبة الى العباس رضى الله عنه وبابها الى جهة الشمال وهى الآن يجعل بها ماء زمزم فى قلال

يسمونها

يسمونها الدوارق وكل دورق له مقبض واحد وتترك بها ليبرد فيها الماء فيشربه الناس وبها اختزان المصاحف الكريمة والكتب التي للحرم الشريف وبها خزانة تحتوى على تابوت مبسوط متسع فيه مصحف كريم بخط زيد بن ثابت رضى الله عنه منتسخ سنة ثمان عشرة من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما واهل مكة اذا اصابهم قحط او شدة اخرجوا هذا المصحف الكريم وفتحوا باب الكعبة الشريفة ووضعوه على العتبة الشريفة ووضعوا معه مقام ابراهيم عليه السلام واجتمع الناس كاشفين رؤسهم داعين متضرعين متوسلين بالمصحف العزيز والمقام الكريم فلا ينفصلون الا وقد تداركهم الله برحمته وتعمدهم بلطفه ويلى قبة العباس رضى الله عنه على انحراف منها القبة المعروفة بقبة اليهودية

(ذكر أبواب المسجد الحرام وما دار به من المشاهد الشريفه)

وابواب المسجد الحرام شرفه الله تعالى تسعة عشر بابا وأكثرها مفتحة على أبواب كثيرة فمنها باب الصفا وهو مفتح على خمسة أبواب وكان قديما يعرف بباب بنى مخزوم وهو أكبر أبواب المسجد ومنه يخرج الى المسعى ويستحب للوافد على مكة ان يدخل المسجد الحرام شرفه الله من باب بنى شيبة ويخرج بعد طوافه من باب الصفا جاعلا طريقه بين الاسطوانتين اللتين اقامهما امير المؤمنين المهدى رحمه الله علما على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما الى الصفا ومنها باب اجياد الاصغر مفتح على بابين ومنها باب الخياطين مفتح على بابين ومنها باب العباس رضى الله عنه مفتح على ثلاثة أبواب ومنها باب النبى صلى الله عليه وسلم تسليما مفتح على بابين ومنها باب بنى شيبة وهو فى ركن الجدار الشرقى من جهة الشمال امام باب الكعبة الشريفة متياسرا وهو مفتح على ثلاثة أبواب وهو باب بنى عبد شمس ومنه كان دخول الخلفاء ومنها باب صغير ازاء باب بنى شيبة لا اسم له وقيل يسمى باب الرباط لانه يدخل منه لرباط السدرة ومنها باب الندوة ويسمى بذلك ثلاثة أبواب اثنان منتظمان والثالث فى الركن الغربى من دار الندوة ودار الندوة قد جعلت مسجدا شارعا فى الحرم مضافا اليه وهى تقابل الميزاب ومنها باب صغير لدار العجلة محدث ومنها باب السدرة واحد ومنها باب العمرة واحد وهو من أجمل أبواب الحرم ومنها باب ابراهيم واحد والناس مختلفون فى نسبته فبعضهم ينسبه الى ابراهيم الخليل عليه السلام والصحيح انه منسوب الى ابراهيم الخوزى من الاعاجم ومنها باب الحزورة مفتح على بابين ومنها باب اجياد الاكبر مفتح على بابين ومنها باب ينسب الى اجياد ايضا مفتح على بابين وباب ثالث ينسب اليه مفتح على بابين ويتصل بباب الصفا ومن الناس من ينسب البابين من هذه الاربعة المنسوبة لاجياد الى الدقاقين وصوامع المسجد الحرام خمس احداهن على ركن ابى قبيس عند باب الصفا والاخرى على ركن باب بنى شيبة والثالثة على

باب دار الندوة والرابعة على ركن باب السدرة والخامسة على ركن اجياد وبمقربة من باب العمرة مدرسة عمرها السلطان المعظم يوسف بن رسول ملك اليمن المعروف بالملك المظفر الذى تنسب اليه الدراهم المظفرية باليمن وهو كان يكسو الكعبة الى أن غلبه على ذلك الملك المنصور قلاوون وبخارج باب ابراهيم زاوية كبيرة فيها دار امام المالكية الصالح أبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن المدعو بخليل وعلى باب ابراهيم قبة عظيمة مفرطة السمو قد صنع فى داخلها من غرائب صنع الجص ما يعجز عنه الوصف وبازاء هذا الباب عن يمين الداخل اليه كان يقعد الشيخ العابد جلال الدين محمد بن احمد الاقشهرى وخارج باب ابراهيم بئر تنسب كنسبته وعنده أيضا دار الشيخ الصالح دانيال العجمى الذى كانت صدقات العراق فى أيام السلطان أبى سعيد تأتى على يديه وبمقربة منه رباط الموفق وهو من أحسن الرباطات سكنته أيام مجاورتى بمكة العظيمة وكان به فى ذلك العهد الشيخ الصالح أبو عبد الله الزواوى المغربى وسكن به أيضا الشيخ الصالح الطيار سعادة الجوانى ودخل يوما الى بيته بعد صلاة العصر فوجد ساجدا مستقبل الكعبة الشريفة ميتا من غير مرض كان به رضى الله عنه وسكن به الشيخ الصالح شمس الدين محمد الشامى نحوا من أربعين سنة وسكن به الشيخ الصالح شعيب المغربى من كبار الصالحين دخلت عليه يوما فلم يقع بصرى فى بيته على شئ سوى حصير فقلت له فى ذلك فقال لى أستر على ما رأيت وحول الحرم الشريف دور كثيرة لها مناظر وسطوح يخرج منها الى سطح الحرم واهلها فى مشاهدة البيت الشريف على الدوام ودورها أبواب تفضى الى الحرم منها دار زبيدة زوج الرشيد أمير المؤمنين ومنها دار العجلة ودار الشرابى وسواها ومن المشاهد الكريمة بمقربة من المسجد الحرام قبة الوحى وهى فى دار خديجة ام المؤمنين رضى الله عنها بمقربة من باب النبى صلى الله عليه وسلم وفى البيت قبة صغيرة حيث ولدت فاطمة عليها السلام وبمقربة منها دار ابى بكر الصديق رضى الله عنه ويقابلها جدار مبارك فيه حجر مبارك بارز طرفه من الحائط يستلمه الناس ويقال انه كان يسلم على النبى صلى الله عليه وسلم ويذكر ان النبى صلى الله عليه وسلم تسليما جاء يوما الى دار أبى بكر الصديق ولم يكن حاضرا فنادى به النبى صلى الله عليه وسلم تسليما فنطق ذلك الحجر وقال يا رسول الله انه ليس بحاضر

(ذكر الصفا والمروة)

ومن باب الصفا الذى هو احد أبواب المسجد الحرام الى الصفا ست وسبعون خطوة وسعة الصفا سبع عشرة خطوة وله أربع عشرة درجة علياهن كانها مسطبة وبين الصفا والمروة اربعمائة وثلاث وتسعون خطوة منها من الصفا الى الميل الاخضر ثلاث وتسعون خطوة ومن الميل الاخضر الى الميلين الاخضرين خمس وسبعون خطوة ومن الميلين الاخضرين الى

المروة

المروة ثلاث مائة وخمس وعشرون خطوة وللمروة خمس درجات وهي ذات قوس واحد كبير وسعة المروة سبع عشرة خطوة والميل الاخضر هو سارية خضراء مثبتة مع ركن الصومعة التي على الركن الشرقي من الحرم عن يسار الساعي الى المروة والميلان الاخضران هما ساريتان خضراوان ازاء باب علي من أبواب الحرم احداهما في جدار الحرم عن يسار الخارج من الباب والاخرى تقابلها وبين الميل الاخضر والميلين الاخضرين يكون الرمل ذاهبا وعائدا وبين الصفا والمروة مسيل فيه سوق عظيمة يباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن وسواها من الفواكه والساعون بين الصفا والمروة لا يكادون يخلصون لازدحام الناس على حوانيت الباعة وليس بمكة سوق منتظمة سوى هذه الا البزازون والعطارون عند باب بني شيبة وبين الصفا والمروة دار العباس رضي الله عنه وهي الآن رباط يسكنه المجاورون عمره الملك الناصر رحمه الله وبنى أيضا دار وضوء فيما بين الصفا والمروة سنة ثمان وعشرين وجعل لها بابين أحدهما في السوق المذكورة والآخر في سوق العطارين وعليها ربع يسكنه خدامها وتولى بناء ذلك الامير علاء الدين بن هلال وعن يمين المروة دار أمير مكة سيف الدين عطيفة ابن أبي نمي وسنذكره

(ذكر الجبانة المباركة)

وجبانة مكة خارج باب المعلى ويعرف ذلك الموضع أيضا بالحجون واياه عنى الحارث بن مضاض الجرهمي بقوله (طويل)

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا * صروف الليالي والجدود العواثر

وبهذه الجبانة مدفن الجم الغفير من الصحابة والتابعين والعلماء والصالحين والاولياء الا أن مشاهدهم دثرت وذهب عن أهل مكة علمها فلا يعرف منها الا القليل فمن المعروف منها قبر أم المؤمنين ووزيرة سيد المرسلين خديجة بنت خويلد أم أولاد النبي صلى الله عليه وسلم تسليما كلهم ما عدا ابراهيم وجدة السبطين الكريمين صلوات الله وسلامه على النبي صلى الله عليه وسلم تسليما وعليهم أجمعين وبقربة منه قبر الخليفة أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنهم أجمعين وفيها الموضع الذي صلب فيه عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما وكان به بنية هدمها أهل الطائف غيرة منهم لما كان يلحق حجاجهم المبير من اللعن وعن يمين مستقبل الجبانة مسجد خرب يقال انه المسجد الذي بايعت الجن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وعلى هذه الجبانة طريق الصاعد الى عرفات وطريق الذاهب الى الطائف والى العراق

(ذكر بعض المشاهد خارج مكة)

فمنها الحجون وقد ذكرناه ويقال أيضا ان الحجون هو الجبل المطل على الجبانة ومنها المحصب وهو أيضا الابطح وهو يلى الجبانة المذكورة وفيه خيف بنى كنانة الذى نزل به رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ومنها ذوطوى وهو واد يهبط على قبور المهاجرين التى بالحصحاص دون ثنية كداء ويخرج منه الى الاعلام الموضوعة حجزا بين الحل والحرم وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنه اذا قدم مكة شرفها الله تعالى يبيت بذى طوى ثم يغتسل منه ويغدو الى مكة ويذكر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فعل ذلك ومنها ثنية كدى (بضم الكاف) وهى باعلى مكة ومنها دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فى حجة الوداع الى مكة ومنها ثنية كداء (بفتح الكاف) ويقال لها الثنية البيضاء وهى باسفل مكة ومنها خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما عام الوداع وهى بين جلبين وفى مضيقها كوم حجارة موضوع على الطريق وكل من يمر به يرجمه بحجر ويقال انه قبر أبى لهب وزوجه حمالة الحطب وبين هذه الثنية وبين مكة بسيط سهل ينزله الركب اذا صدروا عن منى وبمقربة من هذا الموضع على نحو ميل من مكة شرفها الله مسجد بازائه حجر موضوع على الطريق كأنه مسطبة يعلوه حجر آخر كان فيه نقش قد ذر رسمه يقال ان النبى صلى الله عليه وسلم تسليما قعد بذلك الموضع مستريحا عند مجيئه من عمرته فيتبرك الناس بتقبيله ويستندون اليه ومنها التنعيم وهو على فرسخ من مكة ومنه يعتمر أهل مكة وهو أدنى الحل الى الحرم ومنه اعتمرت ام المؤمنين عائشة رضى الله عنها حين بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فى حجة الوداع مع أخيها عبد الرحمن رضى الله عنه وامره ان يعمرها من التنعيم وبنيت هنالك مساجد ثلاثة على الطريق تنسب كلها الى عائشة رضى الله عنها وطريق التنعيم طريق فسيح والناس يتحرون كنسه فى كل يوم رغبة فى الاجر والثواب لان من المعتمرين من يمشى فيه حافيا وفى هذا الطريق الآبار العذبة التى تسمى الشبيكة ومنها الزاهر وهو على نحو ميلين من مكة على طريق التنعيم وهو موضع على جانبى الطريق فيه أثر دور وبساتين واسواق وعلى جانب الطريق دكان مستطيل تصف عليه كيزان الشرب واوانى الوضوء يملاها خديم ذلك الموضع من آبار الزاهر وهى بعيدة القعر جدا والخديم من الفقراء المجاورين وأهل الخير يعنونه على ذلك لما فيه من المرافقة للمعتمرين من الغسل والشرب والوضوء وذو طوى يتصل بالزاهر

(ذكر الجبال المطيفة بمكة)

فمنها جبل أبى قبيس وهو فى جهة الجنوب والشرق من مكة حرسها الله وهو أحد الاخشبين وادنى الجبال من مكة شرفها الله ويقابل ركن الحجر الاسود وباعلاه مسجد واثر رباط وعمارة

وكان الملك الظاهر رحمه الله اراد ان يعمره وهو مطل على الحرم الشريف وعلى جميع البلد ومنه يظهر حسن مكة شرفها الله وجمال الحرم واتساعه والكعبة المعظمة ويذكر ان جبل أبي قبيس هو اول جبل خلقه الله تعالى وفيه استودع الحجر زمان الطوفان وكانت قريش تسميه الامين لانه ادّى الحجر الذى استودع فيه الى الخليل ابراهيم عليه السلام ويقال انّ قبر آدم عليه السلام به وفى جبل أبي قبيس موضع موقف النبي صلى الله عليه وسلم حين انشق له القمر ومنها قعيقعان وهو أحد الاخشبين ومنها الجبل الاحمر وهو فى جهة الشمال من مكة شرفها الله ومنها الخندمة وهو جبل عند الشعبين المعروفين باجياد الاكبر واجياد الاصغر ومنها جبل الطير وهو على أربعة عن جهتى طريق التنعيم يقال انها الجبال التى وضع عليها الخليل عليه السلام اجزاء الطير ثم دعاها حسبما نص الله فى كتابه العزيز وعليها اعلام من حجارة ومنها جبل حراء وهو فى الشمال من مكة شرفها الله تعالى على نحو فرسخ منها وهو مشرف على منى ذاهب فى الهواء عالى القنة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعبد فيه كثيرا قبل المبعث وفيه أتاه الحق من ربه وبدا الوحى وهو الذى اهتز تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أثبت فما عليك الانبي وصديق وشهيد واختلف فيمن كان معه يومئذ وروى ان العشرة كانوا معه وقد روى أيضا ان جبل ثبير اهتز تحته ايضا ومنها جبل ثور وهو على مقدار فرسخ من مكة شرفها الله تعالى على طريق اليمن وفيه الغار الذى آوى اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما حين خروجه مهاجرا من مكة شرفها الله ومعه الصديق رضى الله عنه حسبما ورد فى الكتاب العزيز وذكر الازرقى فى كتابه ان الجبل المذكور نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وقال الى يا محمد الى فقد آويت قبلك سبعين نبيا فلما دخل رسول الله الغار واطمأن به وصاحبه الصديق معه نسجت العنكبوت من حينها على باب الغار وصنعت الحمامة عشا وفرخت فيه باذن الله تعالى فانتهى المشركون ومعهم قصاص الاثر الى الغار فقالوا ههنا انقطع الاثر ورأوا العنكبوت قد نسج على فم الغار والحمام مفرخة فقالوا ما دخل احد هنا وانصرفوا فقال الصديق يا رسول الله لو ولجوا علينا منه قال كنا نخرج من هنا واشار بيده المباركة الى الجانب الآخر ولم يكن فيه باب فانفتح فيه باب للحين بقدرة الملك الوهاب والناس يقصدون زيارة هذا الغار المبارك فيرومون دخوله من الباب الذى دخل منه النبى صلى الله عليه وسلم تبركا بذلك فمنهم من يتأتى له ومنهم من لا يتأتى له وينشب فيه حتى يتناول بالجذب العنيف ومن الناس من يصلى امامه ولا يدخله واهل تلك البلاد يقولون انه من كان لرشدة دخله ومن كان لزنية لم يقدر على دخوله ولهذا يتحاماه كثير من الناس لانه مخجل فاضح قال ابن جزى اخبرنى بعض أشياخنا الحجاج الاكياس ان سبب صعوبة الدخول اليه هو

ان بداخله مما يلى هذا الشق الذى يدخل منه حجرا كبيرا معترضا فمن دخل من ذلك الشق منبطحا على وجهه وصل رأسه الى ذلك الحجر فلم يمكنه التولج ولا يمكنه ان ينطوى الى العلو ووجهه وصدره يليان الارض فذلك هو الذى ينشب ولا يخلص الا بعد الجهد والجبذ الى خارج ومن دخل منه مستلقيا على ظهره امكنه لانه اذا وصل رأسه الى الحجر المعترض رفع رأسه واستوى قاعدا فكان ظهره مستندا الى الحجر المعترض وأوسطه فى الشق ورجلاه من خارج الغار ثم يقوم قائما بداخل الغار رجع

(حكاية)

ومما اتفق بهذا الجبل لصاحبين من أصحابى احدهما الفقيه المكرم أبو محمد عبد الله بن فرحان الافريقى التوزرى والآخر أبو العباس احمد الاندلسى الوادى آشى انهما قصدا (الغار) فى حين مجاورتهما بمكة شرفها الله تعالى فى سنة ثمان وعشرين وسبع مائة وذهبا منفردين لم يستصحبا دليلا عارفا بطريقه فتاها وضلا طريق الغار وسلكا طريقا سواها منقطعة وذلك فى اوان اشتداد الحر وحمى القيظ فلما انفد ما كان عندهما من الماء وهما لم يصلا الى الغار اخذا فى الرجوع الى مكة شرفها الله تعالى فوجدا طريقا فاتبعاه وكان يفضى الى جبل آخر واشتد بهما الحر واجهدهما العطش وعاينا الهلاك وعجز الفقيه أبو محمد بن فرحان عن المشى جملة والقى بنفسه الى الارض ونجا الاندلسى بنفسه وكان فيه فضل قوة ولم يزل يسلك تلك الجبال حتى افضى به الطريق الى اجياد فدخل الى مكة شرفها الله تعالى وقصدنى واعلمنى بهذه الحادثة وبما كان من امر عبد الله التوزرى وانقطاعه بالجبل وكان ذلك فى آخر النهار ولعبد الله المذكور ابن عم اسمه حسن وهو من سكان وادى نخلة وكان اذذاك بمكة فاعلمته بما جرى على ابن عمه وقصدت الشيخ الصالح الامام ابا عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بخليل امام المالكية نفع الله به فاعلمته بخبره فبعث جماعة من أهل مكة عارفين بتلك الجبال والشعاب فى طلبه وكان من أمر عبد الله التوزرى انه لما فارقه رفيقه لجأ الى حجر كبير فاستظل بظله واقام على هذه الحالة من الجهد والعطش والغربان تطير فوق رأسه وتنتظر موته فلما انصرم النهار وأتى الليل وجد فى نفسه قوة ونعشه برد الليل فقام عند الصباح على قدميه ونزل من الجبل الى بطن واد حجبت الجبال عنه الشمس فلم يزل ماشيا الى ان بدت له دابة فقصد قصدها فوجد خيمة للعرب فلما راءها وقع الى الارض ولم يستطع النهوض فرأته صاحبة الخيمة وكان زوجها قد ذهب الى ورد الماء فسقته ما كان عندها من الماء فلم يرو وجاء زوجها فسقاه قربة ماء فلم يرو واركبه حماره وقدم به مكة فوصلها عند صلاة العصر من اليوم الثانى متغيرا كانه قام من قبر

*)

(ذكر أميرى مكة)

وكانت امارة مكة فى عهد دخولى اليها للشريفين الاجلين الاخوين أسد الدين رميثة وسيف الدين عطيفة ابنى الامير أبى نمى بن أبى سعد بن على بن قتادة الحسنيين ورميثة أكبرهما سنا ولكنه كان يقدم اسم عطيفة فى الدعاء له بمكة لعدله ولرميثة من الاولاد أحمد وعجلان وهو أمير مكة فى هذا العهد وثقبة وسند وأم قاسم ولعطيفة من الاولاد محمد ومبارك ومسعود ودار عطيفة عن يمين المروة ودار أخيه رميثة برباط الشرابى عند باب بنى شيبة وتضرب الطبول على باب كل واحد منهما عند صلاة المغرب من كل يوم

(ذكر أهل مكة وفضائلهم)

ولاهل مكة الافعال الجميلة والمكارم التامة والاخلاق الحسنة والايثار الى الضعفاء والمنقطعين وحسن الجوار للغرباء ومن مكارمهم انهم متى صنع أحدهم وليمة يبدأ فيها باطعام الفقراء المنقطعين المجاورين ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق ثم يطعمهم وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالافران حيث يطبخ الناس أخبازهم فاذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله الى منزله فيتبعه المساكين فيعطى لكل واحد منهم ما قسم له ولا يردهم خائبين ولو كانت له خبزة واحدة فانه يعطى ثلثها أو نصفها طيب النفس بذلك من غير ضجر ومن افعالهم الحسنة ان الايتام الصغار يقعدون بالسوق ومع كل واحد منهم قفتان كبرى وصغرى وهم يسمون القفة مكتلا فيأتى الرجل من أهل مكة الى السوق فيشترى الحبوب واللحم والخضر ويعطى ذلك الصبى فيجعل الحبوب فى احدى قفتيه واللحم والخضر فى الاخرى ويوصل ذلك الى دار الرجل ليهيأ له طعامه منها ويذهب الرجل الى طوافه وحاجته فلا يذكر ان احدا من الصبيان خان الامانة فى ذلك قط بل يؤدى ما حمل على اتم الوجوه ولهم على ذلك أجرة معلومة من فلوس وأهل مكة لهم ظرف ونظافة فى الملابس وأكثر لباسهم البياض فترى ثيابهم ابدا ناصعة ساطعة ويستعملون الطيب كثيرا ويكتحلون ويكثرون السواك بعيدان الاراك الاخضر ونساء مكة فائقات الحسن بارعات الجمال ذوات صلاح وعفاف وهن يكثرن التطيب حتى ان احداهن لتبيت طاوية وتشترى بقوتها طيبا وهن يقصدن الطواف بالبيت فى كل ليلة جمعة فيأتين فى أحسن زى وتغلب على الحرم رائحة طيبهن وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقا ولاهل مكة عوائد حسنة فى الموسم وغيره سنذكرها ان شاء الله تعالى اذا فرغنا من ذكر فضلائها ومجاوريها

(ذكر قاضى مكة وخطيبها وامام الموسم وعلمائها وصلحائها)

قاضى مكة العالم الصالح العابد نجم الدين محمد بن الامام العالم محيى الدين الطبرى وهو فاضل

كثير الصدقات والمواساة للمجاورين حسن الاخلاق كثير الطواف والمشاهدة للكعبة الشريفة يطعم الطعام الكثير في المواسم المعظمة وخصوصا في مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فانه يطعم فيه شرفاء مكة وكبراءها وفقراءها وخدام الحرم الشريف وجميع المجاورين وكان سلطان مصر الملك الناصر رحمه الله يعظمه كثيرا وجميع صدقاته وصدقات امرائه تجرى على يديه وولده شهاب الدين فاضل وهو الآن قاضي مكة شرفها الله وخطيب مكة الامام بمقام ابراهيم عليه السلام الفصيح المصقع وحيد عصره بهاء الدين الطبري وهو أحد الخطباء الذين ليس بالمعمور مثلهم بلاغة وحسن بيان وذكر لي انه ينشئ لكل جمعة خطبة ثم لا يكررها فيما بعد وامام الموسم وامام المالكية بالحرم الشريف هو الشيخ الفقيه العالم الصالح الخاشع الشهير أبو عبد الله محمد بن الفقيه الامام الصالح الورع أبي زيد عبد الرحمن وهو المشتهر بخليل نفع الله به وأمتع ببقائه وأهله من بلاد الجريد من افريقية ويعرفون بها ببني حيون وهم من كبارها ومولده ومولد أبيه بمكة شرفها الله وهو أحد الكبار من أهل مكة بل وأحدها وقطبها باجماع الطوائف على ذلك مستغرق العبادة في جميع أوقاته مستحي كريم النفس حسن الاخلاق كثير الشفقة لا يردّ من سأله خائبا

(حكاية مباركة)

رأيت أيام مجاورتي بمكة شرفها الله وأنا اذ ذاك ساكن منها بالمدرسة المظفرية رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما في النوم وهو قاعد بمجلس التدريس من المدرسة المذكورة بجانب الشباك الذى تشاهد منه الكعبة الشريفة والناس يبايعونه فكنت أرى الشيخ أبا عبد الله المدعو بخليل قد دخل وقعد القرفصاء بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وجعل يده في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أبايعك على كذا وكذا وعدد أشياء منها وأن لا أرد من بيتي مسكينا خائبا وكان ذلك آخر كلامه فكنت أعجب من قوله وأقول في نفسي كيف يقول هذا ويقدر عليه مع كثرة فقراء مكة واليمن والزيالعة والعراق والعجم ومصر والشام وكنت أراه حين ذلك لابسا جبة بيضاء قصيرة من ثياب القطن المدعوة بالقفطان كان يلبسها في بعض الاوقات فلما صليت الصبح غدوت عليه واعلمته بروياى فسر بها وبكى وقال لي تلك الجبة اهداها بعض الصالحين لجدى فانا البسها تبركا وما رأيته بعد ذلك يرد سائلا خائبا وكان يأمر خدامه يخبزون الخبز ويطبخون الطعام ويأتون به الى بعد صلاة العصر من كل يوم وأهل مكة لا يأكلون في اليوم الا مرة واحدة بعد العصر ويقتصرون عليها الى مثل ذلك الوقت ومن أراد الاكل في سائر النهار أكل التمر ولذلك صحت ابدانهم وقلت فيهم الامراض والعاهات وكان الشيخ خليل متزوجا بنت القاضي نجم الدين الطبرى فشك في طلاقها وفارقها

وتزوجها

وتزوجها بعده الفقيه شهاب الدين النويرى من كبار المجاورين وهو من صعيد مصر واقامت عنده اعواما وسافر بها الى المدينة الشريفة ومعها أخوها شهاب الدين فحنث فى يمين بالطلاق ففارقها على ضنانته بها وراجعها الفقيه خليل بعد سنين عدّة ومن اعلام مكة امام الشافعية شهاب الدين بن البرهان ومنهم امام الحنفية شهاب الدين احمد بن على من كبار أئمة مكة وفضلائها يطعم المجاورين وأبناء السبيل وهو أكرم فقهاء مكة ويدان فى كل سنة أربعين ألف درهم وخمسين الفا فيؤديها الله عنه وامراء الاتراك يعظمونه ويحسنون الظنّ به لانه امامهم ومنهم امام الحنابلة المحدث الفاضل محمد بن عثمان البغدادى الاصل المكى المولد وهو نائب القاضى نجم الدين والمحتسب بعد قتل تقى الدين المصرى والناس يهابونه لسطوته

(حكاية)

كان تقى الدين المصرى محتسبا بمكة وكان له دخول فيما يعنيه وفيما لا يعنيه فاتفق فى بعض السنين ان أتى أمير الحاج بصبى من ذوى الدعارة بمكة قد سرق بعض الحجاج فامر بقطع يده فقال له تقى الدين ان لم تقطعها بحضرتك والا غلب أهل مكة خدامك عليه فاستنقذوه منهم وخلصوه فامر بقطع يده فى حضرته فقطعت وحقدها لتقى الدين ولم يزل يتربص به الدوائر ولا قدرة له عليه لان له حسبا من الاميرين رميثة وعطيفة والحسب عندهم ان يعطى أحدهم هدية من عمامة او شاشية بمحضر الناس تكون جوارا لمن اعطيته ولا تزول حرمتها معه حتى يريد الرحلة والتحول عن مكة فاقام تقى الدين بمكة أعواما ثم عزم على الرحلة وودع الاميرين وطاف طواف الوداع وخرج من باب الصفا فلقيه صاحبه الاقطع وتشكى له ضعف حاله وطلب منه ما يستعين به على حاجته فانتهره تقى الدين وزجره فاستل خنجرا له يعرف عندهم بالجنبية وضربه ضربة واحدة كان فيها حتفه ومنهم الفقيه الصالح زين الدين الطبرى شقيق نجم الدين المذكور من أهل الفضل والاحسان للمجاورين ومنهم الفقيه المبارك محمد بن فهد القرشى من فضلاء مكة وكان ينوب عن القاضى نجم الدين بعد وفاة الفقيه محمد بن عثمان الحنبلى ومنهم العدل الصالح محمد بن البرهان زاهد ورع مبتلى بالوسواس رأيته يوما يتوضأ من بركة المدرسة المظفرية فيغسل ويكرر ولما مسح رأسه اعاد مسحه مرات ثم لم يقنعه ذلك فغطس رأسه فى البركة وكان اذا أراد الصلاة ربما صلى الامام الشافعى وهو يقول نويت نويت فيصلى مع غيره وكان كثير الطواف والاعتمار والذكر

(ذكر المجاورين بمكة)

فمنهم الامام العالم الصالح الصوفى المحقق العابد عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليمنى الشافعى الشهير باليافعى كثير الطواف آناء الليل وأطراف النهار وكان اذا طاف من الليل يصعد الى

سطح المدرسة المظفرية فيقعد مشاهد الكعبة الشريفة الى أن يغلبه النوم فيجعل تحت رأسه حجرا وينام يسيرا ثم يجدد الوضوء ويعود لحاله من الطواف حتى يصلى الصبح وكان متزوجا بنت الفقيه العابد شهاب الدين بن البرهان وكانت صغيرة السن فلا تزال تشكو الى ابيها حالها فيأمرها بالصبر فاقامت معه على ذلك سنين ثم فارقته ومنهم الصالح العابد نجم الدين الاصفونى كان قاضيا ببلاد الصعيد فانقطع الى الله تعالى وجاور بالحرم الشريف وكان يعتمر فى كل يوم من التنعيم ويعتمر فى رمضان مرتين فى اليوم اعتمادا على ما فى الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم تسليما انه قال عمرة فى رمضان تعدل حجة معى ومنهم الشيخ الصالح العابد شمس الدين محمد الحلبى كثير الطواف والتلاوة من قدماء المجاورين مات بمكة شرفها الله ومنهم الصالح أبو بكر الشيرازى المعروف بالصامت كثير الطواف اقام بمكة أعواما لا يتكلم فيها ومنهم الصالح خضر العجمى كثير الصوم والتلاوة والطواف ومنهم الشيخ الصالح برهان الدين العجمى الواعظ كان ينصب له كرسى تجاه الكعبة الشريفة فيعظ الناس ويذكرهم بلسان فصيح وقلب خاشع يأخذ بمجامع القلوب ومنهم الصالح المجود برهان الدين ابراهيم المصرى مقرئ مجيد ساكن رباط السدرة ويقصده أهل مصر والشام بصدقاتهم ويعلم الايتام كتاب الله تعالى ويقوم بمؤنتهم ويكسوهم ومنهم الصالح العابد عز الدين الواسطى من اصحاب الاموال الطائلة يحمل اليه من بلده المال الكثير فى كل سنة فيبتاع الحبوب والتمر ويفرقها على الضعفاء والمساكين ويتولى حملها الى بيوتهم بنفسه ولم يزل ذلك دأبه الى ان توفى ومنهم الفقيه الصالح الزاهد أبو الحسن على بن رزق الله الانجرى من أهل نظر طنجة من كبار الصالحين جاور بمكة أعواما وبها وفاته كانت بينه وبين والدى صحبة قديمة ومتى أتى بلدنا طنجة نزل عندنا وكان له بيت بالمدرسة المظفرية يعلم العلم فيها نهارا ويأوى بالليل الى مسكنه برباط ربيع وهو من أحسن الرباطات بمكة بداخله بئر عذبة لا تماثلها بئر بمكة وسكانه الصالحون واهل ديار الحجاز يعظمون هذا الرباط تعظيما شديدا وينذرون له النذور وأهل الطائف يأتونه بالفواكه ومن عادتهم ان كل من له بستان من النخيل والعنب والفرسك وهو الخوخ والتين وهم يسمونه الخمط يخرج منه العشر لهذا الرباط ويوصلون ذلك اليه على جمالهم ومسيرة ما بين مكة والطائف يومان ومن لم يف بذلك نقصت فواكهه فى السنة الآتية واصابتها الجوائح

(حكاية فى فضله)

اتى يوما غلمان الامير أبى نمى صاحب مكة الى هذا الرباط ودخلوا بخيل الامير وسقوها من تلك البئر فلما عادوا بالخيل الى مرابطها اصابتها الاوجاع وضربت بانفسها الارض

وبرؤسها

وبرؤسها وارجلها واتصل الخبر بالامير أبي نمي فاتى باب الرباط بنفسه واعتذر الى المساكين الساكنين به واستصحب واحدا منهم فمسح على بطون الدواب بيده فأراقت ما كان في أجوافها من ذلك الماء وبرئت مما اصابها ولم يتعرضوا بعدها للرباط الا بالخير ومنهم الصالح المبارك أبو العباس الغماري من أصحاب أبي الحسن بن رزق الله وسكن رباط ربيع ووفاته بمكة شرفها الله ومنهم الصالح أبو يعقوب يوسف من بادية سبتة كان خديما للشيخين المذكورين فلما توفيا صار شيخ الرباط بعدهما ومنهم الصالح السائح السالك أبو الحسن علي بن فرغوس التلمساني ومنهم الشيخ سعيد الهندي شيخ رباط كلالة

(حكاية)

كان الشيخ سعيد قد قصد ملك الهند محمد شاه فأعطاه مالا عظيما قدم به مكة فسجنه الامير عطيفة وطلبه باداء المال فامتنع فعذب بعصر رجليه فأعطى خمسة وعشرين ألف درهم نقرة وعاد الى بلاد الهند ورأيته بها ونزل بدار الامير سيف الدين غدا بن هبة الله بن عيسى بن مهنى أمير عرب الشام وكان غدا ساكنا ببلاد الهند متزوجا بأخت ملكها وسيذكر أمره فأعطى ملك الهند للشيخ سعيد جملة مال وتوجه صحبة حاج يعرف بوشل من ناس الامير غدا وجهه الامير المذكور ليأتيه ببعض ناسه ووجه معه أموالا وتحفا منها الخلعة التي خلعها عليه ملك الهند ليلة زفافه بأخته وهي من الحرير الازرق مزركشة بالذهب ومرصعة بالجوهر بحيث لا يظهر لونها لغلبة الجوهر عليها وبعث معه خمسين ألف درهم ليشتري له الخيل العتاق فسافر الشيخ سعيد صحبة وشل واشتريا سلعا بما عندهما من الاموال فلما وصلا جزيرة سقطرة المنسوب اليها الصبر السقطري خرج عليهم لصوص الهند في مراكب كثيرة فقاتلوهم قتالا شديدا مات فيه من الفريقين جملة وكان وشل راميا فقتل منهم جماعة ثم تغلب السراق عليهم وطعنوا وشلا طعنة مات منها بعد ذلك وأخذوا ما كان عندهم وتركوا لهم مراكبهم بآلة سفره وزاده فذهبوا الى عدن ومات بها وشل وعادة هؤلاء السراق انهم لا يقتلون أحدا الا في حين القتال ولا يغرقونه وانما يأخذون ماله ويتركونه يذهب بمركبه حيث شاء ولا يأخذون المماليك لانهم من جنسهم وكان الحاج سعيد قد سمع من ملك الهند انه يريد اظهار الدعوة العباسية ببلاده كمثل ما فعله ملوك الهند ممن تقدمه مثل السلطان شمس الدين للمش واسمه (بفتح اللام الاولى واسكان الثانية وكسر الميم وشين معجم) وولده ناصر الدين ومثل السلطان جلال الدين فيروزشاه والسلطان غياث الدين بلبن وكانت الخلع تأتي اليهم من بغداد فلما توفي وشل قصد الشيخ سعيد الى الخليفة أبي العباس بن الخليفة أبي الربيع سليمان العباسي بمصر واعلمه بالامر فكتب له كتابا بخطه بالنيابة عنه ببلاد الهند فاستصحب الشيخ سعيد الكتاب وذهب الى اليمن

واشترى بها ثلاث خلع سود اوركب البحر الى الهند فلما وصل كنبايت وهي على مسيرة أربعين يوما من دهلى حضرة ملك الهند كتب صاحب الخبر الى الملك يعلمه بقدوم الشيخ سعيد وان معه أمر الخليفة وكتابه فورد الامر ببعثه الى الحضرة مكرما فلما قرب من الحضرة بعث الامراء والقضاة والفقهاء لتلقيه ثم خرج هو بنفسه لتلقيه فتلقاه وعانقه ودفع له الامر فقبله ووضعه على رأسه ودفع له الصندوق الذى فيه الخلع فاحتمله الملك على كاهله خطوات ولبس احدى الخلع وكسى الاخرى الامير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن يوسف بن عبد العزيز بن الخليفة المنتصر العباسى وكان مقيما عنده وسيذكر خبره وكسى الخلعة الثالثة الامير قبولة الملقب بالملك الكبير وهو الذى يقوم على رأسه ويشرد عنه الذباب وأمر السلطان فخلع على الشيخ سعيد ومن معه وأركبه على الفيل ودخل المدينة كذلك والسلطان امامه على فرسه وعن يمينه وشماله الاميران اللذان كساهما الخلعتين العباسيتين والمدينة قد زينت بانواع الزينة وصنع بها احدى عشرة قبة من الخشب كل قبة منها أربع طبقات فى كل طبقة طائفة من المغنين رجالا ونساء والراقصات وكلهم مماليك السلطان والقبة مزينة بثياب الحرير المذهب أعلاها وأسفلها وداخلها وخارجها وفى وسطها ثلاثة أحواض من جلود الجواميس مملوءة ماء قد حل فيه الجلاب يشربه كل وارد وصادر لا يمنع منه احد وكل من يشرب منه يعطى بعد ذلك خمس عشرة ورقة من أوراق التنبول والفوفل والنورة فيأكلها فتطيب نكهته وتزيد فى حمرة وجهه ولثاته وتقمع عنه الصفراء وتهضم ما أكل من الطعام ولما ركب الشيخ سعيد على الفيل فرشت له ثياب الحرير بين يدى الفيل يطأ عليها الفيل من باب المدينة الى دار السلطان وأنزل بدار تقرب من دار الملك وبعث له أموالا طائلة وجميع الاثواب المعلقة والمفروشة بالقباب والموضوعة بين يدى الفيل لا تعود الى السلطان بل يأخذها أهل الطرب وأهل الصناعات الذين يصنعون القباب وخدام الاحواض وغيرهم وهكذا فعلهم متى قدم السلطان من سفر وأمر الملك بكتاب الخليفة ان يقرأ على المنبرين الخطبتين فى كل يوم جمعة وأقام الشيخ سعيد شهرا ثم بعث معه الملك هدايا الى الخليفة فوصل كنبايت وأقام بها حتى تيسرت أسباب حركته فى البحر وكان ملك الهند قد بعث أيضا من عنده رسولا الى الخليفة وهو الشيخ رجب البرقعى أحد شيوخ الصوفية وأصله من مدينة القرم من صحراء قبجق وبعث معه هدايا للخليفة منها حجر ياقوت قيمته خمسون ألف دينار وكتب له يطلب منه ان يعقد له النيابة عنه ببلاد الهند والسند او يبعث لها سواه من يظهر له هكذا نص عليه كتابه اعتقادا منه فى الخلافة وحسن نية وكان للشيخ رجب أخ بديار مصر يدعى بالامير سيف الدين الكاشف فلما وصل رجب الى الخليفة ابى ان يقرأ الكتاب ويقبل الهدية الا بمحضر الملك

الصالح

الصالح اسماعيل بن الملك الناصر فأشار سيف الدين على أخيه رجب ببيع الحجر فباعه واشترى بثمنه وهو ثلاثمائة ألف درهم أربعة أحجار وحضر بين يدى الملك الصالح ودفع له الكتاب وأحد الاحجار ودفع سائرها الامرائه واتفقوا على ان يكتب الملك الهند بما طلبه فوجهوا الشهود الى الخليفة واشهد على نفسه انه قدمه نائبا عنه ببلاد الهند وما يليها وبعث الملك الصالح رسولا من قبله وهو شيخ الشيوخ بمصر ركن الدين العجمى ومعه الشيخ رجب وجماعة من الصوفية وركبوا البحر فارس من الابلة الى هرمز وسلطانها يومئذ قطب الدين تمتهن بن طوران شاه فأكرم مثواهم وجهز لهم مركبا الى بلاد الهند فوصلوا مدينة كنبايت والشيخ سعيد بها وأميرها يومئذ مقبول التلنكى احد خواص ملك الهند فاجتمع الشيخ رجب بهذا الامير وقال له ان الشيخ سعيدا انما جاءكم بالتزوير والخلع التى ساقها انما اشتراها بعدن فينبغى ان تثقفوه وتبعثوه لخوند عالم وهو السلطان فقال له الامير الشيخ سعيد معظم عند السلطان فما يفعل به هذا الايام ولكنى أبعثه معكم ليرى فيه السلطان رأيه وكتب الامير بذلك كله الى السلطان وكتب به أيضا صاحب الاخبار فوقع فى نفس السلطان تغير وانقبض عن الشيخ رجب لكونه تكلم بذلك على رؤس الاشهاد بعد ما صدر من السلطان للشيخ سعيد من الاكرام ما صدر فمنع رجبا من الدخول عليه وزاد فى اكرام الشيخ سعيد ولما دخل شيخ الشيوخ على السلطان قام اليه وعانقه وأكرمه وكان متى دخل اليه يقوم له وبقى الشيخ سعيد المذكور بارض الهند معظما مكرما وبها تركته سنة ثمان وأربعين وكان بمكة أيام مجاورتى بها حسن المغربى المجنون وأمره غريب وشأنه عجيب وكان قبل ذلك صحيح العقل خديما لولى الله تعالى نجم الدين الاصبهانى ايام حياته

(حكايته)

كان حسن المجنون كثير الطواف بالليل وكان يرى فى طوافه بالليل فقيرا يكثر الطواف ولا يراه بالنهار فلقيه ذلك الفقير ليلة وسأله عن حاله وقال له يا حسن ان أمك تبكى عليك وهى مشتاقة الى رؤيتك وكانت من اماء الله الصالحات أفتحب أن تراها قال له نعم ولكنى لا قدرة لى على ذلك فقال له نجتمع هاهنا فى الليلة المقبلة ان شاء الله تعالى فلما كانت الليلة المقبلة وهى ليلة الجمعة وجده حيث واعده فطافا بالبيت ما شاء الله ثم خرج وهو فى أثره الى باب المعلى فأمره ان يسد عينيه ويمسك بثوبه ففعل ذلك ثم قال بعد ساعة أتعرف بلدك قال نعم قال هاهو هذا ففتح عينيه فاذا به على دار أمه فدخل عليها ولم يعلمها بشئ مما جرى وأقام عندها نصف شهر وأظن ان بلده مدينة أسفى ثم خرج الى الجبانة فوجد الفقير صاحبه فقال له كيف أنت فقال يا سيدى انى اشتقت الى رؤية الشيخ نجم الدين وكنت خرجت على عادتى وغبت عنه هذه الايام

واحب ان تردنى اليه فقال له نعم وواعده الجبانة ليلا فلما وافاه بها امره ان يفعل كفعله فى مكة شرفها الله من تغميض عينيه والامساك بذيله ففعل ذلك فاذا به فى مكة شرفها الله وأوصاه ان لا يحدث نجم الدين بشئ مما جرى ولا يحدث به غيره فلما دخل على نجم الدين قال له أين كنت يا حسن فى غيبتك فأبى أن يخبره فعزم عليه فأخبره بالحكاية فقال أرنى الرجل فاتى معه ليلا وأتى الرجل على عادته فلما مر بهما قال له ياسيدى هو هذا فسمعه الرجل فضرب بيده على فمه وقال أسكت أسكتك الله فخرس لسانه وذهب عقله وبقى بالحرم موّلها يطوف بالليل والنهار من غير وضوء ولا صلاة والناس يتبركون به ويكسونه واذا جاع خرج الى السوق التى بين الصفا والمروة فيقصد حانوتا من الحوانيت فيأكل منه ما احب لا يصده أحد ولا يمنعه بل يسر كل من أكل له شيأ وتظهر له البركة والنماء فى بيعه وربحه ومتى أتى السوق تطاول أهلها باعناقهم اليه كل منهم يحرص على ان يأكل من عنده لما جربوه من بركته وكذلك فعله مع السقائين متى احب ان يشرب ولم يزل دأبه كذلك الى سنة ثمان وعشرين فحج فيها الامير سيف الدين يلملك فاستصحبه معه الى ديار مصر فانقطع خبره نفع الله تعالى به

(ذكر عادة أهل مكة فى صلواتهم ومواضع أئمتهم)

فمن عادتهم أن يصلى اول الائمة امام الشافعية وهو المقدم من قبل أولى الامر وصلاته خلف المقام الكريم مقام ابراهيم الخليل عليه السلام فى حطيم له هنالك بديع وجمهور الناس بمكة على مذهبه والحطيم خشبتان موصول ما بينهما اباذرع شبه السلم تقابلهما خشبتان على صفتهما وقد عقدت على أرجل مجصصة وعرض على أعلى الخشب خشبة أخرى فيها خطاطيف حديد يعلق منها قناديل زجاج فاذا صلى الامام الشافعى صلى بعده امام المالكية فى محراب قبالة الركن اليمانى ويصلى امام الحنبلية معه فى وقت واحد مقابلا ما بين الحجر الاسود والركن اليمانى ثم يصلى امام الحنفية قبالة الميزاب المكرم تحت حطيم له هنالك ويوضع بين ايدى الائمة فى محاريبهم الشمع وترتيبهم هكذا فى الصلوات الاربع وأما صلاة المغرب فانهم يصلونها فى وقت واحد كل امام يصلى بطائفته ويدخل على الناس من ذلك سهو وتخليط فربما ركع المالكى بركوع الشافعى وسجد الحنفى بسجود الحنبلى وتراهم مصيخين كل احد الى صوت المؤذن الذى يسمع طائفته لئلا يدخل عليه السهو

(ذكر عادتهم فى الخطبة وصلاة الجمعة)

وعادتهم فى يوم الجمعة ان يلصق المنبر المبارك الى صفح الكعبة الشريفة فيما بين الحجر الاسود والركن العراقى ويكون الخطيب مستقبلا المقام الكريم فاذا خرج الخطيب اقبل لابسا ثوب سواد معتما بعمامة سوداء وعليه طيلسان اسود كل ذلك من كسوة الملك الناصر وعليه

الوقار

الوقار والسكينة وهو يتهادى بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من المؤذنين وبين يديه
أحد القومة في يده الفرقعة وهي عود في طرفه جلد رقيق مفتول ينفضه في الهواء فيسمع له
صوت عال يسمعه من بداخل الحرم وخارجه فيكون اعلاما بخروج الخطيب ولا يزال كذلك
الى ان يقرب من المنبر فيقبل الحجر الاسود ويدعو عنده ثم يقصد المنبر والمؤذن الزمزمي
وهو رئيس المؤذنين بين يديه لابسا السواد وعلى عاتقه السيف ممسكا له بيده وتركز الرايتان
عن جانبي المنبر فاذا صعد أول درج من درج المنبر قلده المؤذن السيف فيضرب بنصل
السيف ضربة في الدرج يسمع بها الحاضرين ثم يضرب في الدرج الثاني ضربة ثم في الثالث
أخرى فاذا استوى في عليا الدرجات ضرب ضربة رابعة ووقف داعيا بدعاء خفي مستقبل
الكعبة ثم يقبل على الناس فيسلم عن يمينه وشماله ويرد عليه الناس ثم يقعد ويؤذن المؤذنون
في أعلى قبة زمزم في حين واحد فاذا فرغ الأذان خطب الخطيب خطبة يكثر بها من الصلاة
على النبي صلى الله عليه وسلم ويقول في اثنائها اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ما طاف بهذا
البيت طائف ويشير باصبعه الى البيت الكريم اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ما وقف
بعرفة واقف ويرضى عن الخلفاء الاربعة وعن سائر الصحابة وعن عمي النبي صلى الله عليه
وسلم وسبطيه وأمهما وخديجة جدتهما على جميعهم السلام ثم يدعو للملك الناصر ثم للسلطان
المجاهد نور الدين علي بن الملك المؤيد داود بن الملك المظفر يوسف بن علي بن رسول ثم يدعو
للسيدين الشريفين الحسنيين أميري مكة سيف الدين عطيفة وهو اصغر الاخوين ويقدم
اسمه لعدله وأسد الدين رميثة ابني ابي نمي بن أبي سعد بن علي بن قتادة وقد دعا لسلطان العراق
مرة ثم قطع ذلك فاذا فرغ من خطبته صلى وانصرف والرايتان عن يمينه وشماله والفرقعة
امامه اشعارا بانقضاء الصلاة ثم يعاد المنبر الى مكانه ازاء المقام الكريم

(ذكر عادتهم في استهلال الشهور)

وعادتهم في ذلك ان يأتي امير مكة في اول يوم من الشهر وقواده يحفون به وهو لابس البياض
معتم متقلد سيفا وعليه السكينة والوقار فيصلي عند المقام الكريم ركعتين ثم يقبل الحجر
ويشرع في طواف أسبوع ورئيس المؤذنين على اعلى قبة زمزم فعند ما يكمل الامير شوطا
واحدا ويقصد الحجر لتقبيله يندفع رئيس المؤذنين بالدعاء له والتهنئة بدخول الشهر رافعا بذلك
صوته ثم يذكر شعرا في مدحه ومدح سلفه الكريم ويفعل به هكذا في السبعة أشواط فاذا فرغ
منها ركع عند الملتزم ركعتين ثم ركع خلف المقام أيضا ركعتين ثم انصرف ومثل هذا سواء يفعل
اذا اراد سفرا واذا قدم من سفر أيضا

(ذكر عادتهم في شهر رجب)

واذا اهل هلال رجب امر أمير مكة بضرب الطبول والبوقات اشعارا بدخول الشهر ثم يخرج في اول يوم منه راكبا ومعه اهل مكة فرسانا ورجالا على ترتيب عجيب وكلهم بالاسلحة يلعبون بين يديه والفرسان يجولون ويجرون والرجالة يتواثبون ويرمون بحرابهم الى الهواء ويلقفونها والامير رميثة والامير عطيفة معهما اولادهما وقوادهما مثل محمد بن ابراهيم وعلى واحمد ابني صبيح وعلى بن يوسف وشداد بن عمر وعامر الشرق ومنصور بن عمر وموسى المزرق وغيرهم من كبار أولاد الحسن ووجوه القوّاد وبين أيديهم الرايات والطبول والدبادب وعليهم السكينة والوقار ويسيرون حتى ينتهون الى الميقات ثم يأخذون في الرجوع على معهود ترتيبهم الى المسجد الحرام فيطوف الامير بالبيت والمؤذن الزمزمي باعلى قبة زمزم يدعو له عند كل شوط على ما ذكرناه من عادته فاذا طاف صلى ركعتين عند الملتزم وصلى عند المقام وتمسح به وخرج الى المسعى فسعى راكبا والقوّاد يحفون به والحرابة بين يديه ثم يسير الى منزله وهذا اليوم عندهم عيد من الاعياد ويلبسون فيه أحسن الثياب ويتنافسون في ذلك

(ذكر عمرة رجب)

وأهل مكة يحتفلون لعمرة رجب الاحتفال الذي لا يعهد مثله وهي متصلة ليلا ونهارا واوقات الشهر كله معمورة بالعبادة وخصوصا اول يوم منه ويوم خمسة عشر والسابع والعشرين فانهم يستعدون لها قبل ذلك بايام شاهدتهم في ليلة السابع والعشرين منه وشوارع مكة قد غصت بالهوادج عليها كساء الحرير والكتان الرفيع كل أحد يفعل بقدر استطاعته والجمال مزينة مقلدة بقلائد الحرير واستار الهوادج ضافية تكاد تمس الارض فهي كالقباب المضروبة ويخرجون الى ميقات التنعيم فتسيل أباطح مكة بتلك الهوادج والنيران مشعلة بجنبتي الطريق والشمع والمشاعل امام الهوادج والجبال تجيب بصداها اهلال المهلين فترق النفوس وتنهمل الدموع فاذا قضوا العمرة وطافوا بالبيت خرجوا الى السعي بين الصفا والمروة بعد مضي شئ من الليل والمسعى متقد السرج غاص بالناس والساعيات في هوادجهن والمسجد الحرام يتلألأ نورا وهم يسمون هذه العمرة بالعمرة الاكمية لانهم يحرمون بها من اكمة امام مسجد عائشة رضى الله عنها بمقدار غلوة على مقربة من المسجد المنسوب الى على رضى الله عنه والاصل في هذه العمرة ان عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة خرج ماشيا حافيا معتمرا ومعه أهل مكة وذلك في اليوم السابع والعشرين من رجب وانتهى الى الاكمة فاحرم منها وجعل طريقه على ثنية الحجون الى المعلى من حيث دخل المسلمون يوم الفتح فبقيت تلك العمرة سنة عند أهل مكة الى هذا العهد وكان يوم عبد الله مذكورا اهدى فيه بدنا كثيرة

وأهدى

واهدى اشراف مكة واهل الاستطاعة منهم واقاموا اياما يطعمون ويطعمون شكرا لله تعالى على ما وهبهم من التيسير والمعونة فى بناء بيته الكريم على الصفة التى كان عليها فى أيام الخليل صلوات الله عليه ثم لما قتل ابن الزبير نقض الحجاج الكعبة وردها الى بنائها فى عهد قريش وكانوا قد اقتصروا فى بنائها وأبقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك لحدثان عهدهم بالكفر ثم أراد الخليفة ابو جعفر المنصور ان يعيدها الى بناء ابن الزبير فنهاه مالك رحمه الله عن ذلك وقال يا امير المؤمنين لا تجعل البيت ملعبة للملوك متى أراد أحدهم ان يغيره فعل فتركه على حاله سدا للذريعة وأهل الجهات المراليه لمكة مثل بجيلة وزهران وغامد يبادرون لحضور عمرة رجب ويجلبون الى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب والزيت واللوز فترخص الاسعار بمكة ويرغد عيش أهلها وتعم المرافق ولولا أهل هذه البلاد لكان أهل مكة فى شظف من العيش ويذكر انهم متى أقاموا ببلادهم ولم يأتوا بهذه الميرة اجدبت بلادهم ووقع الموت فى مواشيهم ومتى اوصلوا الميرة اخصبت بلادهم وظهرت فيها البركة ونمت اموالهم فهم اذا حان وقت ميرتهم وادركهم كسل عنها اجتمعت نساؤهم فاخرجنهم وهذا من لطائف صنع الله تعالى وعنايته ببلده الامين وبلاد السرو التى يسكنها بجيلة وزهران وغامد وسواهم من القبائل مخصبة كثيرة الاعناب وافرة الغلات واهلها فصحاء الالسن لهم صدق نية وحسن اعتقاد وهم اذا طافوا بالكعبة يتطارحون عليها لائذين بجوارها متعلقين باستارها داعين بادعية تتصدع لرقتها القلوب وتدمع العيون الجامدة فترى الناس حولهم باسطى ايديهم مؤمنين على ادعيتهم ولا يتمكن لغيرهم الطواف معهم ولا استلام الحجر لتزاحمهم على ذلك وهم شجعان انجاد ولباسهم الجلود واذا وردوا مكة هابت اعراب الطريق مقدمهم وتجنبوا اعتراضهم ومن صحبهم من الزوار حمد صحبتهم وذكر ان النبى صلى الله عليه وسلم ذكرهم واثنى عليهم خيرا وقال علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء وكفاهم شرفا دخولهم فى عموم قوله صلى الله عليه وسلم الايمان يمانى والحكمة يمانية وذكر ان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما كان يتحرى وقت طوافهم ويدخل فى جملتهم تبركا بدعائهم وشأنهم عجيب كله وقد جاء فى أثر زاحموهم فى الطواف فان الرحمة تنصب عليهم صبا

(ذكر عادتهم فى ليلة النصف من شعبان)

وهذه الليلة من الليالى المعظمة عند أهل مكة يبادرون فيها الى أعمال البر من الطواف والصلاة جماعات وأفذاذا والاعتمار ويجتمعون فى المسجد الحرام جماعات لكل جماعة امام ويوقدون السرج والمصابيح والمشاعل ويقابل ذلك ضوء القمر فتتلألأ الارض والسماء نورا ويصلون مائة ركعة يقرأون فى كل ركعة بأم القرآن وسورة الاخلاص يكررونها عشرا

وبعض الناس يصلون فى الحجر منفردين وبعضهم يطوفون بالبيت الشريف وبعضهم قد خرجوا للاعتمار

(ذكر عادتهم فى شهر رمضان المعظم)

واذا أهل هلال رمضان تضرب الطبول والدبادب عند أمير مكة ويقع الاحتفال بالمسجد الحرام من تجديد الحصر وتكثير الشمع والمشاعل حتى يتلألأ الحرم نورا ويسطع بهجة واشراقا وتتفرق الائمة فرقا وهم الشافعية والحنفية والحنبلية والزيدية وأما المالكية فيجتمعون على أربعة من القراء يتناوبون القراءة ويوقدون الشمع ولا تبقى فى الحرم زاوية ولا ناحية الا وفيها قارئ يصلى بجماعة فيرتج المسجد لاصوات القراء وترق النفوس وتحضر القلوب وتهمل الاعين ومن الناس من يقتصر على الطواف والصلاة فى الحجر منفردا والشافعية اكثر الائمة اجتهادا وعادتهم انهم اذا اكملوا التراويح المعتادة وهى عشرون ركعة يطوف امامهم وجماعته فاذا فرغ من الاسبوع ضربت الفرقعة التى ذكرنا انها تكون بين يدى الخطيب يوم الجمعة كأنّ ذلك اعلاما بالعودة الى الصلاة ثم يصلى ركعتين ثم يطوف أسبوعا هكذا الى ان يتم عشرين ركعة اخرى ثم يصلون الشفع والوتر وينصرفون وسائر الائمة لا يزيدون على العادة شيأ واذا كان وقت السحور يتولى المؤذن الزمزمى التسحير فى الصومعة التى بالركن الشرقى من الحرم فيقوم داعيا ومذكرا ومحرضا على السحور والمؤذنون فى سائر الصوامع فاذا تكلم احد منهم اجابه صاحبه وقد نصبت فى أعلى كل صومعة خشبة على رأسها عود معترض قد علق فيه قنديلان من الزجاج كبيران يقدان فاذا قرب الفجر ووقع الايذان بالقطع مرة بعد مرة حط القنديلان وابتدأ المؤذنون بالاذان واجاب بعضهم بعضا ولديار مكة شرفها الله سطوح فمن بعدت داره بحيث لا يسمع الاذان يبصر القنديلين المذكورين فيتسحر حتى اذا لم يبصرهما أقلع عن الاكل وفى كل ليلة وتر من ليالى العشر الاواخر من رمضان يختمون القرآن ويحضر الختم القاضى والفقهاء والكبراء ويكون الذى يختم بهم أحد أبناء كبراء أهل مكة فاذا ختم نصب له منبر مزين بالحرير وأوقد الشمع وخطب فاذا فرغ من خطبته استدعى أبوه الناس الى منزله فاطعمهم الاطعمة الكثيرة والحلاوات وكذلك يصنعون فى جميع ليالى الوتر واعظم تلك الليالى عندهم ليلة سبع وعشرين واحتفالهم لها أعظم من احتفالهم لسائر الليالى ويختم بها القرآن العظيم خلف المقام الكريم وتقام ازاء حطيم الشافعية خشب عظام توصل بالحطيم وتعرض بينها ألواح طوال وتجعل ثلاث طبقات وعليها الشمع وقناديل الزجاج فيكاد يغشى الابصار شعاع الانوار ويتقدم الامام فيصلى فريضة العشاء الآخرة ثم يبتدئ قراءة سورة القدر واليها يكون انتهاء قراءة الائمة فى الليلة التى قبلها وفى تلك الساعة

يمسك جميع الائمة عن التراويح تعظيما لختمة المقام ويحضرونها متبركين فيختم الامام فى تسليمتين ثم يقوم خطيبا مستقبل المقام فاذا فرغ من ذلك عاد الائمة الى صلاتهم وانفض الجمع ثم يكون الختم ليلة تسع وعشرين فى المقام المالكى فى منظر مختصر وعن المباهاة منزه موقر فيختم ويخطب

(ذكر عادتهم فى شوال)

وعادتهم فى شوال وهو مفتتح أشهر الحج المعلومات ان يوقدوا المشاعل ليلة استهلاله ويسرجون المصابيح والشمع على نحو فعلهم فى ليلة سبع وعشرين من رمضان وتوقد السرج فى الصوامع من جميع جهاتها ويوقد سطح الحرم كله وسطح المسجد الذى باعلى أبى قبيس ويقيم المؤذنون ليلتهم تلك فى تهليل وتكبير وتسبيح والناس ما بين طواف وصلاة وذكر ودعاء فاذا صلوا صلاة الصبح اخذوا فى أهبة العيد ولبسوا احسن ثيابهم وبادروا الاخذ مجالسهم بالحرم الشريف وبه يصلون صلاة العيد لانه لا موضع أفضل منه ويكون أول من يبكر الى المسجد الشيبيون فيفتحون باب الكعبة المقدسة ويقعد كبيرهم فى عتبتها وسائرهم بين يديه الى أن يأتى أمير مكة فيتلقونه ويطوف بالبيت أسبوعا والمؤذن الزمزمى فوق سطح قبة زمزم على العادة رافعا صوته بالثناء عليه والدعاء له ولاخيه كما ذكر ثم يأتى الخطيب بين الرايتين السوداوين والفرقعة امامه وهو لابس السواد فيصلى خلف المقام الكريم ثم يصعد المنبر ويخطب خطبة بليغة ثم اذا فرغ منها أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام والمصافحة والاستغفار ويقصدون الكعبة الشريفة فيدخلونها أفواجا ثم يخرجون الى مقبرة باب المعلى تبركا بمن فيها من الصحابة وصدور السلف ثم ينصرفون

(ذكر احرام الكعبة)

وفى اليوم السابع والعشرين من شهر ذى القعدة تشمر استار الكعبة الشريفة زادها الله تعظيما الى نحو ارتفاع قامة ونصف من جهاتها الاربع صونا لها من الايدى ان تنتهبها ويسمون ذلك احرام الكعبة وهو يوم مشهود بالحرم الشريف ولا تفتح الكعبة المقدسة من ذلك اليوم حتى تنقضى الوقفة بعرفة

(ذكر شعائر الحج واعماله)

واذا كان فى أول يوم من شهر ذى الحجة تضرب الطبول والدبادب فى أوقات الصلوات وبكرة وعشية اشعارا بالموسم المبارك ولا تزال كذلك الى يوم الصعود الى عرفات فاذا كان اليوم السابع من ذى الحجة خطب الخطيب أثر صلاة الظهر خطبة بليغة يعلم الناس فيها مناسكهم ويعلمهم بيوم الوقفة فاذا كان اليوم الثامن بكر الناس بالصعود الى منى وامراء مصر والشام

والعراق وأهل العلم يبيتون تلك الليلة بمنى وتقع المباهاة والمفاخرة بين أهل مصر والشام والعراق في ايقاد الشمع ولكن الفضل في ذلك لاهل الشام دائما فاذا كان اليوم التاسع رحلوا من منى بعد صلاة الصبح الى عرفة فيمرون في طريقهم بوادى محسر ويهرولون فيه وذلك سنة ووادى محسر هو الحد ما بين مزدلفة ومنى ومزدلفة بسيط من الارض فسيح بين جبلين وحولها مصانع وصهاريج للماء مما بنته زبيدة ابنة جعفر بن أبي جعفر المنصور زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد وبين منى وعرفة خمسة أميال وكذلك بين منى ومكة أيضا خمسة أميال ولعرفة ثلاثة اسماء وهي عرفة وجمع والمشعر الحرام وعرفات بسيط من الارض فسيح افيح تحدق به جبال كثيرة وفي آخر بسيط عرفات جبل الرحمة وفيه الموقف وفيما حوله والعلمان قبله بنحو ميل وهما الحد ما بين الحل والحرم وبمقربة منهما مما يلي عرفة بطن عرنة الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالارتفاع عنه ويجب التحفظ منه ويجب أيضا الامساك عن النفور حتى يتمكن سقوط الشمس فان الجمالين ربما استحثوا كثيرا من الناس وحذروهم الزحام في النفر واستدرجوهم الى ان يصلوا بهم بطن عرنة فيبطل حجهم وجبل الرحمة التي ذكرناه قائم في وسط بسيط جمع منقطع عن الجبال وهو من حجارة منقطع بعضها عن بعض وفي أعلاه قبة تنسب الى أم سلمة رضي الله عنها وفي وسطها مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه وحوله سطح فسيح يشرف على بسيط عرفات وفي قبليه جدار فيه محاريب منصوبة يصلي فيه الناس وفي أسفل هذا الجبل عن يسار المستقبل للكعبة دار عتيقة البناء تنسب الى آدم عليه السلام وعن يسارها الصخرات التي كان موقف النبي صلى الله عليه وسلم عندها وحول ذلك صهاريج وجباب للماء وبمقربة منه الموضع الذي يقف فيه الامام ويخطب ويجمع بين الظهر والعصر وعن يسار العلمين للمستقبل أيضا وادى الاراك وبه اراك أخضر يمتد في الارض امتدادا طويلا واذا حان وقت النفر اشار الامام المالكي بيده ونزل عن موقفه فدفع الناس بالنفر دفعة ترتج لها الارض وترجف الجبال فياله موقفا كريما ومشهدا عظيما ترجو النفوس حسن عقباه وتطمح الآمال الى نفحات رحماه جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه وكانت وقفتي الاولى يوم الخميس سنة ست وعشرين وأمير الركب المصري يومئذ أرغون الدوادار نائب الملك الناصر وحجت في تلك السنة ابنة الملك الناصر وهي زوجة أبي بكر بن أرغون المذكور وحجت فيها زوجة الملك الناصر المسماة بالخوندة وهي بنت السلطان المعظم محمد اوزبك ملك السرا وخوارزم وأمير الركب الشامي سيف الدين الجوبان ولما وقع النفر بعد غروب الشمس وصلنا مزدلفة عند العشاء الآخرة فصلينا بها المغرب والعشاء جمعا بينهما حسبما جرت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما صلينا الصبح بمزدلفة غدونا منها الى منى

بعد

بعد الوقوف والدعاء بالمشعر الحرام ومن دلفة كلها موقف الا وادى محسر ففيه تقع الهروله حتى يخرج عنه ومن من دلفة يستصحب أكثر الناس حصيات الجمار وذلك مستحب ومنهم من يلقطها حول مسجد الخيف والامر فى ذلك واسع ولما انتهى الناس الى منى بادر والرمى جمرة العقبة ثم نحر واوذبحوا ثم حلقوا وحلوا من كل شئ الا النساء والطيب حتى يطوفوا طواف الافاضة ورمى هذه الجمرة عند طلوع الشمس من يوم النحر ولما رموها توجه أكثر الناس بعدان ذبحوا وحلقوا الى طواف الافاضة ومنهم من أقام الى اليوم الثانى وفى اليوم الثانى رمى الناس عند زوال الشمس بالجمرة الاولى سبع حصيات وبالوسطى كذلك ووقفوا للدعاء بهاتين الجمرتين اقتداء بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان اليوم الثالث تعجل الناس الانحدار الى مكة شرفها الله بعدان كمل لهم رمى تسع وأربعين حصاة وكثير منهم أقام اليوم الثالث بعد يوم النحر حتى رمى سبعين حصاة

(ذكر كسوة الكعبة)

وفى يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصرى الى البيت الكريم فوضعت فى سطحه فلما كان اليوم الثالث بعد يوم النحر أخذ الشيبيون فى اسبالها على الكعبة الشريفة وهى كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكتان وفى أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما الآية وفى سائر جهاتها طرز مكتوبة بالبياض فيها آيات من القرآن وعليها نور لائح مشرق من سوادها ولما كسيت شمرت اذيالها صونا عن أيدى الناس والملك الناصر هو الذى يتولى كسوة الكعبة الكريمة ويبعث مرتبات القاضى والخطيب والائمة والمؤذنين والفراشين والقومة وما يحتاج له الحرم الشريف من الشمع والزيت فى كل سنة وفى هذه الايام تفتح الكعبة الشريفة فى كل يوم للعراقيين والخراسانيين وسواهم ممن يصل مع الركب العراقى وهم يقيمون بمكة بعد سفر الركبين الشامى والمصرى اربعة أيام فيكثرون فيها الصدقات على المجاورين وغيرهم ولقد شاهدتهم يطوفون بالحرم ليلا فمن لقوه فى الحرم من المجاورين او المكيين اعطوه الفضة والثياب وكذلك يعطون للمشاهدين الكعبة الشريفة وربما وجدوا انسانا نائما فجعلوا فى فيه الذهب والفضة حتى يفيق ولما قدمت معهم من العراق سنة ثمان وعشرين فعلوا من ذلك كثيرا واكثروا الصدقة حتى رخص سوم الذهب بمكة وانتهى صرف المثقال الى ثمانية عشر درهما نقرة لكثرة ما تصدقوا به من الذهب وفى هذه السنة ذكر اسم السلطان ابى سعيد ملك العراق على المنبر

وقبة زمزم

(ذكر الانفصال عن مكة شرفها الله تعالى)

وفى الموفى عشرين لذى الحجة خرجت عن مكة صحبة أمير ركب العراق البهلوان محمد الحويح بحائين مهملين) وهو من أهل الموصل وكان يلى امارة الحاج بعد موت الشيخ شهاب الدين قلندر وكان شهاب الدين سخيا فاضلا عظيم الحرمة عند سلطانه يحلق لحيته وحاجبيه على طريقة القلندرية ولما خرجت من مكة شرفها الله تعالى فى صحبة الامير البهلوان المذكور اكترى لى شقة محارة الى بغداد ودفع اجارتها من ماله وأنزلنى فى جواره وخرجنا بعد طواف الوداع الى بطن مر فى جمع من العراقيين والخراسانيين والفارسيين والاعاجم لا يحصى عديدهم تموج بهم الارض موجا ويسيرون سير السحاب المتراكم فمن خرج عن الركب لحاجة ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه ضل عنه لكثرة الناس وفى هذا الركب نواضح كثيرة لابناء السبيل يستقون منها الماء وجمال لرفع الزاد للصدقة ورفع الادوية والاشربة والسكر لمن يصيبه مرض واذا نزل الركب طبخ الطعام فى قدور نحاس عظيمة تسمى الدسوت واطعم منها ابناء السبيل ومن لا زاد معه وفى الركب جملة من الجمال يحمل عليها من لا قدرة له على المشى كل ذلك من صدقات السلطان أبى سعيد ومكارمه قال ابن جزى كرم الله هذه الكنية الشريفة فما أعجب أمرها فى الكرم وحسبك بمولانا بحر المكارم ورافع رايات الجود الذى هو آية فى الندى والفضل أمير المسلمين ابى سعيد ابن مولانا قامع الكفار والآخذ للاسلام بالثار أمير المسلمين ابى يوسف قدس الله أرواحهم الكريمة وابقى الملك فى عقبهم الطاهر الى يوم الدين (رجع) وفى هذا الركب الاسواق الحافلة والمرافق العظيمة وانواع الاطعمة والفواكه وهم يسيرون بالليل ويوقدون المشاعل امام القطار والمحارات فترى الارض تتلألأ نورا والليل قد عاد نهارا ساطعا ثم رحلنا من بطن مر الى عسفان ثم الى خليص ثم رحلنا أربع مراحل ونزلنا وادى السمك ثم رحلنا خمسا ونزلنا فى بدر وهذه المراحل ثنتان فى اليوم احداهما بعد الصبح والاخرى بالعشى ثم رحلنا من بدر فنزلنا الصفراء وأقمنا بها يوما مستريحين ومنها الى المدينة الشريفة مسيرة ثلاث ثم رحلنا فوصلنا الى طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحصلت لنا زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثانية واقمنا بالمدينة كرمها الله تعالى ستة أيام واستصحبنا منها الماء لمسيرة ثلاث ورحلنا عنها فنزلنا فى الثالثة بوادى العروس فتزودنا منه الماء من حسيان يحفرون عليها فى الارض فينبطون ماء عذبا معينا ثم رحلنا من وادى العروس ودخلنا أرض نجد وهو بسيط من الارض مد البصر تنسمنا نسيمة الطيب الارج ونزلنا بعد أربع مراحل على ماء يعرف بالعسيلة ثم رحلنا عنه ونزلنا ماء يعرف بالنقرة فيه آثار مصانع كالصهاريج العظيمة ثم رحلنا الى ماء يعرف بالقارورة

وهى

وهي مصانع مملوءة بماء المطر مما صنعته زبيدة ابنة جعفر رحمها الله ونفعها وهذا الموضع هو وسط أرض نجد فسيح طيب النسيم صحيح الهواء نقي التربة معتدل في كل فصل ثم رحلنا من القارورة ونزلنا بالحاجر وفيه مصانع للماء وربما جفت فحفر عن الماء في الجفار ثم رحلنا ونزلنا سميرة وهي أرض غائرة في بسيط فيه شبه حصن مسكون وماؤها كثير في آبار الا أنه زعاق ويأتي عرب تلك الارض بالغنم والسمن واللبن فيبيعون ذلك من الحجاج بالثياب الخام ولا يبيعون بسوى ذلك ثم رحلنا ونزلنا بالجبل المخروق وهو في بيداء من الارض وفي أعلاه ثقب نافذ تخرقه الريح ثم رحلنا منه الى وادي الكروش ولا ماء به ثم اسرينا ليلا وصبحنا حصن فيد وهو حصن كبير في بسيط من الارض يدور به سور وعليه ربض وساكنوه عرب يتعيشون مع الحاج في البيع والتجارة وهنالك يترك الحجاج بعض أزوادهم حين وصولهم من العراق الى مكة شرفها الله تعالى فاذا عادوا وجدوه وهو نصف الطريق من مكة الى بغداد ومنه الى الكوفة مسيرة اثني عشر يوم في طريق سهل به المياه في المصانع ومن عادة الركب ان يدخلوا هذا الموضع على تعبئة وأهبة للحرب ارهابا للعرب المجتمعين هنالك وقطعا لاطماعهم عن الركب وهنالك لقينا أميري العرب وهما فياض وحيار واسمه (بكسر الحاء واهماله وياء آخر الحروف) وهما أبناء الامير مهنى بن عيسى ومعهما من خيل العرب ورجالهم من لا يحصون كثرة فظهر منهما المحافظة على الحاج والرحال والحوطة لهم وأتى العرب بالجمال والغنم فاشترى منهم الناس ما قدروا عليه ثم رحلنا ونزلنا الموضع المعروف بالاجفر ويشتهر باسم العاشقين جميل وبثينة ثم رحلنا ونزلنا بالبيداء ثم أسرينا ونزلنا بزرود وهي بسيط من الارض فيه رمال منهالة وبه دور صغار قد اداروها شبه الحصن وهنالك آبار ماء ليست بالعذبة ثم رحلنا ونزلنا الثعلبية ولها حصن خرب بازائه مصنع هائل ينزل اليه في درج وبه من ماء المطر ما يعم الركب ويجتمع من العرب بهذا الموضع جمع عظيم فيبيعون الجمال والغنم والسمن واللبن ومن هذا الموضع الى الكوفة ثلاث مراحل ثم رحلنا فنزلنا ببركة المرجوم وهو مشهد على الطريق عليه كوم عظيم من حجارة وكل من مر به رجمه ويذكر ان هذا المرجوم كان رافضيا فسافر مع الركب يريد الحج فوقعت بينه وبين أهل السنة من الاتراك مشاجرة فسب بعض الصحابة فقتلوه بالحجارة وبهذا الموضع بيوت كثيرة للعرب ويقصدون الركب بالسمن واللبن وسوى ذلك وبه مصنع كبير يعم جميع الركب مما بنته زبيدة رحمة الله عليها وكل مصنع أو بركة أو بئر بهذه الطريق التي بين مكة وبغداد فهي من كريم آثارها جزاها الله خيرا ووفى لها أجرها ولولا عنايتها بهذه الطريق ما سلكها أحد ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالمشقوق فيه مصنعان بهما الماء العذب الصافي وأراق الناس ما كان عندهم من الماء وتزودوا منهما ثم رحلنا ونزلنا موضعا

يعرف بالتنانير وفيه مصنع ممتلئ بالماء ثم أسرينا منه واجتزنا ضحوة بزمالة وهي قرية معمورة بها قصر للعرب ومصنعان للماء وابار كثيرة وهي من مناهل هذا الطريق ثم رحلنا فنزلنا الهيثمين وفيه مصنعان للماء ثم رحلنا فنزلنا دون العقبة المعروفة بعقبة الشيطان وصعدنا العقبة في اليوم الثاني وليس بهذا الطريق وعر سواها على انها ليست بصعبة ولا طائلة ثم نزلنا موضعا يسمى واقصة فيه قصر كبير ومصانع للماء معمور بالعرب وهو آخر مناهل هذا الطريق وليس فيما بعده الى الكوفة منهل مشهور الا مشارع ماء الفرات وبه يتلقى كثير من أهل الكوفة الحاج ويأتون بالدقيق والخبز والتمر والفواكه ويهنئ الناس بعضهم بعضا بالسلامة ثم نزلنا موضعا يعرف بلورة فيه مصنع كبير للماء ثم نزلنا موضعا يعرف بالمساجد فيه ثلاث مصانع ثم نزلنا موضعا يعرف بمنارة القرون وهي منارة في بيداء من الارض بائنة الارتفاع مجللة بقرون الغزلان ولا عمارة حولها ثم نزلنا موضعا يعرف بالعذيب وهو واد مخصب عليه عمارة وحوله فلاة خصبة فيها مسرح للبصر ثم نزلنا القادسية حيث كانت الوقعة الشهيرة على الفرس التي اظهر الله فيها دين الاسلام واذل المجوس عبدة النار فلم تقم لهم بعدها قائمة واستأصل الله شأفتهم وكان أمير المسلمين يومئذ سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه وكانت القادسية مدينة عظيمة افتتحها سعد رضي الله عنه وخربت فلم يبق منها الآن الا مقدار قرية كبيرة وفيها حدائق النخل وبها مشارع من ماء الفرات ثم رحلنا منها فنزلنا مدينة مشهد علي بن ابي طالب رضي الله عنه بالنجف وهي مدينة حسنة في أرض فسيحة صلبة من أحسن مدن العراق واكثرها ناسا واتقنها بناء ولها اسواق حسنة نظيفة دخلناها من باب الحضرة فاستقبلنا سوق البقالين والطباخين والخبازين ثم سوق الفاكهة ثم سوق الخياطين والقسارية ثم سوق العطارين ثم باب الحضرة حيث القبر الذي يزعمون انه قبر علي عليه السلام وبازائه المدارس والزوايا والخوانق معمورة أحسن عمارة وحيطانها بالقاشاني وهو شبه الزليج عندنا لكن لونه أشرق ونقشه أحسن

(ذكر الروضة والقبور التي بها)

ويدخل من باب الحضرة الى مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة ولكل وارد عليها ضيافة ثلاثة أيام من الخبز واللحم والتمر مرتين في اليوم ومن تلك المدرسة يدخل الى باب القبة وعلى بابها الحجاب والنقباء والطواشية فعندما يصل الزائر يقوم اليه أحدهم أو جميعهم وذلك على قدر الزائر فيقفون معه على العتبة ويستأذنون له ويقولون عن أمركم يا أمير المؤمنين هذا العبد الضعيف يستأذن على دخوله للروضة العلية فان أذنتم له والا رجع وان لم يكن أهلا لذلك فأنتم أهل المكارم والستر ثم يأمرونه بتقبيل العتبة وهي من الفضة وكذلك

العضادتان ثم يدخل القبة وهى مفروشة بأنواع البسط من الحرير وسواه وبها قناديل الذهب والفضة منها الكبار والصغار وفى وسط القبة مسطبة مربعة مكسوة بالخشب عليه صفائح الذهب المنقوشة المحكمة العمل مسمرة بمسامير الفضة قد غلبت على الخشب بحيث لا يظهر منه شئ وارتفاعها دون القامة وفوقها ثلاثة من القبور يزعمون ان أحدها قبر آدم عليه الصلاة والسلام والثانى قبر نوح عليه الصلاة والسلام والثالث قبر على رضى الله عنه وبين القبور طسوت ذهب وفضة فيها ماء الورد والمسك وانواع الطيب يغمس الزائر يده فى ذلك ويدهن به وجهه تبركا وللقبة باب آخر عتبته أيضا من الفضة وعليه ستور من الحرير الملون يفضى الى مسجد مفروش بالبسط الحسان مستورة حيطانه وسقفه بستور الحرير وله أربعة أبواب عتبها فضة وعليها ستور الحرير وأهل هذه المدينة كلهم رافضية وهذه الروضة ظهرت لها كرامات ثبت بها عندهم ان بها قبر على رضى الله عنه فمنها ان فى ليلة السابع والعشرين من رجب وتسمى عندهم ليلة المحيا يؤتى الى تلك الروضة بكل مقعد من العراقيين وخراسان وبلاد فارس والروم فيجتمع منهم الثلاثون والاربعون ونحو ذلك فاذا كان بعد العشاء الآخرة جعلوا فوق الضريح المقدس والناس ينتظرون قيامهم وهم ما بين مصل وذاكر وتال ومشاهد للروضة فاذا مضى من الليل نصفه او ثلثاه او نحو ذلك قام الجميع اصحاء من غير سوء وهم يقولون لا اله الا الله محمد رسول الله على ولى الله وهذا أمر مستفيض عندهم سمعته من الثقاة ولم أحضر تلك الليلة لكنى رأيت بمدرسة الضياف ثلاثة من الرجال أحدهم من أرض الروم والثانى من اصبهان والثالث من خراسان وهم مقعدون فاستخبرتهم عن شأنهم فاخبرونى انهم لم يدركوا ليلة المحيا وانهم منتظرون أوانها من عام آخر وهذه الليلة يجتمع لها الناس من البلاد ويقيمون سوقا عظيمة مدة عشرة أيام وليس بهذه المدينة مغرم ولا مكاس ولا وال وانما يحكم عليهم نقيب الاشراف وأهلها تجار يسافرون فى الاقطار وهم أهل شجاعة وكرم ولا يضام جارهم صحبتهم فى الاسفار فحمدت صحبتهم لكنهم غلوا فى على رضى الله عنه ومن الناس فى بلاد العراق وغيرها من يصيبه المرض فينذر للروضة نذرا اذا برئ ومنهم من يمرض رأسه فيصنع رأسا من ذهب أو فضة ويأتى به الى الروضة فيجعله النقيب فى الخزانة وكذلك اليد والرجل وغيرهما من الاعضاء وخزانة الروضة عظيمة فيها من الاموال ما لا يضبط لكثرته

(ذكر نقيب الاشراف)

ونقيب الاشراف مقدم من ملك العراق ومكانه عنده مكين ومنزلته رفيعة وله ترتيب الامراء الكبار فى سفره وله الاعلام والاطبال وتضرب الطبلخانة عند بابه مساء وصباحا واليه

حكم هذه المدينة ولا والى بها سواه ولا مغرم فيها للسلطان ولا لغيره وكان النقيب فى عهد دخولى اليها نظام الدين حسين بن تاج الدين الآوى نسبة الى بلدة آوة من عراق العجم أهلها رافضة وكان قبله جماعة يلى كل واحد منهم بعد صاحبه منهم جلال الدين بن الفقيه ومنهم قوام الدين بن طاووس ومنهم ناصر الدين مطهر بن الشريف الصالح شمس الدين محمد الاوهرى من عراق العجم وهو الآن بأرض الهند من ندماء ملكها ومنهم أبو غرة بن سالم بن مهنى بن جماز بن شيحة الحسينى المدنى

(حكاية)

كان الشريف أبو غرة قد غلب عليه فى أول أمره العبادة وتعلم العلم واشتهر بذلك وكان ساكنا بالمدينة الشريفة كرمها الله فى جوار ابن عمه منصور بن جماز أمير المدينة ثم انه خرج عن المدينة واستوطن العراق وسكن منها بالحلة فمات النقيب قوام الدين بن طاووس فاتفق أهل العراق على تولية أبى غرة نقابة الاشراف وكتبوا بذلك الى السلطان أبى سعيد فأمضاه ونفذ له اليرليغ وهو الظهير بذلك وبعث له الخلعة والاعلام والطبول على عادة النقباء ببلاد العراق فغلبت عليه الدنيا وترك العبادة والزهد وتصرف فى الاموال تصرفا قبيحا فرفع أمره الى السلطان فلما علم بذلك أعمل السفر مظهرا انه يريد خراسان قاصدا زيارة قبر على بن موسى الرضى بطوس وكان قصده الفرار فلما زار قبر على بن موسى قدم هراة وهى آخر بلاد خراسان وأعلم أصحابه انه يريد بلاد الهند فرجع أكثرهم عنه وتجاوز هو أرض خراسان الى السند فلما جاز وادى السند المعروف بينج آب ضرب طبوله وانفاره فراع ذلك أهل القرى وظنوا ان التتر أتوا للاغارة عليهم واجفلوا الى المدينة المسماة بأوجا وأعلموا أميرها بما سمعوه فركب فى عساكره واستعد للحرب وبعث الطلايع فرأوا نحو عشرة من الفرسان وجماعة من الرجال والتجار ممن صحب الشريف فى طريقه معهم الاطبال والاعلام فسألوهم عن شأنهم فأخبروهم ان الشريف نقيب العراق أتى وافدا على ملك الهند فرجع الطلايع الى الامير وأخبروه بكيفية الحال فاستضعف عقل الشريف لرفعه العلامات وضربه الطبول فى غير بلاده ودخل الشريف مدينة أوجا وأقام بها مدة تضرب الاطبال على باب داره غدوة وعشيا وكان مولعا بذلك ويذكر انه كان فى أيام نقابته بالعراق تضرب الاطبال على رأسه فاذا أمسك النقار عن الضرب يقول له زد نقرة يا نقار حتى لقب بذلك وكتب صاحب مدينة أوجا الى ملك الهند بخبر الشريف وضربه الاطبال بالطريق وعلى باب داره غدوة وعشيا ورفعه الاعلام وعادة أهل الهند أن لا يرفع علما ولا يضرب طبلا الا من أعطاه الملك ذلك ولا يفعله الا فى السفر وأما فى حال الاقامة فلا يضرب الطبل الا على باب الملك خاصة بخلاف مصر والشام والعراق

فان

فان الطبول تضرب على أبواب الامراء فلما بلغ خبره الى ملك الهند كره فعله وأنكره وفعل فى نفسه ثم خرج الامير الى حضرة الملك وكان الامير كشلى خان والخان عندهم أعظم الامراء وهو الساكن بملتان كرسى بلاد السند وهو عظيم القدر عند ملك الهند يدعوه بالعم لانه كان ممن أعان أباه السلطان غياث الدين تغلق شاه على قتال السلطان ناصر الدين خسرو شاه قد قدم على حضرة ملك الهند فخرج الملك الى لقائه فاتفق ان كان وصول الشريف فى ذلك اليوم وكان الشريف قد سبق الامير باميال وهو على حاله من ضرب الاطبال فلم يرعه الا السلطان فى موكبه فتقدم الشريف الى السلطان فسلم عليه وسأله السلطان عن حاله وما الذى جاء به فأخبره ومضى السلطان حتى لقى الامير كشلى خان وعاد الى حضرته ولم يلتفت الى الشريف ولا أمر له بانزال ولا غيره وكان الملك عازما على السفر الى مدينة دولة اباد وتسمى أيضا بالكتكة (بفتح الكافين والتاء المعلوة التى بينهما) وتسمى أيضا بالدويجر (ديوكير) وهى على مسيرة أربعين يوما من مدينة دهلى حضرة الملك فلما شرع فى السفر بعث الى الشريف بخمسمائة دينار دراهم وصرفها من ذهب المغرب مائة وخمسة وعشرون دينارا وقال لرسوله اليه قل له ان اراد الرجوع الى بلاده فهذا زاده وان أراد السفر معنا فهى نفقته بالطريق وان أراد الاقامة بالحضرة فهى نفقته حتى نرجع فاغتم الشريف لذلك وكان قصده ان يجزل له العطاء كما هى عادته مع أمثاله واختار السفر صحبة السلطان وتعلق بالوزير أحمد بن اياس المدعوّ بخواجه جهان وبذلك سماه الملك وبه يدعوه هو وسائر الناس فان من عادتهم انه متى سمى الملك أحدا باسم مضاف الى الملك من عماد أو ثقة أو قطب أو باسم مضاف الى الجهان من صدر وغيره فبذلك يخاطبه الملك وجميع الناس ومن خاطبه بسوى ذلك لزمته العقوبة فتأكدت المودة بين الوزير والشريف فأحسن اليه ورفع قدره ولاطف الملك حتى حسن فيه رأيه وأمر له بقريتين من قرى دولة أباد وأمره أن تكون اقامته بها وكان هذا الوزير من أهل الفضل والمروءة ومكارم الاخلاق والمحبة فى الغرباء والاحسان اليهم وفعل الخير واطعام الطعام وعمارة الزوايا فاقام الشريف يستغل القريتين ثمانية أعوام وحصل من ذلك مالا عظيما ثم اراد الخروج فلم يمكنه فانه من خدم السلطان لا يمكنه الخروج الا باذنه وهو محب فى الغرباء فقليلا ما يأذن لاحدهم فى السراح فأراد الفرار من طريق الساحل فردمنه وقدم الحضرة ورغب من الوزير ان يحاول قضية انصرافه فتلطف الوزير فى ذلك حتى أذن له السلطان فى الخروج عن بلاد الهند واعطاه عشرة آلاف دينار من دراهم وصرفها من ذهب المغرب الفان وخمسمائة دينار فأتى بها فى بدرة فجعلها تحت فراشه ونام عليها لمحبته فى الدنانير وفرحه بها وخوفه ان يتصل لاحد من اصحابه شىء منها فانه كان بخيلا فأصابه وجع

فى جنبه بسبب رقاده عليها ولم يزل يتزايد به وهو آخذ فى حركة سفره الى آن توفى بعد عشرين يوما من وصول البدرة اليه واوصى بذلك المال للشريف حسن الجرانى فتصدق بجملته على جماعة من الشيعة المقيمين بدهلى من أهل الحجاز والعراق وأهل الهند لا يورثون بيت المال ولا يتعرضون لمال الغرباء ولا يسألون عنه ولو بلغ ما عسى ان يبلغ وكذلك السودان لا يتعرضون لمال الابيض ولا يأخذونه انما يكون عند الكبار من اصحابه حتى يأتى مستحقه وهذا الشريف أبو غرة له أخ اسمه قاسم سكن غرناطة مدة وبها تزوج بنت الشريف أبى عبد الله بن ابراهيم الشهير بالمكى ثم انتقل الى جبل طارق فسكنه الى ان استشهد بوادى كرة من نظر الجزيرة الخضراء وكان بهمة من البهم لا يصطلى بناره خرق المعتاد فى الشجاعة وله فيها أخبار شهيرة عند الناس وترك ولدين هما فى كفالة ربيبهما الشريف الفاضل ابى عبد الله محمد بن أبى القاسم بن نفيس الحسينى الكربلائى الشهير ببلاد المغرب بالعراقى وكان تزوج أمهما بعد موت أبيهما وهو محسن لهما اجزاه الله خيرا

ولما تحصلت لنا زيارة أمير المؤمنين على عليه السلام سافر الركب الى بغداد وسافرت الى بصرة صحبة رفقة كبيرة من عرب خفاجة وهم أهل تلك البلاد ولهم شوكة عظيمة وبأس شديد ولا سبيل للسفر فى تلك الاقطار الا فى صحبتهم فاكتريت جملا على يد أمير تلك القافلة شامر بن دراج الخفاجى وخرجنا من مشهد على عليه السلام فنزلنا الخورنق موضع سكنى النعمان بن المنذر وآبائه من ملوك بنى ماء السماء وبه عمارة وبقايا قباب ضخمة فى فضاء فسيح على نهر يخرج من الفرات ثم رحلنا عنه فنزلنا موضعا يعرف بقائم الواثق وبه أثر قرية خربة ومسجد خرب لم يبق منه الا صومعته ثم رحلنا عنه آخذين مع جانب الفرات بالموضع المعروف بالعذار وهو غابة قصب فى وسط الماء يسكنها اعراب يعرفون بالمعادى وهم قطاع الطريق رافضية المذهب خرجوا على جماعة من الفقراء تأخروا عن رفقتنا فسلبوهم حتى النعال والكشاكل وهم يتحصنون بتلك الغابة ويمتنعون بها ممن يريدهم والسباع بها كثيرة ورحلنا مع هذا العذار ثلاث مراحل ثم وصلنا مدينة واسط

(مدينة واسط)

وهى حسنة الاقطار كثيرة البساتين والاشجار بها اعلام يهدى الخير شاهدهم وتهدى الاعتبار مشاهدهم وأهلها من خيار أهل العراق بل هم خيرهم على الاطلاق أكثرهم يحفظون القرآن الكريم ويجيدون تجويده بالقراءة الصحيحة واليهم يأتى أهل بلاد العراق برسم تعلم ذلك وكان فى القافلة التى وصلنا فيها جماعة من الناس أتوا برسم تجويد القرآن على من بها من الشيوخ وبها مدرسة عظيمة حافلة فيها نحو ثلاث مائة خلوة ينزلها الغرباء القادمون

لتعلم

لتعلم القرآن عمرها الشيخ تقى الدين بن عبد المحسن الواسطى وهو من كبار أهلها وفقهائها ويعطى لكل متعلم بها كسوة فى السنة ويجرى له نفقته فى كل يوم ويقعد هو واخوانه وأصحابه لتعليم القرآن بالمدرسة وقد لقيته وأضافنى وزودنى تمرا ودراهم ولما نزلنا مدينة واسط أقامت القافلة ثلاثا بخارجها للتجارة فسنح لى زيارة قبر الولى أبى العباس أحمد الرفاعى وهو بقرية تعرف بأم عبيدة على مسيرة يوم من واسط فطلبت من الشيخ تقى الدين أن يبعث معى من يوصلنى اليها فبعث معى ثلاثة من عرب بنى أسد وهم قطان تلك الجهة وأركبنى فرساله وخرجت ظهرا فبت تلك الليلة بحوش بنى أسد ووصلنا فى ظهر اليوم الثانى الى الرواق وهو رباط عظيم فيه آلاف من الفقراء وصادفنا به قدوم الشيخ أحمد كوجك حفيد ولى الله أبى العباس الرفاعى الذى قصدنا زيارته وقد قدم من موضع سكناه من بلاد الروم برسم زيارة قبر جده واليه انتهت الشياخة بالرواق ولما انقضت صلاة العصر ضربت الطبول والدفوف وأخذ الفقراء فى الرقص ثم صلوا المغرب وقدموا السماط وهو خبز الارز والسمك واللبن والتمر فأكل الناس ثم صلوا العشاء الآخرة وأخذوا فى الذكر والشيخ أحمد قاعد على سجادة جده المذكور ثم أخذوا فى السماع وقد أعدوا احمالا من الحطب فأججوها نارا ودخلوا فى وسطها يرقصون ومنهم من يتمرغ فيها ومنهم من يأكلها بفمه حتى أطفأوها جميعا وهذا دأبهم وهذه الطائفة الاحمدية مخصوصون بهذا وفيهم من يأخذ الحية العظيمة فيعض بأسنانه على رأسها حتى يقطعه

(حكاية)

كنت مررت بموضع يقال له افقانبور من عمالة هزار أمروها وبينها وبين دهلى حضرة الهند مسيرة خمس وقد نزلنا بها على نهر يعرف بنهر السرور وذلك فى أوان الشكال والشكال عندهم هو المطر وينزل فى ابان القيظ وكان السيل ينحدر فى هذا النهر من جبال قراجيل فكل من يشرب منه من انسان أو بهيمة يموت لنزول المطر على الحشائش المسمومة فأقمنا على النهر أربعة أيام لا يقربه أحد ووصل الى هنالك جماعة من الفقراء فى أعناقهم أطواق الحديد وفى أيديهم وكبيرهم رجل أسود حالك اللون وهم من الطائفة المعروفة بالحيدرية فباتوا عندنا ليلة وطلب منى كبيرهم ان آتيه بالحطب ليوقدوه عند رقصهم فكلفت والى تلك الجهة وهو عزيز المعروف بالخمار وسيأتى ذكره ان يأتى بالحطب فوجه منه نحو عشرة أحمال فأضرموا فيه النار بعد صلاة العشاء الآخرة حتى صارت جمرا وأخذوا فى السماع ثم دخلوا فى تلك النار فما زالوا يرقصون ويتمرغون فيها وطلب منى كبيرهم قميصا فأعطيته قميصا فى النهاية من الرقة فلبسه وجعل يتمرغ به فى النار ويضربها بأكمامه حتى طفئت تلك النار وخمدت وجاء الى بالقميص

والنار لم تؤثر فيه شيأ البتة فطال عجبي منه ولما حصلت لى زيارة الشيخ أبى العباس الرفاعى نفع الله به عدت الى مدينة واسط فوجدت الرفقة التى كنت فيها قد رحلت فلحقتها فى الطريق ونزلنا ماء يعرف بالهضيب ثم رحلنا ونزلنا بوادى الكراع وليس به ماء ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالمشيرب ثم رحلنا منه ونزلنا بالقرب من البصرة ثم رحلنا فدخلنا ضحوة النهار الى مدينة البصرة

(مدينة البصرة)

فنزلنا بها رباط مالك بن دينار وكنت رأيت عند قدومى عليها على نحو ميلين منها بناء عاليا مثل الحصن فسألت عنه فقيل لى هو مسجد على بن أبى طالب رضى الله عنه وكانت البصرة من اتساع الخطة وانفساح الساحة بحيث كان هذا المسجد فى وسطها وبينه الآن وبينها ميلان وكذلك بينه وبين السور الاول المحيط بها نحو ذلك فهو متوسط بينهما ومدينة البصرة احدى أمهات العراق الشهيرة الذكر فى الآفاق الفسيحة الارجاء المؤنقة الافناء ذات البساتين الكثيرة والفواكه الاثيرة توفر قسمها من النضارة والخصب لما كانت مجمع البحرين الاجاج والعذب وليس فى الدنيا أكثر نخلا منها فيباع التمر فى سوقها بحساب أربعة عشر رطلا عراقية بدرهم ودرهمهم ثلث النقرة ولقد بعث الى قاضيها حجة الدين بقوصرة تمر يحملها الرجل على تكلف فأردت بيعها فبيعت بتسعة دراهم أخذ الحمال منها ثلثها عن أجرة حملها من المنزل الى السوق ويصنع بها من التمر عسل يسمى السيلان وهو طيب كأنه الجلاب والبصرة ثلاث محلات احداها محلة هذيل وكبيرها الشيخ الفاضل علاء الدين بن الاثير من الكرماء الفضلاء أضافنى وبعث الى بثياب ودراهم والمحلة الثانية محلة بنى حرام كبيرها السيد الشريف مجد الدين موسى الحسنى ذو مكارم وفواضل أضافنى وبعث الى التمر والسيلان والدراهم والمحلة الثالثة محلة العجم كبيرها جمال الدين ابن اللوكى واهل البصرة لهم مكارم اخلاق وايناس للغريب وقيام بحقه فلا يستوحش فيما بينهم غريب وهم يصلون الجمعة فى مسجد أمير المؤمنين على رضى الله عنه الذى ذكرته ثم يسد فلا يأتونه الا فى الجمعة وهذا المسجد من أحسن المساجد وصحنه متناهى الانفساح مفروش بالحصباء الحمراء التى يؤتى بها من وادى السباع وفيه المصحف الكريم الذى كان عثمان رضى الله عنه يقرأ فيه لما قتل وأثر تغيير الدم فى الورقة التى فيها قوله تعالى (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم)

(حكاية اعتبار)

شهدت مرة بهذا المسجد صلاة الجمعة فلما قام الخطيب به الى الخطبة وسردها لحن فيها لحنا كثيرا جليا فعجبت من أمره وذكرت ذلك للقاضى حجة الدين فقال لى ان هذا البلد لم يبق به

من

من يعرف شيأ من علم النحو وهذه عبرة لمن تفكر فيها سبحانه مغير الاشياء ومقلب الامور هذه البصرة التى الى أهلها انتهت رياسة النحو وفيها أصله وفرعه ومن أهلها امامه الذى لا ينكر سبقه لا يقيم خطيبها خطبة الجمعة على دوبه عليها ولهذا المسجد سبع صوامع احداها الصومعة التى تتحرك بزعمهم عند ذكر على بن أبى طالب رضى الله عنه صعدت اليها من أعلى سطح المسجد ومعى بعض أهل البصرة فوجدت فى ركن من أركانها مقبض خشب مسمرا فيها كأنه مقبض مملسة البناء فجعل الرجل الذى كان معى يده فى ذلك المقبض وقال بحق رأس أمير المؤمنين على رضى الله عنه تحركى وهز المقبض فتحركت الصومعة فجعلت أنا يدى فى المقبض وقلت له وأنا أقول بحق رأس أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم تحركى وهززت المقبض فتحركت الصومعة فعجبوا من ذلك وأهل البصرة على مذهب السنة والجماعة ولا يخاف من يفعل مثل فعلى عندهم ولو جرى مثل هذا بمشهد على أو مشهد الحسين أو بالحلة أو بالبحرين أو قم أو قاشان أو ساوة أو آوة أو طوس لهلك فاعله لانهم رافضة غالية قال ابن جزى قد عاينت بمدينة برشانة من وادى المنصورة من بلاد الاندلس حاطها الله صومعة تهتز من غير أن يذكر لها أحد من الخلفاء أو سواهم وهى صومعة المسجد الاعظم بها وبناؤها ليس بالقديم وهى كأحسن ما أنت رآء من الصوامع حسن منظر واعتدالا وارتفاعا لا ميل فيها ولا زيغ صعدت اليها مرة ومعى جماعة من الناس فأخذ بعض من كان معى بجوانب جامورها وهزوها فاهتزت حتى أشرت اليهم أن يكفوا فكفوا عن هزها (رجع)

(ذكر المشاهد المباركة بالبصرة)

فمنها مشهد طلحة ابن عبيد الله أحد العشرة رضى الله عنهم وهو بداخل المدينة وعليه قبة ومسجد وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر وأهل البصرة يعظمونه تعظيما شديدا وحق له ومنها مشهد الزبير بن العوام حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته رضى الله عنهما وهو بخارج البصرة ولا قبة عليه وله مسجد وزاوية فيها الطعام لابناء السبيل ومنها قبر حليمة السعدية أم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاعة رضى الله عنها والى جانبها قبر ابنها رضيع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنها قبر أبى بكرة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه قبة وعلى ستة أميال منها بقرب وادى السباع قبر أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا سبيل لزيارته الا فى جمع كثيف لكثرة السباع وعدم العمران ومنها قبر الحسن ابن أبى الحسن البصرى سيد التابعين رضى الله عنه ومنها قبر محمد بن سيرين رضى الله عنه ومنها قبر محمد بن واسع رضى الله عنه ومنها قبر عتبة الغلام رضى الله عنه ومنها قبر مالك بن دينار رضى الله عنه ومنها قبر حبيب العجمى رضى الله عنه ومنها قبر سهل بن عبد الله التسترى

رضى الله عنه وعلى كل قبر منها قبرية مكتوب فيها اسم صاحب القبر ووفاته وذلك كله داخل السور القديم وهى اليوم بينها وبين البلد نحو ثلاثة أميال وبها سوى ذلك قبور الجم الغفير من الصحابة والتابعين المستشهدين يوم الجمل وكان أمير البصرة حين ورودى عليها يسمى بركن الدين العجمى التوريزى أضافنى فأحسن الى والبصرة على ساحل الفرات والدجلة وبها المد والجزر كمثل ماهو بوادى سلا من بلاد المغرب وسواه والخليج المالح الخارج من بحر فارس على عشرة أميال منها فاذا كان المد غلب الماء المالح على العذب واذا كان الجزر غلب الماء الحلو على المالح فيستسق أهل البصرة الماء لدورهم ولذلك يقال ان ماءهم زعاق قال ابن جزى وبسبب ذلك كان هواء البصرة غير جيد وألوان أهلها مصفرة كاسفة حتى ضرب بهم المثل وقال بعض الشعراء وقد أحضرت بين يدى الصاحب اترجة (سريع)

لله اترج غدا بيننا * معبرا عن حال ذى عبره

لما كسى الله ثياب الضنا * أهل الهوى وساكنى البصره

(رجع) ثم ركبت من ساحل البصرة فى صنبوق وهو القارب الصغير الى الابلة وبينها وبين البصرة عشرة أميال فى بساتين متصلة ونخيل مظلة عن اليمين واليسار والباعة فى ظلال الاشجار يبيعون الخبز والسمك والتمر واللبن والفواكه وفيما بين البصرة والابلة متعبد سهل بن عبد الله التسترى فاذا حاذاه الناس بالسفن تراهم يشربون الماء مما يحاذيه من الوادى ويدعون عند ذلك تبركا بهذا الولى رضى الله عنه والنواتية يجرقون فى هذه البلاد وهم قيام وكانت الابلة مدينة عظيمة يقصدها تجار الهند وفارس فخربت وهى الآن قرية بها آثار قصور وغيرها دالة على عظمها ثم ركبنا فى الخليج الخارج من بحر فارس فى مركب صغير لرجل من أهل الابلة يسمى بمغامس وذلك فيما بعد المغرب فصبحنا عبادان وهى قرية كبيرة فى سبخة لا عمارة بها وفيها مساجد كثيرة ومتعبدات ورباطات للصالحين وبينها وبين الساحل ثلاثة أميال قال ابن جزى عبادان كانت بلدا فيما تقدم وهى مجدبة لازرع بها وانما يجلب اليها والماء أيضا بها قليل وقد قال فيها بعض الشعراء (سريع)

من مبلغا اندلسا اننى * حللت عبادان أقصى الثرا

اوحش ما أبصرت لكننى * قصدت فيها ذكرها فى الورى

الخبز فيها يتهادونه * وشربة الماء بها تشترى

(رجع) وعلى ساحل البحر منها رابطة تعرف بالنسبة الى الخضر والياس عليهما السلام وبازائها زاوية يسكنها أربعة من الفقراء بأولادهم يخدمون الرابطة والزاوية ويتعيشون من فتوحات الناس وكل من يمر بهم يتصدق عليهم وذكر لى أهل هذه الزاوية ان بعبادان

عابدا

عابدا كبير القدر ولا أنيس له يأتى هذا البحر مرة فى الشهر فيصطاد فيه مايقوته شهرا ثم لا يرى الا بعد تمام شهر وهو على ذلك منذ أعوام فلما وصلنا عبادان لم يكن لى شأن الا طلبه فاشتغل من كان معى بالصلاة فى المساجد والمتعبدات وانطلقت طالبا له فجئت مسجدا خربا فوجدته يصلى فيه فجلست الى جانبه فأوجز فى صلاته ولما سلم أخذ بيدى وقال لى بلغك الله مرادك فى الدنيا والآخرة فقد بلغت بحمد الله مرادى فى الدنيا وهو السياحة فى الارض وبلغت من ذلك مالم يبلغه غيرى فيما اعلمه وبقيت الاخرى والرجاء قوى فى رحمة الله وتجاوزه وبلوغ المراد من دخول الجنة ولما أتيت أصحابى أخبرتهم خبر الرجل وأعلمتهم بموضعه فذهبوا اليه فلم يجدوه ولا وقعوا له على خبر فعجبوا من شأنه وعدنا بالعشى الى الزاوية فبتنا بها ودخل علينا أحد الفقراء الاربعة بعد صلاة العشاء الآخرة ومن عادة ذلك الفقير أن يأتى عبادان كل ليلة فيسرج السرج بمساجدها ثم يعود الى زاويته فلما وصل الى عبادان وجد الرجل العابد فأعطاه سمكة طرية وقال له اوصل هذه الى الضيف الذى قدم اليوم فقال لنا الفقير عند دخوله علينا من رآى منكم الشيخ اليوم فقلت له أنا رأيته فقال يقول لك هذه ضيافتك فشكرت الله على ذلك وطبخ لنا الفقير تلك السمكة فأكلنا منها أجمعين وما أكلت قط سمكا أطيب منها وهجس فى خاطرى الاقامة بقية العمر فى خدمة ذلك الشيخ ثم صرفتنى النفس اللجوج عن ذلك ثم ركبنا البحر عند الصبح بقصد بلدة ماجول ومن عادتى فى سفرى أن لا أعود على طريق سلكتها ما أمكننى ذلك وكنت أحب قصد بغداد العراق فأشار على بعض أهل البصرة بالسفر الى أرض اللور ثم الى عراق العجم ثم الى عراق العرب فعملت بمقتضى اشارته ووصلنا بعد أربعة أيام الى بلدة ماجول على وزن فاعول وجيمها معقودة وهى صغيرة على ساحل هذا الخليج الذى ذكرنا انه يخرج من بحر فارس وأرضها سبخة لا شجر فيها ولا نبات ولها سوق عظيمة من أكبر الاسواق وأقمت بها يوما واحدا ثم اكتريت دابة لركوبى من الذين يجلبون الحبوب من رامز الى ماجول وسرنا ثلاثا فى صحراء يسكنها الاكراد فى بيوت الشعر ويقال ان أصلهم من العرب ثم وصلنا الى مدينة رامز وأول حروفها (راء وآخرها زاى وميمها مكسورة) وهى مدينة حسنة ذات فواكه وأنهار ونزلنا بها عند القاضى حسام الدين محمود ولقيت عنده رجلا من أهل العلم والدين والورع هندى الاصل يدعى بهاء الدين ويسمى اسماعيل وهو من أولاد الشيخ بهاء الدين أبى زكرياء الملتانى وقرأ على مشايخ توريز وغيرها وأقمت بمدينة رامز ليلة واحدة ثم رحلنا منها ثلاثا فى بسيط فيه قرى يسكنها الاكراد وفى كل مرحلة منها زاوية فيها للوارد الخبز واللحم والحلواء وحلواؤهم من رب العنب مخلوط بالدقيق والسمن وفى كل زاوية الشيخ والامام والمؤذن والخادم للفقراء والعبيد والخدم يطبخون الطعام ثم وصلت الى مدينة

تستر وهي آخر البسيط من بلاد أتابك وأول الجبال مدينة كبيرة رائقة نضيرة وبها البساتين الشريفة والرياض المنيفة ولها المحاسن البارعة والاسواق الجامعة وهي قديمة البناء افتتحها خالد بن الوليد والى هذه المدينة ينسب سهل بن عبد الله ويحيط بها النهر المعروف بالازرق وهو عجيب في نهاية من الصفاء شديد البرودة في أيام الحر ولم أر كزرقته الا نهر بلخشان ولها باب واحد للمسافرين يسمى دروازة دسبول والدروازة عندهم الباب ولها أبواب غيره شارعة الى النهر وعلى جانبي النهر البساتين والدواليب والنهر عميق وعلى باب المسافرين منه جسر على القوارب كجسر بغداد والحلة قال ابن جزى وفي هذا النهر يقول بعضهم (كامل)

انظر لشاذروان تستر واعجب * من جمعه ماء لري بلاده

كمليك قوم جمعت أمواله * فغدا يفرقها على أجناده

والفواكه بتستر كثيرة والخيرات متيسرة غزيرة ولا مثل لاسواقها في الحسن وبخارجها تربة معظمة يقصدها أهل تلك الاقطار للزيارة وينذرون لها النذور ولها زاوية بها جماعة من الفقراء وهم يزعمون انها تربة زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وكان نزولي من مدينة تستر في مدرسة الشيخ الامام الصالح المتفنن شرف الدين موسى بن الشيخ الصالح الامام العالم صدر الدين سليمان وهو من ذرية سهل بن عبد الله وهذا الشيخ ذو مكارم وفضائل جامع بين العلم والدين والصلاح والايثار وله مدرسة وزاوية وخدامها فتيان له أربعة سنبل وكافور وجوهر وسرور أحدهم موكل بأوقاف الزاوية والثاني متصرف فيما يحتاج اليه من النفقات في كل يوم والثالث خديم السماط بين أيدي الواردين ومرتب الطعام لهم والرابع موكل بالطباخين والسقائين والفراشين فأقمت عنده ستة عشر يوما فلم أر أعجب من ترتيبه ولا أرغد من طعامه يقدم بين يدي الرجل ما يكفي الاربعة من طعام الارز المفلفل المطبوخ في السمن والدجاج المقلي والخبز واللحم والحلواء وهذا الشيخ من أحسن الناس صورة وأقومهم سيرة وهو يعظ الناس بعد صلاة الجمعة بالمسجد الجامع ولما شاهدت مجالسه في الوعظ صغر لدي كل واعظ رأيته قبله بالحجاز والشام ومصر ولم ألق فيمن لقيتهم مثله حضرت يوما عنده ببستان له على شاطئ النهر وقد اجتمع فقهاء المدينة وكبراؤها وأتى الفقراء من كل ناحية فأطعم الجميع ثم صلى بهم صلاة الظهر وقام خطيبا وواعظا بعد أن قرأ القراء امامه بالتلاحين المبكية والنغمات المحركة المهيجة وخطب خطبة بسكون ووقار وتصرف في فنون العلم من تفسير كتاب الله وايراد حديث رسول الله والتكلم على معانيه ثم ترامت عليه الرقاع من كل ناحية ومن عادة الاعاجم أن يكتبوا المسائل في رقاع ويرمونها الى الواعظ فيجيب عنها فلما رمي اليه بتلك الرقاع جمعها في يده وأخذ يجيب عنها واحدة بعد

واحدة

واحدة بأبدع جواب وأحسنه وحان وقت صلاة العصر فصلى بالقوم وانصرفوا وكان مجلسه مجلس علم ووعظ وبركة وتبادر التائبون فأخذ عليهم العهد وجز نواصيهم وكانوا خمسة عشر رجلا من الطلبة قدموا من البصرة برسم ذلك وعشرة رجال من عوام تستر

(حكاية)

لما دخلت هذه المدينة أصابنى مرض الحمى وهذه البلاد يحم داخلها فى زمان الحر كما يعرض فى دمشق وسواها من البلاد الكثيرة المياه والفواكه وأصابت الحمى أصحابى أيضا فمات منهم شيخ اسمه يحيى الخراسانى وقام الشيخ بتجهيزه من كل ما يحتاج اليه الميت وصلى عليه وتركت بها صاحبا لى يدعى بهاء الدين الختنى فمات بعد سفرى وكنت حين مرضى لا أشتهى الاطعمة التى تصنع لى بمدرسته فذكر لى الفقيه شمس الدين السندى من طلبتها طعاما فاشتهيته ودفعت له دراهم وطبخ لى ذلك الطعام بالسوق وأتى به الى فأكلت منه وبلغ ذلك الشيخ فشق عليه وأتى الى وقال لى كيف تفعل هذا وتطبخ الطعام فى السوق وهلا أمرت الخدام أن يصنعوا لك ما اشتهيته ثم أحضر جميعهم وقال لهم جميع ما يطلبه منكم من أنواع الطعام والسكر وغير ذلك فأتوا اليه به واطبخوا له ما يشاؤه وأكد عليهم فى ذلك أشد التأكيد جزاه الله خيرا ثم سافرنا من مدينة تستر ثلاثا فى جبال شامخة وبكل منزل زاوية كما تقدم ذكر ذلك ووصلنا الى مدينة ايذج (وضبط اسمها بكسر الهمزة وياء مد وذال معجم مفتوح وجيم) وتسمى أيضا مال الامير وهى حضرة السلطان أتابك وعند وصولى اليها اجتمعت بشيخ شيوخها العالم الورع نور الدين الكرمانى وله النظر فى جميع الزوايا وهم يسمونها المدرسة والسلطان يعظمه ويقصد زيارته وكذلك أرباب الدولة وكبراء الحضرة يزورونه غدوا وعشيا فأكرمنى وأضافنى وأنزلنى بزاوية تعرف باسم الدينورى وأقمت بها أياما وكان وصولى فى أيام القيظ وكنا نصلى صلاة الليل ثم ننام بأعلى سطحها ثم ننزل الى الزاوية ضحوة وكان فى صحبتى اثنا عشر فقيرا منهم امام وقارئان مجيدان وخادم ونحن على أحسن ترتيب

(ذكر ملك ايذج وتستر)

وملك ايذج فى عهد دخولى اليها السلطان أتابك افراسياب ابن السلطان أتابك أحمد وأتابك عندهم سمة لكل من يلى هذه البلاد من ملك وتسمى هذه البلاد بلاد اللور وولى هذا السلطان بعد أخيه اتابك يوسف وولى يوسف بعد أبيه أتابك أحمد وكان احمد المذكور ملكا صالحا سمعت من الثقات ببلاده انه عمر اربعمائة وستين زاوية ببلاده منها بحضرة ايذج أربع وأربعون وقسم خراج بلاده اثلاثا فالثلث منه لنفقة الزوايا والمدارس والثلث منه لمرتب العساكر والثلث لنفقته ونفقة عياله وعبيده وخدامه ويبعث منه هدية لملك العراق فى كل سنة وربما وفد

عليه بنفسه وشاهدت من آثاره الصالحة ببلاده ان أكثرها فى جبال شامخة وقد نحتت الطرق فى الصخور والحجارة وسويت ووسعت بحيث تصعدها الدواب بأحمالها وطول هذه الجبال مسيرة سبعة عشر فى عرض عشرة وهى شاهقة متصل بعضها ببعض تشقها الانهار وشجرها البلوط وهم يصنعون من دقيقه الخبز وفى كل منزل من منازلها زاوية يسمونها المدرسة فاذا وصل المسافر الى مدرسة منها أوتى بما يكفيه من الطعام والعلف لدابته سواء طلب ذلك أو لم يطلبه فان عادتهم أن يأتى خادم المدرسة فيعد من نزل بها من الناس ويعطى كل واحد منهم قرصين من الخبز ولحما وحلواء وكل ذلك من أوقاف السلطان عليها وكان السلطان اتابك أحمد زاهدا صالحا كما ذكرناه يلبس تحت ثيابه مما يلى جسده ثوب شعر

(حكاية)

قدم السلطان أتابك أحمد مرة على ملك العراق أبى سعيد فقال له بعض خواصه ان أتابك يدخل عليك وعليه الدرع وظن ثوب الشعر الذى تحت ثيابه درعا فأمرهم باختبار ذلك على جهة من الانبساط ليعرف حقيقته فدخل عليه يوما فقام اليه الامير الجوبان عظيم امراء العراق والامير سويته أمير ديار بكر والشيخ حسن الذى هو الآن سلطان العراق وامسكوا بثيابه كأنهم يمازحونه ويضاحكونه فوجدوا تحت ثيابه ثوب الشعر ورآه السلطان أبو سعيد وقام اليه وعانقه وأجلسه الى جانبه وقال له سن آطا ومعناه بالتركية أنت أبى وعوضه عن هديته باضعافها وكتب له اليرليغ وهو الظهير الا يطالبه بهدية بعدها هو ولا أولاده وفى تلك السنة توفى وولى ابنه أتابك يوسف عشرة أعوام ثم ولى أخوه افراسياب ولما دخلت مدينة ايذج اردت رؤية السلطان افراسياب المذكور فلم يتأت لى ذلك بسبب انه لا يخرج الا يوم الجمعة لادمانه على الخمر وكان له ابن هو ولى عهده وليس له سواه فمرض فى تلك الايام ولما كان فى احدى الليالى أتانى أحد خدامه وسألنى عن حالى فعرفته وذهب عنى ثم جاء بعد صلاة المغرب ومعه طيفوران كبيران احدهما بالطعام والآخر بالفاكهة وخريطة فيها دراهم ومعه أهل السماع بآلاتهم فقال اعملوا السماع حتى يرقص الفقراء ويدعون لابن السلطان فقلت له ان أصحابى لا يدرون بالسماع ولا بالرقص ودعونا للسلطان ولولده وقسمت الدراهم على الفقراء ولما كان نصف الليل سمعنا الصراخ والنواح وقد مات المريض المذكور ولما كان من الغد دخل على شيخ الزاوية وأهل البلد وقالوا ان كبراء المدينة من القضاة والفقهاء والاشراف والامراء قد ذهبوا الى دار السلطان للعزاء فينبغى لك أن تذهب فى جملتهم فأبيت عن ذلك فعزموا على فلم يكن لى بد من المسير فسرت معهم فوجدت مشور دار السلطان ممتلئا رجالا وصبيانا من المماليك وأبناء الملوك والوزراء والاجناد وقد لبسوا التلاليس وجلال

الدواب

الدواب وجعلوا فوق رؤسهم التراب والتبن وبعضهم قد جز ناصيته وانقسموا فرقتين فرقة بأعلى المشور وفرقة بأسفله وتزحف كل فرقة الى جهة الاخرى وهم ضاربون بأيديهم على صدورهم قائلون خوند كارما ومعناه مولاى أنا (مولانا) فرأيت من ذلك أمرا هائلا ومنظرا فظيعا لم أعهد مثله

(حكاية)

ومن غريب ما اتفق لى يومئذ انى دخلت فرأيت القضاة والخطباء والشرفاء قد استندوا الى حيطان المشور وهو غاص بهم من جميع جهاته وهم بين باك ومتباك ومطرق وقد لبسوا فوق ثيابهم ثيابا خامة من غليظ القطن غير محكمة الخياطة بطائنها الى أعلى ووجوهها مما يلى أجسادهم وعلى رأس كل واحد منهم قطعة خرقة أو مئزر أسود وهكذا يكون فعلهم الى تمام أربعين يوما وهى نهاية الحزن عندهم وبعدها يبعث السلطان لكل من فعل ذلك كسوة كاملة فلما رأيت جهات المشور غاصة بالناس نظرت يمينا وشمالا أرتاد موضعا للجلوس فرأيت هنالك سقيفة مرتفعة عن الارض بمقدار شبر وفى احدى زواياها رجل منفرد عن الناس قاعد عليه ثوب صوف شبه اللبد يلبسه بتلك البلاد ضعفاء الناس أيام المطر والثلج وفى الاسفار فتقدمت الى حيث الرجل وانقطع عنى أصحابى لما رأوا أقدامى نحوه وعجبوا منى وأنا لا علم عندى بشئ من حاله فصعدت السقيفة وسلمت على الرجل فرد على السلام وارتفع عن الارض كأنه يريد القيام وهم يسمون ذلك نصف القيام وقعدت فى الركن المقابل له ثم نظرت الى الناس وقد رمونى بأبصارهم جميعا فعجبت منهم ورأيت الفقهاء والمشايخ والاشراف مستندين الى الحائط تحت السقيفة وأشار الى أحد القضاة ان أنحط الى جانبه فلم أفعل وحينئذ استشعرت انه السلطان فلما كان بعد ساعة أتى شيخ المشايخ نور الدين الكرمانى الذى ذكرناه قبل فصعد الى السقيفة وسلم على الرجل فقام اليه وجلس فيما بينى وبينه فحينئذ علمت ان الرجل هو السلطان ثم جئ بالجنازة وهى بين أشجار الاترج والليمون والنارنج وقد ملئوا أغصانها بثمارها والاشجار بأيدى الرجال فكان الجنازة تمشى فى بستان والمشاعل فى رماح طوال بين يديها والشمع كذلك فصلى عليها وذهب الناس معها الى مدفن الملوك وهو بموضع يقال له هلافيحان على أربعة أميال من المدينة وهنالك مدرسة عظيمة يشقها النهر وبداخلها مسجد تقام فيه الجمعة وبخارجها حمام ويحف بها بستان عظيم وبها الطعام للوارد والصادر ولم أستطع ان أذهب معهم الى مدفن الجنازة لبعد الموضع فعدت الى المدرسة فلما كان بعد أيام بعث الى السلطان رسوله الذى أتانى بالضيافة أولا يدعونى اليه فذهبت معه الى باب يعرف بباب السر ووصعدنا فى درج كثيرة الى ان انتهينا الى موضع لا فرش به لاجل ماهم فيه

من الحزن والسلطان جالس فوق مخدة وبين يديه آنيتان قد غطيتا احداهما من الذهب والاخرى من الفضة وكانت بالمجلس سجادة خضراء ففرشت لي بالقرب منه وقعدت عليها وليس بالمجلس الا حاجبه الفقيه محمود ونديم له لا أعرف اسمه فسألني عن حالي وبلادي وسألني عن الملك الناصر وبلاد الحجاز فأجبته عن ذلك ثم جاء فقيه كبير هو رئيس فقهاء تلك البلاد فقال لي السلطان هذا مولانا فضيل والفقيه ببلاد الاعاجم كلها انما يخاطب بمولانا وبذلك يدعوه السلطان وسواه ثم أخذ في الثناء على الفقيه المذكور وظهر لي ان السكر غالب عليه وكنت قد عرفت ادمانه على الخمر ثم قال لي باللسان العربي وكان يحسنه تكلم فقلت له ان كنت تسمع مني أقول لك أنت من أولاد السلطان أتابك أحمد المشهور بالصلاح والزهد وليس فيك ما يقدح في سلطنتك غير هذا وأشرت الى الآنيتين فخجل من كلامي وسكت وأردت الانصراف فأمرني بالجلوس وقال لي الاجتماع مع امثالك رحمة ثم رأيته يتمايل ويريد النوم فانصرفت وكنت تركت نعلي بالباب فلم أجده فنزل الفقيه محمود في طلبه وصعد الفقيه فضيل يطلبه في داخل المجلس فوجده في طاق هنالك فأتى الي به فأخجلني بره واعتذرت اليه فقبل نعلي حينئذ ووضعه على رأسه وقال لي بارك الله فيك هذا الذي قلته لسلطاننا لا يقدر أحد أن يقوله له غيرك والله اني لارجو أن يؤثر ذلك فيه ثم كان رحيلي من حضرة ايذج بعد أيام فنزلت بمدرسة السلاطين التي بها قبورهم وأقمت بها أياما وبعث الى السلطان بجملة دنانير وبعث بمثلها لاصحابي وسافرنا في بلاد هذا السلطان عشرة أيام في جبال شامخة وفي كل ليلة نترل بمدرسة فيها الطعام فمنها ما هو في العمارة ومنها ما لا عمارة حوله ولكن يجلب اليها جميع ما تحتاج اليه وفي اليوم العاشر نزلنا بمدرسة تعرف بمدرسة كريوالرخ وهي آخر بلاد هذا الملك وسافرنا منها في بسيط من الارض كثير المياه من عمالة مدينة اصفهان ثم وصلنا الى بلدة أشتركان (وضبط اسمها بضم الهمزة واسكان الشين المعجم وضم التاء المعلوة واسكان الراء وآخره نون) وهي بلدة حسنة كثيرة المياه والبساتين ولها مسجد بديع يشقه النهر ثم رحلنا منها الى مدينة فيروزان واسمها كأنه تثنية فيروز وهي مدينة صغيرة ذات أنهار وأشجار وبساتين وصلناها بعد صلاة العصر فرأينا أهلها قد خرجوا لتشييع جنازة وقد أوقدوا خلفها وامامها المشاعل واتبعوها بالمزامير والمغنين بأنواع الاغاني المطربة فعجبنا من شأنهم وبتنا بها ليلة ومررنا بالغد بقرية يقال لها نبلان وهي كبيرة على نهر عظيم والى جانبه مسجد في النهاية من الحسن يصعد اليه في درج وتحفه البساتين وسرنا يومنا فيما بين البساتين والمياه والقرى الحسان الكثيرة ابراج الحمام ووصلنا بعد العصر الى مدينة اصفهان من عراق العجم (واسمها يقال بالفاء الخالصة ويقال بالفاء المعقودة المفخمة) ومدينة اصفهان من كبار

المدن

المدن وحسانها الا أنها الآن قد خرب أكثرها بسبب الفتنة التي بها بين أهل السنة والروافض وهي متصلة بينهم حتى الآن فلا يزالون في قتال وبها الفواكه الكثيرة ومنها المشمش الذي لا نظير له يسمونه بقمر الدين وهم ييبسونه ويدخرونه ونواه ينكسر عن لوز حلو ومنها السفرجل الذي لا مثل له في طيب المطعم وعظم الجرم والاعناب الطيبة والبطيخ العجيب الشان الذي ليس في الدنيا مثله الا ما كان من بطيخ بخارى وخوارزم وقشره أخضر وداخله أحمر ويدخر كما تدخر الشريحة بالمغرب وله حلاوة شديدة ومن لم يكن ألف أكله فانه في أول أمره يسهله وكذلك اتفق لي لما أكلته باصفهان وأهل اصفهان حسان الصور وألوانهم بيض زاهرة مشوبة بالحمرة والغالب عليهم الشجاعة والنجدة وفيهم كرم وتنافس عظيم فيما بينهم في الاطعمة تؤثر عنهم فيه أخبار غريبة وربما دعى أحدهم صاحبه فيقول له اذهب معي لتأكل نان وماس والنان بلسانهم الخبز والماس اللبن فاذا ذهب معه أطعمه أنواع الطعام العجيب مباهيا له بذلك وأهل كل صناعة يقدمون على أنفسهم كبيرا منهم يسمونه الكلو وكذلك كبار المدينة من غير أهل الصناعات وتكون الجماعة من الشبان الاعزاب وتتفاخر تلك الجماعات ويضيف بعضهم بعضا مظهرين لما قدروا عليه من الامكان محتفلين في الاطعمة وسواها الاحتفال العظيم ولقد ذكر لي ان طائفة منهم أضافت طائفة أخرى فطبخوا طعامهم بنار الشمع ثم اضافتها الاخرى فطبخوا طعامهم بالحرير وكان نزولي باصفهان في زاوية تنسب للشيخ علي بن سهل تلميذ الجنيد وهي معظمة يقصدها أهل تلك الآفاق ويتبركون بزيارتها وفيها الطعام للوارد والصادر وبها حمام عجيب مفروش بالرخام وحيطانه بالقاشاني وهو موقوف في السبيل لا يلزم أحدا في دخوله شيء وشيخ هذه الزاوية الصالح العابد الورع قطب الدين حسين بن الشيخ الصالح ولي الله شمس الدين محمد بن محمود بن علي المعروف بالرجاء وأخوه العالم المفتي شهاب الدين أحمد أقمت عند الشيخ قطب الدين بهذه الزاوية أربعة عشر يوما فرأيت من اجتهاده في العبادة وحبه في الفقراء والمساكين وتواضعه لهم ما قضيت منه العجب وبالغ في اكرامي وأحسن ضيافتي وكساني كسوة حسنة وساعة وصولي الزاوية بعث الي بالطعام وبثلاث بطيخات من البطيخ الذي وصفناه آنفا ولم أكن رأيته قبل ولا أكلته

(كرامة لهذا الشيخ)

دخل علي يوما بموضع نزولي من الزاوية وكان ذلك الموضع يشرف على بستان للشيخ وكانت ثيابه قد غسلت في ذلك اليوم ونشرت في البستان ورأيت في جملتها جبة بيضاء مبطنة تدعى عندهم هزرميخي فأعجبتني وقلت في نفسي مثل هذه كنت أريد فلما دخل علي الشيخ نظر في ناحية البستان وقال لبعض خدامه ائتني بذلك الثوب الهزرميخي فأتوا به فكساني اياه

فأهويت الى قدميه أقبلهما وطلبت منه أن يلبسني طاقية من رأسه ويجيزني في ذلك بما أجازه والده عن شيوخه فألبسني اياها في الرابع عشر لجمادى الاخيرة سنة سبع وعشرين وسبعمائة بزاويته المذكورة كما لبس من والده شمس الدين ولبس والده من أبيه تاج الدين محمود ولبس محمود من أبيه شهاب الدين على الرجاء ولبس على من الامام شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي ولبس عمر من الشيخ الكبير ضياء الدين أبي النجيب السهروردي ولبس أبو النجيب من عمه الامام وحيد الدين عمر ولبس عمر من والده محمد بن عبد الله المعروف بعمويه ولبس محمد من الشيخ أخي فرج الزنجاني ولبس أخو فرج من الشيخ أحمد الدينوري ولبس أحمد من الامام ممشاد الدينوري ولبس ممشاد من الشيخ المحقق على بن سهل الصوفي ولبس على من أبي القاسم الجنيد ولبس الجنيد من سرى السقطي ولبس سرى السقطي من داود الطائي ولبس داود من الحسن بن أبي الحسن البصري ولبس الحسن ابن أبي الحسن البصري من أمير المؤمنين على بن أبي طالب قال ابن جزى هكذا أورد الشيخ أبو عبد الله هذا السند والمعروف فيه ان سريا السقطي صحب معروفا الكرخي وصحب معروف داود الطائي وكذلك داود الطائي بينه وبين الحسن حبيب العجمي وأخو فرج الزنجاني انما المعروف انه صحب أبا العباس النهاوندي وصحب النهاوندي أبا عبد الله بن خفيف وصحب ابن خفيف أبا محمد رويما وصحب رويم أبا القاسم الجنيد وأما محمد بن عبد الله عمويه فهو الذي صحب الشيخ أحمد الدينوري الاسود ولبس بينهما أحد والله أعلم والذي صحب أخا فرج الزنجاني هو عبد الله بن محمد بن عبد الله والد أبي النجيب (رجع) ثم سافرنا من اصفهان بقصد زيارة الشيخ مجد الدين بشيراز وبينهما مسيرة عشرة ايام فوصلنا الى بلدة كليل (وضبطها بفتح الكاف وكسر اللام وياء مد) وبينها وبين اصفهان مسيرة ثلاث وهي بلدة صغيرة ذات أنهار وبساتين وفواكه رأيت التفاح يباع في سوقها خمسة عشر رطلا عراقية بدرهم ودرهمهم ثلث النقرة ونزلنا منها بزاوية عمرها كبير هذه البلدة المعروف بخواجه كافي وله مال عريض قد أعانه الله على انفاقه في سبيل الخيرات من الصدقة وعمارة الزوايا واطعام الطعام لابناء السبيل ثم سرنا من كليل يومين ووصلنا الى قرية كبيرة تعرف بصوماء وبها زاوية فيها الطعام للوارد والصادر عمرها خواجه كافي المذكور ثم سرنا منها الى يزدخاص (وضبط اسمها بفتح الياء آخر الحروف واسكان الزاي وضم الدال المهمل وخاء معجم وألف وصاد مهمل) بلدة صغيرة متقنة العمارة حسنة السوق والمسجد الجامع بها عجيب مبني بالحجارة مسقف بها والبلدة على ضفة خندق فيه بساتينها ومياهها وبخارجها رباط ينزل به المسافرون عليه باب حديد وهو في النهاية من الحصانة والمنعة وبداخله حوانيت يباع فيها

كل

كل مايحتاجه المسافرون وهذا الرباط عمره الامير محمد شاه ينجو والد السلطان أبي اسحاق ملك شيراز وفي يزدخاص يصنع الجبن اليزدخاصي ولانظير له في طيبه ووزن الجبنة منه من أوقيتين الى أربع ثم سرنا منها على طريق دشت الروم وهي صحراء يسكنها الاترك ثم سافرنا الى مايين (واسمها بيائين مسفولتين أولاهما مكسورة) وهي بلدة صغيرة كثيرة الانهار والبساتين حسنة الاسواق وأكثر أشجارها الجوز ثم سافرنا منها الى مدينة شيراز وهي مدينة أصلية البناء فسيحة الارجاء شهيرة الذكر منيفة القدر لها البساتين المؤنقة والانهار المتدفقة والاسواق البديعة والشوارع الرفيعة وهي كثيرة العمارة متقنة المباني عجيبة الترتيب وأهل كل صناعة في سوقها لايخالطهم غيرهم وأهلها حسان الصور نظاف الملابس وليس في المشرق بلدة تداني مدينة دمشق في حسن أسواقها وبساتينها وأنهارها وحسن صور ساكنيها الا شيراز وهي في بسيط من الارض تحف بها البساتين من جميع الجهات وتشقها خمسة انهار احدها النهر المعروف بركن آباد وهو عذب الماء شديد البرودة في الصيف سخن في الشتاء فينبعث من عين في سفح جبل هنالك يسمى القليعة ومسجدها الاعظم يسمى بالمسجد العتيق وهو من أكبر المساجد ساحة وأحسنها بناء وصحنه متسع مفروش بالمرمر ويغسل في أوان الحر كل ليلة ويجتمع فيه كبار أهل المدينة كل عشية ويصلون به المغرب والعشاء وبشماله باب يعرف بباب حسن يفضي الى سوق الفاكهة وهي من أبدع الاسواق وأنا أقول بتفضيلها على سوق باب البريد من دمشق وأهل شيراز أهل صلاح ودين وعفاف وخصوصا نساؤها وهن يلبسن الخفاف ويخرجن متلحفات متبرقعات فلا يظهر منهن شئ ولهن الصدقات والايثار ومن غريب حالهن انهن يجتمعن لسماع الواعظ في كل يوم اثنين وخميس وجمعة بالجامع الاعظم فربما اجتمع منهن الالف والالفان بأيديهن المراوح يروحن بها على أنفسهن من شدة الحر ولم أر اجتماع النساء في مثل عددهن في بلدة من البلاد وعند دخولي الى مدينة شيراز لم يكن لي هم الا قصد الشيخ القاضي الامام قطب الاولياء فريد الدهر ذي الكرامات الظاهرة مجد الدين اسماعيل بن محمد بن خداداد ومعنى خداداد عطية الله فوصلت الى المدرسة المجدية المنسوبة اليه وبها سكناه وهي من عمارته فدخلت اليه رابع أربعة من أصحابي ووجدت الفقهاء وكبار أهل المدينة في انتظاره فخرج الى صلاة العصر ومعه محب الدين وعلاء الدين ابنا أخيه شقيقه روح الدين أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله وهما نائباه في القضاء لضعف بصره وكبر سنه فسلمت عليه وعانقني وأخذ بيدي الى أن وصل الى مصلاه فأرسل يدي وأومأ الي ان أصلي الى جانبه ففعلت وصلى صلاة العصر ثم قرئ بين يديه من كتاب المصابيح وشوارق الانوار للصاغاني وطالعاه نائباه بما جرى لديهما

من القضايا وتقدم كبار المدينة للسلام عليه وكذلك عادتهم معه صباحا ومساء ثم سألني عن حالي وكيفية قدومي وسألني عن المغرب ومصر والشام والحجاز فأخبرته بذلك وأمر خدامه فأنزلوني بدويرة صغيرة بالمدرسة وفي غد ذلك اليوم وصل اليه رسول ملك العراق السلطان أبي سعيد وهو ناصر الدين الدرقندي من كبار الامراء خراساني الاصل فعند وصوله اليه نزع شاشيته عن رأسه وهم يسمونها الكلا وقبل رجل القاضي وقعد بين يديه ممسكا اذن نفسه بيده وهكذا فعل أمراء التتر عند ملوكهم وكان هذا الامير قد قدم في نحو خمسمائة فارس من مماليكه وخدامه وأصحابه ونزل خارج المدينة ودخل الى القاضي في خمسة نفر ودخل مجلسه وحده منفردا تأدبا

(حكاية هي السبب في تعظيم هذا الشيخ وهي من الكرامات الباهرة)

كان ملك العراق السلطان محمد خدابنده قد صحبه في حال كفره فقيه من الروافض الامامية يسمى جمال الدين بن مطهر فلما أسلم السلطان المذكور وأسلمت باسلامه التتر زاد في تعظيم هذا الفقيه فزين له مذهب الروافض وفضله على غيره وشرح له حال الصحابة والخلافة وقرر لديه ان أبابكر وعمر كانا وزيرين لرسول الله وان عليا ابن عمه وصهره فهو وارث الخلافة ومثل له ذلك بما هو مألوف عنده من ان الملك الذي بيده انما هو ارث عن اجداده وأقاربه مع حدثان عهد السلطان بالكفر وعدم معرفته بقواعد الدين فأمر السلطان بحمل الناس على الرفض وكتب بذلك الى العراقين وفارس واذربيجان واصفهان وكرمان وخراسان وبعث الرسل الى البلاد فكان أول بلاد وصل اليها ذلك بغداد وشيراز واصفهان فأما أهل بغداد فامتنع أهل باب الازج منهم وهم أهل السنة وأكثرهم على مذهب الامام أحمد بن حنبل وقالوا لا سمع ولا طاعة وأتوا المسجد الجامع يوم الجمعة في السلاح وبه رسول السلطان فلما صعد الخطيب المنبر قاموا اليه وهم نحو اثنا عشر ألفا في سلاحهم وهم حماة بغداد والمشار اليهم فيها فحلفوا له انه ان غير الخطبة المعتادة أو زاد فيها أو نقص منها فانهم قاتلوه وقاتلو رسول الملك ومستسلمون بعد ذلك لما شاءه الله وكان السلطان أمر بأن تسقط أسماء الخلفاء وسائر الصحابة من الخطبة ولا يذكر الا اسم علي ومن تبعه كعمار رضي الله عنهم فخاف الخطيب من القتل وخطب الخطبة المعتادة وفعل أهل شيراز واصفهان كفعل أهل بغداد فرجعت الرسل الى الملك فأخبروه بما جرى في ذلك فأمر أن يؤتى بقضاة المدن الثلاث فكان أول من أوتي به منهم القاضي مجد الدين قاضي شيراز والسلطان اذ ذاك في موضع يعرف بقراباغ وهو موضع مصيفه فلما وصل القاضي أمر أن يرمى به الى الكلاب التي عنده وهي كلاب ضخام في أعناقها السلاسل معدة لاكل بني آدم فاذا أوتي بمن يسلط عليه الكلاب جعل في رحبة كبيرة مطلقا

غير

غير مقيد ثم بعثت تلك الكلاب عليه فيفر امامها ولا مفر له فتدركه فتمزقه وتأكل لحمه فلما ارسلت الكلاب على القاضي مجد الدين ووصلت اليه بصبصت اليه وحركت اذنابها بين يديه ولم تهجم عليه بشئ فبلغ ذلك السلطان فخرج من داره حافي القدمين فأكب على رجلي القاضي يقبلهما واخذ بيده وخلع عليه جميع ما كان عليه من الثياب وهي أعظم كرامات السلطان عندهم واذا خلع ثيابه كذلك على أحد كانت شرفا له ولبنيه واعقابه يتوارثونه مادامت تلك الثياب اوشئ منها وأعظمها في ذلك السراويل ولما خلع السلطان ثيابه على القاضي مجد الدين أخذ بيده وادخله الى داره وأمر نساءه بتعظيمه والتبرك به ورجع السلطان عن مذهب الرفض وكتب الى بلاده ان يقر الناس على مذهب أهل السنة والجماعة وأجزل العطاء للقاضي وصرفه الى بلاده مكرما معظما وأعطاه في جملة عطاياه مائة قرية من قرى جمكان وهو خندق بين جبلين طوله أربعة وعشرون فرسخا يشقه نهر عظيم والقرى منتظمة بجانبيه وهو أحسن موضع بشيراز ومن قراه العظيمة التي تضاهي المدن قرية ميمن وهي للقاضي المذكور ومن عجائب هذا الموضع المعروف بجمكان ان نصفه مما يلي شيراز وذلك مسافة اثني عشر فرسخا شديد البرد وينزل فيه الثلج وأكثر شجره الجوز والنصف الآخر مما يلي بلاد هنج وبال وبلاد اللار في طريق هرمز شديد الحر وفيه شجر النخيل وقد تكرر لي لقاء القاضي مجد الدين ثانية حين خروجي من الهند قصدته من هرمز متبركا بلقائه وذلك سنة ثمان وأربعين وبين هرمز وشيراز مسيرة خمسة وثلاثين يوما فدخلت عليه وهو قد ضعف عن الحركة فسلمت عليه فعرفني وقام الى فعانقني ووقعت يدي على مرفقه وجلده لاصق بالعظم لا لحم بينهما وأنزلني بالمدرسة حيث أنزلني أول مرة وزرته يوما فوجدت ملك شيراز السلطان أبا اسحاق وسيقع ذكره قاعدا بين يديه ممسكا باذن نفسه وذلك هو غاية الادب عندهم ويفعله الناس اذا قعدوا بين يدي الملك وأتيته مرة أخرى الى المدرسة فوجدت بابها مسدودا فسألت عن سبب ذلك فأخبرت ان أم السلطان واخته نشأت بينهما خصومة في ميراث فصرفهما الى القاضي مجد الدين فوصلتا اليه الى المدرسة وتحاكمتا عنده وفصل بينهما بواجب الشرع وأهل شيراز لا يدعونه بالقاضي وانما يقولون له مولانا أعظم وكذلك يكتبون في التسجيلات والعقود التي تفتقر الى ذكر اسمه فيها وكان آخر عهدي به في شهر ربيع الثاني من عام ثمانية وأربعين ولاحت على أنواره وظهرت لي بركاته نفع الله به وبأمثاله

(ذكر سلطان شيراز)

وسلطان شيراز في عهد قدومي عليها الملك الفاضل أبو اسحاق ابن محمد شاه ينجو سماه أبوه

باسم الشيخ أبي اسحاق الكازروني نفع الله به وهو من خيار السلاطين حسن الصورة والسيرة والهيئة كريم النفس جميل الأخلاق متواضع صاحب قوة وملك كبير وعسكره ينيف على خمسين ألفا من الترك والاعاجم وبطانته الادنون اليه أهل اصفهان وهو لا يأتمن أهل شيراز على نفسه ولا يستخدمهم ولا يقربهم ولا يبيح لاحد منهم حمل السلاح لانهم أهل نجدة وبأس شديد وجراءة على الملوك ومن وجد بيده السلاح منهم عوقب ولقد شاهدت مرة رجلا تجره الجنادرة وهم الشرط الى الحاكم وقد ربطوه في عنقه فسألت عن شأنه فأخبرت انه وجدت في يده قوس بالليل فذهب السلطان المذكور الى قهر أهل شيراز وتفضيل الاصفهانيين عليهم لانه يخافهم على نفسه وكان أبوه محمد شاه ينجو واليا على شيراز من قبل ملك العراق وكان حسن السيرة محببا الى أهلها فلما توفي ولى السلطان أبو سعيد مكانه الشيخ حسينا وهو ابن الجوبان أمير الامراء وسيأتي ذكره وبعث معه العساكر الكثيرة فوصل الى شيراز وملكها وضبط مجابيها وهي من أعظم بلاد الله مجبى ذكر لي الحاج قوام الدين الطمغجي وهو والي المجبى بها انه ضمنها بعشرة آلاف دينار دراهم في كل يوم وصرفها من ذهب المغرب الفان وخمسمائة دينار ذهبا واقام بها الامير حسين مدة ثم أراد القدوم على ملك العراق فقبض على أبي اسحاق بن محمد شاه ينجو وعلى أخويه ركن الدين ومسعود بك وعلى والدته طاش خاتون وأراد حملهم الى العراق ليطلبوا بأموال أبيهم فلما توسطوا السوق بشيراز كشفت طاش خاتون وجهها وكانت متبرقعة حياء ان ترى في تلك الحال فان عادة نساء الاتراك الا يغطين وجوههن واستغاثت بأهل شيراز وقالت أهكذا يا أهل شيراز أخرج من بينكم وأنا فلانة زوجة فلان فقام رجل من النجارين يسمى بهلوان محمود قد رأيته بالسوق حين قدومي على شيراز فقال لا نتركها تخرج من بلدنا ولا نرضى بذلك فتابعه الناس على قوله وثارت عامتهم ودخلوا في السلاح وقتلوا كثيرا من العسكر واخذوا الاموال وخلصوا المرأة واولادها وفر الامير حسين ومن معه وقدم على السلطان أبي سعيد مهزوما فاعطاه العساكر الكثيفة وأمره بالعود الى شيراز والتحكم في أهلها بما شاء فلما بلغ أهلها ذلك علموا انهم لا طاقة لهم به فقصدوا القاضي مجد الدين وطلبوا منه ان يحقن دماء الفريقين ويوقع الصلح فخرج الى الامير حسين فترجل له الامير عن فرسه وسلم عليه ووقع الصلح ونزل الامير حسين ذلك اليوم خارج المدينة فلما كان من الغد برز أهلها للقائه في أجمل ترتيب وزينوا البلد وأوقدوا الشمع الكثير ودخل الامير حسين في ابهة وحفل عظيم وسار فيهم باحسن سيرة فلما مات السلطان أبو سعيد وانقرض عقبه وتغلب كل أمير على ما بيده خافهم الأمير حسين على نفسه وخرج عنهم وتغلب السلطان أبو اسحاق عليها وعلى اصفهان وبلاد فارس وذلك مسيرة شهر

ونصف

ونصف شهر واشتدت شوكته وطمحت همته الى تملك ما يليه من البلاد فبدأ بالاقرب منها وهي مدينة يزد مدينة حسنة نظيفة عجيبة الاسواق ذات أنهار مطردة وأشجار نضيرة وأهلها تجار شافعية المذهب فحاصرها وتغلب عليها وتحصن الامير مظفر شاه ابن الامير محمد شاه ابن مظفر بقلعة على ستة أميال منها منيعة تحدق بها الرمال فحاصره بها فظهر من الامير مظفر من الشجاعة ما خرق المعتاد ولم يسمع بمثله فكان يضرب على عسكر السلطان أبي اسحاق ليلا ويقتل ما شاء ويخرق المضارب والفساطيط ويعود الى قلعته فلا يقدر على النيل منه وضرب ليلة على دوار السلطان وقتل هنالك جماعة وأخذ من عتاق خيله عشرة وعاد الى قلعته فأمر السلطان ان تركب في كل ليلة خمسة آلاف فارس ويصنعون له الكمائن ففعلوا ذلك وخرج على عادته في مائة من أصحابه فضرب على العسكر واحاطت به الكمائن وتلاحقت العساكر فقاتلهم وخلص الى قلعته ولم يصب من أصحابه الا واحد واتي به الى السلطان أبي اسحاق فخلع عليه واطلقه وبعث معه امانا لمظفر لينزل اليه فابى ذلك ثم وقعت بينهما المراسلة ووقعت له محبة في قلب السلطان أبي اسحاق لما رآى من شجاعته فقال أريد أن أراه فاذا رأيته انصرفت عنه فوقف السلطان في خارج القلعة ووقف هو ببابها وسلم عليه فقال له السلطان انزل على الامان فقال له مظفر اني عاهدت الله ألا أنزل اليك حتى تدخل أنت قلعتي وحينئذ أنزل اليك فقال له افعل ذلك فدخل اليه السلطان في عشرة من أصحابه الخواص فلما وصل باب القلعة ترجل مظفر وقبل ركابه ومشى بين يديه مترجلا فأدخله داره وأكل من طعامه ونزل معه الى المحلة راكبا فأجلسه السلطان الى جانبه وخلع عليه ثيابه وأعطاه مالا عظيما ووقع الاتفاق بينهما أن تكون الخطبة باسم السلطان أبي اسحاق وتكون البلاد لمظفر وأبيه وعاد السلطان الى بلاده وكان السلطان أبو اسحاق طمح ذات مرة الى بناء ايوان كايوان كسرى وأمر أهل شيراز ان يتولوا حفر أساسه فأخذوا في ذلك وكان أهل كل صناعة يباهون كل من عداهم فانتهوا في المباهاة الى ان صنعوا القفاف لنقل التراب من الجلد وكسوها ثياب الحرير المزركش وفعلوا نحو ذلك في برادع الدواب وأخراجها وصنع بعضهم الفؤس من الفضة وأوقدوا الشمع الكثير وكانوا حين الحفر يلبسون أجمل ثيابهم ويربطون فوط الحرير على أوساطهم والسلطان يشاهد أفعالهم في منظرة له وقد شاهدت هذا المبنى وقد ارتفع عن الارض نحو ثلاثة أذرع ولما بنى أساسه رفع عن أهل المدينة التخديم فيه وصارت الفعلة تخدم فيه بالاجرة ويحشر لذلك آلاف منهم وسمعت والي المدينة يقول ان معظم مجباها ينفق في ذلك البناء وقد كان الموكل به الامير جلال الدين بن الفلكي التوريزي وهو من الكبار كان أبوه نائبا عن وزير السلطان أبي سعيد المسمى علي شاه جيلان ولهذا

الامير جلال الدين الفلكى أخ فاضل اسمه هبة الله ويلقب بهاء الملك وفد على ملك الهند حين وفودى عليه ووفد معنا شرف الملك أمير بخت فخلع ملك الهند علينا جميعا وقدم كل واحد فى شغل يليق به وعين لنا المرتب والاحسان وسنذكر ذلك وهذا السلطان أبو اسحاق يريد التشبه بملك الهند المذكور فى الايثار واجزال العطايا ولكن أين الثريا من الثرا وأعظم ما تعرفناه من عطيات أبى اسحاق انه أعطى الشيخ زاده الخراسانى الذى أتاه رسولا عن ملك هراة سبعين ألف دينار وأما ملك الهند فلم يزل يعطى اضعاف ذلك لمن لا يحصى كثرة من أهل خراسان وغيرهم

(حكاية)

ومن عجيب فعل ملك الهند مع الخراسانيين انه قدم عليه رجل من فقهاء خراسان هروى الدار من سكان خوارزم يسمى بالامير عبد الله بعثته الخاتون ترابك زوج الامير قطلودمور صاحب خوارزم بهدية الى ملك الهند المذكور فقبلها وكافى عنها باضعافها وبعث ذلك اليها واختار رسولها المذكور الاقامة عنده فصيره فى ندمائه فلما كان ذات يوم قال له ادخل الى الخزانة فارفع منها قدر ما تستطيع أن تحمله من الذهب فذهب الى داره فأتى بثلاث عشرة خريطة وجعل فى كل خريطة قدر ما وسعته وربط كل خريطة بعضو من أعضائه وكان صاحب قوة وقام بها فلما خرج عن الخزانة وقع ولم يستطع النهوض فأمر السلطان بوزن ما خرج به فكان جملته ثلاثة عشر منا بمن دهلى والمن الواحد منها خمسة وعشرون رطلا مصرية فأمره أن يأخذ جميع ذلك فأخذه وذهب به

(حكاية تناسبها)

اشتكى مرة أمير بخت الملقب بشرف الملك الخراسانى وهو الذى تقدم ذكره آنفا بحضرة ملك الهند فأتاه الملك عائدا ولما دخل عليه أراد القيام فحلف له الملك أن لا ينزل عن كته والكت هو السرير ووضع للسلطان متكأ يسمونه المورة فقعد عليها ثم دعا بالذهب والميزان فجئ بذلك وأمر المريض ان يقعد فى احدى كفتى الميزان فقال يا خوند عالم لو علمت انك تفعل هذا لبست على ثيابا كثيرة فقال له البس الآن جميع ما عندك من الثياب فلبس ثيابه المعدة للبرد المحشوة بالقطن وقعد فى كفة الميزان ووضع الذهب فى الكفة الاخرى حتى رجح الذهب وقال له خذ هذا فتصدق به على رأسك وخرج عنه

(حكاية تناسبهما)

وفد عليه الفقيه عبد العزيز الاردويلى وكان قد قرأ علم الحديث بدمشق وتفقه فيه فجعل مرتبه مائة دينار دراهم فى اليوم وصرف ذلك خمسة وعشرون دينارا ذهبا وحضر مجلسه

يوما

يوما فسأله السلطان عن حديث فسرد له أحاديث كثيرة فى ذلك المعنى فأعجبه حفظه وحلف له برأسه انه لايزول من مجلسه حتى يفعل معه مايراه ثم نزل الملك عن مجلسه فقبل قدميه وأمر باحضار صينية ذهب وهى مثل الطيفور الصغير وأمر أن يلقى فيها ألف دينار من الذهب وأخذها السلطان بيده فصبها عليه وقال هى لك مع الصينية ووفد عليه مرة رجل خراسانى يعرف بابن الشيخ عبد الرحمن الاسفراينى وكان أبوه نزل بغداد فأعطاه خمسين ألف دينار دراهم وخيلا وعبيدا وخلعا وسنذكر كثيرا من أخبار هذا الملك عند ذكر بلاد الهند وانما ذكرناه هذا لما قدمناه من ان السلطان أبا اسحاق يريد التشبه به فى العطايا وهو وان كان كريما فاضلا فلا يلحق بطبقة ملك الهند فى الكرم والسخاء

(ذكر بعض المشاهد بشيراز)

فمنها مشهد احمد بن موسى اخى الرضا على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب رضى الله عنهم وهو مشهد معظم عند أهل شيراز يتبركون به ويتوسلون الى الله بفضله وبنت عليه طاش خاتون أم السلطان ابى اسحاق مدرسة كبيرة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر والقراء يقرؤن القرآن على التربة دائما ومن عادة الخاتون انها تأتى الى هذا المشهد فى كل ليلة اثنين ويجتمع فى تلك الليلة القضاة والفقهاء والشرفاء وشيراز من أكثر بلاد الله شرفاء سمعت من الثقاة ان الذين لهم بها المرتبات من الشرفاء ألف وأربعمائة ونيف بين صغير وكبير ونقيبهم عضد الدين الحسينى فاذا حضر القوم بالمشهد المبارك المذكور ختموا القرآن قراءة فى المصاحف وقرأ القراء بالاصوات الحسنة وأوتى بالطعام والفواكه والحلواء فاذا أكل القوم وعظ الواعظ ويكون ذلك كله من بعد صلاة الظهر الى العشى والخاتون فى غرفة مطلة على المسجد لها شباك ثم تضرب الطبول والانفار والبوقات على باب التربة كما يفعل عند ابواب الملوك ومن المشاهد بها مشهد الامام القطب الولى أبى عبد الله بن خفيف المعروف عندهم بالشيخ وهو قدوة بلاد فارس كلها ومشهده معظم عندهم يأتون اليه بكرة وعشيا فيتمسحون به وقد رأيت القاضى مجد الدين أتاه زائرا واستلمه وتأتى الخاتون الى هذا المسجد فى كل ليلة جمعة وعليه زاوية ومدرسة ويجتمع به القضاة والفقهاء ويفعلون به كفعلهم فى مشهد احمد بن موسى وقد حضرت الموضعين جميعا وتربة الامير محمد شاه ينجو والد السلطان ابى اسحاق متصلة بهذه التربة والشيخ أبو عبد الله بن خفيف كبير القدر فى الاولياء شهير الذكر وهو الذى أظهر طريق جبل سرنديب بجزيرة سيلان من أرض الهند

(كرامة لهذا الشيخ)

يحكى انه قصد مرة جبل سرنديب ومعه نحو ثلاثين من الفقراء فأصابتهم مجاعة فى طريق

الجبل حيث لا عمارة وتاهوا عن الطريق وطلبوا من الشيخ أن يأذن لهم فى القبض على بعض الفيلة الصغار وهى فى ذلك المحل كثيرة جدا ومنه تحمل الى حضرة ملك الهند فنهاهم الشيخ عن ذلك فغلب عليهم الجوع فتعدّوا قول الشيخ وقبضوا على فيل صغير منها وذكوه وأكلوا لحمه وامتنع الشيخ من أكله فلما ناموا تلك الليلة اجتمعت الفيلة من كل ناحية وأتت اليهم فكانت تشم الرجل منهم وتقتله حتى اتت على جميعهم وشمت الشيخ ولم تتعرض له واخذه فيل منها ولف عليه خرطومه ورمى به على ظهره واتى به الموضع الذى فيه العمارة فلما رآه اهل تلك الناحية عجبوا منه واستقبلوه ليتعرفوا أمره فلما قرب منهم امسكه الفيل بخرطومه ووضعه عن ظهره الى الارض بحيث يرونه فجاؤا اليه وتمسحوا به وذهبوا به الى ملكهم فعرفوه خبره وهم كفار واقام عندهم اياما وذلك الموضع على خور يسمى خور الخيزران والخور هو النهر وبذلك الموضع مغاص الجوهر ويذكر ان الشيخ غاص فى بعض تلك الايام بمحضر ملكهم وخرج وقد ضم يديه معا وقال للملك اختر ما فى احداهما فاختار ما فى اليمنى فرمى اليه بما فيها وكانت ثلاثة احجار من الياقوت لا مثل لها وهى عند ملوكهم فى التاج يتوارثونها وقد دخلت جزيرة سيلان هذه وهم مقيمون على الكفر الا انهم يعظمون فقراء المسلمين ويأوونهم الى دورهم ويطعمونهم الطعام ويكونون فى بيوتهم بين اهليهم واولادهم خلافا لسائر كفار الهند فانهم لا يقربون المسلمين ولا يطعمونهم فى آنيتهم ولا يسقونهم فيها مع انهم لا يؤذونهم ولا يهجونهم ولقد كنا نضطر الى ان يطبخ لنا بعضهم اللحم فيأتون به فى قدورهم ويقعدون على بعد منا ويأتون بأوراق الموز فيجعلون عليها الارز وهو طعامهم ويصبون عليه الكوشان وهو الادام ويذهبون فنأكل منه وما فضل علينا تأكله الكلاب والطير وان اكل منه الولد الصغير الذى لا يعقل ضربوه واطعموه روث البقر وهو الذى يطهر ذلك فى زعمهم ومن المشاهد بها مشهد الشيخ الصالح القطب روزجهان البقلى من كبار الاولياء وقبره فى مسجد جامع يخطب فيه وبذلك المسجد يصلى القاضى مجد الدين الذى تقدم ذكره رضى الله عنه وبهذا المسجد سمعت عليه كتاب مسند الامام ابى عبد الله محمد بن ادريس الشافعى قال اخبرتنا به وزيرة بنت عمر بن المنجا قالت اخبرنا ابو عبد الله الحسين بن ابى بكر بن المبارك الزبيدى قال اخبرنا ابو زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسى قال اخبرنا ابو الحسن المكى ابن محمد بن منصور بن علان العرضى قال اخبرنا القاضى ابو بكر احمد بن الحسن الحرشى عن ابى العباس بن يعقوب الاصم عن الربيع بن سليمان المرادى عن الامام ابى عبد الله الشافعى وسمعت ايضا عن القاضى مجد الدين بهذا المسجد المذكور كتاب مشارق الانوار للامام رضى الدين ابى الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن الصاغانى بحق سماعه له من الشيخ

جلال

جلال الدين أبي هاشم محمد بن محمد بن أحمد الهاشمي الكوفي بروايته عن الامام نظام الدين محمود بن محمد بن عمر الهروي عن المصنف ومن المشاهد بها مشهد الشيخ الصالح زركوب وعليه زاوية لاطعام الطعام وهذه المشاهد كلها بداخل المدينة وكذلك معظم قبور أهلها فان الرجل منهم يموت ولده أو زوجه فيتخذ له تربة من بعض بيوت داره ويدفنه هنالك ويفرش البيت بالحصر والبسط ويجعل الشمع الكثير عند رأس الميت ورجليه ويصنع للبيت بابا الى ناحية الزقاق وشباك حديد فيدخل منه القراء يقرؤن بالاصوات الحسان وليس في معمور الارض أحسن أصواتا بالقرآن من أهل شيراز ويقوم أهل الدار بالتربة ويفرشونها ويوقدون السرج بها فكأن الميت لم يبرح وذكر لي انهم يطبخون في كل يوم نصيب الميت من الطعام ويتصدقون به عنه

(حكاية)

مررت يوما ببعض أسواق مدينة شيراز فرأيت بها مسجدا متقن البناء جميل الفرش وفيه مصاحف موضوعة في خرائط حرير موضوعة فوق كرسي وفي الجهة الشمالية من المسجد زاوية فيها شباك مفتح الى جهة السوق وهنالك شيخ جميل الهيئة واللباس وبين يديه مصحف يقرأ فيه فسلمت عليه وجلست اليه فسألني عن مقدمي فأخبرته وسألته عن شأن هذا المسجد فأخبرني انه هو الذي عمره ووقف عليه أوقافا كثيرة للقراء وسواهم وان تلك الزاوية التي جلست اليه فيها هي موضع قبره ان قضى الله موته بتلك المدينة ثم رفع بساطا كان تحته والقبر مغطى عليه ألواح خشب وأراني صندوقا كان بازائه فقال في هذا الصندوق كفني وحنوطي ودراهم كنت استأجرت بها نفسي في حفر بئر لرجل صالح فدفع لي هذه الدراهم فتركتها لتكون نفقة مواراتي وما فضل منها يتصدق بها فعجبت من شأنه وأردت الانصراف فحلف علي وأضافني بذلك الموضع ومن المشاهد بخارج شيراز قبر الشيخ الصالح المعروف بالسعدي وكان أشعر أهل زمانه باللسان الفارسي وربما ألمع في كلامه بالعربي وله زاوية كان قد عمرها بذلك الموضع حسنة بداخلها بستان مليح وهي بقرب رأس النهر الكبير المعروف بركن آباد وقد صنع الشيخ هنالك احواضا صغارا من المرمر لغسل الثياب فيخرج الناس من المدينة لزيارته ويأكلون من سماطه ويغسلون ثيابهم بذلك النهر وينصرفون وكذلك فعلت عنده رحمه الله وبقربة من هذه الزاوية زاوية أخرى تتصل بها مدرسة مبنيتان على قبر شمس الدين السمناني وكان من الامراء الفقهاء ودفن هنالك بوصية منه بذلك وبمدينة شيراز من كبار الفقهاء الشريف مجيد الدين وأمره في الكرم عجيب وربما جاد بكل ما عنده وبالثياب التي كانت عليه ويلبس مرقعة له فيدخل عليه كبراء المدينة فيجدونه على تلك الحال فيكسونه ومرتبه في كل يوم من السلطان خمسون دينارا دراهم ثم كان خروجي

من شيراز برسم زيارة قبر الشيخ الصالح أبى اسحاق الكازرونى بكازرون وهى على مسيرة يومين من شيراز فنزلنا اول يوم ببلاد الشول وهم طائفة من الاعاجم يسكنون البرية وفيهم الصالحون

(كرامة لبعضهم)

كنت يوما ببعض المساجد بشيراز وقد قعدت أتلو كتاب الله عز وجل اثر صلاة الظهر فخطر بخاطرى انه لو كان لى مصحف كريم لتلوت فيه فدخل على فى اثناء ذلك شاب وقال لى بكلام قوى خذ فرفعت رأسى اليه فألقى فى حجرى مصحفا كريما وذهب عنى فختمته ذلك اليوم قراءة وانتظرته لأ ردّه له فلم يعد الى فسألت عنه فقيل لى ذلك بهلول الشولى ولم أره بعد ووصلنا فى عشى اليوم الثانى الى كازرون فقصدنا زاوية الشيخ أبى اسحاق نفع الله به وبتنا بها تلك الليلة ومن عادتهم أن يطعموا الوارد كائنا من كان الهريسة المصنوعة من اللحم والقمح والسمن وتؤكل بالرقاق ولا يتركون الوارد عليهم للسفر حتى يقيم فى الضيافة ثلاثة أيام ويعرض على الشيخ الذى بالزاوية حوائجه ويذكرها الشيخ للفقراء الملازمين للزاوية وهم يزيدون على مائة منهم المتزوّجون ومنهم الاعزاب المتجردون فيختمون القرآن ويذكرون الذكر ويدعون له عند ضريح الشيخ أبى اسحاق فتقضى حاجته باذن الله وهذا الشيخ أبو اسحاق معظم عند أهل الهند والصين ومن عادة ركاب بحر الصين انهم اذا تغير عليهم الهواء وخافوا اللصوص نذروا لابى اسحاق نذورا وكتب كل منهم على نفسه ما نذره فاذا وصلوا بر السلامة صعد خدّام الزاوية الى المركب وأخذوا الزمام وقبضوا من كل ناذر نذره وما من مركب يأتى من الصين أو الهند الا وفيه آلاف من الدنانير فيأتى الوكلاء من جهة خادم الزاوية فيقبضون ذلك ومن الفقراء من يأتى طالبا صدقة الشيخ فيكتب له أمر بها وفيه علامة الشيخ منقوشة فى قالب من الفضة فيضعون القالب فى صبغ أحمر ويلصقونه بالامر فيبقى أثر الطابع فيه ويكون مضمنه انه من عنده نذر للشيخ أبى اسحاق فليعط منه لفلان كذا فيكون الامر بالالف والمائة وما بين ذلك ودونه على قدر الفقير فاذا وجد من عنده شئ من النذر قبض منه وكتب له رسما فى ظهر الامر بما قبضه ولقد نذر ملك الهند مرة للشيخ أبى اسحاق بعشرة آلاف دينار فبلغ خبرها الى فقراء الزاوية فأتى أحدهم الى الهند وقبضها وانصرف بها الى الزاوية ثم سافرنا من كازرون الى مدينة الزيدين وسميت بذلك لان فيها قبر زيد بن ثابت وقبر زيد بن أرقم الانصاريين صاحبى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ورضى الله عنهما وهى مدينة حسنة كثيرة البساتين والمياه مليحة الاسواق عجيبة المساجد ولاهلها صلاح وأمانة وديانة ومن أهلها القاضى نور الدين الزيدانى وكان ورد على أهل الهند فولى القضاء منها بذيبة المهل وهى جزائر كثيرة ملكها جلال الدين بن صلاح الدين صالح وتزوج بأخت هذا الملك وسيأتى ذكره

وذكر

وذكر بنته خديجة التى تولت الملك بعده بهذه الجزائر وبها توفى القاضى نور الدين المذكور ثم سافرنا منها الى الحويزاء بالزاى وهى مدينة صغيرة يسكنها العجم بينها وبين البصرة مسيرة أربع وبينها وبين الكوفة مسيرة خمس ومن أهلها الشيخ الصالح العابد جمال الدين الحويزائى شيخ خانقاة سعيد السعداء بالقاهرة ثم سافرنا منها قاصدين الكوفة فى برية لا ماء بها الا فى موضع واحد يسمى الطرفاوى وردناه فى اليوم الثالث من سفرنا ثم وصلنا بعد اليوم الثانى من ورودنا عليه الى مدينة الكوفة

(مدينة الكوفة)

وهى احدى أمهات البلاد العراقية المتميزة فيها بفضل المزية مثوى الصحابة والتابعين ومنزل العلماء والصالحين وحضرة على بن أبى طالب أمير المؤمنين الا ان الخراب قد استولى عليها بسبب أيدى العدوان التى امتدت اليها وفسادها من عرب خفاجة المجاورين لها فانهم يقطعون طريقها ولا سور عليها وبناؤها بالاجر وأسواقها حسان وأكثر ما يباع فيها التمر والسمك وجامعها الاعظم جامع كبير شريف بلاطاته سبعة قائمة على سوارى حجارة ضخمة منحوتة قد صنعت قطعا ووضع بعضها على بعض وأفرغت بالرصاص وهى مفرطة الطول وبهذا المسجد آثار كريمة فنها بيت ازاء المحراب عن يمين مستقبل القبلة يقال ان الخليل صلوات الله عليه كان له مصلى بذلك الموضع وعلى مقربة منه محراب محلق عليه باعواد الساج مرتفع وهو محراب على بن أبى طالب رضى الله عنه وهنالك ضربه الشقى ابن ملجم والناس يقصدون الصلاة به وفى الزاوية من آخر هذا البلاط مسجد صغير محلق عليه أيضا باعواد الساج يذكر انه الموضع الذى فار منه التنور حين طوفان نوح عليه السلام وفى ظهره خارج المسجد بيت يزعمون انه بيت نوح عليه السلام وازاءه بيت يزعمون انه متعبد ادريس عليه السلام ويتصل بذلك فضاء متصل بالجدار القبلى من المسجد يقال انه موضع انشاء سفينة نوح عليه السلام وفى آخر هذا الفضاء دار على بن أبى طالب رضى الله عنه والبيت الذى غسل فيه ويتصل به بيت يقال أيضا انه بيت نوح عليه السلام والله أعلم بصحة ذلك كله وفى الجهة الشرقية من الجامع بيت مرتفع يصعد اليه فيه قبر مسلم بن عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه وبمقربة منه خارج المسجد قبر عاتكة وسكينة بنتى الحسين عليه السلام وأما قصر الامارة بالكوفة الذى بناه سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه فلم يبق منه الا أساسه والفرات من الكوفة على مسافة نصف فرسخ فى الجانب الشرقى منها وهو منتظم بحدائق النخل الملتفة المتصل بعضها ببعض ورأيت بغربى جبانة الكوفة موضعا مسودا شديد السواد فى بسيط أبيض فأخبرت انه قبر الشقى ابن ملجم وان أهل الكوفة يأتون فى كل سنة بالحطب

الكثير فيوقدون النار على موضع قبره سبعة أيام وعلى قرب منه قبة أخبرت انها على قبر المختار بن أبي عبيد ثم رحلنا ونزلنا بئر ملاحة وهي بلدة حسنة بين حدائق نخل ونزلت بخارجها وكرهت دخولها لان أهلها روافض ورحلنا منها الصبح فنزلنا مدينة الحلة وهي مدينة كبيرة مستطيلة مع الفرات وهو بشرقيها ولها أسواق حسنة جامعة للمرافق والصناعات وهي كثيرة العمارة وحدائق النخل منتظمة بها داخلا وخارجا ودورها بين الحدائق ولها جسر عظيم معقود على مراكب متصلة منتظمة فيما بين الشطين تحف بها من جانبيها سلاسل من حديد مربوطة في كلا الشطين الى خشبة عظيمة مثبتة بالساحل وأهل هذه المدينة كلها امامية اثنا عشرية وهم طائفتان احداهما تعرف بالاكراد والأخرى تعرف بأهل الجامعين والفتنة بينهم متصلة والقتال قائم أبدا وبقربة من السوق الاعظم بهذه المدينة مسجد على بابه ستر حرير مسدول وهم يسمونه مشهد صاحب الزمان ومن عادتهم انه يخرج في كل ليلة مائة رجل من أهل المدينة عليهم السلاح وبأيديهم السيوف مشهورة فيأتون أمير المدينة بعد صلاة العصر فيأخذون منه فرسا مسرجا ملجما أو بغلة كذلك ويضربون الطبول والانفار والبوقات امام تلك الدابة ويتقدمها خمسون منهم ويتبعها مثلهم ويمشي آخرون عن يمينها وشمالها ويأتون مشهد صاحب الزمان فيقفون بالباب ويقولون باسم الله يا صاحب الزمان باسم الله اخرج قد ظهر الفساد وكثر الظلم وهذا أوان خروجك فيفرق الله بك بين الحق والباطل ولا يزالون كذلك وهم يضربون الابواق والاطبال والانفار الى صلاة المغرب وهم يقولون ان محمد بن الحسن العسكري دخل ذلك المسجد وغاب فيه وانه سيخرج وهو الامام المنتظر عندهم وقد كان غلب على مدينة الحلة بعد موت السلطان أبي سعيد الامير أحمد بن رميثة بن أبي نمي أمير مكة وحكمها أعواما وكان حسن السيرة يحمده أهل العراق الى أن غلب عليه الشيخ حسن سلطان العراق فعذبه وقتله وأخذ الاموال والذخائر التي كانت عنده ثم سافرنا منها الى مدينة كربلاء مشهد الحسين بن علي عليهما السلام وهي مدينة صغيرة تحفها حدائق النخل ويسقيها ماء الفرات والروضة المقدسة داخلها وعليها مدرسة عظيمة وزاوية كريمة فيها الطعام للوارد والصادر وعلى باب الروضة الحجاب والقومة لا يدخل أحد الا عن اذنهم فيقبل العتبة الشريفة وهي من الفضة وعلى الضريح المقدس قناديل الذهب والفضة وعلى الابواب أستار الحرير واهل هذه المدينة طائفتان اولاد رخيك واولاد فائز وبينهما القتال ابدا وهم جميعا امامية يرجعون الى أب واحد ولاجل فتنتهم تخربت هذه المدينة ثم سافرنا منها الى بغداد

(مدينة بغداد)

مدينة دار السلام وحضرة الاسلام ذات القدر الشريف والفضل المنيف مثوى الخلفاء ومقر العلماء قال أبو الحسين بن جبير رضى الله عنه وهذه المدينة العتيقة وان لم تزل حضرة الخلافة العباسية ومثابة الدعوة الامامية القرشية فقد ذهب رسمها ولم يبق الا اسمها وهى بالاضافة الى ما كانت عليه قبل انحاء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب اليها كالطلل الدارس أو تمثال الخيال الشاخص فلا حسن فيها يستوقف البصر ويستدعى من المستوفز الغفلة والنظر الا دجلتها التى هى بين شرقيها وغربيها كالمرآة المجلوة بين صفحتين أو العقد المنتظم بين لبتين فهى تردها ولا تظمأ وتتطلع منها فى مرآة صقيلة لا تصدأ والحسن الحريمى بين هوائها ومائها ينشأ قال ابن جزى وكأن أبا تمام حبيب بن أوس اطلع على ما آل اليه أمرها حين قال فيها (بسيط)

لقد أقام على بغداد ناعيها * فليبكها لخراب الدهر باكيها
كانت على مائها والحرب موقدة * والنار تطفأ حسنا فى نواحيها
ترجى لها عودة فى الدهر صالحة * فالآن أضمر منها اليأس راجيها
مثل العجوز التى ولت شبيبتها * وبان عنها جمال كان يحظيها

وقد نظم الناس فى مدحها وذكر محاسنها فأطنبوا ووجدوا مكان القول ذا سعة فأطالوا وأطابوا وفيها قال الامام القاضى أبو محمد عبد الوهاب بن على بن نصر المالكى البغدادى وأنشدنيه والدى رحمه الله مرات (بسيط)

طيب الهواء ببغداد يشوقنى * قربا اليها وان عاقت مقادير
وكيف أرحل عنها اليوم اذ جمعت * طيب الهوائين ممدود ومقصور

وفيها يقول أيضا رحمه الله تعالى ورضى عنه (طويل)

سلام على بغداد فى كل موطن * وحق لها منى السلام المضاعف
فوالله ما فارقتها عن قلى لها * وانى بشطى جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت على برحبها * ولم تكن الاقدار فيها تساعف
وكانت كخل كنت أهوى دنوه * وأخلاقه تنأى به وتخالف

وفيها يقول أيضا مغاضبا لها وأنشدنيه والدى رحمه الله غير ما مرة (بسيط)

بغداد دار لاهل المال واسعة * وللصعاليك دار الضنك والضيق
ظللت أمشى مضاعا فى أزقتها * كأننى مصحف فى بيت زنديق

وفيها يقول القاضى أبو الحسن على بن النبيه من قصيدة (خفيف)

آنست بالعراق بدرا منيرا * فطوت غيهبا وخاضت هجيرا
واستطابت ريا نسائم بغدا * د فكادت لولا البرى ان تطيرا
ذكرت من مسارح الكرخ روضا * لم يزل ناضرا وماء نميرا
واجتنت من ربا المحول نورا * واجتلت من مطالع التاج نورا

ولبعض نساء بغداد فى ذكرها (كامل)

آها على بغدادها وعراقها * وظبائها والسحر فى احداقها
ومجالها عند الفرات بأوجه * تبدو أهلتها على أطواقها
متبخترات فى النعيم كأنما * خلق الهوى العذرى من اخلاقها
نفسى الفداء لها فأى محاسن * فى الدهر تشرق من سنا اشراقها

(رجع) ولبغداد جسران اثنان معقودان على نحو الصفة التى ذكرناها فى جسر مدينة الحلة والناس يعبرونهما ليلا ونهارا رجالا ونساء فهم فى ذلك فى نزهة متصلة وببغداد من المساجد التى يخطب فيها وتقام فيها الجمعة أحد عشر مسجدا منها بالجانب الغربى ثمانية وبالجانب الشرقى ثلاثة والمساجد سواها كثيرة جدا وكذلك المدارس الا انها خربت وحمامات بغداد كثيرة وهى من أبدع الحمامات وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به فيخيل لرائيه انه رخام أسود وهذا القار يجلب من عين بين الكوفة والبصرة تنبع أبدا به ويصير فى جوانبها كالصلصال فيجرف منها ويجلب الى بغداد وفى كل حمام منها خلوات كثيرة كل خلوة منها مفروشة بالقار مطلى نصف حائطها مما يلى الارض به والنصف الاعلى مطلى بالجص الابيض الناصع فالضدان بها مجتمعان متقابل حسنهما وفى داخل كل خلوة حوض من الرخام فيه انبوبان أحدهما يجرى بالماء الحار والآخر بالماء البارد فيدخل الانسان الخلوة منها منفردا لا يشاركه أحد الا ان أراد ذلك وفى زاوية كل خلوة أيضا حوض آخر للاغتسال فيه ايضا انبوبان يجريان بالحار والبارد وكل داخل يعطى ثلاثا من الفوط احداها يتزر بها عند دخوله والاخرى يتزر بها عند خروجه والاخرى ينشف بها الماء عن جسده ولم أر هذا الاتقان كله فى مدينة سوى بغداد وبعض البلاد تقاربها فى ذلك

(ذكر الجانب الغربى من بغداد)

الجانب الغربى منها هو الذى عمر أولا وهو الآن خراب أكثره وعلى ذلك فقد بقى منه ثلاث عشرة محلة كل محلة كأنها مدينة بها الحمامان والثلاثة وفى ثمان منها المساجد الجامعة ومن هذه المحلات محلة باب البصرة وبها جامع الخليفة أبى جعفر المنصور رحمه الله والمارستان فيما بين محلة باب البصرة ومحلة الشارع على الدجلة وهو قصر كبير خرب بقيت منه الآثار

وفى هـذا الجانب الغربى من المشاهد قبر معروف الكرخى رضى الله عنه وهو فى محلة باب البصرة وبطريق باب البصرة مشهد حافل البناء فى داخله قبر متسع السنام عليه مكتوب هذا قبر عون من أولاد على بن أبى طالب وفى هذا الجانب قبر موسى الكاظم بن جعفر الصادق والد على بن موسى الرضا والى جانبه قبر الجواد والقبران داخل الروضة عليهما دكانة ملبسة بالخشب عليه ألواح الفضة

(ذكر الجانب الشرقى منها)*

وهذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الاسواق عظيمة الترتيب وأعظم أسواقها سوق يعرف بسوق الثلاثاء كل صناعة فيها على حدة وفى وسط هذا السوق المدرسة النظامية العجيبة التى صارت الامثال تضرب بحسنها وفى آخره المدرسة المستنصرية ونسبتها الى أمير المؤمنين المستنصر بالله أبى جعفر بن أمير المؤمنين الظاهر بن أمير المؤمنين الناصر وبها المذاهب الاربعة لكل مذهب ايوان فيه المسجد وموضع التدريس وجلوس المدرس فى قبة خشب صغيرة على كرسى عليه البسط ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار لابسا ثياب السواد معتما وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الاربعه وفى داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة ودار الوضوء وبهذه الجهة الشرقية من المساجد التى تقام فيها الجمعة ثلاثة أحدها جامع الخليفة وهو المتصل بقصور الخلفاء ودورهم وهو جامع كبير فيه سقايات ومطاهر كثيرة للوضوء والغسل لقيت بهذا المسجد الشيخ الامام العالم الصالح مسند العراق سراج الدين أبا حفص عمر بن على بن عمر القزوينى وسمعت عليه فيه جميع مسند أبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمى وذلك فى شهر رجب الفرد عام سبعه وعشرين وسبعمائة قال أخبرتنا به الشيخة الصالحة المسندة بنت الملوك فاطمة بنت العدل تاج الدين أبى الحسن على بن على بن أبى البدر قالت أخبرنا الشيخ أبو بكر محمد بن مسعود بن بهروز الطيب المارستانى قال أخبرنا أبو الوقت عبد الاول بن شعيب السجزى الصوفى قال أخبرنا الامام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر الداودى قال اخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حموية السرخسى عن ابن عمران عيسى بن عمر بن العباس السمرقندى عن أبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمى والجامع الثانى جامع السلطان وهو خارج البلد وتتصل به قصور تنسب للسلطان والجامع الثالث جامع الرصافة وبينه وبين جامع السلطان نحو الميل

(ذكر قبور الخلفاء ببغداد وقبور بعض العلماء والصالحين بها)

وقبور الخلفاء العباسيين رضى الله عنهم بالرصافة وعلى كل قبر منها اسم صاحبه فمنهم قبر

المهدى وقبر الهادى وقبر الامين وقبر المعتصم وقبر الواثق وقبر المتوكل وقبر المنتصر وقبر المستعين وقبر المعتز وقبر المهتدى وقبر المعتمد وقبر المعتضد وقبر المكتفى وقبر المقتدر وقبر القاهر وقبر الراضى وقبر المتقى وقبر المستكفى وقبر المطيع وقبر الطايع وقبر القائم وقبر القادر وقبر المستظهر وقبر المسترشد وقبر الراشد وقبر المقتفى وقبر المستنجد وقبر المستضى وقبر الناصر وقبر الظاهر وقبر المستنصر وقبر المستعصم وهو آخرهم وعليه دخل التتر بغداد بالسيف وذبحوه بعد أيام من دخولهم وانقطع من بغداد اسم الخلافة العباسية وذلك فى سنة أربع وخمسين وستمائة وبقرب الرصافة قبر الامام أبى حنيفة رضى الله عنه وعليه قبة عظيمة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر وليس بمدينة بغداد اليوم زاوية يطعم الطعام فيها ما عدا هذه الزاوية فسبحان مبيد الاشياء ومغيرها وبالقرب منها قبر الامام ابى عبد الله احمد بن حنبل رضى الله عنه ولا قبة عليه ويذكر انها بنيت على قبره مرارا فتهدمت بقدرة الله تعالى وقبره عند أهل بغداد معظم وأكثرهم على مذهبه وبالقرب منه قبر ابى بكر الشبلى من أئمة المتصوفة رحمه الله وقبر سرى السقطى وقبر بشر الحافى وقبر داود الطائى وقبر ابى القاسم الجنيد رضى الله عنهم اجمعين وأهل بغداد لهم يوم فى كل جمعة لزيارة شيخ من هؤلاء المشايخ ويوم لشيخ آخر يليه هكذا الى آخر الاسبوع وببغداد كثير من قبور الصالحين والعلماء رضى الله تعالى عنهم وهذه الجهة الشرقية من بغداد ليس بها فواكه وانما تجلب اليها من الجهة الغربية لان فيها البساتين والحدائق ووافق وصولى الى بغداد كون ملك العراق بها فلنذكره هاهنا

(ذكر سلطان العراقين وخراسان)

وهو السلطان الجليل أبو سعيد بهادر خان وخان عندهم الملك (وبهادر بفتح الباء الموحدة وضم الدال المهمل وآخره راء) ابن السلطان الجليل محمد خذابنده وهو الذى أسلم من ملوك التتر وضبط اسمه مختلف فيه فمنهم من قال ان اسمه خذابنده (بخاء معجمة مضمومة وذال معجم مفتوح) وبنده لم يختلف فيه (وهو بباء موحدة مفتوحة ونون مسكنة ودال مهمل مفتوح وهاء استراحة) وتفسيره على هذا القول عبد الله لان خذا بالفارسية اسم الله عز وجل وبنده غلام أو عبد أو ما فى معناهما وقيل انما هو خربنده (بفتح الخاء المعجم وضم الراء المهمل) وتفسير خر بالفارسية الحمار فمعناه على هذا غلام الحمار فشتان ما بين القولين من الخلاف على ان هذا الاخير هو المشهور وكان الاول غيره اليه من تعصب وقيل ان سبب تسميته بهذا الاخير هو ان التتر يسمون المولود باسم أول داخل على البيت عند ولادته فلما ولد هذا السلطان كان أول داخل الزمال وهم يسمونه خربنده فسمى به وأخو خربنده هو قازغان الذى يقول فيه الناس قازان وقازغان هو القدر وقيل سمى بذلك لانه لما ولد دخلت الجارية ومعها القدر وخذابنده هو الذى اسلم وقدمنا

قصته

قصته وكيف أراد ان يحمل الناس لما أسلم على الرفض وقصة القاضي مجد الدين معه ولما مات ولى الملك ولده أبو سعيد بهادرخان وكان ملكا فاضلا كريما ملك وهو صغير السن ورأيته ببغداد وهو شاب أجمل خلق الله صورة لا نبات بعارضيه ووزيره اذ ذاك الامير غياث الدين محمد بن خواجه رشيد وكان أبوه من مهاجرة اليهود واستوزره السلطان محمد خدابنده والد أبي سعيد رأيتهما يوما بحراقة في الدجلة وتسمى عندهم الشبارة وهي شبه سلورة وبين يديه دمشق خواجه ابن الامير جوبان المتغلب على أبي سعيد وعن يمينه وشماله شبارتان فيهما أهل الطرب والغناء ورأيت من مكارمه في ذلك اليوم انه تعرض له جماعة من العميان فشكوا ضعف حالهم فأمر لكل واحد منهم بكسوة وغلام يقوده ونفقة تجرى عليه ولما ولى السلطان أبو سعيد وهو صغير كما ذكرناه استولى على أمره أمير الامراء الجوبان وحجر عليه التصرفات حتى لم يكن بيده من الملك الا الاسم ويذكر انه احتاج في بعض الاعياد الى نفقة ينفقها فلم يكن له سبيل اليها فبعث الى أحد التجار فاعطاه من المال ما أحب ولم يزل كذلك الى ان دخلت عليه يوما زوجة أبيه دنيا خاتون فقالت له لو كنا نحن الرجال ما تركنا الجوبان وولده على ما هما عليه فاستفهمها عن مرادها بهذا الكلام فقالت له لقد انتهى أمر دمشق خواجه بن الجوبان ان يفتك بحرم أبيك وانه بات البارحة عند طغي خاتون وقد بعث الى وقال لي الليلة أبيت عندك وما الرأى الا أن تجمع الامراء والعساكر فاذا صعد الى القلعة مختفيا برسم المبيت أمكنك القبض عليه وأبوه يكفى الله أمره وكان الجوبان اذ ذاك غائبا بخراسان فغلبته الغيرة وبات يدبر أمره فلما علم ان دمشق خواجه بالقلعة أمر الامراء والعساكر أن يطيفوا بها من كل ناحية فلما كان بالغد وخرج دمشق ومعه جندي يعرف بالحاج المصري فوجد سلسلة معرضة على باب القلعة وعليها قفل فلم يمكنه الخروج راكبا فضرب الحاج المصري السلسلة بسيفه فقطعها وخرجا معا فاحاطت بهما العساكر ولحق أمير من الامراء الخاصكية يعرف بمصر خواجه وفتى يعرف بلؤلؤ دمشق خواجه فقتلاه وأتيا الملك اباسعيد برأسه فرموا به بين يدى فرسه وتلك عادتهم ان يفعلوا برأس كبار اعدائهم وأمر السلطان بنهب داره وقتل من قاتل من خدامه ومماليكه واتصل الخبر بأبيه الجوبان وهو بخراسان ومعه أولاده امير حسن وهو الاكبر وطالش وجلوخان وهو أصغرهم وهو ابن أخت السلطان ابي سعيد أمه ساطي بك بنت السلطان خدابنده ومعه عساكر التتر وحاميتها فاتفقوا على قتال السلطان أبي سعيد وزحفوا اليه فلما التقى الجمعان هرب التتر الى سلطانهم وافردوا الجوبان فلما رأى ذلك نكص على عقبيه وفر الى صحراء سجستان وأوغل فيها واجمع على اللحاق بملك هراة غياث الدين مستجيرا به ومتحصنا بمدينته وكانت له عليه ايادسابقة فلم يوافقه ولده حسن وطالش على ذلك وقالا له

انه لا يفي بالعهد وقد غدر فيروزشاه بعد ان لجأ اليه وقتله فأبى الجوبان الا أن يلحق به ففارقه ولداه وتوجه ومعه ابنه الاصغر جلوخان فخرج غياث الدين لاستقباله وترجل له وأدخله المدينة على الامان ثم غدره بعد أيام وقتله وقتل ولده وبعث برأسيهما الى السلطان أبي سعيد وأما حسن وطالش فانهما قصدا خوارزم وتوجها الى السلطان محمد أوزبك فأكرم مثواهما وأنزلهما الى أن صدر منهما ما اوجب قتلهما فقتلهما وكان للجوبان ولد رابع اسمه الدمرطاش فهرب الى ديار مصر فاكرمه الملك الناصر واعطاه الاسكندرية فأبى من قبولها وقال انما اريد العساكر لاقاتل اباسعيد وكان متى بعث اليه الملك الناصر بكسوة اعطى هو للذي يوصلها اليه احسن منها ازراء على الملك الناصر وأظهر أمورا أوجبت قتله فقتله وبعث برأسه الى ابي سعيد وقد ذكرنا قصته وقصة قراسنقور فيما تقدم ولما قتل الجوبان جيء به وبولده ميتين فوقف بهما على عرفات وحملا الى المدينة ليدفنا في التربة التي اتخذها الجوبان بالقرب من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنع من ذلك ودفن بالبقيع والجوبان هو الذي جلب الماء الى مكة شرفها الله تعالى ولما استقل السلطان أبو سعيد بالملك أراد أن يتزوج بنت الجوبان وكانت تسمى بغداد خاتون وهي من أجمل النساء وكانت تحت الشيخ حسن الذي تغلب بعد موت أبي سعيد على الملك وهو ابن عمته فأمره فنزل عنها وتزوجها أبو سعيد وكانت أحظى النساء لديه والنساء لدى الاتراك والتتر لهن حظ عظيم وهم اذا كتبوا أمرا يقولون فيه عن أمر السلطان والخواتين ولكل خاتون من البلاد والولايات والمجابي العظيمة واذا سافرت مع السلطان تكون في محلة على حدة وغلبت هذه الخاتون على أبي سعيد وفضلها على سواها وأقامت على ذلك مدة أيامه ثم انه تزوج امرأة تسمى بدلشاد فأحبها حبا شديدا وهجر بغداد خاتون فغارت لذلك وسمته في منديل مسحته به بعد الجماع فمات وانقرض عقبه وغلبت امراؤه على الجهات كما سنذكره ولما عرف الامراء ان بغداد خاتون هي التي سمته اجمعوا على قتلها وبدر لذلك الفتى الرومي خواجه لؤلؤ وهو من كبار الامراء وقدمائهم فأتاها وهي في الحمام فضربها بدبوسه وقتلها وطرحت هنالك أياما مستورة العورة بقطعة تليس واستقل الشيخ حسن بملك عراق العرب وتزوج دلشاد امرأة السلطان ابي سعيد كمثل ما كان ابو سعيد فعله من تزوج امرأته

(ذكر المتغلبين على الملك بعد موت السلطان أبي سعيد)

فمنهم الشيخ حسن ابن عمته الذي ذكرناه آنفا تغلب على عراق العرب جميعا ومنهم ابراهيم شاه ابن الامير سنيته تغلب على الموصل وديار بكر ومنهم الامير ارتنا تغلب على بلاد التركمان المعروفة أيضا ببلاد الروم ومنهم حسن خواجه بن الدمرطاش بن الجوبان تغلب على تبريز والسلطانية

والسلطانية وهمدان وقم وقاشان والرى وورامين وفرغان والكرج ومنهم الامير طغيتمور تغلب على بعض بلاد خراسان ومنهم الامير حسين ابن الامير غياث الدين تغلب على هراة ومعظم بلاد خراسان ومنهم ملك دينار تغلب على بلاد مكران وبلاد كيج ومنهم محمد شاه بن مظفر تغلب على يزد وكرمان وورقو ومنهم الملك قطب الدين تمهتن تغلب على هرمز وكيش والقطيف والبحرين وقلهات ومنهم السلطان أبو اسحاق الذى تقدّم ذكره تغلب على شيراز واصفهان وملك فارس وذلك مسيرة خمس وأربعين ومنهم السلطان افراسياب اتابك تغلب على ايذج وغيرها من البلاد وقد تقدم ذكره ولنعد الى ما كنا بسبيله ثم خرجت من بغداد فى محلة السلطان ابى سعيد وغرضى أن أشاهد ترتيب ملك العراق فى رحيله ونزوله وكيفية تنقله وسفره وعادتهم انهم يرحلون عند طلوع الفجر وينزلون عند الضحى وترتيبهم انه يأتى كل أمير من الامراء بعسكره وطبوله واعلامه فيقف فى موضع لا يتعداه قد عين له اما فى الميمنة او الميسرة فاذا توافوا جميعا وتكاملت صفوفهم ركب الملك وضربت طبول الرحيل وبوقاته وأنفاره وأتى كل أمير منهم فسلم على الملك وعاد الى موقفه ثم يتقدم امام الملك الحجاب والنقباء ثم يليهم أهل الطرب وهم نحو مائة رجل عليهم الثياب الحسنة وتحتهم مراكب السلطان وأمام أهل الطرب عشرة من الفرسان قد تقلدوا عشرة من الطبول وخمسة من الفرسان لديهم خمس صرنايات وهى تسمى عندنا بالغيطات فيضربون تلك الاطبال والصرنايات ثم يمسكون ويغنى عشرة من أهل الطرب نوبتهم فاذا قضوها ضربت تلك الاطبال والصرنايات ثم أمسكوا وغنى عشرة آخرون نوبتهم هكذا الى أن تتم عشر نوبات فعند ذلك يكون النزول ويكون عن يمين السلطان وشماله حين سيره كبار الامراء وهم نحو خمسين ومن ورائه أصحاب الاعلام والاطبال والانفار والبوقات ثم مماليك السلطان ثم الامراء على مراتبهم وكل أمير له اعلام وطبول وبوقات ويتولى ترتيب ذلك كله أمير جندر وله جماعة كبيرة وعقوبة من تخلف عن فوجه وجماعته ان يؤخذ تماقه فيملأ رملا ويعلق من عنقه ويمشى على قدميه حتى يبلغ المنزل فيؤتى به الى الامير فيبطح على الارض ويضرب خمسا وعشرين مقرعة على ظهره سواء كان رفيعا أو وضيعا لا يحاشون من ذلك احدا واذا نزلوا ينزل السلطان ومماليكه فى محلة على حدة وتنزل كل خاتون من خواتينه فى محلة على حدة ولكل واحدة منهن الامام والمؤذنون والقراء والسوق وينزل الوزراء والكتاب وأهل الاشغال على حدة وينزل كل أمير على حدة ويأتون جميعا الى الخدمة بعد العصر ويكون انصرافهم بعد العشاء الاخيرة والمشاعل بين أيديهم فاذا كان الرحيل ضرب الطبل الكبير ثم يضرب طبل الخاتون الكبرى التى هى الملكة ثم اطبال سائر الخواتين ثم طبل الوزير ثم اطبال الامراء دفعة واحدة ثم يركب أمير المقدمة

فى عسكره ثم يتبعه الخواتين ثم اثقال السلطان و زاملته واثقال الخواتين ثم أمير ثان فى عسكر له يمنع الناس من الدخول فيما بين الاثقال والخواتين ثم سائر الناس وسافرت فى هذه المحلة عشرة أيام ثم صحبت الامير علاء الدين محمد الى بلدة تبريز وكان من الامراء الكبار الفضلاء فوصلنا بعد عشرة أيام الى مدينة تبريز و نزلنا بخارجها فى موضع يعرف بالشام وهنالك قبر قازان ملك العراق وعليه مدرسة حسنة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر من الخبز واللحم والارز المطبوخ بالسمن والحلواء وانزلنى الامير بتلك الزاوية وهى ما بين أنهار متدفقة واشجار مورقة وفى غد ذلك اليوم دخلت المدينة على باب يعرف بباب بغداد و وصلنا الى سوق عظيمة تعرف بسوق قازان من أحسن سوق رأيتها فى بلاد الدنيا كل صناعة فيها على حدة لا تخالطها أخرى واجتزت بسوق الجوهر فحار بصرى مما رأيته من أنواع الجواهر وهى بأيدى مماليك حسان الصور عليهم الثياب الفاخرة وأوساطهم مشدودة بمناديل الحرير وهم بين أيدى التجار يعرضون الجواهر على نساء الاتراك وهن يشترينه كثيرا ويتنافسن فيه فرأيت من ذلك كله فتنة يستعاذ بالله منها ودخلنا سوق العنبر والمسك فرأينا مثل ذلك أو أعظم ثم وصلنا الى المسجد الجامع الذى عمره الوزير على شاه المعروف بجيلان وبخارجه عن يمين مستقبل القبلة مدرسة وعن يساره زاوية وصحنه مفروش بالمرمر وحيطانه بالقاشانى وهو شبه الزليج ويشقه نهر ماء وبه أنواع الاشجار ودوالى العنب وشجر الياسمين ومن عادتهم انهم يقرأون به كل يوم سورة يس وسورة الفتح وسورة عم بعد صلاة العصر فى صحن المسجد ويجتمع لذلك أهل المدينة وبتنا ليلة بتبريز ثم وصل بالغد أمر السلطان أبى سعيد الى الامير علاء الدين بأن يصل اليه فعدت معه ولم ألق بتبريز احدا من العلماء ثم سافرنا الى أن وصلنا محلة السلطان فاعلمه الامير المذكور بمكانى وادخلنى عليه فسألنى عن بلادى وكسانى واركبنى واعلمه الامير انى اريد السفر الى الحجاز الشريف فأمر لى بالزاد والركوب فى السبيل مع المحمل وكتب لى بذلك الى أمير بغداد خواجه معروف فعدت الى مدينة بغداد واستوفيت ما أمر لى به السلطان وكان قد بقى لاوان سفر الركب أزيد من شهرين فظهر لى ان اسافر الى الموصل وديار بكر لاشاهد تلك البلاد واعود الى بغداد فى حين سفر الركب فأتوجه الى الحجاز الشريف فخرجت من بغداد الى منزل على نهر دجيل وهو يتفرع عن دجلة فيسقى قرى كثيرة ثم نزلنا بعد يومين بقرية كبيرة تعرف بحربة مخصبة فسيحة ثم رحلنا فنزلنا موضعا على شط دجلة بالقرب من حصن يسمى المعشوق وهو مبنى على الدجلة وفى العدوة الشرقية من هذا الحصن مدينة سر من رأى وتسمى أيضا سامرا ويقال لها سام راه ومعناه بالفارسية طريق سام وراه هو الطريق وقد استولى الخراب على هذه المدينة فلم يبق منها الا القليل وهى معتدلة الهواء

رائقة

رائقة الحسن على بلائها ودروس معالمها وفيها أيضا مشهد صاحب الزمان كما بالحلة
ثم سرنا منها مرحلة و وصلنا الى مدينة تكريت وهى مدينة كبيرة فسيحة الارجاء مليحة
الاسواق كثيرة المساجد وأهلها موصوفون بحسن الاخلاق والدجلة فى الجهة الشمالية
منها ولها قلعة حصينة على شط الدجلة والمدينة عتيقة البناء عليها سور يطيف بها ثم رحلنا
منها مرحلتين و وصلنا الى قرية تعرف بالعقر على شط الدجلة وباعلاها ربوة كان بها حصن
وباسفلها الخان المعروف بخان الحديد له ابراج و بناؤه حافل والقرى والعمارة متصلة من هنالك
الى الموصل ثم رحلنا و نزلنا موضعا يعرف بالقيارة بمقربة من دجلة وهنالك أرض سوداء فيها
عيون تنبع بالقار و يصنع له احواض و يجتمع فيها فتراه شبه الصلصال على وجه الارض
حالك اللون صقيلا رطبا وله رائحة طيبة وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه
الطحلب الرقيق فتقذفه الى جوانبها فيصير أيضا قارا و بمقربة من هذا الموضع عين كبيرة
فاذا أرادوا نقل القار منها أوقدوا عليها النار فتنشف النار ما هنالك من رطوبة مائية ثم يقطعونه
قطعا و ينقلونه وقد تقدم لنا ذكر العين التى بين الكوفة والبصرة على هذا النحو ثم سافرنا
من هذه العيون مرحلتين و وصلنا بعدها الى الموصل

(مدينة الموصل)

وهى مدينة عتيقة كثيرة الخصب وقلعتها المعروفة بالحدباء عظيمة الشان شهيرة الامتناع
عليها سور محكم البناء مشيد البروج وتتصل بها دور السلطان وقد فصل بينهما و بين البلد
شارع متسع مستطيل من أعلى البلد الى اسفله وعلى البلد سوران اثنان وثيقان ابراجهما
كثيرة متقاربة وفى باطن السور بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره قد تمكن فتحها فيه
لسعته ولم أر فى اسوار البلاد مثله الا السور الذى على مدينة دهلى حضرة ملك الهند وللموصل
ربض كبير فيه المساجد والحمامات والفنادق والاسواق وبه مسجد جامع على شط الدجلة
تدور به شبابيك حديد وتتصل به مصاطب تشرف على دجلة فى النهاية من الحسن
والاتقان وامامه مارستان و بداخل المدينة جامعان احدهما قديم والآخر حديث وفى صحن
الحديث منهما قبة فى داخلها خصة رخام مثمنة مرتفعة على سارية رخام يخرج منها الماء بقوة
وانزعاج فيرتفع مقدار القامة ثم ينعكس فيكون له مرأى حسن وقيسارية الموصل مليحة لها
ابواب حديد ويدور بها دكاكين و بيوت بعضها فوق بعض متقنة البناء و بهذه المدينة مشهد
جرجيس النبى عليه السلام وعليه مسجد والقبر فى زاوية منه عن يمين الداخل اليه وهو فيما
بين الجامع الجديد وباب الجسر وقد حصلت لنا زيارته والصلاة بمسجده والحمد لله تعالى
وهنالك تل يونس عليه السلام وعلى نحو ميل منه العين المنسوبة اليه يقال انه أمر قومه

بالتطهر فيها ثم صعدوا التل ودعاو دعوا فكشف الله عنهم العذاب وبمقربة منه قرية كبيرة يقرب منها خراب يقال انه موضع المدينة المعروفة بنينوى مدينة يونس عليه السلام واثر السور المحيط بها ظاهر ومواضع الابواب التي هي متبينة وفي التل بناء عظيم ورباط فيه بيوت كثيرة ومقاصر ومطاهر وسقايات يضم الجميع باب واحد وفي وسط الرباط بيت عليه ستر حرير وله باب مرصع يقال انه الموضع الذي به موقف يونس عليه السلام ومحراب المسجد الذي بهذا الرباط يقال انه كان بيت متعبده عليه السلام وأهل الموصل يخرجون في كل ليلة جمعة الى هذا الرباط يتعبدون فيه وأهل الموصل لهم مكارم اخلاق ولين كلام وفضيلة ومحبة في الغريب واقبال عليه وكان أميرها حين قدومي عليها السيد الشريف الفاضل علاء الدين علي بن شمس الدين محمد الملقب بحيدر وهو من الكرماء الفضلاء أنزلني بداره وأجرى على الانفاق مدة مقامي عنده وله الصدقات والايثار المعروف وكان السلطان أبو سعيد يعظمه وفوض اليه في هذه المدينة وما يليها او يركب في موكب عظيم من مماليكه وأجناده ووجوه أهل المدينة وكبراؤها يأتون للسلام عليه غدوا وعشيا وله شجاعة ومهابة وولده في حين كتب هذا في حضرة فاس مستقر الغرباء ومأوى الفرق ومحط رحال الوفود زادها الله بسعادة أيام مولانا أمير المؤمنين بهجة واشراقا وحرس ارجاءها ونواحيها ثم رحلنا من الموصل ونزلنا قرية تعرف بعين الرصد وهي على نهر عليه جسر مبني وبها خان كبير ثم رحلنا ونزلنا قرية تعرف بالمويلحة ثم رحلنا منها ونزلنا جزيرة ابن عمر وهي مدينة كبيرة حسنة محيط بها الوادي ولذلك سميت جزيرة وأكثرها خراب ولها سوق حسنة ومسجد عتيق مبني بالحجارة محكم العمل وسورها مبني بالحجارة ايضا واهلها فضلاء لهم محبة في الغرباء ويوم نزولنا بها رأينا جبل الجودي المذكور في كتاب الله عز وجل الذي استوت عليه سفينة نوح عليه السلام وهو جبل عال مستطيل ثم رحلنا منها مرحلتين ووصلنا الى مدينة نصيبين وهي مدينة عتيقة متوسطة قد خرب أكثرها وهي في بسيط أفيح فسيح فيه المياه الجارية والبساتين الملتفة والاشجار المنتظمة والفواكه الكثيرة وبها يصنع ماء الورد الذي لا نظير له في العطارة والطيب ويدور بها نهر يعطف عليها انعطاف السوار منبعه من عيون في جبل قريب منها وينقسم انقساما فيتخلل بساتينها ويدخل منه نهر الى المدينة فيجري في شوارعها ودورها ويخترق صحن مسجدها الاعظم وينصب في صهريجين أحدهما في وسط الصحن والآخر عند الباب الشرقي وبهذه المدينة مارستان ومدرستان وأهلها أهل صلاح ودين وصدق وأمانة ولقد صدق أبو نواس في قوله

(بسيط)

طابت نصيبين لي يوما وطبت لها * ياليت حظي من الدنيا نصيبين

قال

قال ابن جزى والناس يصفون مدينة نصيبين بفساد الماء والوخامة وفيها يقول بعض الشعراء (خفيف)

لنصيبين قد عجبت ومالى * دارها الى داع الى العلات
يعدم الورد أحمرا فى ذراها * لسقام حتى من الوجنات

ثم رحلنا الى مدينة سنجار وهى مدينة كبيرة كثيرة الفواكه والاشجار والعيون المطردة والانهار مبنية فى سفح جبل تشبه بدمشق فى كثرة أنهارها وبساتينها ومسجدها الجامع مشهور البركة يذكران الدعاء به مستجاب ويدور به نهر ماء ويشقه وأهل سنجار اكراد ولهم شجاعة وكرم وممن لقيته بها الشيخ الصالح العابد الزاهد عبد الله الكردى أحد المشايخ الكبار صاحب كرامات يذكر عنه انه لا يفطر الا بعد أربعين يوما ويكون افطاره على نصف قرص من الشعير لقيته برابطة بأعلى جبل سنجار ودعا لى وزودنى بدراهم لم تزل عندى الى أن سلبنى كفار الهنود ثم سافرنا الى مدينة دارا وهى عتيقة كبيرة بيضاء المنظر لها قلعة مشرفة وهى الآن خراب لا عمارة بها وفى خارجها قرية معمورة بها كان نزولنا ثم رحلنا منها فوصلنا الى مدينة ماردين وهى مدينة عظيمة فى سفح جبل من أحسن مدن الاسلام وأبدعها وأتقنها واحسنها أسواقا وبها تصنع الثياب المنسوبة اليها من الصوف المعروف بالمرعز ولها قلعة شماء من مشاهير القلاع فى قنة جبلها قال ابن جزى قلعة ماردين هذه تسمى الشهباء واياها عنى شاعر العراق صفى الدين عبد العزيز بن سرايا الحلى بقوله فى سمطه (سريع)

فدع ربوع الحلة الفيحاء * وازور بالعيس عن الزوراء
ولا تقف بالموصل الحدباء * ان شهاب القلعة الشهباء

(محرق شيطان صروف الدهر)

وقلعة حلب تسمى الشهباء ايضا وهذه المسمطة بديعة مدح بها الملك المنصور سلطان ماردين وكان كريما شهير الصيت ولى الملك بها نحو خمسين سنة وادرك أيام قازان ملك التتر وصاهر السلطان خدابنده بابنته دنيا خاتون

(ذكر سلطان ماردين فى عهد دخولى اليها)

وهو الملك الصالح ابن الملك المنصور الذى ذكرناه آنفا ورث الملك عن ابيه وله المكارم الشهيرة وليس بأرض العراق والشام ومصر اكرم منه يقصده الشعراء والفقراء فيجزل لهم العطايا جريا على سنن أبيه قصده أبو عبد الله محمد بن جابر الاندلسى المروى الكفيف مادحا فاعطاه عشرين الف درهم وله الصدقات والمدارس والزوايا لاطعام الطعام وله وزير كبير القدر وهو الامام العالم وحيد الدهر وفريد العصر جمال الدين السنجارى قرأ بمدينة تبريز وادرك العلماء الكبار

وقاضى قضاته الامام الكامل برهان الدين الموصلى وهو ينتسب الى الشيخ الولى فتح الموصلى وهذا القاضى من أهل الدين والورع والفضل يلبس الخشن من ثياب الصوف الذى لا تبلغ قيمته عشرة دراهم ويعتم بنحو ذلك وكثيرا ما يجلس للاحكام بصحن مسجد خارج المدرسة كان يتعبد فيه فاذا رآه من لا يعرفه ظنه بعض خدام القاضى وأعوانه

(حكاية)

ذكر لى ان امرأة أتت هذا القاضى وهو خارج من المسجد ولم تكن تعرفه فقالت له ياشيخ أين يجلس القاضى فقال لها وما تريدين منه فقالت له ان زوجى ضربنى وله زوجة ثانية وهو لا يعدل بيننا فى القسم وقد دعوته الى القاضى فأبى وأنا فقيرة ليس عندى ما أعطيه لرجال القاضى حتى يحضروه بمجلسه فقال لها وأين منزل زوجك فقالت بقرية الملاحين خارج المدينة فقال لها أنا أذهب معك اليه فقالت والله ما عندى شئ أعطيك اياه فقال لها وأنا لا آخذ منك شيأ ثم قال لها اذهبى الى القرية وانتظرينى خارجها فانى على أثرك فذهبت كما أمرها وانتظرته فوصل اليها وليس معه أحد وكانت عادته ان لا يدع أحدا يتبعه فجاءت به الى منزل زوجها فلما رآه قال لها ما هذا الشيخ النحس الذى معك فقال له نعم والله أنا كذلك ولكن أرض زوجتك فلما طال الكلام جاء الناس فعرفوا القاضى وسلموا عليه وخاف ذلك الرجل وخجل فقال له القاضى لا عليك أصلح ما بينك وبين زوجتك فأرضاها الرجل من نفسه وأعطاها القاضى نفقة ذلك اليوم وانصرف لقيت هذا القاضى وأضافنى بداره ثم رحلت عائدا الى بغداد فوصلت الى مدينة الموصل التى ذكرناها فوجدت ركبها بخارجها متوجهين الى بغداد وفيهم امرأة صالحة عابدة تسمى بالست زاهدة وهى من ذرية الخلفاء حجت مرارا وهى ملازمة الصوم سلمت عليها وكنت فى جوارها ومعها جملة من الفقراء يخدمونها وفى هذه الوجهة توفيت رحمة الله عليها وكانت وفاتها بزرود ودفنت هنالك ثم وصلنا الى مدينة بغداد فوجدت الحاج فى أهبة الرحيل فقصدت أميرها معروف خواجه فطلبت منه ما أمر لى به السلطان فعين لى شقة محارة وزاد أربعة من الرجال وماءهم وكتب لى بذلك ووجه عن أمير الركب وهو البهلوان محمد الحويح فأوصاه بى وكانت المعرفة بينى وبينه متقدمة فزادها تأكيدا ولم أزل فى جواره وهو يحسن الى ويزيدنى على ما أمر لى به وأصابنى عند خروجنا من الكوفة اسهال فكانوا ينزلوننى من أعلى المحمل مرات كثيرة فى اليوم والامير يتفقد حالى ويوصى بى ولم أزل مريضا حتى وصلت مكة حرم الله تعالى زادها الله شرفا وتعظيما وطفت بالبيت الحرام كرمه الله تعالى طواف القدوم وكنت ضعيفا بحيث أؤدى المكتوبة قاعدا فطفت وسعيت بين الصفا والمروة راكبا على فرس الامير الحويح المذكور

و وقفنا

و وقفنا تلك السنة يوم الاثنين فما زال نسامنى أخذت فى الراحة والاستقلال من مرضى ولما انقضى الحج أقمت مجاورا بمكة تلك السنة وكان بها الامير علاء الدين بن هلال مشيد (مشدّ) الدواوين مقيما لعمارة دار الوضوء بظاهر العطارين من باب بنى شيبة وجاور فى تلك السنة من المصريين جماعة من كبرائهم منهم تاج الدين بن الكويك و نور الدين القاضى و زين الدين بن الاصيل وابن الخليلى وناصر الدين الاسيوطى وسكنت تلك السنة بالمدرسة المظفرية وعافانى الله من مرضى فكنت فى أنعم عيش وتفرغت للطواف والعبادة والاعتمار وأتى فى أثناء تلك السنة حجاج الصعيد وقدم معهم الشيخ الصالح نجم الدين الاصفونى وهى أوّل حجة حجها والاخوان علاء الدين على وسراج الدين عمر ابنا القاضى الصالح نجم الدين البالسى قاضى مصر وجماعة غيرهم وفى منتصف ذى القعدة وصل الامير سيف الدين يلملك وهو من الفضلاء ووصل فى صحبته جماعة من أهل طنجة بلدى حرسها الله منهم الفقيه أبو عبد الله محمد ابن القاضى ابى العباس ابن القاضى الخطيب أبى القاسم الجراوى والفقيه أبو عبد الله بن عطاء الله والفقيه ابو محمد عبد الله الحضرى والفقيه أبو عبد الله المرسى وأبو العباس ابن الفقيه ابى على البلنسى وابو محمد بن القابلة وابو الحسن البيارى وابو العباس ابن تافوت وابو الصبر ايوب الفخار واحمد ابن حكامة ومن اهل قصر المجاز الفقيه أبو زيد عبد الرحمن بن القاضى أبى العباس ابن خلوف ومن أهل القصر الكبير الفقيه ابو محمد بن مسلم وابو اسحاق ابراهيم بن يحيى و ولده ووصل فى تلك السنة الامير سيف الدين تقزدمور من الخاصكية والامير موسى بن قرمان والقاضى فخر الدين ناظر الجيش كاتب المماليك والتاج أبو اسحاق والست حدق مربية الملك الناصر وكانت لهم صدقات عميمة بالحرم الشريف واكثرهم صدقة القاضى فخر الدين وكانت وقفتنا فى تلك السنة فى يوم الجمعة من عام ثمان وعشرين ولما انقضى الحج أقمت مجاورا بمكة حرسها الله سنة تسع وعشرين وفى هذه السنة وصل احمد بن الامير رميثة ومبارك ابن الامير عطيفة من العراق صحبة الامير محمد الحويج والشيخ زاده الحرباوى والشيخ دانيال واتوا بصدقات عظيمة للمجاورين واهل مكة من قبل السلطان أبى سعيد ملك العراق وفى تلك السنة ذكر اسمه فى الخطبة بعد ذكر الملك الناصر ودعوا له بأعلى قبة زمزم وذكر وابعده سلطان اليمن الملك المجاهد نور الدين ولم يوافق الامير عطيفة على ذلك وبعث شقيقه منصور اليعلم الملك الناصر بذلك فأمر رميثة بردّه فردّ فبعثه ثانية على طريق جدة حتى اعلم الملك الناصر بذلك ووقفنا تلك السنة وهى سنة تسع وعشرين يوم الثلاثا ولما انقضى الحج اقمت مجاورا بمكة حرسها الله سنة ثلاثين وفى موسمها وقعت الفتنة بين أمير مكة عطيفة وبين أيدمور امير جندار الناصرى وسبب ذلك ان تجارا من أهل اليمن سرقوا فتشكوا الى

ايدمور بذلك فقال ايدمور لمبارك بن الامير عطيفة إئت بهؤلاء السراق فقال لا أعرفهم فكيف نأتي بهم وبعد فأهل اليمن تحت حكمنا ولا حكم عليهم لك ان سرق لاهل مصر والشام شئ فاطلبني به فشتمه أيدمور وقال له ياقواد تقول لى هكذا وضربه على صدره فسقط ووقعت عمامته عن رأسه وغضب وغضب له عبيده وركب ايدمور يريد عسكره فلحقه مبارك وعبيده فقتلوه وقتلوا ولده ووقعت الفتنة بالحرم وكان به أمير أحمد ابن عم الملك الناصر ورمى الترك بالنشاب فقتلوا امرأة قيل انها كانت تحرض اهل مكة على القتال وركب من بالركب من الاتراك واميرهم خاص ترك فخرج اليهم القاضي والائمة والمجاورون وفوق رؤسهم المصاحف وحاولوا الصلح ودخل الحجاج مكة فأخذوا ما لهم بها وانصرفوا الى مصر وبلغ الخبر الى الملك الناصر فشق عليه وبعث العساكر الى مكة ففر الامير عطيفة وابنه مبارك وخرج أخوه رميثة واولاده الى وادي نخلة فلما وصل العسكر الى مكة بعث الامير رميثة احد اولاده يطلب له الامان ولولده فأمنوا واتى رميثة وكفنه في يده الى الامير فخلع عليه وسلمت اليه مكة وعاد العسكر الى مصر وكان الملك الناصر رحمه الله حليما فاضلا فخرجت في تلك الايام من مكة شرفها الله تعالى قاصدا بلاد اليمن فوصلت الى حدة (بالحاء المهمل المفتوح) وهي نصف الطريق ما بين مكة وجدة (بالجيم المضموم) ثم وصلت الى جدة وهي بلدة قديمة على ساحل البحر يقال انها من عمارة الفرس وبخارجها مصانع قديمة وبها جباب للماء منقورة في الحجر الصلد يتصل بعضها ببعض تفوت الاحصاء كثرة وكانت هذه السنة قليلة المطر وكان الماء يجلب الى جدة على مسيرة يوم وكان الحجاج يسألون الماء من أصحاب البيوت

(حكاية)

ومن غريب ما اتفق لي بجدة انه وقف على بابي سائل أعمى يطلب الماء يقوده غلام فسلم علي وسماني باسمي واخذ بيدي ولم أكن عرفته قط ولا عرفني فعجبت من شأنه ثم امسك اصبعي بيده وقال اين الفتخة وهي الخاتم وكنت حين خروجي من مكة قد لقيني بعض الفقراء وسألني ولم يكن عندي في ذلك الحين شئ فدفعت له خاتمي فلما سألني عن هذا الاعمى قلت له اعطيته لفقير فقال ارجع في طلبه فان فيه أسماء مكتوبة فيها سر من الاسرار فطال تعجبي منه ومن معرفته بذلك كله والله أعلم بحاله وبجدة جامع يعرف بجامع الابنوس معروف البركة يستجاب فيه الدعاء وكان الامير بها ابا يعقوب بن عبد الرزاق وقاضيها وخطيبها الفقيه عبد الله من أهل مكة شافعي المذهب واذا كان يوم الجمعة واجتمع الناس للصلاة اتى المؤذن وعد أهل جدة المقيمين بها فان كملوا أربعين خطب وصلى بهم الجمعة وان لم يبلغ عددهم أربعين صلى ظهرا اربعا ولا يعتبر من ليس من أهلها وان كانوا عددا كثيرا ثم ركبنا البحر من جدة في مركب

يسمونه الجلبة وكان لرشيد الدين الالفي اليمني الحبشي الاصل وركب الشريف منصور بن أبي نمي في جلبة أخرى ورغب مني أن أكون معه فلم أفعل لكونه كان معه في جلبته الجمال فخفت من ذلك ولم أكن ركبت البحر قبلها وكان هنالك جملة من أهل اليمن قد جعلوا أزوادهم وأمتعتهم في الجلب وهم متأهبون للسفر

(حكاية)

ولما ركبنا البحر أمر الشريف منصور أحد غلمانه أن يأتيه بعديلة دقيق وهي نصف حمل وبطة سمن يأخذهما من جلب أهل اليمن فأخذهما وأتى بهما اليه فأتاني التجار باكين وذكروا الي ان في جوف تلك العديلة عشرة آلاف درهم نقرة ورغبوا مني أن أكلمه في ردّها وان يأخذ سواها فأتيته وكلمته في ذلك وقلت له ان للتجار في جوف هذه العديلة شيأ فقال ان كان سكرا فلا أرده اليهم وان كان سوى ذلك فهو لهم ففتحوها فوجدوا الدراهم فردها عليهم وقال لي لو كان عجلان ما ردّها وعجلان هو ابن أخيه رميثة وكان قد دخل في تلك الايام دار تاجر من أهل دمشق قاصدا لليمن فذهب بمعظم ما كان فيها وعجلان هو أمير مكة على هذا العهد وقد صلح حاله وأظهر العدل والفضل ثم سافرنا في هذا البحر بالريح الطيبة يومين وتغيرت الريح بعد ذلك وصدتنا عن السبيل التي قصدناها ودخلت أمواج البحر معنا في المركب واشتد الميد بالناس ولم نزل في أهوال حتى خرجنا في مرسى يعرف برأس دوائر فيما بين عيذاب وسواكن فنزلنا به ووجدنا بساحله عريش قصب على هيئة مسجد وفيه كثير من قشور بيض النعام مملوءة ماء فشربنا منه وطبخنا ورأيت بذلك المرسى عجبا وهو خور مثل الوادي يخرج من البحر فكان الناس يأخذون الثوب ويمسكون بأطرافه ويخرجون به وقد امتلأ سمكا كل سمكة منها قدر الذراع ويعرفونه بالبوري فطبخ منه الناس كثيرا واشتروا وقصدت الينا طائفة من البجاة وهم سكان تلك الارض سود الالوان لباسهم الملاحف الصفر ويشدون على رؤسهم عصائب حمرا في عرض الاصبع وهم أهل نجدة وشجاعة وسلاحهم الرماح والسيوف ولهم جمال يسمونها الصهب يركبونها بالسروج فاكترينا منهم الجمال وسافرنا معهم في برية كثيرة الغزلان والبجاة لا يأكلونها فهي تأنس بالآدمي ولا تنفر منه وبعد يومين من مسيرنا وصلنا الى حي من العرب يعرفون بأولاد كاهل مختلطين بالبجاة عارفين بلسانهم وفي ذلك اليوم وصلنا الى جزيرة سواكن وهي على نحو ستة أميال من البر ولا ماء بها ولا زرع ولا شجر والماء يجلب اليها في القوارب وفيها صهاريج يجتمع بها ماء المطر وهي جزيرة كبيرة وبها لحوم النعام والغزلان وحمر الوحش والمعزى عندهم كثير والالبان والسمن ومنها يجلب الى مكة وحبوبهم الجرجور وهو نوع من الذرة كبير الحب يجلب منها أيضا الى مكة

(ذكر سلطانها)

وكان سلطان جزيرة سواكن حين وصولي اليها الشريف زيد بن ابي نمي وابوه امير مكة وأخواه أميراها بعده وهما عطيفة ورمينة الذين تقدم ذكرهما وصارت اليه من قبل البجاة فانهم اخواله ومعه عسكر من البجاة وأولاد كاهل وعرب جهينة وركبنا البحر من جزيرة سواكن نريد أرض اليمن وهذا البحر لا يسافر فيه بالليل لكثرة أحجاره وانما يسافرون فيه من طلوع الشمس الى غروبها ويرسون وينزلون الى البر فاذا كان الصباح صعدوا الى المركب وهم يسمون رئيس المركب الربان ولا يزال أبدا في مقدم المركب ينبه صاحب السكان على الاحجار وهم يسمونها النبات وبعد ستة أيام من خروجنا عن جزيرة سواكن وصلنا الى مدينة حلي (وضبط اسمها بفتح الحاء المهمل وكسر اللام وتخفيفها) وتعرف باسم ابن يعقوب وكان من سلاطين اليمن ساكنها قديما وهي كبيرة حسنة العمارة يسكنها طائفتان من العرب وهم بنو حرام وبنو كنانة وجامع هذه المدينة من أحسن الجوامع وفيه جماعة من الفقراء المنقطعين الى العبادة منهم الشيخ الصالح العابد الزاهد قبولة الهندي من كبار الصالحين لباسه مرقعة وقلنسوة لبد وله خلوة متصلة بالمسجد فرشها الرمل لا حصير بها ولا بساط ولم أر بها حين لقائي له شيأ الا أبريق الوضوء وسفرة من خوص النخيل فيها كسر شعير يابسة وصحيفة فيها ملح وصعتر فاذا جاءه أحد قدم بين يديه ذلك ويسمع به أصحابه فيأتي كل واحد منهم بما حضره من غير تكلف شئ واذا صلوا العصر اجتمعوا للذكر بين يدي الشيخ الى صلاة المغرب واذا صلوا المغرب أخذ كل واحد منهم موقفه للتنفل فلا يزالون كذلك الى صلاة العشاء الآخرة فاذا صلوا العشاء الآخرة أقاموا على الذكر الى ثلث الليل ثم انصرفوا ويعودون في أول الثلث الثالث الى المسجد فيتهجدون الى الصبح ثم يذكرون الى أن تحين صلاة الاشراق فينصرفون بعد صلاتها ومنهم من يقيم الى أن يصلي صلاة الضحى بالمسجد وهذا دأبهم أبدا ولقد كنت أردت الاقامة معهم باقي عمري فلم أوفق لذلك والله تعالى يتداركنا بلطفه وتوفيقه

(ذكر سلطان حلي)

وسلطانها عامر بن ذويب من بني كنانة وهو من الفضلاء الادباء الشعراء صحبته من مكة الى جدة وكان قد حج في سنة ثلاثين ولما قدمت مدينته أنزلني وأكرمني وأقمت في ضيافته أياما وركبت البحر في مركب له فوصلت الى بلدة السرجة (وضبط اسمها بفتح السين المهمل واسكان الراء وفتح الجيم) بلدة صغيرة يسكنها جماعة من أولاد الهبي وهم طائفة من تجار اليمن أكثرهم ساكنون بصعداء ولهم فضل وكرم واطعام لابناء السبيل ويعينون الحجاج ويركبونهم في مراكبهم ويزودونهم من أموالهم وقد عرفوا بذلك واشتهروا به وكثر الله أموالهم وزادهم

من

من فضله واعانهم على فعل الخير وليس بالارض من يماثلهم فى ذلك الا الشيخ بدر الدين النقاس الساكن ببلدة القحمة فله مثل ذلك من المآثر والايثار وأضفنا بالسرجة ليلة واحدة فى ضيافة المذكورين ثم رحلنا الى مرسى الحادث ولم تنزل به ثم الى مرسى الابواب ثم الى مدينة زبيد مدينة عظيمة باليمن بينها وبين صنعاء أربعون فرسخا وليس باليمن بعد صنعاء أكبر منها ولا أغنى من أهلها واسعة البساتين كثيرة المياه والفواكه من الموز وغيره وهى برية لا شطية احدى قواعد بلاد اليمن (وهى بفتح الزاى وكسر الباء الموحدة) مدينة كبيرة كثيرة العمارة بها النخل والبساتين والمياه أملح بلاد اليمن وأجلها ولاهلها لطافة الشمائل وحسن الاخلاق وجمال الصور ولنسائها الحسن الفائق الفائت وهى وادى الخصيب الذى يذكر فى بعض الآثار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ فى وصيته يا معاذ اذا جئت وادى الخصيب فهرول ولاهل هذه المدينة سبوت النخل المشهورة وذلك انهم يخرجون فى أيام البسر والرطب فى كل سبت الى حدائق النخل ولا يبقى بالمدينة أحد من أهلها ولا من الغرباء ويخرج أهل الطرب وأهل الاسواق لبيع الفواكه والحلاوات وتخرج النساء ممتطيات الجمال فى المحامل ولهن مع ما ذكرناه من الجمال الفائت الاخلاق الحسنة والمكارم وللغريب عندهن مزية ولا يمتنعن من تزوجه كما يفعله نساء بلادنا فاذا أراد السفر خرجت معه وودّعته وان كان بينهما ولد فهى تكفله وتقوم بما يجب له الى أن يرجع ابوه ولا تطالبه فى أيام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها واذا كان مقيما فهى تقنع منه بقليل النفقة والكسوة لكنهن لا يخرجن عن بلدهن أبدا ولو اعطيت احداهن ما عسى ان تعطاه على ان تخرج عن بلدها لم تفعل وعلماء تلك البلاد وفقهاؤها أهل صلاح ودين وأمانة ومكارم وحسن خلق لقيت بمدينة زبيد الشيخ العالم الصالح أبا محمد الصنعانى والفقيه الصوفى المحقق أبا العباس الابيانى والفقيه المحدث أبا على الزبيدى ونزلت فى جوارهم فأكرمونى وأضافونى ودخلت حدائقهم واجتمعت عند بعضهم بالفقيه القاضى العالم أبى زيد عبد الرحمن الصوفى أحد فضلاء اليمن ووقع عنده ذكر العابد الزاهد الخاشع أحمد بن العجيل اليمنى وكان من كبار الرجال وأهل الكرامات

(كرامة)

ذكروا ان فقهاء الزيدية وكبراءهم أتوا مرة الى زيارة الشيخ أحمد بن العجيل فجلس لهم خارج الزاوية واستقبلهم أصحابه ولم يبرح الشيخ عن موضعه فسلموا عليه وصافحهم ورحب بهم ووقع بينهم الكلام فى مسألة القدر وكانوا يقولون ان لا قدر وان المكلف يخلق افعاله فقال لهم الشيخ فان كان الامر على ما تقولون فقوموا عن مكانكم هذا فأرادوا القيام فلم يستطيعوا

وتركهم الشيخ على حالهم ودخل الزاوية وأقاموا كذلك واشتدبهم الحر ولحقهم وهج الشمس وضجوا مما نزل بهم فدخل أصحاب الشيخ اليه وقالوا له ان هؤلاء القوم قد تابوا الى الله ورجعوا عن مذهبهم الفاسد فخرج عليهم الشيخ فأخذ بأيديهم وعاهدهم على الرجوع الى الحق وترك مذهبهم السيء وأدخلهم زاويته فأقاموا في ضيافته ثلاثا وانصرفوا الى بلادهم وخرجت لزيارة قبر هذا الرجل الصالح وهو بقرية يقال لها غسانة خارج زبيد ولقيت ولده الصالح أبا الوليد اسماعيل فأضافني وبت عنده وزرت ضريح الشيخ وأقمت معه ثلاثا وسافرت في صحبته الى زيارة الفقيه أبي الحسن الزيلعي وهو من كبار الصالحين ويقدم حجاج اليمن اذا توجهوا للحج وأهل تلك البلاد وأعرابها يعظمونه ويحترمونه فوصلنا الى جبلة وهي بلدة صغيرة حسنة ذات نخل وفواكه وأنهار فلما سمع الفقيه أبو الحسن الزيلعي بقدوم الشيخ أبي الوليد استقبله وانزله بزاويته وسلمت عليه معه واقمنا عنده ثلاثة أيام في خير مقام ثم انصرفنا وبعث معنا احد الفقراء فتوجهنا الى مدينة تعز حضرة ملك اليمن (وضبط اسمها بفتح التاء المعلوة وكسر العين المهملة وزاء) وهي من أحسن مدن اليمن وأعظمها وأهلها ذو وتجبر وتكبر وفظاظة وكذلك الغالب على البلاد التي يسكنها الملوك وهي ثلاث محلات احداها يسكنها السلطان ومماليكه وحاشيته وأرباب دولته وتسمى باسم لا أذكره والثانية يسكنها الامراء والاجناد وتسمى عدينة والثالثة يسكنها عامة الناس وبها السوق العظمى وتسمى المحالب

(ذكر سلطان اليمن)

وهو السلطان المجاهد نور الدين علي ابن السلطان المؤيد هزبر الدين داود بن السلطان المظفر يوسف بن علي بن رسول شهر جده بسمي برسول لان أحد خلفاء بني العباس أرسله الى اليمن ليكون بها أميرا ثم استقل اولاده بالملك وله ترتيب عجيب في قعوده وركوبه وكنت لما وصلت هذه المدينة مع الفقير الذي بعثه الشيخ الفقيه ابو الحسن الزيلعي في صحبتي قصد بي الى قاضي القضاة الامام المحدث صفي الدين الطبري المكي فسلمنا عليه ورحب بنا وأقمنا بداره في ضيافته ثلاثا فلما كان في اليوم الرابع وهو يوم الخميس وفيه يجلس السلطان لعامة الناس دخل بي عليه فسلمت عليه وكيفية السلام عليه ان يمس الانسان الارض بسبابته ثم يرفعها الى رأسه ويقول أدام الله عزك ففعلت كمثل ما فعله القاضي وقعد القاضي عن يمين الملك وأمرني فقعدت بين يديه فسألني عن بلادي وعن مولانا أمير المسلمين جواد الاجواد أبي سعيد رضي الله عنه وعن ملك مصر وملك العراق وملك اللور فأجبته عما سأل من أحوالهم وكان وزيره بين يديه فأمره باكرامي وانزالي وترتيب قعود هذا الملك انه يجلس فوق دكانة مفروشة مزينة بثياب الحرير وعن يمينه ويساره أهل السلاح ويليه منهم أصحاب السيوف والدرق

ويليهم

ويليهم أصحاب القسي وبين يديهم في الميمنة والميسرة الحاجب وارباب الدولة وكاتب السر وأمير جندار على رأسه والشاوشية وهم من الجنادرة وقوف على بعد فاذا قعد السلطان صاحوا صيحة واحدة بسم الله فاذا قام فعلوا مثل ذلك فيعلم جميع من بالمشور وقت قيامه ووقت قعوده فاذا استوى قاعدا دخل كل من عادته أن يسلم عليه فسلم ووقف حيث رسم له في الميمنة او الميسرة لا يتعدى أحد موضعه ولا يقعد الا من أمر بالقعود يقول السلطان للأمير جندار مر فلانا يقعد فيتقدم ذلك المأمور بالقعود عن موقفه قليلا ويقعد على بساط هنالك بين أيدى القائمين في الميمنة والميسرة ثم يؤتى بالطعام وهو طعامان طعام العامة وطعام الخاصة فأما الطعام الخاص فيأكل منه السلطان وقاضي القضاة والكبار من الشرفاء ومن الفقهاء والضيوف وأما الطعام العام فيأكل منه سائر الشرفاء والفقهاء والقضاة والمشايخ والامراء ووجوه الاجناد ومجلس كل انسان للطعام معين لا يتعداه ولا يزاحم أحد منهم احدا وعلى مثل هذا الترتيب سواء هو ترتيب ملك الهند في طعامه فلا اعلم ان سلاطين الهند اخذوا ذلك عن سلاطين اليمن أم سلاطين اليمن أخذوه عن سلاطين الهند وأقمت في ضيافة سلطان اليمن أياما وأحسن الى وأركبني وانصرفت مسافرا الى مدينة صنعاء وهي قاعدة بلاد اليمن الاولى مدينة كبيرة حسنة العمارة بناؤها بالاجر والجص كثيرة الاشجار والفواكه والزرع معتدلة الهواء طيبة الماء ومن الغريب ان المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة انما ينزل في أيام القيظ وأكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم في ذلك الاوان فالمسافرون يستعجلون عند الزوال لئلا يصيبهم المطر وأهل المدينة ينصرفون الى منازلهم لان أمطارها وابلة متدفقة ومدينة صنعاء مفروشة كلها فاذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وأنقاها وجامع صنعاء من أحسن الجوامع وفيه قبر نبي من الانبياء عليهم السلام ثم سافرت منها الى مدينة عدن مرسى بلاد اليمن على ساحل البحر الاعظم والجبال تحف بها ولا مدخل اليها الا من جانب واحد وهي مدينة كبيرة ولا زرع بها ولا شجر ولا ماء وبها صهاريج يجتمع فيها الماء ايام المطر والماء على بعد منها فربما منعته العرب وحالوا بين أهل المدينة وبينه حتى يصانعوهم بالمال والثياب وهي شديدة الحر وهي مرسى أهل الهند تأتي اليها المراكب العظيمة من كنبايت وتانة وكولم وقالقوط وفندراينة والشاليات ومنجرور وفاكنور وهنور وسندابور وغيرها وتجار الهند ساكنون بها وتجار مصر أيضا وأهل عدن ما بين تجار وما بين حمالين وصيادين للسمك وللتجار منهم أموال عريضة وربما يكون لاحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره لسعة ما بين يديه من الاموال ولهم في ذلك تفاخر ومباهاة

(حكاية)

ذكر لى ان بعضهم بعث غلاما له ليشترى له كبشا و بعث آخر منهم غلاما له برسم ذلك أيضا فاتفق انه لم يكن بالسوق فى ذلك اليوم الا كبش واحد فوقعت المزايدة فيه بين الغلامين فانتهى ثمنه الى أربع مائة دينار فأخذه أحدهما وقال ان رأس مالى أربع مائة دينار فان أعطانى مولاى ثمنه فحسن والا دفعت فيه رأس مالى ونصرت نفسى وغلبت صاحبى وذهب بالكبش الى سيده فلما عرف سيده بالقضية أعتقه وأعطاه ألف دينار وعاد الآخر الى سيده خائبا فضربه وأخذ ماله ونفاه عنه ونزلت فى عدن عند تاجر يعرف بناصر الدين الفأرى فكان يحضر طعامه فى كل ليلة نحو عشرين من التجار وله غلمان وخدام اكثر من ذلك ومع هذا كله فهم أهل دين و تواضع وصلاح ومكارم اخلاق يحسنون الى الغريب ويؤثرون على الفقير و يعطون حق الله من الزكاة على ما يجب ولقيت بهذه المدينة قاضيها الصالح سالم بن عبد الله الهندى * وكان والده من العبيد الحمالين واشتغل ابنه بالعلم فرأس وساد وهو من خيار القضاة وفضلائهم أقمت فى ضيافته اياما وسافرت من مدينة عدن فى البحر أربعة أيام ووصلت الى مدينة زيلع وهى مدينة البربرة وهم طائفة من السودان شافعية المذهب وبلادهم صحراء مسيرة شهرين أولها زيلع وآخرها مقدشو ومواشيهم الجمال ولهم اغنام مشهورة السمن وأهل زيلع سود الالوان وأكثرهم رافضة وهى مدينة كبيرة لها سوق عظيمة الا أنها أقذر مدينة فى المعمور وأوحشها وأكثرها نتنا وسبب نتنها كثرة سمكها ودماء الابل التى ينحرونها فى الازقة ولما وصلنا اليها اخترنا المبيت بالبحر على شدة هوله ولم نبت بها لقذرها ثم سافرنا منها فى البحر خمس عشرة ليلة و وصلنا مقدشو (وضبط اسمها بفتح الميم واسكان القاف وفتح الدال المهمل والشين المعجم واسكان الواو) وهى مدينة متناهية فى الكبر وأهلها لهم جمال كثيرة ينحرون منها المئين فى كل يوم ولهم أغنام كثيرة وأهلها تجار اقوياء وبها تصنع الثياب المنسوبة اليها التى لا نظير لها ومنها تحمل الى ديار مصر وغيرها ومن عادة أهل هذه المدينة انه متى وصل مركب الى المرسى تصعد الصنابق وهى القوارب الصغار اليه ويكون فى كل صنبوق جماعة من شبان اهلها فيأتى كل واحد منهم بطبق مغطى فيه الطعام فيقدمه لتاجر من تجار المركب ويقول هذا نزيلى وكذلك يفعل كل واحد منهم ولا ينزل التاجر من المركب الا الى دار نزيله من هؤلاء الشبان الا من كان كثير التردد الى البلد وحصلت له معرفة أهله فانه ينزل حيث شاء فاذا نزل عند نزيله باع له ما عنده واشترى له ومن اشترى منه ببخس أو باع منه بغير حضور نزيله فذلك البيع مردود عندهم ولهم منفعة فى ذلك ولما صعد الشبان الى المركب الذى كنت فيه جاء الى بعضهم فقال له أصحابى ليس هذا بتاجر

وانما

وانما هو فقيه فصاح باصحابه وقال لهم هذا نزيل القاضي وكان فيهم أحد أصحاب القاضي فعرفه بذلك فأتى الى ساحل البحر في جملة من الطلبة وبعث الى أحدهم فنزلت انا وأصحابي وسلمت على القاضي وأصحابه وقال لي بسم الله نتوجه للسلام على الشيخ فقلت ومن الشيخ فقال السلطان وعادتهم ان يقولوا للسلطان الشيخ فقلت له اذا نزلت توجهت اليه فقال لي ان العادة اذا جاء الفقيه او الشريف او الرجل الصالح لا ينزل حتى يرى السلطان فذهبت معهم اليه كما طلبوا

(ذكر سلطان مقدشو)

وسلطان مقدشو كما ذكرناه انما يقولون له الشيخ واسمه أبو بكر بن الشيخ عمر وهو في الاصل من البربرة وكلامه بالمقدشي ويعرف اللسان العربي ومن عوايده انه متى وصل مركب يصعد اليه صنبوق السلطان فيسأل عن المركب من أين قدم ومن صاحبه ومن ربانه وهو الرئيس وما وسقه ومن قدم فيه من التجار وغيرهم فيعرف بذلك كله ويعرض على السلطان فمن استحق ان ينزله عنده أنزله ولما وصلت مع القاضي المذكور وهو يعرف بابن البرهان المصري الاصل الى دار السلطان خرج بعض الفتيان فسلم على القاضي فقال له بلغ الامانة وعرف مولانا الشيخ ان هذا الرجل قد وصل من أرض الحجاز فبلغ ثم عاد وأتى بطبق فيه أوراق التنبول والفوفل فأعطاني عشرة أوراق مع قليل من الفوفل وأعطى للقاضي كذلك وأعطى لاصحابي ولطلبة القاضي ما بقي في الطبق وجاء بقمقم من ماء الورد الدمشقي فسكب علي وعلى القاضي وقال ان مولانا أمر أن ينزل بدار الطلبة وهي دار معدة لضيافة الطلبة فأخذ القاضي بيدي وجئنا الى تلك الدار وهي بقربة من دار الشيخ مفروشة مرتبة بما تحتاج اليه ثم أتى بالطعام من دار الشيخ ومعه أحد وزرائه وهو الموكل بالضيوف فقال مولانا يسلم عليكم ويقول لكم قدمتم خير مقدم ثم وضع الطعام فأكلنا وطعامهم الارز المطبوخ بالسمن يجعلونه في صحفة خشب كبيرة ويجعلون فوقه صحاف الكوشان وهو الادام من الدجاج واللحم والحوت والبقول ويطبخون الموز قبل نضجه في اللبن الحليب ويجعلونه في صحفة ويجعلون اللبن المريب في صحفة ويجعلون عليه الليمون المصبر وعناقيد الفلفل المصبر المخلل والمملوح والزنجبيل الاخضر والعنبا وهي مثل التفاح ولكن لها نواة وهي اذا نضجت شديدة الحلاوة وتؤكل كالفاكهة وقبل نضجها حامضة كالليمون يصبر ونها في الخل وهم اذا أكلوا اللقمة من الارز أكلوا بعدها من هذه الموالح والمخللات والواحد من أهل مقدشو يأكل قدر ما تأكله الجماعة منا عادة لهم وهم في نهاية من ضخامة الجسوم وسمنها ثم لما طعمنا انصرف عنا القاضي وأقمنا ثلاثة أيام يؤتى الينا بالطعام ثلاث مرات في اليوم وتلك عادتهم فلما كان في اليوم الرابع

وهو يوم الجمعة جاءني القاضي والطلبة وأحد وزراء الشيخ وأتوني بكسوة وكسوتهم فوطة خز يشدها الانسان في وسطه عوض السراويل فانهم لا يعرفونها ودراعة من المقطع المصري معلمة وفرجية من القدسي مبطنة وعمامة مصرية معلمة واتوا الاصحابي بكسى تناسبهم واتينا الجامع فصلينا خلف المقصورة فلما خرج الشيخ من باب المقصورة سلمت عليه مع القاضي فرحب وتكلم بلسانهم مع القاضي ثم قال باللسان العربي قدمت خير مقدم وشرفت بلادنا وآنستنا وخرج الى صحن المسجد فوقف على قبر والده وهو مدفون هنالك فقرأ ودعا ثم جاء الوزراء والامراء ووجوه الاجناد فسلموا وعادتهم في السلام كعادة اهل اليمن يضع سبابته في الارض ثم يجعلها على رأسه ويقول أدام الله عزك ثم خرج الشيخ من باب المسجد فلبس نعليه وأمر القاضي أن ينتعل وأمرني أن أنتعل وتوجه الى منزله ماشيا وهو بالقرب من المسجد ومشى الناس كلهم حفاة ورفعت فوق رأسه اربع قباب من الحرير الملون وعلى أعلى كل قبة صورة طائر من ذهب وكان لباسه في ذلك اليوم فرجية قدسي اخضر وتحتها من ثياب مصر وطروحاتها الحسان وهو متقلد بفوطة حرير معتم بعمامة كبيرة وضربت بين يديه الطبول والابواق والانفار وأمراء الاجناد امامه وخلفه والقاضي والفقهاء والشرفاء معه ودخل الى مشوره على تلك الهيئة وقعد الوزراء والامراء ووجوه الاجناد في سقيفة هنالك وفرش للقاضي بساط لا يجلس معه غيره عليه والفقهاء والشرفاء معه ولم يزالوا كذلك الى صلاة العصر فلما صلوا العصر مع الشيخ أتى جميع الاجناد ووقفوا صفوفا على قدر مراتبهم ثم ضربت الاطبال والانفار والابواق والصرنايات وعند ضربها لا يتحرك احد ولا يتزحزح عن مقامه ومن كان ماشيا وقف فلم يتحرك الى خلف ولا الى امام فاذا فرغ من ضرب الطبلخانة سلموا باصابعهم كما ذكرناه وانصرفوا وتلك عادة لهم في كل يوم جمعة واذا كان يوم السبت يأتي الناس الى باب الشيخ فيقعدون في سقائف خارج الدار ويدخل القاضي والفقهاء والشرفاء والصالحون والمشايخ والحجاج الى المشور الثاني فيقعدون على دكاكين خشب معدة لذلك ويكون القاضي على دكانة وحده وكل صنف على دكانة تخصهم لا يشاركهم فيها سواهم ثم يجلس الشيخ بمجلسه ويبعث الى القاضي فيجلس عن يساره ثم يدخل الفقهاء فيقعد كبراؤهم بين يديه وسائرهم يسلمون وينصرفون ثم يدخل الشرفاء فيقعد كبراؤهم بين يديه ويسلم سائرهم وينصرفون وان كانوا ضيوفا جلسوا عن يمينه ثم يدخل المشايخ والحجاج فيجلس كبراؤهم ويسلم سائرهم وينصرفون ثم يدخل الوزراء ثم الامراء ثم وجوه الاجناد طائفة بعد طائفة أخرى فيسلمون وينصرفون ويؤتى بالطعام فيأكل بين يدي الشيخ القاضي والشرفاء ومن كان قاعدا بالمجلس ويأكل الشيخ معهم وان أراد تشريف أحد من كبار امرائه بعث اليه

فأكل

فأكل معهم وبأكل سائر الناس بدار الطعام وأكلهم على ترتيبهم مثل ترتيبهم فى الدخول على الشيخ ثم يدخل الشيخ الى داره ويقعد القاضى والوزراء وكاتب السر وأربعة من كبار الامراء للفصل بين الناس وأهل الشكايات فما كان متعلقا بالاحكام الشرعية حكم فيه القاضى وما كان من سوى ذلك حكم فيه أهل الشورى وهم الوزراء والامراء وما كان مفتقرا الى مشاورة السلطان كتبوا اليه فيه فيخرج لهم الجواب من حينه على ظهر البطاقة بما يقتضيه نظره وتلك عادتهم دائما ثم ركبت البحر من مدينة مقدشو متوجها الى بلاد السواحل قاصدا مدينة كلوا من بلاد الزنوج فوصلنا الى جزيرة منبسى (وضبط اسمها ميم مفتوح ونون مسكن وباء موحدة مفتوحة وسين مهمل مفتوح وياء) وهى جزيرة كبيرة بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين فى البحر ولا بر لها واشجارها الموز والليمون والاترج ولهم فاكهة يسمونها الجمون وهى شبه الزيتون ولها نوى كنواه الا انها شديدة الحلاوة ولا زرع عند أهل هذه الجزيرة وانما يجلب اليهم من السواحل وأكثر طعامهم الموز والسمك وهم شافعية المذهب اهل دين وعفاف وصلاح ومساجدهم من الخشب محكمة الاتقان وعلى كل باب من أبواب المساجد البئر والثنتان وعمق آبارهم ذراع أو ذراعان فيستقون منها الماء بقدح خشب قد غرز فيه عود رقيق فى طول الذراع والارض حول البئر والمسجد مسطحة فمن أراد دخول المسجد غسل رجليه ودخل ويكون على بابه قطعة حصير غليظ يمسح بها رجليه ومن أراد الوضوء أمسك القدح بين فخذيه وصب على يديه وتوضأ وجميع الناس يمشون حفاة الاقدام وبتنا بهذه الجزيرة ليلة وركبنا البحر الى مدينة كلوا (وضبط اسمها بضم الكاف واسكان اللام وفتح الواو) وهى مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها الزنوج المستحكمو السواد ولهم شرطات فى وجوههم كما هى فى وجوه الليميين من جنادة وذكر لى بعض التجار ان مدينة سفالة على مسيرة نصف شهر من مدينة كلوا وان بين سفالة ويوفى من بلاد الليميين مسيرة شهر ومن يوفى يؤتى بالتبر الى سفالة ومدينة كلوا من أحسن المدن وأتقنها عمارة وكلها بالخشب وسقف بيوتها الديس والامطار بها كثيرة وهم أهل جهاد لانهم فى بر واحد متصل مع كفار الزنوج والغالب عليهم الدين والصلاح وهم شافعية المذهب

(ذكر سلطان كلوا)

وكان سلطانها فى عهد دخولى اليها أبو المظفر حسن ويكنى ايضا أبا المواهب لكثرة مواهبه ومكارمه وكان كثير الغزو الى أرض الزنوج يغير عليهم ويأخذ الغنائم فيخرج خمسها ويصرفه فى مصارفه المعينة فى كتاب الله تعالى ويجعل نصيب ذوى القربى فى خزانة على حدة فاذا جاءه الشرفاء دفعه اليهم وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها ورأيت عنده

من شرفاء الحجاز جماعة منهم محمد بن جماز ومنصور بن لبيدة بن أبي نمى ومحمد بن شميلة بن ابى نمى ولقيت بمقدشوا تبل بن كبيش بن جماز وهو يريد القدوم عليه وهذا السلطان له تواضع شديد ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم ويعظم أهل الدين والشرف

(حكاية من مكارمه)

حضرته يوم جمعة وقد خرج من الصلاة قاصدا الى داره فتعرض له احد الفقراء اليمنيين فقال له يا ابا المواهب فقال لبيك يا فقير حاجتك قال اعطنى هذه الثياب التى عليك فقال له نعم اعطيكها قال الساعة قال نعم الساعة فرجع الى المسجد ودخل بيت الخطيب فلبس ثيابا سواها وخلع تلك الثياب وقال للفقير ادخل فخذها فدخل الفقير وأخذها وربطها فى منديل وجعلها فوق رأسه وانصرف فعظم شكر الناس للسلطان على ما ظهر من تواضعه وكرمه وأخذ ابنه وولى عهده تلك الكسوة من الفقير وعوضه عنها بعشرة من العبيد وبلغ السلطان ما كان من شكر الناس له على ذلك فامر للفقير أيضا بعشرة رؤس من الرقيق وحملين من العاج ومعظم عطاياهم العاج وقلما يعطون الذهب ولما توفى هذا السلطان الفاضل الكريم رحمة الله عليه ولى اخوه داود فكان على الضد من ذلك اذا أتاه سائل يقول له مات الذى كان يعطى ولم يترك من بعده ما يعطى ويقيم الوفود عنده الشهور الكثيرة وحينئذ يعطيهم القليل حتى انقطع الوافدون عن بابه وركبنا البحر من كلوا الى مدينة ظفار الحموض (وضبط اسمها بفتح الظاء المعجم والفاء وآخره راء مبنية على الكسر) وهى آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندى ومنها تحمل الخيل العتاق الى الهند ويقطع البحر فيما بينها وبين بلاد الهند مع مساعدة الريح فى شهر كامل وقد قطعته مرة من قالقوط من بلاد الهند الى ظفار فى ثمانية وعشرين يوما بالريح الطيبة لم ينقطع لنا جرى بالليل ولا بالنهار وبين ظفار وعدن فى البر مسيرة شهر فى صحراء وبينها وبين حضرموت ستة عشر يوما وبينها وبين عمان عشرون يوما ومدينة ظفار فى صحراء منقطعة لا قرية بها ولا عمالة لها والسوق خارج المدينة بربض يعرف بالحرجاء وهى من أقذر الاسواق وأشدها نتنا وأكثرها ذبابا لكثرة ما يباع بها من الثمرات والسمك وأكثر سمكها النوع المعروف بالسردين وهو بها فى النهاية من السمن ومن العجائب ان دوابهم انما علفها من هذا السردين وكذلك غنمهم ولم أر ذلك فى سواها وأكثر باعتها الخدم وهن يلبسن السواد وزرع أهلها الذره وهم يسقونها من آبار بعيدة الماء وكيفية سقيهم انهم يصنعون دلوا كبيرة ويجعلون لها حبالا كثيرة ويتحزم بكل حبل عبد أو خادم ويجرون الدلو على عود كبير مرتفع عن البئر ويصبونها فى صهريج يسقون منه ولهم قمح يسمونه العلس وهو فى الحقيقة نوع من السلت والارز يجلب اليهم من بلاد الهند وهو أكثر طعامهم ودراهم

هذه

هذه المدينة من النحاس والقصدير ولا تنفق فى سواها وهم أهل تجارة لا عيش لهم الا منها ومن
عادتهم انه اذا وصل مركب من بلاد الهند أو غيرها خرج عبيد السلطان الى الساحل
وصعدوا فى صنبوق الى المركب ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب أو وكيله وللربان
وهو الرئيس وللكرانى وهو كاتب المركب و يؤتى اليهم بثلاثة أفراس فيركبونها وتضرب
امامهم الاطبال والابواق من ساحل البحر الى دار السلطان فيسلمون على الوزير وأمير جندار
وتبعث الضيافة لكل من بالمركب ثلاثا وبعد الثلاث يأكلون بدار السلطان وهم يفعلون ذلك
استجلابا لاصحاب المراكب وهم أهل تواضع وحسن اخلاق وفضيلة ومحبة للغرباء ولباسهم
القطن وهو يجلب اليهم من بلاد الهند ويشدون الفوط فى أوساطهم عوض السروال
وأكثرهم يشد فوطة فى وسطه ويجعل فوق ظهره أخرى من شدة الحر ويغتسلون مرات فى
اليوم وهى كثيرة المساجد ولهم فى كل مسجد مطاهر كثيرة معدة للاغتسال ويصنع بها ثياب
من الحرير والقطن والكتان حسان جدا والغالب على أهلها رجالا ونساء المرض المعروف
بداء الفيل وهو انتفاخ القدمين وأكثر رجالهم مبتلون بالادر والعياذ بالله ومن عوائدهم
الحسنة التصافح فى المسجد أثر صلاة الصبح والعصر يستند اهل الصف الاول الى القبلة
ويصافحهم الذين يلونهم وكذلك يفعلون بعد صلاة الجمعة يتصافحون اجمعون ومن خواص
هذه المدينة وعجائبها انه لا يقصدها أحد بسوء الا عاد عليه مكره وحيل بينه وبينها وذكر لى ان
السلطان قطب الدين تمهتن بن طوران شاه صاحب هرمز نازلها مرة فى البر والبحر فأرسل
الله سبحانه عليه ريحا عاصفا كسرت مراكبه ورجع عن حصارها وصالح ملكها وكذلك
ذكر لى ان الملك المجاهد سلطان اليمن عين ابن عم له بعسكر كبير برسم انتزاعها من يد ملكها
وهو أيضا ابن عمه فلما خرج ذلك الامير عن داره سقط عليه حائط وعلى جماعة من أصحابه
فهلكوا جميعا ورجع الملك عن رأيه وترك حصارها وطلبها ومن الغرائب ان أهل هذه المدينة
أشبه الناس بأهل المغرب فى شؤونهم نزلت بدار الخطيب بمسجدها الاعظم وهو عيسى بن
على كبير القدر كريم النفس فكان له جوار مسميات بأسماء خدم المغرب احداهن اسمها بخيته
والاخرى زاد المال ولم أسمع هذه الاسماء فى بلد سواها وأكثر أهلها رؤسهم مكشوفة لا يجعلون
عليها العمائم وفى كل دار من دورهم سجادة الخوص معلقة فى البيت يصلى عليها صاحب
البيت كما يفعل أهل المغرب واكلهم الذرة وهذا التشابه كله مما يقوى القول بأن صنهاجة وسواهم
من قبائل المغرب اصلهم من حمير ويقرب من هذه المدينة بين بساتينها زاوية الشيخ الصالح
العابد أبى محمد بن ابى بكر بن عيسى من أهل ظفار وهذه الزاوية معظمة عندهم يأتون اليها
غدوا وعشيا ويستجيرون بها فاذا دخلها المستجير لم يقدر السلطان عليه رأيت بها شخصا

ذكر لى ان له بها مدة سنين مستجيرا لم يتعرض له السلطان وفى الايام التى كنت بها استجار بها كاتب السلطان وأقام فيها حتى وقع بينهم الصلح أتيت هذه الزاوية فبت بها فى ضيافة الشيخين أبى العباس أحمد وأبى عبد الله محمد ابنى الشيخ أبى بكر المذكور وشاهدت لهما فضلا عظيما ولما غسلنا أيدينا من الطعام أخذ أبو العباس منهما ذلك الماء الذى غسلنا به فشرب منه وبعث الخادم بباقيه الى أهله وأولاده فشربوه وكذلك يفعلون بمن يتوسمون فيه الخير من الواردين عليهم وكذلك أضافنى قاضيها الصالح أبو هاشم عبد الملك الزبيدى وكان يتولى خدمتى وغسل يدى بنفسه ولا يكل ذلك الى غيره وبقربة من هذه الزاوية تربة سلف السلطان الملك المغيث وهى معظمة عندهم ويستجير بها من طلب حاجة فتقضى له ومن عادة الجند انه اذا تم الشهر ولم يأخذوا أرزاقهم استجاروا بهذه التربة وأقاموا فى جوارها الى ان يعطوا أرزاقهم وعلى مسيرة نصف يوم من هذه المدينة الاحقاف وهى منازل عاد وهنالك زاوية ومسجد على ساحل البحر وحوله قرية لصيادى السمك وفى الزاوية قبر مكتوب عليه هذا قبر هود بن عابر عليه أفضل الصلاة والسلام وقد ذكرت ان بمسجد دمشق موضعا عليه مكتوب هذا قبر هود ابن عابر والاشبه أن يكون قبره بالاحقاف لانها بلاده والله أعلم ولهذه المدينة بساتين فيها موز كثير كبير الجرم وزنت بحضرى حبة منه فكان وزنها اثنتى عشرة أوقية وهو طيب المطعم شديد الحلاوة وبها أيضا التنبول والنارجيل المعروف بجوز الهند ولا يكونان الا ببلاد الهند وبمدينة ظفار هذه لشبهها بالهند وقربها منها اللهم الا أن فى مدينة زبيد فى بستان السلطان شجيرات من النارجيل واذ قد وقع ذكر التنبول والنارجيل فلنذكرهما ولنذكر خصائصهما

(ذكر التنبول)

والتنبول شجر يغرس كما تغرس دوالى العنب ويصنع له معرشات من القصب كما يصنع لدوالى العنب أو يغرس فى مجاورة شجر النارجيل فيصعد فيها كما تصعد الدوالى وكما يصعد الفلفل ولا ثمر للتنبول وانما المقصود منه ورقه وهو يشبه ورق العليق وأطيبه الاصفر وتجتنى اوراقه فى كل يوم وأهل الهند يعظمون التنبول تعظيما شديدا واذا أتى الرجل دار صاحبه فأعطاه خمس ورقات منه فكأنما أعطاه الدنيا وما فيها لاسيما ان كان أميرا أو كبيرا واعطاؤه عندهم اعظم شأنا وأدل على الكرامة من اعطاء الفضة والذهب وكيفية استعماله ان يؤخذ قبله الفوفل وهو شبه جوز الطيب فيكسر حتى يصير أطرافا صغارا ويجعله الانسان فى فمه ويعلكه ثم يأخذ ورق التنبول فيجعل عليها شيأ من النورة ويمضغها مع الفوفل وخاصيته انه يطيب النكهة ويذهب بروائح الفم ويهضم الطعام ويقطع ضرر شرب الماء على الريق ويفرح

أكله

أكله ويعين على الجماع ويجعله الانسان عند رأسه ليلا فاذا استيقظ من نومه أو أيقظته زوجته أو جاريته أخذ منه فيذهب بما فى فمه من رائحة كريهة ولقد ذكر لى ان جوارى السلطان والامراء ببلاد الهند لا يأكلن غيره وسنذكره عند ذكر بلاد الهند

(ذكر النارجيل)

وهو جوز الهند وهذا الشجر من أغرب الاشجار شأنا وأعجبها أمرا وشجره شبه شجر النخل لا فرق بينهما الا ان هذه تثمر جوزا وتلك تثمر تمرا وجوزها يشبه رأس ابن آدم لان فيها شبه العينين والفم وداخلها شبه الدماغ اذا كانت خضراء وعليها ليف شبه الشعر وهم يصنعون منه حبالا يخيطون بها المراكب عوضا من مسامير الحديد ويصنعون منه الحبال للمراكب والجوزة منها وخصوصا التى بجزائر ذيبة المهل تكون بمقدار رأس الآدمى ويزعمون ان حكيما من حكماء الهند فى غابر الزمان كان متصلا بملك من الملوك ومعظما لديه وكان للملك وزير بينه وبين هذا الحكيم معاداة فقال الحكيم للملك ان رأس هذا الوزير اذا قطع ودفن تخرج منه نخلة تثمر بثمر عظيم يعود نفعه على أهل الهند وسواهم من أهل الدنيا فقال له الملك فان لم يظهر من رأس الوزير ما ذكرته قال ان لم يظهر فاصنع برأسى كما صنعت برأسه فأمر الملك برأس الوزير فقطع وأخذه الحكيم وغرس نواة تمر فى دماغه وعالجها حتى صارت شجرة وأثمرت بهذا الجوز وهذه الحكاية من الاكاذيب ولكن ذكرناها لشهرتها عندهم ومن خواص هذا الجوز تقوية البدن واسراع السمن والزيادة فى حمرة الوجه وأما الاعانة على الباءة ففعله فيها عجيب ومن عجائبه انه يكون فى ابتداء أمره أخضر فمن قطع بالسكين قطعة من قشره وفتح رأس الجوزة شرب منها ماء فى النهاية من الحلاوة والبرودة ومزاجه حار معين على الباءة فاذا شرب ذلك الماء أخذ قطعة القشرة وجعلها شبه الملعقة وجرد بها ما فى داخل الجوزة من الطعم فيكون طعمه كطعم البيضة اذا شويت ولم يتم نضجها كل التمام ويتغذى به ومنه كان غذائى أيام اقامتى بجزائر ذيبة المهل مدة من عام ونصف عام ومن عجائبه انه يصنع منه الزيت والحليب والعسل فأما كيفية صناعة العسل منه فان خدام النخل منه ويسمون الفازانية يصعدون الى النخلة غدوا وعشيا اذا أرادوا أخذ مائها الذى يصنعون منه العسل وهم يسمونه الاطواق فيقطعون العذق الذى يخرج منه الثمر ويتركون منه مقدار أصبعين ويربطون عليه قدرا صغيرة فيقطر فيها الماء الذى يسيل من العذق فاذا ربطها غدوة صعد اليها عشيا ومعه قدحان من قشر الجوز المذكور أحدهما مملوء ماء فيصب ما اجتمع من ماء العذق فى أحد القدحين ويغسله بالماء الذى فى القدح الآخر وينجر من العذق قليلا ويربط عليه القدر ثانية ثم يفعل غدوة كفعله عشيا فاذا اجتمع له الكثير من ذلك الماء طبخه كما يطبخ ماء العنب اذا صنع منه

الرب فيصير عسلا عظيم النفع طيبا فيشتريه تجار الهند واليمن والصين ويحملونه الى بلادهم ويصنعون منه الحلواء وأما كيفية صنع الحليب منه فان بكل دار شبه الكرسي تجلس فوقه المرأة ويكون بيدها عصى في أحد طرفيها حديدة مشرفة فيفتحون في الجوزة مقدار ماتدخل تلك الحديدة ويجرشون مافي باطن الجوزة وكل ماينزل منها يجتمع في صحفة حتى لايبقى في داخل الجوزة شيء ثم يمرس ذلك الجريش بالماء فيصير كلون الحليب بياضا ويكون طعمه كطعم الحليب ويأتدم به الناس وأما كيفية صنع الزيت فانهم يأخذون الجوز بعد نضجه وسقوطه عن شجره فيزيلون قشره ويقطعونه قطعا ويجعل في الشمس فاذا ذبل طبخوه في القدور واستخرجوا زيته وبه يستصبحون ويأتدمون به ويجعله النساء في شعورهن وهو عظيم النفع

(ذكر سلطان ظفار)

وهو السلطان الملك المغيث ابن الملك الفائز ابن عم ملك اليمن وكان أبوه أميرا على ظفار من قبل صاحب اليمن وله عليه هدية يبعثها له في كل سنة ثم استبد الملك المغيث بملكها وامتنع من ارسال الهدية وكان من عزم ملك اليمن على محاربته وتعيين ابن عمه لذلك ووقوع الحائط عليه ماذكرناه آنفا وللسلطان قصر بداخل المدينة يسمى الحصن عظيم فسيح والجامع بازائه ومن عادته ان تضرب الطبول والبوقات والانفار والصرنايات على بابه كل يوم بعد صلاة العصر وفي كل يوم اثنين وخميس تأتي العساكر الى بابه فيقفون خارج المشور ساعة وينصرفون والسلطان لايخرج ولا يراه أحد الا في يوم الجمعة فيخرج للصلاة ثم يعود الى داره ولا يمنع أحدا من دخول المشور وأمير جندار قاعد على بابه واليه ينتهي كل صاحب حاجة أو شكاية وهو يطالع السلطان ويأتيه الجواب للحين واذا أراد السلطان الركوب خرجت مراكبه من القصر وسلاحه ومماليكه الى خارج المدينة وأتي بجمل عليه محمل مستور بستر أبيض منقوش بالذهب فيركب السلطان ونديمه في المحمل بحيث لا يرى واذا خرج الى بستانه وأحب ركوب الفرس ركبه ونزل عن الجمل وعادته ان لايعارضه أحد في طريقه ولا يقف لرؤيته ولا لشكاية ولا غيرها ومن تعرض لذلك ضرب أشد الضرب فتجد الناس اذا سمعوا بخروج السلطان فروا عن الطريق وتحاموها ووزير هذا السلطان الفقيه محمد العدني وكان معلم صبيان فعلم هذا السلطان القراءة والكتابة وعاهده على أن يستوزره ان ملك فلما ملك استوزره فلم يكن يحسنها فكان الاسم له والحكم لغيره ومن هذه المدينة ركبنا البحر نريد عمان في مركب صغير لرجل يعرف بعلي بن ادريس المصيري من أهل جزيرة مصيرة وفي الثاني لركوبنا نزلنا بمرسى حاسك وبه ناس من العرب صيادون للسمك ساكنون هنالك وعندهم شجر الكندر وهو رقيق الورق واذا شرطت الورقة منه قطر منها ماء شبه اللبن ثم عاد صمغا

وذلك الصمغ هو اللبان وهو كثير جداً هنالك ولا معيشة لاهل ذلك المرسى الا من صيد السمك وسمكهم يعرف باللخم (بخاء معجم مفتوح) وهو شبيه كلب البحر يشرح ويقدد ويقتات به وبيوتهم من عظام السمك وسقفها من جلود الجمال وسرنا من مرسى حاسك أربعة أيام ووصلنا الى جبل لمعان (بضم اللام) وهو في وسط البحر وبأعلاه رابطة مبنية بالحجارة وسقفها من عظام السمك وبخارجها غدير ماء يجتمع من المطر

(ذكر ولي لقيناه بهذا الجبل)

ولما أرسينا تحت هذا الجبل صعدناه الى هذه الرابطة فوجدنا بها شيخاً نائماً فسلمنا عليه فاستيقظ وأشار برد السلام فكلمناه فلم يكلمنا وكان يحرك رأسه فأتاه أهل المركب بطعام فأبى أن يقبله فطلبنا منه الدعاء فكان يحرك شفتيه ولا نعلم ما يقول وعليه مرقعة وقلنسوة لبد وليس معه ركوة ولا ابريق ولا عكاز ولا نعل وقال أهل المركب انهم ما رأوه قط بهذا الجبل وأقمنا تلك الليلة بساحل هذا الجبل وصلينا معه العصر والمغرب وجئناه بطعام فرده وأقام يصلي الى العشاء الآخرة ثم أذن وصليناها معه وكان حسن الصوت بالقراءة مجيداً لها ولما فرغ من صلاة العشاء الآخرة أومأ الينا بالانصراف فودعناه وانصرفنا ونحن نعجب من أمره ثم اني أردت الرجوع اليه لما انصرفنا فلما دنوت منه هبته وغلب علي الخوف ورجعت الى أصحابي فانصرفت معهم وركبنا البحر ووصلنا بعد يومين الى جزيرة الطير وليست بها عمارة فأرسينا وصعدنا اليها فوجدناها ملآنة بطيور تشبه الشقاشق الا أنها أعظم منها وجاءت الناس ببيض تلك الطيور فطبخوها وأكلوها واصطادوا جملة من تلك الطيور فطبخوها دون ذكاة وأكلوها وكان يجالسني تاجر من أهل جزيرة مصيرة ساكن بظفار اسمه مسلم فرأيته يأكل معهم تلك الطيور فأنكرت ذلك عليه فاشتد خجله وقال لي ظننت انهم ذبحوها وانقطع عني بعد ذلك من الخجل فكان لا يقربني حتى أدعوه وكان طعامي في تلك الايام بذلك المركب التمر والسمك وكانوا يصطادون بالغدو والعشي سمكاً يسمى بالفارسية شير ماهي ومعناه أسد السمك لان شير هو الاسد وماهي السمك وهو يشبه الحوت المسمى عندنا بتازرت وهم يقطعونه قطعاً ويشوونه ويعطون كل من في المركب قطعة لا يفضلون أحداً على أحد ولا صاحب المركب ولا سواه ويأكلونه بالتمر وكان عندي خبز وكعك استصحبتهما من ظفار فلما نفدا كنت أقتات من تلك السمك في جملتهم وعيدنا عيد الاضحى على ظهر البحر وهبت علينا في يومه ريح عاصف بعد طلوع الفجر ودامت الى طلوع الشمس وكادت تغرقنا

(كرامة)

وكان معنا في المركب حاج من أهل الهند يسمى بخضر ويدعى بمولانا لانه يحفظ القرآن ويحسن

الكتابة فلما رأى هول البحر لف رأسه بعباءة كانت له وتناوم فلما فرج الله ما نزل بنا قلت له يا مولانا خضر كيف رأيت قال قد كنت عند الهول أفتح عيني أنظر هل أرى الملائكة الذين يقبضون الارواح جاؤا فلا أراهم فأقول الحمد لله لو كان الغرق لأتوا لقبض الارواح ثم أغلق عيني ثم أفتحها فانظر كذلك الى أن فرج الله عنا وكان قد تقدمنا مركب لبعض التجار فغرق ولم ينج منه الا رجل واحد خرج عوما بعد جهد شديد وأكلت فى ذلك المركب نوعا من الطعام لم آكله قبله ولا بعده صنعه بعض تجار عمان وهو من الذرة طبخها من غير طحن وصب عليها السيلان وهو عسل التمر وأكلناه ثم وصلنا الى جزيرة مصيرة التى منها صاحب المركب الذى كنا فيه وهى على لفظ مصير وزيادة تاء التأنيث جزيرة كبيرة لا عيش لاهلها الا من السمك ولم ننزل اليها لبعد مرساها عن الساحل وكنت قد كرهتهم لما رأيتهم يأكلون الطير من غير ذكاة وأقمنا بها يوما وتوجه صاحب المركب فيه الى داره وعاد الينا ثم سرنا يوما وليلة فوصلنا الى مرسى قرية كبيرة على ساحل البحر تعرف بصور ورأينا منها مدينة قلهات فى سفح جبل فخيل لنا انها قريبة وكان وصولنا الى المرسى وقت الزوال أو قبله فلما ظهرت لنا المدينة أحببت المشى اليها والمبيت بها وكنت قد كرهت صحبة أهل المركب فسألت عن طريقها فأخبرت انى أصل اليها عند العصر فاكتريت أحد البحريين ليدلنى عن طريقها وصحبنى خضر الهندى الذى تقدم ذكره وتركت أصحابى مع ما كان لى بالمركب ليلحقوا بى فى غد ذلك اليوم وأخذت أثوابا كانت لى فدفعتها لذلك الدليل ليكفينى مؤنة حملها وحملت فى يدى رمحا فاذا ذلك الدليل يحب أن يستولى على أثوابى فأتى بنا الى خليج يخرج من البحر فيه المد والجزر فأراد عبوره بالثياب فقلت له انما تعبر وحدك وتترك الثياب عندنا فان قدرنا على الجواز جزنا والا صعدنا نطلب المجاز فرجع ثم رأينا رجالا جازوه عوما فتحققنا انه كان قصد ان يغرقنا ويذهب بالثياب فحينئذ اظهرت النشاط وأخذت بالحزم وشددت وسطى وكنت أهز الرمح فهابنى ذلك الدليل وصعدنا حتى وجدنا مجازا ثم خرجنا الى صحراء لا ماء بها وعطشنا واشتد بنا الامر فبعث الله لنا فارسا فى جماعة من أصحابه وبيد أحدهم ركوة ماء فسقانى وسقى صاحبى وذهبنا نحسب المدينة قريبة منا وبيننا وبينها خنادق نمشى فيها الاميال الكثيرة فلما كان العشى أراد الدليل أن يميل بنا الى ناحية البحر وهو لا طريق له لان ساحله حجارة فأراد أن تنشب فيها ويذهب بالثياب فقلت له انما نمشى على هذه الطريق التى نحن عليها وبينها وبين البحر نحو ميل فلما أظلم الليل قال لنا ان المدينة قريبة منا فتعالوا نمشى حتى نبيت بخارجها الى الصباح فخفت أن يتعرض لنا أحد فى طريقنا ولم أحقق مقدار ما بقى اليها فقلت له انما الحق أن نخرج عن الطريق فننام فاذا أصبحنا أتينا المدينة ان شاء الله وكنت قد رأيت جملة من

الرجال

الرجال فى سفح جبل هنالك فخفت أن يكونوا لصوصا وقلت التستر أولى وغلب العطش على صاحبى فلم يوافق على ذلك فخرجت عن الطريق وقصدت شجرة من شجر أم غيلان وقد أعييت وأدركنى الجهد لكنى أظهرت قوة وتجلدا خوف الدليل وأما صاحبى فمريض لا قوة له فجعلت الدليل بينى وبين صاحبى وجعلت الثياب بين ثوبى وجسدى وأمسكت الرمح بيدى ورقد صاحبى ورقد الدليل وبقيت ساهرا فكلما تحرك الدليل كلمته وأريته انى مستيقظ ولم نزل كذلك حتى أصبح فخرجنا الى الطريق فوجدنا الناس ذاهبين بالمرافق الى المدينة فبعثت الدليل ليأتينا بماء وأخذ صاحبى الثياب وكان بيننا وبين المدينة مهاو وخنادق فأتانا بالماء فشربنا وذلك أوان الحر ثم وصلنا الى مدينة قلهات (وضبط اسمها بفتح القاف واسكان اللام وآخره تاء مثناة) فأتيناها ونحن فى جهد عظيم وكنت قد ضاقت نعلى على رجلى حتى كاد الدم أن يخرج من تحت أظفارها فلما وصلنا باب المدينة كان ختام المشقة ان قال لنا الموكل بالباب لا بد لك أن تذهب معى الى أمير المدينة ليعرف قضيتك ومن أين قدمت فذهبت معه اليه فرأيته فاضلا حسن الاخلاق وسألنى عن حالى وأنزلنى وأقمت عنده ستة أيام لا قدرة لى فيها على النهوض على قدمى لما لحقهما من الآلام ومدينة قلهات على الساحل وهى حسنة الاسواق ولها مسجد من أحسن المساجد حيطانه بالقاشانى وهو شبه الزليج وهو مرتفع ينظر منه الى البحر والمرسى وهو من عمارة الصالحة بيبى مريم ومعنى بيبى عندهم الحرة وأكلت بهذه المدينة سمكا لم آكل مثله فى إقليم من الاقاليم وكنت أفضله على جميع اللحوم فلا آكل سواه وهم يشوونه على ورق الشجر ويجعلونه على الارز ويأكلونه والارز يجلب اليهم من ارض الهند وهم أهل تجارة ومعيشتهم مما يأتى اليهم فى البحر الهندى واذا وصل اليهم مركب فرحوا به أشد الفرح وكلامهم ليس بالفصيح مع انهم عرب وكل كلمة يتكلمون بها يصلونها بلا فيقولون مثلا تأكل لا تمشى لا تفعل كذا لا وأكثرهم خوارج لكنهم لا يقدرون على اظهار مذهبهم لانهم تحت طاعة السلطان قطب الدين تمهتن ملك هرمز وهو من أهل السنة وبقربة من قلهات قرية طيبى واسمها على نحو اسم الطيب اذا أضافه المتكلم لنفسه وهى من أجمل القرى وأبدعها حسنا ذات أنهار جارية وأشجار ناضرة وبساتين كثيرة ومنها تجلب الفواكه الى قلهات وبها الموز المعروف بالمروارى والمروارى بالفارسية هو الجوهرى (المروار الجوهر) وهو كثير بها ويجلب منها الى هرمز وسواها وبها أيضا التنبول لكن ورقته صغيرة والتمر يجلب الى هذه الجهات من عمان ثم قصدنا بلاد عمان فسرنا ستة أيام فى صحراء ثم وصلنا بلاد عمان فى اليوم السابع وهى خصبة ذات انهار واشجار وبساتين وحدائق نخل وفواكه كثيرة مختلفة الاجناس ووصلنا الى قاعدة هذه البلاد وهى مدينة

نزوا (وضبط اسمها بنون مفتوح وزاى مسكن و واو مفتوح) مدينة فى سفح جبل تحف بها البساتين والانهار ولها أسواق حسنة ومساجد معظمة نقية وعادة اهلها انهم يا كلون فى صحون المساجد يأتى كل انسان بما عنده ويجتمعون للا كل فى صحن المسجد ويأ كل معهم الوارد والصادر ولهم نجدة وشجاعة والحرب قائمة فيما بينهم أبدا وهم إباضية المذهب ويصلون الجمعة ظهرا أربعا فاذا فرغوا منها قرأ الامام آيات من القرآن ونثر كلاما شبه الخطبة يرضى فيه عن أبى بكر وعمر ويسكت عن عثمان وعلى وهم اذا أرادوا ذكر على رضى الله عنه كنوا عنه بالرجل فقالوا ذكر عن الرجل أو قال الرجل ويرضون عن الشقى اللعين ابن ملجم ويقولون فيه العبد الصالح قامع الفتنة ونساؤهم يكثرن الفساد ولا غيرة عندهم ولا انكار لذلك وسنذكر حكاية أثر هذا مما يشهد بذلك

(ذكر سلطان عمان)

وسلطانها عربى من قبيلة الازد بن الغوث ويعرف بأبى محمد بن نبهان وأبو محمد عندهم سمة لكل سلطان يلى عمان كما هى أتابك عند ملوك اللور وعادته ان يجلس خارج باب داره فى مجلس هنالك ولا حاجب له ولا وزير ولا يمنع أحد من الدخول اليه من غريب أو غيره ويكرم الضيف على عادة العرب ويعين له الضيافة ويعطيه على قدره وله اخلاق حسنة ويؤ كل على مائدته لحم الحمار الانسى ويباع بالسوق لانهم قائلون بتحليله ولكنهم يخفون ذلك عن الوارد عليهم ولا يظهرونه بحضره ومن مدن عمان مدينة زكى لم أدخلها وهى على ماذكر لى مدينة عظيمة ومنها القريات وشبا وكلبا وخورفكان وصحار وكلها ذات أنهار وحدائق وأشجار نخل وا كثر هذه البلاد فى عمالة هرمز

(حكاية)

كنت يوما عند هذا السلطان أبى محمد بن نبهان فأتته امرأة صغيرة السن حسنة الصورة بادية الوجه فوقفت بين يديه وقالت له يا أبا محمد طغى الشيطان فى رأسى فقال لها اذهبى واطردى الشيطان فقالت له لا أستطيع وأنا فى جوارك يا أبا محمد فقال لها اذهبى فافعلى ماشئت فذكر لى لما انصرفت عنه ان هذه ومن فعل مثل فعلها تكون فى جوار السلطان وتذهب للفساد ولا يقدر أبوها ولاذو قرابتها أن يغيروا عليها وان قتلوها قتلوا بها لانها فى جوار السلطان ثم سافرت من بلاد عمان الى بلاد هرمز وهرمز مدينة على ساحل البحر وتسمى أيضا موغ استان وتقابلها فى البحر هرمز الجديدة وبينهما فى البحر ثلاثة فراسخ ووصلنا الى هرمز الجديدة وهى جزيرة مدينتها تسمى جرون (بفتح الجيم والراء وآخرها نون) وهى مدينة حسنة كبيرة لها أسواق حافلة وهى مرسى الهند والسند ومنها تحمل سلع الهند الى العراقين وفارس وخراسان وبهذه

المدينة سكنى السلطان والجزيرة التى فيها المدينة مسيرة يوم وأكثرها سباخ وجبال ملح وهو الملح الدارانى ومنه يصنعون الاوانى للزينة والمنارات التى يضعون السرج عليها وطعامهم السمك والتمر المجلوب اليهم من البصرة وعمان ويقولون بلسانهم خرما وماهى لوت بادشاهى معناه بالعربى التمر والسمك طعام الملوك والماء فى هذه الجزيرة له قيمة وبها عيون ماء وصهاريج مصنوعة يجتمع فيها ماء المطر وهى على بعد من المدينة ويأتون اليها بالقرب فيملؤنها ويرفعونها على ظهورهم الى البحر يوسقونها فى القوارب ويأتون بها الى المدينة ورأيت من العجائب عند باب الجامع فيما بينه وبين السوق رأس سمكة كأنه رابية وعيناه كأنهما بابان فترى الناس يدخلون من احداهما ويخرجون من الاخرى ولقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح السائح ابا الحسن الاقصارانى واصله من بلاد الروم فأضافنى وزارنى والبسنى ثوبا واعطانى كمر الصحبة وهو يحتبى به فيعين الجالس فيكون كأنه مستند وأكثر فقراء العجم يتقلدونه وعلى ستة أميال من هذه المدينة مزار ينسب الى الخضر والياس عليهما السلام يذكر انهما يصليان فيه وظهرت له بركات وبراهين وهنالك زاوية يسكنها احد المشايخ يخدم بها الوارد والصادر واقمنا عنده يوما وقصدنا من هنالك زيارة رجل صالح منقطع فى آخر هذه الجزيرة قد نحت غارا لسكناه فيه زاوية ومجلس ودار صغيرة له فيها جارية وله عبيد خارج الغار يرعون بقرا له وغنما وكان هذا الرجل من كبار التجار فحج البيت وقطع العلائق وانقطع هنالك للعبادة ودفع ماله لرجل من اخوانه يتجر له به وبتنا عنده ليلة فاحسن القرى واجمل رضى الله تعالى عنه وسيمة الخير والعبادة لائحة عليه

(ذكر سلطان هرمز)

وهو السلطان قطب الدين تمهتن بن طوران شاه (وضبط اسمه بفتح التائين المعلوتين وبينهما ميم مفتوح وهاء مسكنة وآخره نون) وهو من كرماء السلاطين كثير التواضع حسن الاخلاق وعادته ان يأتى لزيارة كل من يقدم عليه من فقيه أو صالح أو شريف ويقوم بحقه ولما دخلنا جزيرته وجدناه متهيأ للحرب مشغولا بها مع ابنى أخيه نظام الدين فكان فى كل ليلة يتيسر للقتال والغلاء مستول على الجزيرة فأتى الينا وزيره شمس الدين محمد بن على وقاضيه عماد الدين الشونكارى وجماعة من الفضلاء فاعتذروا بما هم عليه من مباشرة الحرب وأقمنا عندهم ستة عشر يوما فلما أردنا الانصراف قلت لبعض الاصحاب كيف ننصرف ولا نرى هذا السلطان فجئنا دار الوزير وكانت فى جوار الزاوية التى نزلت بها فقلت له انى أريد السلام على الملك فقال بسم الله وأخذ بيدى فذهب بى الى داره وهى على ساحل البحر والاجفان مجلسة عندها فاذا شيخ عليه أقبية ضيقة دنسة وعلى رأسه عمامة وهو مشدود الوسط بمنديل

فسلم عليه الوزير وسلمت عليه ولم أعرف انه الملك وكان الى جانبه ابن أخته وهو على شاه بن جلال الدين الكيجي وكانت بيني وبينه معرفة فأنشأت أحادثه وأنا لا أعرف الملك فعرفني الوزير بذلك فخجلت منه لاقبالى بالحديث على ابن اخته دونه واعتذرت اليه ثم قام فدخل داره وتبعه الامراء والوزراء وأرباب الدولة ودخلت مع الوزير فوجدناه قاعدا على سرير ملكه وثيابه عليه لم يبدلها وفي يده سبحة جوهر لم تر العيون مثلها لان مغاصات الجوهر تحت حكمه فجلس أحد الامراء الى جانبه وجلست الى جانب ذلك الامير وسألني عن حالي ومقدمي وعمن لقيته من الملوك فأخبرته بذلك وحضر الطعام فأكل الحاضرون ولم يأكل معهم ثم قام فودعته وانصرفت وسبب الحرب التي بينه وبين ابني أخيه انه ركب البحر مرة من مدينته الجديدة برسم النزهة في هرمز القديمة وبساتينها وبينهما في البحر ثلاثة فراسخ كما قدمناه فخالف عليه أخوه نظام الدين ودعى لنفسه وبايعه أهل الجزيرة وبايعته العساكر فخاف قطب الدين على نفسه وركب البحر الى مدينة قلهات التي تقدم ذكرها وهي من جملة بلاده فأقام بها شهورا وجهز المراكب وأتى الجزيرة فقاتله أهلها مع أخيه وهزموه وعاد الى قلهات وفعل ذلك مرارا فلم تمكن له حيلة الا ان راسل بعض نساء أخيه فسمته ومات وأتى هو الى الجزيرة فدخلها وفر ابنا أخيه بالخزائن والاموال والعساكر الى جزيرة قيس حيث مغاص الجوهر وصاروا يقطعون الطريق على من يقصد الجزيرة من أهل الهند والسند ويغيرون على بلاده البحرية حتى تخرب معظمها ثم سافرنا من مدينة جرون برسم لقاء رجل صالح ببلد خنج بال فلما عدينا البحر اكترينا دواب من التركمان وهم سكان تلك البلاد ولا يسافر فيها الا معهم لشجاعتهم ومعرفتهم بالطرق وفيها صحراء مسيرة أربع يقطع بها الطريق لصوص الاعراب وتهب فيها ريح السموم في شهري تموز وحزيران فمن صادفته فيها قتلته ولقد ذكر لي ان الرجل اذا قتلته تلك الريح وأراد أصحابه غسله ينفصل كل عضو منه عن سائر الاعضاء وبها قبور كثيرة للذين ماتوا فيها بهذه الريح وكنا نسافر فيها بالليل فاذا طلعت الشمس نزلنا تحت ظلال الاشجار من أم غيلان ونرحل بعد العصر الى طلوع الشمس وفي هذه الصحراء وما والاها كان يقطع الطريق بها جمال اللك (اللوك) الشهير الاسم هنالك

(حكاية)

كان جمال اللك من أهل سجستان أعجمي الاصل (واللك بضم اللام) معناه الاقطع وكانت يده قطعت في بعض حروبه وكانت له جماعة كثيرة من فرسان الاعراب والاعاجم يقطع بهم الطرق وكان يبني الزوايا ويطعم الوارد والصادر من الاموال التي يسلبها من الناس ويقال انه كان يدعو ان لا يسلط الا على من لا يزكي ماله وأقام على ذلك دهرا وكان يغير هو وفرسانه

ويسلكون

ويسلكون برارى لا يعرفها سواهم ويدفنون بها قرب الماء ورايا فاذا تبعهم عسكر السلطان دخلوا الصحراء واستخرجوا المياه ويرجع العسكر عنهم خوفا من الهلاك وأقام على هذه الحالة مدة لا يقدر عليه ملك العراق ولا غيره ثم تاب وتعبد حتى مات وقبره يزار ببلاده وسلكنا هذه الصحراء الى أن وصلنا الى كوراستان (وضبط اسمه بفتح الكاف واسكان الواو وراء) وهو بلد صغير فيه الانهار والبساتين وهو شديد الحر ثم سرنا منه ثلاثة أيام فى صحراء مثل التى تقدمت ووصلنا الى مدينة لار (وآخر اسمها راء) مدينة كبيرة كثيرة العيون والمياه المطردة والبساتين ولها أسواق حسان ونزلنا منها بزاوية الشيخ العابد أبى دلف محمد وهو الذى قصدنا زيارته بخنج بال وبهذه الزاوية ولده أبو زيد عبد الرحمن ومعه جماعة من الفقراء ومن عادتهم انهم يجتمعون بالزاوية بعد صلاة العصر من كل يوم ثم يطوفون على دور المدينة فيعطاهم من كل دار الرغيف والرغيفان فيطعمون منها الوارد والصادر وأهل الدور قد ألفوا ذلك فهم يجعلونه فى جملة قوتهم ويعدونه لهم اعانة على اطعام الطعام وفى كل ليلة جمعة يجتمع بهذه الزاوية فقراء المدينة وصلحاؤها ويأتى كل منهم بما تيسر له من الدراهم فيجمعونها وينفقونها تلك الليلة ويبيتون فى عبادة من الصلاة والذكر والتلاوة وينصرفون بعد صلاة الصبح

(ذكر سلطان لار)

وبهذه المدينة سلطان يسمى بجلال الدين تركمانى الاصل بعث الينا بضيافة ولم نجتمع به ولا رأيناه ثم سافرنا الى مدينة خنج بال (وضبط اسمها بضم الخاء المعجم وقد يعوض منه هاء واسكان النون وضم الجيم وباء معقودة وألف ولام) وبها سكنى الشيخ أبى دلف الذى قصدنا زيارته وبزاويته نزلنا ولما دخلت الزاوية رأيته قاعدا بناحية منها على التراب وعليه جبة صوف خضراء بالية وعلى رأسه عمامة صوف سوداء فسلمت عليه فأحسن الردو سألنى عن مقدمى وبلادى وأنزلنى وكان يبعث الى الطعام والفاكهة مع ولد له من الصالحين كثير الخشوع والتواضع صائم الدهر كثير الصلاة ولهذا الشيخ أبى دلف شأن عجيب وأمر غريب فان نفقته فى هذه الزاوية عظيمة وهو يعطى العطاء الجزيل ويكسو الناس ويركبهم الخيل ويحسن لكل وارد وصادر ولم أر فى تلك البلاد مثله ولا يعلم له جهة الا ما يصله من الاخوان والاصحاب حتى زعم كثير من الناس انه ينفق من الكون وفى زاويته المذكورة قبر الشيخ الولى الصالح القطب دانيال وله اسم بتلك البلاد شهير وشأن فى الولاية كبير وعلى قبره قبة عظيمة بناها السلطان قطب الدين تمهتن بن طوران شاه وأقمت عند الشيخ أبى دلف يوما واحدا لاستعجال الرفقة التى كنت فى صحبتها وسمعت ان بالمدينة خنج بال المذكورة زاوية فيها جملة من الصالحين

المتعبدين فرحت اليها بالعشى وسلمت على شيخهم وعليهم ورأيت جماعة مباركة قد أثرت فيهم العبادة فهم صفر الالوان نحاف الجسوم كثير و البكاء غزير و الدموع وعند وصولى اليهم أتوا بالطعام فقال كبيرهم ادعوا الى ولدى محمد وكان معتزلا فى بعض نواحى الزاويه فجاء الينا الولد وهو كأنما خرج من قبر مما نهكته العبادة فسلم وقعد فقال له أبوه يابنى شارك هؤلاء الواردين فى الاكل تنل من بركاتهم وكان صائما فافطر معنا وهم شافعية المذهب فلما فرغنا من أكل الطعام دعوا لنا وانصرفنا ثم سافرنا منها الى مدينة قيس وتسمى أيضا بسيراف وهى على ساحل بحر الهند المتصل ببحر اليمن وفارس وعدادها فى كور فارس مدينة لها انفساح وسعة طيبة البقعة فى دورها بساتين عجيبة فيها الرياحين والاشجار الناضرة وشرب أهلها من عيون منبعثة من جبالها وهم عجم من الفرس اشراف وفيهم طائفة من عرب بنى سفاف وهم الذين يغوصون على الجوهر

(ذكر مغاص الجوهر)

ومغاص الجوهر فيما بين سيراف والبحرين فى خور راكد مثل الوادى العظيم فاذا كان شهر ابريل وشهر مايه تأتى اليه القوارب الكثيرة فيها الغوّاصون وتجار فارس والبحرين والقطيف ويجعل الغواص على وجهه مهما أراد ان يغوص شيأ يكسوه من عظم الغيلم وهى السلحفاة ويصنع من هذا العظم أيضا شكلا شبه المقراض يشدّه على أنفه ثم يربط حبلا فى وسطه ويغوص ويتفاوتون فى الصبر فى الماء فمنهم من يصبر الساعة والساعتين فما دون ذلك فاذا وصل الى قعر البحر يجد الصدف هنالك فيما بين الاحجار الصغار مثبتا فى الرمل فيقتلعه بيده أو يقطعه بحديدة عنده معدّة لذلك ويجعلها فى مخلاة جلد منوطة بعنقه فاذا ضاق نفسه حرك الحبل فيحس به الرجل الممسك للحبل على الساحل فيرفعه الى القارب فتؤخذ منه المخلاة ويفتح الصدف فيوجد فى أجوافها قطع لحم تقطع بحديدة فاذا باشرت الهواء جمدت فصارت جواهر فيجمع جميعها من صغير وكبير فيأخذ السلطان خمسه والباقى يشتريه التجار الحاضرون بتلك القوارب وأكثرهم يكون له الدين على الغواصين فيأخذ الجوهر فى دينه أو ما وجب له منه ثم سافرنا من سيراف الى مدينة البحرين وهى مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأشجار وأنهار وماؤها قريب المؤنة يحفر عليه بالايدى فيوجد بها حدائق النخل والرمان والاترج ويزرع بها القطن وهى شديدة الحرّ كثيرة الرمال وربما غلب الرمل على بعض منازلها وكان فيما بينها وبين عمان طريق استولت عليه الرمال وانقطع فلا يوصل من عمان اليها الا فى البحر وبالقرب منها جبلان عظيمان يسمى أحدهما بكسير وهو فى غربيها ويسمى الآخر بعوير وهو فى شرقيها وبهما ضرب المثل فقيل كسير وعوير وكل غير خير ثم سافرنا الى مدينة

القطيف

القطيف (وضبط اسمها بضم القاف) كأنه تصغير قطف وهى مدينة كبيرة حسنة ذات نخل كثير يسكنها طوائف العرب وهم رافضية غلاة يظهرون الرفض جهارا لا يتقون أحدا ويقول مؤذنهم فى أذانه بعد الشهادتين أشهد أن عليا ولى الله ويزيد بعد الحيعلتين حى على خير العمل ويزيد بعد التكبير الاخير محمد وعلى خير البشر من خالفهما فقد كفر ثم سافرنا منها الى مدينة هجر وتسمى الآن بالحسا (بفتح الحاء والسين واهمالها) وهى التى يضرب المثل بها فيقال كجالب التمر الى هجر وبها من النخيل ما ليس ببلد سواها ومنه يعلفون دوابهم وأهلها عرب وأكثرهم من قبيلة عبد القيس بن أقصى ثم سافرنا منها الى مدينة اليمامة وتسمى أيضا بحجر (بفتح الحاء المهمل واسكان الجيم) مدينة حسنة خصبة ذات أنهار وأشجار يسكنها طوائف من العرب أكثرهم من بنى حنيفة وهى بلدهم قديما وأميرهم طفيل بن غانم ثم سافرت منها فى صحبة هذا الامير برسم الحج وذلك فى سنة ثنتين وثلاثين فوصلت الى مكة شرفها الله تعالى وحج فى تلك السنة الملك الناصر سلطان مصر رحمه الله وجملة من أمرائه وهى آخر حجة حجها وأجزل الاحسان لاهل الحرمين الشريفين وللمجاورين وفيها قتل الملك الناصر أمير أحمد الذى يذكر انه ولده وقتل أيضا كبير امرائه بكتمور الساقى

(حكاية)

ذكر ان الملك الناصر وهب لبكتمور الساقى جارية فلما أراد الدنو منها قالت له انى حامل من الملك الناصر فاعتزلها وولدت ولدا سماه بأمير أحمد ونشأ فى حجره فظهرت نجابته واشتهر بابن الملك الناصر فلما كان فى هذه الحجة تعاهدا على الفتك بالملك الناصر وان يتولى أمير أحمد الملك وحمل بكتمور معه العلامات والطبول والكسوات والاموال فنمى الخبر الى الملك الناصر فبعث الى أمير أحمد فى يوم شديد الحر فدخل عليه وبين يديه أقداح الشرب فشرب الملك الناصر قدحا وناول أمير أحمد قدحا ثانيا فيه السم فشربه وأمر بالرحيل فى تلك الساعة ليشغل الوقت فرحل الناس ولم يبلغوا المنزل حتى مات أمير أحمد فاكترث بكتمور لموته وقطع أثوابه وامتنع من الطعام والشراب وبلغ خبره الى الملك الناصر فأتاه بنفسه ولاطفه وسلاه وأخذ قدحا فيه سم فناوله اياه وقال له بحياتى عليك ألا شربت فبردت نار قلبك فشربه ومات من حينه ووجد عنده خلع السلطنة والاموال فتحقق ما نسب اليه من الفتك بالملك الناصر ولما انقضى الحج توجهت الى جدة برسم ركوب البحر الى اليمن والهند فلم يقض لى ذلك ولا تأتى لى رفيق وأقمت بجدة نحو أربعين يوما وكان بها مركب لرجل يعرف بعبد الله التونسى يروم السفر الى القصير من عمالة قوص فصعدت اليه لانظر حاله فلم يرضنى ولا طابت نفسى بالسفر فيه وكان ذلك لطفا من الله تعالى فانه سافر فلما توسط البحر غرق بموضع يقال له رأس أبى محمد

فخرج صاحبه وبعض التجار فى العشارى بعد جهد عظيم وأشرفوا على الهلاك وهلك بعضهم وغرق سائر الناس وكان فيه نحو سبعين من الحجاج ثم ركبت البحر بعد ذلك فى صنبوق برسم عيذاب فردتنا الريح الى مرسى يعرف برأس دواير وسافرنا منه فى البر مع البجاة فسلكنا صحراء كثيرة النعام والغزلان فيها عرب جهينة وبنى كاهل وطاعتهم للبجاة ووردنا ماء يعرف بعفرور وماء يعرف بالجديد ونفد زادنا فاشترينا من قوم من البجاة وجدناهم بالفلاة أغناما وتزودنا لحومها ورأيت بهذه الفلاة صبيا من العرب كلمنى باللسان العربى وأخبرنى ان البجاة أسروه وزعم انه منذ عام لم يأكل طعاما انما يقتات بلبن الابل ونفد لنا بعد ذلك اللحم الذى اشتريناه ولم يبق لنا زاد وكان عندى نحو حمل من التمر الصيحانى والبرنى برسم الهدية لاصحابى ففرقته على الرفقة وتزودناه ثلاثا وبعد مسيرة تسعة أيام من رأس دواير وصلنا الى عيذاب وكان قد تقدم اليها بعض الرفقة فتلقانا أهلها بالخبز والتمر والماء وأقمنا بها أياما واكترينا الجمال وخرجنا صحبة طائفة من عرب دغيم ووردنا ماء يعرف بالجنيب ولعله (الخبيب) وحللنا بحميثرا حيث قبر ولى الله تعالى أبى الحسن الشاذلى وحصلت لنا زيارته ثانية وبتنا فى جواره ثم وصلنا الى قرية العطوانى وهى على ضفة النيل مقابلة لمدينة أدفو من الصعيد الاعلى وأجزنا النيل الى مدينة اسنا ثم الى مدينة أرمنت ثم الى الاقصر وزرنا الشيخ أبا الحجاج الاقصرى ثانية ثم الى مدينة قوص ثم الى مدينة قنا وزرنا الشيخ عبد الرحيم القناوى ثانية ثم الى مدينة هو ثم الى مدينة اخميم ثم الى مدينة أسيوط ثم الى مدينة منفلوط ثم الى مدينة منلوى ثم الى مدينة الاشمونين ثم الى مدينة منية ابن الخصيب ثم الى مدينة البهنسة ثم الى مدينة بوش ثم الى مدينة منية القائد وقد تقدم لنا ذكر هذه البلاد ثم الى مصر وأقمت بها أياما وسافرت على طريق بلبيس الى الشام ورافقنى الحاج عبد الله بن أبى بكر بن الفرحان التوزرى ولم يزل فى صحبتى سنين الى أن خرجنا من بلاد الهند فتوفى بسندابور وسنذكر ذلك فوصلنا الى مدينة غزة ثم الى مدينة الخليل عليه السلام وتكررت لنا زيارته ثم الى بيت المقدس ثم الى مدينة الرملة ثم الى مدينة عكا ثم الى مدينة طرابلس ثم الى مدينة جبلة وزرنا ابراهيم بن أدهم رضى الله عنه ثانية ثم الى مدينة اللاذقية وقد تقدم لنا ذكر هذه البلاد كلها ومن اللاذقية ركبنا البحر فى قرقورة كبيرة للجنويين يسمى صاحبها برتلين وقصدنا بر التركية المعروف ببلاد الروم وانما نسبت الى الروم لانها كانت بلادهم فى القديم ومنها الروم الاقدمون واليونانية ثم استفتحها المسلمون وبها الآن كثير من النصارى تحت ذمة المسلمين من التركمان وسرنا فى البحر عشرا بريح طيبة وأكرمنا النصرانى ولم يأخذ منا نولا وفى العاشر وصلنا الى مدينة العلايا وهى أول بلاد الروم وهذا الاقليم المعروف ببلاد الروم من أحسن أقاليم الدنيا

وقد

وقد جمع الله فيه ما تفرّق من المحاسن فى البلاد فأهله أجمل الناس صورا وانظفهم ملابس وأطيبهم مطاعم وأكثر خلق الله شفقة ولذلك يقال البركة فى الشأم والشفقة فى الروم وانما عنى به أهل هذه البلاد وكنا متى نزلنا بهذه البلاد زاوية أو دارا يتفقد أحوالنا جيراننا من الرجال والنساء وهنّ لا يحتجبن فاذا سافرنا عنهم ودّعونا كأنهم أقاربنا وأهلنا وترى النساء باكيات لفراقنا متأسفات ومن عادتهم بتلك البلادان يخبزوا الخبز فى يوم واحد من الجمعة يعدّون فيه ما يقوتهم سائرها فكان رجالهم يأتون الينا بالخبز الحارّ فى يوم خبزه ومعه الادام الطيب إطرافا لنا بذلك ويقولون لنا ان النساء بعثن هذا اليكم وهنّ يطلبن منكم الدعاء وجميع أهل هذه البلاد على مذهب الامام أبى حنيفة رضى الله عنه مقيمين على السنة لا قدرى فيهم ولا رافضى ولا معتزلى ولا خارجى ولا مبتدع وتلك فضيلة خصهم الله تعالى بها الا انهم يأكلون الحشيش ولا يعيبون ذلك ومدينة العلايا التى ذكرناها كبيرة على ساحل البحر يسكنها التركمان وينزلها تجار مصر واسكندرية والشام وهى كثيرة الخشب ومنها يحمل الى اسكندرية ودمياط ويحمل منها الى سائر بلاد مصر ولها قلعة بأعلاها عجيبة منيعة بناها السلطان المعظم علاء الدين الرومى ولقيت بهذه المدينة قاضيها جلال الدين الارزنجانى وصعد معى الى القلعة يوم الجمعة فصلينا بها وأضافنى وأكرمنى وأضافنى أيضا بها شمس الدين بن الرجيحانى الذى توفى أبوه علاء الدين بمالى من بلاد السودان

(ذكر سلطان العلايا)

وفى يوم السبت ركب معى القاضى جلال الدين وتوجهنا الى لقاء ملك العلايا وهو يوسف بك ومعنى بك الملك ابن قرمان (بفتح القاف والراء) ومسكنه على عشرة أميال من المدينة فوجدناه قاعدا على الساحل وحده فوق رابية هنالك والامراء والوزراء أسفل منه والاجناد عن يمينه ويساره وهو مخضوب الشعر بالسواد فسلمت عليه وسألنى عن مقدمى فأخبرته عما سأل وانصرفت عنه وبعث الى احسانا وسافرت من هنالك الى مدينة انطالية (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان النون وفتح الطاء المهمل وألف ولام مكسور وياء آخر الحروف) وأما التى بالشام فهى انطاكية على وزنها الا أن الكاف عوض عن اللام وهى من احسن المدن متناهية فى اتساع الساحة والضخامة أجمل ما يرى من البلاد وأكثره عمارة وأحسنه ترتيبا وكل فرقة من سكانها منفردة بأنفسها عن الفرقة الاخرى فتجار النصارى ساكنون منها بالموضع المعروف بالميناء وعليهم سور تسدّ أبوابه عليهم ليلا وعند صلاة الجمعة والروم الذين كانوا أهلها قديما ساكنون بموضع آخر منفردين به وعليهم أيضا سور واليهود فى موضع آخر وعليهم سور والملك وأهل دولته ومماليكه يسكنون ببلدة عليها أيضا سور يحيط بها ويفرق بينها وبين ما ذكرناه

من الفرق وسائر الناس من المسلمين يسكنون المدينة العظمى وبها مسجد جامع ومدرسة وحمامات كثيرة وأسواق ضخمة مرتبة بأبدع ترتيب وعليها سور عظيم يحيط بها وبجميع المواضع التي ذكرناها وفيها البساتين الكثيرة والفواكه الطيبة والمشمش العجيب المسمى عندهم بقمر الدين وفي نواته لوز حلو وهو ييبس ويحمل الى ديار مصر وهو بها مستظرف وفيها عيون الماء الطيب العذب الشديد البرودة في أيام الصيف نزلنا من هذه المدينة بمدرستها وشيخها شهاب الدين الحموي ومن عادتهم أن يقرأ جماعة من الصبيان بالاصوات الحسان بعد العصر من كل يوم في المسجد الجامع وفي المدرسة أيضا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم

(ذكر الاخية الفتيان)

واحد الاخية أخي على لفظ الاخ اذا أضافه المتكلم الى نفسه وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية في كل بلد ومدينة وقرية ولا يوجد في الدنيا مثلهم أشد احتفالا بالغرباء من الناس وأسرع الى اطعام الطعام وقضاء الحوائج والاخذ على أيدي الظلمة وقتل الشرط ومن لحق بهم من أهل الشر والاخي عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الاعزاب والمتجردين ويقدمونه على أنفسهم وتلك هي الفتوة أيضا ويبني زاوية ويجعل فيها الفرش والسرج وما يحتاج اليه من الآلات ويخدم أصحابه بالنهار في طلب معايشهم ويأتون اليه بعد العصر بما يجتمع لهم فيشترون به الفواكه والطعام الى غير ذلك مما ينفق في الزاوية فان ورد في ذلك اليوم مسافر على البلد أنزلوه عندهم وكان ذلك ضيافته لديهم ولا يزال عندهم حتى ينصرف وان لم يرد وارد اجتمعوا هم على طعامهم فأكلوا وغنوا ورقصوا وانصرفوا الى صناعتهم بالغدو وأتوا بعد العصر الى مقدمهم بما اجتمع لهم ويسمون بالفتيان ويسمى مقدمهم كما ذكرنا الاخي ولم أر في الدنيا أجمل افعالا منهم ويشبههم في افعالهم أهل شيراز واصفهان الا أن هؤلاء أحب في الوارد والصادر وأعظم اكراما له وشفقة عليه وفي الثاني من يوم وصولنا الى هذه المدينة أتى أحد هؤلاء الفتيان الى الشيخ شهاب الدين الحموي وتكلم معه باللسان التركي ولم أكن يومئذ أفهمه وكان عليه أثواب خلقة وعلى رأسه قلنسوة لبد فقال لي الشيخ أتعلم ما يقول هذا الرجل فقلت لا أعلم ما قال فقال لي انه يدعوك الى ضيافته أنت وأصحابك فعجبت منه وقلت له نعم فلما انصرف قلت للشيخ هذا رجل ضعيف ولا قدرة له على تضييفنا ولا نريد ان نكلفه فضحك الشيخ وقال لي هذا أحد شيوخ الفتيان الاخية وهو من الخرازين وفيه كرم نفس وأصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات قد قدموه على أنفسهم وبنوا زاوية للضيافة وما يجتمع لهم بالنهار انفقوه بالليل فلما صليت المغرب عاد الينا ذلك الرجل

وذهبنا

وذهبنا معه الى زاويته فوجدنا زاوية حسنة مفروشة بالبسط الرومية الحسان وبها الكثير من ثريات الزجاج العراقي وفي المجلس خمسة من البياسيس والبيسوس شبه المنارة من النحاس له أرجل ثلاث وعلى رأسه شبه جلاس من النحاس وفي وسطه انبوب للفتيلة ويملأ من الشحم المذاب والى جانبه آنية نحاس ملآنة بالشحم وفيها مقراض لاصلاح الفتيل واحدهم موكل بها ويسمى عندهم الجراجي (الجراغجي) وقد اصطف في المجلس جماعة من الشبان ولباسهم الاقبية وفي أرجلهم الاخفاف وكل واحد منهم متحزم على وسطه سكين في طول ذراعين وعلى رؤسهم قلانس بيض من الصوف بأعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها في طول ذراع وعرض أصبعين فاذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوته ووضعها بين يديه وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزردخاني وسواه حسنة المنظر وفي وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين ولما استقر بنا المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثير والفاكهة والحلواء ثم أخذوا في الغناء والرقص فراقنا حالهم وطال عجبنا من سماحهم وكرم أنفسهم وانصرفنا عنهم آخر الليل وتركناهم بزاويتهم

(ذكر سلطان انطالية)

وسلطانها خضر بك بن يونس بك وجدناه عند وصولنا اليها عليلا فدخلنا عليه بداره وهو في فراش المرض فكلمنا بألطف كلام وأحسنه وودعناه وبعث الينا باحسان وسافرنا الى بلدة بردور (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة واسكان الراء وضم الدال المهمل وواو وراء) وهي بلدة صغيرة كثيرة البساتين والانهار ولها قلعة في رأس جبل شاهق نزلنا بدار خطيبها واجتمعت الاخية وأرادوا نزولنا عندهم فأبى عليهم الخطيب فصنعوا لنا ضيافة في بستان لاحدهم وذهبوا بنا اليها فكان من العجائب اظهارهم السرور بنا والاستبشار والفرح وهم لا يعرفون لساننا ونحن لا نعرف لسانهم ولا ترجمان فيما بيننا واقمنا عندهم يوما وانصرفنا ثم سافرنا من هذه البلدة الى بلدة سبرتا (وضبط اسمها بفتح السين المهمل والباء الموحدة واسكان الراء وفتح التاء المعلوة والف) وهي بلدة حسنة العمارة والاسواق كثيرة البساتين والانهار لها قلعة في جبل شامخ وصلنا اليها بالعشي ونزلنا عند قاضيها وسافرنا منها الى مدينة اكريدور (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون الكاف وكسر الراء وياء مد ودال مهمل مضموم وواو مد وراء) مدينة عظيمة كثيرة العمارة حسنة الاسواق ذات انهار واشجار وبساتين ولها بحيرة عذبة الماء يسافر المركب فيها يومين الى اقشهر وبقشهر وغيرهما من البلاد والقرى ونزلنا منها بمدرسة تقابل الجامع الاعظم بها المدرس العالم الحاج المجاور الفاضل مصلح الدين قرأ بالديار

المصرية والشام وسكن العراق مدة وهو فصيح اللسان حسن البيان أظروفة من طرف الزمان اكرمنا غاية الاكرام وقام بحقنا احسن قيام

(ذكر سلطان اكريدور)

وسلطانها ابو اسحاق بك بن الدندار بك من كبار سلاطين تلك البلاد سكن ديار مصر أيام ابيه وحج وله سير حسنة ومن عادته انه يأتي كل يوم الى صلاة العصر بالمسجد الجامع فاذا قضيت صلاة العصر استند الى جدار القبلة وقعد القراء بين يديه على مصطبة خشب عالية فقرؤا سورة الفتح والملك وعم باصوات حسان فعالة فى النفوس تخشع لها القلوب وتقشعر الجلود وتدمع العيون ثم ينصرف الى داره واظلنا عنده شهر رمضان فكان يقعد فى كل ليلة منه على فراش لاصق بالارض من غير سرير ويستند الى مخدة كبيرة ويجلس الفقيه مصلح الدين الى جانبه واجلس الى جانب الفقيه ويلينا أرباب دولته وامراء حضرته ثم يؤتى بالطعام فيكون أول ما يفطر عليه ثريد فى صحفة صغيرة عليه العدس مسقى بالسمن والسكر ويقدمون الثريد تبركا ويقولون ان النبى صلى الله عليه وسلم فضله على سائر الطعام فنحن نبدأ به لتفضيل النبى له ثم يؤتى بسائر الاطعمة وهكذا فعلهم فى جميع ليالى رمضان وتوفى فى بعض تلك الايام ولد السلطان فلم يزيدوا على بكاء الرحمة كما يفعله اهل مصر والشام خلافا لما قدمناه من فعل أهل اللور حين مات ولد سلطانهم فلما دفن أقام السلطان والطلبة ثلاثة أيام يخرجون الى قبره بعد صلاة الصبح وفى ثانى يوم من دفنه خرجت مع الناس فرآنى السلطان ماشيا على رجلى فبعث لى بفرس واعتذر فلما وصلت المدرسة بعثت الفرس فردّه وقال انما أعطيته عطية لا عارية وبعث الى بكسوة ودراهم فانصرفنا الى مدينة قل حصار (وضبط اسمها بضم القاف واسكان اللام ثم حاء مهمل مكسور وصاد مهمل وآخره راء) مدينة صغيرة بها المياه من كل جانب قد نبتت فيها القصب فلا طريق لها الا طريق كالجسر مهيأ ما بين القصب والمياه لا يسع الا فارسا واحدا والمدينة على تل فى وسط المياه منيعة لا يقدر عليها ونزلنا بزاوية أحد الفتيان الاخية بها

(ذكر سلطان قل حصار)

وسلطانها محمد چلبى وچلبى (بجيم معقود ولام مفتوحين وباء موحدة وياء) وتفسيره بلسان الروم سيدى وهو أخو السلطان أبى اسحاق ملك اكريدور ولما وصلنا بمدينته كان غائبا عنها فأقمنا بها اياما ثم قدم فاكرمنا واركبنا وزودنا وانصرفنا على طريق قرا اغاج وقرا (بفتح القاف) تفسيره أسود (وأغاج بفتح الهمزة والغين المعجم وآخره جيم) تفسيره الخشب وهى صحراء خضرة يسكنها التركمان وبعث معنا السلطان فرسانا يبلغوننا الى مدينة لاذق بسبب ان هذه الصحراء

يقطع الطريق فيها طائفة يقال لهم الجرميان يذكر انهم من ذرية يزيد بن معاوية ولهم مدينة يقال لها كوتاهية نعصمنا الله منهم ووصلنا الى مدينة لاذق (وهي بكسر الذال المعجم وبعده قاف) وتسمى أيضادون غزله وتفسيره بلد الخنازير وهي من أبدع المدن وأضخمها وفيها سبعة من المساجد لاقامة الجمعة ولها البساتين الرائقة والانهار المطردة والعيون المنبعة وأسواقها حسان وتصنع بها ثياب قطن معلمة بالذهب لامثل لها تطول أعمارها لصحة قطنها وقوة غزلها وهذه الثياب معروفة بالنسبة اليها وأكثر الصناع بها نساء الروم وبها من الروم كثير تحت الذمة وعليهم وظائف للسلطان من الجزية وسواها وعلامة الروم بها القلانس الطوال منها الحمر والبيض ونساء الروم لهن عمائم كبار وأهل هذه المدينة لايغيرون المنكر بل كذلك أهل هذا الاقليم كله وهم يشترون الجوارى الروميات الحسان ويتركونهن للفساد وكل واحدة عليها وظيف لمالكها تؤديه له وسمعت هنالك ان الجوارى يدخلن الحمام مع الرجال فمن أراد الفساد فعل ذلك بالحمام من غير منكر عليه وذكر لى ان القاضى بها له جوار على هذه الصورة وعند دخولنا لهذه المدينة مررنا بسوق لها فنزل الينا رجال من حوانيتهم وأخذوا بأعنة خيلنا ونازعهم فى ذلك رجال آخرون وطال بينهم النزاع حتى سل بعضهم السكاكين على بعض ونحن لانعلم مايقولون فخفنا منهم وظننا انهم الجرميان الذين يقطعون الطرق وان تلك مدينتهم وحسبنا انهم يريدون نهبنا ثم بعث الله الينا رجلا حاجا يعرف اللسان العربى فسألته عن مرادهم منا فقال انهم من الفتيان وان الذين سبقوا الينا أولا هم أصحاب الفتى أخى سنان والآخرون أصحاب الفتى أخى طومان وكل طائفة ترغب أن يكون نزولكم عندهم فعجبنا من كرم نفوسهم ثم وقع بينهم الصلح على المقارعة فمن كانت قرعته نزلنا عنده أولا فوقعت قرعة أخى سنان وبلغه ذلك فأتى الينا فى جماعة من أصحابه فسلموا علينا ونزلنا بزاوية له وأتى بأنواع الطعام ثم ذهب بنا الى الحمام ودخل معنا وتولى خدمتى بنفسه وتولى أصحابه خدمة أصحابى يخدم الثلاثة والاربعة الواحد منهم ثم خرجنا من الحمام فأتوا بطعام عظيم وحلواء وفاكهة كثيرة وبعد الفراغ من الاكل قرأ القراء آيات من الكتاب العزيز ثم أخذوا فى السماع والرقص وأعلموا السلطان بخبرنا فلما كان من الغد بعث فى طلبنا بالعشى فتوجهنا اليه والى ولده كما نذكره ثم عدنا الى الزاوية فألفينا الاخى طومان وأصحابه فى انتظارنا فذهبوا بنا الى زاويتهم ففعلوا فى الطعام والحمام مثل أصحابهم وزادوا عليهم ان صبوا علينا ماء الورد صبا بعد خروجنا من الحمام ثم مضوا بنا الى الزاوية ففعلوا أيضا من الاحتفال فى الاطعمة والحلواء والفاكهة وقراءة القرآن بعد الفراغ من الاكل ثم السماع والرقص كمثل مافعله أصحابهم أو أحسن وأقمنا عندهم بالزاوية أياما

(ذكر سلطان لاذق)

وهو السلطان ينبج بك (واسمه بياء آخر الحروف مفتوحة ثم نونين أولاهما مفتوحة والثانية مسكنة وجيم) وهو من كبار سلاطين بلاد الروم ولما نزلنا بزاوية أخي سنان كما قدمناه بعث الينا الواعظ المذكر العالم علاء الدين القسطموني واستصحب معه خيلا بعددنا وذلك في شهر رمضان فتوجهنا اليه وسلمنا عليه ومن عادة ملوك هذه البلاد التواضع للواردين ولين الكلام وقلة العطا فصلينا معه المغرب وحضر طعامه فافطرنا عنده وانصرفنا وبعث الينا بدراهم ثم بعث الينا ولده مراد بك وكان ساكنا في بستان خارج المدينة وذلك في إبان الفاكهة وبعث أيضا خيلا على عددنا كما فعله أبوه فأتينا بستانه وأقمنا عنده تلك الليلة وكان له فقيه يترجم بيننا وبينه ثم انصرفنا غدوة وأظلنا عيد الفطر بهذه البلدة فخرجنا الى المصلى وخرج السلطان في عساكره والفتيان الاخية كلهم بالاسلحة ولاهل كل صناعة الاعلام والبوقات والطبول والانفار وبعضهم يفاخر بعضا ويباهيه في حسن الهيأة وكمال الشكة ويخرج أهل كل صناعة معهم البقر والغنم وأحمال الخبز فيذبحون البهائم بالمقابر ويتصدقون بها وبالخبز ويكون خروجهم أولا الى المقابر ومنها الى المصلى ولما صلينا صلاة العيد دخلنا مع السلطان الى منزله وحضر الطعام فجعل للفقهاء والمشايخ والفتيان سماط على حدة وجعل للفقراء والمساكين سماط على حدة ولا يرد على بابه في ذلك اليوم فقير ولا غني وأقمنا بهذه البلدة مدة بسبب مخاف الطريق ثم تهيأت رفقة فسافرنا معهم يوما وبعض ليلة ووصلنا الى حصن طواس واسمه (بفتح الطاء وتخفيف الواو وآخره سين مهمل) وهو حصن كبير ويذكران صهيبا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنه من أهل هذا الحصن وكان مبيتنا بخارجه ووصلنا بالغد الى بابه فسألنا أهله من أعلى السور عن مقدمنا فأخبرناهم وحينئذ خرج أمير الحصن الياس بك في عسكره ليختبر نواحي الحصن والطريق خوفا من اغارة العراق على الماشية فلما طافوا بجهاته خرجت مواشيهم وهكذا فعلهم أبدا ونزلنا من هذا الحصن بربضه في زاوية رجل فقير وبعث الينا أمير الحصن بضيافة وزاد وسافرنا منه الى مغلة (وضبط اسمها بضم الميم واسكان الغين المعجم وفتح اللام) ونزلنا بزاوية أحد المشايخ بها وكان من الكرماء الفضلاء يكثر الدخول علينا بزاويته ولا يدخل بطعام أو فاكهة أو حلواء ولقينا بهذه البلدة ابراهيم بك ولد سلطان مدينة ميلاس وسنذكره فأكرمنا وكسانا ثم سافرنا الى مدينة ميلاس (وضبط اسمها بكسر الميم وياء مد وآخره سين مهمل) وهي من أحسن بلاد الروم وأضخمها كثيرة الفواكه والبساتين والمياه نزلنا منها بزاوية أحد الفتيان الاخية ففعل أضعاف ما فعله من قبله من الكرامة والضيافة ودخول الحمام وغير ذلك من حميد الافعال وجميل الاعمال ولقينا

بمدينة

بمدينة ميلاس رجلا صالحا معمرا يسمى بابى الششترى ذكروا ان عمره يزيد على مائة وخمسين سنة وله قوة وحركة وعقله ثابت وذهنه جيد دعى لنا وحصلت لنا بركته

(ذكر سلطان ميلاس)

وهو السلطان المكرم شجاع الدين أرخان بك بن المنتشا (وضبط اسمه بضم الهمزة واسكان الراء وخاء معجم وآخره نون) وهو من خيار الملوك حسن الصورة والسيرة جلساؤه الفقهاء وهم معظمون لديه وببابه منهم جماعة منهم الفقيه الخوارزمى عارف بالفنون فاضل وكان السلطان فى أيام لقائى له واجدا عليه بسبب رحلته الى مدينة اياسلوق ووصوله الى سلطانها وقبول ما أعطاه فسأل منى هذا الفقيه أن أتكلم عند الملك فى شأنه بما يذهب ما فى خاطره فأثنيت عليه عند السلطان وذكرت ما علمته من علمه وفضله ولم أزل به حتى ذهب ما كان يجده عليه وأحسن الينا هذا السلطان وأركبنا وزودنا وسكناه فى مدينة برجين وهى قريبة من ميلاس بينهما ميلان (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة واسكان الراء وجيم وياء مد وآخره نون) وهى جديدة على تل هنالك بها العمارات الحسنات والمساجد وكان قد بنى بها مسجدا جامعا لم يتم بناؤه بعد وبهذه البلدة لقيناه ونزلنا منها بزاوية الفتى أخى على ثم انصرفنا بعد ما أحسن الينا كما قدمناه الى مدينة قونية (وضبط اسمها بضم القاف وواو مد ونون مسكن مكسور وياء آخر الحروف) مدينة عظيمة حسنة العمارة كثيرة المياه والانهار والبساتين والفواكه وبها المشمش المسمى بقمر الدين وقد تقدم ذكره ويحمل منه أيضا الى ديار مصر والشام وشوارعها متسعة جدا وأسواقها بديعة الترتيب وأهل كل صناعة على حدة ويقال ان هذه المدينة من بناء الاسكندر وهى من بلاد السلطان بدر الدين بن قرمان وسنذكره وقد تغلب عليها صاحب العراق فى بعض الاوقات لقربها من بلاده التى بهذا الاقليم نزلنا منها بزاوية قاضيها ويعرف بابن قلم شاه وهو من الفتيان وزاويته من أعظم الزوايا وله طائفة كبيرة من التلاميذ ولهم فى الفتوة سند يتصل الى أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام ولباسها عندهم السراويل كما تلبس الصوفية الخرقة وكان صنيع هذا القاضى فى اكرامنا وضيافتنا أعظم من صنيع من قبله وأجمل وبعث ولده عوضا منه لدخول الحمام معنا وبهذه المدينة تربة الشيخ الامام الصالح القطب جلال الدين المعروف بمولانا وكان كبير القدر وبأرض الروم طائفة ينتمون اليه ويعرفون باسمه فيقال لهم الجلالية كما تعرف الاحمدية بالعراق والحيدرية بخراسان وعلى تربته زاوية عظيمة فيها الطعام للوارد والصادر

(حكاية)

يذكر انه كان فى ابتداء أمره فقيها مدرسا يجتمع اليه الطلبة بمدرسته بقونية فدخل يوما الى

المدرسة رجل يبيع الحلواء وعلى راسه طبق منها وهي مقطوعة قطعا يبيع القطعة منها بفلس فلما أتى مجلس التدريس قال له الشيخ هات طبقك فأخذ الحلوانى قطعة منه وأعطاها الشيخ فأخذها الشيخ بيده وأكلها فخرج الحلوانى ولم يطعم أحدا سوى الشيخ فخرج الشيخ فى إتباعه وترك التدريس فأبطأ على الطلبة وطال انتظارهم اياه فخرجوا فى طلبه فلم يعرفوا له مستقرا ثم انه عاد اليهم بعد أعوام وتوله وصار لا ينطق الا بالشعر الفارسى المتعلق الذى لا يفهم فكان الطلبة يتبعونه ويكتبون ما يصدر عنه من ذلك الشعر وألفوا منه كتابا سموه المثنوى وأهل تلك البلاد يعظمون ذلك الكتاب ويعتبرون كلامه ويعلمونه ويقرؤنه بزواياهم فى ليالى الجمعات وفى هذه المدينة أيضا قبر الفقيه أحمد الذى يذكر انه كان معلم جلال الدين المذكور ثم سافرنا الى مدينة اللارندة التى (بفتح الرآء التى بعد الالف واللام واسكان النون وفتح الدال المهمل) مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين

(ذكر سلطان اللارندة)

وسلطانها الملك بدر الدين بن قرمان (بفتح القاف والراء) وكانت قبله لشقيقه موسى فنزل عنها للملك الناصر وعوّضه عنها بعوض وبعث اليها أميرا وعسكرا ثم تغلب عليها السلطان بدر الدين وبنى بها دار مملكته واستقام أمره بها ولقيت هذا السلطان خارج المدينة وهو عائد من تصيده فنزلت له عن دابتى فنزل هو عن دابته وسلمت عليه وأقبل على ومن عادة ملوك هذه البلاد انه اذا نزل لهم الوارد عن دابته نزلوا له وأعجبهم فعله وزادوا فى اكرامه وان سلم عليهم راكبا ساءهم ذلك ولم يرضهم ويكون سببا لحرمان الوارد وقد جرى لى ذلك مع بعضهم وسأذكره ولما سلمت عليه وركب وركبت سألنى عن حالى وعن مقدمى ودخلت معه المدينة فأمر بانزالى أحسن نزل وكان يبعث الطعام الكثير والفاكهة والحلواء فى طيافير الفضة والشمع وكسا واركب وأحسن ولم يطل مقامنا عنده وانصرفنا الى مدينة أقصرا (وضبطها بفتح الهمزة وسكون القاف وفتح الصاد المهمل والراء) وهى من أحسن بلاد الروم وأتقنها تحف بها العيون الجارية والبساتين من كل ناحية ويشق المدينة ثلاثة أنهار ويجرى الماء بدورها وفيها الاشجار ودوالى العنب وداخلها بساتين كثيرة وتصنع بها البسط المنسوبة اليها من صوف الغنم لا مثل لها فى بلد من البلاد ومنها تحمل الى الشام ومصر والعراق والهند والصين وبلاد الاتراك وهذه المدينة فى طاعة ملك العراق ونزلنا منها بزاوية الشريف حسين النائب بها عن الامير أرتنا وأرتنا هو النائب عن ملك العراق فيما تغلب عليه من بلاد الروم وهذا الشريف من الفتيان وله طائفة كثيرة وأكرمنا اكراما متناهيا وفعل أفعال من تقدمه ثم رحلنا الى مدينة نكدة (وضبط اسمها بفتح النون واسكان الكاف ودال مهمل مفتوح) وهى من بلاد

ملك

ملك العراق مدينة كبيرة كثيرة العمارة قد تخرب بعضها ويشقها النهر المعروف بالنهر الاسود وهو من كبار الانهار عليه ثلاث قناطر احداها بداخل المدينة وثنتان بخارجها وعليه النواعير بالداخل والخارج منها تسقى البساتين والفواكه بها كثيرة ونزلنا منها بزاوية الفتى أخى جاروق وهو الامير بها فأكرمنا على عادة الفتيان وأقمنا بها ثلاثاً وسرنا منها بعد ذلك الى مدينة قيسارية وهى من بلاد صاحب العراق وهى احدى المدن العظام بهذا الاقليم بها عسكر أهل العراق واحدى خواتين الامير علاء الدين أرتنا المذكور وهى من أكرم الخواتين وأفضلهن ولها نسبة من ملك العراق وتدعى أغا (بفتح الهمزة والغين المعجم) ومعنى أغا الكبير وكل من بينه وبين السلطان نسبة يدعى بذلك واسمها طغى خاتون ودخلنا اليها فقامت لنا وأحسنت السلام والكلام وأمرت باحضار الطعام فأكلنا ولما انصرفنا بعثت لنا بفرس مسرج ملجم وخلعة ودراهم مع أحد غلمانها واعتذرت ونزلنا من هذه المدينة بزاوية الفتى الاخى أمير على وهو أمير كبير من كبار الاخية بهذه البلاد وله طائفة تتبعه من وجوه المدينة وكبرائها وزاويته من أحسن الزوايا فرشاً وتناديل وطعاماً كثيراً واتقاناً والكبراء من أصحابه وغيرهم يجتمعون كل ليلة عنده ويفعلون فى كرامة الوارد أضعاف ما يفعله سواهم ومن عوائد هذه البلاد انه ما كان منها ليس به سلطان فالاخى هو الحاكم به وهو يركب الوارد ويكسوه ويحسن اليه على قدره وترتيبه فى أمره ونهيه وركوبه ترتيب الملوك ثم سافرنا الى مدينة سيواس (وضبط اسمها بكسر السين المهمل وياء مد وآخره سين مهمل) وهى من بلاد ملك العراق وأعظم ماله بهذا الاقليم من البلاد وبها منزل أمرائه وعماله مدينة حسنة العمارة واسعة الشوارع أسواقها غاصة بالناس وبها دار مثل المدرسة تسمى دار السيادة لا ينزلها الا الشرفاء ونقيبهم ساكن بها وتجرى لهم فيها مدة مقامهم الفرش والطعام والشمع وغيره فيزودون اذا انصرفوا ولما قدمنا الى هذه المدينة خرج الى لقائنا أصحاب الفتى أخى أحمد بجقجى وبجق بالتركية السكين وهذا منسوب اليه والجيمان منه معقودان بينهما قاف وياؤه مكسورة وكانوا جماعة منهم الركبان والمشاة ثم لقينا بعدهم أصحاب الفتى أخى جلبى وهو من كبار الاخية وطبقته أعلى من طبقة أخى بجقجى فطلبوا ان ننزل عندهم فلم يمكن لى ذلك لسبق الاولين ودخلنا المدينة معهم جميعاً وهم يتفاخرون والذين سبقوا الينا قد فرحوا أشد الفرح بنزولنا عندهم ثم كان من صنيعهم فى الطعام والحمام والمبيت مثل صنيع من تقدم وأقمنا عندهم ثلاثة فى أحسن ضيافة ثم أتانا القاضى وجماعة من الطلبة ومعهم خيل الامير علاء الدين أرتنا نائب ملك العراق ببلاد الروم فركبنا اليه واستقبلنا الامير الى دهليز داره فسلم علينا ورحب وكان فصيح اللسان بالعربية وسألنى عن العراقين وأصبهان وشيراز وكرمان وعن السلطان أتابك وبلاد الشام ومصر

وسلاطين التركمان وكان مراده ان أشكر الكريم منهم واذم البخيل فلم أفعل ذلك بل شكرت الجميع فسر بذلك مني وشكرني عليه ثم أحضر الطعام فأكلنا وقال تكونون في ضيافتي فقال له الفتى أخي چلبي انهم لم ينزلوا بعد بزاويتي فليكونوا عندي وضيافتك تصلهم فقال افعل فانتقلنا الى زاويته وأقمنا بها ستا في ضيافته وفي ضيافة الامير ثم بعث الامير بفرس وكسوة ودراهم وكتب لنوابه بالبلدان يضيفوننا ويكرموننا ويزودوننا وسافرنا الى مدينة أماصية (وضبط اسمها بفتح الهمزة والميم وألف وصاد مهمل مكسور وياء آخر الحروف مفتوحة) مدينة كبيرة حسنة ذات أنهار وبساتين وأشجار وفواكه كثيرة وعلى أنهارها النواعير تسقي جنانها ودورها وهي فسيحة الشوارع والاسواق وملكها لصاحب العراق وبقرب منها بلدة سونسي (وضبط اسمها بضم السين المهمل وواو ونون مضموم وسين مهمل مفتوح) وهي لصاحب العراق أيضا وبها اسكنى أولاد ولي الله تعالى أبي العباس أحمد الرفاعي منهم الشيخ عز الدين وهو الآن شيخ الرواق وصاحب سجادة الرفاعي واخوته الشيخ علي والشيخ ابراهيم والشيخ يحيى أولاد الشيخ أحمد كوجك ومعناه الصغير ابن تاج الدين الرفاعي ونزلنا بزاويتهم ورأينا لهم الفضل على من سواهم ثم سافرنا الى مدينة كمش (وضبط اسمها بضم الكاف وكسر الميم وشين معجم) وهي من بلاد ملك العراق مدينة كبيرة عامرة يأتيها التجار من العراق والشام وبها معادن الفضة وعلى مسيرة يومين منها جبال شامخة وعرة لم أصل اليها ونزلنا منها بزاوية الاخي مجد الدين وأقمنا بها ثلاثا في ضيافته وفعل أفعال من قبله وجاء الينا نائب الامير أرتنا وبعث بضيافة وزاد وانصرفنا عن تلك البلاد فوصلنا الى أرزنجان (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان الراء وفتح الزاي وسكون النون وجيم وألف ونون) وهي من بلاد صاحب العراق مدينة كبيرة عامرة وأكثر سكانها الارمن والمسلمون يتكلمون بها بالتركية ولها أسواق حسنة الترتيب ويصنع بها ثياب حسان تنسب اليها وفيها معادن النحاس ويصنعون منه الاواني والبياسيس التي ذكرناها وهي شبه المنار عندنا ونزلنا منها بزاوية الفتى أخي نظام الدين وهي من أحسن الزوايا وهو أيضا من خيار الفتيان وكبارهم أضافنا أحسن ضيافة وانصرفنا الى مدينة أرز الروم وهي من بلاد ملك العراق كبيرة الساحة خرب أكثرها بسبب فتنة وقعت بين طائفتين من التركمان بها ويشقها ثلاثة أنهار وفي أكثر دورها بساتين فيها الاشجار والدوالي ونزلنا منها بزاوية الفتى أخي طومان وهو كبير السن يقال انه أناف على مائة وثلاثين سنة ورأيته يتصرف على قدميه متوكئا على عصا ثابت الذهن مواظبا الصلاة في أوقاتها لم ينكر من نفسه شيئا الا انه لا يستطيع الصوم خدمنا بنفسه في الطعام وخدمنا أولاده في الحمام وأردنا الانصراف عنه ثاني يوم نزولنا فشق عليه ذلك وأبى منه وقال ان فعلتم نقصتم حرمتي وانما

أقل

اقل الضيافة ثلاث فأقمنا لديه ثلاثا ثم انصرفنا الى مدينة بركى (وضبط اسمها بباء موحدة مكسورة وكاف معقود مكسور بينهما راء مسكن) ووصلنا اليها بعد العصر فلقينا رجلا من أهلها فسألناه عن زاوية الاخي بها فقال أنا أدلكم عليها فاتبعناه فذهب بنا الى منزل نفسه فى بستان له فأنزلنا بأعلى سطح بيته والاشجار مظللة وذلك أوان الحر الشديد وأتى الينا بأنواع الفاكهة وأحسن فى ضيافته وعلف دوابنا وبتنا عنده تلك الليلة وكنا قد تعرفنا ان بهذه المدينة مدرسا فاضلا يسمى بمحيي الدين فأتى بنا ذلك الرجل الذى بتنا عنده وكان من الطلبة الى المدرسة واذا بالمدرس قد أقبل راكبا على بغلة فارهة ومماليكه وخدامه عن جانبيه والطلبة بين يديه وعليه ثياب مفرجة حسان مطرزة بالذهب فسلمنا عليه فرحب بنا وأحسن السلام والكلام وامسك بيدى واجلسنى الى جانبه ثم جاء القاضى عز الدين فرشتى ومعنى فرشتى الملك لقب بذلك لدينه وعفافه وفضله فقعد عن يمين المدرس وأخذ فى تدريس العلوم الاصلية والفرعية ثم لما فرغ من ذلك أتى دويرة بالمدرسة فأمر بفرشها وأنزلنى فيها وبعث ضيافة حافلة ثم وجه الينا بعد المغرب فمضيت اليه فوجدته فى مجلس ببستان له وهنالك صهريج ماء ينحدر اليه الماء من خصة رخام أبيض يدور بها القاشانى وبين يديه جملة من الطلبة ومماليكه وخدامه وقوف عن جانبيه وهو قاعد على مرتبة عليها أقطاع منقوشة حسنة فخلته لما شاهدته ملكا من الملوك فقام الى واستقبلنى وأخذ بيدى وأجلسنى الى جانبه على مرتبته وأتى بالطعام فأكلنا وانصرفنا الى المدرسة وذكر لى بعض الطلبة ان جميع من حضر تلك الليلة من الطلبة عند المدرس فعادتهم الحضور لطعامه كل ليلة وكتب هذا المدرس الى السلطان بخبرنا وأثنى فى كتابه والسلطان فى جبل هنالك يصيف فيه لاجل شدة الحر وذلك الجبل بارد وعادته ان يصيف فيه

(ذكر سلطان بركى)

وهو السلطان محمد بن آيدين من خيار السلاطين وكرمائهم وفضلائهم ولما بعث اليه المدرس يعلمه بخبرى وجه نائبه الى لاتيه فأشار على المدرس ان أقيم حتى يبعث عنى ثانية وكان المدرس اذ ذاك قد خرجت برجله قرحة لا يستطيع الركوب بسببها وانقطع عن المدرسة ثم ان السلطان بعث فى طلبى ثانية فشق ذلك على المدرس فقال أنا لا أستطيع الركوب ومن غرضى التوجه معك لاقرر لدى السلطان ما يجب لك ثم انه تحامل ولف على رجله خرقا وركب ولم يضع رجله فى الركاب وركبت أنا وأصحابى وصعدنا الى الجبل فى طريق قد نحتت وسويت فوصلنا الى موضع السلطان عند الزوال فنزلنا على نهر ماء تحت ظلال شجر الجوز وصادفنا السلطان فى قلق وشغل بال بسبب فرار ابنه الاصغر سليمان عنه الى صهره

السلطان أرخان بك فلما بلغه خبر وصولنا بعث الينا ولديه خضر بك وعمر بك فسلما على الفقيه وأمرهما بالسلام على ففعلا ذلك وسألانى عن حالى ومقدمى وانصرفا وبعث الى بيت يسمى عندهم الخرقة (خركاه) وهو عصى من الخشب تجمع شبه القبة وتجعل عليها اللبود ويفتح أعلاه لدخول الضوء والريح مثل البادهنج ويسد متى احتيج الى سده وأتوا بالفرش ففرشوه وقعد الفقيه وقعدت معه وأصحابه وأصحابى خارج البيت تحت ظلال شجر الجوز وذلك الموضع شديد البرد ومات لى تلك الليلة فرس من شدة البرد ولما كان من الغد ركب المدرس الى السلطان وتكلم فى شأنى بما اقتضته فضائله ثم عاد الى وأعلمنى بذلك وبعد ساعة وجه السلطان فى طلبنا معا فجئنا الى منزله ووجدناه قائما فسلمنا عليه وقعد الفقيه عن يمينه وأنا مما يلى الفقيه فسألنى عن حالى ومقدمى وسألنى عن الحجاز ومصر والشأم واليمن والعراقين وبلاد الاعاجم ثم حضر الطعام فأكلنا وانصرفنا وبعث الارز والدقيق والسمن فى كروش الاغنام وكذلك فعل الترك وأقمنا على تلك الحال أياما يبعث الينا فى كل يوم فحضر طعامه وأتى يوما الينا بعد الظهر وقعد الفقيه فى صدر المجلس وأنا عن يساره وقعد السلطان عن يمين الفقيه وذلك لعزة الفقهاء عند الترك وطلب منى ان أكتب له أحاديث من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتبتها له وعرضها الفقيه عليه فى تلك الساعة فأمره ان يكتب له شرحها باللسان التركى ثم قام فخرج ورأى الخدام يطبخون لنا الطعام تحت ظلال الجوز بغير أبزار ولا خضر فأمر بعقاب صاحب خزانته وبعث بالابزار والسمن وطالت إقامتنا بذلك الجبل فأدركنى الملل وأردت الانصراف وكان الفقيه أيضا قد مل من المقام هنالك فبعث الى السلطان يخبره انى أريد السفر فلما كان من الغد بعث السلطان نائبه فتكلم مع المدرس بالتركية ولم أكن اذ ذاك أفهمها فأجابه عن كلامه وانصرف فقال لى المدرس أتدرى ماذا قال قلت لا أعرف ما قال قال ان السلطان بعث الى ليسألنى ماذا يعطيك فقلت له عنده الذهب والفضة والخيل والعبيد فليعطه ما أحب من ذلك فذهب الى السلطان ثم عاد الينا فقال ان السلطان يأمر ان تقيما هنا اليوم وتنزلا معه غدا الى داره بالمدينة فلما كان من الغد بعث فرسا جيدا من مراكبه ونزل ونحن معه الى المدينة فخرج الناس لاستقباله وفيهم القاضى المذكور آنفا وسواه ودخل السلطان ونحن معه فلما نزل بباب داره ذهبت مع المدرس الى ناحية المدرسة فدعانا وأمرنا بالدخول معه الى داره فلما وصلنا الى دهليز الدار وجدنا من خدامه نحو عشرين صورهم فائقة الحسن وعليهم ثياب الحرير وشعورهم مفروقة مرسلة وألوانهم ساطعة البياض مشربة بحمرة فقلت للفقيه ما هذه الصور الحسان فقال هؤلاء فتيان روميون وصعدنا مع السلطان درجا كثيرة الى ان انتهينا الى مجلس حسن فى وسطه صهريج ماء وعلى كل ركن من أركانه صورة سبع من نحاس يمج الماء

من

من فيه وتدور بهذا المجلس مصاطب متصلة مفروشة وفرق احداها مرتبة السلطان فلما انتهينا اليها نحى السلطان مرتبته بيده وتعدمعنا على الاقطاع وقعد الفقيه عن يمينه والقاضى مما يلى الفقيه وأنا مما يلى القاضى وقعد القرّاء أسفل المصطبة والقرّاء لا يفارقونه حيث كان من مجالسه ثم جاءوا بصحاف من الذهب والفضة مملوءة بالجلاب المحلول قدعصر فيه ماء الليمون وجعل فيه كعكات صغار مقسومة وفيها ملاعق ذهب وفضة وجاؤا معها بصحاف صيني فيها مثل ذلك وفيها ملاعق خشب فن تورّع استعمل صحاف الصيني وملاعق الخشب وتكلمت بشكر السلطان وأثنيت على الفقيه وبالغت فى ذلك فأعجب ذلك السلطان وسره

(حكاية)

وفى أثناء قعودنا مع السلطان أتى شيخ على رأسه عمامة لها ذؤابة فسلم عليه وقام له القاضى والفقيه وقعد امام السلطان فوق المصطبة والقرّاء أسفل منه فقلت للفقيه من هذا الشيخ فضحك وسكت ثم أعدت السؤال فقال لى هذا يهودى طبيب وكلنا محتاج اليه فلاجل هذا فعلنا ما رأيت من القيام له فأخذنى ما حدث وتقدم من الامتعاض فقلت لليهودى يا ملعون ابن ملعون كيف تجلس فوق قرّاء القرآن وأنت يهودى وشتمته ورفعت صوتى فعجب السلطان وسأل عن معنى كلامى فأخبره الفقيه به وغضب اليهودى فخرج عن المجلس فى أسوأ حال ولما انصرفنا قال لى الفقيه أحسنت بارك الله فيك ان أحدا سواك لا يتجاسر على مخاطبته بذلك ولقد عرّفته بنفسه

(حكاية أخرى)

وسألنى السلطان فى هذا المجلس فقال لى هل رأيت قط حجرا نزل من السماء فقلت ما رأيت ذلك ولا سمعت به فقال لى انه قد نزل بخارج بلدنا هذا حجر من السماء ثم دعا رجالا وأمرهم ان يأتوا بالحجر فأتوا بحجر أسود أصم شديد الصلابة له بريق قدرت ان زنته تبلغ قنطارا وأمر السلطان باحضار القطاعين فحضر أربعة منهم فأمرهم ان يضربوه فضربوا عليه ضربة رجل واحد أربع مرات بمطارق الحديد فلم يؤثروا فيه شيأ فعجبت من أمره وأمر برده الى حيث كان وفى ثالث يوم من دخولنا الى المدينة مع السلطان صنع صنيعا عظيما ودعا الفقهاء والمشايخ وأعيان العسكر ووجوه أهل المدينة فطعموا وقرأ القرّاء القرآن بالاصوات الحسان وعدنا الى منزلنا بالمدرسة وكان يوجه الطعام والفاكهة والحلواء والشمع فى كل ليلة ثم بعث الى مائة مثقال ذهبا وألف درهم وكسوة كاملة وفرسا ومملوكا رومياً يسمى ميخائيل وبعث لكل من أصحابى كسوة ودراهم كل هذا بمشاركة المدرّس محيى الدين جزاه الله تعالى خيرا وودّعنا وانصرفنا وكانت مدة مقامنا عنده بالجبل والمدينة أربعة عشر

يوماثم قصدنامدينة تيرة وهي من بلاد هذا السلطان (وضبط اسمها بكسر التاء المعلوة وياء مدّ وراء) مدينة حسنة ذات أنهار وبساتين وفوا كه نزلنا منها بزاوية الفتى أخي محمد وهو من كبار الصالحين صائم الدهر وله أصحاب على طريقته فأضافنا ودعا لنا وسرنا الى مدينة أياسلوق (وضبط اسمها بفتح الهمزة والياء آخر الحروف وسين مهمل مضموم ولام مضموم وآخره قاف) مدينة كبيرة قديمة معظمة عند الروم وفيها كنيسة كبيرة مبنية بالحجارة الضخمة ويكون طول الحجر منها عشر أذرع فما دونها منحوتة أبدع نحت والمسجد الجامع بهذه المدينة من أبدع مساجد الدنيا لا نظير له في الحسن وكان كنيسة للروم معظمة عندهم يقصدونها من البلاد فلما فتحت هذه المدينة جعلها المسلمون مسجدا جامعا وحيطانه من الرخام الملوّن وفرشه الرخام الابيض وهو مسقف بالرصاص وفيه احدى عشرة قبة منوّعة في وسط كل قبة صهريج ماء والنهر يشقه وعن جانبي النهر الاشجار المختلفة الاجناس ودوالي العنب ومعرشات الياسمين وله خمسة عشر بابا وأمير هذه المدينة خضر بك ابن السلطان محمد بن آيدين وقد كنت رأيته عند أبيه ببركي ثم لقيته بهذه المدينة خارجها فسلمت عليه وأنا راكب فكره ذلك مني وكان سبب حرماني لديه فان عادتهم اذا نزل لهم الوارد نزلوا له وأعجبهم ذلك ولم يبعث الي الا ثوبا واحدا من الحرير المذهب يسمونه النخ (بفتح النون وخاء معجم) واشتريت بهذه المدينة جارية رومية بكرا بأربعين دينارا ذهبا ثم سرنا الى مدينة يزمير (وضبط اسمها بياء آخر الحروف مفتوحة وزاي مسكن وميم مكسورة وياء مدّ وراء) مدينة كبيرة على ساحل البحر معظمها خراب ولها قلعة متصلة بأعلاها نزلنا منها بزاوية الشيخ يعقوب وهو من الاحمدية صالح فاضل ولقينا بخارجها الشيخ عز الدين بن أحمد الرفاعي ومعه زاده الاخلاطي من كبار المشايخ ومعه مائة فقير من المولهين وقد ضرب لهم الامير الاخبية وصنع لهم الشيخ يعقوب ضيافة وحضرتها واجتمعت بهم وأمير هذه المدينة عمر بك ابن السلطان محمد بن آيدين المذكور آنفا وسكناه بقلعتها وكان حين قدومنا عليها عند أبيه ثم قدم بعد خمس من نزولنا بها فكان من مكارمه ان أتى الي بالزاوية فسلم علي واعتذر وبعث ضيافة عظيمة وأعطاني بعد ذلك مملوكا روميا خماسيا اسمه نقوله وثوبين من الكمخا وهي ثياب حرير تصنع ببغداد وتبريز ونيسابور وبالصين وذكر لي الفقيه الذي يؤمّ به ان الامير لم يبق له مملوك سوى ذلك المملوك الذي أعطاني بسبب كرمه رحمه الله وأعطى أيضا للشيخ عز الدين ثلاثة أفراس مجهزة وآنية فضة كبيرة تسمى عندهم المشربة مملوءة دراهم وثيابا من الملف والمرعز والقدسي والكمخا وجواري وغلمانا وكان هذا الامير كريما صالحا كثير الجهاد له أجفان غزوية يضرب بها على نواحي القسطنطينية العظمى فيسبي ويغنم ويفني ذلك كرما وجودا ثم يعود الى الجهاد الى ان اشتدت على الروم وطأته فرفعوا أمرهم الى الباب فأمر نصارى

جنوة وافرانسة بغزوه فغزو وجهز جيشا من رومية وطرقوا مدينته ليلا فى عدد كثير من الاجفان وملكوا المرسى والمدينة ونزل اليهم الامير عمر من القلعة فقاتلهم فاستشهد هو وجماعة من ناسه واستقر النصارى بالبلد ولم يقدروا على القلعة لمنعتها ثم سافرنا من هذه المدينة الى مدينة مغنيسية (وضبط اسمها بميم مفتوحة وغين معجمة مسكنة ونون مكسورة وياء مدّ وسين مهملة مكسورة وياء آخر الحروف مشددة) نزلنا بها عشى يوم عرفة بزاوية رجل من الفتيان وهى مدينة كبيرة حسنة فى سفح جبل وبسيطها كثير الانهار والعيون والبساتين والفواكه

(ذكر سلطان مغنيسية)

وسلطانها يسمى صاروخان ولما وصلنا الى هذه البلدة وجدناه بتربة ولده وكان قد توفى منذ أشهر فكان هو وأم الولد ليلة العيد وصبيحتها بتربته والولد قد صبر وجعل فى تابوت خشب مغشى بالحديد المقزدر وعلق فى قبة لا سقف لها لان تذهب رائحته وحينئذ تسقف القبة ويجعل تابوته ظاهرا على وجه الارض وتجعل ثيابه عليه وهكذا رأيت غيره أيضا من الملوك فعل وسلمنا عليه بذلك الموضع وصلينا معه صلاة العيد وعدنا الى الزاوية فأخذ الغلام الذى كان لى افراسنا وتوجه مع غلام لبعض الاصحاب برسم سقيها فأبطأ ثم لما كان العشى لم يظهر لهما أثر وكان بهذه المدينة الفقيه المدرس الفاضل مصلح الدين فركب معى الى السلطان وأعلمناه بذلك فبعث فى طلبهما فلم يوجدا واشتغل الناس فى عيدهم وقصدا مدينة للكفار على ساحل البحر تسمى فوجة على مسيرة يوم من مغنيسية وهؤلاء الكفار فى بلد حصين وهم يبعثون هدية فى كل سنة الى سلطان مغنيسية فيقنع منهم بها لحصانة بلدهم فلما كان بعد الظهر أتى بهما بعض الاتراك وبالافراس وذكروا انهما اجتازا بهم عشية النهار فانكروا أمرهما واشتدوا عليهما حتى أقرا بما عزما عليه من الفرار ثم سافرنا من مغنيسية وبتنا ليلة عند قوم من التركمان قد نزلوا فى مرعى لهم ولم نجد عندهم ما نعلف دوابنا تلك الليلة وبات أصحابنا يحترسون مداولة بينهم خوف السرقة فأتت نوبة الفقيه عفيف الدين التوزرى فسمعته يقرأ سورة البقرة فقلت له اذا أردت النوم فاعلمنى لانظر من يحترس ثم نمت فما أيقظنى الا الصباح وقد ذهب السراق بفرس لى كان يركبه عفيف الدين بسرجه ولجامه وكان من جياد الخيل اشتريته بأياسلوق ثم رحلنا من الغد فوصلنا الى مدينة برغمة (وضبط اسمها بباء موحدة مفتوحة وراء مسكنة وغين معجمة مفتوحة وميم مفتوحة) مدينة خربة لها قلعة عظيمة منيعة بأعلى جبل ويقال ان افلاطون الحكيم من أهل هذه المدينة وداره تشتهر باسمه الى الآن ونزلنا منها بزاوية فقير من الاحمدية ثم جاء أحد كبراء المدينة فنقلنا الى داره وأكرمنا اكراما كثيرا

(ذكر سلطان برغمة)

وسلطانها يسمى يخشي خان بكسر الشين وخان عندهم هو السلطان ويخشي (بياء آخر الحروف وخاء معجم وشين معجم مكسور) ومعناه جيد صادفناه في مصيف له فاعلم بقدومنا فبعث بضيافة وثوب قدسي ثم اكترينا من يدلنا على الطريق وسرنا في جبال شامخة وعرة الى ان وصلنا الى مدينة بلي كسري (وضبط اسمها بباء موحدة مفتوحة ولام مكسور وياء مد وكاف مفتوح وسين مهمل مسكن وراء مكسور وياء) مدينة حسنة كثيرة العمارة مليحة الاسواق ولا جامع لها يجمع فيه وأرادوا بناء جامع خارجها متصل بها فبنوا حيطانه ولم يجعلوا له سقفا وصاروا يصلون به ويجمعون تحت ظلال الاشجار ونزلنا من هذه المدينة بزاوية الفتى أخي سنان وهو من أفاضلهم وأتى الينا قاضيها وخطيبها الفقيه موسى

(ذكر سلطان بلي كسري)

ويسمى دمورخان ولا خير فيه وأبوه هو الذي بنى هذه المدينة وكثرت عمارتها بمن لا خير فيه في مدة ابنه هذا والناس على دين الملك ورأيته وبعث الي بثوب حرير واشتريت بهذه المدينة جارية رومية تسمى مرغليطة ثم سرنا الى مدينة برصى (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة واسكان الراء وفتح الصاد المهمل) مدينة كبيرة عظيمة حسنة الاسواق فسيحة الشوارع تحفها البساتين من جميع جهاتها والعيون الجارية وبخارجها نهر ماء شديد الحرارة يصب في بركة عظيمة وقد بنى عليها بيتان أحدهما للرجال والآخر للنساء والمرضى يستشفون بهذه الحمة ويأتون اليها من أقاصي البلاد وهنالك زاوية للواردين ينزلون بها ويطعمون مدة مقامهم وهي ثلاثة أيام عمر هذه الزاوية أحد ملوك التركمان ونزلنا في هذه المدينة بزاوية الفتى أخي شمس الدين من كبار الفتيان ووافقنا عنده يوم عاشوراء فصنع طعاما كثيرا ودعى وجوه العسكر وأهل المدينة ليلا وأفطروا عنده وقرأ القراء بالاصوات الحسنة وحضر الفقيه الواعظ مجد الدين القونوي ووعظ وذكر واحسن ثم أخذوا في السماع والرقص وكانت ليلة عظيمة الشأن وهذا الواعظ من الصالحين يصوم الدهر ولا يفطر الا في كل ثلاثة أيام ولا يأكل الا من كد يمينه ويقال انه لم يأكل طعام أحد قط ولا منزل له ولا متاع الا ما يستتر به ولا ينام الا في المقبرة ويعظ في المجالس ويذكر فيتوب على يديه في كل مجلس الجماعة من الناس وطلبته بعد هذه الليلة فلم أجده وأتيت الجبانة فلم أجده ويقال انه يأتيها بعد هجوع الناس

(حكاية)

لما حضرنا ليلة عاشوراء بزاوية شمس الدين وعظ بها مجد الدين من آخر الليل فصاح أحد الفقراء صيحة غشي عليه منها فصبوا عليه ماء الورد فلم يفق فأعادوا عليه ذلك فلم يفق

واختلف

واختلف الناس فيه فمن قائل انه ميت ومن قائل انه مغشى عليه وأتم الواعظ كلامه وقرأ القرّاء وصلينا الصبح وطلعت الشمس فاختبروا حال الرجل فوجدوه فارق الدنيا رحمه الله فاشتغلوا بغسله وتكفينه وكنت فيمن حضر الصلاة عليه ودفنه وكان هذا الفقير يسمى الصياح وذكروا انه كان يتعبد بغار هنالك فى جبل فمتى علم ان الواعظ مجد الدين يعظ قصده وحضر وعظه ولم يأكل طعام أحد فاذا وعظ مجد الدين يصيح ويغشى عليه ثم يفيق فيتوضأ ويصلى ركعتين ثم اذا سمع الواعظ صاح يفعل ذلك مرارا فى الليلة وسمى الصياح لاجل ذلك وكان أعذر اليد والرجل لاقدرة له على الخدمة وكانت له والدة تقوته من غزلها فلما توفيت اقتات بنبات الارض ولقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح عبد الله المصرى السائح وهو من الصالحين جال الارض الا انه لم يدخل الصين ولا جزيرة سرنديب ولا المغرب ولا الاندلس ولا بلاد السودان وقد زدت عليه بدخول هذه الاقاليم

(ذكر سلطان برصى)

وسلطانها اختيار الدين أرخان بك وأرخان (بضم الهمزة وخاء معجم) ابن السلطان عثمان چوق (وچوق بجيم معقود مضموم وآخره قاف) وتفسيره بالتركية الصغير وهذا السلطان أكبر ملوك التركمان وأكثرهم مالا وبلادا وعسكرا له من الحصون ما يقارب مائة حصن وهو فى أكثر أوقاته لايزال يطوف عليها ويقيم بكل حصن منها أياما لاصلاح شؤنه وتفقد حاله ويقال انه لم يقم قط شهرا كاملا ببلد ويقاتل الكفار ويحاصرهم ووالده هو الذى استفتح مدينة برصى من ايدى الروم وقبره بمسجدها وكان مسجدها كنيسة للنصارى ويذكر انه حاصر مدينة يزنيك نحو عشرين سنة ومات قبل فتحها فحاصرها ولده هذا الذى ذكرناه ثنتى عشرة سنة وافتتحها وبها كان لقائى له وبعث الى بدراهم كثيرة ثم سافرنا الى مدينة يزنيك (وضبط اسمها بفتح الياء آخر الحروف واسكان الزاى وكسر النون وياء مد وكاف) وبتنا قبل الوصول اليها ليلة بقرية تدعى كرلة بزاوية فتى من الاخية ثم سرنا من هذه القرية يوما كاملا فى أنهار ماء على جوانبها أشجار الرمان الحلو والحامض ثم وصلنا الى بحيرة ماء تنبت القصب على ثمانية أميال من يزنيك لايستطاع دخولها الا على طريق واحد مثل الجسر لا يسلك عليها الا فارس واحد وبذلك امتنعت هذه المدينة والبحيرة محيطة بها من جميع الجهات وهى خاوية على عروشها لا يسكن بها الا أناس قليلون من خدام السلطان وبها زوجته بيلون خاتون وهى الحاكمة عليهم امرأة صالحة فاضلة وعلى المدينة أسوار اربعة بين كل سورين خندق وفيه الماء ويدخل اليها على جسور خشب متى أرادوا رفعها رفعوها وبداخل المدينة البساتين والدور والارض والمزارع فلكل انسان داره ومزرعته وبستانه مجموعة وشربها

من أبا آ ربها قريـة وبها من جميع أصناف الفواكه والجوز والقسطل عندهم كثير جدا رخيص الثمن ويسمون القسطل قسطنة بالنون والجوز القوز بالقاف وبها العنب العذارى لم أر مثله فى سواها متناهى الحلاوة عظيم الجرم صافى اللون رقيق القشر للحبة منه نواة واحدة أنزلنا بهذه المدينة الفقيه الامام الحاج المجاور علاء الدين السلطانيوكى وهو من الفضلاء الكرماء ما جئت قط الى زيارته الا أحضر الطعام وصورته حسنة وسيرته أحسن وتوجه معى الى الخاتون المذكورة فأكرمت وأضافت وأحسنت وبعد قدومنا بأيام وصل الى هذه المدينة السلطان ارخان بك الذى ذكرناه وأقمت بهذه المدينة نحو أربعين يوما بسبب مرض فرس لى فلما طال على المكث تركته وانصرفت ومعى ثلاثة من أصحابى وجارية وغلامان وليس معنا من يحسن اللسان التركى ويترجم عنا وكان لنا ترجمان فارقنا بهذه المدينة ثم خرجنا منها فبتنا بقرية يقال لها مكجا (بفتح الميم والكاف والجيم) بتنا عند فقيه بها أكرمنا وأضافنا وسافرنا من عنده وتقدمتنا امرأة من الترك على فرس ومعها خديم لها وهى قاصدة مدينة ينجا ونحن فى اتباع أثرها فوصلت الى واد كبير يقال له سقرى كأنه نسب الى سقر أعاذنا الله منها فذهبت تجوز الوادى فلما توسطته كادت الدابة تغرق بها ورمتها عن ظهرها وأراد الخديم الذى كان معها استخلاصها فذهب الوادى بهما معا وكان فى عدوة الوادى قوم رموا بأنفسهم فى أثرهما سباحة فأخرجوا المرأة وبها من الحياة رمق ووجدوا الرجل قد قضى نحبه رحمه الله وأخبرنا أولئك الناس ان المعدية أسفل من ذلك الموضع فتوجهنا اليها وهى أربع خشبات مربوطة بالحبال يجعلون عليها سروج الدواب والمتاع ويجذبها الرجال من العدوة الاخرى ويركب عليها الناس وتجاز الدواب سباحة وكذلك فعلنا ووصلنا تلك الليلة الى كاوية واسمها على مثال فاعلة من الكى نزلنا منها بزاوية أحد الاخية فكلمناه بالعربية فلم يفهم عنا وكلمنا بالتركية فلم نفهم عنه فقال اطلبوا الفقيه فانه يعرف العربية فأتى الفقيه فكلمنا بالفارسية وكلمناه بالعربية فلم يفهمها منا فقال للفتى ايشان عربى كهنا ميقوان (ميكويند) ومن عربى نو ميدانم وايشان معناه هؤلاء وكهنا قديم وميقوان يقولون ومن أنا ونو جديد وميدانم نعرف وانما اراد الفقيه بهذا الكلام ستر نفسه عن الفضيحة حين ظنوا انه يعرف اللسان العربى وهو لا يعرفه فقال لهم هؤلاء يتكلمون بالكلام العربى القديم وأنا لا أعرف الا العربى الجديد فظن الفتى ان الامر على ما قاله الفقيه ونفعنا ذلك عنده وبالغ فى اكرامنا وقال هؤلاء تجب كرامتهم لانهم يتكلمون باللسان العربى القديم وهو لسان النبى صلى الله عليه وسلم تسليما وأصحابه ولم نفهم كلام الفقيه اذ ذاك لكنى حفظت لفظه فلما تعلمت اللسان الفارسى فهمت مراده وبتنا تلك الليلة بالزاوية وبعث معنا دليلا الى ينجا وضبط اسمها (بفتح الياء آخر الحروف وكسر النون وجيم)

وجيم) بلدة كبيرة حسنة بحثنا بها عن زاوية الاخى فوجدنا أحد الفقراء المولهين فقلت له هذه زاوية الاخى فقال لى نعم فسررت عند ذلك اذ وجدت من يفهم اللسان العربى فلما اختبرته أبرز الغيب انه لا يعرف من اللسان العربى الا كلمة نعم خاصة ونزلنا بالزاوية وجاء الينا أحد الطلبة بطعام ولم يكن الاخى حاضرا وحصل الانس بهذا الطالب ولم يكن يعرف اللسان العربى لكنه تفضل وتكلم مع نائب البلدة فأعطانى فارسا من أصحابه وتوجه معنا الى كينوك (وضبط اسمها بفتح الكاف وسكون الباء وضم النون) وهى بلدة صغيرة يسكنها كفار الروم تحت ذمة المسلمين وليس بها غير بيت واحد من المسلمين وهم الحكام عليهم وهى من بلاد السلطان أرخان بك فنزلنا بدار عجوز كافرة وذلك ابان الثلج والشتاء فأحسنا اليها وبتنا عندها تلك الليلة وهذه البلدة لا شجر بها ولا دوالى العنب ولا يزدرع بها الا الزعفران وأتتنا هذه العجوز بزعفران كثير وظنت انا تجار نشتريه منها ولما كان الصباح ركبنا وأتانا الفارس الذى بعثه الفتى معنا من كاوية فبعث معنا فارسا غيره ليوصلنا الى مدينة مطرنى وقد وقع فى تلك الليلة ثلج كثير عفى الطرق فتقدمنا ذلك الفارس فاتبعنا أثره الى ان وصلنا فى نصف النهار الى قرية للتركمان فأتوا بطعام فأكلنا منه وكلمهم ذلك الفارس فركب معنا أحدهم وسلك بنا أوعارا وجبالا ومجرى ماء تكرر لنا جوازه أزيد من الثلاثين مرة فلما خلصنا من ذلك قال لنا ذلك الفارس أعطونى شيأ من الدراهم فقلنا له اذا وصلنا الى المدينة نعطيك ونرضيك فلم يرض ذلك منا أو لم يفهم عنا فأخذ قوسا لبعض أصحابى ومضى غير بعيد ثم رجع فرد الينا القوس فأعطيته شيئا من الدراهم فأخذها وهرب عنا وتركنا لا نعرف أين نقصد ولا طريق يظهر لنا فكنا نتلمح أثر الطريق تحت الثلج ونسلكه الى ان بلغنا عند غروب الشمس الى جبل يظهر الطريق به لكثرة الحجارة فخفت الهلاك على نفسى ومن معى وتوقعت نزول الثلج ليلا ولا عمارة هنالك فان نزلنا عن الدواب هلكنا وان سرينا ليلتنا لا نعرف أين نتوجه وكان لى فرس من الجياد فعملت على الخلاص وقلت فى نفسى اذا سلمت لعلى أحتال فى سلامة أصحابى فكان كذلك واستودعتهم الله تعالى وسرت وأهل تلك البلاد يبنون على القبور بيوتا من الخشب يظن رائيها انها عمارة فيجدها قبورا فظهر لى منها كثير فلما كان بعد العشاء وصلت الى بيوت فقلت اللهم اجعلها عامرة فوجدتها عامرة ووفقنى الله تعالى الى باب دار فرأيت عليه شيخا فكلمته بالعربى فكلمنى بالتركى وأشار الى بالدخول فأخبرته بشأن أصحابى فلم يفهم عنى وكان من لطف الله ان تلك الدار زاوية للفقراء والواقف بالباب شيخها فلما سمع الفقراء الذين بداخل الزاوية كلامى مع الشيخ خرج بعضهم وكانت بينى وبينه معرفة فسلم على وأخبرته خبر أصحابى وأشرت اليه بأن يمضى مع الفقراء لاستخلاص الاصحاب ففعلوا ذلك وتوجهوا معى

الى أصحابى وجئنا جميعا الى الزاوية وحمدنا الله تعالى على السلامة وكانت ليلة جمعة فاجتمع أهل القرية وقطعوا ليلتهم بذكر الله تعالى وأتى كل منهم بما تيسر له من الطعام وارتفعت المشقة ورحلنا عند الصباح فوصلنا الى مدينة مطرنى عند صلاة الجمعة (وضبط اسمها بضم الميم والطاء المهملة واسكان الراء وكسر النون وياء مد) فنزلنا بزاوية أحد الفتيان الاخية وبها جماعة من المسافرين ولم نجد مربطا للدواب فصلينا الجمعة ونحن فى قلق لكثرة الثلج والبرد وعدم المربط فلقينا أحد الحجاج من أهلها فسلم علينا وكان يعرف اللسان العربى فسررت برؤيته وطلبت منه ان يدلنا على مربط للدواب بالكراء فقال أما ربطها فى منزل فلا يتأتى لان أبواب دور هذه البلدة صغار لا تدخل عليها الدواب ولكنى أدلكم على سقيفة بالسوق يربط فيها المسافرون دوابهم والذين يأتون لحضور السوق فدلنا عليها وربطنا بها دوابنا ونزل أحد الاصحاب بحانوت خال ازاءها ليحرس الدواب

(حكاية)

وكان من غريب ما اتفق لنا انى بعثت أحد الخدام ليشترى التبن للدواب وبعثت أحدهم يشترى السمن فأتى أحدهما بالتبن وأتى الآخر دون شئ وهو يضحك فسألناه عن سبب ضحكه فقال انا وقفنا على دكان بالسوق فطلبنا منه السمن فأشار الينا بالوقوف وكلم ولدا له فدفعنا له الدراهم فأبطأ ساعة وأتى بالتبن فأخذناه منه وقلنا له انا نريد السمن فقال هذا السمن وأبرز الغيب انهم يقولون للتبن سمن بلسان الترك وأما السمن فيسمى عندهم رياغ ولما اجتمعنا بهذا الحاج الذى يعرف اللسان العربى رغبنا منه ان يسافر معنا الى قصطمونية وبينها وبين هذه البلدة مسيرة عشر وكسوته ثوبا مصريا من ثيابى وأعطيته نفقة تركها لعياله وعينت له دابة لركوبه ووعدته الخير وسافر معنا فظهر لنا من حاله انه صاحب مال كثير وله ديون على الناس غير انه ساقط الهمة خسيس الطبع سيئ الافعال وكنا نعطيه الدراهم لنفقتنا فيأخذ ما يفضل من الخبز ويشترى به الابزار والخضر والملح ويمسك ثمن ذلك لنفسه وذكر لى انه كان يسرق من دراهم النفقة دون ذلك وكنا نحتمله لما كان نكابده من عدم المعرفة بلسان الترك وانتهت حاله الى ان فضحناه وكنا نقول له فى آخر النهار يا حاج كم سرقت اليوم من النفقة فيقول كذا فنضحك منه ونرضى بذلك ومن أفعاله الخسيسة انه مات لنا فرس فى بعض المنازل فتولى سلخ جلده بيده وباعه ومنها انا نزلنا ليلة عند أخت له فى بعض القرى فجاءت بطعام وفاكهة من الاجاص والتفاح والمشمش والخوخ كلها ميبسة وتجعل فى الماء حتى ترطب فتؤكل ويشرب ماؤها فأردنا ان نحسن اليها فعلم بذلك فقال لا تعطوها شيئا وأعطوا ذلك لى فاعطيناه ارضاء له وأعطيناها احسانا فى خفية بحيث لم يعلم بذلك ثم وصلنا الى

مدينة بولى (وضبط اسمها بباء موحدة مضمومة وكسر اللام) ولما انتهينا الى قريب منها وجدنا واديا يظهر فى رأى العين صغيرا فلما دخله بعض أصحابنا وجدوه شديد الجرية والانزعاج فجازوه جميعا وبقيت جارية صغيرة خافوا من تجويزها وكان فرسى خيرا من أفراسهم فأردفتها وأخذت فى جواز الوادى فلما توسطته وقع بى الفرس ووقعت الجارية فأخرجها أصحابى وبها رمق وخلصت أنا ودخلنا المدينة فقصدنا زاوية أحد الفتيان الاخية ومن عوائدهم انه لا تزال النار موقودة فى زواياهم أيام الشتاء أبدا يجعلون فى كل ركن من أركان الزاوية موقدا للنار ويصنعون لها منافس يصعد منها الدخان ولا يؤذى الزاوية ويسمونها البخارى وأحدها بخيرى قال ابن جزى وقد أحسن صفى الدين عبد العزيز بن سرايا الحلى فى قوله فى التورية وتذكرته بذكر البخيرى (بسيط)

ان البخيرى مذ فارقتموه غدا * يحثو الرماد على كانونه الترب

لو شئتم انه يمسى أبا لهب * جاءت بغالكم حمالة الحطب

(رجع) قال فلما دخلنا الزاوية وجدنا النار موقودة فنزعت ثيابى ولبست ثيابا سواها واصطليت بالنار وأتى الاخى بالطعام والفاكهة وأكثر من ذلك فلله درهم من طائفة ما أكرم نفوسهم وأشد ايثارهم وأعظم شفقتهم على الغريب وألطفهم بالوارد وأحبهم فيه وأجلهم احتفالا بأمره فليس قدوم الانسان الغريب عليهم الا كقدومه على أحب أهله اليه وبتنا تلك الليلة بحال رضية ثم رحلنا بالغداة فوصلنا الى مدينة كردى بولى (وضبط اسمها بكاف معقودة وفتح الراء والدال المهمل وسكون الياء وباء موحدة مضمومة وواو مدّ ولام مكسورة وياء) وهى مدينة كبيرة فى بسيط من الارض حسنة متسعة الشوارع والاسواق من أشدّ البلاد بردا وهى محلات مفترقة كل محلة تسكنها طائفة لا يخالطهم غيرهم

(ذكر سلطانها)

وهو السلطان شاه بك من متوسطى سلاطين هذه البلاد حسن الصورة والسيرة جميل الخلق قليل العطاء صلينا بهذه المدينة صلاة الجمعة ونزلنا بزاوية منها ولقيت بها الخطيب الفقيه شمس الدين الدمشقى الحنبلى وهو من مستوطنيها منذ سنين وله بها أولاد وهو فقيه هذا السلطان وخطيبه ومسموع الكلام عنده ودخل علينا هذا الفقيه بالزاوية فأعلمنا ان السلطان قد جاء لزيارتنا فشكرته على فعله واستقبلت السلطان فسلمت عليه وجلس فسألنى عن حالى وعن مقدمى وعمن لقيته من السلاطين فأخبرته بذلك كله وأقام ساعة ثم انصرف وبعث بدابة مسرجة وكسوة وانصرفنا الى مدينة برلو (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة واسكان الراء وضم اللام) وهى مدينة صغيرة على تل تحتها خندق ولها قلعة بأعلى شاهق نزلنا منها بمدرسة

فيها حسنة وكان الحاج الذى سافر معنا يعرف مدرسها وطلبتها و يحضر معهم الدرس وهو على علاته من الطلبة حنفى المذهب ودعانا أمير هذه البلدة وهو على بك ابن السلطان المكرم سليمان بادشاه ملك قصطمونية وسنذكره فصعدنا اليه الى القلعة فسلمنا عليه فرحب بنا وأكرمنا وسألنى عن اسفارى وحالى فأجبته عن ذلك وأجلسنى الى جانبه وحضر قاضيه وكاتبه الحاج علاء الدين محمد وهو من كبار الكتاب وحضر الطعام فأكلنا ثم قرأ القراء بأصوات مبكية والحان عجيبة وانصرفنا وسافرنا بالغد الى مدينة قصطمونية (وضبط اسمها بقاف مفتوح وصاد مهمل مسكن وطاء مهمل مفتوح وميم مضمومة و واو ونون مكسور و ياء آخر الحروف) وهى من أعظم المدن وأحسنها كثيرة الخيرات رخيصة الاسعار نزلنا منها بزاوية شيخ يعرف بالاطروش لثقل سمعه ورأيت منه عجبا وهو ان أحد الطلبة كان يكتب له فى الهواء وتارة فى الارض بأصبعه فيفهم عنه ويجيبه ويحكى له بذلك الحكايات فيفهمها وأقمنا بهذه المدينة نحو أربعين يوما فكنا نشترى طابق اللحم الغنمى السمين بدرهمين ونشترى خبزا بدرهمين فيكفينا اليوم ونحن عشرة ونشترى حلواء العسل بدرهمين فتكفينا أجمعين ونشترى جوزا بدرهم وقسطلا بمثله فنأكل منها أجمعون ويفضل باقيها ونشترى حمل الحطب بدرهم واحد وذلك أوان البرد الشديد ولم أر فى البلاد مدينة أرخص أسعارا منها ولقيت بها الشيخ الامام العالم المفتى المدرّس تاج الدين السلطانيوكى من كبار العلماء قرأ بالعراقين وتبريز واستوطنها مدة وقرأ بدمشق وجاور بالحرمين قديما ولقيت بها العالم المدرّس صدر الدين سليمان الفنيكى من أهل فنيكة من بلاد الروم وأضافنى بمدرسته التى بسوق الخيل ولقيت بها الشيخ المعمر الصالح دادا أمير على دخلت عليه بزاويته بقربة من سوق الخيل فرجدته ملقى على ظهره فأجلسه بعض خدامه ورفع بعضهم حاجبيه عن عينيه ففتحهما وكلمنى بالعربى الفصيح وقال قدمت خير مقدم وسألته عن عمره فقال كنت من أصحاب الخليفة المستنصر بالله وتوفى وأنا ابن ثلاثين سنة وعمرى الآن مائة وثلاث وستون سنة فطلبت منه الدعاء فدعا لى وانصرفت

(ذكر سلطان قصطمونية)

وهو السلطان المكرم سليمان پادشاه (واسمه بباء معقودة وألف ودال مسكن) وهو كبير السن ينيف على سبعين سنة حسن الوجه طويل اللحية صاحب وقار وهيبة يجالسه الفقهاء والصلحاء دخلت عليه بمجلسه فأجلسنى الى جانبه وسألنى عن حالى ومقدمى وعن الحرمين الشريفين ومصر والشام فأجبته وأمر بانزالى على قرب منه واعطانى ذلك اليوم فرسا عتيقا قرطاسى اللون وكسوة وعين لى نفقة وعلفا وأمر لى بعد ذلك بقمح وشعير نفذلى فى قرية من قرى

المدينة

المدينة على مسيرة نصف يوم منها فلم أجد من يشتريه لرخص الاسعار فأعطيته للحاج الذى كان فى صحبتنا ومن عادة هذا السلطان ان يجلس كل يوم بمجلسه بعد صلاة العصر ويؤتى بالطعام فتفتح الابواب ولا يمنع أحد من حضرى أو بدوى أو غريب اومسافر من الاكل ويجلس فى أول النهار جلوسا خاصا ويأتى ابنه فيقبل يديه وينصرف الى مجلس له ويأتى أرباب الدولة فيأكلون عنده وينصرفون ومن عادته فى يوم الجمعة ان يركب الى المسجد وهو بعيد عن داره والمسجد المذكور هو ثلاث طبقات من الخشب فيصلى السلطان وأرباب دولته والقاضى والفقهاء ووجوه الاجناد فى الطبقة السفلى ويصلى الافندى وهو أخو السلطان وأصحابه وخدامه وبعض أهل المدينة فى الطبقة الوسطى ويصلى ابن السلطان ولى عهده وهو أصغر أولاده ويسمى الجواد وأصحابه ومماليكه وخدامه وسائر الناس فى الطبقة العليا ويجتمع القراء فيقعدون حلقة امام المحراب ويقعد معهم الخطيب والقاضى ويكون السلطان بازاء المحراب ويقرؤن سورة الكهف بأصوات حسان ويكررون الآيات بترتيب عجيب فاذا فرغوا من قراءتها صعد الخطيب المنبر فخطب ثم صلى فاذا فرغوا من الصلاة تنفلوا وقرأ القارئ بين يدى السلطان عشرا وانصرف السلطان ومن معه ثم يقرأ القارئ بين يدى أخى السلطان فاذا تم قراءته انصرف هو ومن معه ثم يقرأ القارئ بين يدى ابن السلطان فاذا فرغ من قراءته قام المعرف وهو المذكر فيمدح السلطان بشعر تركى ويمدح ابنه ويدعو لهما وينصرف ويأتى ابن الملك الى دار أبيه بعد ان يقبل يد عمه فى طريقه وعمه واقف فى انتظاره ثم يدخلان الى السلطان فيتقدم أخوه ويقبل يده ويجلس بين يديه ثم يأتى ابنه فيقبل يده وينصرف الى مجلسه فيقعد به مع ناسه فاذا حانت صلاة العصر صلوها جميعا وقبل أخو السلطان يده وانصرف عنه فلا يعود اليه الا فى الجمعة الاخرى وأما الولد فانه يأتى كل يوم غدوة كما ذكرناه ثم سافرنا من هذه المدينة ونزلنا فى زاوية عظيمة باحدى القرى من أحسن زاوية رأيتها فى تلك البلاد بناها أمير كبير تاب الى الله تعالى يسمى فخر الدين وجعل النظر فيها لولده والاشراف لمن أقام بالزاوية من الفقراء وفوائد القرية وقف عليها وبنى بازاء الزاوية حماما للسبيل يدخله الوارد والصادر من غير شئ يلزمه وبنى سوقا بالقرية ووقفه على المسجد الجامع وعين من أوقاف هذه الزاوية لكل فقير يرد من الحرمين الشريفين أو من الشام ومصر والعراقين وخراسان وسواها كسوة كاملة ومائة درهم يوم قدومه وثلاثمائة درهم يوم سفره والنفقة أيام مقامه وهى الخبز واللحم والارز المطبوخ بالسمن والحلواء ولكل فقير من بلاد الروم عشرة دراهم وضيافة ثلاثة أيام ثم انصرفنا وبتنا ليلة ثانية بزاوية فى جبل شامخ لا عمارة فيه عمرها بعض الفتيان الاخية ويعرف بنظام الدين من اهل قصطمونية ووقف عليها قرية

ينفق خراجها على الوارد والصادر بهذه الزاوية وسافرنا من هذه الزاوية الى مدينة صنوب (وضبط اسمها بفتح الصاد وضم النون وآخره باء) وهي مدينة حافلة جمعت بين التحصين والتحسين يحيط بها البحر من جميع جهاتها الا واحدة وهي جهة الشرق ولها هنالك باب واحد لا يدخل اليها أحد الا باذن أميرها وأميرها ابراهيم بك ابن السلطان سليمان بادشاه الذي ذكرناه ولما استؤذن لنا عليه دخلنا البلد ونزلنا بزاوية عز الدين أخي چلبي وهي خارج باب البحر ومن هنالك يصعد الى جبل داخل في البحر كميناء سبتة فيه البساتين والمزارع والمياه وأكثر فواكه التين والعنب وهو جبل مانع لا يستطاع الصعود اليه وفيه احدى عشرة قرية يسكنها كفار الروم تحت ذمة المسلمين وباعلاه رابطة تنسب للخضر والياس عليهما السلام لا تخلو عن متعبد وعندها عين ماء والدعاء فيها مستجاب وبسفح هذا الجبل قبر الولي الصالح الصحابي بلال الحبشي وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر والمسجد الجامع بمدينة صنوب من أحسن المساجد وفي وسطه بركة ماء عليها قبة تقلها أربع أرجل ومع كل رجل ساريتان من الرخام وفوقها مجلس يصعد له على درج خشب وذلك من عمارة السلطان بروانه ابن السلطان علاء الدين الرومي وكان يصلي الجمعة بأعلى تلك القبة وملك بعده ابنه غازي چلبي فلما مات تغلب عليها السلطان سليمان المذكور وكان غازي چلبي المذكور شجاعا مقداما ووهبه الله خاصية في الصبر تحت الماء وفي قوة السباحة وكان يسافر في الاجفان الحربية لحرب الروم فاذا كانت الملاقاة واشتغل الناس بالقتال غاص تحت الماء وبيده آلة حديد يخرق بها أجفان العدو فلا يشعرون بما حل بهم حتى يدهمهم الغرق وطرقت مرسى بلده مرة أجفان للعدو فخرقها وأسر من كان فيها وكانت فيه كفاية لا كفاء لها الا انهم يذكرون انه كان يكثر أكل الحشيش وبسببه مات فانه خرج يوما للتصيد وكان مولعا به فاتبع غزالة ودخلت له بين أشجار وزاد في ركض فرسه فعارضته شجرة فضربت رأسه فشدخته فمات وتغلب السلطان سليمان على البلد وجعل به ابنه ابراهيم ويقال انه أيضا يأكل ما كان يأكله صاحبه على ان أهل بلاد الروم كلها لا ينكرون أكلها ولقد مررت يوما على باب الجامع بصنوب وبخارجه دكاكين يقعد الناس عليها فرأيت نفرا من كبار الاجناد وبين أيديهم خديم لهم بيده شكارة مملوءة بشيء يشبه الحناء واحدهم يأخذ منها بملعقة ويأكل وأنا أنظر اليه ولا علم لي بما في الشكارة فسألت من كان معي فأخبرني انه الحشيش وأضافنا بهذه المدينة قاضيها ونائب الامير بها ومعلمه ويعرف بابن عبد الرزاق

(حكاية)

لما دخلنا هذه المدينة رآنا أهلها ونحن نصلي مسبلي أيدينا وهم حنفية لا يعرفون مذهب

مالك

مالك ولا كيفية صلاته والمختار من مذهبه هو اسبال اليدين وكان بعضهم يرى الروافض بالحجاز والعراق يصلون مسبلى أيديهم فاتهمونا بمذهبهم وسألونا عن ذلك فأخبرناهم اننا على مذهب مالك فلم يقنعوا بذلك منا واستقرت التهمة فى نفوسهم حتى بعث الينا نائب السلطان بارنب وأوصى بعض خدامه ان يلازمنا حتى يرى ما نفعل به فذبحناه وطبخناه واكلناه وانصرف الخديم اليه وأعلمه بذلك فحينئذ زالت عنا التهمة وبعثوا لنا بالضيافة والروافض لا يأكلون الارنب وبعد أربعة أيام من وصولنا الى صنوب توفيت أم الامير ابراهيم بها فخرجت فى جنازتها وخرج ابنها على قدميه كاشفا شعره وكذلك الامراء والمماليك وثيابهم مقلوبة وأما القاضى والخطيب والفقهاء فانهم قلبوا ثيابهم ولم يكشفوا رؤسهم بل جعلوا عليها مناديل من الصوف الاسود عوضا عن العمائم وأقاموا يطعمون الطعام أربعين يوما وهى مدة العزاء عندهم وكانت اقامتنا بهذه المدينة نحو أربعين يوما ننتظر تيسير السفر فى البحر الى مدينة القرم فاكترينا مركبا للروم وأقمنا أحد عشر يوما ننتظر مساعدة الريح ثم ركبنا البحر فلما توسطناه بعد ثلاث هال علينا واشتد بنا الامر ورأينا الهلاك عيانا وكنت بالطارمة ومعى رجل من أهل المغرب يسمى أبا بكر فأمرته ان يصعد الى أعلى المركب لينظر كيف البحر ففعل ذلك وأتانى بالطارمة فقال لى استودعكم الله ودهمنا من الهول ما لم يعهد مثله ثم تغيرت الريح وردتنا الى مقربة من مدينة صنوب التى خرجنا منها وأراد بعض التجار النزول الى مرساها فمنعت صاحب المركب من انزاله ثم استقامت الريح وسافرنا فلما توسطنا البحر هال علينا وجرى لنا مثل المرة الاولى ثم ساعدت الريح ورأينا جبال البر وقصدنا مرسى يسمى الكرش فأردنا دخوله فأشار الينا أناس كانوا بالجبل أن لا تدخلوا فخفنا على أنفسنا وظننا أن هنالك اجفانا للعدو فرجعنا مع البر فلما قاربناه قلت لصاحب المركب أريد ان أنزل ها هنا فانزلنى بالساحل ورأيت كنيسة فقصدتها فوجدت بها راهبا ورأيت فى أحد حيطان الكنيسة صورة رجل عربى عليه عمامة متقلد سيفا وبيده رمح وبين يديه سراج يتقد فقلت للراهب ما هذه الصورة فقال هذه صورة النبى على فعجبت من قوله وبتنا تلك الليلة بالكنيسة وطبخنا دجاجا فلم نستطع أكلها اذ كانت مما استصحبناه فى المركب ورائحة البحر قد غلبت على كل ما كان فيه وهذا الموضع الذى نزلنا به هو من الصحراء المعروفة بدشت قفجق (والدشت بالشين المعجم والتاء المثناة) بلسان الترك هو الصحراء وهذه الصحراء خضرة نضرة لا شجر بها ولا جبل ولا تل ولا ثنية ولا حطب وانما يوقدون الارواث ويسمونها التزك (بالزاى المفتوح) فترى كبراءهم يلقطونها ويجعلونها فى أطراف ثيابهم ولا يسافر فى هذه الصحراء الا فى العجل وهى مسيرة ستة أشهر ثلاثة منها فى بلاد السلطان محمد أوزبك وثلاثة فى بلاد غيره ولما كان الغد من يوم وصولنا الى هذا المرسى توجه بعض التجار من أصحابنا الى من بهذه

الصحراء من الطائفة المعروفة بقفجق وهم على دين النصرانية فاكترى منهم عجلة يجرها الفرس فركبناها ووصلنا الى مدينة الكفا (واسمها بكاف وفا مفتوحتين) وهي مدينة عظيمة مستطيلة على ضفة البحر يسكنها النصارى وأكثرهم الجنويون ولهم أمير يعرف بالدمدير ونزلنا منها بمسجد المسلمين

(حكاية)

ولما نزلنا بهذا المسجد أقمنا به ساعة ثم سمعنا أصوات النواقيس من كل ناحية ولما أكن سمعتها قط فهالني ذلك وأمرت أصحابي أن يصعدوا الصومعة ويقرؤا القرآن ويذكروا الله ويؤذنوا ففعلوا فاذا برجل قد دخل علينا وعليه الدرع والسلاح فسلم علينا واستفهمناه عن شأنه فأخبرنا أنه قاضي المسلمين هنالك وقال لما سمعت القراءة والاذان خفت عليكم فجئت كما ترون ثم انصرف عنا ومارأينا الاخيرا ولما كان من الغد جاء الينا الامير وصنع طعاما فأكلنا عنده وطفنا بالمدينة فرأيناها احسنة الاسواق وكلهم كفار ونزلنا الى مرساها فرأينا مرسى عجيبا به نحو مائتي مركب ما بين حربي وسفري صغيرا وكبيرا وهو من مراسي الدنيا الشهيرة ثم اكترينا عجلة وسافرنا الى مدينة القرم وهي (بكسر القاف وفتح الراء) مدينة كبيرة حسنة من بلاد السلطان المعظم محمد اوزبك خان وعليها أمير من قبله اسمه تلكتمور وضبط اسمه (بتاء مثناة مضمومة ولام مضموم وكاف مسكن وتاء كالاولى مضمومة وميم مضمومة وواو وراء) وكان أحد خدام هذا الامير قد صحبنا في طريقنا فعرفه بقدومنا فبعث الي مع امامه سعد الدين بفرس ونزلنا بزاوية شيخها زاده الخراساني فأكرمنا هذا الشيخ ورحب بنا وأحسن الينا وهو معظم عندهم ورأيت الناس يأتون للسلام عليه من قاض وخطيب وفقيه وسواهم وأخبرني هذا الشيخ زاده ان بخارج هذه المدينة راهبا من النصارى في دير يتعبد به ويكثر الصوم وانه انتهى الى ان يواصل أربعين يوما ثم يفطر على حبة فول وانه يكاشف بالامور ورغب مني ان أصحبه في التوجه اليه فأبيت ثم ندمت بعد ذلك على أن لم أكن رأيته وعرفت حقيقة أمره ولقيت بهذه المدينة قاضيها الاعظم شمس الدين السائلي قاضي الحنفية ولقيت بها قاضي الشافعية وهو يسمى بخضر والفقيه المدرس علاء الدين الاصي وخطيب الشافعية أبا بكر وهو الذي يخطب بالمسجد الجامع الذي عمره الملك الناصر رحمه الله بهذه المدينة والشيخ الحكيم الصالح مظفر الدين وكان من الروم فاسلم وحسن اسلامه والشيخ الصالح العابد مظاهر الدين وهو من الفقهاء المعظمين وكان الامير تلكتمور مريضا فدخلنا عليه فأكرمنا وأحسن الينا وكان على التوجه الى مدينة السرا حضرة السلطان محمد أوزبك فعملت على السير في صحبته واشتريت العجلات برسم ذلك

)*

(ذكر العجلات التي يسافر عليها بهذه البلاد)

وهم يسمون العجلة عربة (بعين مهملة وراء وباء موحدة مفتوحات) وهي عجلات تكون للواحدة منهن أربع بكرات كبار ومنها ما يجره فرسان ومنها ما يجره أكثر من ذلك وتجرها أيضا البقر والجمال على حال العربة في ثقلها أو خفتها والذي يخدم العربة يركب احدى الافراس التي تجرها ويكون عليه سرج وفي يده سوط يحركها للمشي وعود كبير يصوبها به اذا عاجت عن القصد ويجعل على العربة شبه قبة من قضبان خشب مربوط بعضها الى بعض بسيور جلد رقيق وهي خفيفة الحمل وتكسى باللبد أو بالملف ويكون فيها طيقان مشبكة ويرى الذي بداخلها الناس ولا يرونه ويتقلب فيها كما يحب وينام ويأكل ويقرأ ويكتب وهو في حال سيره والتي تحمل الاثقال والازواد وخزائن الاطعمة من هذه العربات يكون عليها شبه البيت كما ذكرنا وعليها قفل وجهزت لما أردت السفر عربة لركوبي مغشاة باللبد ومعي بها جارية لي وعربة صغيرة لرفيقي عفيف الدين التوزري وعجلة كبيرة لسائر الاصحاب يجرها ثلاثة من الجمال يركب احدها خادم العربة وسرنا في صحبة الامير تلكتمور وأخيه عيسى وولديه قطلودمور وصاربك وسافر أيضا معه في هذه الوجهة امامه سعد الدين والخطيب أبو بكر والقاضي شمس الدين والفقيه شرف الدين موسى والمعرف علاء الدين وخطة هذا المعرف ان يكون بين يدي الامير في مجلسه فاذا أتى القاضي يقف له هذا المعرف ويقول بصوت عال بسم الله سيدنا ومولانا قاضي القضاة والحكام مبين الفتاوى والاحكام بسم الله واذا أتى فقيه معظم أو رجل مشار اليه قال بسم الله سيدنا فلان الدين بسم الله فيتهيأ من كان حاضرا لدخول الداخل ويقوم اليه ويفسح له في المجلس وعادة الاتراك ان يسيروا في هذه الصحراء سيرا كسير الحجاج في درب الحجاز يرحلون بعد صلاة الصبح وينزلون ضحى ويرحلون بعد الظهر وينزلون عشيا واذا نزلوا حلوا الخيل والابل والبقر عن العربات وسرحوها للرعي ليلا ونهارا ولا يعلف احد دابة لا السلطان ولا غيره وخاصية هذه الصحراء ان نباتها يقوم مقام الشعير للدواب وليست لغيرها من البلاد هذه الخاصية ولذلك كثرت الدواب بها ودوابهم لا رعاة لها ولا حراس وذلك لشدة احكامهم في السرقة وحكمهم فيها انه من وجد عنده فرس مسروق كلف ان يرده الى صاحبه ويعطيه معه تسعة مثله فان لم يقدر على ذلك أخذ أولاده في ذلك فان لم يكن له أولاد ذبح كما تذبح الشاة وهؤلاء الاتراك لا يأكلون الخبز ولا الطعام الغليظ وانما يصنعون طعاما من شئ عندهم شبه الآنلي يسمونه الدوقي (بدال مهمل مضموم وواو وقاف مكسور معقود) يجعلون على النار الماء فاذا غلى صبوا عليه شيئا من الدوقي وان كان عندهم لحم قطعوه قطعا صغارا وطبخوه معه ثم يجعل لكل رجل نصيبه في صحفة ويصبون عليه اللبن الرائب ويشربونه ويشربون

عليه لبن الخيل وهم يسمونه القمز (بكسر القاف والميم والزاى المشددة) وهم أهل قوة وشدة وحسن مزاج ويستعملون فى بعض الاوقات طعاما يسمونه البورخانى وهو عجين يقطعونه قطيعات صغارا ويثقبون أوساطها ويجعلونها فى قدر فاذا طبخت صبوا عليها اللبن الرائب وشربوها ولهم نبيذ يصنعونه من حب الدوقى الذى تقدم ذكره وهم يرون أكل الحلواء عيبا ولقد حضرت يوما عند السلطان أوزبك فى رمضان فاحضرت لحوم الخيل وهى أكثر ما يأكلون من اللحم ولحوم الاغنام والرشتا وهو شبه الاطرية يطبخ ويشرب باللبن وأتيته تلك الليلة بطبق حلواء صنعها بعض أصحابى فقدمتها بين يديه فجعل أصبعه عليها وجعله على فيه ولم يزد على ذلك وأخبرنى الامير تلكتمور ان أحد الكبار من مماليك هذا السلطان وله من أولاده وأولاد أولاده نحو أربعين ولدا قال له السلطان يوما كل الحلواء وأعتقكم جميعا فأبى وقال لو قتلتنى ما أكلتها ولما خرجنا من مدينة القرم نزلنا بزاوية الامير تلكتمور فى موضع يعرف بسججان فبعث الى أن أحضر عنده فركبت اليه وكان لى فرس معدّل كوبى يقوده خديم العربة فاذا أردت ركوبه ركبته وأتيت الزاوية فوجدت الامير قد صنع بها طعاما كثيرا فيه الخبز ثم أتوا بماء أبيض فى صحاف صغار فشرب القوم منه وكان الشيخ مظفر الدين يلى الامير فى مجلسه وأنا اليه فقلت له ما هذا فقال هذا ماء الدهن فلم أفهم ما قال فذقته فوجدت له حموضة فتركته فلما خرجت سألت عنه فقالوا هو نبيذ يصنعونه من حب الدوقى وهم حنفية المذهب والنبيذ عندهم حلال ويسمون هذا النبيذ المصنوع من الدوقى البوزة (بضم الباء الموحدة وواو وزاى مفتوح) وانما قال لى الشيخ مظفر الدين ماء الدخن ولسانه فيه اللكنة الاعجمية فظننت انه يقول ماء الدهن وبعد مسيرة ثمانية عشر منزلا من مدينة القرم وصلنا الى ماء كثير نخوضه يوما كاملا واذا كثر خوض الدواب والعربات فى هذا الماء اشتد وحله وزاد صعوبة فذهب الامير الى راحتى وقدمنى أمامه مع بعض خدامه وكتب لى كتابا الى أمير أزاق يعلمه أنى أريد القدوم على الملك ويحضه على اكرامى وسرنا حتى انتهينا الى ماء آخر نخوضه نصف يوم ثم سرنا بعده ثلاثا ووصلنا الى مدينة أزاق (وضبط اسمها بفتح الهمزة والزاى وآخره قاف) وهى على ساحل البحر حسنة العمارة يقصدها الجنويون وغيرهم بالتجارات وبها من الفتيان أخى بجقجى وهو من العظماء يطعم الوارد والصادر ولما وصل كتاب الامير تلكتمور الى أمير ازاق وهو محمد خواجه الخوارزمى خرج الى استقبالى ومعه القاضى والطلبة وأخرج الطعام فلما سلمنا عليه نزلنا بموضع أكلنا فيه ووصلنا الى المدينة ونزلنا بخارجها بقربة من رابطة هنالك تنسب للخضر والياس عليهما السلام وخرج شيخ من أهل ازاق يسمى برجب النهرملكى نسبة الى قرية بالعراق فأضافنا بزاوية له ضيافة حسنة وبعد يومين من قدومنا قدم الامير تلكتمور وخرج الامير محمد للقائه

ومعه القاضي والطلبة وأعدوا له الضيافات وضربوا ثلاث قباب متصلا بعضها بعض احداها من الحرير الملون عجيبة والثنتان من الكتان وأدار وا عليها سراجة وهي المسماة عندنا أفراج وخارجها الدهليز وهو على هيئة البرج عندنا ولما نزل الامير بسطت بين يديه شقاق الحرير يمشى عليها فكان من مكارمه وفضله ان قدمنى أمامه ليرى ذلك الامير منزلتي عنده ثم وصلنا الى الخباء الاول وهي المعدة لجلوسه وفي صدرها كرسي من الخشب لجلوسه كبير مرصع وعليه مرتبة حسنة فقدمنى الامير أمامه وقدم الشيخ مظفر الدين وصعد هو فجلس فيما بيننا ونحن جميعا على المرتبة وجلس قاضيه وخطيبه وقاضي هذه المدينة وطلبتها عن يسار الكرسي على فرش فاخرة ووقف ولدا الامير تلكتمور وأخوه والامير محمد وأولاده في الخدمة ثم أتوا بالاطعمة من لحوم الخيل وسواها وأتوا بألبان الخيل ثم أتوا بالبوزة وبعد الفراغ من الطعام قرأ القرّاء بالاصوات الحسان ثم نصب منبر وصعده الواعظ وجلس القرّاء بين يديه وخطب خطبة بليغة ودعا للسلطان وللامير وللحاضرين يقول ذلك بالعربي ثم يفسره لهم بالتركي وفي أثناء ذلك يكرر القرّاء آيات من القرآن بترجيع عجيب ثم أخذوا في الغناء يغنون بالعربي ويسمونه القول ثم بالفارسي والتركي ويسمونه الملمع ثم أتوا بطعام آخر ولم يزالوا على ذلك الى العشى وكلما أردت الخروج منعني الامير ثم جاءوا بكسوة للامير وكسى لولديه وأخيه وللشيخ مظفر الدين ولي وأتوا بعشرة أفراس للامير ولاخيه ولولديه بستة أفراس ولكل كبير من أصحابه بفرس ولي بفرس والخيل بهذه البلاد كثيرة جدا وثمنها نزر قيمة الجيد منها خمسون درهما أوستون من دراهمهم وذلك صرف دينار من دنانيرنا أونحوه وهذه الخيل هي التي تعرف بمصر بالاكاديش ومنها معاشهم وهي ببلادهم كالغنم ببلادنا بل أكثر فيكون للتركي منهم آلاف منها ومن عادة الترك المستوطنين تلك البلاد أصحاب الخيل انهم يضعون في العربات التي تركب فيها نساؤهم قطعة لبد في طول الشبر مربوطة الى عود رقيق في طول الذراع في ركن العربة ويجعل لكل ألف فرس قطعة ورأيت منهم من يكون له عشر قطع ومن له دون ذلك وتحمل هذه الخيل الى بلاد الهند فيكون في الرفقة منها ستة آلاف وما فوقها وما دونها لكل تاجر المائة والمائتان فادون ذلك وما فوقه ويستأجر التاجر لكل خمسين منها راعيا يقوم عليها ويرعاها كالغنم ويسمى عندهم القشى ويركب أحدها وبيده عصى طويلة فيها حبل فاذا أراد أن يقبض على فرس منها حاذاه بالفرس الذي هو راكبه ورمى الحبل في عنقه وجذبه فيركبه ويترك الآخر للرعى واذا وصلوا بها الى أرض السند أطعموها العلف لان نبات أرض السند لا يقوم مقام الشعير ويموت لهم منها الكثير ويسرق ويغرمون عليها بأرض السند سبعة دنانير فضة على الفرس بموضع يقال له ششنقار ويغرمون عليها بملتان قاعدة بلاد السند وكانوا

فيما تقدم يغرمون ربع ما يجلبونه فرفع ملك الهند السلطان محمد ذلك وأمر ان يؤخذ من تجار المسلمين الزكاة ومن تجار الكفار العشر ومع ذلك يبقى للتجار فيها فضل كبير لانهم يبيعون الرخيص منها ببلاد الهند بمائة دينار دراهم وصرفها من الذهب المغربي خمسة وعشرون دينارا وربما باعوها بضعف ذلك وضعفه وضعفيه والجياد منها تساوي خمسمائة دينار وأكثر من ذلك وأهل الهند لا يبتاعونها للجري والسبق لانهم يلبسون في الحرب الدروع ويدرعون الخيل وانما يبتغون قوة الخيل واتساع خطاها والخيل التي يبتغونها للسبق تجلب اليهم من اليمن وعمان وفارس ويباع الفرس منها بألف دينار الى أربعة آلاف ولما سافر الامير تلكتمور عن هذه المدينة أقمت بعده ثلاثة أيام حتى جهز لي الامير محمد خواجه آلات سفري وسافرت الى مدينة الماجر وهي (بفتح الميم وألف وجيم مفتوح معقود وراء) مدينة كبيرة من أحسن مدن الترك على نهر كبير وبها البساتين والفواكه الكثيرة نزلنا منها بزاوية الشيخ الصالح العابد المعمر محمد البطائحي من بطائح العراق وكان خليفة الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنه وفي زاويته نحو سبعين من فقراء العرب والفرس والترك والروم منهم المتزوج والعزب وعيشهم من الفتوح ولاهل تلك البلاد اعتقاد حسن في الفقراء وفي كل ليلة يأتون الى الزاوية بالخيل والبقر والغنم ويأتي السلطان والخواتين لزيارة الشيخ والتبرك به ويجزلون الاحسان ويعطون العطاء الكثير وخصوصا النساء فانهن يكثرن الصدقة ويتحرين أفعال الخير وصلينا بمدينة الماجر صلاة الجمعة فلما قضيت الصلاة صعد الواعظ عز الدين المنبر وهو من فقهاء بخارى وفضلائها وله جماعة من الطلبة والقراء يقرؤون بين يديه ووعظ وذكر وأمير المدينة حاضر وكبراؤها فقام الشيخ محمد البطائحي فقال ان الفقيه الواعظ يريد السفر ونريد له زوادة ثم خلع فرجية مرعز كانت عليه وقال هذه مني اليه فكان الحاضرون بين من خلع ثوبه ومن أعطى فرسا ومن أعطى دراهم واجتمع له كثير من ذلك كله ورأيت بقيسارية هذه المدينة يهوديا سلم علي وكلمني بالعربي فسألته عن بلاده فذكر انه من بلاد الاندلس وانه قدم منها في البر ولم يسلك بحرا وأتى على طريق القسطنطينية العظمى وبلاد الروم وبلاد الجركس وذكر ان عهده بالاندلس منذ أربعة أشهر وأخبرني التجار المسافرون الذين لهم المعرفة بذلك بصحة مقاله ورأيت بهذه البلاد عجبا من تعظيم النساء عندهم وهن أعلى شأنا من الرجال فأما نساء الامراء فكانت أول رؤيتي لهن عند خروجي من القرم رؤية الخاتون زوجة الامير سلطية في عربة لها وكلها مجللة بالملف الازرق الطيب وطيقان البيت مفتوحة وأبوابه وبين يديها أربع جوار فاتنات الحسن بديعات اللباس وخلفها جملة من العربات فيها جوار يتبعنها ولما قربت من منزل الامير نزلت عن العربة الى الارض ونزل معها نحو ثلاثين من الجواري

يرفعن

يرفعن أذيالها ولاثوابها عرى تأخذ كل جارية بعروة ويرفعن الاذيال عن الارض من كل جانب ومشت كذلك متبخترة فلما وصلت الى الامير قام اليها وسلم عليها وأجلسها الى جانبه ودار بها جواريها وجاؤا بروايا القمز فصبت منه فى قدح وجلست على ركبتيها قدام الامير وناولته القدح فشرب ثم سقت أخاه وسقاها الامير وحضر الطعام فأكلت معه وأعطاها كسوة وانصرفت وعلى هذا الترتيب نساء الامراء وسنذكر نساء الملك فيما بعد وأما نساء الباعة والسوقة فرأيتهن واحداهن تكون فى العربة والخيل تجرها وبين يديها الثلاث والاربع من الجوارى يرفعن أذيالها وعلى رأسها البغطاق وهو أقروف مرصع بالجوهر وفى أعلاه ريش الطواويس وتكون طيقان البيت مفتحة وهى بادية الوجه لان نساء الاتراك لا يحتجبن وتأتى احداهن على هذا الترتيب ومعها عبيدها بالغنم واللبن فتبيعه من الناس بالسلع العطرية وربما كان مع المرأة منهن زوجها فيظنه من يراه بعض خدامها ولا يكون عليه من الثياب الا فروة من جلد الغنم وفى رأسه قلنسوة تناسب ذلك يسمونها الكلا وتجهزنا من مدينة الماجر نقصد معسكر السلطان وكان على أربعة أيام من الماجر بموضع يقال له بش دغ ومعنى بش عندهم خمسة وهو (بكسر الباء وشين معجم) ومعنى دغ الجبل وهو (بفتح الدال المهمل وغين معجم) وبهذه الجبال الخمسة عين ماء حار يغتسل منها الاتراك ويزعمون انه من اغتسل منها لم تصبه عاهة مرض وارتحلنا الى موضع المحلة فوصلناه أول يوم من رمضان فوجدنا المحلة قد رحلت فعدنا الى الموضع الذى رحلنا منه لان المحلة تنزل بالقرب منه فضربت بيتى على تل هنالك وركزت العلم أمام البيت وجعلت الخيل والعربات وراء ذلك وأقبلت المحلة وهم يسمونها الاردو بضم الهمزة فرأينا مدينة عظيمة تسير بأهلها فيها المساجد والاسواق ودخان المطبخ صاعد فى الهواء وهم يطبخون فى حال رحيلهم والعربات تجرها الخيل بهم فاذا بلغوا المنزل نزلوا البيوت عن العربات وجعلوها على الارض وهى خفيفة المحمل وكذلك يصنعون بالمساجد والحوانيت واجتازت بنا خواتين السلطان كل واحدة بناسها على حدة ولما اجتازت الرابعة منهن وهى بنت الامير عيسى بك وسنذكرها رأت البيت بأعلى التل والعلم أمامه وهو علامة الوارد فبعثت الفتيان والجوارى فسلموا على وبلغوا اسلامها الى وهى واقفة تنتظرهم فبعثت اليها هدية مع بعض أصحابى ومع معرف الامير تلكتمور فقبلتها تبركا وأمرت ان أنزل فى جوارها وانصرفت وأقبل السلطان فنزل فى محلته على حدة

(ذكر السلطان المعظم محمد أوزبك خان)

واسمه محمد أوزبك (بضم الهمزة وواو وزاى مسكن وباء موحدة مفتوحة) ومعنى خان عندهم السلطان وهذا السلطان عظيم المملكة شديد القوة كبير الشان رفيع المكان قاهر

لاعداء الله أهل قسطنطينية العظمى مجتهد فى جهادهم وبلادهم متسعة ومدنه عظيمة منها الكفا والقرم والماجر وازاق وسرداق (سوداق) وخوارزم وحضرته السرا وهو احد الملوك السبعة الذين هم كبراء ملوك الدنيا وعظماؤها وهم مولانا أمير المؤمنين ظل الله فى أرضه امام الطائفة المنصورة الذين لا يزالون ظاهرين على الحق الى قيام الساعة أيد الله أمره وأعز نصره وسلطان مصر والشام وسلطان العراق والسلطان أوزبك هذا وسلطان بلاد تركستان وماوراء النهر وسلطان الهند وسلطان الصين ويكون هذا السلطان اذا سافر فى محلة على حدة معه مماليكه وأرباب دولته وتكون كل خاتون من خواتينه على حدة فى محلتها فاذا أراد ان يكون عند واحدة منهن بعث اليها يعلمها بذلك فتتهيأ له وله فى قعوده وسفره وأموره ترتيب عجيب بديع ومن عادته ان يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة فى قبة تسمى قبة الذهب مزينة بديعة وهى من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب وفى وسطها سرير من خشب مكسو بصفائح الفضة المذهبة وقوائمه فضة خالصة ورؤسها مرصعة بالجواهر ويقعد السلطان على السرير وعلى يمينه الخاتون طيطغلى وتليها الخاتون كبك وعلى يساره الخاتون بيلون وتليها الخاتون اردجى ويقف أسفل السرير عن اليمين ولد السلطان تين بك وعن الشمال ولده الثانى جان بك وتجلس بين يديه ابنته ايت كجك واذا أتت احداهن قام لها السلطان وأخذ بيدها حتى تصعد على السرير وأما طيطغلى وهى الملكة واحظاهن عنده فانه يستقبلها الى باب القبة فيسلم عليها ويأخذ بيدها فاذا صعدت على السرير وجلست حينئذ يجلس السلطان وهذا كله على أعين الناس دون احتجاب ويأتى بعد ذلك كبار الامراء فتنصب لهم كراسيهم عن اليمين والشمال وكل انسان منهم اذا أتى مجلس السلطان يأتى معه غلام بكرسيه ويقف بين يدى السلطان أبناء الملوك من بنى عمه واخوته وأقاربه ويقف فى مقابلتهم عند باب القبة أولاد الامراء الكبار ويقف خلفهم وجوه العساكر عن يمين وشمال ثم يدخل الناس للسلام الامثل فالامثل ثلاثة ثلاثة فيسلمون وينصرفون فيجلسون على بعد فاذا كان بعد صلاة العصر انصرفت الملكة من الخواتين ثم ينصرف سائرهن فيتبعنها الى محلتها فاذا دخلت اليها انصرفت كل واحدة الى محلتها راكبة عربتها ومع كل واحدة نحو خمسين جارية راكبات على الخيل وامام العربة نحو عشرين من قواعد النساء راكبات على الخيل فيما بين الفتيان والعربة وخلف الجميع نحو مائة مملوك من الصبيان وامام الفتيان نحو مائة من المماليك الكبار ركبانا ومثلهم مشاة بأيديهم القضبان والسيوف مشدودة على أوساطهم وهم بين الفرسان والفتيان وهكذا ترتيب كل خاتون منهن فى انصرافها ومجيئها وكان نزولى من المحلة فى جوار ولد السلطان جان بك الذى يقع ذكره فيما بعد وفى

الغد

الغد من يوم وصولى دخلت الى السلطان بعد صلاة العصر وقد جمع المشايخ والقضاة والفقهاء والشرفاء والفقراء وقد صنع طعاما كثيرا وافطرنا بحضره وتكلم السيد الشريف نقيب الشرفاء ابن عبد الحميد والقاضى حمزة فى شأنى بالخير وأشار وا على السلطان باكرامى وهؤلاء الاتراك لا يعرفون انزال الوارد ولا اجراء النفقة وانما يبعثون له الغنم والخيل للذبح وروايا القمز وتلك كرامتهم وبعد هذا بأيام صليت صلاة العصر مع السلطان فلما أردت الانصراف أمرنى بالقعود وجاؤا بالطعام من المشروبات كما يصنع من الدوقى ثم باللحوم المسلوقة من الغنم والخيل وفى تلك الليلة أتيت السلطان بطبق حلواء فجعل أصبعه عليه وجعله على فيه ولم يزد على ذلك

(ذكر الخواتين وترتيبهن)

وكل خاتون منهن تركب فى عربة وللبيت الذى تكون فيه قبة من الفضة المموهة بالذهب أو من الخشب المرصع وتكون الخيل التى تجر عربتها مجللة بأثواب الحرير المذهب وخديم العربة الذى يركب أحد الخيل فتى يدعى القشى والخاتون قاعدة فى عربتها وعن يمينها امرأة من القواعد تسمى أولوخاتون (بضم الهمزة واللام) ومعنى ذلك الوزيرة وعن شمالها امرأة من القواعد أيضا تسمى كجك خاتون (بضم الكاف والجيم) ومعنى ذلك الحاجبة وبين يديها ست من الجوارى الصغار يقال لهن البنات فائقات الجمال متناهيات الكمال ومن ورائها ثنتان منهن تستند اليهن وعلى رأس الخاتون البغطاق وهو مثل التاج الصغير مكلل بالجواهر وبأعلاه ريش الطواويس وعليها ثياب حرير مرصعة بالجوهر شبه المنوت (الملوطة) التى يلبسها الروم وعلى رأس الوزيرة والحاجبة مقنعة حرير مزركشة الحواشى بالذهب والجوهر وعلى رأس كل واحدة من البنات الكلا وهو شبه الاقروف وفى أعلى دائره ذهب مرصعة بالجوهر وريش الطواويس من فوقها وعلى كل واحدة ثوب حرير مذهب يسمى النخ ويكون بين يدى الخاتون عشرة أو خمسة عشر من الفتيان الروميين والهنديين وقد لبسوا ثياب الحرير المذهب المرصعة بالجواهر وبيد كل واحد منهم عمود ذهب أو فضة أو يكون من عود ملبس بهما وخلف عربة الخاتون نحو مائة عربة فى كل عربة الثلاث والاربع من الجوارى الكبار والصغار ثيابهن الحرير وعلى رؤسهن الكلا وخلف هذه العربات نحو ثلاثمائة عربة تجرها الجمال والبقر تحمل خزائن الخاتون وأموالها وثيابها وأثاثها وطعامها ومع كل عربة غلام موكل بها متزوج بجارية من الجوارى التى ذكرنا فان العادة عندهم انه لا يدخل بين الجوارى من الغلمان الا من كان له بينهن زوجة وكل خاتون فهى على هذا الترتيب ولنذكرهن على الانفراد

(ذكر الخاتون الكبرى)

والخاتون الكبرى هي الملكة أمّ ولدى السلطان جان بك وتين بك وسنذكرهما وليست أمّ ابنته ايت كجك وأمّها كانت الملكة قبل هذه واسم هذه الخاتون طيطغلى (بفتح الطاء المهملة الاولى واسكان الياء آخر الحروف وضم الطاء الثانية واسكان الغين المعجمة وكسر اللام وياء مدّ) وهي احظى نساء هذا السلطان عنده وعندها يبيت أكثر لياليه ويعظمها الناس بسبب تعظيمه لها والا فهي أبخل الخواتين وحدّثني من اعتمده من العارفين باخبار هذه الملكة ان السلطان يحبها للخاصية التي فيها وهي انه يجدها كل ليلة كانها بكر وذكر لى غيره انها من سلالة المرأة التي يذكر ان الملك زال عن سليمان عليه السلام بسببها ولما عاد اليه ملكه أمر ان توضع بصحراء لا عمارة فيها فوضعت بصحراء قفجق وان رحم هذه الخاتون شبه الحلقة خلقة وكذلك كل من هو من نسل المرأة المذكورة ولم أر بصحراء قفجق ولا غيرها من أخبر انه رأى امرأة على هذه الصورة ولا سمع بها الا هذه الخاتون اللهم الا ان بعض أهل الصين أخبرني ان بالصين صنفا من نسائها على هذه الصورة ولم يقع بيدى ذلك ولا عرفت له حقيقة وفى غد اجتماعى بالسلطان دخلت الى هذه الخاتون وهي قاعدة فيما بين عشر من النساء القواعد كانهنّ خديمات لها وبين يديها نحو خمسين جارية صغارا يسمون البنات وبين ايديهنّ طيافير الذهب والفضة مملوءة بحبّ الملوك وهنّ ينقينه وبين يدى الخاتون صينية ذهب مملوءة منه وهي تنقيه فسلمنا عليها وكان في جملة أصحابي قارئ يقرأ القرآن على طريقة المصريين بطريقة حسنة وصوت طيب فقرأ ثم أمرت ان يؤتى بالقمز فأتى به في أقداح خشب لطاف خفاف فأخذت القدح بيدها وناولتنى اياه وتلك نهاية الكرامة عندهم ولم أكن شربت القمز قبلها ولكن لم يمكنني الا قبوله وذقته ولا خير فيه ودفعته لاحد أصحابي وسألتني عن كثير من حال سفرنا فأجبناها ثم انصرفنا عنها وكان ابتداؤنا بها لاجل عظمتها عند الملك

(ذكر الخاتون الثانية التي تلى الملكة)

واسمها كبك خاتون (بفتح الكاف الاولى وفتح الباء الموحدة) ومعناه بالتركية النخالة وهي بنت الامير نغطى (واسمه بنون وغين معجمة وطاء مهملة مفتوحات وياء مسكنة) وأبوها حىّ مبتلى بعلة النقرس وقد رأيته وفى غد دخولنا على الملكة دخلنا على هذه الخاتون فوجدناها على مرتبة تقرأ في المصحف الكريم وبين يديها نحو عشر من النساء القواعد ونحو عشرين من البنات يطرّزن ثيابا فسلمنا عليها وأحسنت في السلام والكلام وقرأ قارئنا فاستحسنته وأمرت بالقمز فأحضر وناولتني القدح بيدها كمثل مافعلته الملكة وانصرفنا عنها

*(

(ذكر الخاتون الثالثة)

واسمها بيلون (بباء موحدة وياء آخر الحروف كلاهما مفتوح ولام مضموم وواو مدّ ونون) وهي بنت ملك القسطنطينية العظمى السلطان تكفور ودخلنا على هذه الخاتون وهي قاعدة على سرير مرصع قوائمه فضة وبين يديها نحو مائة جارية روميات وتركيات ونوبيات منهن قائمات وقاعدات والفتيان على رأسها والحجاب بين يديها من رجال الروم فسألت عن حالنا ومقدمنا وبعد أوطاننا وبكت ومسحت وجهها بمنديل كان بين يديها رقة منها وشفقة وأمرت بالطعام فأحضر وأكلنا بين يديها وهي تنظر الينا ولما أردنا الانصراف قالت لا تنقطعوا عنا وترددوا الينا وطالعونا بحوائجكم وأظهرت مكارم الاخلاق وبعثت في أثرنا بطعام وخبز كثير وسمن وغنم ودراهم وكسوة جيدة وثلاثة من جياد الخيل وعشرة من سائرها ومع هذه الخاتون كان سفري الى القسطنطينية العظمى كما نذكره بعد

(ذكر الخاتون الرابعة)

واسمها اردوجا (بضم الهمزة واسكان الراء وضم الدال المهمل وجيم وألف) واردو بلسانهم المحلة وسميت بذلك لولادتها في المحلة وهي بنت الامير الكبير عيسى بك أمير الالوس (بضم الهمزة واللام) ومعناه أمير الامراء وأدركته حيا وهو متزوج ببنت السلطان ايت كجحك وهذه الخاتون من أفضل الخواتين وألطفهن شمائل وأشفقهن وهي التي بعثت الي لما رأت بيتي على التل عند جواز المحلة كما قدمناه دخلنا عليها فرأينا من حسن خلقها وكرم نفسها مالا مزيد عليه وأمرت بالطعام فأكلنا بين يديها ودعت بالقمز فشرب أصحابنا وسألت عن حالنا فأجبناها ودخلنا أيضا الى أختها زوجة الامير علي بن أرزق

(ذكر بنت السلطان المعظم أوزبك)

واسمها ايت كجحك وايت (بكسر الهمزة وياء مدّ وتاء مثناة وكجحك بضم الكاف وضم الجيمين) ومعنى اسمها الكلب الصغير فان ايت هو الكلب وكجحك هو الصغير وقد قدمنا ان الترك يسمون بالفأل كما تفعل العرب وتوجهنا الى هذه الخاتون بنت الملك وهي في محلة منفردة على نحو ستة أميال من محلة والدها فأمرت باحضار الفقهاء والقضاة والسيد الشريف ابن عبد الحميد وجماعة الطلبة والمشايخ والفقراء وحضر زوجها الامير عيسى الذي بنته زوجة السلطان فقعد معها على فراش واحد وهو معتل بالنقرس فلا يستطيع التصرف على قدميه ولا ركوب الفرس وانما يركب العربة واذا أراد الدخول على السلطان أنزله خدامه وأدخلوه الى المجلس محمولا وعلى هذه الصورة رأيت أيضا الامير نغطي وهو أبو الخاتون الثانية وهذه العلة فاشية في هؤلاء الاتراك ورأينا من هذه الخاتون بنت السلطان من المكارم وحسن

الاخلاق مالم نره من سواها واجزلت الاحسان وأفضلت جزاها الله خيرا

(ذكر ولدى السلطان)

وهما شقيقان وأمهما جميعا الملكة طيطغلى التى قدمنا ذكرها والاكبر منهما اسمه تين بك (بتاء معلوة مكسورة وياء مدّ ونون مفتوح) وبك معناه الامير وتين معناه الجسد فكأن اسمه أمير الجسد واسم أخيه جان بك (بفتح الجيم وكسر النون) ومعنى جان الروح فكأنه يسمى امير الروح وكل واحد منهما له محلة على حدة وكان تين بك من أجمل خلق الله صورة وعهد له أبوه بالملك وكانت له الحظوة والتشريف عنده ولم يرد الله ذلك فانه لما مات أبوه ولى يسيرا ثم قتل لامور قبيحة جرت له وولى أخوه جان بك وهو خير منه وأفضل وكان السيد الشريف ابن عبد الحميد هو الذى تولى تربية جان بك وأشار على هو والقاضى حمزة والامام بدر الدين القوامى والامام المقرئ حسام الدين البخارى وسواهم حين قدومى أن يكون نزولى بمحلة جان بك المذكور لفضله ففعلت ذلك

(ذكر سفرى الى مدينة بلغار)

وكنت سمعت بمدينة بلغار فأردت التوجه اليها لارى ما ذكر عنها من انتهاء قصر الليل بها وقصر النهار أيضا فى عكس ذلك الفصل وكان بينها وبين محلة السلطان مسيرة عشر فطلبت منه من يوصلنى اليها فبعث معى من أوصلنى اليها وردنى اليه ووصلتها فى رمضان فلما صلينا المغرب أفطرنا وأذن بالعشاء فى اثناء افطارنا فصليناها وصلينا التراويح والشفع والوتر وطلع الفجر أثر ذلك وكذلك يقصر النهار بها فى فصل قصره أيضا وأقمت بها ثلاثا

(ذكر أرض الظلمة)

وكنت أردت الدخول الى ارض الظلمة والدخول اليها من بلغار وبينهما أربعون يوما ثم أضربت عن ذلك لعظم المؤنة فيه وقلة الجدوى والسفر اليها لا يكون الا فى عجلات صغار تجرها كلاب كبار فان تلك المفازة فيها الجليد فلا يثبت قدم الادمى ولا حافر الدابة فيها والكلاب لها الاظفار فتثبت اقدامها فى الجليد ولا يدخلها الا الاقوياء من التجار الذين يكون لاحدهم مائة عجلة أو نحوها موقرة بطعامه وشرابه وحطبه فانها لا شجر فيها ولا حجر ولا مدر والدليل بتلك الارض هو الكلب الذى قد سار فيها مرارا كثيرة وتنتهى قيمته الى ألف دينار ونحوها وتربط العربة الى عنقه ويقرن معه ثلاثة من الكلاب ويكون هو المقدّم وتتبعه سائر الكلاب بالعربات فاذا وقف وقفت وهذا الكلب لا يضربه صاحبه ولا ينهره واذا حضر الطعام أطعم الكلاب أولا قبل بنى آدم والا غضب الكلب وفرّ وترك صاحبه للتلف فاذا كملت للمسافرين بهذه الفلاة أربعون مرحلة نزلوا عند الظلمة وترك كل واحد منهم ما جاء به

من

من المتاع هنالك وعادوا الى منزلهم المعتاد فاذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم فيجدون بازائه من السمور والسنجاب والقاقم فان أرضى صاحب المتاع ماوجده ازاء متاعه أخذه وان لم يرضه تركه فيزيدونه وربما رفعوا متاعهم أعنى أهل الظلمة وتركوا متاع التجار وهكذا بيعهم وشراؤهم ولا يعلم الذين يتوجهون الى هنالك من يبايعهم ويشاريهم أمن الجن هو أم من الانس ولا يرون أحدا والقاقم هو أحسن أنواع الفراء وتساوى الفروة منه ببلاد الهند ألف دينار وصرفها من ذهبنا مائتان وخمسون وهى شديدة البياض من جلد حيوان صغير فى طول الشبر وذنبه طويل يتركونه فى الفروة على حاله والسمور دون ذلك تساوى الفروة منه أربعمائة دينار فدونها ومن خاصية هذه الجلود انه لا يدخلها القمل وأمراء الصين وكبارها يجعلون منه الجلد الواحد متصلا بفراءتهم عند العنق وكذلك تجار فارس والعراقين وعدت من مدينة بلغار مع الامير الذى بعثه السلطان فى صحبتى فوجدت محلة السلطان على الموضع المعروف بش دغ وذلك فى الثامن والعشرين من رمضان وحضرت معه صلاة العيد وصادف يوم العيد يوم الجمعة

(ذكر ترتيبهم فى العيد)

ولما كان صباح يوم العيد ركب السلطان فى عساكره العظيمة وركبت كل خاتون عربتها ومعها عساكرها وركبت بنت السلطان والتاج على رأسها اذ هى الملكة على الحقيقة ورثت الملك من أمها وركب أولاد السلطان كل واحد فى عسكره وكان قد قدم لحضور العيد قاضى القضاة شهاب الدين السايلى ومعه جماعة من الفقهاء والمشايخ فركبوا وركب القاضى حمزة والامام بدر الدين القوامى والشريف ابن عبد الحميد وكان ركوب هؤلاء الفقهاء مع تين بك ولى عهد السلطان ومعهم الاطبال والاعلام فصلى بهم القاضى شهاب الدين وخطب أحسن خطبة وركب السلطان وانتهى الى برج خشب يسمى عندهم الكشك فجلس فيه ومعه خواتينه ونصب برج ثان دونه فجلس فيه ولى عهده وابنته صاحبة التاج ونصب برجان دونهما عن يمينه وشماله فيهما أبناء السلطان واقاربه ونصبت الكراسى للامراء وأبناء الملوك وتسمى الصندليات عن يمين البرج وشماله فجلس كل واحد على كرسيه ثم نصبت طبلات للرمى لكل أمير طومان طبلة مختصة به وأمير طومان عندهم هو الذى يركب له عشرة آلاف فكان الحاضرون من أمراء طومان سبعة عشر يقودون مائة وسبعين ألفا وعسكره أكثر من ذلك ونصب لكل أمير شبه منبر فقعد عليه وأصحابه يلعبون بين يديه فكانوا على ذلك ساعة ثم أتى بالخلع فخلعت على كل أمير خلعة وعند ما يلبسها يأتى الى أسفل برج السلطان فيخدم وخدمته أن يمس الارض بركبته اليمنى ويمد رجله تحتها والاخرى قائمة ثم يؤتى بفرس

مسرج ملجم فيرفع حافره ويقبل فيه الامير ويقوده بنفسه الى كرسيه وهنالك يربه ويقف مع عسكره ويفعل هذا الفعل كل أمير منهم ثم ينزل السلطان على البرج ويركب الفرس وعن يمينه ابنه ولى العهد وتليه بنته الملكة إيت كجحك وعن يساره ابنه الثانى وبين يديه الخواتين الاربع فى عربات مكسوة بأثواب الحرير المذهب والخيل التى تجرها مجللة بالحرير المذهب وينزل جميع الامراء الكبار والصغار وأبناء الملوك والوزراء والحجاب وأرباب الدولة فيمشون بين يدى السلطان على اقدامهم الى أن يصل الى الوطاق والوطاق (بكسر الواو) وهو افراج وقد نصبت هنالك باركة (بارگاه) عظيمة والباركة عندهم بيت كبير له أربعة اعمدة من الخشب مكسوة بصفائح الفضة المموهة بالذهب وفى أعلى كل عمود جامور من الفضة المذهبة له بريق وشعاع وتظهر هذه الباركة على البعد كأنها ثنية ويوضع عن يمينها ويسارها سقائف من القطن والكتان ويفرش ذلك كله بفرش الحرير وينصب فى وسط الباركة السرير الاعظم وهم يسمونه التخت وهو من خشب مرصع وأعواده مكسوة بصفائح فضة مذهبة وقوائمه من الفضة الخالصة المموهة وفوقه فرش عظيم وفى وسط هذا السرير الاعظم مرتبة يجلس بها السلطان والخاتون الكبرى وعن يمينه مرتبة جلست بها بنته إيت كجحك ومعها الخاتون اردوجا وعن يساره مرتبة جلست بها الخاتون بيلون ومعها الخاتون كبك ونصب عن يمين السرير كرسى قعد عليه تين بك ولد السلطان ونصب عن شماله كرسى قعد عليه جان بك ولده الثانى ونصبت كراسى عن اليمين والشمال جلس فوقها أبناء الملوك والامراء الكبار ثم الامراء الصغار مثل أمراء هزارة وهم الذين يقودون ألفا ثم أتى بالطعام على موائد الذهب والفضة وكل مائدة يحملها أربعة رجال وأكثر من ذلك وطعامهم لحوم الخيل والغنم مسلوقة وتوضع بين يدى كل أمير مائدة ويأتى الباورجى وهو مقطع اللحم وعليه ثياب حرير وقد ربط عليها فوطة حرير وفى حزامه جملة سكاكين فى أغمادها ويكون لكل أمير باورجى فاذا قدمت المائدة قعد بين يدى أميره ويؤتى بصحفة صغيرة من الذهب أو الفضة فيها ملح محلول بالماء فيقطع الباورجى اللحم قطعا صغارا ولهم فى ذلك صنعة فى قطع اللحم مختلطا بالعظم فانهم لا يأكلون منه الا ما اختلط بالعظم ثم يؤتى بأوانى الذهب والفضة للشرب وأكثر شربهم نبيذ العسل وهم حنفية المذهب يحللون النبيذ فاذا أراد السلطان أن يشرب أخذت بنته القدح بيدها وخدمت برجلها ثم ناولته القدح فشرب ثم تأخذ قدحا آخر فتناوله للخاتون الكبرى فتشرب منه ثم تناول لسائر الخواتين على ترتيبهن ثم يأخذ ولى العهد القدح ويخدم ويناوله أباه فيشرب ثم يناول الخواتين ثم أخته ويخدم لجميعهن ثم يقوم الولد الثانى فيأخذ القدح ويسقى أخاه ويخدم له ثم يقوم الامراء الكبار فيسقى كل واحد منهم ولى العهد ويخدم له

ثم يقوم أبناء الملوك فيسقى كل واحد منهم هذا الابن الثانى ويخدم له ثم يقوم الامراء الصغار فيسقون أبناء الملوك ويغنون أثناء ذلك بالموالية وكانت قد نصبت قبة كبيرة ايضا ازاء المسجد للقاضى والخطيب والشريف وسائر الفقهاء والمشايخ وأنا معهم فأوتينا بموائد الذهب والفضة يحمل كل واحدة أربعة من كبار الاتراك ولا يتصرف فى ذلك اليوم بين يدى السلطان الا الكبار فيأمرهم برفع ما أراد من الموائد الى من أراد فكان من الفقهاء من أكل ومنهم من تورع عن الاكل فى موائد الفضة والذهب ورأيت مدّ البصر عن اليمين والشمال من العربات عليها روايا القمز فأمر السلطان بتفريقها على الناس فأتوا الىّ بعربة منها فأعطيتها لجيرانى من الاتراك ثم أتينا المسجد ننتظر صلاة الجمعة فأبطأ السلطان فمن قائل انه لا يأتى لان السكر قد غلب عليه ومن قائل انه لا يترك الجمعة فلما كان بعد تمكن الوقت أتى وهو يتمايل فسلم على السيد الشريف وتبسم له وكان يخاطبه بآطا وهو الاب بلسان التركية ثم صلينا الجمعة وانصرف الناس الى منازلهم وانصرف السلطان الى البارگة فبقى على حاله الى صلاة العصر ثم انصرف الناس أجمعون وبقى مع الملك تلك الليلة خواتينه وبنته ثم كان رحيلنا مع السلطان والمحلة لما انقضى العيد فوصلنا الى مدينة الحاج ترخان ومعنى ترخان عندهم الموضع المحرّر من المغارم (وهو بفتح التاء المثناة وسكون الراء وفتح الخاء المعجم وآخره نون) والمنسوب اليه هذه المدينة هو حاج من الصالحين تركى نزل بموضعها وحرّر له السلطان ذلك الموضع فصار قرية ثم عظمت وتمدنت وهى من أحسن المدن عظيمة الاسواق مبنية على نهر اتل وهو من أنهار الدنيا الكبار وهنالك يقيم السلطان حتى يشتد البرد ويجمد هذا النهر وتجمد المياه المتصلة به ثم يأمر أهل تلك البلاد فيأتون بالآلاف من احمال التبن فيجعلونها على الجليد المنعقد فوق النهر والتبن هنالك لا تأكله الدواب لانه يضرّها وكذلك ببلاد الهند وانما أكلها الحشيش الاخضر لخصب البلاد ويسافرون بالعربات فوق هذا النهر والمياه المتصلة به ثلاث مراحل وربما جازت القوافل فوقه مع آخر فصل الشتاء فيغرقون ويهلكون ولما وصلنا مدينة الحاج ترخان رغبت الخاتون بيلون ابنة ملك الروم من السلطان أن يأذن لها فى زيارة أبيها لتضع حملها عنده وتعود اليه فأذن لها ورغبت منه أن يأذن لى فى التوجه صحبتها لمشاهدة القسطنطينية العظمى فمنعنى خوفا علىّ فلاطفته وقلت له انما أدخلها فى حرمتك وجوارك فلا أخاف من أحد فأذن لى وودّعناه ووصلنى بألف وخمسمائة دينار وخلعة وافراس كثيرة وأعطتنى كل خاتون منهن سبائك الفضة وهم يسمونها الصوم (بفتح الصاد المهمل) واحدتها صومة وأعطت بنته أكثر منهن وكستنى وأركبتنى واجتمع لى من الخيل والثياب وفروات السنجاب والسمور جملة

(ذكر سفرى الى القسطنطينية)

وسافرنا فى العاشر من شوال فى صحبة الخاتون بيلون وتحت حرمتها ورحل السلطان فى تشييعها مرحلة ورجع هو والملكة وولى عهده وسافر سائر الخواتين فى صحبتها مرحلة ثانية ثم رجعن وسافر صحبتها الامير بيدرة فى خمسة آلاف من عسكره وكان عسكر الخاتون نحو خمسمائة فارس منهم خدامها من المماليك والروم نحو مائتين والباقون من الترك وكان معها من الجوارى نحو مائتين أكثرهن روميات وكان لها من العربات نحو أربعمائة عربة ونحو ألفى فرس لجرّها وللركوب ونحو ثلاثمائة من البقر ومائتين من الجمال لجرّها وكان معها من الفتيان الروميين عشرة ومن الهنديين مثلهم وقائدهم الاكبر يسمى بسنبل الهندى وقائد الروميين يسمى بميخائيل ويقول له الاتراك لؤلؤ وهو من الشجعان الكبار وتركت أكثر جواريها وأثقالها بمحلة السلطان اذ كانت قد توجهت برسم الزيارة ووضع الحمل وتوجهنا الى مدينة اكك وهى (بضم الهمزة وفتح الكاف الاولى) مدينة متوسطة حسنة العمارة كثيرة الخيرات شديدة البرد وبينها وبين السرا حضرة السلطان مسيرة عشر وعلى مسيرة يوم من هذه المدينة جبال الروس وهم نصارى شقر الشعور زرق العيون قباح الصور أهل غدر وعندهم معادن الفضة ومن بلادهم يؤتى بالصوم وهى سبائك الفضة التى بها يباع ويشترى فى هذه البلاد ووزن الصومة منها خمس أواق ثم وصلنا بعد عشر من هذه المدينة الى مدينة سرداق (وضبط اسمها (بضم السين المهمل وسكون الراء وفتح الدال المهمل وآخره قاف) وهى من مدن دشت قفجق على ساحل البحر ومرساها من أعظم المراسى وأحسنها وبخارجها البساتين والمياه وينزلها الترك وطائفة من الروم تحت ذمتهم وهم أهل الصنائع وأكثر بيوتها خشب وكانت هذه المدينة كبيرة فخرب معظمها بسبب فتنة وقعت بين الروم والترك وكانت الغلبة للروم فانتصر للترك أصحابهم وقتلوا الروم شرّ قتلة ونفوا أكثرهم وبقى بعضهم تحت الذمة الى الآن وكانت الضيافة تحمل الى الخاتون فى كل منزل من تلك البلاد من الخيل والغنم والبقر والدوق والقمز وألبان البقر والغنم والسفر فى هذه البلاد مضحى ومعشى وكل أمير بتلك البلاد يصحب الخاتون بعساكره الى آخر حد بلاده تعظيما لها لا خوفا عليها لان تلك البلاد آمنة ثم وصلنا الى البلدة المعروفة باسم باباسلطوق وبابا عندهم بمعناه عند البربر سواء الا أنهم يفخمون الباء وسلطوق (بفتح السين المهمل واسكان اللام وضم الطاء المهمل وآخره قاف) ويذكرون ان سلطوق هذا كان مكاشفا لكن يذكر عنه أشياء ينكرها الشرع وهذه البلدة آخر بلاد الاتراك وبينها وبين أول عمالة الروم ثمانية عشر يوما فى برية غير معمورة منها ثمانية أيام لاماء بها يتزود لها الماء ويحمل فى الروايا والقرب على العربات وكان دخولنا اليها فى أيام البرد فلم نحتج الى كثير من الماء

والاتراك يرفعون الالبان فى القرب ويخلطونها بالدوقى المطبوخ ويشربونها فلا يعطشون
وأخذنا من هذه البلدة فى الاستعداد للبرية واحتجت الى زيادة افراس فأتيت الخاتون
فاعلمتها بذلك وكنت أسلم عليها صباحا ومساء ومتى أتتها ضيافة تبعث الى بالفرسين والثلاثة
وبالغنم فكنت أترك الخيل لاذبحها وكان من معى من الغلمان والخدام يأكلون مع أصحابنا
الاتراك فاجتمع لى نحو خمسين فرسا وأمرت لى الخاتون بخمسة عشر فرسا وأمرت وكيلها
ساروجة الرومى ان يختارها سمانا من خيل المطبخ وقالت لا تخف فان احتجت الى غيرها
زدناك ودخلنا البرية فى منتصف ذى القعدة فكان سيرنا من يوم فارقنا السلطان الى أول
البرية تسعة عشر يوما واقامتنا خمسة ورحلنا من هذه البرية ثمانية عشر يوما مضحى ومعشى
ومارأينا الا خيرا والحمد لله ثم وصلنا بعد ذلك الى حصن مهتولى وهو أول عمالة الروم (وضبط
اسمه بفتح الميم وسكون الهاء وضم التاء المعلوة وواو مدّ ولام مكسو رو ياء) وكانت الروم قد
سمعت بقدوم هذه الخاتون على بلادها فوصلها الى هذا الحصن كفالى نقوله الرومى فى عسكر
عظيم وضيافة عظيمة وجاءت الخواتين والدايات من دار أبيها ملك القسطنطينيه وبين مهتولى
والقسطنطينية مسيرة اثنين وعشرين يوما منها ستة عشر يوما الى الخليج وستة منه الى
القسطنطينية ولا يسافر من هذا الحصن الا بالخيل والبغال وتترك العربات به لاجل الوعر
والجبال وجاء كفالى المذكور ببغال كثيرة وبعثت الى الخاتون بستة منها وأوصت أمير
ذلك الحصن بمن تركته من أصحابى وغلمانى مع العربات والاثقال فأمر لهم بدار ورجع الامير
بيدرة بعساكره ولم يسافر مع الخاتون الا ناسها وتركت مسجدها بهذا الحصن وارتفع حكم
الاذان وكان يؤتى اليها بالخمور فى الضيافة فتشربها وبالخنازير وأخبرنى بعض خواصها انها
أكلتها ولم يبق معها من يصلى الا بعض الاتراك كان يصلى معنا وتغيرت البواطن لدخولنا فى
بلاد الكفر ولكن الخاتون أوصت الامير كفالى باكرامى ولقد ضرب مرة بعض مماليكه لما
ضحك من صلاتنا ثم وصلنا حصن مسلمة بن عبد الملك وهو بسفح جبل على نهر زخار يقال له
اصطفيلى ولم يبق من هذا الحصن الا آثاره وبخارجه قرية كبيرة ثم سرنا يومين ووصلنا الى
الخليج وعلى ساحله قرية كبيرة فوجدنا فيه المد فاقمنا حتى كان الجزر وخضناه وعرضه
نحو ميلين ومشينا أربعة أميال فى رمال ووصلنا الخليج الثانى فخضناه وعرضه نحو ثلاثة
أميال ثم مشينا نحو ميلين فى حجارة ورمل ووصلنا الخليج الثالث وقد ابتدأ المد فتعبنا فيه
وعرضه ميل واحد فعرض الخليج كله مائية ويابسه اثنا عشر ميلا وتصير ماء كلها فى أيام المطر
فلا تخاض الا فى القوارب وعلى ساحل هذا الخليج الثالث مدينة الفنيكة (واسمها بفاء
مفتوحة ونون وياء مدّ وكاف مفتوح) وهى صغيرة لكنها حسنة مانعة وكنائسها وديارها

حسان والانهار تخرقها والبساتين تحفها ويدخر بها العنب والاجاص والتفاح والسفرجل من السنة الى الاخرى وأقمنا بهذه المدينة ثلاثا والخاتون فى قصر لابيها هنالك ثم قدم أخوها شقيقها واسمه كفالى قراس فى خمسة آلاف فارس شاكين فى السلاح ولما أرادوا لقاء الخاتون ركب أخوها المذكور فرسا أشهب ولبس ثيابا بيضاء وجعل على رأسه مظللا مكللا بالجواهر وجعل عن يمينه خمسة من أبناء الملوك وعن يساره مثلهم لابسين البياض أيضا وعليهم مظللات مزركشة بالذهب وجعل بين يديه مائة من المشائين ومائة فارس قد أسبغوا الدروع على أنفسهم وخيلهم وكل واحد منهم يقود فرسا مسرجا مدرعا عليه شكة فارس من البيضة المجوهرة والدرع والتركش والقوس والسيف وبيده رمح فى طرف رأسه راية وأكثر تلك الرماح مكسوة بصفائح الذهب والفضة وتلك الخيل المقودة هى مراكب ابن السلطان وقسم فرسانه على افواج كل فوج فيه مائتا فارس ولهم أمير قد قدم أمامه عشرة من الفرسان شاكين فى السلاح وكل واحد منهم يقود فرسا وخلفه عشرة من العلامات ملونة بأيدى عشرة من الفرسان وعشرة أطبال يتقلدها عشرة من الفرسان ومعهم ستة يضربون الابواق والانفار والصرنايات وهى الغيطات وركبت الخاتون فى مماليكها وجواريها وفتيانها وخدامها وهم نحو خمسمائة عليهم ثياب الحرير المزركشة بالذهب المرصعة وعلى الخاتون حلة يقال لها النخ ويقال لها أيضا النسيج مرصعة بالجوهر وعلى رأسها تاج مرصع وفرسها مجلل بجل حرير مزركش بالذهب وفى يديه ورجليه خلاخل الذهب وفى عنقه قلائد مرصعة وعظم السرج مكسو ذهبا مكلل جوهرا وكان التقاؤهما فى بسيط من الارض على نحو ميل من البلد وترجل لها أخوها لانه أصغر سنا منها وقبل ركابها وقبلت رأسه وترجل الامراء واولاد الملوك وقبلوا جميعا ركابها وانصرفت مع أخيها وفى غد ذلك اليوم وصلنا الى مدينة كبيرة على ساحل البحر لا أثبت الآن اسمها ذات انهار وأشجار نزلنا بخارجها ووصل أخو الخاتون ولى العهد فى ترتيب عظيم وعسكر ضخم من عشرة آلاف مدرع وعلى رأسه تاج وعن يمينه نحو عشرين من أبناء الملوك وعن يساره مثلهم وقد رتب فرسانه على ترتيب أخيه سواء الا ان الحفل أعظم والجمع أكثر وتلاقت معه اخته فى مثل زيها الاول وترجلا جميعا وأوتى بخباء حرير فدخلا فيه فلا أعلم كيفية سلامهما ونزلنا على عشرة أميال من القسطنطينية فلما كان بالغد خرج أهلها من رجال ونساء وصبيان ركبانا ومشاة فى أحسن زى وأجمل لباس وضربت عند الصبح الاطبال والابواق والانفار وركبت العساكر وخرج السلطان وزوجته أم هذه الخاتون وأرباب الدولة والخواص وعلى رأس الملك رواق يحمله جملة من الفرسان ورجال بأيديهم عصى طوال فى أعلى كل عصى شبه كرة من جلد يرفعون بها الرواق وفى وسط الرواق مثل القبة يرفعها

الفرسان بالعصى ولما أقبل السلطان اختلطت العساكر وكثر العجاج ولم أقدر على الدخول فيما بينهم فلزمت اثقال الخاتون وأصحابها خوفا على نفسى وذكر لى انها لما قربت من أبويها ترجلت وقبلت الارض بين أيديهما ثم قبلت حافرى فرسيهما وفعل كبار أصحابها مثل فعلها فى ذلك وكان دخولنا عند الزوال أو بعده الى القسطنطينية العظمى وقد ضربوا نواقيسهم حتى ارتجت الآفاق لاختلاط أصواتها ولما وصلنا الباب الاول من أبواب قصر الملك وجدنا به مائة رجل معهم قائد لهم فوق دكانه وسمعتهم يقولون سراكنو سراكنو ومعناه المسلمون ومنعونا من الدخول فقال لهم أصحاب الخاتون انهم من جهتنا فقالوا لا يدخلون الا بالاذن فأقمنا بالباب وذهب بعض أصحاب الخاتون فبعث من أعلمها بذلك وهى بين يدى والدها فذكرت له شأننا فأمر بدخولنا وعين لنا دارا بمقربة من دار الخاتون وكتب لنا أمرا بأن لا نعترض حيث نذهب من المدينة ونودى بذلك فى الاسواق وأقمنا بالدار ثلاثا تبعث الينا الضيافة من الدقيق والخبز والغنم والدجاج والسمن والفاكهة والحوت والدراهم والفرش وفى اليوم الرابع دخلنا على السلطان

(ذكر سلطان القسطنطينية)

واسمه تكفور (بفتح التاء المثناة وسكون الكاف وضم الفاء وواو وراء) ابن السلطان جرجيس وأبوه السلطان جرجيس بقيد الحياة لكنه تزهد وترهب وانقطع للعبادة فى الكنائس وترك الملك لولده وسنذكره وفى اليوم الرابع من وصولنا الى القسطنطينية بعثت الى الخاتون الفتى سنبل الهندى فاخذ بيدى وأدخلنى الى القصر فجزنا أربعة أبواب فى كل باب سقائف بها رجال وأسلحتهم وقائدهم على دكانة مفروشة فلما وصلنا الى الباب الخامس تركنى الفتى سنبل ودخل ثم أتى ومعه أربعة من الفتيان الروميين ففتشونى لئلا يكون معى سكين وقال لى القائد تلك عادة لهم لابد من تفتيش كل من يدخل على الملك من خاص أو عام غريب أو بلدى وكذلك الفعل بأرض الهند ثم لما فتشونى قام الموكل بالباب فأخذ بيدى وفتح الباب وأحاط بى أربعة من الرجال أمسك اثنان بكمى واثنان من ورائى فدخلوا بى الى مشور كبير حيطانه بالفسيفساء قد نقش فيها صور المخلوقات من الحيوانات والجماد وفى وسطه ساقية ماء ومن جهتيها الاشجار والناس واقفون يمينا ويسارا سكوتا لا يتكلم أحد منهم وفى وسط المشور ثلاثة رجال وقوف أسلمنى اولئك الاربعة اليهم فأمسكوا بثيابى كما فعل الآخرون وأشار اليهم رجل فتقدموا بى وكان أحدهم يهوديا فقال لى بالعربى لا تخف فهكذا عادتهم ان يفعلوا بالوارد وأنا الترجمان وأصلى من بلاد الشام فسألته كيف أسلم فقال قل السلام عليكم ثم وصلت الى قبة عظيمة والسلطان على سريره وزوجته ام هذه الخاتون بين يديه وأسفل السرير الخاتون

وأخوتها وعن يمينه ستة رجال وعن يساره أربعة وكلهم بالسلاح فأشار الى تقبل السلام والوصول اليه بالجلوس هنية ليسكن روعى ففعلت ذلك ثم وصلت اليه فسلمت عليه وأشار الى ان أجلس فلم افعل وسألني عن بيت المقدس وعن الصخرة المقدسة وعن القمامة وعن مهد عيسى وعن بيت لحم وعن مدينة الخليل عليه السلام ثم عن دمشق ومصر والعراق وبلاد الروم فأجبته عن ذلك كله واليهودى يترجم بيني وبينه فأعجبه كلامى وقال لاولاده اكرموا هذا الرجل وآمنوه ثم خلع على خلعة وأمر لى بفرس مسرج ملجم ومظلة من التى يجعلها الملك فوق رأسه وهى علامة الامان وطلبت منه ان يعين من يركب معى بالمدينة فى كل يوم حتى أشاهد عجائبها وغرائبها واذكرها فى بلادى فعين لى ذلك ومن العوائد عندهم ان الذى يلبس خلعة الملك ويركب فرسه يطاف به فى أسواق المدينة بالابواق والانفار والاطبال ليراه الناس وأكثر مايفعل ذلك بالاتراك الذين يأتون من بلاد السلطان أوزبك لئلا يؤذون فطافوا بى فى الاسواق

(ذكر المدينة)

وهى متناهية فى الكبر منقسمة بقسمين بينهما نهر عظيم المد والجزر على شكل وادى سلا من بلاد المغرب وكانت عليه فيما تقدم قنطرة مبنية فخربت وهو الآن يعبر فى القوارب واسم هذا النهر أبسمى (بفتح الهمزة واسكان الباء الموحدة وضم السين المهمل وكسر الميم وياء مد) واحد القسمين من المدينة يسمى اصطنبول (بفتح الهمزة واسكان الصاد وفتح الطاء المهملتين وسكون النون وضم الباء الموحدة وواو مد ولام) وهو بالعدوة الشرقية من النهر وفيه سكنى السلطان وأرباب دولته وسائر الناس وأسواقه وشوارعه مفروشة بالصفاح متسعة وأهل كل صناعة على حدة لايشاركهم سواهم وعلى كل سوق أبواب تسد عليه بالليل وأكثر الصناع والباعة بها النساء والمدينة فى سفح جبل داخل فى البحر نحو تسعة أميال وعرضه مثل ذلك أو أكثر وفى أعلاه قلعة صغيرة وقصر السلطان والسور يحيط بهذا الجبل وهو مانع لاسبيل لاحد اليه من جهة البحر وفيه نحو ثلاث عشرة قرية عامرة والكنيسة العظمى هى فى وسط هذا القسم من المدينة وأما القسم الثانى منها فيسمى الغلطة (بغين معجمة ولام وطاء مهمل مفتوحات) وهو بالعدوة الغربية من النهر شبيه برباط الفتح فى قربه من النهر وهذا القسم خاص بنصارى الافرنج يسكنونه وهم أصناف فمنهم الجنويون والبنادقة وأهل رومية وأهل افرانسة وحكمهم الى ملك القسطنطينية يقدم عليهم منهم من يرتضونه ويسمونه القمص وعليهم وظيفة فى كل عام لملك القسطنطينية وربما استعصوا عليه فيحاربهم حتى يصلح بينهم البابة وجميعهم أهل تجارة ومرساهم من أعظم المراسى رأيت به نحو مائة جفن من القراقر وسواها من الكبار

وأما الصغار فلا تحصى كثرة وأسواق هذا القسم حسنة الان الاقذار غالبة عليها ويشقها نهر صغير قذر نجس وكنائسهم قذرة لا خير فيها

(ذكر الكنيسة العظمى)

وانما نذكر خارجها وأما داخلها فلم أشاهده وهى تسمى عندهم أياصوفيا (بفتح الهمزة والياء آخر الحروف وألف وصاد مضموم وواو مد وفاء مكسورة وياء كالاولى وألف) ويذكر انها من بناء آصف بن برخياء وهو ابن خالة سليمان عليه السلام وهى من أعظم كنائس الروم وعليها سور يطيف بها فكأنها مدينة وأبوابها ثلاثة عشر بابا ولها حرم هو نحو ميل عليه باب كبير ولا يمنع أحد من دخوله وقد دخلته مع والد الملك الذى يقع ذكره وهو شبه مشور مسطح بالرخام وتشقه ساقية تخرج من الكنيسة لها حائطان مرتفعان نحو ذراع مصنوعان بالرخام المجزع المنقوش بأحسن صنعة والاشجار منتظمة عن جهتى الساقية ومن باب الكنيسة الى باب هذا المشور معرش من الخشب مرتفع عليه دوالى العنب وفى أسفله الياسمين والرياحين وخارج باب هذا المشور قبة خشب كبيرة فيها طبلات خشب يجلس عليها خدام ذلك الباب وعن يمين القبة مساطب وحوانيت أكثرها من الخشب يجلس بها قضاتهم وكتاب دواوينهم وفى وسط تلك الحوانيت قبة خشب يصعد اليها على درج خشب وفيها كرسى كبير مطبق بالملف يجلس فوقه قاضيهم وسنذكره وعن يسار القبة التى على باب هذا المشور سوق العطارين والساقية التى ذكرناها تنقسم قسمين احدهما يمر بسوق العطارين والآخر يمر بالسوق حيث القضاة والكتاب وعلى باب الكنيسة سقائف يجلس بها خدامها الذين يقمون طرقها ويوقدون سرجها ويغلقون أبوابها ولا يدعون أحدا يدخلها حتى يسجد للصليب الأعظم عندهم الذى يزعمون انه بقية من الخشبة التى صلب عليها شبيه عيسى عليه السلام وهو على باب الكنيسة مجعول فى جعبة ذهب طولها نحو عشرة أذرع وقد عرضوا عليها جعبة ذهب مثلها حتى صارت صليبا وهذا الباب مصفح بصفائح الفضة والذهب وحلقتاه من الذهب الخالص وذكر لى ان عدد من بهذه الكنيسة من الرهبان والقسيسين ينتهى الى آلاف وان بعضهم من ذرية الحواريين وان بداخلها كنيسة مختصة بالنساء فيها من الابكار المنقطعات للعبادة أزيد من ألف وأما القواعد من النساء فأكثر من ذلك كله ومن عادة الملك وأرباب دولته وسائر الناس ان يؤتوا كل يوم صباحا الى زيارة هذه الكنيسة ويأتى اليها البابة مرة فى السنة واذا كان على مسيرة أربع من البلد يخرج الملك الى لقائه ويترجل له وعند دخوله المدينة يمشى بين يديه على قدميه ويأتيه صباحا ومساء للسلام عليه طول مقامه بالقسطنطينية حتى ينصرف

(ذكر المانستارات بقسطنطينية)

والمانستار على مثل لفظ المارستان الا ان نونه متقدمة وراءه متأخرة وهو عندهم شبه الزاوية عند المسلمين وهذه المانستارات بها كثيرة فمنها مانستار عمره الملك جرجيس والد ملك القسطنطينية وسنذكره وهو بخارج اصطنبول مقابل الغلطة ومنها مانستاران خارج الكنيسة العظمى عن يمين الداخل اليها وهما في داخل بستان يشقهما نهر ماء واحدهما للرجال والآخر للنساء وفي كل واحد منهما كنيسة ويدور بهما البيوت للمتعبدين والمتعبدات وقد حبس على كل واحد منهما احباس لكسوة المتعبدين ونفقتهم بناهما أحد الملوك ومنها مانستاران عن يسار الداخل الى الكنيسة العظمى على مثل هذين الآخرين ويطيف بهما بيوت واحدهما يسكنه العميان والثاني يسكنه الشيوخ الذين لا يستطيعون الخدمة ممن بلغ الستين أو نحوها ولكل واحد منهم كسوته ونفقته من أوقاف معينة لذلك وفي داخل كل مانستار منها دويرة لتعبد الملك الذي بناه وأكثر هؤلاء الملوك اذا بلغ الستين أو السبعين بنى مانستارا ولبس المسوح وهي ثياب الشعر وقلد ولده الملك واشتغل بالعبادة حتى يموت وهم يحتفلون في بناء هذه المانستارات ويعملونها بالرخام والفسيفساء وهي كثيرة بهذه المدينة ودخلت مع الرومي الذي عينه الملك للركوب معي الى مانستار يشقه نهر وفيه كنيسة فيها نحو خمسمائة بكر عليهن المسوح ورؤسهن محلوقة فيها قلانيس اللبد ولهن جمال فائت وعليهن أثر العبادة وقد قعد صبي على منبر يقرأ لهن الانجيل بصوت لم أسمع قط احسن منه وحوله ثمانية من الصبيان على منابر ومعهم قسيسهم فلما قرأ هذا الصبي قرأ صبي آخر وقال لي الرومي ان هؤلاء البنات من بنات الملوك وهبن أنفسهن لخدمة هذه الكنيسة وكذلك الصبيان القراء ولهم كنيسة أخرى خارج تلك الكنيسة ودخلت معه أيضا الى كنيسة في بستان فوجدنا بها نحو خمسمائة بكر أو أزيد وصبي يقرأ لهن على منبر وجماعة صبيان معه على منابر مثل الاولين فقال لي الرومي هؤلاء بنات الوزراء والامراء يتعبدن بهذه الكنيسة ودخلت معه الى كنائس فيها أبكار من وجوه أهل البلد والى كنائس فيها العجائز والقواعد من النساء والى كنائس فيها الرهبان يكون في الكنيسة منها مائة رجل وأكثر وأقل وأكثر أهل هذه المدينة رهبان ومتعبدون وقسيسون وكنائسها لا تحصى كثرة وأهل المدينة من جندي وغيره صغير وكبير يجعلون على رؤسهم المظلات الكبار شتاء وصيفا والنساء لهن عمائم كبار

(ذكر الملك المترهب جرجيس)

وهذا الملك ولى الملك لابنه وانقطع للعبادة وبنى مانستارا كما ذكرنا خارج المدينة على ساحلها وكنت يوما مع الرومي المعين للركوب معي فاذا بهذا الملك ماشيا على قدميه وعليه المسوح

وعلى رأسه قلنسوة لبد وله لحية بيضاء طويلة ووجهه حسن عليه أثر العبادة وخلفه وامامه جماعة من الرهبان وبيده عكاز وفى عنقه سبحة فلما رآه الرومى نزل وقال لى انزل فهذا والد الملك فلما سلم عليه الرومى سأله عنى ثم وقف وبعث عنى فجئت اليه فأخذ بيدى وقال لذلك الرومى وكان يعرف اللسان العربى قل لهذا السراكنو يعنى المسلم أنا أصافح اليد التى دخلت بيت المقدس والرجل التى مشت داخل الصخرة والكنيسة العظمى التى تسمى قمامة وبيت لحم وجعل يده على قدمى ومسح بها وجهه فعجبت من اعتقادهم فيمن دخل تلك المواضع من غير ملتهم ثم أخذ بيدى ومشيت معه فسألنى عن بيت المقدس ومن فيه من النصارى واطال السؤال ودخلت معه الى حرم الكنيسة الذى وصفناه آنفا ولما قارب الباب الاعظم خرجت جماعة من القسيسين والرهبان للسلام عليه وهو من كبارهم فى الرهبانية ولما رآهم أرسل يدى فقلت له أريد الدخول معك الى الكنيسة فقال للترجمان قل له لابد لداخلها من السجود للصليب الاعظم فان هذا مما سنته الاوائل ولا يمكن خلافه فتركته ودخل وحده ولم أره بعدها

(ذكر قاضى القسطنطينية)

ولما فارقت الملك المترهب المذكور دخلت سوق الكتاب فرآنى القاضى فبعث الى أحد اعوانه فسأل الرومى الذى معى فقال له انه من طلبة المسلمين فلما عاد اليه وأخبره بذلك بعث الى احد أصحابه وهم يسمون القاضى النجشى كفالى فقال لى النجشى كفالى يدعوك فصعدت اليه الى القبة التى تقدم ذكرها فرأيت شيخا حسن الوجه واللمة عليه لباس الرهبان وهو الملف الاسود وبين يديه نحو عشرة من الكتاب يكتبون فقام الى وقام أصحابه وقال أنت ضيف الملك ويجب علينا اكرامك وسألنى عن بيت المقدس والشام ومصر وأطال الكلام وكثر عليه الازدحام وقال لى لابد لك ان تأتى الى دارى فاضيفك فانصرفت عنه ولم ألقه بعد

(ذكر الانصراف عن القسطنطينية)

ولما ظهر لمن كان فى صحبة الخاتون من الاتراك انها على دين أبيها وراغبة فى المقام معه طلبوا منها الاذن فى العودة الى بلادهم فأذنت لهم وأعطتهم عطاء جزيلا وبعثت معهم من يوصلهم الى بلادهم اميرا يسمى سار وجة الصغير فى خمسمائة فارس وبعثت عنى فاعطتنى ثلاثمائة دينار من ذهبهم وهم يسمونه البربرة وليس بالطيب والفى درهم بندقية وشقة ملف من عمل البنات وهو أجود انواعه وعشرة أثواب من حرير وكتان وصوف وفرسين وذلك من عطاء أبيها وأوصت بى سار وجة وودعتها وانصرفت وكانت مدة مقامى عندهم شهرا وستة أيام وسافرنا

صحبة ساروجة فكان يكرمني حتى وصلنا الى آخر بلادهم حيث تركنا اصحابنا وعرباتنا فركبنا العربات ودخلنا البرية ووصل ساروجة معنا الى مدينة باباسلطوق وأقام بها ثلاثا في الضيافة وانصرف الى بلاده وذلك في اشتداد البرد وكنت ألبس ثلاث فروات وسراويلين احداها مبطن وفي رجلي خف من صوف وفوقه خف مبطن بثوب كتان وفوقه خف من البرغالي وهو جلد الفرس مبطن بجلد ذئب وكنت أتوضأ بالماء الحار بمقربة من النار فما تقطر من الماء قطرة الا جمدت لحينها واذا غسلت وجهي يصل الماء الى لحيتي فيجمد فاحركها فيسقط منها شبه الثلج والماء الذي ينزل من الانف يجمد على الشارب وكنت لا أستطيع الركوب لكثرة ما علي من الثياب حتى يركبني أصحابي ثم وصلت الى مدينة الحاج ترخان حيث فارقنا السلطان اوزبك فوجدناه قد رحل واستقر بحضرة ملكه فسافرنا على نهر اتل وما يليه من المياه ثلاثا وهي جامدة وكنا اذا احتجنا الماء قطعنا قطعا من الجليد وجعلناه في القدر حتى يصير ماء فنشرب منه ونطبخ به ووصلنا الى مدينة السرا (وضبط اسمها بسين مهمل وراء مفتوحين وألف) وتعرف بسرا بركة وهي حضرة السلطان أوزبك ودخلنا على السلطان فسألنا عن كيفية سفرنا وعن ملك الروم ومدينته فأعلمناه وأمر باجراء النفقة علينا وانزالنا ومدينة السرا من أحسن المدن متناهية الكبر في بسيط من الارض تغص باهلها كثرة حسنة الاسواق متسعة الشوارع وركبنا يوما مع بعض كبرائها وغرضنا التطوف عليها ومعرفة مقدارها وكان منزلنا في طرف منها فركبنا منه غدوة فما وصلنا الا آخرها الا بعد الزوال فصلينا الظهر وأكلنا طعاما فما وصلنا الى المنزل الا عند المغرب ومشينا يوما عرضها ذاهبين وراجعين في نصف يوم وذلك في عمارة متصلة الدور لا خراب فيها ولا بساتين وفيها ثلاثة عشر مسجدا لاقامة الجمعة أحدها للشافعية وأما المساجد سوى ذلك فكثير جدا وفيها طوائف من الناس منهم المغل وهم أهل البلاد والسلاطين وبعضهم مسلمون ومنهم الاص وهم مسلمون ومنهم القفجق والجركس والروس والروم وهم نصارى وكل طائفة تسكن محلة على حدة فيها أسواقها والتجار والغرباء من أهل العراقين ومصر والشام وغيرها ساكنون بمحلة عليها سور احتياطا على أموال التجار وقصر السلطان بها يسمى ألطون طاش وألطون (بفتح الهمزة وسكون اللام وضم الطاء المهمل وواو مدّ ونون) ومعناه الذهب وطاش (بفتح الطاء المهمل وشين معجم) ومعناه حجر وقاضي هذه الحضرة بدر الدين الاعرج من خيار القضاة وبها من مدرسي الشافعية الفقيه الامام الفاضل صدر الدين سليمان اللكزي احد الفضلاء وبها من المالكية شمس الدين المصري وهو ممن يطعن في ديانته وبها زاوية الصالح الحاج نظام الدين أضافنا بها وأكرمنا وبها زاوية الفقيه الامام العالم نعمان الدين الخوارزمي رأيته بها وهو من فضلاء المشايخ حسن الاخلاق كريم

النفس

النفس شديد التواضع شديد السطوة على اهل الدنيا يأتى اليه السلطان أوزبك زائرا فى كل جمعة فلا يستقبله ولا يقوم اليه ويقعد السلطان بين يديه ويكلمه ألطف كلام ويتواضع له والشيخ بضد ذلك وفعله مع الفقراء والمساكين والواردين خلاف فعله مع السلطان فانه يتواضع لهم ويكلمهم بألطف كلام ويكرمهم وأكرمنى جزاه الله خيرا وبعث الىّ بغلام تركى وشاهدت له بركة

(كرامة له)

كنت أردت السفر من السرا الى خوارزم فنهانى عن ذلك وقال لى اقم أياما وحينئذ تسافر فنازعتنى النفس ووجدت رفقة كبيرة آخذة فى السفر فيهم تجار أعرفهم فاتفقت معهم على السفر فى صحبتهم وذكرت له ذلك فقال لى لا بدّ لك من الاقامة فعزمت على السفر فأبق لى غلام أقمت بسببه وهذه من الكرامات الظاهرة ولما كان بعد ثلاث وجد بعض أصحابى ذلك الغلام الآبق بمدينة الحاج ترخان فجاء به الىّ فحينئذ سافرت الى خوارزم وبينها وبين حضرة السرا صحراء مسيرة أربعين يوما لا تسافر فيها الخيل لقلة الكلأ وانما تجرّ العربات بها الجمال فسرنا من السرا عشرة أيام فوصلنا الى مدينة سراجوق وجوق (بضم الجيم المعقود وواو وقاف) ومعنى جوق صغير فكأنهم قالوا سرا الصغيرة وهى على شاطئ نهر كبير زخار يقال له الوصو (بضم الهمزة واللام وواو مدّ وضم الصاد المهمل وواو) ومعناه الماء الكبير وعليه جسر من قوارب كجسر بغداد والى هذه المدينة انتهى سفرنا بالخيل التى تجر العربات وبعناها بها بحساب أربعة دنانير دراهم للفرس وأقل من ذلك لاجل ضعفها ورخصها بهذه المدينة واكترينا الجمال لجرّ العربات وبهذه المدينة زاوية لرجل صالح معمر من الترك يقال له أطا (بفتح الهمزة والطاء المهمل ومعناه الوالد أضافنا بها ودعا لنا وأضافنا أيضا قاضيها ولا أعرف اسمه ثم سرنا منها ثلاثين يوما سيرا جادّا لا ننزل الا ساعتين احداهما عند الضحى والاخرى عند المغرب وتكون الاقامة قدر ما يطبخون الدوقى ويشربونه وهو يطبخ من غلية واحدة ويكون معهم الخليع من اللحم يجعلونه عليه ويصبون عليه اللبن وكل انسان انما ينام أو يأكل فى عربته حال السير وكان لى فى عربتى ثلاث من الجوارى ومن عادة المسافرين فى هذه البرية الاسراع لقلة اعشابها والجمال التى تقطعها يهلك معظمها وما يبقى منها لا ينتفع به الا فى سنة أخرى بعد ان يسمن والماء فى هذه البرية فى مناهل معلومة بعد اليومين والثلاثة وهو ماء المطر والحسى ان ثم لما سلكنا هذه البرية وقطعناها كما ذكرناه وصلنا الى خوارزم وهى أكبر مدن الاتراك وأعظمها وأجلها وأضخمها لها الاسواق المليحة والشوارع الفسيحة والعمارة الكثيرة والمحاسن الاثيرة وهى ترتج بسكانها لكثرتهم وتموج بهم موج البحر ولقد ركبت بها

يوما ودخلت السوق فلما توسطته وبلغت منتهى الزحام فى موضع يقال له الشور (بفتح الشين المعجم واسكان الواو) لم استطع ان أجوز ذلك الموضع لكثرة الازدحام وأردت الرجوع فما أمكننى لكثرة الناس فبقيت متحيرا وبعد جهد شديد رجعت وذكر لى بعض الناس ان تلك السوق يخف زحامها يوم الجمعة لانهم يسدون سوق القيسارية وغيرها من الاسواق فركبت يوم الجمعة وتوجهت الى المسجد الجامع والمدرسة وهذه المدينة من طاعة السلطان أوزبك وله فيها أمير كبير يسمى قطلودمور وهو الذى عمر هذه المدرسة وما معها من المواضع المضافة وأما المسجد فعمرته زوجته الخاتون الصالحة ترابك وترا (بضم التاء المعلوة وفتح الراء وألف وبك (بفتح الباء الموحدة والكاف) وبخوارزم مارستان له طبيب شامى يعرف بالصهيونى نسبة الى صهيون من بلاد الشام ولم أر فى بلاد الدنيا أحسن أخلاقا من أهل خوارزم ولا أكرم نفوسا ولا أحب فى الغرباء ولهم عادة جميلة فى الصلاة لم أرها لغيرهم وهى ان المؤذنين بمساجدها يطوف كل واحد منهم على دور جيران مسجده معلما لهم بحضور الصلاة فمن لم يحضر الصلاة مع الجماعة ضربه الامام بمحضر الجماعة وفى كل مسجد درة معلقة برسم ذلك ويغرم خمسة دنانير تنفق فى مصالح المسجد أو تطعم للفقراء والمساكين ويذكرون ان هذه العادة عندهم مستمرة على قديم الزمان وبخارج خوارزم نهر جيحون أحد الانهار الاربعة التى من الجنة وهو يجمد فى أوان البرد كما يجمد نهر أتل ويسلك الناس عليه وتبقى مدة جموده خمسة أشهر وربما سلكوا عليه عند أخذه فى الذوبان فهلكوا ويسافر فيه فى أيام الصيف بالمراكب الى ترمذ ويجلبون منها القمح والشعير وهى مسيرة عشر للمنحدر وبخارج خوارزم زاوية مبنية على تربة الشيخ نجم الدين الكبرى وكان من كبار الصالحين وفيها الطعام للوارد والصادر وشيخها المدرس سيف الدين بن عصبة من كبار أهل خوارزم وبها أيضا زاوية شيخها الصالح المجاور جلال الدين السمرقندى من كبار الصالحين أضافنا بها وبخارجها قبر الامام العلامة أبى القاسم محمود بن عمر الزمخشرى وعليه قبة وزمخشر قرية على مسافة أربعة أميال من خوارزم ولما أتيت هذه المدينة نزلت بخارجها وتوجه بعض أصحابى الى القاضى الصدر أبى حفص عمر البكرى فبعث الى نائبه نور الاسلام فسلم على ثم عاد اليه ثم أتى القاضى فى جماعة من أصحابه فسلم على وهو فتى السن كبير الفعال وله نائبان أحدهما نور الاسلام المذكور والآخر نور الدين الكرمانى من كبار الفقهاء وهو الشديد فى أحكامه القوى فى ذات الله تعالى ولما حصل الاجتماع بالقاضى قال لى ان هذه المدينة كثيرة الزحام ودخولكم نهارا لا يأتى وسيأتى اليكم نور الاسلام لتدخلوا معه من آخر الليل ففعلنا ذلك ونزلنا بمدرسة جديدة ليس بها أحد ولما كان بعد صلاة الصبح اتى الينا القاضى المذكور ومعه من كبار المدينة جماعة منهم مولانا همام الدين ومولانا زين الدين

المقدسى

المقدسي ومولانا رضي الدين يحيي ومولانا فضل الله الرضوي ومولانا جلال الدين العمادي ومولانا شمس الدين السنجري امام أميرها وهم أهل مكارم وفضائل والغالب على مذهبهم الاعتزال لكنهم لا يظهرونه لان السلطان أوزبك وأميره على هذه المدينة قطلودمور من أهل السنة وكنت أيام اقامتي بها أصلي الجمعة مع القاضي أبي حفص عمر المذكور بمسجده فاذا فرغت الصلاة ذهبت معه الى داره وهي قريبة من المسجد فادخل معه الى مجلسه وهو من أبدع المجالس فيه الفرش الحافلة وحيطانه مكسوة بالملف وفيه طيقان كثيرة وفي كل طاق منها أواني الفضة المموّهة بالذهب والاواني العراقية وكذلك عادة أهل تلك البلاد ان يصنعوا في بيوتهم ثم يأتي بالطعام الكثير وهو من أهل الرفاهية والمال الكثير والرباع وهو سلف الامير قطلودمور متزوّج بأخت امرأته واسمها جيجا أغا وبهذه المدينة جماعة من الوعاظ والمذكرين أكبرهم مولانا زين الدين المقدسي والخطيب مولانا حسام الدين المشاطي الخطيب المصقع أحد الخطباء الاربعة الذين لم اسمع في الدنيا أحسن منهم

(وأمير خوارزم)

هو الامير الكبير قطلودمور وقطلو (بضم القاف وسكون الطاء المهمل وضم اللام) ودمور (بضم الدال المهمل والميم وواو مدّوراء) ومعنى اسمه الحديد المبارك لان قطلو هو المبارك ودمور هو الحديد وهذا الامير ابن خالة السلطان المعظم محمد أوزبك وأكبر أمرائه وهو واليه على خراسان وولده هارون بك متزوّج بابنة السلطان المذكور التي أمها الملكة طيطغلى المتقدم ذكرها وامرأته الخاتون ترابك صاحبة المكارم الشهيرة ولما أتاني القاضي مسلما علىّ كما ذكرته قال لي ان الامير قد علم بقدومك وبه بقية مرض يمنعه من الاتيان اليك فركبت مع القاضي الى زيارته وأتينا داره فدخلنا مشورا كبيرا أكثر بيوته خشب ثم دخلنا مشورا صغيرا فيه قبة خشب مزخرفة قد كسيت حيطانها بالملف الملوّن وسقفها بالحرير المذهب والامير على فرش له من الحرير وقد غطى رجليه لما بهما من النقرس وهي علة فاشية في الترك فسلمت عليه وأجلسني الى جانبه وقعد القاضي والفقهاء وسألني عن سلطانه الملك محمد أوزبك وعن الخاتون بيلون وعن أبيها وعن مدينة القسطنطينية فاعلمته بذلك كله ثم أوتي بالموائد فيها الطعام من الدجاج المشوية والكراكي وافراخ الحمام وخبز معجون بالسمن يسمونه الكليجا والكعك والحلواء ثم أوتي بموائد أخرى فيها الفواكه من الرمان المحبب في أواني الذهب والفضة ومعه ملاعق الذهب وبعضه في أواني الزجاج العراقي ومعه ملاعق الخشب ومن العنب والبطيخ العجيب ومن عوائد هذا الامير ان يأتي القاضي في كل يوم الى مشوره فيجلس بمجلس معدّ له ومعه الفقهاء وكتابه ويجلس في مقابلته أحد الامراء الكبراء ومعه

ثمانية من كبراء أمراء الترك وشيوخهم يسمون الارغجية (يارغوجي) ويتحاكم الناس اليهم فما كان من القضايا الشرعية حكم فيها القاضي وما كان من سواها حكم فيها أولئك الامراء وأحكامهم مضبوطة عادلة لانهم لا يتهمون بميل ولا يقبلون رشوة ولما عدنا الى المدرسة بعد الجلوس مع الامير بعث الينا الارز والدقيق والغنم والسمن والابزار وأحمال الحطب وتلك البلاد كلها لا يعرف بها الفحم وكذلك الهند وخراسان و بلاد العجم وأما الصين فيوقدون فيها حجارة تشتعل فيها النار كما تشتعل في الفحم ثم اذا صارت رمادا عجنوه بالماء وجففوه بالشمس وطبخوا بها ثانية كذلك حتى يتلاشا

(حكاية ومكرمة لهذا القاضي والامير)

صليت في بعض أيام الجمع على عادتي بمسجد القاضي أبي حفص فقال لي ان الامير أمر لك بخمسمائة درهم وأمر أن يصنع لك دعوة ينفق فيها خمسمائة درهم أخرى يحضرها المشايخ والفقهاء والوجوه فلما أمر بذلك قلت له أيها الامير تصنع دعوة يأكل من حضرها اللقمة أو اللقمتين لو جعلت له جميع المال كان أحسن له وانفع فقال افعل ذلك وقد أمرت لك بالالف كاملة ثم بعثها الامير صحبة امامه شمس الدين السنجري في خريطة يحملها غلامه وصرفها من الذهب المغربي ثلاثمائة دينار وكنت قد اشتريت ذلك اليوم فرسا أدهم اللون بخمسة وثلاثين دينارا دراهم وركبته في ذهابي الى المسجد فما أعطيت ثمنه الا من تلك الالف وتكاثرت عندي الخيل بعد ذلك حتى انتهت الى عدد لا أذكره خيفة مكذب يكذب به ولم تزل حالي في الزيادة حتى دخلت أرض الهند وكانت عندي خيل كثيرة لكني كنت أفضل هذا الفرس وأوثره وأربطه امام الخيل وبقي عندي الى انقضاء ثلاث سنين ولما هلك تغيرت حالي وبعثت الى الخاتون جيجا أغا امرأة القاضي مائة دينار دراهم وصنعت لي أختها ترابك زوجة الامير دعوة جمعت لها الفقهاء ووجوه المدينة بزاويتها التي بنتها وفيها الطعام للوارد والصادر وبعثت الي بفروة سمور وفرس جيد وهي من أفضل النساء وأصلحهن وأكرمهن جزاها الله خيرا

(حكاية)

ولما انفصلت من الدعوة التي صنعت لي هذه الخاتون وخرجت عن الزاوية تعرضت لي بالباب امرأة عليها ثياب دنسة وعلى رأسها مقنعة ومعها نسوة لا أذكر عددهن فسلمت علي فرددت عليها السلام ولم أقف معها ولا التفت اليها فلما خرجت أدركني بعض الناس وقال لي ان المرأة التي سلمت عليك هي الخاتون فخجلت عند ذلك وأردت الرجوع اليها فوجدتها قد انصرفت فأبلغت اليها السلام مع بعض خدامها واعتذرت عما كان مني لعدم معرفتي بها

*(

(ذكر بطيخ خوارزم)

وبطيخ خوارزم لا نظير له فى بلاد الدنيا شرقا ولا غربا الا ما كان من بطيخ بخارى ويليه بطيخ اصفهان وقشره أخضر وباطنه أحمر وهو صادق الحلاوة وفيه صلابة ومن العجائب انه يقدد وييبس فى الشمس ويجعل فى القواصر كما يصنع عندنا بالشريحة وبالتين المالقى ويحمل من خوارزم الى أقصى بلاد الهند والصين وليس فى جميع الفواكه اليابسة أطيب منه وكنت أيام اقامتى بدهلى من بلاد الهند متى قدم المسافرون بعثت من يشترى لى منهم قديد البطيخ وكان ملك الهند اذا أوتى اليه بشئ منه بعث الى به لما يعلم من محبتى فيه ومن عادته انه يطرف الغرباء بفواكه بلادهم ويتفقدهم بذلك

(حكاية)

كان قد صحبنى من مدينة السرا الى خوارزم شريف من أهل كربلاء يسمى على بن منصور وكان من التجار فكنت أكلفه أن يشترى لى الثياب وسواها فكان يشترى لى الثوب بعشرة دنانير ويقول اشتريته بثمانية ويحاسبنى بالثمانية ويدفع الدينارين من ماله وأنا لا علم لى بفعله الى أن تعرفت ذلك على ألسنة الناس وكان مع ذلك قد اسلفنى دنانير فلما وصل الى احسان أمير خوارزم رددت اليه ما أسلفنيه وأردت ان أحسن بعده اليه مكافأة لافعاله الحسنة فأبى ذلك وحاف أن لا يفعل وأردت أن أحسن الى فتى كان له اسمه كافور فحلف أن لا أفعل وكان أكرم من لقيته من العراقيين وعزم على السفر معى الى بلاد الهند ثم ان جماعة من أهل بلده وصلوا الى خوارزم برسم السفر الى الصين فأخذ فى السفر معهم فقلت له فى ذلك فقال هؤلاء أهل بلدى يعودون الى أهلى وأقاربى ويذكرون انى سافرت الى أرض الهند برسم الكدية فيكون سبة على لا أفعل ذلك وسافر معهم الى الصين فبلغنى بعد وأنا بأرض الهند انه لما بلغ الى مدينة المالق وهى آخر البلاد التى من عمالة ماوراء النهر وأول بلاد الصين أقام بها وبعث فتى له بما كان عنده من المتاع فأبطأ الفتى عليه وفى أثناء ذلك وصل من بلده بعض التجار ونزل معه فى فندق واحد فطلب منه الشريف أن يسلفه شيأ بخلال ما يصل فتاه فلم يفعل ثم أكد قبح ما صنع فى عدم التوسعة على الشريف بأن أراد الزيادة عليه فى المسكن الذى كان له بالفندق فبلغ ذلك الشريف فاغتم منه ودخل الى بيته فذبح نفسه فأدرك وبه رمق واتهموا غلاما كان له بقتله فقال لهم لا تظلموه فانى أنا فعلت ذلك بنفسى ومات من يومه غفر الله له وكان قد حكى لى عن نفسه انه أخذ مرة من بعض تجار دمشق ستة آلاف درهم قراضا فلقيه ذلك التاجر بمدينة حماة من أرض الشام فطلبه بالمال وكان قد باع ما اشترى به من المتاع بالدين فاستحيا من صاحب المال ودخل الى بيته وربط عمامته بسقف البيت وأراد أن يخنق

نفسه وكان فى أجله تأخير فتذكر صاحباله من الصيارفة فقصده وذكر له القضية فسلفه مالا دفعه للتاجر ولما أردت السفر من خوارزم اكتريت جمالا واشتريت محارة وكان عديلي بها عفيف الدين التوزرى وركب الخدام بعض الخيل وجللنا باقيها لاجل البرد ودخلنا البرية التى بين خوارزم وبخارى وهى مسيرة ثمانية عشر يوما فى رمال لاعمارة بها الابلدة واحدة فودّعت الامير قطلودمور وخلع علىّ خلعة وخلع على القاضى أخرى وخرج مع الفقهاء لوداعى وسرنا أربعة أيام ووصلنا الى مدينة الكات وليس بهذه الطريق عمارة سواها (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون اللام وآخره تاء مثناة) وهى صغيرة حسنة نزلنا خارجها على بركة ماء قد جمدت من البرد فكان الصبيان يلعبون فوقها ويزلقون عليها وسمع بقدومى قاضى الكات ويسمى صدر الشريعة وكنت قد لقيته بدار قاضى خوارزم فجاء الى مسلما مع الطلبة وشيخ المدينة الصالح العابد محمود الخيوقى ثم عرض علىّ القاضى الوصول الى أمير تلك المدينة فقال له الشيخ محمود القادم ينبغى له أن يزار وان كانت لنا همة نذهب الى أمير المدينة ونأتى به ففعلوا ذلك وأتى الامير بعد ساعة فى أصحابه وخدامه فسلمنا عليه وكان غرضنا تعجيل السفر فطلب منا الاقامة وصنع دعوة جمع لها الفقهاء ووجوه العساكر وسواهم ووقف الشعراء يمدحونه وأعطانى كسوة وفرسا جيدا وسرنا على الطريق المعروفة بسيباية وفى تلك الصحراء مسيرة ست دون ما ووصلنا بعد ذلك الى بلدة وبكنة (وضبط اسمها بفتح الواو واسكان الباء الموحدة وكاف ونون) وهى على مسيرة يوم واحد من بخارى بلدة حسنة ذات أنهار وبساتين وهم يدخرون العنب من سنة الى سنة وعندهم فاكهة يسمونها العلو (الآلو) بالعين (المهملة وتشديد اللام) فييبسونه ويجلبه الناس الى الهند والصين ويجعل عليه الماء ويشرب ماؤه وهو أيام كونه أخضر حلو فاذا يبس صار فيه يسير حموضة ولحميته كثيرة ولم أر مثله بالاندلس ولا بالمغرب ولا بالشام ثم سرنا فى بساتين متصلة وأنهار وأشجار وعمارة يوما كاملا ووصلنا الى مدينة بخارى التى ينتسب اليها امام المحدّثين أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى وهذه المدينة كانت قاعدة ما وراء نهر جيحون من البلاد وخربها اللعين تنكيز التترى جد ملوك العراق فمساجدها الآن ومدارسها وأسواقها خربة الا القليل وأهلها أذلاء وشهادتهم لاتقبل بخوارزم وغيرها لاشتهارهم بالتعصب ودعوى الباطل وانكار الحق وليس بها اليوم من الناس من يعلم شيأ من العلم ولا من له عناية به

(ذكر أولية التتر وتخريبهم بخارى وسواها)

كان تنكيز خان حدادا بأرض الخطا وكان له كرم نفس وقوة وبسطة فى الجسم وكان يجمع الناس ويطعمهم ثم صارت له جماعة فقدموه على أنفسهم وغلب على بلده وقوى واشتدت

شوكته

شوكته واستفحل أمره فغلب على ملك الخطا ثم على ملك الصين وعظمت جيوشه وتغلب على بلاد الختن وكاشغر والمالق وكان جلال الدين سنجر بن خوارزم شاه ملك خوارزم وخراسان وماوراء النهر له قوة عظيمة وشوكة فهابه تنكيز وأحجم عنه ولم يتعرض له فاتفق ان بعث تنكيز تجارا بأمتعة الصين والخطا من الثياب الحريرية وسواها الى بلدة أطرار (بضم الهمزة) وهي آخر عمالة جلال الدين فبعث اليه عامله عليها معلما بذلك واستأذنه ما يفعل في أمرهم فكتب اليه يأمره أن يأخذ أموالهم ويمثل بهم ويقطع أعضاءهم ويردهم الى بلادهم لما أراد الله تعالى من شقاء أهل بلاد المشرق ومحنتهم رأيا فائلا وتدبيرا سيئا مشؤما فلما فعل ذلك تجهز تنكيز بنفسه في عساكر لا تحصى كثرة برسم غزو بلاد الاسلام فلما سمع عامل اطرار بحركته بعث الجواسيس ليأتوه بخبره فذكر ان أحدهم دخل محلة بعض أمراء تنكيز في صورة سائل فلم يجد من يطعمه ونزل الى جانب رجل منهم فلم ير عنده زادا ولا أطعمه شيأ فلما أمسى أخرج مصرانا يابسة عنده فبلها بالماء وفصد فرسه وملأها بدمه وعقدها وشواها بالنار فكانت طعامه فعاد الى اطرار فأخبر عاملها بأمرهم وأعلمه ان لا طاقة لاحد بقتالهم فاستمد ملكه جلال الدين فأمده بستين ألفا زيادة على من كان عنده من العساكر فلما وقع القتال هزمهم تنكيز ودخل مدينة أطرار بالسيف فقتل الرجال وسبى الذراري وأتى جلال الدين بنفسه لمحاربته فكانت بينهم وقائع لا يعلم في الاسلام مثلها وآل الامر الى أن تملك تنكيز ماوراء النهر وخرب بخارى وسمرقند وترمذ وعبر النهر وهو نهر جيحون الى مدينة بلخ فتملكها ثم الى الباميان (الباميان) فتملكها وأوغل في بلاد خراسان وعراق العجم فثار عليه المسلمون في بلخ وفي ماوراء النهر فكر عليهم ودخل بلخ بالسيف وتركها خاوية على عروشها ثم فعل مثل ذلك في ترمذ فخربت ولم تعمر بعد لكنها بنيت مدينة على ميلين منها هي التي تسمى اليوم ترمذ وقتل أهل الباميان (الباميان) وهدمها بأسرها الا صومعة جامعها وعفا عن أهل بخارى وسمرقند ثم عاد بعد ذلك الى العراق وانتهى أمر التتر حتى دخلوا حضرة الاسلام ودار الخلافة بغداد بالسيف وذبحوا الخليفة المستعصم بالله العباسي رحمه الله

(قال ابن جزي) أخبرنا شيخنا قاضي القضاة أبو البركات ابن الحاج أعزه الله قال سمعت الخطيب أبا عبد الله بن رشيد يقول لقيت بمكة نور الدين ابن الزجاج من علماء العراق ومعه ابن أخ له فتفاوضنا الحديث فقال لي هلك في فتنة التتر بالعراق اربعة وعشرون ألف رجل من أهل العلم ولم يبق منهم غيري وغير ذلك وأشار الى ابن أخيه

(رجع) قال ونزلنا من بخارى بربضها المعروف بفتح أباد حيث قبر الشيخ العالم العابد الزاهد سيف الدين الباخرزي وكان من كبار الاولياء وهذه الزاوية المنسوبة لهذا الشيخ حيث نزلنا

عظيمة لها أوقاف ضخمة يطعم منها الوارد والصادر وشيخها من ذريته وهو الحاج السياح يحيى الباخرزى وأضافنى هذا الشيخ بداره وجمع وجوه أهل المدينة وقرأ القرا بالاصوات الحسان ووعظ الواعظ وغنوا بالتركى والفارسى على طريقة حسنة ومرت لنا هنالك ليلة بديعة من أعجب الليالى ولقيت بها الفقيه العالم الفاضل صدر الشريعة وكان قد قدم من هرات وهو من الصلحاء الفضلاء وزرت ببخارى قبر الامام العالم أبى عبد الله البخارى مصنف الجامع الصحيح شيخ المسلمين رضى الله عنه وعليه مكتوب هذا قبر محمد بن اسماعيل البخارى وقد صنف من الكتب كذا وكذا وكذلك على قبور علماء بخارى أسماؤهم وأسماء تصانيفهم وكنت قيدت من ذلك كثيرا وضاع منى فى جملة ما ضاع لى لما سلبنى كفار الهند فى البحر ثم سافرنا من بخارى قاصدين معسكر السلطان الصالح المعظم علاء الدين طرمشيرين وسنذكره فمررنا على نخشب البلدة التى ينسب اليها الشيخ أبو تراب النخشبى وهى صغيرة تحف بها البساتين والمياه فنزلنا بخارجها بدار لاميرها وكان عندى جارية قد قاربت الولادة وكنت أردت حملها الى سمرقند لتلد بها فاتفق انها كانت فى المحمل فوضع المحمل على الجمل وسافر أصحابنا من الليل وهى معهم والزاد وغيره من أسبابى وأقمت أنا حتى ارتحل نهارا مع بعض من معى فسلكوا طريقا وسلكت طريقا سواها فوصلنا عشية النهار الى محلة السلطان المذكور وقد جعنا فنزلنا على بعد من السوق واشترى بعض أصحابنا ما سد جوعتنا وأعارنا بعض التجار خباء بتنا به تلك الليلة ومضى أصحابنا من الغد فى البحث عن الجمال وباقى الاصحاب فوجدوهم عشيا وجاؤا بهم وكان السلطان غائبا عن المحلة فى الصيد فاجتمعت بنائبه الامير تقبغا فأنزلنى بقرب مسجده وأعطانى خرقة (خركاه) وهى شبه الخباء وقد ذكرنا صفتها فيما تقدم فجعلت الجارية فى تلك الخرقة فولدت تلك الليلة مولودا وأخبرونى انه ولد ذكر ولم يكن كذلك فلما كان بعد العقيقة أخبرنى بعض الاصحاب ان المولود بنت فاستحضرت الجوارى فسألتهن فأخبرننى بذلك وكانت هذه البنت مولودة فى طالع سعد فرأيت كل ما يسرنى ويرضينى منذ ولدت وتوفيت بعد وصولى الى الهند بشهرين وسيذكر ذلك واجتمعت بهذه المحلة بالشيخ الفقيه العابد مولانا حسام الدين الياغى (بالياء آخر الحروف والغين المعجمة) ومعناه بالتركية الثائر وهو من أهل أطرار وبالشيخ حسن صهر السلطان

(ذكر سلطان ما وراء النهر)

وهو السلطان المعظم علاء الدين طرمشيرين (وضبط اسمه بفتح الطاء المهمل وسكون الراء وفتح الميم وكسر الشين المعجم وياء مد وراء مكسور وياء مد ثانية ونون) وهو عظيم المقدار كثير الجيوش والعساكر ضخم المملكة شديد القوة عادل الحكم وبلاده متوسطة بين أربعة من ملوك

الدنيا

الدنيا الكبار وهم ملك الصين وملك الهند وملك العراق والملك أوزبك وكلهم يهادونه ويعظمونه ويكرمونه وولى الملك بعد أخيه الجكطى (وضبط اسمه بفتح الجيم المعقودة والكاف والطاء المهمل وسكون الياء) وكان الجكطى هذا كافرا وولى بعد أخيه الاكبر كبك وكان كبك هذا كافرا أيضا لكنه كان عادل الحكم منصفا للمظلومين يكرم المسلمين ويعظمهم

(حكاية)

يذكران هذا الملك كبك تكلم يوما مع الفقيه الواعظ المذكر بدر الدين الميدانى فقال له انت تقول ان الله ذكر كل شئ فى كتابه العزيز قال نعم فقال أين اسمى فيه فقال هو فى قوله تعالى فى أى صورة ماشاء ركبك فأعجبه ذلك وقال يخشى ومعناه بالتركية جيد فأكرمه اكراما كثيرا وزاد فى تعظيم المسلمين

(حكاية)

ومن أحكام كبك ماذكران امرأة شكت له بأحد الامراء وذكرت انها فقيرة ذات أولاد وكان لها لبن تقوتهم بثمنه فاغتصبه ذلك الامير وشربه فقال لها أنا أوسطه فان خرج اللبن من جوفه مضى لسبيله والا وسطتك بعده فقالت المرأة قد حللته ولا أطلبه بشئ فأمر به فوسط فخرج اللبن من بطنه ولنعد الى ذكر السلطان طرمشيرين ولما أقمت بالمحلة وهم يسمونها الاردو أياما ذهبت يوما لصلاة الصبح بالمسجد على عادتى فلما صليت ذكر لى بعض الناس ان السلطان بالمسجد فلما قام عن مصلاه تقدمت للسلام عليه وقام الشيخ حسن والفقيه حسام الدين الياغى وأعلماه بحالى وقدومى منذ أيام فقال لى بالتركية خش ميسن يخشى ميسن قطلو أيوسن ومعنى خش ميسن فى عافية أنت ومعنى يخشى ميسن جيد أنت ومعنى قطلوايوسن مبارك قدومك وكان عليه فى ذلك الحين قباقدسى أخضر وعلى رأسه شاشية مثله ثم انصرف الى مجلسه راجلا والناس يتعرضون له بالشكايات فيقف لكل مشتك منهم صغيرا أو كبيرا ذكرا أوأنثى ثم بعث عنى فوصلت اليه وهو فى خرقة والناس خارجها ميمنة وميسرة والامراء منهم على الكراسى وأصحابهم وقوف على رؤسهم وبين أيديهم وسائر الجند قد جلسوا صفوفا وامام كل واحد منهم سلاحه وهم أهل النوبة يقعدون هنالك الى العصر ويأتى آخرون فيقعدون الى آخر الليل وقد صنعت هنالك سقائف من ثياب القطن يكونون بها ولما دخلت الى الملك بداخل الخرقة وجدته جالسا على كرسى شبه المنبر مكسو بالحرير المزركش بالذهب وداخل الخرقة ملبس بثياب الحرير المذهب والتاج المرصع بالجوهر واليواقيت معلق فوق رأس السلطان بينه وبين رأسه قدر ذراع والامراء الكبار على الكراسى عن يمينه ويساره وأولاد الملوك بأيديهم المذاب بين يديه وعند باب الخرقة النائب والوزير

والحاجب وصاحب العلامة وهم يسمون آل طمغى وآل (بفتح الهمزة) معناه الاحمر وطمغى (بفتح الطاء المهمل وسكون الميم والغين المعجم المفتوح) ومعناه العلامة وقام الى أربعتهم حين دخولى ودخلوا معى فسلمت عليه وسألنى وصاحب العلامة يترجم بينى وبينه عن مكة والمدينة والقدس شرفها الله وعن مدينة الخليل عليه السلام وعن دمشق ومصر والملك الناصر وعن العراقين وملكهما وبلاد الاعاجم ثم أذن المؤذن بالظهر فانصرفنا وكنا نحضر معه الصلوات وذلك أيام البرد الشديد المهلك فكان لا يترك صلاة الصبح والعشاء فى الجماعة ويقعد للذكر بالتركية بعد صلاة الصبح الى طلوع الشمس ويأتى اليه كل من فى المسجد فيصافحه ويشد بيده على يده وكذلك يفعلون فى صلاة العصر وكان اذا أوتى بهدية من زبيب اوتمر والتمر عزيز عندهم وهم يتبركون به يعطى منها بيده لكل من فى المسجد

(حكاية)

ومن فضائل هذا الملك انه حضرت صلاة العصر يوما ولم يحضر السلطان فجاء أحد فتيانه بسجادة ووضعها قبالة المحراب حيث جرت عادته ان يصلى وقال للامام حسام الدين الياغى ان مولانا يريد ان تنتظره بالصلاة قليلا ريثما يتوضأ فقام الامام المذكور وقال نماز ومعناه الصلاة براى خدا او براى طرمشيرين اى الصلاة لله او لطرمشيرين ثم أمر المؤذن باقامة الصلاة وجاء السلطان وقد صلى منها ركعتان فصلى الركعتين الآخرتين حيث انتهى به القيام وذلك فى الموضع الذى تكون فيه أنعلة الناس عند باب المسجد وقضى مافاته وقام الى الامام ليصافحه وهو يضحك وجلس قبالة المحراب والشيخ الامام الى جانبه وأنا الى جانب الامام فقال لى اذا مشيت الى بلادك فحدث ان فقيرا من فقراء الاعاجم يفعل هكذا مع سلطان الترك وكان هذا الشيخ يعظ الناس فى كل جمعة ويأمر السلطان بالمعروف وينهاه عن المنكر وعن الظلم ويغلظ عليه القول والسلطان ينصت لكلامه ويبكى وكان لا يقبل من عطاء السلطان شيأ ولم يأكل قط من طعامه ولا لبس من ثيابه وكان هذا الشيخ من عباد الله الصالحين وكنت كثيرا ما أرى عليه قباء قطن مبطنا بالقطن محشوا به وقد بلى وتمزق وعلى رأسه قلنسوة لبد يساوى مثلها قيراطا ولا عمامة عليه فقلت له فى بعض الايام ياسيدى ماهذا القباء الذى أنت لابسه انه ليس بجيد فقال لى ياولدى ليس هذا القباء لى وانما هو لابنتى فرغبت منه ان يأخذ بعض ثيابى فقال لى عاهدت الله منذ خمسين سنة ان لا أقبل من أحد شيأ ولو كنت أقبل من أحد لقبلت منك ولما عزمت على السفر بعد مقامى عند هذا السلطان أربعة وخمسين يوما أعطانى السلطان سبعمائة دينار دراهم وفروة سمور تساوى مائة دينار طلبتها منه لاجل البرد ولما ذكرتها له أخذ أكمامى وجعل يقبلها بيده تواضعا منه وفضلا وحسن خلق وأعطانى فرسين وجملين ولما أردت

وداعه

وداعه أدركته فى أثناء طريقه الى متصيده وكان اليوم شديد البرد جدا فوالله ماقدرت على ان أنطق بكلمة لشدة البرد ففهم ذلك وضحك وأعطانى يده وانصرفت وبعد سنتين من وصولى الى أرض الهند بلغنا الخبر بأن الملأ من قومه وأمرائه اجتمعوا بأقصى بلاده المجاورة للصين وهنالك معظم عساكره وبايعوا ابن عم له اسمه بوزن أغلى وكل من كان من أبناء الملوك فهم يسمونه أغلى (بضم الهمزة وسكون الغين المعجمة وكسر اللام) وبوزن (بضم الباء الموحدة وضم الزاى) وكان مسلما الا انه فاسد الدين سيء السيرة وسبب بيعتهم له وخلعهم لطرمشيرين ان طرمشيرين خالف أحكام جدهم تنكيز اللعين الذى خرب بلاد الاسلام وقد تقدم ذكره وكان تنكيز ألف كتابا فى أحكامه يسمى عندهم اليساق (بفتح الياء آخر الحروف والسين المهمل وآخره قاف) وعندهم انه من خالف أحكام هذا الكتاب فخلعه واجب ومن جملة أحكامه انهم يجتمعون يوما فى السنة يسمونه الطوى ومعناه يوم الضيافة ويأتى أولاد تنكيز والامراء من أطراف البلاد ويحضر الخواتين وكبار الاجناد وان كان سلطانهم قد غير شيأ من تلك الاحكام يقوم اليه كبراؤهم فيقولون له غيرت كذا وغيرت كذا وفعلت كذا وقد وجب خلعك ويأخذون بيده ويقيمونه عن سرير الملك ويقعدون غيره من أبناء تنكيز وان كان أحد الامراء الكبار أذنب ذنبا فى بلاده حكموا عليه بما يستحقه وكان السلطان طرمشيرين قد أبطل حكم هذا اليوم ومحا رسمه فأنكروه عليه أشد الانكار وأنكروا عليه أيضا كونه أقام أربع سنين فيما يلى خراسان من بلاده ولم يصل الى الجهة التى توالى الصين والعادة ان الملك يقصد تلك الجهة فى كل سنة فيختبر أحوالها وحال الجند بها لان أصل ملكهم منها ودار الملك هى مدينة المالق فلما بايعوا بوزن أتى فى عسكر عظيم وخاف طرمشيرين على نفسه من أمرائه ولم يأمنهم فركب فى خمسة عشر فارسا يريد بلاد غزنة وهى من عمالته وواليها كبير أمرائه وصاحب سره برنطيه وهذا الامير محب فى الاسلام والمسلمين قد عمر فى عمالته نحو أربعين زاوية فيها الطعام للوارد والصادر وتحت يده العساكر العظيمة ولم أر قط فيمن رأيته من الآدميين بجميع بلاد الدنيا أعظم خلقة منه فلما عبر نهر جيحون وقصد طريق بلخ رآه بعض الاتراك من أصحاب ينقى ابن أخيه كبك وكان السلطان طرمشيرين المذكور قتل أخاه كبك المذكور وبقى ابنه ينقى ببلخ فلما أعلمه التركى بخبره قال ما فر الالامر حدث عليه فركب فى أصحابه وقبض عليه وسجنه ووصل بوزن الى سمرقند وبخارى فبايعه الناس وجاءه ينقى بطرمشيرين فيذكر انه لما وصل الى نسف بخارج سمرقند قتل هنالك ودفن بها وخدم تربته الشيخ شمس الدين كردن بريدا وقيل انه لم يقتل كما سنذكره وكردن (بكاف معقودة وراء مسكن ودال مهمل مفتوح ونون) ومعناه العنق وبريدا (بضم الباء الموحدة وكسر الراء

و ياء مدّ و دال مهمل) معناه المقطوع و يسمى بذلك لضربة كانت فى عنقه وقد رأيته بارض الهند ويقع ذكره فيما بعد ولما ملك بوزن هرب ابن السلطان طرمشيرين وهو بشاى أغل (أغلى) وأخته وزوجها فير وزالى ملك الهند فعظمهم وأنزلهم منزلة علية بسبب ما كان بينه و بين طرمشيرين من الودّ والمكاتبة والمهادات وكان يخاطبه بالاخ ثم بعد ذلك أتى رجل من أرض السند وادّعى انه هو طرمشيرين واختلف الناس فيه فسمع بذلك عماد الملك سرتيز غلام ملك الهند و والى بلاد السند ويسمى ملك عرض وهو الذى تعرض بين يديه عساكر الهند واليه أمرها ومقرّه بملتان قاعدة السند فبعث اليه بعض الاتراك العارفين به فعادوا اليه وأخبروه انه هو طرمشيرين حقا فأمر له بالسراجة وهى افراج فضرب خارج المدينة ورتب له ما يرتب لمثله وخرج لاستقباله وترجل له وسلم عليه وأتى فى خدمته الى السراجة فدخلها راكبا كعادة الملوك ولم يشك أحد انه هو و بعث الى ملك الهند يخبره فبعث اليه الامراء يستقبلونه بالضيافات وكان فى خدمة ملك الهند حكيم ممن خدم طرمشيرين فيما تقدم وهو كبير الحكماء بالهند فقال للملك انا أتوجه اليه وأعرف حقيقة أمره فانى كنت عالجت له دملا تحت ركبته وبقى أثره و به أعرفه فاتى اليه ذلك الحكيم واستقبله مع الامراء ودخل عليه ولازمه لسابقته عنده واخذ يغمز رجليه وكشف عن الاثر فشتمه وقال له تريد ان تنظر الى الدمل الذى عالجته ها هو ذا واراه أثره فتحقق انه هو وعاد الى ملك الهند فاعلمه بذلك ثم ان الوزير خواجه جهان أحمد بن اياس وكبير الامراء قطلوخان معلم السلطان أيام صغره دخلا على ملك الهند وقالا له ياخوند عالم هذا السلطان طرمشيرين قد وصل وصح انه هو وها هنا من قومه نحو أربعين الفا وولده وصهره ارايت ان اجتمعوا عليه ما يكون من العمل فوقع هذا الكلام بموقع منه عظيم وأمر أن يؤتى بطرمشيرين معجلا فلما دخل عليه أمر بالخدمة كسائر الواردين ولم يعظم وقال له السلطان يامادر كانى وهى شتمة قبيحة كيف تكذب وتقول انك طرمشيرين وطرمشيرين قد قتل وهذا خادم تربته عندنا والله لولا المعرة لقتلتك ولكن اعطوه خمسة آلاف دينار واذهبوا به الى دار بشاى اغلى واخته ولدى طرمشيرين وقولوا لهم ان هذا الكاذب يزعم انه والدكم فدخل عليهم فعرفوه وبات عندهم والحراس يحرسونه وأخرج بالغد وخافوا أن يهلكوا بسببه فانكروه ونفى عن بلاد الهند والسند فسلك طريق كيج ومكران واهل البلاد يكرمونه ويضيفونه ويهادونه ووصل الى شيراز فاكرمه سلطانها ابواسحاق وأجرى له كفايته ولما دخلت عند وصولى من الهند الى مدينة شيراز ذكر لى انه باق بها واردت لقاءه ولم أفعل لانه كان فى دار لا يدخل اليه احد الا باذن من السلطان ابى اسحاق فخفت مما يتوقع بسبب ذلك ثم ندمت على عدم لقائه

(رجع

(رجع الحديث الى بوزن) وذلك انه لما ملك ضيق على المسلمين وظلم الرعية واباح للنصارى واليهود عمارة كنائسهم فضج المسلمون من ذلك وتربصوا به الدوائر واتصل خبره بخليل بن السلطان اليسور المهزوم على خراسان فقصد ملك هرات وهو السلطان حسين ابن السطان غياث الدين الغورى فاعلمه بما كان فى نفسه وسأل منه الاعانة بالعساكر والمال على ان يشاطره الملك اذا استقام له فبعث معه الملك حسين عسكرا عظيما وبين هرات والترمذ تسعة أيام فلما سمع امراء السلطان بقدوم خليل تلقوه بالسمع والطاعة والرغبة فى جهاد العدو وكان اول قادم عليه علاء الملك خداوندزاده صاحب ترمذ وهو أمير كبير شريف حسينى النسب فاتاه فى أربعة آلاف من المسلمين فسر به وولاه وزارته وفوض اليه امره وكان من الابطال وجاء الامراء من كل ناحية واجتمعوا على خليل والتقى مع بوزن فمالت العساكر الى خليل وأسلموا بوزن وأتوا به أسيرا فقتله خنقا باوتار القسى وتلك عادة لهم انهم لا يقتلون من كان من أبناء الملوك الا خنقا واستقام الملك لخليل وعرض عساكره بسمرقند فكانوا ثمانين ألفا عليهم وعلى خيلهم الدروع فصرف العسكر الذى جاء به من هرات وقصد بلاد المالق فقدم التتر على أنفسهم واحدا منهم ولقوه على مسيرة ثلاث من المالق بمقربة من اطراز (طراز) وحمى القتال وصبر الفريقان فحمل الامير خداوندزاده وزيره فى عشرين ألفا من المسلمين حملة لم يثبت لها التتر فانهزموا واشتد فيهم القتل وأقام خليل بالمالق ثلاثا وخرج الى استيصال من بقى من التتر فاذعنوا له بالطاعة وجاز الى تخوم الخطا والصين وفتح مدينة قراقرم ومدينة بش بالغ وبعث اليه سلطان الخطا بالعساكر ثم وقع بينهما الصلح وعظم أمر خليل وهابته الملوك وأظهر العدل ورتب العساكر بالمالق وترك بها وزيره خداوندزاده وانصرف الى سمرقند وبخارى ثم ان الترك أرادوا الفتنة فسعوا الى خليل بوزيره المذكور وزعموا انه يريد الثورة ويقول انه أحق بالملك لقرابته من النبى صلى الله عليه وسلم وكرمه وشجاعته فبعث واليا الى المالق عوضا عنه وأمره ان يقدم عليه فى نفر يسير من اصحابه فلما قدم عليه قتله عند وصوله من غير تثبت فكان ذلك سبب خراب ملكه وكان خليل لما عظم أمره بغى على صاحب هرات الذى أورثه الملك وجهزه بالعساكر والمال فكتب اليه أن يخطب فى بلاده باسمه ويضرب الدنانير والدراهم على سكته فغاظ ذلك الملك حسينا وأنف منه وأجابه بأقبح جواب فتجهز خليل لقتاله فلم توافقه عساكر الاسلام ورأوه باغيا عليه وبلغ خبره الى الملك حسين فجهز العساكر مع ابن عمه ملك ورنا والتقى الجمعان فانهزم خليل وأوتى به الى الملك حسين اسيرا فمن عليه بالبقاء وجعله فى دار وأعطاه جارية واجرى عليه النفقة وعلى هذا الحال تركته عنده فى أواخر سنة سبع وأربعين عند خروجى من الهند ولنعد الى ما كنا بسبيله ولما وادعت السلطان طرمشيرين

سافرت الى مدينة سمرقند وهى من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالا مبنية على شاطئ واد يعرف بوادى القصارين عليه النواعير تسقى البساتين وعنده يجتمع أهل البلد بعد صلاة العصر للنزهة والتفرج ولهم عليه مساطب ومجالس يقعدون عليها ودكاكين تباع بها الفاكهة وسائر المأكولات وكانت على شاطئه قصور عظيمة وعمارة تنبئ عن علو همم أهلها فدثر أكثر ذلك وكذلك المدينة خرب كثير منها ولا سور لها ولا أبواب عليها وفى داخلها البساتين وأهل سمرقند لهم مكارم اخلاق ومحبة فى الغريب وهم خير من أهل بخارى وبخارج سمرقند قبر قثم بن العباس بن عبد المطلب رضى الله عن العباس وعن ابنه وهو المستشهد حين فتحها ويخرج أهل سمرقند كل ليلة اثنين وجمعة الى زيارته والتتر يأتون لزيارته وينذرون له النذور العظيمة ويأتون اليه بالبقر والغنم والدراهم والدنانير فيصرف ذلك فى النفقة على الوارد والصادر ولخدام الزاوية والقبر المبارك وعليه قبة قائمة على أربع أرجل ومع كل رجل ساريتان من الرخام منها الخضر والسود والبيض والحمر وحيطان القبة بالرخام المجزع المنقوش بالذهب وسقفها مصنوع بالرصاص وعلى القبر خشب الابنوس المرصع مكسو الاركان بالفضة وفوقه ثلاثة من قناديل الفضة وفرش القبة بالصوف والقطن وخارجها نهر كبير يشق الزاوية التى هنالك وعلى حافتيه الاشجار ودوالى العنب والياسمين وبالزاوية مساكن يسكنها الوارد والصادر ولم يغير التتر أيام كفرهم شيأ من حال هذا الموضع المبارك بل كانوا يتبركون به لما يرون له من الآيات وكان الناظر فى كل حال هذا الضريح المبارك وما يليه حين نزولنا به الامير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن عبد العزيز بن يوسف بن الخليفة المستنصر بالله العباسى قدمه لذلك السلطان طرمشيرين لما قدم عليه من العراق وهو الآن عند ملك الهند وسيأتى ذكره ولقيت بسمرقند قاضيها المسمى عندهم صدر الجهان وهو من الفضلاء ذوى المكارم وسافر الى بلاد الهند بعد سفرى اليها فأدركته منيته بمدينة ملتان قاعدة بلاد السند

(حكاية)

لما مات هذا القاضى بملتان كتب صاحب الخبر بأمره الى ملك الهند وانه قدم برسم بابه فاخترم دون ذلك فلما بلغ الخبر الى الملك امر أن يبعث الى أولاده عدد من آلاف الدنانير لا اذكره الآن وأمر أن يعطى لاصحابه ما كان يعطى لهم لو وصلوا معه وهو بقيد الحياة ولملك الهند فى كل بلد من بلاده صاحب الخبر يكتب له بكل ما يجرى فى ذلك البلد من الامور وبمن يرد عليه من الواردين واذا أتى الوارد كتبوا من اى البلاد ورد وكتبوا اسمه ونعته وثيابه وأصحابه وخيله وخدامه وهيئته من الجلوس والمأكل وجميع شئونه وتصرفاته وما يظهر منه من

فضيلة

فضيلة أو ضدها فلا يصل الوارد الى الملك الا وهو عارف بجميع حاله فتكون كرامته على مقدار ما يستحقه وسافرنا من سمرقند فاجتزنا ببلدة نسف واليها ينسب أبو حفص عمر النسفي مؤلف كتاب المنظومة فى المسائل الخلافية بين الفقهاء الاربعة رضى الله عنهم ثم وصلنا الى مدينة ترمذ التى ينسب اليها الامام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى مؤلف الجامع الكبير فى السنن وهى مدينة كبيرة حسنة العمارة والاسواق تخترقها الانهار وبها البساتين الكثيرة والعنب والسفرجل بها كثير متناهى الطيب واللحوم بها كثيرة وكذلك الالبان وأهلها يغسلون رؤسهم فى الحمام باللبن عوضا عن الطفل ويكون عند كل صاحب حمام أوعية كبار مملوءة لبنا فاذا دخل الرجل الحمام أخذ منها فى اناء صغير فغسل رأسه وهو يرطب الشعر ويصقله وأهل الهند يجعلون فى رؤسهم زيت السمسم ويسمونه الشيراج ويغسلون الشعر بعده بالطفل فينعم الجسم ويصقل الشعر ويطيله وبذلك طالت لحى اهل الهند ومن سكن معهم وكانت مدينة ترمذ القديمة مبنية على شاطئ جيحون فلما خربها تنكيز بنيت هذه الحديثة على ميلين من النهر وكان نزولنا بها بزاوية الشيخ الصالح عزيزان من كبار المشايخ وكرمائهم كثير المال والرباع والبساتين ينفق على الوارد والصادر من ماله واجتمعت قبل وصولى الى هذه المدينة بصاحبها علاء الملك خداوندزاده وكتب لى اليها بالضيافة فكانت تحمل الينا أيام مقامنا بها فى كل يوم ولقيت أيضا قاضيها قوام الدين وهو متوجه لرؤية السلطان طرمشيرين وطالب للاذن له فى السفر الى بلاد الهند وسيأتى ذكر لقائى له بعد ذلك ولأخويه ضياء الدين وبرهان الدين بملتان وسفرنا جميعا الى الهند وذكر أخويه الآخرين عماد الدين وسيف الدين ولقائى لهما بحضرة ملك الهند وذكر ولديه وقدومهما على ملك الهند بعد قتل أبيهما وتزويجهما بابنتى الوزير خواجه جهان وما جرى فى ذلك كله ان شاء الله تعالى ثم أجزنا نهر جيحون الى بلاد خراسان وسرنا بعد انصرافنا من ترمذ واجازة الوادى يوما ونصف يوم فى صحراء ورمال لا عمارة بها الى مدينة بلخ وهى خاوية على عروشها غير عامرة ومن رآها ظنها عامرة لاتقان بنائها وكانت ضخمة فسيحة ومساجدها ومدارسها باقية الرسوم حتى الآن ونقوش مبانيها مدخلة باصبغة اللازورد والناس ينسبون اللازورد الى خراسان وانما يجلب من جبال بدخشان التى ينسب اليها الياقوت البدخشى والعامة يقولون البلخش وسيأتى ذكرها ان شاء الله تعالى وخرب هذه المدينة تنكيز اللعين وهدم من مسجدها نحو الثلث بسبب كنز ذكر له انه تحت سارية من سواريه وهو من احسن مساجد الدنيا وأفسحها ومسجد رباط الفتح بالمغرب يشبهه فى عظم سواريه ومسجد بلخ أجمل منه فى سوى ذلك

(حكاية)

ذكر لي بعض أهل التاريخ ان مسجد بلخ بنته امرأة كان زوجها أميرا ببلخ لبني العباس يسمى داود بن علي فاتفق ان الخليفة غضب مرة على أهل بلخ لحادث أحدثوه فبعث اليهم من يغرمهم مغرما فادحا فلما بلغ الى بلخ أتى نساؤها وصبيانها الى تلك المرأة التي بنت المسجد وهي زوج أميرهم وشكوا حالهم وما لحقهم من هذا المغرم فبعثت الى الامير الذي قدم برسم تغريمهم بثوب لها مرصع بالجوهر قيمته أكثر مما أمر بتغريمه فقالت له اذهب بهذا الثوب الى الخليفة فقد أعطيته صدقة عن أهل بلخ لضعف حالهم فذهب به الى الخليفة وألقى الثوب بين يديه وقص عليه القصة فخجل الخليفة وقال أتكون المرأة أكرم منا وأمره برفع المغرم عن أهل بلخ وبالعودة اليها ليرد للمرأة ثوبها وأسقط عن أهل بلخ خراج سنة فعاد الامير الى بلخ وأتى منزل المرأة وقص عليها مقالة الخليفة ورد عليها الثوب فقالت له أوقع بصر الخليفة على هذا الثوب قال نعم قالت لا البس ثوبا وقع عليه بصر غير ذي محرم مني وأمرت ببيعه فبني منه المسجد والزاوية ورباط في مقابلته مبني بالكذان وهو عامر حتى الآن وفضل من الثوب مقدار ثلثه فذكر انها أمرت بدفنه تحت بعض سواري المسجد ليكون هنالك متيسرا ان احتيج اليه خرج فأخبر تنكيز بهذه الحكاية فأمر بهدم سواري المسجد فهدم منها نحو الثلث ولم يجد شيأ فترك الباقي على حاله وبخارج بلخ قبر يذكر انه قبر عكاشة بن محصن الاسدي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما الذي يدخل الجنة بلا حساب وعليه زاوية معظمة بها كان نزولنا وبخارجها بركة ماء عجيبة عليها شجرة جوز عظيمة ينزل الواردون في الصيف تحت ظلالها وشيخ هذه الزاوية يعرف بالحاج خرد وهو الصغير من الفضلاء وركب معنا وأرانا مزارات هذه المدينة منها قبر حزقيل النبي عليه السلام وعليه قبة حسنة وزرنا بها أيضا قبورا كثيرة من قبور الصالحين لا أذكرها الآن ووقفنا على دار ابراهيم بن أدهم رضي الله عنه وهي دار ضخمة مبنية بالصخر الابيض الذي يشبه الكذان وكان زرع الزاوية مختزنا بها وقد سدت عليه فلم ندخلها وهي بمقربة من المسجد الجامع ثم سافرنا من مدينة بلخ فسرنا في جبال قوهستان (قهستان) سبعة أيام وهي قرى كثيرة عامرة بها المياه الجارية والاشجار المورقة واكثرها شجر التين وبها زوايا كثيرة فيها الصالحون المنقطعون الى الله تعالى وبعد ذلك كان وصولنا الى مدينة هرات وهي أكبر المدن العامرة بخراسان ومدن خراسان العظيمة أربع ثنتان عامرتان وهما هرات ونيسابور وثنتان خربتان وهما بلخ ومرو ومدينة هرات كبيرة عظيمة كثيرة العمارة ولاهلها صلاح وعفاف وديانة وهم على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه وبلدهم طاهر من الفساد

*(

(ذكر سلطان هرات)

وهو السلطان المعظم حسين بن السلطان غياث الدين الغورى صاحب الشجاعة المأثورة والتأييد والسعادة ظهر له من انجاد الله تعالى وتأييده فى موطنين اثنين ما يقضى منه العجب أحدهما عند ملاقاة جيشه للسلطان خليل الذى بغى عليه وكان منتهى امره حصوله أسيرا فى يديه والموطن الثانى عند ملاقاته بنفسه لمسعود سلطان الرافضة وكان منتهى أمره تبديده وفراره وذهاب ملكه وولى السلطان حسين الملك بعد أخيه المعروف بالحافظ وولى أخوه بعد أبيه غياث الدين

(حكاية الرافضة)

كان بخراسان رجلان أحدهما يسمى بمسعود والآخر يسمى بمحمد وكان لهما خمسة من الاصحاب وهم من الفتاك ويعرفون بالعراق بالشطار ويعرفون بخراسان بسرابداران (سربداران) ويعرفون بالمغرب بالصقورة فاتفق سبعتهم على الفساد وقطع الطرق وسلب الاموال وشاع خبرهم وسكنوا جبلا منيعا بقربة من مدينة بيهق وتسمى أيضا مدينة سبزار (سبزوار) وكانوا يكمنون بالنهار ويخرجون بالليل والعشى فيضربون على القرى ويقطعون الطرق ويأخذون الاموال وانثال عليهم أشباههم من أهل الشر والفساد فكثر عددهم واشتدت شوكتهم وهابهم الناس وضربوا على مدينة بيهق فملكوها ثم ملكوا سواها من المدن واكتسبوا الاموال وجندوا الجنود وركبوا الخيل وتسمى مسعود بالسلطان وصار العبيد يفرون عن مواليهم اليه فكل عبد فر منهم يعطيه الفرس والمال وان ظهرت له شجاعة أمره على جماعة فعظم جيشه واستفحل أمره وتمذهب جميعهم بمذهب الرفض وطمحوا الى استيصال أهل السنة بخراسان وان يجعلوها كلمة واحدة رافضية وكان بمشهد طوس شيخ من الرافضة يسمى بحسن وهو عندهم من الصلحاء فوافقهم على ذلك وسموه بالخليفة وامرهم بالعدل فأظهروه حتى كانت الدراهم والدنانير تسقط فى معسكرهم فلا يلتقطها أحد حتى يأتى ربها فيأخذها وغلبوا على نيسابور وبعث اليهم السلطان طغيتمور بالعساكر فهزموها ثم بعث اليهم نائبه أرغون شاه فهزموه وأسروه ومنوا عليه ثم غزاهم طغيتمور بنفسه فى خمسين ألفا من التتر فهزموه وملكوا البلاد وتغلبوا على سرخس والزاوه وطوس وهى من أعظم بلاد خراسان وجعلوا خليفتهم بمشهد على بن موسى الرضى وتغلبوا على مدينة الجام ونزلوا بخارجها وهم قاصدون مدينة هرات وبينها وبينهم مسيرة ست فلما بلغ ذلك الملك حسينا جمع الامراء والعساكر وأهل المدينة واستشارهم هل يقيمون حتى يأتى القوم أو يمضون اليهم فيناجزونهم فوقع اجماعهم على الخروج اليهم وهم قبيلة واحدة يسمون الغورية ويقال انهم منسوبون

الى غور الشام وان أسلمهم منه فتجهزوا أجمعون واجتمعوا من اطراف البلاد وهم ساكنون بالقرى وبصحراء مرغيس (بدغيس) وهى مسيرة أربع لا يزال عشبها أخضر ترعى منه ماشيتهم وخيلهم وأكثر شجرها الفستق ومنها يحمل الى أرض العراق وعضدهم اهل مدينة سمنان ونفروا جميعا الى الرافضة وهم مائة وعشرون ألفا مابين رجالة وفرسان يقودهم الملك حسين واجتمعت الرافضة فى مائة وخمسين ألفا من الفرسان وكانت الملاقاة بصحراء بوشنج وصبر الفريقان معا ثم كانت الدائرة على الرافضة وفر سلطانهم مسعود وثبت خليفتهم حسن فى عشرين ألفا حتى قتل وقتل أكثرهم واسر منهم نحو أربعة آلاف وذكر لى بعض من حضر هذه الوقيعة ان ابتداء القتال كان فى وقت الضحى وكانت الهزيمة عند الزوال ونزل الملك حسين بعد الظهر فصلى وأتى بالطعام فكان هو وكبراء أصحابه يأكلون وسائرهم يضربون اعناق الاسرى وعاد الى حضرته بعد هذا الفتح العظيم وقد نصر الله السنة على يديه وأطفأ نار الفتنة وكانت هذه الوقيعة بعد خروجى من الهند عام ثمانية وأربعين ونشأ بهرات رجل من الزهاد والصلحاء الفضلاء واسمه نظام الدين مولانا وكان أهل هرات يحبونه ويرجعون الى قوله وكان يعظهم ويذكرهم وتوافقوا معه على تغيير المنكر وتعاقد معهم على ذلك خطيب المدينة المعروف بملك ورنا وهو ابن عم الملك حسين ومتزوج بزوجة والده وهى من أحسن الناس صورة وسيرة والملك يخافه على نفسه وسنذكر خبره وكانوا متى علموا بمنكر ولو كان عند الملك غيروه

(حكاية)

ذكر لى انهم تعرفوا يوما ان بدار الملك حسين منكرا فاجتمعوا لتغييره وتحصن منهم بداخل داره فاجتمعوا على الباب فى ستة آلاف رجل فخاف منهم فاستحضر الفقيه وكبار البلد وكان قد شرب الخمر فأقاموا عليه الحد بداخل قصره وانصرفوا عنه

(حكاية هى سبب قتل الفقيه نظام الدين المذكور)

كانت الاتراك المجاورون لمدينة هرات الساكنون بالصحراء وملكهم طغيتمور الذى مر ذكره وهم نحو خمسين ألفا يخافهم الملك حسين ويهدى لهم الهدايا فى كل سنة ويداريهم وذلك قبل هزيمته للرافضة وأما بعد هزيمته للرافضة فتغلب عليهم ومن عادة هؤلاء الاتراك التردد الى مدينة هرات وربما شربوا بها الخمر وأتاها بعضهم وهو سكران فكان نظام الدين يحد من وجد منهم سكرانا وهؤلاء الاتراك اهل نجدة وباس ولا يزالون يضربون على بلاد الهند فيسبون ويقتلون وربما سبوا بعض المسلمات اللاتى يكن بأرض الهند مابين الكفار فاذا خرجوا بهن الى خراسان يطلق نظام الدين المسلمات من أيدى الترك وعلامة النسوة المسلمات بارض

الهند ترك ثقب الاذن والكافرات آذانهن مثقوبات فاتفق ان أميرا من أمراء الترك يسمى تمور الطى سبى امرأة وكلف بها كلفا شديدا فذكرت انها مسلمة فانتزعها الفقيه من يده فبلغ ذلك من التركى مبلغا عظيما وركب فى آلاف من أصحابه وأغار على خيل هرات وهى فى مرعاها بصحراء مرغيس (بدغيس) واحتملوها فلم يتركوا لاهل هرات ما يركبون ولا ما يحلبون وصعدوا بها الى جبل هنالك لا يقدر عليهم فيه ولم يجد السلطان ولا جنده خيلا يتبعونهم بها فبعث اليهم رسولا يطلب منهم ردّ ما أخذوه من الماشية والخيل ويذكرهم العهد الذى بينهم فأجابوا بأنهم لا يردّون ذلك حتى يمكنوا من الفقيه نظام الدين فقال السلطان لا سبيل الى هذا وكان الشيخ أبو أحمد الجستى حفيد الشيخ مودود الجستى له بخراسان شأن عظيم وقوله معتبر لديهم فركب فى جماعة خيل من أصحابه ومماليكه فقال أنا أحمل الفقيه نظام الدين معى الى الترك ليرضوا بذلك ثم أردّه فكان الناس مالوا الى قوله ورأى الفقيه نظام الدين اتفاقهم على ذلك فركب مع الشيخ أبى أحمد ووصل الى الترك فقام اليه الامير تمور الطى وقال له أنت أخذت امرأتى منى وضربه بدبوسه فكسر دماغه فخرّ ميتا فسقط فى أيدى الشيخ ابى أحمد وانصرف من هنالك الى بلده وردّ الترك ما كانوا أخذوه من الخيل والماشية وبعد مدّة قدم ذلك التركى الذى قتل الفقيه على مدينة هرات فلقيه جماعة من أصحاب الفقيه فتقدموا اليه كأنهم مسلمون عليه وتحت ثيابهم السيوف فقتلوه وفرّ أصحابه ولما كان بعد هذا بعث الملك حسين ابن عمه ملك ورنا الذى كان رفيق الفقيه نظام الدين فى تغيير المنكر رسولا الى ملك سجستان فلما حصل بها بعث اليه أن يقيم هنالك ولا يعود اليه فقصد بلاد الهند ولقيته وأنا خارج منها بمدينة سيوستان من السند وهو أحد الفضلاء وفى طبعه حب الرياسة والصيد والبزاة والخيل والمماليك والاصحاب واللباس الملوكى الفاخر ومن كان على هذا الترتيب فانه لا يصلح حاله بأرض الهند فكان من أمره ان ملك الهند ولاه بلدا صغيرا وقتله به بعض أهل هرات المقيمين بالهند بسبب جارية وقيل ان ملك الهند دس عليه من قتله بسعى الملك حسين فى ذلك ولاجله خدم الملك حسين ملك الهند بعد موت ملك ورنا المذكور وهاداه ملك الهند وأعطاه مدينة بكار من بلاد السند ومجباها خمسون ألفا من دنانير الذهب فى كل سنة (ولنعد) الى ما كنا بسبيله فنقول سافرنا من هرات الى مدينة الجام وهى متوسطة حسنة ذات بساتين وأشجار وعيون كثيرة وأنهار وأكثر شجرها التوت والحرير بها كثير وهى تنسب الى الولى العابد الزاهد شهاب الدين أحمد الجامى وسنذكر حكايته وحفيده الشيخ أحمد المعروف بزاده الذى قتله ملك الهند والمدينة الآن لاولاده وهى محررة من قبل السلطان ولهم بها نعمة وثروة وذكر لى من أثق به ان السلطان أبا سعيد ملك العراق قدم خراسان مرة ونزل على هذه

المدينة وبها زاوية الشيخ فأضافه ضيافة عظيمة وأعطى لكل خباء بجملته رأس غنم ولكل أربعة رجال رأس غنم ولكل دابة بالمحلة من فرس وبغل وحمار علف ليلة فلم يبق فى المحلة حيوان الا وصلته ضيافته

(حكاية الشيخ شهاب الدين الذى تنسب اليه مدينة الجام)

يذكر انه كان صاحب راحة مكثرا من الشرب وكان له من الندماء نحو ستين وكانت لهم عادة أن يجتمعوا يوما فى منزل كل واحد منهم فتدور النوبة على أحدهم بعد شهرين وبقوا على ذلك مدة ثم ان النوبة وصلت يوما الى الشيخ شهاب الدين فعقد التوبة ليلة النوبة وعزم على اصلاح حاله مع ربه وقال فى نفسه ان قلت لاصحابى انى قد تبت قبل اجتماعهم عندى ظنوا ذلك عجزا عن مؤنتهم فأحضر ما كان يحضر مثله قبل من مأكول ومشروب وجعل الخمر فى الزقاق وحضر أصحابه فلما أرادوا الشرب فتحوا زقا فذاقه أحدهم فوجده حلوا ثم فتحوا ثانيا فوجدوه كذلك ثم ثالثا فوجدوه كذلك فكلموا الشيخ فى ذلك فخرج لهم عن حقيقة أمره وصدقهم سن بكره وعرفهم بتوبته وقال لهم والله ما هذا الا الشراب الذى كنتم تشربونه فيما ما تقدم فتابوا جميعا الى الله تعالى وبنوا تلك الزاوية وانقطعوا بها العبادة الله تعالى وظهر لهذا الشيخ كثير من الكرامات والمكاشفات ثم سافرنا من الجام الى مدينة طوس وهى من أكبر بلاد خراسان وأعظمها بلد الامام الشهير أبى حامد الغزالى رضى الله عنه وبها قبره ورحلنا منها الى مدينة مشهد الرضى وهو على ابن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين الشهيد ابن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنهم وهى أيضا مدينة كبيرة ضخمة كثيرة الفواكه والمياه والارحاء الطاحنة وكان بها الطاهر محمد شاه والطاهر عندهم بمعنى النقيب عند أهل مصر والشام والعراق وأهل الهند والسند وتركستان يقولون السيد الاجل وكان أيضا بهذا المشهد القاضى الشريف جلال الدين لقيته بأرض الهند والشريف على وولداه أمير هندو ودولة شاه وصحبونى من ترمذ الى بلاد الهند وكانوا من الفضلاء والمشهد المكرم عليه قبة عظيمة فى داخل زاوية تجاورها مدرسة ومسجد وجميعها مليح البناء مصنوع الحيطان بالقاشانى وعلى القبر دكانة خشب ملبسة بصفائح الفضة وعليه قناديل فضة معلقة وعتبة باب القبة فضة وعلى بابها ستر حرير مذهب وهى مبسوطة بأنواع البسط وازاء هذا القبر قبر هارون الرشيد أمير المؤمنين رضى الله عنه وعليه دكانة يضعون عليها الشمعدانات التى يعرفها اهل المغرب بالحسك والمنائر واذا دخل الرافضى للزيارة ضرب قبر الرشيد برجله وسلم على الرضى ثم سافرنا الى مدينة سرخس واليها ينسب الشيخ الصالح لقمان السرخسى رضى الله عنه ثم سافرنا منها الى مدينة زاوة وهى مدينة الشيخ

الصالح قطب الدين حيدر واليه تنتسب طائفة الحيدرية من الفقراء وهم الذين يجعلون حلق الحديد فى أيديهم وأعناقهم وآذانهم ويجعلونها أيضا فى ذكورهم حتى لا يتأتى لهم النكاح ثم رحلنا منها فوصلنا الى مدينة نيسابور وهى احدى المدن الاربع التى هى قواعد خراسان ويقال لها دمشق الصغيرة لكثرة فواكهها وبساتينها ومياهها وحسنها وتخترقها أربعة من الانهار وأسواقها حسنة متسعة ومسجدها بديع وهو فى وسط السوق ويليه أربع من المدارس يجرى بها الماء الغزير وفيها من الطلبة خلق كثير يقرأون القرآن والفقه وهى من حسان مدارس تلك البلاد ومدارس خراسان والعراقين ودمشق وبغداد ومصر وان بلغت الغاية من الاتقان والحسن فكلها تقصر عن المدرسة التى عمرها مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله المجاهد فى سبيل الله عالم الملوك وواسطة عقد الخلفاء العادلين أبو عنان وصل الله سعده ونصر جنده وهو التى عند القصبة من حضرة فاس حرسها الله تعالى فانها لا نظير لها سعة وارتفاعا ونقش الجص بها لا قدرة لاهل المشرق عليه ويصنع بنيسابور ثياب الحرير من النخ والكمخا وغيرها وتحمل منها الى الهند وفى هذه المدينة زاوية الشيخ الامام العالم القطب العابد قطب الدين النيسابورى أحد الوعاظ العلماء الصالحين نزلت عنده فأحسن القرى وأكرم ورأيت له البراهين والكرامات العجيبة

(كرامة له)

كنت قد اشتريت بنيسابور غلاما تركيا فرآه معى فقال لى هذا الغلام لا يصلح لك فبعه فقلت له نعم وبعت الغلام فى غد ذلك اليوم واشتراه بعض التجار وودعت الشيخ وانصرفت فلما حللت بمدينة بسطام كتب الى بعض أصحابى من نيسابور وذكر ان الغلام المذكور قتل بعض أولاد الاتراك وقتل به وهذه كرامة واضحة لهذا الشيخ رضى الله عنه وسافرت من نيسابور الى مدينة بسطام التى ينتسب اليها الشيخ العارف أبو يزيد البسطامى الشهير رضى الله عنه وبهذه المدينة قبره ومعه فى قبة واحدة أحد أولاد جعفر الصادق رضى الله عنه وببسطام أيضا قبر الشيخ الصالح الولى أبى الحسن الخرقانى وكان نزولى من هذه المدينة بزاوية الشيخ أبى يزيد البسطامى رضى الله عنه ثم سافرت من هذه المدينة على طريق هندخير الى قندوس وبغلان وهى قرى فيها مشايخ وصالحون وبها البساتين والانهار فنزلنا بقندوس على نهر ماء به زاوية لاحد شيوخ الفقراء من أهل مصر يسمى بشير سياه ومعنى ذلك الاسد الاسود واضافنا بها والى تلك الارض وهو من أهل الموصل وسكناه ببستان عظيم هنالك وأقمنا بخارج هذه القرية نحو أربعين يوما لرعى الجمال والخيل وبها مراعى طيبة وأعشاب كثيرة والامن بها شامل بسبب شدة احكام الامير برنطيه وقد قدمنا ان احكام الترك فى من سرق فرسا ان يعطى معه تسعة مثله فان لم يجد

ذلك اخذ فيها أولاده فان لم يكن له أولاد ذبح الشاة والناس يتركون دوابهم مهملة دون راع بعد ان يسم كل واحد دوابه فى افخاذها وكذلك فعلنا فى هذه البلاد واتفق ان تفقدنا خيلنا بعد عشر من نزولنا بها ففقدنا منها ثلاثة أفراس ولما كان بعد نصف شهر جاءنا التتر بها الى منزلنا خوفا على أنفسهم من الاحكام وكنا نربط فى كل ليلة ازاء اخبيتنا فرسين لما عسى أن يقع بالليل ففقدنا الفرسين ذات ليلة وسافرنا من هنالك و بعد ثنتين وعشرين ليلة جاؤا بهما الينا فى أثناء طريقنا وكان أيضا من أسباب اقامتنا خوف الثلج فان باثناء الطريق جبلا يقال له هندوكوش ومعناه قاتل الهنود لان العبيد والجوارى الذين يؤتى بهم من بلاد الهند يموت هنالك الكثير منهم لشدّة البرد وكثرة الثلج وهو مسيرة يوم كامل وأقمنا حتى تمكن دخول الحرّ وقطعنا ذلك الجبل من آخر الليل وسلكنا به جميع نهارنا الى الغروب وكنا نضع اللبود بين أيدى الجمال تطأ عليها لئلا تغرق فى الثلج ثم سافرنا الى موضع يعرف بأندر وكانت هنالك فيما تقدم مدينة عفى رسمها ونزلنا بقرية عظيمة فيها زاوية لاحد الفضلاء ويسمى بمحمد المهروى ونزلنا عنده وأكرمنا وكان متى غسلنا أيدينا من الطعام يشرب الماء الذى غسلنا ها به لحسن اعتقاده وفضله وسافر معنا الى ان صعدنا جبل هندوكوش المذكور ووجدنا بهذا الجبل عين ماء حارة فغسلنا منها وجوهنا فتقشرت وتألمنا لذلك ثم نزلنا بموضع يعرف بپنج هير ومعنى پنج خمسة وهير الجبل فمعناه خمسة جبال وكانت هنالك مدينة حسنة كثيرة العمارة على نهر عظيم أزرق كأنه بحر ينزل من جبال بذخشان وبهذه الجبال يوجد الياقوت الذى يعرفه الناس بالبلخش وخرب هذه البلاد تنكيز ملك التتر فلم تعمر بعد وبهذه المدينة مزار الشيخ سعيد المكى وهو معظم عندهم ووصلنا الى جبل پشاى (وضبطه بفتح الباء المعقودة والشين المعجم وألف وياء ساكنة) وبه زاوية الشيخ الصالح أطا أولياء وأطا (بفتح الهمزة) معناه بالتركية الاب وأولياء باللسان العربى فمعناه أبو الاولياء ويسمى أيضا سيصد صاله وسيصد (بسين مهمل مكسور وياء مدّ وصاد مهمل مفتوح ودال مهمل) ومعناه بالفارسية ثلاثمائة وصاله (ساله) (بفتح الصاد المهمل واللام) معناه عام وهم يذكرون ان عمره ثلاثمائة وخمسون عاما ولهم فيه اعتقاد حسن ويأتون لزيارته من البلاد والقرى ويقصده السلاطين والخواتين وأكرمنا وأضافنا ونزلنا على نهر عند زاويته ودخلنا اليه فسلمت عليه وعانقنى وجسمه رطب لم أر ألين منه ويظن رائيه ان عمره خمسون سنة وذكر لى انه فى كل مائة سنة ينبت له الشعر والاسنان وانه رآى أبارهم الذى قبره بملتان من السند وسألته عن رواية حديث فأخبرنى بحكايات وشككت فى حاله والله أعلم بصدقه ثم سافرنا الى پروان (وضبطها بفتح الباء المعقودة وسكون الراء وفتح الواو وآخرها نون) وفيها لقيت الامير برنطيه

(وضبط

(وضبط اسمه بضم الباء وضم الراء وسكون النون وفتح الطاء المهمل و ياء آخر الحروف مسكن وهاء) وأحسن الىّ وأكرمني وكتب الى نوابه بمدينة غزنة فى اكرامى وقد تقدم ذكره وذكر ما أعطى من البسطة فى الجسم وكان عنده جماعة من المشايخ والفقراء أهل الزوايا ثم سافرنا الى قرية الجرخ (وضبط اسمها بفتح الجيم المعقودة واسكان الراء وخاء معجم) وهى كبيرة لها بساتين كثيرة وفواكهها طيبة قدمناها فى أيام الصيف ووجدنا بها جماعة من الفقراء والطلبة وصلينا بها الجمعة وأضافنا أميرها محمد الجرخى ولقيته بعد ذلك بالهند ثم سافرنا الى مدينة غزنة وهى بلد السلطان المجاهد محمود بن سبكتكين الشهير الاسم وكان من كبار السلاطين يلقب بيمين الدولة وكان كثير الغزو الى بلاد الهند وفتح بها المدائن والحصون وقبره بهذه المدينة عليه زاوية وقد خرب معظم هذه البلدة ولم يبق منها الا يسير وكانت كبيرة وهى شديدة البرد والساكنون بها يخرجون عنها أيام البرد الى مدينة القندهار وهى كبيرة مخصبة ولم أدخلها وبينهما مسيرة ثلاث ونزلنا بخارج غزنة فى قرية هنالك على نهر ماء تحت قلعتها وأكرمنا أميرها مرذك أغا ومرذك (بفتح الميم وسكون الراء وفتح الذال المعجم) ومعناه الصغير وأغا (بفتح الهمزة والغين المعجم) ومعناه الكبير الاصل ثم سافرنا الى كابل وكانت فيما سلف مدينة عظيمة وبها الآن قرية يسكنها طائفة من الاعاجم يقال لهم الافغان ولهم جبال وشعاب وشوكة قوية وأكثرهم قطاع الطريق وجبلهم الكبير يسمى كوه سليمان ويذكر ان نبى الله سليمان عليه السلام صعد ذلك الجبل فنظر الى أرض الهند وهى مظلمة فرجع ولم يدخلها فسمى الجبل به وفيه يسكن ملك الافغان وبكابل زاوية الشيخ اسماعيل الافغانى تلميذ الشيخ عباس من كبار الاولياء ومنها رحلنا الى كرماش وهى حصن بين جبلين تقطع به الافغان وكنا حين جوازنا عليه نقاتلهم وهم بسفح الجبل ونرميهم بالنشاب فيفرون وكانت رفقتنا مخفة ومعهم نحو أربعة آلاف فرس وكانت لى جمال انقطعت عن القافلة لاجلها ومعى جماعة بعضهم من الافغان وطرحنا بعض الزاد وتركنا احمال الجمال التى أعيت بالطريق وعادت اليها خيلنا بالغد فاحتملتها ووصلنا الى القافلة بعد العشاء الآخرة فبتنا بمنزل ششنغار وهى آخر العمارة مما يلى بلاد الترك ومن هنالك دخلنا البرية الكبرى وهى مسيرة خمس عشرة لا تدخل الا فى فصل واحد وهو بعد نزول المطر بارض السند والهند وذلك فى أوائل شهر يوليه وتهب فى هذه البرية ريح السموم القاتلة التى تعفن الجسوم حتى ان الرجل اذا مات تتفسخ اعضاؤه وقد ذكرنا ان هذه الريح تهب أيضا فى البرية بين هرمز وشيراز وكانت تقدمت امامنا رفقة كبيرة فيها خداوندزاده قاضى ترمذ فمات لهم جمال وخيل كثيرة ووصلت رفقتنا سالمة بحمد الله تعالى الى بنج آب وهو ماء السند وبنج (بفتح الباء الموحدة وسكون النون والجيم) ومعناه خمسة

وآب (بهمزة مفتوحة ممدودة وباء موحدة) ومعناه الماء فعنى ذلك الاودية الخمسة وهى تصب فى النهر الاعظم وتسقى تلك النواحى وسنذكرها ان شاء الله تعالى وكان وصولنا لهذا النهر سلخ ذى الحجة واستهل علينا تلك الليلة هلال المحرم من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ومن هنالك كتب المخبرون بخبرنا الى أرض الهند وعرفوا ملكها بكيفية أحوالنا وههنا ينتهى بنا الكلام فى هذا السفر والحمد لله رب العالمين

تم

الجزء الاول

من رحلة الشيخ المغربى المشهور بابن بطوطه

بطريقة صحيحة مضبوطه

ويليه ان شاء الله تعالى

الجزء الثانى

بمباشرة مصححها ومحرر طبعها ومنقحها على هذا الوجه الجميل

العبد الضئيل ابى السعود أفندى محرر صحيفة وادى النيل

عامله الله سبحانه وتعالى الذى هو خير عميل بكرمه

الجليل فى آخر رجب الفرد سنة ١٢٨٧

من هجرة سيدنا محمد صلى الله

عليه وسلم وعلى آله

وأصحابه من قبل

ومن بعد

م

(تذييل)

يقول مصححه وحيث انتهينا من رحلة الشيخ المغربي المعروف بابن بطوطة الى هذا الحد وهو اول جلد وقد شرع رحمه الله تعالى فى ذكر ماشاهده من العجائب والغرائب ببلاد الهند وهو ثانى جلد رأينا من المفيد ان نورد هنا عبارة توجد فى مقدمة ابن خلدون رحمه الله تعالى مما يتعلق بهذا القصد تتميما للفائدة وتقييدا للشاردة ونصها بفصها وفصها

ورد على المغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بنى مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة كان قد رحل منذ عشرين سنة قبلها الى المشرق وتقلب فى بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلى حاضرة ملك الهند واتصل بملكها لذلك العهد وهو السلطان محمد شاه وكان له منه مكان واستعمله فى خطة القضاء بمذهب المالكية فى عمله ثم انقلب الى المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان وكان يحدث عن شأن رحلته ومارأى من العجائب بممالك الارض وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ويأتى من أحواله بما يستغرب به السامعون مثل ان ملك الهند اذا خرج للسفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة أشهر يدفع لهم من عطائه وانه عند رجوعه من سفره يدخل فى يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة الى صحراء البلد ويطوفون به وينصب امامه فى ذلك المحفل منجنيقات على الظهر يرمى بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس الى ان يدخل ايوانه وأمثال هذه الحكايات فتناجى الناس فى الدولة بتكذيبه ولقيت انا يومئذ فى بعض الايام وزير السلطان فارس بن وردار البعيد الصيت ففاوضته فى هذا الشأن وأريته انكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض فى الناس من تكذيبه فقال الوزير فارس اياك ان تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما انك لم تره فتكون كابن الوزير الناشئ فى السجن وذلك ان وزيرا اعتقله سلطانه فمكث فى السجن سنين ربى فيها ابنه فى ذلك المحبس فلما أدرك وعقل سأل عن اللحمان التى كان يغتذى بها فاذا قال له أبوه هذا لحم الغنم يقول وما الغنم فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها فيقول يا أبت تراها مثل الفار فينكر عليه ويقول اين الغنم من الفار وكذا فى لحم البقر والابل اذلم يعاين فى محبسه الا الفار فيحسبها كلها أبناء جنس للفار وهذا كثيرا مايعترى الناس فى الاخبار كما يعتريهم الوسواس فى الزيادة عند قصد الاغراب كما قدمناه أول الكتاب فليرجع الانسان الى أصوله وليكن مهيمنا على نفسه ومميزا بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته فما دخل فى نطاق الامكان قبله وماخرج عنه رفضه وليس مرادنا الامكان العقلى المطلق فان نطاقه أوسع شئ فلا يفرض حدا بين الواقعات وانما مرادنا الامكان بحسب المادة التى للشئ فاذا نظرنا أصل الشئ وجنسه وفصله ومقدار عظمه وقوته اجرينا الحكم فى نسبة ذلك على أحواله وحكمنا بالامتناع على ماخرج عن نطاقه وقل ربى زدنى علما (اه بحروفه)

Ibn Batoutah, Reisen

1. Bd. (Kairo 1..

(فهرست الجزء الثانى من كتاب رحلة ابن بطوطه)

كتاب رحلة ابن بطوطه
المسماة
تحفة النظار فى غرائب الامصار
وعجائب الاسفار
٢

(الطبعة الاولى)

بقاعدة حروف مطبعة وادى النيل الجديدة

فى مطبعة وادى النيل بمصر القاهرة بالموسكى

سنة ١٢٨٧

بسم الله الرّحمن الرّحيم

﴿وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم﴾

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطه رحمه الله تعالى

ولما كان بتاريخ الغرة من شهر الله المحرم مفتتح عام أربعة وثلاثين وسبعمائة وصلنا الى وادى السند المعروف ببنج آب ومعنى ذلك المياه الخمسة وهذا الوادى من أعظم اودية الدنيا وهو يفيض فى أوان الحر فيزرع أهل تلك البلاد على فيضه كما يفعل أهل الديار المصرية فى فيض النيل وهذا الوادى هو أول عمالة السلطان المعظم محمد شاه ملك الهند والسند ولما وصلنا الى هذا النهر جاء الينا أصحاب الاخبار الموكلون بذلك وكتبوا بخبرنا الى قطب الملك أمير مدينة ملتان وكان أمير أمراء السند على هذا العهد مملوك للسلطان يسمى سرتيز وهو عرض المماليك وبين يديه تعرض عساكر السلطان ومعنى اسمه الحاد الرأس لأن سر (بفتح السين المهملة وسكون الراء) هو الرأس وتيز (بتاء معلوة و ياء مدو زاى) معناه الحاد وكان فى حين قدومنا بمدينة سيوستان من السند وبينها وبين ملتان مسيرة عشرة ايام وبين بلاد السند وحضرة السلطان مدينة دهلى مسيرة خمسين يوما واذا كتب المخبرون الى السلطان من بلاد السند يصل الكتاب اليه فى خمسة أيام بسبب البريد

(ذكر البريد)

والبريد ببلاد الهند صنفان فاما بريد الخيل فيسمونه الولاق (اولاق) (بضم الواو وآخره قاف) وهو خيل تكون للسلطان فى كل مسافة اربعة أميال وأما بريد الرجالة فيكون فى مسافة الميل الواحد منه ثلاث رتب ويسمونها الداوة (بالدال المهمل والواو) والداوة هى ثلث ميل والميل عندهم يسمى الكروة (بضم الكاف والراء) وترتيب ذلك ان يكون فى كل ثلث ميل قرية معمورة ويكون بخارجها ثلاث قباب يقعد فيها الرجال مستعدين للحركة قد شدوا أوساطهم وعند كل واحد منهم مقرعة مقدار ذراعين باعلاها جلاجل نحاس فاذا خرج البريد من المدينة

أخذ

آخذ الكتاب باعلى يده والمقرعة ذات الجلاجل باليد الاخرى و خرج يشتد بمنتهى جهده فاذا سمع الرجال الذين بالقباب صوت الجلاجل تأهبوا له فاذا وصلهم أخذ احدهم الكتاب من يده ومر بأقصى جهده وهو يحرك المقرعة حتى يصل الى الداوة الاخرى ولا يزالون كذلك حتى يصل الكتاب الى حيث يراد منه وهذا البريد أسرع من بريد الخيل وربما حملوا على هذا البريد الفواكه المستطرفة بالهند من فواكه خراسان يجعلونها فى الاطباق ويشتدون بها حتى تصل الى السلطان وكذلك يحملون أيضا الكبار من ذوى الجنايات يجعلون الرجل منهم على سرير ويرفعونه فوق رؤسهم ويسيرون به شدا وكذلك يحملون الماء لشرب السلطان اذا كان بدولة اباد يحملونه من نهر الكنك الذى تحج الهنود اليه وهو على مسيرة اربعين يوما منها واذا كتب المخبرون الى السلطان بخبر من يصل الى بلاده استوعبوا الكتاب وأمعنوا فى ذلك وعرفوه انه ورد رجل صورته كذا ولباسه كذا وكتبوا اعدد أصحابه وغلمانه وخدامه ودوابه وترتيب حاله فى حركته وسكونه وجميع تصرفاته لا يغادرون من ذلك كله شيأ فاذا وصل الوارد الى مدينة ملتان وهى قاعدة بلاد السند أقام بها حتى ينفذ أمر السلطان بقدومه وما يجرى له من الضيافة وانما يكرم الانسان هنالك بقدر ما يظهر من افعاله وتصرفاته وهمته اذ لا يعرف هنالك ما حسبه ولا آباؤه ومن عادة ملك الهند السلطان أبى المجاهد محمد شاه اكرام الغرباء ومحبتهم وتخصيصهم بالولايات والمراتب الرفيعة ومعظم خواصه وحجابه ووزرائه وقضاته وأصهاره غرباء ونفذ أمره بأن يسمى الغرباء فى بلاده بالاعزة فصار لهم ذلك اسما علما ولا بد لكل قادم على هذا الملك من هدية يهديها اليه ويقدمها وسيلة بين يديه فيكافيه السلطان عليها بأضعاف مضاعفة وسيمر من ذكر هدايا الغرباء اليه كثير ولما تعوّد الناس ذلك منه صار التجار الذين ببلاد السند والهند يعطون لكل قادم على السلطان الآلاف من الدنانير دينا ويجهزونه بما يريد أن يهديه اليه أو يتصرف فيه لنفسه من الدواب للركوب والجمال والامتعة ويخدمونه بأموالهم وأنفسهم ويقفون بين يديه كالحشم فاذا وصل الى السلطان أعطاه العطاء الجزيل فقضى ديونهم ووفاهم حقوقهم فنفقت تجارتهم وكثرت أرباحهم وصار لهم ذلك عادة مستمرة ولما وصلت الى بلاد السند سلكت ذلك المنهج واشتريت من التجار الخيل والجمال والمماليك وغير ذلك ولقد اشتريت من تاجر عراقى من أهل تكريت يعرف بمحمد الدورى بمدينة غزنة نحو ثلاثين فرسا وجملا عليه حمل من النشاب فانه مما يهدى الى السلطان وذهب التاجر المذكور الى خراسان ثم عاد الى الهند وهنالك تقاضى منى ماله واستفاد بسببى فائدة عظيمة وعاد من كبار التجار ولقيته بمدينة حلب بعد سنين كثيرة وقد سلبنى الكفار مما كان بيدى فلم ألق منه خيرا

(ذكر الكركدن)

ولما أجزنا نهر السند المعروف ببنج آب دخلنا غيضة قصب لسلوك الطريق لانه في وسطها فخرج علينا الكركدن وصورته انه حيوان أسود اللون عظيم الجرم رأسه كبير متفاوت الضخامة ولذلك يضرب به المثل فيقال الكركدن رأس بلا بدن وهو دون الفيل ورأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف وله قرن واحد بين عينيه طوله نحو ثلاثة أذرع وعرضه نحو شبر ولما خرج علينا عارضه بعض الفرسان في طريقه فضرب الفرس الذي كان تحته بقرنه فانفذ فخذه وصرعه وعاد الى الغيضة فلم نقدر عليه وقد رأيت الكركدن مرة ثانية في هذا الطريق بعد صلاة العصر وهو يرعى نبات الارض فلما قصدناه هرب منا ورأيته مرة أخرى ونحن مع ملك الهند دخلنا غيضة قصب وركب السلطان على الفيل وركبنا معه الفيلة ودخلت الرجالة والفرسان فأثاروه وقتلوه واستاقوا رأسه الى المحلة وسرنا من نهر السند يومين ووصلنا الى مدينة جناني (وضبط اسمها بفتح الجيم والنون الاولى وكسر الثانية) مدينة كبيرة حسنة على ساحل نهر السند لها أسواق مليحة وسكانها طائفة يقال لهم السامرة استوطنوها قديما واستقر بها اسلافهم حين فتحها على أيام الحجاج بن يوسف حسبما أثبت المؤرخون في فتح السند وأخبرني الشيخ الامام العالم العامل الزاهد العابد ركن الدين ابن الشيخ الفقيه الصالح شمس الدين بن الشيخ الامام العابد الزاهد بهاء الدين زكرياء القرشي وهو أحد الثلاثة الذين أخبرني الشيخ الولي الصالح برهان الدين الاعرج بمدينة الاسكندرية اني سألقاهم في رحلتي فلقيتهم والحمد لله ان جده الاعلى كان يسمى بمحمد بن قاسم القرشي وشهد فتح السند في العسكر الذي بعثه لذلك الحجاج بن يوسف أيام امارته على العراق وأقام بها وتكاثرت ذريته وهؤلاء الطائفة المعروفون بالسامرة لا يأكلون مع أحد ولا ينظر اليهم أحد حين يأكلون ولا يصاهرون أحدا من غيرهم ولا يصاهر اليهم أحد وكان لهم في هذا العهد أمير يسمى ونار (بضم الواو وفتح النون) وسنذكر خبره ثم سافرنا من مدينة جناني الى أن وصلنا الى مدينة سيوستان (وضبط اسمها بكسر السين الاول المهمل وياء مدّ وواو مفتوح وسين مكسور وتاء معلوة وآخره نون) وهي مدينة كبيرة وخارجها صحراء ورمال لا شجر بها الا شجر أم غيلان ولا يزدرع على نهرها شئ ما عدا البطيخ وطعامهم الذرة والجلبان ويسمونه المشنك (بميم وشين معجم مضمومين ونون مسكن) ومنه يصنعون الخبز وهي كثيرة السمك والالبان الجاموسية وأهلها يأكلون السقنقور وهي دويبة شبيهة بأم جبين التي يسميها المغاربة حنيشة الجنة الا أنها لا ذنب لها ورأيتهم يحفرون الرمل ويستخرجونها منه ويشقون بطنها ويرمون بما فيه ويحشونه بالكركم وهم يسمونه زردشوبه ومعناه العود الاصفر وهو عندهم عوض الزعفران ولما رأيت تلك

الدويبة

الدويبة وهم يأكلونها استقذرتها فلم آكلها ودخلنا هذه المدينة في احتدام القيظ وحرها شديد فكان أصحابي يقعدون عريانين يجعل احدهم فوطة على وسطه وفوطة على كتفيه مبلولة بالماء فما يمضي اليسير من الزمان حتى تيبس تلك الفوطة فيبلها مرة أخرى هكذا ابدا ولقيت بهذه المدينة خطيبها المعروف بالشيباني واراني كتاب أمير المؤمنين الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لجده الاعلى بخطابة هذه المدينة وهم يتوارثونها من ذلك العهد الى الآن

(ونص الكتاب) هذا ما أمر به عبد الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لفلان وتاريخه سنة تسع وتسعين وعليه مكتوب بخط امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الحمد لله وحده على ما اخبرني الخطيب المذكور ولقيت بها أيضا الشيخ المعمر محمد البغدادي وهو بالزاوية التي على قبر الشيخ الصالح عثمان المرندي وذكر ان عمره يزيد على مائة وأربعين سنة وانه حضر لقتل المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس رضي الله عنهم لما قتله الكافر هلاون بن تنكيز التتري وهذا الشيخ على كبر سنه قوي الجثة يتصرف على قدميه

(حكاية)

كان يسكن بهذه المدينة الامير ونار السامري الذي تقدم ذكره والامير قيصر الرومي وهما في خدمة السلطان ومعهما نحو ألف وثمانمائة فارس وكان يسكن بها كافر من الهنود اسمه رتن (بفتح الراء وبفتح التاء المعلوة والنون) وهو من الحذاق بالحساب والكتابة فوفد على ملك الهند مع بعض الامراء فاستحسنه السلطان وسماه عظيم السند وولاه بتلك البلاد وأقطعه سيوستان وأعمالها وأعطاه المراتب وهي الاطبال والعلامات كما يعطى كبار الامراء فلما وصل الى تلك البلاد عظم على ونار وقيصر وغيرهم تقديم الكافر عليهم فاجمعوا على قتله فلما كان بعد أيام من قدومه أشاروا عليه بالخروج الى احواز المدينة ليتطلع على أمورها فخرج معهم فلما جن الليل أقاموا ضجة بالمحلة وزعموا ان السبع ضرب عليها وقصدوا مضرب الكافر فقتلوه وعادوا الى المدينة فأخذوا ما كان بها من مال السلطان وذلك اثنى عشر لكا واللك مائة ألف دينار وصرف اللك عشرة آلاف دينار من ذهب الهند وصرف الدينار الهندي ديناران ونصف دينار من ذهب المغرب وقدموا على أنفسهم ونار المذكور وسموه ملك فيروز وقسم الاموال على العسكر ثم خاف على نفسه لبعده عن قبيلته فخرج فيمن معه من أقاربه وقصد قبيلته وقدم الباقون من العسكر على أنفسهم قيصر الرومي واتصل خبرهم بعماد الملك سرتيز مملوك السلطان وهو يومئذ أمير أمراء السند وسكناه بملتان فجمع العساكر وتجهز في البر وفي نهر السند وبين ملتان وسيوستان عشرة أيام وخرج اليه قيصر فوقع اللقاء وانهزم

قيصر ومن معه اشنع هزيمة وتحصنوا بالمدينة فحصرهم ونصب المجانيق عليهم واشتد عليهم الحصار فطلبوا الامان بعد اربعين يوما من نزوله عليهم فاعطاهم الامان فلما نزلوا اليه غدرهم وأخذ أموالهم وأمر بقتلهم فكان كل يوم يضرب أعناق بعضهم ويوسط بعضهم ويسلخ آخرين منهم ويملأ جلودهم تبنا ويعلقها على السور فكان معظمه عليه تلك الجلود مصلوبة ترعب من ينظر اليها وجمع رؤسهم فى وسط المدينة فكانت مثل التل هنالك ونزلت بتلك المدينة اثر هذه الوقيعة بمدرسة فيها كبيرة وكنت أنام على سطحها فاذا استيقظت من الليل ارى تلك الجلود المصلوبة فتشمئز النفس منها ولم تطب نفسى بالسكنى بالمدرسة فانتقلت عنها وكان الفقيه الفاضل العادل علاء الملك الخراسانى المعروف بفصيح الدين قاضى هرات فى متقدم التاريخ قد وفد على ملك الهند فولاه مدينة لاهرى واعمالها من بلاد السند وحضر هذه الحركة مع عماد الملك سرتيز بمن معه من العساكر فعزمت على السفر معه الى مدينة لاهرى وكان له خمسة عشر مركبا قدم بها فى نهر السند تحمل اثقاله فسافرت معه

(ذكر السفر فى نهر السند وترتيب ذلك)

وكان للفقيه علاء الملك فى جملة مراكبه مركب يعرف بالاهورة (بفتح الهمزة والهاء وسكون الواو وفتح الراء) وهى نوع من الطريدة عندنا الا انها اوسع منها وأقصر وعلى نصفها معرش من خشب يصعد له على درج وفوقه مجلس مهيأ لجلوس الامير ويجلس أصحابه بين يديه ويقف المماليك يمنة ويسرة والرجال يقذفون وهم نحو أربعين ويكون مع هذه الاهورة اربعة من المراكب عن يمينها ويسارها اثنان منها فيهما مراتب الامير وهى العلامات والطبول والابواق والانفار والصرنايات وهى الغيطات والاخران فيهما أهل الطرب فتضرب الطبول والابواق نوبة ويغنى المغنون نوبة ولا يزالون كذلك من أول النهار الى وقت الغداء فاذا كان وقت الغداء انضمت المراكب ووصل بعضها ببعض ووضعت بينها الاصقالات وأتى أهل الطرب الى أهورة الامير فيغنون الى أن يفرغ من أكله ثم يأكلون واذا انقضى الاكل عادوا الى مراكبهم وشرعوا أيضا فى المسير على ترتيبهم الى الليل فاذا كان الليل ضربت المحلة على شاطئ النهر ونزل الامير الى مضاربه ومد السماط وحضر الطعام معظم العسكر فاذا صلوا العشاء الاخيرة سمر السمار بالليل نوبا فاذا أتم اهل النوبة منهم نوبتهم نادى مناد منهم بصوت عال ياخوند ملك قد مضى من الليل كذا من الساعات ثم يسمر أهل النوبة الاخرى فاذا أتموها نادى مناديهم ايضا معلما بما مر من الساعات فاذا كان الصبح ضربت الابواق والطبول وصليت صلاة الصبح وأتى بالطعام فاذا فرغ الاكل اخذوا فى المسير فان أراد الامير ركوب النهر ركب على ما ذكرناه من الترتيب وان أراد المسير فى البر ضربت الاطبال

والابواق

والابواق وتقدم حجابه ثم تلاهم المشاؤون بين يديه ويكون بين أيدى الحجاب ستة من الفرسان عند ثلاثة منهم اطبال قد تقلدوها وعند ثلاثة صرنايات فاذا أقبلوا على قرية أوما هو من الارض مرتفع ضربوا تلك الاطبال والصرنايات ثم تضرب أطبال العسكر وأبواقه ويكون عن يمين الحجاب ويسارهم المغنون يغنون نوبا فاذا كان وقت الغداء نزلوا وسافرت مع علاء الملك خمسة أيام ووصلنا الى موضع ولايته وهو مدينة لاهرى (وضبط اسمها بفتح الهاء وكسر الراء) مدينة حسنة على ساحل البحر الكبير وبها يصب نهر السند فى البحر فيلتقى بها بحران ولها مرسى عظيم يأتى اليه اهل اليمن وأهل فارس وغيرهم وبذلك عظمت جباياتها وكثرت أموالها أخبرنى الامير علاء الملك المذكور ان مجبى هذه المدينة ستون لكا فى السنة وقد ذكرنا مقدار اللك وللامير من ذلك نم (نيم) ده يك ومعناه نصف العشر وعلى ذلك يعطى السلطان البلاد لعماله يأخذون منها لانفسهم نصف العشر

(ذكر غريبة رأيتها بخارج هذه المدينة)

وركبت يوما مع علاء الملك فانتهينا الى بسيط من الارض على مسافة سبعة أميال منها يعرف بتارنا فرأيت هنالك مالا يحصره العد من الحجارة على مثل صور الادميين والبهائم وقد تغير كثير منها ودثرت أشكاله فيبقى منه صورة رأس اورجل أوسواهما ومن الحجارة أيضا على صور الحبوب من البر والحمص والفول والعدس وهنالك آثار سور وجدرات دور ثم رأينا رسم دار فيها بيت من حجارة منحوتة وفى وسطه دكانة حجارة منحوتة كأنها حجر واحد عليها صورة آدمى الا ان رأسه طويل وفمه فى جانب من وجهه ويداه خلف ظهره كالمكتوف وهنالك مياه شديدة النتن وكتابة على بعض الجدرات بالهندى وأخبرنى علاء الملك ان أهل التاريخ يزعمون ان هذا الموضع كانت فيه مدينة عظيمة أكثر أهلها الفساد فمسخوا حجارة وان ملكهم هو الذى على الدكانة فى الدار التى ذكرناها وهى الى الآن تسمى دار الملك وان الكتابة التى فى بعض الحيطان هنالك بالهندى هى تاريخ هلاك أهل تلك المدينة وكان ذلك منذ ألف سنة اونحوها وأقمت بهذه المدينة مع علاء الملك خمسة ايام ثم احسن فى الزاد وانصرفت عنه الى مدينة بكار (بفتح الباء الموحدة) وهى مدينة حسنة يشقها خليج من نهر السند وفى وسط ذلك الخليج زاوية حسنة فيها الطعام للوارد والصادر عمرها كشلوخان ايام ولايته على بلاد السند وسيقع ذكره ولقيت بهذه المدينة الفقيه الامام صدر الدين الحنفى ولقيت بها قاضيها المسمى بابى حنيفة ولقيت بها الشيخ العابد الزاهد شمس الدين محمد الشيرازى وهو من المعمرين ذكر لى ان سنه يزيد على مائة وعشرين عاما ثم سافرت من مدينة بكار فوصلت الى مدينة اوجه (وضبط اسمها بضم الهمزة وفتح الجيم) وهى مدينة كبيرة على نهر السند لها أسواق حسنة وعمارة

جيدة وكان الامير بها اذذاك الملك الفاضل الشريف جلال الدين الكيجي احد الشجعان الكرماء وبهذه المدينة توفي بعد سقطة سقطها عن فرسه

(مكرمة لهذا الملك)

ونشأ بيني وبين هذا الملك الشريف جلال الدين مودة وتأكدت بيننا الصحبة والمحبة واجتمعنا بحضرة دهلي فلما سافر السلطان الى دولة أباد كما سنذكره وأمرني بالاقامة بالحضرة قال لي جلال الدين انك تحتاج الى نفقة كبيرة والسلطان تطول غيبته فخذ قريتي واستغلها حتى أعود ففعلت ذلك واستغللت منها نحو خمسة آلاف دينار جزاه الله أحسن جزائه ولقيت بمدينة اوجه الشيخ العابد الزاهد الشريف قطب الدين حيدر العلوي والبسني الخرقة وهو من كبار الصالحين ولم يزل الثوب الذي ألبسنيه معي الى أن سلبني كفار الهنود في البحر ثم سافرت من أوجه الى مدينة ملتان (وضبط اسمها بضم الميم وتاء معلوة) وهي قاعدة بلاد السند ومسكن امير أمرائه وفي الطريق اليها على مسافة عشرة أميال منها الوادي المعروف بخسرو آباد وهو من الاودية الكبار لا يجاز الا في المركب وبه يبحث عن أمتعة المجتازين أشد البحث وتفتش رحالهم وكانت عادتهم في حين وصولنا اليها أن يأخذوا الربع من كل ما يجلبه التجار ويأخذوا على كل فرس سبعة دنانير مغرما ثم بعد وصولنا للهند بسنتين رفع السلطان تلك المغارم وأمر أن لا يؤخذ من الناس الا الزكاة والعشر لما بايع للخليفة أبي العباس العباسي ولما أخذنا في اجازة هذا الوادي وفتشت الرحال عظم علي تفتيش رحلي لانه لم يكن فيه طائل وكان يظهر في أعين الناس كبيرا فكنت أكره أن يطلع عليه ومن لطف الله تعالى ان وصل أحد كبار الاجناد من جهة قطب الملك صاحب ملتان فأمر أن لا يعرض لي ببحث ولا تفتيش فكان كذلك فحمدت الله على ما هيأه لي من لطائفه وبتنا تلك الليلة على شاطئ الوادي وقدم علينا في صبيحتها ملك البريد واسمه دهقان وهو سمرقندي الاصل وهو الذي يكتب للسلطان بأخبار تلك المدينة وعمالتها وما يحدث بها ومن يصل اليها فتعرفت به ودخلت في صحبته الى أمير ملتان

(ذكر أمير ملتان وترتيب حاله)

وأمير ملتان هو قطب الملك من كبار الامراء وفضلائهم لما دخلت عليه قام الي وصافحني وأجلسني الى جانبه وأهديت له مملوكا وفرسا وشيأ من الزبيب واللوز وهو من أعظم ما يهدى اليهم لانه ليس ببلادهم وانما يجلب من خراسان وكان جلوس هذا الامير على دكانة كبيرة عليها البسط وعلى مقربة منه القاضي ويسمى سالار والخطيب ولا أذكر اسمه وعن يمينه ويساره أمراء الاجناد وأهل السلاح وقوف على رأسه والعساكر تعرض بين يديه وهنالك

قسى كثيرة فاذا أتى من يريد أن يثبت فى العسكر راميا أعطى قوسا من تلك القسى ينزع فيها وهى متفاوتة فى الشدة فعلى قدر نزعه يكون مرتبه ومن أراد أن يثبت فارسا فهنالك طبلة منصوبة فيجرى فرسه ويرميها برمحه وهنالك أيضا خاتم معلق من حائط صغير فيجرى فرسه حتى يحاذيه فان رفعه برمحه فهو الجيد عندهم ومن أراد أن يثبت راميا فارسا فهنالك كرة موضوعة فى الارض فيجرى فرسه ويرميها وعلى قدر ما يظهر من الانسان فى ذلك من الاصابة يكون مرتبه ولما دخلنا على هذا الامير وسلمنا عليه كما ذكرناه أمر بانزالنا فى دار خارج المدينة هى لاصحاب الشيخ العابد ركن الدين الذى تقدم ذكره وعادتهم أن لا يضيفوا أحدا حتى يأتى أمر السلطان بتضييفه

(ذكر من اجتمعت به فى هذه المدينة من الغرباء الوافدين على حضرة ملك الهند)

فنهم خداوندزاده قوام الدين قاضى ترمذ قدم بأهله وولده ثم وردعليه بها اخوته عماد الدين وضياء الدين وبرهان الدين ومنهم مبارك شاه أحد كبار سمرقند ومنهم أرن بغا احد كبار بخارى ومنهم ملك زاده ابن أخت خداوندزاده ومنهم بدر الدين الفصال وكل واحد من هؤلاء معه أصحابه وخدامه واتباعه ولما مضى الى وصولنا الى ملتان شهران وصل أحد حجاب السلطان وهو شمس الدين البوشنجى والملك محمد الهروى الكتوال بعثهما السلطان لاستقبال خداوندزاده وقدم معهم ثلاثة من الفتيان بعثتهم المخدومة جهان وهى أم السلطان لاستقبال زوجة خداوندزاده المذكور وأتوا بالخلع لهما ولاولادهما ولتجهيز من قدم من الوفود وأتوا جميعا الى وسألونى لماذا قدمت فأخبرتهم انى قدمت للاقامة فى خدمة خوند عالم وهو السلطان وبهذا يدعى فى بلاده وكان أمر أن لا يترك أحد ممن يأتى من خراسان يدخل بلاد الهند الا ان كان برسم الاقامة فلما أعلمتهم انى قدمت للاقامة استدعوا القاضى والعدول وكتبوا عقدا على وعلى من أراد الاقامة من أصحابى وأبى بعضهم من ذلك وتجهزنا للسفر الى الحضرة وبين ملتان وبينها مسيرة أربعين يوما فى عمارة متصلة وأخرج الحاجب وصاحبه الذى بعث معه ما يحتاج اليه فى ضيافة قوام الدين واستصحبوا من ملتان نحو عشرين طباخا وكان الحاجب يتقدم ليلا الى كل منزل فيجهز الطعام وسواه فما يصل خداوندزاده حتى يكون الطعام متيسرا وينزل كل واحد ممن ذكرناهم من الوفود على حدة بمضاربه وأصحابه وربما حضروا الطعام الذى يصنع لخداوندزاده ولم أحضره أنا الا مرة واحدة وترتيب ذلك الطعام انهم يجعلون الخبز وخبزهم الرقاق وهو شبه الجرادق ويقطعون اللحم المشوى قطعا كبارا بحيث تكون الشاة أربع قطع أو ستا ويجعلون امام كل رجل قطعة ويجعلون اقراصا مصنوعة بالسمن تشبه الخبز المشرك ببلادنا ويجعلون فى وسطها الحلواء الصابونية ويغطون

كل قرص منها برغيف حلواء يسمونه الخشتى ومعناه الاجرى مصنوع من الدقيق والسكر والسمن ثم يجعلون اللحم المطبوخ بالسمن والبصل والزنجبيل الاخضر فى صحاف صينية ثم يجعلون شيأ يسمونه سموسك وهو لحم مهروس مطبوخ باللوز والجوز والفستق والبصل والابازير موضوع فى جوف رقاقة مقلوة بالسمن يضعون امام كل انسان خمس قطع من ذلك أو اربعا ثم يجعلون الارز المطبوخ بالسمن وعليه الدجاج ثم يجعلون لقيمات القاضى ويسمونها الهاشمى ثم يجعلون القاهرية ويقف الحاجب على السماط قبل الاكل ويخدم الى الجهة التى فيها السلطان ويخدم جميع من حضر لخدمته والخدمة عندهم حط الرأس نحو الركوع فاذا فعلوا ذلك جلسوا للأكل ويؤتى باقداح الذهب والفضة والزجاج مملوءة بماء النبات وهو الجلاب محلولا فى الماء ويسمون ذلك الشربة ويشربونه قبل الطعام ثم يقول الحاجب بسم الله فعند ذلك يشرعون فى الأكل فاذا أكلوا أتوا بأكواز الفقاع فاذا شربوه أتوا بالتنبول والفوفل وقد تقدم ذكرهما فاذا أخذوا التنبول والفوفل قال الحاجب بسم الله فيقومون ويخدمون مثل خدمتهم أولا وينصرفون وسافرنا من مدينة ملتان وهم يجرون هذا الترتيب على حسب ما سطرناه الى أن وصلنا الى بلاد الهند وكان أول بلد دخلناه مدينة أبوهر (بفتح الهاء) وهى أول تلك البلاد الهندية صغيرة حسنة كثيرة العمارة ذات أنهار وأشجار وليس هنالك من أشجار بلادنا شئ ما عدا النبق لكنه عندهم عظيم الجرم تكون الحبة منه بمقدار حبة العفص شديد الحلاوة ولهم أشجار كثيرة ليس يوجد منها شئ ببلادنا ولا بسواها

(ذكر أشجار بلاد الهند وفواكهها)

فمنها العنبة (بفتح العين وسكون النون وفتح الباء الموحدة) وهى شجرة تشبه أشجار النارنج الا أنها أعظم اجراما وأكثر أوراقا وظلها أكثر الظلال غير انه ثقيل فمن نام تحته وعك وثمرها على قدر الاجاص الكبير فاذا كان أخضر قبل تمام نضجه أخذوا ما سقط منه وجعلوا عليه الملح وصيروه كما يصير الليم والليمون ببلادنا وكذلك يصيرون أيضا الزنجبيل الاخضر وعناقيد الفلفل ويأكلون ذلك مع الطعام يأخذون بأثر كل لقمة يسيرا من هذه المملوحات فاذا نضجت العنبة فى أوان الخريف اصفرت حباتها فأكلوها كالتفاح فبعضهم يقطعها بالسكين وبعضهم يمصها مصا وهى حلوة يمازج حلاوتها يسير حموضة ولها نواة كبيرة يزرعونها فتنبت منها الاشجار كما تزرع نوى النارنج وغيرها ومنها الشكى والبركى (بفتح الشين المعجم وكسر الكاف وفتح الباء الموحدة وكسر الكاف أيضا) وهى أشجار عادية أوراقها كأوراق الجوز وثمرها يخرج من أصل الشجرة فما اتصل منه بالارض فهو البركى وحلاوته أشد ومطعمه أطيب وما كان فوق ذلك فهو الشكى وثمره يشبه القرع الكبار وجلوده تشبه جلود البقر فاذا اصفر

فى أوان الخريف قطعوه وشقوه فيكون فى داخل كل حبة المائة والمائتان فما بين ذلك من حبات تشبه الخيار بين كل حبة وحبة صفاق اصفر اللون ولكل حبة نواة تشبه الفول الكبير واذا شويت تلك النواة أو طبخت يكون طعمها كطعم الفول اذ ليس يوجد هنالك ويدخرون هذه النوى فى التراب الاحمر فتبقى الى سنة اخرى وهذا الشكى والبركى هو خير فاكهة ببلاد الهند ومنها التندو (بفتح التاء المثناة وسكون النون وضم الدال) وهو ثمر شجر الابنوس وحباته فى قدر حبات المشمش ولونها شديد الحلاوة ومنها الجون (بضم الجيم المعقودة) وأشجاره عادية ويشبه ثمرة الزيتون وهو أسود اللون ونواه واحدة كالزيتون ومنها النارنج الحلو وهو عندهم كثير وأما النارنج الحامض فعزيز الوجود ومنه صنف ثالث يكون بين الحلو والحامض وثمره على قدر الليم وهو طيب جدا وكنت يعجبنى اكله ومنها المهوا (بفتح الميم والواو) وأشجاره عادية وأوراقه كأوراق الجوز الا ان فيها حمرة وصفرة وثمره مثل الاجاص الصغير شديد الحلاوة وفى أعلى كل حبة منه حبة صغيرة بمقدار حبة العنب مجوفة وطعمها كطعم العنب الا ان الاكثار من أكلها يحدث فى الراس صداعا ومن العجب ان هذه الحبوب اذا يبست فى الشمس كان مطعمها كطعم التين وكنت آكلها عوضا من التين اذ لا يوجد ببلاد الهند وهم يسمون هذه الحبة الانكور (بفتح الهمزة وسكون النون وضم الكاف المعقودة والواو والراء) وتفسيره بلسانهم العنب والعنب بارض الهند عزيز جدا ولا يكون بها الا فى مواضع بحضرة دهلى وببلاد أخر ويثمر مرتين فى السنة ونوى هذا الثمر يصنعون منه الزيت ويستصبحون به ومن فواكههم فاكهة يسمونها كسيرا (بفتح الكاف وكسر السين المهمل وياء مدّ وراء) يحفرون عليها الارض وهى شديدة الحلاوة تشبه القسطل وببلاد الهند من فواكه بلادنا الرمان ويثمر مرتين فى السنة ورأيته ببلاد جزائر ذيبة المهل لا ينقطع له ثمر وهم يسمون انار (بفتح الهمزة والنون) وأظن ذلك هو الاصل فى تسمية الجلنار فان جل بالفارسية الزهر وأنار الرمان

(ذكر الحبوب التى يزرعها أهل الهند ويقتاتون بها)

وأهل الهند يزدرعون مرتين فى السنة فاذا نزل المطر عندهم فى أوان القيظ زرعوا الزرع الخريفى وحصدوه بعد ستين يوما من زراعته ومن هذه الحبوب الخريفية عندهم الكذرو (بضم الكاف وسكون الذال المعجم وضم الراء وبعدها واو) وهو نوع من الدخن وهذا الكذرو هو اكثر الحبوب عندهم ومنها القال (بالقاف) وهو شبه انلى ومنها الشاماخ (بالشين والخاء المعجمين) وهو أصغر حبا من القال وربما نبت هذا الشاماخ من غير زراعة وهو طعام الصالحين وأهل الورع والفقراء والمساكين يخرجون لجمع ما نبت منه من غير زراعة فيمسك احدهم قفة كبيرة بيساره وتكون بيمناه مقرعة يضرب بها الزرع فيسقط فى القفة فيجمعون منه

مايقتاتون به جميع السنة وحب هذا الشاماخ صغير جدا واذا جمع جعل فى الشمس ثم يدق فى مهاريس الخشب فيطير قشره ويبقى لبه ابيض ويصنعون منه عصيدة يطبخونها بحليب الجواميس وهى أطيب من خبزه وكنت آكلها كثيرا ببلاد الهند وتعجبنى ومنها الماش وهو نوع من الجلبان ومنها المنج (بميم مضموم ونون وجيم) وهو نوع من الماش الا ان حبوبه مستطيلة ولونه صافى الخضرة ويطبخون المنج مع الارز ويأكلونه بالسمن ويسمونه كشرى (بالكاف والشين المعجم والراء) وعليه يفطرون فى كل يوم وهو عندهم كالحريرة ببلاد المغرب ومنها اللوبيا وهى نوع من الفول ومنها الموت (بضم الميم) وهو مثل الكذرو الا ان حبوبه أصغر وهو من علف الدواب عندهم وتسمن الدواب بأكله والشعير عندهم لا قوة له وانما علف الدواب من هذا الموت أو الحمص يجرشونه ويبلونه بالماء ويطعمونه الدواب ويطعمونها عوضا من القصيل أوراق الماش بعد ان تسقى الدابة السمن عشرة أيام فى كل يوم مقدار ثلاثة أرطال أو أربعة ولا تركب فى تلك الايام وبعد ذلك يطعمونها أوراق الماش كما ذكرنا شهرا أو نحوه وهذه الحبوب التى ذكرناها هى الخريفية واذا حصدوها بعد ستين يوما من زراعتها ازدرعوا الحبوب الربيعية وهى القمح والشعير والحمص والعدس وتكون زراعتها فى الارض التى كانت الحبوب الخريفية مزدرعة فيها وبلادهم كريمة طيبة التربة وأما الارز فانهم يزدرعونه ثلاث مرات فى السنة وهو من أكبر الحبوب عندهم ويزدرعون السمسم وقصب السكر مع الحبوب الخريفية التى تقدم ذكرها ولنعد الى ما كنا بسبيله فاقول سافرنا من مدينة ابوهر فى صحراء مسيرة يوم فى اطرافها جبال منيعة يسكنها كفار الهنود وربما قطعوا الطريق وأهل بلاد الهند أكثرهم كفار فمنهم رعية تحت ذمة المسلمين يسكنون القرى ويكون عليهم حاكم من المسلمين يقدمه العامل او الخديم الذى تكون القرية فى اقطاعه ومنهم عصاة محاربون يمتنعون بالجبال ويقطعون الطريق

(ذكر غزوة لنا بهذا الطريق وهى أول غزوة شهدتها ببلاد الهند)

ولما أردنا السفر من مدينة أبوهر خرج الناس منها اول النهار وأقمت بها الى نصف النهار فى لمة من أصحابى ثم خرجنا ونحن اثنان وعشرون فارسا منهم عرب ومنهم أعاجم فخرج علينا فى تلك الصحراء ثمانون رجلا من الكفار وفارسان وكان أصحابى ذوى نجدة وعناء فقاتلناهم أشد القتال فقتلنا أحد الفارسين منهم وغنمنا فرسه وقتلنا من رجالهم نحو اثنى عشر رجلا وأصابتنى نشابة وأصابت فرسى نشابة ثانية ومنّ الله بالسلامة منها لان نشابهم لا قوة لها وجرح لاحد أصحابنا فرس عوضناه له بفرس الكافر وذبحنا فرسه المجروح فأكله الترك من أصحابنا وأوصلنا تلك الرؤس الى حصن أبى بكهر فعلقناها على سوره وكان وصولنا

فى نصف الليل الى حصن أبى بكهر المذكور (وضبط اسمه بفتح الباء الموحدة وسكون الكاف وفتح الهاء وآخره راء) وسافرنا منه فوصلنا بعد يومين الى مدينة اجودهن (وضبط اسمها بفتح الهمزة وضم الجيم وفتح الدال المهمل والهاء وآخره نون) مدينة صغيرة هى للشيخ الصالح فريد الدين البذاونى الذى أخبرنى الشيخ الصالح الولى برهان الدين الاعرج بالاسكندرية انى سألقاه فلقيته والحمد لله وهو شيخ ملك الهند وأنعم عليه بهذه المدينة وهذا الشيخ مبتلى بالوسواس والعياذ بالله فلا يصافح احدا ولا يدنو منه واذا ألصق ثوبه بثوب أحد غسل ثوبه دخلت زاويته ولقيته وأبلغته سلام الشيخ برهان الدين فعجب وقال أنا دون ذلك ولقيت ولديه الفاضلين معز الدين وهو أكبرهما ولما مات ابوه تولى الشياخة بعده وعلم الدين وزرت قبر جده القطب الصالح فريد الدين البذاونى منسوبا الى مدينة بذاون بلد السنبل (وهى بفتح الباء الموحدة والذال المعجم وضم الواو وآخرها نون) ولما أردت الانصراف عن هذه المدينة قال لى علم الدين لا بد لك من رؤية والدى فرأيته وهو فى أعلى سطح له وعليه ثياب بيض وعمامة كبيرة لها ذوابة وهى مائلة الى جانب ودعا لى وبعث الى بسكر ونبات

(ذكر أهل الهند الذين يحرقون أنفسهم بالنار)

ولما انصرفت عن هذا الشيخ رأيت الناس يهرعون من عسكرنا ومعهم بعض أصحابنا فسألتهم ما الخبر فأخبرونى ان كافرا من الهنود مات وأججت النار لحرقه وامرأته تحرق نفسها معه ولما احترقا جاء أصحابى وأخبروا انها عانقت الميت حتى احترقت معه وبعد ذلك كنت فى تلك البلاد ارى المرأة من كفار الهنود متزينة راكبة والناس يتبعونها من مسلم وكافر والاطبال والابواق بين يديها ومعها البراهمة وهم كبراء الهنود واذا كان ذلك ببلاد السلطان استأذنوا السلطان فى احراقها فيأذن لهم فيحرقونها ثم اتفق بعد مدة انى كنت بمدينة أكثر سكانها الكفار تعرف بابجرى وأميرها مسلم من سامرة السند وعلى مقربة منها الكفار العصاة فقطعوا الطريق يوما وخرج الامير المسلم لقتالهم وخرجت معه رعية من المسلمين والكفار ووقع بينهم قتال شديد مات فيه من رعية الكفار سبعة نفر وكان لثلاثة منهم ثلاث زوجات فاتفقن على احراق أنفسهن واحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب اليه غير واجب لكن من احرقت نفسها بعد زوجها احرز أهل بيتها شرفا بذلك ونسبوا الى الوفاء ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب وأقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها ولكنها لا تكره على احراق نفسها ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللاى ذكرناهن على احراق انفسهن أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام فى غناء وطرب وأكل وشرب كأنهن يودعن الدنيا ويأتى اليهن النساء من كل جهة وفى صبيحة اليوم الرابع أتيت كل واحدة منهن بفرس فركبته وهى متزينة متعطرة وفى يمناها جوزة

نارجيل تلعب بها وفى يسراها مرآة تنظر فيها وجهها والبراهمة يحفون بها واقاربها معها وبين يديها الاطبال والابواق والانفار وكل انسان من الكفار يقول لها ابلغى السلام الى أبى أو أخى أو أمى أو صاحبى وهى تقول نعم وتضحك اليهم وركبت مع أصحابى لارى كيفية صنعهن فى الاحتراق فسرنا معهن نحو ثلاثة اميال وانتهينا الى موضع مظلم كثير المياه والاشجار متكاثف الظلال وبين أشجاره اربع قباب فى كل قبة صنم من الحجارة وبين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال وتزاحمت الاشجار فلا تتخللها الشمس فكأن ذلك الموضع بقعة من بقع جهنم اعاذنا الله منها ولما وصلن الى تلك القباب نزلن الى الصهريج وانغمسن فيه وجردن ماعليهن من ثياب وحلى فتصدقن به وأتيت كل واحدة منهن بثوب قطن خشن غير مخيط فربط بعضه على وسطها وبعضه على رأسها وكتفيها والنيران قد اضرمت على قرب من ذلك الصهريج فى موضع منخفض وصب عليها روغن كنجت (كنجد) وهو زيت الجلجلان فزاد فى اشتعالها وهنالك نحو خمسة عشر رجلا بأيديهم حزم من الحطب الرقيق ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار وأهل الاطبال والابواق وقوف ينتظرون مجئ المرأة وقد حجبت النار بملحفة يمسكها الرجال بأيديهم لئلا يدهشها النظر اليها فرأيت احداهن لما وصلت الى تلك الملحفة نزعتها من أيدى الرجال بعنف وقالت لهم مارا ميترسانى ازاطش (آتش) من ميدانم اواطش است رها كنى مارا وهى تضحك ومعنى هذا الكلام أبالنار تخوفوننى انا اعلم انها نار محرقة ثم جمعت يديها على رأسها خدمة للنار ورمت بنفسها فيها وعند ذلك ضربت الاطبال والانفار والابواق ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها وجعل الآخرون تلك الخشب من فوقها لئلا تتحرك وارتفعت الاصوات وكثر الضجيج ولما رأيت ذلك كدت اسقط عن فرسى لولا اصحابى تداركونى بالماء فغسلوا وجهى وانصرفت وكذلك يفعل اهل الهند أيضا فى الغرق يغرق كثير منهم انفسهم فى نهر الكنك وهو الذى اليه يحجون وفيه يرمى برماد هؤلاء المحرقين وهم يقولون انه من الجنة واذا أتى احدهم ليغرق نفسه يقول لمن حضره لا تظنوا انى اغرق نفسى لاجل شئ من أمور الدنيا أو لقلة مال انما قصدى التقرب الى كساى وكساى (بضم الكاف والسين المهمل) اسم الله عز وجل بلسانهم ثم يغرق نفسه فاذا مات اخرجوه وأحرقوه ورموا برماده فى البحر المذكور ولنعد الى كلامنا الاول فنقول سافرنا من مدينة اجودهن فوصلنا بعد مسيرة أربعة أيام منها الى مدينة سرستى (وضبط اسمها بسينين مفتوحين بينهما راء ساكنة ثم تاء مثناة مكسورة وياء) مدينة كبيرة كثيرة الارز وأرزها طيب ومنها يحمل الى حضرة دهلى ولها مجبى كثير جدا أخبرنى الحاجب شمس الدين البوشنجى بمقداره وانسيته ثم سافرنا منها الى مدينة حانسى (وضبط اسمها بفتح الحاء المهملة وألف ونون ساكن

وسين

وسين مهمل مكسور وياء) وهي من أحسن المدن واتقنها وأكثرها عمارة ولها سور عظيم ذكروا ان بانيه رجل من كبار سلاطين الكفار يسمى توره (بضم التاء المعلوة وفتح الراء) وله عندهم حكايات وأخبار ومن هذه المدينة هو كمال الدين صدر الجهان قاضي قضاة الهند وأخوه قطلوخان معلم السلطان واخواهما نظام الدين وشمس الدين الذي انقطع الى الله وجاور بمكة حتى مات ثم سافرنا من حانسي فوصلنا بعد يومين الى مسعود اباد وهي على عشرة أميال من حضرة دهلي وأقمنا بها ثلاثة أيام وحانسي ومسعود أباد هما للملك المعظم هوشنج (بضم الهاء وفتح الشين المعجم وسكون النون وبعدها جيم) ابن الملك كمال كرك وكرك (بكافين معقودين اولاهما مضمومة) ومعناه الذئب وسيأتي ذكره وكان سلطان الهند الذي قصدنا حضرته غائبا عنها بناحية مدينة قنوج وبينها وبين حضرة دهلي عشرة أيام وكانت بالحضرة والدته وتدعى المخدومة جهان وجهان اسم الدنيا وكان بها أيضا وزيره خواجه جهان المسمى بأحمد بن أياس الرومي الاصل فبعث الوزير الينا أصحابه ليتلقونا وعين للقاء كل واحد منا من كان من صنفه فكان من الذين عينهم للقائي الشيخ البسطامي والشريف المازندراني وهو حاجب الغرباء والفقيه علاء الدين الملتاني المعروف بقنره (بضم القاف وفتح النون وتشديدها) وكتب الى السلطان بخبرنا وبعث الكتاب مع الداوة وهي بريد الرجالة حسبما ذكرناه فوصل الى السلطان وأتاه الجواب في تلك الايام الثلاثة التي أقمناها بمسعود أباد وبعد تلك الايام خرج الى لقائنا القضاة والفقهاء والمشايخ وبعض الامراء وهم يسمون الامراء ملوكا فحيث يقول اهل ديار مصر وغيرها الامير يقولون هم الملك وخرج الى لقائنا الشيخ ظهير الدين الزنجاني وهو كبير المنزلة عند السلطان ثم رحلنا من مسعود أباد فنزلنا بمقربة من قرية تسمى بالم (بفتح الباء المعقودة وفتح اللام) وهي للسيد الشريف ناصر الدين مطهر الاوهري أحد ندماء السلطان وممن له عنده الحظوة التامة وفي غد ذلك اليوم وصلنا الى حضرة دهلي قاعدة بلاد الهند (وضبط اسمها بكسر الدال المهمل وسكون الهاء وكسر اللام) وهي المدينة العظيمة الشان الضخمة الجامعة بين الحسن والحصانة وعليها السور الذي لا يعلم له في بلاد الدنيا نظير وهي أعظم مدن الهند بل مدن الاسلام كلها بالمشرق

(ذكر وصفها)

ومدينة دهلي كبيرة الساحة كثيرة العمارة وهي الآن أربع مدن متجاورات متصلات احداها المسماة بهذا الاسم دهلي وهي القديمة من بناء الكفار وكان افتتاحها سنة اربع وثمانين وخمسمائة والثانية تسمى سيري (بكسر السين المهمل والراء وبينهما ياء مد) وتسمى ايضا دار الخلافة وهي التي اعطاها السلطان لغياث الدين حفيد الخليفة المستنصر العباسي لما

قدم عليه وبها كان سكنى السلطان علاء الدين وابنه قطب الدين وسنذكرهما والثالثة تسمى تغلق أباد باسم بانيها السلطان تغلق والد سلطان الهند الذى قدمنا عليه وكان سبب بنائه لها انه وقف يوما بين يدى السلطان قطب الدين فقال له ياخوند عالم كان ينبغى ان تبنى هنا مدينة فقال له السلطان متهكما اذا كنت سلطانا فأبنها فكان من قدر الله ان كان سلطانا فبناها وسماها باسمه والرابعة تسمى جهان پناه وهى مختصة بسكنى السلطان محمد شاه ملك الهند الآن الذى قدمنا عليه وهو الذى بناها وكان اراد ان يضم هذه المدن الاربع تحت سور واحد فبنى منه بعضا وترك بناء باقيه لعظم ما يلزم فى بنائه

(ذكر سور دهلى وأبوابها)

والسور المحيط بمدينة دهلى لا يوجد له نظير عرض حائطه احدى عشرة ذراعا وفيه بيوت يسكنها السمار وحفاظ الابواب وفيها مخازن للطعام ويسمونها الانبارات ومخازن للعدد ومخازن للمجانيق والرعادات ويبقى الزرع بها مدة طائلة لا يتغير ولا تطرقه آفة ولقد شاهدت الارز يخرج من بعض تلك المخازن ولونه قد اسود ولكن طعمه طيب ورأيت أيضا الكذرو يخرج منها وكل ذلك من اختزان السلطان بلبن منذ تسعين سنة ويمشى فى داخل السور الفرسان والرجال من أول المدينة الى آخرها وفيه طبقان مفتحة الى جهة المدينة يدخل منها الضوء وأسفل هذا السور مبنى بالحجارة واعلاه بالاجر وابراجه كثيرة متقاربة ولهذه المدينة ثمانية وعشرون بابا وهم يسمون الباب دروازة فمنها دروازة بذاون وهى الكبرى ودروازة المندوى وبها رحبة الزرع ودروازة جل (بضم الجيم) وهى موضع البساتين ودروازة شاه اسم رجل ودروازة بالم اسم قرية قد ذكرناها ودروازة نجيب اسم رجل ودروازة كمال كذلك ودروازة غزنة نسبة الى مدينة غزنة التى فى طرف خراسان وبخارجها مصلى العيد وبعض المقابر ودروازة البجالصة (بفتح الباء والجيم والصاد المهمل) وبخارج هذه الدروازة مقابر دهلى وهى مقبرة حسنة يبنون بها القباب ولا بد عند كل قبر من محراب وان كان لا قبة له ويزرعون بها الاشجار المزهرة مثل قل شنبه (كل شنبو) وريبول (راى بيل) والنسرين وسواها والازاهير هنالك لا تنقطع فى فصل من الفصول

(ذكر جامع دهلى)

وجامع دهلى كبير الساحة حيطانه وسقفه وفرشه كل ذلك من الحجارة البيض المنحوتة ابدع نحت ملصقة بالرصاص اتقن الصاق ولا خشبة به أصلا وفيه ثلاث عشرة قبة من حجارة ومنبره ايضا من الحجر وله أربعة من الصحون وفى وسط الجامع العمود الهائل الذى لا يدرى من أى المعادن هو ذكر لى بعض حكمائهم انه يسمى هفت جوش (بفتح الهاء وسكون الفاء وتاء معلوة

وجيم مضموم وآخره شين معجم) ومعنى ذلك سبعة معادن وانه مؤلف منها وقد جلى من هذا العمود مقدار السبابة ولذلك المجلو منه بريق عظيم ولا يؤثر فيه الحديد وطوله ثلاثون ذراعا وادرنا به عمامة فكان الذى أحاط بدائرته منها ثمانى أذرع وعند الباب الشرقى من أبواب المسجد صنمان كبيران جدّا من النحاس مطروحان بالارض قد ألصقا بالحجارة ويطأ عليهما كل داخل الى المسجد أو خارج منه وكان موضع هذا المسجد بدخانة وهو بيت الاصنام فلما افتتحت جعل مسجدا وفى الصحن الشمالى من المسجد الصومعة التى لا نظير لها فى بلاد الاسلام وهى مبنية بالحجارة الحمر خلافا لحجارة سائر المسجد فانها بيض وحجارة الصومعة منقوشة وهى سامية الارتفاع وحلها من الرخام الابيض الناصع وتفافيحها من الذهب الخالص وسعة ممرها بحيث تصعد فيه الفيلة حدّثنى من أثق به انه رأى الفيل حين بنيت يصعد بالحجارة الى أعلاها وهى من بناء السلطان معز الدين بن ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن وأراد السلطان قطب الدين أن يبنى بالصحن الغربى صومعة أعظم منها فبنى مقدار الثلث منها واخترم دون تمامها وأراد السلطان محمد تمامها ثم ترك ذلك تشاؤما وهذه الصومعة من عجائب الدنيا فى ضخامتها وسعة ممرها بحيث تصعده ثلاثة من الفيلة متقارنة وهذا الثلث المبنى منها مساو لارتفاع جميع الصومعة التى ذكرنا انها بالصحن الشمالى وصعدتها مرة فرأيت معظم دور المدينة وعاينت الاسوار على ارتفاعها وسموها منحطة وظهر لى الناس فى أسفلها كأنهم الصبيان الصغار ويظهر لناظرها من أسفلها ان ارتفاعها ليس بذلك لعظم جرمها وسعتها وكان السلطان قطب الدين أراد أن يبنى ايضا مسجدا جامعا بسيرى المسماة دار الخلافة فلم يتم منه غير الحائط القبلى والمحراب وبناؤه بالحجارة البيض والسود والحمر والخضر ولو كمل لم يكن له مثل فى البلاد وأراد السلطان محمد اتمامه وبعث عرفاء البناء ليقدّروا النفقة فيه فزعموا انه ينفق فى اتمامه خمسة وثلاثون لكا فترك ذلك استكثارا له وأخبرنى بعض خواصه انه لم يتركه استكثارا لكنه تشاءم به لما كان السلطان قطب الدين قد قتل قبل تمامه

﴿ذكر الحوضين العظيمين بخارجها﴾

وبخارج دهلى الحوض العظيم المنسوب الى السلطان شمس الدين لمش ومنه يشرب أهل المدينة وهو بالقرب من مصلاها وماؤه يجتمع من ماء المطر وطوله نحو ميلين وعرضه على النصف من طوله والجهة الغربية منه من ناحية المصلى مبنية بالحجارة مصنوعة أمثال الدكاكين بعضها أعلى من بعض وتحت كل دكان درج ينزل عليها الى الماء وبجانب كل دكان قبة حجارة فيها مجالس للمتنزهين والمتفرجين وفى وسط الحوض قبة عظيمة من

الحجارة المنقوشة مجعولة طبقتين فاذا كثر الماء في الحوض لم يكن سبيل اليها الا في القوارب فاذا قل الماء دخل اليها الناس وداخلها مسجد وفي أكثر الاوقات يقيم بها الفقراء المنقطعون الى الله المتوكلون عليه واذا جف الماء في جوانب هذا الحوض زرع فيها قصب السكر والخيار والقثاء والبطيخ الاخضر والاصفر وهو شديد الحلاوة صغير الجرم وفيما بين دهلي ودار الخلافة حوض الخاص وهو أكبر من حوض السلطان شمس الدين وعلى جوانبه نحو أربعين قبة ويسكن حوله اهل الطرب وموضعهم يسمى طرب آباد ولهم سوق هنالك من أعظم الاسواق ومسجد جامع ومساجد سواه كثيرة وأخبرت ان النساء المغنيات الساكنات هنالك يصلين التراويح في شهر رمضان بتلك المساجد مجتمعات ويؤمهن الائمة وعددهن كثير وكذلك الرجال المغنون ولقد شاهدت الرجال أهل الطرب في عرس الامير سيف الدين غدا ابن مهنى لكل واحد منهم مصلى تحت ركبته فاذا سمع الاذان قام فتوضأ وصلى

❊(ذكر بعض مزاراتها)❊

فمنها قبر الشيخ الصالح قطب الدين بختيار الكعكي وهو ظاهر البركة كثير التعظيم وسبب تسمية هذا الشيخ بالكعكي انه كان اذا أتاه الذين عليهم الديون شاكين من الفقر أو القلة أو الذين لهم البنات ولا يجدون ما يجهزوهن به الى أزواجهن يعطي من أتاه منهم كعكة من الذهب أو من الفضة حتى عرف من أجل ذلك بالكعكي رحمه الله ومنها قبر الفقيه الفاضل نور الدين الكرلاني (بضم الكاف وسكون الراء والنون) ومنها قبر الفقيه علاء الدين الكرماني نسبة الى كرمان وهو ظاهر البركة ساطع النور ومكانه يظهر قبلة المصلى وبذلك الموضع قبور رجال صالحين كثير نفع الله تعالى بهم

❊(ذكر بعض علمائها وصلحائها)❊

فمنهم الشيخ الصالح العالم محمود الكبا (بالباء الموحدة) وهو من كبار الصالحين والناس يزعمون انه ينفق من الكون لانه لا مال له ظاهرا وهو يطعم الوارد والصادر ويعطي الذهب والدراهم والاثواب وظهرت له كرامات كثيرة واشتهر بها رأيته مرات كثيرة وحصلت لي بركته ومنهم الشيخ الصالح العالم علاء الدين النيلي كأنه منسوب الى نيل مصر والله أعلم كان من أصحاب الشيخ العالم الصالح نظام الدين البزواني وهو يعظ الناس في يوم كل جمعة فيتوب كثير منهم بين يديه ويحلقون رؤسهم ويتواجدون ويغشى على بعضهم

❊(حكاية)❊

شاهدته في بعض الايام وهو يعظ فقرأ القارئ بين يديه (يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شئ عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى

الناس

الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) ثم كررها الفقيه علاء الدين فصاح أحد الفقراء من ناحية المسجد صيحة عظيمة فاعاد الشيخ الاية فصاح الفقير ثانية ووقع ميتا وكنت فيمن صلى عليه وحضر جنازته ومنهم الشيخ الصالح العابد صدر الدين الكهرانى (بضم الكاف وسكون الهاء وراء ونون) وكان يصوم الدهر ويقوم الليل وتجرد عن الدنيا جميعا ونبذها ولباسه عباءة ويزوره السلطان وأهل الدولة وربما احتجب عنهم فرغب السلطان منه ان يقطعه قرى يطعم منها الفقراء والواردين فأبى ذلك وزاره يوما وأتى اليه بعشرة آلاف دينار فلم يقبلها وذكروا انه لا يفطر الا بعد ثلاث وانه قيل له فى ذلك فقال لا أفطر حتى اضطر فتحل لى الميتة ومنهم الامام الصالح العالم العابد الورع الخاشع فريد دهره ووحيد عصره كمال الدين عبد الله الغارى (بالغين المعجم والراء) نسبة الى غار كان يسكنه خارج دهلى بمقربة من زاوية الشيخ نظام الدين البذاونى زرته بهذا الغار ثلاث مرات

(كرامة له)

كان لى غلام فأبق منى والفيته بيد رجل من الترك فذهبت الى انتزاعه من يده فقال لى الشيخ ان هذا الغلام لا يصلح لك فلا تأخذه وكان التركى راغبا فى المصالحة فصالحته بمائة دينار اخذتها منه وتركته له فلما كان بعد ستة أشهر قتل سيده وأتى به السلطان فامر بتسليمه لاولاد سيده فقتلوه ولما شاهدت لهذا الشيخ هذه الكرامة انقطعت اليه ولازمته وتركت الدنيا ووهبت جميع ما كان عندى للفقراء والمساكين واقمت عنده مدة فكنت أراه يواصل عشرة أيام وعشرين يوما ويقوم أكثر الليل ولم أزل معه حتى بعث عنى السلطان ونشبت فى الدنيا ثانية والله تعالى يختم بالخير وسأذكر ذلك فيما بعد ان شاء الله تعالى وكيفية رجوعى الى الدنيا

(ذكر فتح دهلى ومن تداولها من الملوك)

حدثنى الفقيه الامام العلامة قاضى القضاة بالهند والسند كمال الدين محمد بن البرهان الغزنوى الملقب بصدر الجهان ان مدينة دهلى افتتحت من أيدى الكفار فى سنة أربع وثمانين وخمسمائة وقد قرأت أنا ذلك مكتوبا على محراب الجامع الاعظم بها وأخبرنى ايضا انها افتتحت على يد الامير قطب الدين ايبك (واسمه بفتح الهمزة وسكون الياء آخر الحروف وفتح الباء الموحدة وكان يلقب سياه (سپاه) سالار ومعناه مقدم الجيوش وهو أحد مماليك السلطان المعظم شهاب الدين محمد بن سام الغورى ملك غزنة وخراسان المتغلب على ملك ابراهيم بن السلطان الغازى محمود بن سبكتكين الذى ابتدأ فتح الهند وكان السلطان شهاب الدين المذكور بعث الامير قطب الدين بعسكر عظيم ففتح الله عليه مدينة لاهور وسكنها وعظم

شأنه وسعي به الى السلطان وألقى اليه جلساؤه انه يريد الانفراد بملك الهند وانه قد عصى وخالف وبلغ هذا الخبر الى قطب الدين فبادر بنفسه وقدم على غزنة ليلا ودخل على السلطان ولا علم عند الذين وشوا به اليه فلما كان بالغد قعد السلطان على سريره واقعد ايبك تحت السرير بحيث لا يظهر وجاء الندماء والخواص الذين سعوا به فلما استقر بهم الجلوس سألهم السلطان عن شان ايبك فذكروا له انه عصى وخالف وقالوا قد صح عندنا انه ادعى الملك لنفسه فضرب السلطان سريره برجله وصفق بيديه وقال يا ايبك قال لبيك وخرج عليهم فسقط فى أيديهم وفزعوا الى تقبيل الارض فقال لهم السلطان قد غفرت لكم هذه الزلة وايا كم والعودة الى الكلام فى ايبك وأمره ان يعود الى بلاد الهند فعاد اليها وفتح مدينة دهلى وسواها واستقر بها الاسلام الى هذا العهد وأقام قطب الدين بها الى أن توفى

(ذكر السلطان شمس الدين للمش)

(وضبط اسمه بفتح اللام الاولى وسكون الثانية وكسر الميم وشين معجم) وهو أول من ولى الملك بمدينة دهلى مستقلا به وكان قبل تملكه مملوكا للامير قطب الدين ايبك وصاحب عسكره ونائبا عنه فلما مات قطب الدين استبد بالملك وأخذ الناس بالبيعة فأتاه الفقهاء يقدمهم قاضى القضاة اذ ذاك وجيه الدين الكاسانى فدخلوا عليه وقعدوا بين يديه وقعد القاضى الى جانبه على العادة وفهم السلطان عنهم ما أرادوا ان يكلموه به فرفع طرف البساط الذى هو قاعد عليه وأخرج لهم عقدا يتضمن عتقه فقرأه القاضى والفقهاء وبايعوه جميعا واستقل بالملك وكانت مدته عشرين سنة وكان عادلا صالحا فاضلا ومن مآثره انه اشتد فى رد المظالم وانصاف المظلومين وأمر أن يلبس كل مظلوم ثوبا مصبوغا وأهل الهند جميعا يلبسون البياض فكان متى قعد للناس أو ركب فرأى أحدا عليه ثوب مصبوغ نظر فى قضيته وانصافه ممن ظلمه ثم انه أعيى فى ذلك فقال ان بعض الناس تجرى عليهم المظالم بالليل وأريد تعجيل انصافهم فجعل على باب قصره أسدين مصورين من الرخام موضوعين على برجين هنالك وفى أعناقهما سلسلتان من الحديد فيهما جرس كبير فكان المظلوم يأتى ليلا فيحرك الجرس فيسمعه السلطان وينظر فى أمره للحين وينصفه ولما توفى السلطان شمس الدين خلف من الاولاد الذكور ثلاثة وهم ركن الدين الوالى بعده ومعز الدين وناصر الدين وبنتا تسمى رضية هى شقيقة معز الدين منهم فتولى بعده ركن الدين كما ذكرناه

(ذكر السلطان ركن الدين بن السلطان شمس الدين)

ولما بويع ركن الدين بعد موت أبيه افتتح أمره بالتعدى على أخيه معز الدين فقتله وكانت رضية شقيقته فانكرت ذلك عليه فاراد قتلها فلما كان فى بعض أيام الجمع خرج ركن الدين الى

الصلاة

الصلاة فصعدت رضية على سطح القصر القديم المجاور للجامع الاعظم وهو يسمى دولة خانة ولبست عليها ثياب المظلومين وتعرضت للناس وكلمتهم من أعلى السطح وقالت لهم ان أخى قتل أخاه وهو يريد قتلى معه وذكرتهم أيام أبيها وفعله الخير واحسانه اليهم فثاروا عند ذلك الى السلطان ركن الدين وهو فى المسجد فقبضوا عليه وأتوا به اليها فقالت لهم القاتل يقتل فقتلوه قصاصا باخيه وكان أخوهما ناصر الدين صغيرا فاتفق الناس على تولية رضية

(ذكر السلطانة رضية)

ولما قتل ركن الدين اجتمعت العساكر على تولية أخته رضية الملك فولوها واستقلت بالملك أربع سنين وكانت تركب بالقوس والتركش والقربان كما يركب الرجال ولا تستر وجهها ثم انها اتهمت بعبد لها من الحبشة فاتفق الناس على خلعها وتزويجها فخلعت وزوجت من بعض اقاربها وولى الملك أخوها ناصر الدين

(ذكر السلطان ناصر الدين بن السلطان شمس الدين)

ولما خلعت رضية ولى ناصر الدين اخوها الاصغر واستقل بالملك مدة ثم ان رضية وزوجها خالفا عليه وركبا فى مماليكهما ومن تبعهما من أهل الفساد وتهيأ لقتاله وخرج ناصر الدين ومعه مملوكه النائب عنه غياث الدين بلبن متولى الملك بعده فوقع اللقاء وانهزم عسكر رضية وفرت بنفسها فأدركها الجوع واجهدها الاعياء فقصدت حراثا رأته يحرث الارض فطلبت منه ماتأكله فأعطاها كسرة خبز فأكلتها وغلب عليها النوم وكانت فى زى الرجال فلما نامت نظر اليها الحراث وهى نائمة فرأى تحت ثيابها قباء مرصعا فعلم انها امرأة فقتلها وسلبها وطرد فرسها ودفنها فى فدانه وأخذ بعض ثيابها فذهب الى السوق يبيعها فأنكر أهل السوق شأنه وأتوا به الشحنة وهو الحاكم فضربه فأقر بقتلها ودلهم على مدفنها فاستخرجوها وغسلوها وكفنوها ودفنت هنالك وبنى عليها قبة وقبرها الآن يزار ويتبرك به وهو على شاطئ النهر الكبير المعروف بنهر الجون على مسافة فرسخ واحد من المدينة واستقل ناصر الدين بالملك بعدها واستقام له الامر عشرين سنة وكان ملكا صالحا ينسخ نسخا من الكتاب العزيز ويبيعها فيقتات بثمنها وقد وقفنى القاضى كمال الدين على مصحف بخطه متقن محكم الكتابة ثم ان نائبه غياث الدين بلبن قتله وملك بعده ولبلبن هذا خبر ظريف نذكره

(ذكر السلطان غياث الدين بلبن)

(وضبط اسمه بباءين موحدتين بينهما لام والجميع مفتوحات وآخره نون) ولما قتل بلبن مولاه السلطان ناصر الدين استقل بالملك بعده عشرين سنة وقد كان قبلها نائبا له عشرين سنة أخرى

وكان من خيار السلاطين عادلا حليما فاضلا ومن مكارمه انه بنى دارا وسماها دار الامن فمن دخلها من أهل الديون قضى دينه ومن دخلها خائفا أمن ومن دخلها وقد قتل أحدا أرضى عنه اولياء المقتول ومن دخلها من ذوى الجنايات ارضى أيضا من يطلبه وبتلك الدار دفن لما مات وقد زرت قبره

(حكاية غريبة)

يذكر ان أحد الفقراء بجارى رأى بها بلبن هذا وكان قصيرا حقيرا ذميما فقال له ياتركك وهى لفظة تعرب عن الاحتقار فقال له لبيك باخوند فأعجبه كلامه فقال له اشترلى من هذا الرمان واشار الى رمان يباع بالسوق فقال نعم واخرج فليسات لم يكن عنده سواها واشترى له من ذلك الرمان فلما أخذها الفقير قال له وهبناك ملك الهند فقبل بلبن يد نفسه وقال قبلت ورضيت واستقر ذلك فى ضميره واتفق ان بعث السلطان شمس الدين للمش تاجرا يشترى له المماليك بسمرقند وبخارى وترمذ فاشترى مائة مملوك كان من جملتهم بلبن فلما دخل بالمماليك على السلطان أعجبه جميعهم الابلبن لما ذكرناه من زمامته فقال لا أقبل هذا فقال له بلبن يا خوند عالم لمن اشتريت هؤلاء المماليك فضحك منه وقال اشتريتهم لنفسى فقال له اشترنى انا لله عز وجل فقال نعم وقبله وجعله فى جملة المماليك فاحتقر شأنه وجعل فى السقائين وكان أهل المعرفة بعلم النجوم يقولون للسلطان شمس الدين ان أحد مماليكك يأخذ الملك من يد ابنك ويستولى عليه ولا يزالون يلقون له ذلك وهو لا يلتفت الى أقوالهم لصلاحه وعدله الى ان ذكروا ذلك للخاتون الكبرى ام أولاده فذكرت له ذلك وأثر فى نفسه وبعث عن المنجمين فقال أتعرفون المملوك الذى يأخذ ملك ابنى اذا رأيتموه فقالوا له نعم عندنا علامة نعرفه بها فامر السلطان بعرض مماليكه وجلس لذلك فعرضوا بين يديه طبقة طبقة والمنجمون ينظرون اليهم ويقولون لم نره بعد وحان وقت الزوال فقال السقاؤون بعضهم لبعض انا قد جعنا فلنجمع شيأ من الدراهم ونبعث أحدنا الى السوق ليشترى لنا ما نأكله فجمعوا الدراهم وبعثوا بها بلبن اذ لم يكن فيهم أحقر منه فلم يجد بالسوق ما أرادوه فتوجه الى سوق اخرى وأبطأ وجاءت نوبة السقائين فى العرض وهو لم يأت بعد فأخذوا زقه وماعونه وجعلوه على كاهل صبى وعرضوه على انه بلبن فلما نودى باسمه جاز الصبى بين أيديهم وانقضى العرض ولم ير المنجمون الصورة التى تطلبوها وجاء بلبن بعد تمام العرض لما أراد الله من انفاذ قضائه ثم انه ظهرت نجابته فجعل أمير السقائين ثم صار من جملة الاجناد ثم من الامراء ثم تزوج السلطان ناصر الدين بنته قبل ان يلى الملك فلما ولى الملك جعله نائبا عنه مدة عشرين سنة ثم قتله بلبن واستولى على ملكه عشرين سنة أخرى كما تقدم ذكر ذلك وكان للسلطان بلبن ولدان أحدهما الخان الشهيد ولى عهده وكان

واليا

واليا لابيه ببلاد السند ساكنا بمدينة ملتان وقتل فى حرب له مع التتر وترك ولدين كى قباد وكى خسرو وولد السلطان بلبن الثانى فسمى ناصر الدين وكان واليا لابيه ببلاد اللكنوتى وبنجالة فلما استشهد الخان الشهيد جعل السلطان بلبن العهد الى ولده كى خسرو وعدل به عن ابن نفسه ناصر الدين وكان لناصر الدين أيضا ولد ساكن بحضرة دهلى مع جده يسمى معز الدين وهو الذى تولى الملك بعد جده فى خبر عجيب نذكره وابوه اذ ذاك حى كما ذكرناه

(ذكر السلطان معز الدين بن ناصر الدين بن السلطان غياث الدين بلبن)

ولما توفى السلطان غياث الدين ليلا وابنه ناصر الدين غائب ببلاد اللكنوتى وجعل العهد لابن ابنه الشهيد كى خسرو وحسبما قصصناه كان ملك الامراء نائب السلطان غياث الدين عدوا لكى خسرو فادار عليه حيلة تمت له وهى انه كتب بيعة دلس فيها على خطوط الامراء الكبار بأنهم بايعوا معز الدين حفيد السلطان بلبن ودخل على كى خسرو كالمتنصح له فقال له ان الامراء قد بايعوا ابن عمك وأخاف عليك منهم فقال له كى خسرو فما الحيلة قال أنج بنفسك هاربا الى بلاد السند فقال وكيف الخروج والابواب مسدودة فقال له ان المفاتيح بيدى وأنا أفتح لك فشكره على ذلك وقبل يده فقال اركب الآن فركب فى خاصته ومماليكه وفتح له الباب وأخرجه وسد فى أثره واستأذن على معز الدين فبايعه فقال كيف لى بذلك وولاية العهد لابن عمى فاعلمه بما أدار عليه من الحيلة وباخراجه فشكره على ذلك ومضى به الى دار الملك وبعث عن الامراء والخواص فبايعوا ليلا فلما اصبح بايعه سائر الناس واستقام له الملك وكان أبوه حيا ببلاد بنجالة واللكنوتى فاتصل به الخبر فقال انا وارث الملك وكيف يلى ابنى الملك ويستقل به وأنا بقيد الحياة فتجهز فى جيوشه قاصدا حضرة دهلى وتجهز ولده فى جيوشه أيضا قاصدا لمدافعته عنها فتوافيا معا بمدينة كرا وهى على ساحل نهر الكنك الذى تحج الهنود اليه فنزل ناصر الدين على شاطئه مما يلى كرا ونزل ولده السلطان معز الدين مما يلى الجهة الاخرى والنهر بينهما وعزما على القتال ثم ان الله تعالى أراد حقن دماء المسلمين فالقى فى قلب ناصر الدين الرحمة لابنه وقال اذا ملك ولدى فذلك شرف وأنا أحق ان أرغب فى ذلك وألقى فى قلب السلطان معز الدين الضراعة لابيه فركب كل واحد منهما فى مركب منفردا عن جيوشه والتقيا فى وسط النهر فقبل السلطان رجل ابيه واعتذر له فقال له أبوه قد وهبتك ملكى ووليتك وبايعه وأراد الرجوع لبلاده فقال له ابنه لا بد لك من الوصول الى بلادى فمضى معه الى دهلى ودخل القصر وأقعده ابوه على سرير الملك ووقف بين يديه وسمى ذلك اللقاء الذى كان بينهما بالنهر لقاء السعدين لما كان فيه من حقن الدماء وتواهب الملك والتجافى عن المنازعة وأكثرت الشعراء فى ذلك وعاد ناصر الدين الى بلاده فمات بها بعد سنين وترك

بهاذرية منهم غياث الدين بهادور الذى أسره السلطان تغلق واطلقه ابنه محمد بعد وفاته واستقام الملك لمعز الدين اربعة أعوام بعد ذلك كانت كالاعياد رأيت بعض من أدركها يصف خيراتها ورخص أسعارها وجود معز الدين وكرمه وهو الذى بنى الصومعة بالصحن الشمالى من جامع دهلى ولا نظير لها فى البلاد وحكى لى بعض أهل الهند ان معز الدين كان يكثر النكاح والشرب فاعترته علة أعجز الاطباء دواؤها ويبس أحد شقيه فقام عليه نائبه جلال الدين فيروز شاه الخلجى (بفتح الخاء المعجم واللام والجيم)

(ذكر السلطان جلال الدين)

ولما اعترى السلطان معز الدين ما ذكرناه من يبس أحد شقيه خالف عليه نائبه جلال الدين وخرج الى ظاهر المدينة فوقف على تل هنالك بجانب قبة تعرف بقبة الجيشانى فبعث معز الدين الامراء لقتاله فكان كل من يبعثه منهم يبايع جلال الدين ويدخل فى جملته ثم دخل المدينة وحصره فى القصر ثلاثة أيام وحدثنى من شاهد ذلك ان السلطان معز الدين أصابه الجوع فى تلك الايام فلم يجد ما يأكله فبعث اليه أحد الشرفاء من جيرانه ما أقام أوده ودخل عليه القصر فقتل وولى بعده جلال الدين وكان حليما فاضلا وحمله أداه الى القتل كما سنذكره واستقام له الملك سنين وبنى القصر المعروف باسمه وهو الذى أعطاه السلطان محمد لصهره الامير غدا ابن مهنى لما زوجه باخته وسيذكر ذلك فكان للسلطان جلال الدين ولد اسمه ركن الدين وابن أخ اسمه علاء الدين زوجه بابنته وولاه مدينة كرا ومانكبور ونواحيها وهى من أخصب بلاد الهند كثيرة القمح والارز والسكر وتصنع بها الثياب الرفيعة ومنها تجلب الى دهلى وبينهما مسيرة ثمانية عشر يوما وكانت زوجة علاء الدين تؤذيه فلا يزال يشكوها الى عمه السلطان جلال الدين حتى وقعت الوحشة بينهما بسببها وكان علاء الدين شهما شجاعا مظفرا منصورا وحب الملك ثابت فى نفسه الا انه لم يكن له مال الا ما يستفيده بسيفه من غنائم الكفار فاتفق انه ذهب مرة الى الغزو ببلاد الدويقير وتسمى بلاد الكتكة أيضا وسنذكرها وهى كرسى بلاد المالوة والمرهتة وكان سلطانها أكبر سلاطين الكفار فعثرت بعلاء الدين فى تلك الغزوة دابة له عند حجر فسمع له طنينا فأمر بالحفر هنالك فوجد تحته كنزا عظيما ففرقه فى اصحابه ووصل الى الدويقير فأذعن له سلطانها بالطاعة ومكنه من المدينة من غير حرب وأهدى له هدايا عظيمة فرجع الى مدينة كرا ولم يبعث الى عمه شيأ من الغنائم فأغرى الناس عمه به فبعث عنه فامتنع من الوصول اليه فقال السلطان جلال الدين أنا أذهب اليه وآتى به فانه محل ولدى فتجهز فى عساكره وطوى المراحل حتى حل بساحل مدينة كرا حيث نزل السلطان معز الدين لما خرج الى لقاء ابيه ناصر الدين وركب النهر برسم الوصول الى ابن أخيه

وركب

وركب ابن أخيه أيضا فى مركب ثان عازما على الفتك به وقال لاصحابه اذا أنا عانقته فاقتلوه فلما التقيا وسط النهر عانقه ابن أخيه وقتله أصحابه كما وعدهم واحتوى على ملكه وعساكره

(ذكر السلطان علاء الدين محمد شاه الخلجى)

ولما قتل عمه استقل بالملك وفر اليه أكثر عساكر عمه وعاد بعضهم الى دهلى واجتمعوا على ركن الدين وخرج الى دفاعه فهربوا جميعا الى السلطان علاء الدين وفر ركن الدين الى السند ودخل علاء الدين دار الملك واستقام له الامر عشرين سنة وكان من خيار السلاطين وأهل الهند يثنون عليه كثيرا وكان يتفقد أمور الرعية بنفسه ويسأل عن أسعارهم ويحضر المحتسب وهم يسمونه الرئيس فى كل يوم برسم ذلك ويذكر انه سأله يوما عن سبب غلاء اللحم فأخبره أن ذلك لكثرة المغرم على البقر فى الرتب فأمر برفع ذلك وأمر باحضار التجار وأعطاهم الاموال وقال لهم اشتروا بها البقر والغنم وبيعوها ويرتفع ثمنها لبيت المال ويكون لكم أجرة على بيعها ففعلوا ذلك وفعل مثل هذا فى الاثواب التى يؤتى بها من دولة اباد وكان اذا غلا ثمن الزرع فتح المخازن وباع الزرع حتى يرخص السعر ويذكر ان السعر ارتفع ذات مرة فأمر ببيع الزرع بثمن عينه فامتنع الناس من بيعه بذلك الثمن فأمر أن لا يبيع أحد زرعا غير زرع المخزن وباع للناس ستة أشهر فخاف المحتكرون فساد زرعهم بالسوس فرغبوا أن يؤذن لهم فى البيع فأذن لهم على ان يبيعوه بأقل من القيمة الاولى التى امتنعوا من بيعه بها وكان لا يركب لجمعة ولا لعيد ولا سواهما وسبب ذلك انه كان له ابن أخ يسمى سليمان شاه وكان يحبه ويعظمه فركب يوما الى الصيد وهو معه وأضمر فى نفسه ان يفعل به ما فعل هو بعمه جلال الدين من الفتك فلما نزل للغداء رماه بنشابة فصرعه وغطاه بعض عبيده بترس وأتى ابن أخيه ليجهز عليه فقال له العبيد انه قد مات فصدقهم وركب فدخل القصر على الحرم وأفاق السلطان علاء الدين من غشيته وركب واجتمعت العساكر عليه وفر ابن أخيه فأدرك وأتى به اليه فقتله وكان بعد ذلك لا يركب وكان له من الاولاد خضر خان وشادى خان وأبو بكر خان ومبارك خان وهو قطب الدين الذى ولى الملك وشهاب الدين وكان قطب الدين مهتضما عنده ناقص الحظ قليل الحظوة وأعطى جميع اخوته المراتب وهى الاعلام والاطبال ولم يعطه شيئا وقال له يوما لا بدّ أن أعطيك مثل ما أعطيت اخوتك فقال له الله هو الذى يعطينى فهال أباه هذا الكلام وفزع منه ثم ان السلطان أصابه المرض الذى مات منه وكانت زوجته أم ولده خضر خان وتسمى ماه حق والماه القمر بلسانهم لها أخ يسمى سنجر فعاهدت أخاها على تمليك ولدها خضر خان وعلم بذلك

ملك نائب أكبر امراء السلطان وكان يسمى الالفى لان السلطان اشتراه بألف تنكة وهى ألفان وخمسمائة من دنانير المغرب فوشى الى السلطان بما اتفقوا عليه فقال لخواصه اذا دخل على سنجر فانى معطيه ثوبا فاذا لبسه فامسكوا بأكمامه واضربوا به الارض واذبحوه فلما دخل عليه فعلوا ذلك وقتلوه وكان خضر خان غائبا بموضع يقال له سندبت على مسيرة يوم من دهلى توجه لزيارة شهداء مدفونين به لنذر كان عليه ان يمشى تلك المسافة راجلا ويدعو لوالده بالراحة فلما بلغه ان أباه قتل خاله حزن عليه حزنا شديدا ومزق جيبه وتلك عادة لاهل الهند يفعلونها اذا مات لهم من يعز عليهم فبلغ والده مافعله فكره ذلك فلما دخل عليه عنفه ولامه وأمر به فقيدت يداه ورجلاه وسلمه لملك نائب المذكور وأمره أن يذهب به الى حصن كاليور (وضبطه بفتح الكاف المعقودة وكسر اللام وضم الياء آخر الحروف وآخره راء) ويقال له أيضا كاليير بزيادة ياء ثانية وهو حصن منقطع بين كفار الهنود منيع على مسيرة عشر من دهلى وقد سكنته أنا مدة فلما أوصله الى هذا الحصن سلمه للكتوال وهو أمير الحصن وللمفردين وهم الزماميون وقال لهم لا تقولوا هذا ابن السلطان فتكرموه انما هو اعدى عدوله فاحفظوه كما يحفظ العدو ثم ان المرض اشتد بالسلطان فقال لملك نائب ابعث من يأتى بابنى خضر خان لاوليه العهد فقال له نعم وماطله بذلك فتى سأله عنه قال هو ذا يصل الى أن توفى السلطان رحمه الله

(ذكر ابنه السطان شهاب الدين)

ولما توفى السلطان علاء الدين أقعد ملك نائب ابنه الاصغر شهاب الدين على سرير الملك وبايعه الناس وتغلب ملك نائب عليه وسمل أعين أبى بكر خان وشادى خان وبعث بهما الى كاليور وأمر بسمل عينى أخيهما خضر خان المسجون هنالك وسجنوا وسجن قطب الدين لكنه لم يسمل عينيه وكان للسلطان علاء الدين مملوكان من خواصه يسمى أحدهما بشير والآخر مبشر فبعثت عنهما الخاتون الكبرى زوجة علاء الدين وهى بنت السلطان معز الدين فذكرتهما بنعمة مولاهما وقالت ان هذا الفتى نائب ملك قد فعل فى أولادى ماتعلمانه وانه يريد أن يقتل قطب الدين فقالا لها سترين مانفعل وكانت عادتهما أن يبيتا عند نائب ملك ويدخلا عليه بالسلاح فدخلا عليه تلك الليلة وهو فى بيت من الخشب مكسو بالملف يسمونه الخرمقة ينام فيه أيام المطر فوق سطح القصر فاتفق انه أخذ السيف من يد حدهما فقلبه وردّه اليه فضربه به المملوك وثنى عليه صاحبه واحتزا رأسه واتيا به الى محبس قطب الدين فرمياه بين يديه وأخرجاه فدخل على أخيه شهاب الدين وأقام بين يديه أياما كأنه نائب له ثم عزم على خلعه فخلعه

*(

(ذكر السلطان قطب الدين ابن السلطان علاء الدين)

وخلع قطب الدين أخاه شهاب الدين وقطع أصبعه وبعث به الى كاليور فحبس مع اخوته واستقام الملك لقطب الدين ثم انه بعد ذلك خرج من حضرة دهلى الى دولة ابادوهى على مسيرة أربعين يوما منها والطريق بينهما تكنفه الاشجار من الصفصاف وسواه فكأن الماشى به فى بستان وفى كل ميل منه ثلاث داوات وهى البريد وقد ذكرنا ترتيبه وفى كل داوة جميع ما يحتاج المسافر اليه فكأنه يمشى فى سوق مسيرة الاربعين يوما وكذلك يتصل الطريق الى بلاد التلنك والمعبر مسيرة ستة أشهر وفى كل منزلة قصر للسلطان وزاوية للوارد والصادر فلا يفتقر الفقير الى حمل زاد فى ذلك الطريق ولما خرج السلطان قطب الدين فى هذه الحركة اتفق بعض الامراء على الخلاف عليه وتولية ولد أخيه خضر خان المسجون وسنه نحو عشرة أعوام وكان مع السلطان فبلغ السلطان ذلك فأخذ ابن أخيه المذكور وامسك برجليه وضرب برأسه الى الحجارة حتى نثر دماغه وبعث أحد الامراء ويسمى ملك شاه الى كاليور حيث أبو هذا الولد واعمامه وأمره بقتلهم جميعا فحدثنى القاضى زين الدين مبارك قاضى هذا الحصن قال قدم علينا ملك شاه ضحوة يوم وكنت عند خضر خان بمحبسه فلما سمع بقدومه خاف وتغير لونه ودخل عليه الامير فقال له فيما جئت قال فى حاجة خوندعالم فقال له نفسى سالمة فقال نعم وخرج عنه واستحضر الكتوال وهو صاحب الحصن والمفردين وهم الزماميون وكانوا ثلاثمائة رجل وبعث عنى وعن العدول واستظهر بأمر السلطان فقرؤه وأتوا الى شهاب الدين المخلوع فضربوا عنقه وهو متثبت غير جزع ثم ضربوا عنق أبى بكر خان وشادى خان ولما أتوا ليضربوا عنق خضر خان فزع وذهل وكانت أمه معه فسدّوا الباب دونها وقتلوه وسحبوهم جميعا فى حفرة دون تكفين ولا غسل وأخرجوا بعد سنين فدفنوا بمقابر آبائهم وعاشت أم خضر خان مدة ورأيتها بمكة سنة ثمان وعشرين وحصن كاليور هذا فى رأس شاهق كأنه منحوت من الصخر لا يحاذيه جبل وبداخله جباب الماء ونحو عشرين بئرا عليها الاسوار مضافة الى الحصن منصوبا عليها المجانيق والرعادات ويصعد الى الحصن فى طريق متسعة يصعدها الفيل والفرس وعند باب الحصن صورة فيل منحوت من الحجر وعليه صورة فيال واذا رآه الانسان على البعد لم يشك انه فيل حقيقة وأسفل الحصن مدينة حسنة مبنية كلها بالحجارة البيض المنحوتة مساجدها ودورها ولا خشب فيها ما عدا الابواب وكذلك دار الملك بها والقباب والمجالس وأكثر سوقتها كفار وفيها ستمائة فارس من جيش السلطان لا يزالون فى جهاد لانها بين الكفار ولما قتل قطب الدين اخوته واستقل بالملك فلم يبق من ينازعه ولا من يخالف عليه بعث الله تعالى عليه

خاصته الحظى لديه أكبر أمرائه وأعظمهم منزلة عنده ناصر الدين خسر وخان ففتك به وقتله واستقل بملكه الا ان مدته لم تطل فى الملك فبعث الله عليه أيضا من قتله بعد خلعه وهو السلطان تغلق حسبما يشرح ذلك كله مستوفى ان شاء الله تعالى أثر هذا ونسطره

(ذكر السلطان خسر وخان ناصر الدين)

وكان خسر وخان من أكبر أمراء قطب الدين وهو شجاع حسن الصورة وكان فتح بلاد جنديرى وبلاد المعبر وهى من أخصب بلاد الهند وبينهما وبين دهلى مسيرة ستة أشهر وكان قطب الدين يحبه حبا شديدا ويؤثره فجر ذلك حتفه على يديه وكان لقطب الدين معلم يسمى قاضى خان صدر الجهان وهو أكبر أمرائه وكليت (كليد) دار وهو صاحب مفاتيح القصر وعادته أن يبيت كل ليلة على باب السلطان ومعه أهل النوبة وهم ألف رجل يبيتون مناوبة بين أربع ليال ويكونون صفين فيما بين أبواب القصر وسلاح كل واحد منهم بين يديه فلا يدخل أحد الا فيما بين سماطيهم واذا تم الليل أتى أهل نوبة النهار ولاهل النوبة أمراء وكتاب يتطوفون عليهم ويكتبون من غاب منهم أو حضر وكان معلم السلطان قاضى خان يكره أفعال خسر وخان ويسوءه ما يراه من ايثاره لكفار الهنود وميله اليهم واصله منهم ولا يزال يلقى ذلك الى السلطان فلا يسمع منه ويقول له دعه وما يريد لما أراد الله من قتله على يديه فلما كان فى بعض الايام قال خسر وخان للسلطان انّ جماعة من الهنود يريدون أن يسلموا ومن عادتهم بتلك البلاد ان الهندى اذا أراد الاسلام أدخل الى السلطان فيكسوه كسوة حسنة ويعطيه قلادة وأساور من ذهب على قدره فقال له السلطان ائتنى بهم فقال انهم يستحيون ان يدخل اليك نهارا لاجل اقربائهم وأهل ملتهم فقال له ائتنى بهم ليلا فجمع خسر وخان جماعة من شجعان الهنود وكبرائهم فيهم أخوه خان خانان وذلك أوان الحرّ والسلطان ينام فوق سطح القصر ولا يكون عنده فى ذلك الوقت الا بعض الفتيان فلما دخلوا الابواب الاربعة وهم شاكون فى السلاح ووصلوا الى الباب الخامس وعليه قاضى خان أنكر شانهم وأحس بالشر فمنعهم من الدخول وقال لابدّ أن أسمع من خوند عالم بنفسى الاذن فى دخولهم وحينئذ يدخلون فلما منعهم من الدخول هجموا عليه فقتلوه وعلت الضجة بالباب فقال السلطان ما هذا فقال خسر وخان هم الهنود الذين أتوا ليسلموا فمنعهم قاضى خان من الدخول وزاد الضجيج فخاف السلطان وقام يريد الدخول الى القصر وكان بابه مسدودا والفتيان عنده فقرع الباب واحتضنه خسر وخان من خلفه وكان السلطان أقوى منه فصرعه ودخل الهنود فقال لهم خسر وخان هو ذا فوقى فاقتلوه فقتلوه وقطعوا رأسه ورموا به من سطح القصر الى صحنه وبعث خسر وخان

من

من حينه عن الامراء والملوك وهم لا يعلمون بما اتفق فكلما دخلت طائفة وجدوه على سرير الملك فبايعوه ولما أصبح أعلن بأمره وكتب المراسم وهى الاوامر الى جميع البلاد وبعث لكل أمير خلعة فطاعوا له جميعا واذعنوا الا تغلق شاه والد السلطان محمد شاه وكان اذ ذاك أميرا بديبال بور من بلاد السند فلما وصلته خلعة خسرو خان طرحها بالارض وجلس فوقها وبعث اليه أخاه خان خانان فهزمه ثم آل أمره الى أن قتله كما سنشرحه فى أخبار تغلق ولما ملك خسرو خان آثر الهنود وأظهر أمورا منكرة منها النهى عن ذبح البقر على قاعدة كفار الهنود فانهم لا يجيزون ذبحها وجزاء من ذبحها عندهم ان يخاط فى جلدها ويحرق وهم يعظمون البقر ويشربون ابوالها للبركة وللاستشفاء اذا مرضوا ويلطخون بيوتهم وحيطانهم بارواثها وكان ذلك مما بغض خسرو خان الى المسلمين وأمالهم عنه الى تغلق فلم تطل مدة ولايته ولا امتدت أيام ملكه كما سنذكره

(ذكر السلطان غياث الدين تغلق شاه)

(وضبط اسمه بضم التاء المعلوة وسكون الغين المعجم وضم اللام وآخره قاف) حدثنى الشيخ الامام الصالح العالم العامل العابد ركن الدين ابن الشيخ الصالح شمس الدين أبى عبد الله ابن الولى الامام العالم العابد بهاء الدين زكريا القرشى الملتانى بزاويته منها ان السلطان تغلق كان من الاتراك المعروفين بالقرونة (بفتح القاف والراء وسكون الواو وفتح النون) وهم قاطنون بالجبال التى بين بلاد السند والترك وكان ضعيف الحال فقدم بلاد السند فى خدمة بعض التجار وكان كلوانيا له والكلوانى (بضم الكاف المعقودة) هو راعى الخيل (جلوبان) وذلك على أيام السلطان علاء الدين وأمير السند اذ ذاك أخوه أولوخان (بضم الهمزة واللام) فخدمه تغلق وتعلق بجانبه فرتبه فى البيادة (بكسر الباء الموحدة وفتح الياء آخر الحروف) وهم الرجالة ثم ظهرت نجابته فأثبت فى الفرسان ثم كان من الامراء الصغار وجعله أولوخان أمير خيله ثم كان بعد من الامراء الكبار وسمى بالملك الغازى ورأيت مكتوبا على مقصورة الجامع بملتان وهو الذى أمر بعملها انى قاتلت التتر تسعا وعشرين مرة فهزمتهم فحينئذ سميت بالملك الغازى ولما ولى قطب الدين ولاه مدينة ديبال بور وعمالتها (وهى بكسر الدال المهمل وفتح الباء الموحدة) وجعل ولده الذى هو الآن سلطان الهند أمير خيله وكان يسمى جونة (بفتح الجيم والنون) ولما ملك تسمى بمحمد شاه ثم لما قتل قطب الدين وولى خسرو خان أبقاه على امارة الخيل فلما أراد تغلق الخلاف كان له ثلاثمائة من أصحابه الذين يعتمد عليهم فى القتال وكتب الى كشلوخان وهو يومئذ بملتان وبينها وبين ديبال بور ثلاثة أيام يطلب منه القيام بنصرته ويذكره نعمة قطب الدين ويحرضه على طلب ثاره

وكان ولد كشلوخان بدهلى فكتب الى تغلق انه لو كان ولدى عندى لاعنتك على ما تريد فكتب تغلق الى ولده محمد شاه يعلمه بما عزم عليه ويأمره أن يفر اليه ويستصحب معه ولد كشلوخان فادار ولده الحيلة على خسر وخان وتمت له كما أراد فقال له ان الخيل قد سمنت وتبدنت وهى تحتاج البراق وهو التضمير فأذن له فى تضميرها فكان يركب كل يوم فى أصحابه فيسير بها الساعة والساعتين والثلاث واستمر الى أربع ساعات الى أن غاب يوما الى وقت الزوال وذلك وقت طعامهم فأمر السلطان بالركوب فى طلبه فلم يوجد له خبر ولحق بأبيه واستصحب معه ولد كشلوخان وحينئذ أظهر تغلق الخلاف وجمع العساكر وخرج معه كشلوخان فى أصحابه وبعث السلطان أخاه خان خانان لقتالهما فهزماه شر هزيمة وفر عسكره اليهما ورجع خان خانان الى أخيه وقتل أصحابه وأخذت خزائنه وأمواله وقصد تغلق حضرة دهلى وخرج اليه خسر وخان فى عساكره ونزل بخارج دهلى بموضع يعرف باصيا باد (آسيا باد) ومعنى ذلك رحى الريح وأمر بالخزائن ففتحت وأعطى الاموال بالبدر لا بوزن ولا عدد ووقع اللقاء بينه وبين تغلق وقاتلت الهنود أشد قتال وانهزمت عساكر تغلق ونهبت محلته وانفرد فى أصحابه الاقدمين الثلاثمائة فقال لهم الى أين الفرار حيثما أدركنا قتلنا واشتغلت عساكر خسر وخان بالنهب وتفرقوا عنه ولم يبق معه الا قليل فقصد تغلق وأصحابه موقفه والسلطان هنالك يعرف بالشطر (چتر) الذى يرفع فوق رأسه وهو الذى يسمى بديار مصر القبة والطير ويرفع بها فى الاعياد وأما بالهند والصين فلا يفارق السلطان فى سفر ولا حضر فلما قصده تغلق وأصحابه حمى القتال بينهم وبين الهنود وانهزم أصحاب السلطان ولم يبق معه أحد وهرب فنزل عن فرسه ورمى بثيابه وسلاحه وبقى فى قميص واحد وأرسل شعره بين كتفيه كما يفعل فقراء الهند ودخل بستانا هنالك واجتمع الناس على تغلق وقصد المدينة فأتاه الكتوال بالمفاتيح ودخل القصر ونزل بناحية منه وقال لكشلوخان أنت تكون السلطان فقال كشلوخان بل أنت تكون السلطان وتنازعا فقال له كشلوخان فان أبيت أن تكون سلطانا فيتولى ولدك فكره هذا وقبل حينئذ وقعد على سرير الملك وبايعه الخاص والعام ولما كان بعد ثلاث اشتد الجوع بخسر وخان وهو مختف بالبستان فخرج وطاف به فوجد القيم فسأله طعاما فلم يكن عنده فأعطاه خاتمه وقال اذهب فأرهنه فى طعام فلما ذهب بالخاتم الى السوق أنكر الناس أمره ورفعوه الى الشحنة وهو الحاكم فأدخله على السلطان تغلق فأعلمه بمن دفع اليه الخاتم فبعث ولده محمدا ليأتى به فقبض عليه وأتاه به راكبا على تتو (بتائين مثناتين أولاهما مفتوحة والثانية مضمومة) وهو البرذون فلما مثل بين يديه قال له انى جائع فائتنى بالطعام فأمر له بالشربة ثم بالطعام

ثم

ثم بالفقاع ثم بالتنبول فلما أكل قام قائماً وقال يا تغلق أفعل معى فعل الملوك ولا تفضحنى فقال له لك ذلك وأمر به فضربت رقبته وذلك فى الموضع الذى قتل هو به قطب الدين ورمى برأسه وجسده من أعلى السطح كما فعل هو برأس قطب الدين وبعد ذلك أمر بغسله وتكفينه ودفن فى مقبرته واستقام الملك لتغلق أربعة أعوام وكان عادلا فاضلا

(ذكر ما رامه ولده من القيام عليه فلم يتم له ذلك)

ولما استقر تغلق بدار الملك بعث ولده محمداً ليفتح بلاد التلنك (وضبطها بكسر التاء المعلوة واللام وسكون النون وكاف معقود) وهى على مسيرة ثلاثة أشهر من مدينة دهلى وبعث معه عسكراً عظيماً فيه كبار الامراء مثل الملك تمور (بفتح التاء المعلوة وضم الميم وآخره راء) ومثل الملك تكين (بكسر التاء المعلوة والكاف وآخره نون) ومثل ملك كافور المهردار (بضم الميم) ومثل ملك بيرم (بالباء الموحدة مفتوحة والياء آخر الحروف والراء مفتوحة) وسواهم فلما بلغ الى أرض التلنك أراد المخالفة وكان له نديم من الفقهاء الشعراء يعرف بعبيد فأمره أن يلقى الى الناس ان السلطان تغلق توفى وظنه ان الناس يبايعونه مسرعين اذا سمعوا ذلك فلما ألقى ذلك الى الناس أنكره الامراء وضرب كل واحد منهم طبله وخالف فلم يبق معه من أحد وأرادوا قتله فنعهم منه ملك تمور وقام دونه ففر الى أبيه فى عشرة من الفرسان سماهم ياران موافق معناه الاصحاب الموافقون فأعطاه أبوه الاموال والعساكر وأمره بالعود الى التلنك فعاد اليها وعلم أبوه بما كان أراد فقتل الفقيه عبيداً وأمر بملك كافور المهردار فضرب له عمود فى الارض محدود الطرف وركز فى عنقه حتى خرج من جنبه طرفه ورأسه الى أسفل وترك على تلك الحال وفر من بقى من الامراء الى السلطان شمس الدين بن السلطان ناصر الدين بن السلطان غياث الدين بلبن واستقروا عنده

(ذكر مسير تغلق الى بلاد اللكنوتى وما اتصل بذلك الى وفاته)

وأقام الامراء الهاربون عند السلطان شمس الدين ثم ان شمس الدين توفى وعهد لولده شهاب الدين فجلس مجلس أبيه ثم غلب عليه أخوه الاصغر غياث الدين بهادور بوره ومعناه بالهندية الاسود واستولى على الملك وقتل أخاه قطلوخان وسائر اخوته وفر شهاب الدين وناصر الدين منهم الى تغلق فتجهز معهما بنفسه لقتال أخيهما وخلف ولده محمداً نائباً عنه فى ملكه وجد السير الى بلاد اللكنوتى فتغلب عليها وأسر سلطانها غياث الدين بهادور وقدم به أسيرا الى حضرته وكان بمدينة دهلى الولى نظام الدين البذاونى ولا يزال محمد شاه ابن السلطان يتردد اليه ويعظم خدامه ويسأله الدعاء وكان يأخذ الشيخ حال تغلب عليه فقال ابن السلطان لخدامه اذا كان الشيخ فى حالة التى تغلب عليه فاعلمونى بذلك فلما أخذته

الحال اعلموه فدخل عليه فلما رآه الشيخ قال وهبناله الملك ثم توفى الشيخ فى أيام غيبة السلطان فحمل ابنه محمد نعشه على كاهله فبلغ ذلك أباه فانكره وتوعده وكان قد رابته منه أمور ونقم عليه استكثاره من شراء المماليك واجزاله العطايا واستجلابه قلوب الناس فزاد حنقه عليه وبلغه ان المنجمين زعموا انه لا يدخل مدينة دهلى بعد سفره ذلك فيتوعدهم ولما عاد من سفره وقرب من الحضرة أمر ولده أن يبنى له قصرا وهم يسمونه الكشك (بضم الكاف وشين معجم مسكن) على واد هنالك يسمى افغان بور فبناه فى ثلاثة أيام وجعل أكثر بنائه بالخشب مرتفعا على الارض قائما على سوارى خشب وأحكمه بهندسة تولى النظر فيها الملك زاده المعروف بعد ذلك بخواجة جهان واسمه أحمد بن اياس كبير وزراء السلطان محمد وكان اذ ذاك شحنة العمارة وكانت الحكمة التى اخترعوها فيه انه متى وطئت الفيلة جهة منه وقع ذلك القصر وسقط ونزل السلطان بالقصر واطعم الناس وتفرقوا واستأذنه ولده فى ان يعرض الفيلة بين يديه وهى مزينة فأذن له وحدثنى الشيخ ركن الدين انه كان يومئذ مع السلطان ومعهما ولد السلطان المؤثر لديه محمود فجاء محمد بن السلطان فقال للشيخ يا خوند هذا وقت العصر انزل فصل قال لى الشيخ فنزلت وأتى بالافيال من جهة واحدة حسبما دبروه فلما وطئتها سقط الكشك على السلطان وولده محمود قال الشيخ فسمعت الضجة فعدت ولم أصل فوجدت الكشك قد سقط فأمر ابنه أن يؤتى بالفوس والمساحى للحفر عنه وأشار بالابطاء فلم يؤت بهما الا وقد غربت الشمس فحفروا ووجدوا السلطان قد حنا ظهره على ولده ليقيه الموت فزعم بعضهم انه أخرج ميتا وزعم بعضهم انه أخرج حيا فأجهز عليه وحمل ليلا الى مقبرته التى بناها بخارج البلدة المسماة باسمه تغلق اباد فدفن بها وقد ذكرنا السبب فى بنائه لهذه المدينة وبها كانت خزائن تغلق وقصوره وبها القصر الاعظم الذى جعل قراميده مذهبة فاذا طلعت الشمس كان لها نور عظيم وبصيص يمنع البصر من ادامة النظر اليها واختزن بها الاموال الكثيرة ويذكر انه بنى صهريجا وأفرغ فيه الذهب افراغا فكان قطعة واحدة فصرف جميع ذلك ولده محمد شاه لما ولى وبسبب ما ذكرناه من هندسة الوزير خواجه جهان فى بناء الكشك الذى سقط على تغلق كانت حظوته عند ولده محمد شاه وايثاره لديه فلم يكن أحد يدانيه فى المنزلة لديه ولا يبلغ مرتبته عنده من الوزراء ولا غيرهم

(ذكر السلطان أبى المجاهد محمد شاه بن السلطان غياث الدين تغلق شاه ملك الهند والسند الذى قدمنا عليه)

ولما مات السلطان تغلق استولى ابنه محمد على الملك من غير منازع له ولا مخالف عليه

وقد

وقد قدّمنا انه كان اسمه جونة فلما ملك تسمى بمحمد واكتنى بأبى المجاهد وكل ماذكرت من شأن سلاطين الهند فهو مما أخبرت به وتلقيته أو معظمه من الشيخ كمال الدين بن البرهان الغزنوى قاضى القضاة وأما أخبار هذا الملك فعظمها مما شاهدته أيام كونى ببلاده

(ذكر وصفه)

وهذا الملك احب الناس فى أسداء العطايا واراقة الدماء فلا يخلو بابه عن فقير يغنى أوحى يقتل وقد شهرت فى الناس حكاياته فى الكرم والشجاعة وحكاياته فى الفتك والبطش بذوى الجنايات وهو أشد الناس مع ذلك تواضعا وأكثرهم اظهارا للعدل والحق وشعائر الدين عنده محفوظة وله اشتداد فى أمر الصلاة والعقوبة على تركها وهو من الملوك الذين اطردت سعادتهم وخرق المعتاد يمن نقيبتهم ولكن الاغلب عليه الكرم وسنذكر من أخباره فى عجائب لم يسمع بمثلها عمن تقدمه وأنا أشهد بالله وملائكته ورسله ان جميع ما أنقله عنه من الكرم الخارق للعادة حق يقين وكفى بالله شهيدا واعلم ان بعض ما آثره من ذلك لا يسع فى عقل كثير من الناس ويعدونه من قبيل المستحيل عادة ولكنه شيئا عاينته وعرفت صحته وأخذت بحظ وافر منه لا يسعنى الاقول الحق فيه وأكثر ذلك ثابت بالتواتر فى بلاد المشرق

(ذكر أبوابه ومشوره وترتيب ذلك)

ودار السلطان بدهلى تسمى دار سرا (بفتح السين المهمل والراء) ولها أبواب كثيرة فأما الباب الاوّل فعليه جملة من الرجال موكلون به ويقعد به أهل الانفار والابواق والصرنايات فاذا جاء أمير أو كبير ضربوها ويقولون فى ضربهم جاء فلان جاء فلان وكذلك أيضا فى البابين الثانى والثالث وبخارج الباب الاول دكاكين يقعد عليها الجلادون وهم الذين يقتلون الناس فان العادة عندهم انه متى أمر السلطان بقتل أحد قتل على باب المشور ويبقى هنالك ثلاثا وبين البابين الاول والثانى دهليز كبير فيه دكاكين مبنية من جهتيه يقعد عليها أهل النوبة من حفاظ الابواب وأما الباب الثانى فيقعد عليه البوّابون الموكلون به وبينه وبين الباب الثالث دكانة كبيرة يقعد عليها نقيب النقباء وبين يديه عمود ذهب يمسكه بيده وعلى رأسه كلاه من الذهب مجوهرة فى أعلاها ريش الطواويس والنقباء بين يديه على رأس كل واحد منهم شاشية مذهبة وفى وسطه منطقة وبيده سوط نصابه من ذهب أو فضة ويفضى هذا الباب الثانى الى مشور كبير متسع يقعد به الناس وأما الباب الثالث فعليه دكاكين يقعد فيها كتاب الباب ومن عوائدهم أن لا يدخل على هذا الباب أحد الا من عينه السلطان لذلك ويعين لكل انسان عددا من أصحابه وناسه يدخلون معه

وكل من يأتي الى هذا الباب يكتب الكتاب ان فلانا جاء في الساعة الاولى او الثانية أوما بعدهما من الساعات الى آخر النهار ويطالع السلطان بذلك بعد العشاء الآخرة ويكتبون أيضا بكل ما يحدث بالباب من الامور وقد عين من أبناء الملوك من يوصل كل ما يكتبونه الى السلطان ومن عوائدهم أيضا انه من غاب عن دار السلطان ثلاثة أيام فصاعدا لعذر أو لغير عذر فلا يدخل هذا الباب بعدها الا باذن من السلطان فان كان له عذر من مرض أو غيره قدم بين يديه هدية مما يناسبه اهداؤها الى السلطان وكذلك أيضا القادمون من الاسفار فالفقيه يهدى المصحف والكتاب وشبهه والفقير يهدى المصلى والسبحة والمسواك ونحوها والامراء ومن أشبههم يهدون الخيل والجمال والسلاح وهذا الباب الثالث يفضى الى المشور الهائل الفسيح الساحة المسمى هزار اسطون (بفتح الهاء والزاى وألف وراء) ومعنى ذلك ألف سارية وهو سوارى من خشب مدهونة عليها سقف خشب منقوشة أبدع نقش يجلس الناس تحتها وبهذا المشور يجلس السلطان الجلوس العام

(ذكر ترتيب جلوسه للناس)

وأكثر جلوسه بعد العصر وربما جلس أول النهار وجلوسه على مصطبة مفروشة بالبياض فوقها مرتبة ويجعل خلف ظهره مخدة كبيرة وعن يمينه متكأ وعن يساره مثل ذلك وقعوده كجلوس الانسان للتشهد في الصلاة وهو جلوس أهل الهند كلهم فاذا جلس وقف أمامه الوزير ووقف الكتاب خلف الوزير وخلفهم الحجاب وكبير الحجاب هو فيروز ملك ابن عم السلطان ونائبه وهو أدنى الحجاب من السلطان ثم يتلوه خاص حاجب ثم يتلوه نائب خاص حاجب ووكيل الدار ونائبه وشرف الحجاب وسيد الحجاب وجماعة تحت أيديهم ثم يتلوا الحجاب النقباء وهم نحو مائة وعند جلوس السلطان ينادى الحجاب والنقباء بأعلى أصواتهم بسم الله ثم يقف على رأس السلطان الملك الكبير قبوله وبيده المذبة يشرد بها الذباب ويقف مائة من السلحدارية عن يمين السلطان ومثلهم عن يساره بأيديهم الدرق والسيوف والقسى ويقف في الميمنة والميسرة بطول المشور قاضى القضاة ويليه خطيب الخطباء ثم سائر القضاة ثم كبار الفقهاء ثم كبار الشرفاء ثم المشايخ ثم اخوة السلطان واصهاره ثم الامراء الكبار ثم كبار الاعزة وهم الغرباء ثم القواد ثم يؤتى بستين فرسا مسرجة ملجمة بجهازات سلطانية فمنها ما هو بشعار الخلافة وهى التى لجمها ودوائرها من الحرير الاسود المذهب ومنها ما يكون ذلك من الحرير الابيض المذهب ولا يركب بذلك غير السلطان فيوقف النصف من هذه الخيل عن اليمين والنصف عن الشمال بحيث يراها السلطان ثم يؤتى بخمسين فيلا مزينة بثياب الحرير والذهب مكسوة أنيابها بالحديد اعدادا لقتل أهل الجرائم

وعلى عنق كل فيل فياله وبيده شبه الطبرزين من الحديد يؤدّبه به ويقوّمه لما يراد منه وعلى ظهر كل فيل شبه الصندوق العظيم يسع عشرين من المقاتلة وأكثر من ذلك ودونه على حسب ضخامة الفيل وعظم جرمه ويكون فى اركان ذلك الصندوق أربعة أعلام مركوزة وتلك الفيلة معلمة أن تخدم السلطان وتحط رؤسها فاذا خدمت قال الحجاب بسم الله باصوات عالية ويوقف أيضا نصفها عن اليمين ونصفها عن الشمال خلف الرجال الواقفين وكل من يأتى من الناس المعينين للوقوف فى الميمنة أو الميسرة يخدم عند موقف الحجاب ويقول الحجاب بسم الله ويكون ارتفاع أصواتهم بقدر ارتفاع صيت الذى يخدم فاذا خدم انصرف الى موقفه من الميمنة او الميسرة لا يتعداه أبدا ومن كان من كفار الهنود يخدم ويقول له الحجاب والنقباء هداك الله ويقف عبيد السلطان من وراء الناس كلهم بأيديهم الترسة والسيوف فلا يمكن أحدا الدخول بينهم الا بين يدى الحجاب القائمين بين يدى السلطان

(ذكر دخول الغرباء وأصحاب الهدايا اليه)

وان كان بالباب أحد ممن قدم على السلطان بهدية دخل الحجاب الى السلطان على ترتيبهم يقدمهم أمير حاجب ونائبه خلفه ثم خاص حاجب ونائبه خلفه ثم وكيل الدار ونائبه خلفه ثم سيد الحجاب وشرف الحجاب ويخدمون فى ثلاثة مواضع ويعلمون السلطان بمن فى الباب فاذا أمرهم أن يأتوا به جعلوا الهدية التى ساقها بأيدى الرجال يقومون بها امام الناس بحيث يراها السلطان ويستدعى صاحبها فيخدم قبل الوصول الى السلطان ثلاث مرات ثم يخدم عند موقف الحجاب فان كان رجلا كبيرا وقف فى صف أمير حاجب والا وقف خلفه ويخاطبه السلطان بنفسه ألطف خطاب ويرحب به وان كان ممن يستحق التعظيم فانه يصافحه أو يعانقه ويطلب بعض هديته فتحضر بين يديه فان كانت من السلاح أو الثياب قلبها بيده وأظهر استحسانها جبرا لخاطر مهديها وايناساله ورفقا به وخلع عليه وأمر له بمال لغسل رأسه على عادتهم فى ذلك بمقدار ما يستحقه المهدى

(ذكر دخول هدايا عماله اليه)

واذا أتى العمال بالهدايا والاموال المجتمعة من مجابى البلاد صنعوا الاوانى من الذهب والفضة مثل الطسوت والاباريق وسواها وصنعوا من الذهب والفضة قطعا شبه الآجر يسمونها الخشت (بكسر الخاء المعجمة وسكون الشين المعجم وتاء معلوة) ويقف الفراشون وهم عبيد السلطان صفا والهدية بأيديهم كل واحد منهم ممسك قطعة ثم يقدم الفيلة ان كان فى الهدية شئ منها ثم الخيل المسرجة الملجمة ثم البغال ثم الجمال عليها الاموال ولقد رأيت الوزير خواجه جهان قدّم هديته ذات يوم حين قدم السلطان من دولة آباد ولقيه بها فى ظاهر مدينة

بيانة فأدخلت الهدية اليه على هذه الترتيب ورأيت في جملتها صينية مملوءة باحجار الياقوت وصينية مملوءة باحجار الزمرد وصينية مملوءة باللؤلؤ الفاخر وكان حاجى كاون ابن عم السلطان أبي سعيد ملك العراق حاضرا عنده حين ذلك فأعطاه حظا منها وسيذكر ذلك فيما بعد ان شاء الله تعالى

(ذكر خروجه للعيدين وما يتصل بذلك)

واذا كانت ليلة العيد بعث السلطان الى الملوك والخواص وأرباب الدولة والاعزة والكتاب والحجاب والنقباء والقواد والعبيد وأهل الاخبار الخلع التى تعمهم جميعا فاذا كانت صبيحة العيد زينت الفيلة كلها بالحرير والذهب والجواهر ويكون منها ستة عشر فيلا لا يركبها أحد انما هي مختصة بركوب السلطان ويرفع عليها ستة عشر شطرا (چترا) من الحرير مرصعة بالجوهر قائمة كل شطر منها ذهب خالص وعلى كل فيل مرتبة حرير مرصعة بالجواهر ويركب السلطان فيلا منها وترفع امامه الغاشية وهي ستارة سرجه وتكون مرصعة بأنفس الجواهر ويمشى بين يديه عبيده ومماليكه وكل واحد منهم تكون على رأسه شاشية ذهب وعلى وسطه منطقة ذهب وبعضهم يرصعها بالجوهر ويمشى بين يديه أيضا النقباء وهم نحو ثلثمائة وعلى رأس كل واحد منهم اقروف ذهب وعلى وسطه منطقة ذهب وفي يده مقرعة نصابها ذهب ويركب قاضي القضاة صدر الجهان كمال الدين الغزنوى وقاضى القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمى وسائر القضاة وكبار الاعزة من الخراسانيين والعراقيين والشاميين والمصريين والمغاربة كل واحد منهم على فيل وجميع الغرباء عندهم يسمون الخراسانيين ويركب المؤذنون أيضا على الفيلة وهم يكبرون ويخرج السلطان من باب القصر على هذا الترتيب والعساكر تنتظره كل أمير بفوجه على حدة معه طبوله واعلامه فيقدم السلطان وامامه من ذكرناه من المشاة وامامهم القضاة والمؤذنون يذكرون الله تعالى وخلف السلطان مراتبه وهي الاعلام والطبول والابواق والانفار والصرنايات وخلفهم جميع أهل دخلته ثم يتلوهم أخو السلطان مبارك خان بمراتبه وعساكره ثم يليه ابن أخ السلطان بهرام خان بمراتبه وعساكره ثم يليه ابن عمه ملك فيروز بمراتبه وعساكره ثم يليه الوزير بمراتبه وعساكره ثم يليه الملك مجير بن ذى الرجا بمراتبه وعساكره ثم يليه الملك الكبير قبولة بمراتبه وعساكره وهذا الملك كبير القدر عنده عظيم الجاه كثير المال اخبرني صاحب ديوانه ثقة الملك علاء الدين على المصرى المعروف بابن الشرابشي ان نفقته ونفقة عبيده ومرتباتهم ستة وثلاثون لكا في السنة ثم يليه الملك نكبية بمراتبه وعساكره ثم يليه الملك بغرة بمراتبه وعساكره ثم يليه الملك مخلص بمراتبه وعساكره ثم يليه الملك

قطب

قطب الملك بمراتبه وعساكره وهؤلاء هم الامراء الكبار الذين لا يفارقون السلطان وهم الذين يركبون معه يوم العيد بالمراتب ويركب غيرهم من الامراء دون مراتب وجميع من يركب في ذلك اليوم يكون مدرعا هو وفرسه وأكثرهم مماليك السلطان فاذا وصل السلطان الى باب المصلى وقف على بابه وأمر بدخول القضاة وكبار الامراء وكبار الاعزة ثم نزل السلطان ويصلى الامام ويخطب فان كان عيد الاضحى أتى السلطان بجمل فنحره برمح يسمونه النيزة (بكسر النون وفتح الزاى) بعد ان يجعل على ثيابه فوطة حرير توقيا من الدم ثم يركب الفيل ويعود الى قصره

(ذكر جلوسه يوم العيد وذكر السرير الاعظم والمجمرة العظمى)

ويفرش القصر يوم العيد ويزين بأبدع الزينة وتضرب الباركة على المشور كله وهى شبه خيمة عظيمة تقوم على أعمدة ضخام كثيرة وتحفها القباب من كل ناحية ويصنع شبه أشجار من حرير ملون فيها شبه الازهار ويجعل منها ثلاثة صفوف بالمشور ويجعل بين كل شجرتين كرسى ذهب عليه مرتبة مغطاة وينصب السرير الاعظم فى صدر المشور وهو من الذهب الخالص كله مرصع القوائم بالجواهر وطوله ثلاثة وعشرون شبرا وعرضه نحو النصف من ذلك وهو منفصل وتجمع قطعه فتتصل وكل قطعة منه يحملها جملة رجال لثقل الذهب وتجعل فوقه المرتبة ويرفع الشطر المرصع بالجواهر على رأس السلطان وعندما يصعد على السرير ينادى الحجاب والنقباء بأصوات عالية بسم الله ثم يتقدم الناس للسلام فأولهم القضاة والخطباء والعلماء والشرفاء والمشايخ واخوة السلطان وأقاربه وأصهاره ثم الاعزة ثم الوزير ثم أمراء العساكر ثم شيوخ المماليك ثم كبار الاجناد يسلم واحد أثر واحد من غير تزاحم ولا تدافع ومن عوائدهم فى يوم العيد ان كل من بيده قرية منعم بها عليه يأتى بدنانير ذهب مصرورة فى خرقة مكتوبا عليها اسمه فيلقيها فى طست ذهب هنالك فيجتمع منها مال عظيم يعطيه السلطان لمن شاء فاذا فرغ الناس من السلام وضع لهم الطعام على حسب مراتبهم وينصب فى ذلك اليوم المجمرة العظمى وهى شبه برج من خالص الذهب منفصلة فاذا أرادوا اتصالها وصلوها وتحمل القطعة الواحدة منها جملة من الرجال وفى داخلها ثلاثة بيوت يدخل فيها المجمرون يوقدون العود القمارى والقاقلى والعنبر الاشهب والجاوى حتى يعم دخانها المشور كله ويكون بأيدى الفتيان براميل الذهب والفضة مملوءة بماء الورد وماء الزهر يصبونه على الناس صبا وهذا السرير وهذه المجمرة لا يخرجان الا فى العيدين خاصة ويجلس السلطان فى بقية أيام العيد على سرير ذهب دون ذلك وتنصب باركة بعيدة لها ثلاثة أبواب يجلس السلطان فى داخلها ويقف على الباب الاول منها عماد الملك سرتيز

وعلى الباب الثانى الملك نكبية وعلى الباب الثالث يوسف بغرة ويقف على اليمين امراء المماليك السلحدارية وعن اليسار كذلك ويقف الناس على مراتبهم وشحنة البارگاه ملك طغى بيده عصى ذهب وبيد نائبه عصى فضة يرتبان الناس ويسوّيان الصفوف ويقف الوزير والكتّاب خلفه ويقف الحجاب والنقباء ثم يأتى أهل الطرب فأوّلهم بنات الملوك الكفار من الهنود المسبيات فى تلك السنة فيغنين ويرقصن ويهبهن السلطان للامراء والاعزة ثم يأتى بعدهنّ سائر بنات الكفار فيغنين ويرقصن ويهبهن لاخوانه وأقاربه واصهاره وأبناء الملوك ويكون جلوس السلطان لذلك بعد العصر ثم يجلس فى اليوم الذى بعده بعد العصر أيضا على ذلك الترتيب ويؤتى بالمغنيات فيغنين ويرقصن ويهبهنّ لامراء المماليك وفى اليوم الثالث يزوج أقاربه وينعم عليهم وفى اليوم الرابع يعتق العبيد وفى اليوم الخامس يعتق الجوارى وفى اليوم السادس يزوّج العبيد بالجوارى وفى اليوم السابع يعطى الصدقات ويكثر منها

(ذكر ترتيبه اذا قدم من سفره)

واذا قدم السلطان من أسفاره زينت الفيلة ورفعت على ستة عشر فيلا منها ستة عشر شطرا منها مزركش ومنها مرصع وحملت امامه الغاشية وهى الستارة المرصعة بالجوهر النفيس وتصنع قباب من الخشب مقسومة على طبقات وتكسى بثياب الحرير ويكون فى كل طبقة الجوارى المغنيات عليهنّ أجمل لباس وأحسن حلية ومنهنّ راقص ويجعل فى وسط كل قبة حوض كبير مصنوع من الجلود مملوء بماء الجلاب محلولا بالماء يشرب منه جميع الناس من وارد وصادر وبلدى أو غريب وكل من يشرب منه يعطى التنبول والفوفل ويكون ما بين القباب مفروشا بثياب الحرير يطأ عليها مركب السلطان وتزين حيطان الشارع الذى يمرّ به من باب المدينة الى باب القصر بثياب الحرير ويمشى امامه المشاة من عبيده وهم آلاف وتكون الافواج والعساكر خلفه ورأيته فى بعض قدماته على الحضرة وقد نصبت ثلاث أو أربع من الرعادات الصغار على الفيلة ترمى بالدنانير والدراهم على الناس فيلتقطونها من حين دخوله الى المدينة حتى وصل الى قصره

(ذكر ترتيب الطعام الخاص)

والطعام بدار السلطان على صنفين طعام الخاص وطعام العام فأما الخاص فهو طعام السلطان الذى يأكل منه وعادته أن يأكل فى مجلسه مع الحاضرين ويحضر لذلك الامراء الخواص وأمير حاجب ابن عم السلطان وعماد الملك سرتيز وأمير مجلس ومن شاء السلطان تشريفه أو تكريمه من الاعزة أو كبار الامراء دعاه فأكل معهم وربما أراد ايضا تشريف

أحد

أحد من الحاضرين فأخذ احدى الصحاف بيده وجعل عليها خبزة ويعطيه اياها فيأخذها المعطى و يجعلها على كفه اليسرى ويخدم بيده اليمنى الى الارض وربما بعث من ذلك الطعام الى من هو غائب عن المجلس فيخدم كما يصنع الحاضر ويأكله مع من حضره وقد حضرت مرات لهذا الطعام الخاص فرأيت جملة الذين يحضرون له نحو عشرين رجلا

(ذكر ترتيب الطعام العام)

وأما الطعام العام فيؤتى به من المطبخ وامامه النقباء يصيحون بسم الله ونقيب النقباء امامهم بيده عمود ذهب ونائبه معه بيده عمود فضة فاذا دخلوا من الباب الرابع وسمع من بالمشور اصواتهم قاموا قياما أجمعين ولا يبقى أحد قاعدا الا السلطان وحده فاذا وضع الطعام بالارض اصطف النقباء صفا و وقف أميرهم امامهم وتكلم بكلام يمدح فيه السلطان ويثنى عليه ثم يخدم و يخدم النقباء لخدمته ويخدم جميع من بالمشور من كبير وصغير وعادتهم انه من سمع كلام نقيب النقباء حين ذلك وقف ان كان ماشيا ولزم موقفه ان كان واقفا ولا يتحرك أحد ولا يتزحزح عن مقامه حتى يفرغ ذلك الكلام ثم يتكلم أيضا نائبه كلاما نحو ذلك ويخدم ويخدم النقباء وجميع الناس مرة ثانية وحينئذ يجلسون ويكتب كتاب الباب معرفين بحضور الطعام وان كان السلطان قد علم بحضوره و يعطى المكتوب لصبى من ابناء الملوك موكل بذلك فيأتى به الى السلطان فاذا قرأه عين من شاء من كبار الامراء لترتيب الناس واطعامهم وطعامهم الرقاق والشواء والاقراص ذات الجوانب المملوءة بالحلواء والارز والدجاج والسمك وقد ذكرنا ذلك وفسرنا ترتيبه وعادتهم ان يكون فى صدر سماط الطعام القضاة والخطباء والفقهاء والشرفاء والمشايخ ثم أقارب السلطان ثم الامراء الكبار ثم سائر الناس ولا يقعد أحد الا فى موضع معين له فلا يكون بينهم تزاحم البتة فاذا جلسوا اتى الشربدارية وهم السقاة بأيديهم أوانى الذهب والفضة والنحاس والزجاج مملوءة بالنبات المحلول بالماء فيشربون ذلك قبل الطعام فاذا شربوا قال الحجاب بسم الله ثم يشرعون فى الاكل ويجعل امام كل انسان من جميع ما يحتوى عليه السماط يأكل منه وحده ولا يأكل أحد مع أحد فى صحفة واحدة فاذا فرغوا من الاكل أتوا بالفقاع فى أكواز القصدير فاذا أخذوه قال الحجاب بسم الله ثم يؤتى باطباق التنبول والفوفل فيعطى كل انسان غرفة من الفوفل المهشوم وخمس عشرة ورقة من التنبول مجموعة مربوطة بخيط حرير أحمر فاذا أخذ الناس التنبول قال الحجاب بسم الله فيقومون جميعا و يخدم الامير المعين للاطعام ويخدمون لخدمته ثم ينصرفون وطعامهم مرتان فى اليوم احداهما قبل الظهر والاخرى بعد العصر

(ذكر بعض أخباره في الجود والكرم)

وانما أذكر منها ما حضرته وشاهدته وعاينته ويعلم الله تعالى صدق ما أقول وكفى به شهيدا مع ان الذي أحكيه مستفيض متواتر والبلاد التي تقرب من أرض الهند كاليمن وخراسان وفارس مملوءة بأخباره يعلمونها حقيقة ولاسيما جوده على الغرباء فانه يفضلهم على أهل الهند ويؤثرهم ويجزل لهم الاحسان ويسبغ عليهم الانعام ويوليهم الخطط الرفيعة ويوليهم المواهب العظيمة ومن احسانه اليهم ان سماهم الاعزة ومنع من ان يدعوا الغرباء وقال ان الانسان اذا دعى غريبا انكسر خاطره وتغير حاله وسأذكر بعضا مما لايحصى من عطاياه الجزيلة ومواهبه ان شاء الله تعالى

(ذكر عطائه لشهاب الدين الكازروني التاجر وحكايته)

كان شهاب الدين هذا صديقا لملك التجار الكازروني الملقب بيرويز وكان السلطان قد أقطع ملك التجار مدينة كنباية ووعده أن يوليه الوزارة فبعث الى صديقه شهاب الدين ليقدم عليه فأتاه وأعد هدية للسلطان وهي سراجة من الملف المقطوع المزين بورقة الذهب وصيوان مما يناسبها وخباء وتابع وخباء راحة كل ذلك من الملف المزين وبغال كثيرة فلما قدم شهاب الدين بهذه الهدية على صاحبه ملك التجار وجده أخذا في القدوم على الحضرة بما اجتمع عنده من مجابي بلاده وبهدية للسلطان وعلم الوزير خواجه جهان بما وعده به السلطان من ولاية الوزارة فغار من ذلك وقلق بسببه وكانت بلاد كنباية والجزرات قبل تلك المدة في ولاية الوزير ولاهلها تعلق بجانبه وانقطاع اليه وتخدم له وأكثرهم كفار وبعضهم عصاة يمتنعون بالجبال فدس الوزير اليهم أن يضربوا على ملك التجار اذا خرج الى الحضرة فلما خرج بالخزائن والاموال ومعه شهاب الدين بهديته نزلوا يوما عند الضحى على عادتهم وتفرقت العساكر ونام أكثرهم فضرب عليهم الكفار في جمع عظيم فقتلوا ملك التجار وسلبوا الاموال والخزائن وهدية شهاب الدين ونجا هو بنفسه وكتب المخبرون الى السلطان بذلك فأمر أن يعطى شهاب الدين من مجبى بلاد نهروالة ثلاثين ألف دينار ويعود الى بلاده فعرض عليه ذلك فأبى من قبوله وقال ماقصدي الا رؤية السلطان وتقبيل الارض بين يديه فكتبوا الى السلطان بذلك فأعجبه قوله وأمر بوصوله الى الحضرة مكرما وصادف يوم دخوله على السلطان يوم دخولنا نحن عليه فخلع علينا جميعا وأمر بانزالنا واعطى شهاب الدين عطاء جزلا فلما كان بعد ذلك أمر لي السلطان بستة آلاف تنكه كما سنذكره وسأل في ذلك اليوم عن شهاب الدين ابن هو فقال له بهاء الدين ابن الفلكي ياخوند عالم نميدانم معناه ماندري ثم قال له شنيدم زحمت داره (دارد) معناه سمعت ان به مرضا

فقال

فقال له السلطان بر وهمين زمان درخزانة يك لك تنكه زر بكرى او بيش أو ببرى تادل اوخش (خوش) شود معناه امش الساعة الى الخزانة وخذ منها مائة ألف تنكة من الذهب واحملها اليه حتى يبقى خاطره طيبا ففعل ذلك فأعطاه اياها وأمر السلطان أن يشترى بها ما أحب من السلع الهندية ولا يشترى أحد من الناس شيئا حتى يتجهز هو وأمر له بثلاثة مراكب مجهزة من آلاتها ومن مرتب البحرية وزادهم ليسافر فيها فسافر ونزل بجزيرة هرمز وبنى بها دارا عظيمة رأيتها بعد ذلك ورأيت أيضا شهاب الدين وقد فنى جميع ما كان عنده وهو بشيراز يستجدى سلطانها أبا اسحاق وهكذا مال هذه البلاد الهندية قلما يخرج أحد به منها الا النادر واذا خرج به ووصل الى غيرها من البلاد بعث الله عليه آفة تفنى ما بيده كمثل ما اتفق لشهاب الدين هذا فانه أخذ له فى الفتنة التى كانت بين ملك هرمز وابنى أخيه جميع ما عنده وخرج سليبا من ماله

❊(ذكر عطائه لشيخ الشيوخ ركن الدين)❊

وكان السلطان قد بعث هدية الى الخليفة بديار مصر أبى العباس وطلب منه ان يبعث له أمر التقدمة على بلاد الهند والسند اعتقادا منه فى الخلافة فبعث اليه الخليفة أبو العباس ما طلبه مع شيخ الشيوخ بديار مصر ركن الدين فلما قدم عليه بالغ فى اكرامه واعطاه عطاء جزلا وكان يقوم له متى دخل عليه ويعظمه ثم صرفه واعطاه أموالا طائلة وفى جملة ما أعطاه جملة من صفائح الخيل ومساميرها كل ذلك من الذهب الخالص وقال له اذا نزلت من البحر فانعل افراسك بها فتوجه الى كنباية ليركب البحر منها الى بلاد اليمن فوقعت قضية خروج القاضى جلال الدين وأخذه مال ابن الكولمى فأخذ أيضا ما كان لشيخ الشيوخ وفر بنفسه مع ابن الكولمى الى السلطان فلما رآه السلطان قال له ممازحا آمدى كزر (كه زر) برى بادكرى (دلرباى) صنم خرى زرنبرى وسرنهى معناه جئت لتحمل الذهب تأكله مع الصور الحسان فلا تحمل ذهبا ورأسك تخليه ههنا قال له ذلك على معنى الانبساط ثم قال له اجمع خاطرك فها أنا سائر الى المخالفين وأعطيك اضعاف ما أخذوه لك وبلغنى بعد الانفصال عن بلاد الهند انه وفى له بما وعده واخلف له جميع ما ضاع منه وانه وصل بذلك الى ديار مصر

❊(ذكر عطائه للواعظ الترمذى ناصر الدين)❊

وكان هذا الفقيه الواعظ قدم على السلطان وأقام تحت احسانه مدة عام ثم أحب الرجوع الى وطنه فأذن له فى ذلك ولم يكن سمع كلامه ووعظه فلما خرج السلطان يقصد بلاد المعبر أحب سماعه قبل انصرافه فأمر أن يهيأ له منبر من الصندل الابيض المقاصرى وجعلت مساميره وصفائحه من الذهب وألصق باعلاه حجر ياقوت عظيم وخلع على

ناصر الدين خلعة عباسية سوداء مذهبة مرصعة بالجوهر وعمامة مثلها ونصب له المنبر بداخل السراجة وهي افراج وقعد السلطان على سريره والخواص عن يمينه ويساره وأخذ القضاة والفقهاء والامراء مجالسهم فخطب خطبة بليغة ووعظ وذكر ولم يكن فيما فعله طائل لكن سعادته ساعدته فلما نزل عن المنبر قام السلطان اليه وعانقه وأركبه على فيل وأمر جميع من حضر أن يمشوا بين يديه وكنت في جملتهم الى سراجة ضربت له مقابلة سراجة السلطان جميعها من الحرير الملون وصيوانها من الحرير وخباؤها أيضا كذلك فجلس وجلسنا معه وكان بجانب من السراجة أواني الذهب التي أعطاه السلطان اياها وذلك تنور كبير بحيث يسع في جوفه الرجل القاعد وقدران اثنان وصحاف لا أذكر عددها وجملة كواز وركوة وتميسندة ومائدة لها أربعة أرجل ومحمل للكتب كل ذلك من ذهب خالص ورفع عماد الدين السمناني وتدين من أوتاد السراجة أحدهما نحاس والآخر مقصدر يوهم بذلك انهما من ذهب وفضة ولم يكونا الا كما ذكرنا وقد كان أعطاه حين قدومه مائة ألف دينار دراهم ومئين من العبيد سرّح بعضهم وحمل بعضهم

❋(ذكر عطائه لعبد العزيز الاردويلي)❋

وكان عبد العزيز هذا فقيها محدثا قرأ بدمشق على تقي الدين ابن تيمية وبرهان الدين ابن البركح وجمال الدين المزي وشمس الدين الذهبي وغيرهم ثم قدم على السلطان فاحسن اليه واكرمه واتفق يوما انه سرد عليه أحاديث في فضل العباس وابنه رضي الله عنهما وشيئا من مآثر الخلفاء أولادهما فأعجب ذلك السلطان لحبه في بني العباس وقبل قدمي الفقيه وأمر أن يؤتى بصينية ذهب فيها الفاتنكه فصبها عليه بيده وقال هي لك مع الصينية وقد ذكرنا هذه الحكاية فيما تقدم

❋(ذكر عطائه لشمس الدين الاندكاني)❋

وكان الفقيه شمس الدين الاندكاني حكيما شاعرا مطبوعا فمدح السلطان بقصيدة باللسان الفارسي وكان عدد أبياتها سبعة وعشرين بيتا فاعطاه لكل بيت منها ألف دينار دراهم وهذا أعظم مما يحكى عن المتقدمين الذين كانوا يعطون على بيت شعر ألف درهم وهو عشر عطاء السلطان

❋(ذكر عطائه لعضد الدين الشونكاري)❋

وكان عضد الدين فقيها اماما فاضلا كبير القدر عظيم الصيت شهير الذكر ببلاده فبلغت السلطان أخباره وسمع بمآثره فبعث اليه الى بلده شونكارة عشرة آلاف دينار دراهم ولم يره قط ولا وفد عليه

❋(

﴿ذكر عطائه للقاضى مجد الدين﴾

ولما بلغه أيضا خبر القاضى العالم الصالح ذى الكرامة الشهيرة مجد الدين قاضى شيراز الذى سطرنا أخباره فى السفر الاول وسيمر بعض خبره بعد هذا أيضا بعث اليه الى مدينة شيراز صحبة الشيخ زاده الدمشقى عشرة آلاف دينار دراهم

﴿ذكر عطائه لبرهان الدين الصاغرجى﴾

وكان برهان الدين أحد الوعاظ الائمة كثير الايثار باذلا لما يملكه حتى انه كثيرا ما يأخذ الديون ويؤثر على الناس فبلغ خبره الى السلطان فبعث اليه أربعين الف دينار وطلب منه أن يصل الى حضرته فقبل الدنانير وقضى دينه منها وتوجه الى بلاد الخطا وأبى ان يصل اليه وقال لا أمضى الى سلطان يقف العلماء بين يديه

﴿ذكر عطائه لحاجى كاون وحكايته﴾

وكان حاجى كاون ابن عم السلطان أبى سعيد ملك العراق وكان أخوه موسى ملكا ببعض بلاد العراق فوفد حاجى كاون على السلطان فاكرم مثواه وأعطاه العطاء الجزل ورأيته يوما وقد أتى الوزير خواجة جهان بهديته وكان منها ثلاث صينيات أحدها مملوءة يواقيت والاخرى مملوءة زمردا والاخرى مملوءة جوهرا وكان حاجى كاون حاضرا فأعطاه من ذلك حظا جزيلا ثم انه أعطاه أيضا مالا عريضا ومضى يريد العراق فوجد أخاه قد توفى وولى مكانه سليمان خان فطلب ارث أخيه وادعى الملك وبايعته العساكر وقصد بلاد فارس ونزل بمدينة شونكارة التى بها الامام عضد الدين الذى تقدم ذكره أنفا فلما نزل بخارجها تأخر شيوخها عن الخروج اليه ساعة ثم خرجوا فقال لهم ما منعكم عن تعجيل الخروج الى مبايعتنا فاعتذروا له فلم يقبل منهم وقال لاهل سلاحه قلج تخار (چقار) معناه جردوا السيوف فجردوها وضربوا أعناقهم وكانوا جماعة كبيرة فسمع من يجاور هذه المدينة من الامراء بما فعله فغضبوا لذلك وكتبوا الى شمس الدين السمنانى وهو من الامراء الفقهاء الكبار فاعلموه بما جرى على أهل شونكارة وطلبوا منه الاعانة على قتاله فتجرد فى عساكره واجتمع أهل البلاد طالبين بثأر من قتله حاجى كاون من المشايخ وضربوا على عسكره ليلا فهزموه وكان هو بقصر المدينة فأحاطوا به فاختفى فى بيت الطهارة فعثروا عليه وقطعوا رأسه وبعثوا به الى سليمان خان وفرقوا أعضاءه على البلاد تشفيا منه

﴿ذكر قدوم ابن الخليفة عليه وأخباره﴾

وكان الامير غياث الدين محمد بن عبد القاهر بن يوسف بن عبد العزيز بن الخليفة المستنصر بالله العباسى البغدادى قد وفد على السلطان علاء الدين طرمشيرين ملك ماوراء النهر

فأكرمه وأعطاه الزاوية التى على قبر قثم بن العباس رضى الله عنهما واستوطن بها أعواما ثم لما سمع بمحبة السلطان فى بنى العباس وقيامه بدعوتهم أحب القدوم عليه وبعث له برسولين أحدهما صاحبه القديم محمد بن أبى الشرفى الحرباوى والثانى محمد الهمدانى الصوفى فقدما على السلطان وكان ناصر الدين الترمذى الذى تقدم ذكره قد لقى غياث الدين ببغداد وشهد لديه البغداديون بصحة نسبه فشهد هو عند السلطان بذلك فلما وصل رسولاه الى السلطان أعطاهما خمسة آلاف دينار وبعث معهما ثلاثين ألف دينار الى غياث الدين ليتزود بها اليه وكتب له كتابا بخط يده يعظمه فيه ويسأل منه القدوم عليه فلما وصله الكتاب رحل اليه فلما وصل الى بلاد السند وكتب المخبرون بقدومه بعث السلطان من يستقبله على العادة ثم لما وصل الى سرستى بعث أيضا لاستقباله صدر الجهان قاضى القضاة كمال الدين الغزنوى وجماعة من الفقهاء ثم بعث الامراء لاستقباله فلما نزل بمسعود آباد خارج الحضرة خرج السلطان بنفسه لاستقباله فلما التقيا ترجل غياث الدين فترجل له السلطان وخدم فخدم له السلطان وكان قد استصحب هدية فى جملتها ثياب فأخذ السلطان أحد الاثواب وجعله على كتفه وخدم كما يفعل الناس معه ثم قدمت الخيل فأخذ السلطان أحدها بيده وقدمه له وحلف أن يركب وأمسك بركابه حتى ركب ثم ركب السلطان وسائره والشطر يظلهما معا وأخذ التنبول بيده واعطاه اياه وهذا أعظم ما أكرمه به فانه لا يفعله مع أحد وقال له لولا انى بايعت الخليفة أبا العباس لبايعتك فقال له غياث الدين وأنا أيضا على تلك البيعة وقال له غياث الدين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما من أحيى ارضا مواتا فهى له وأنت أحييتنا فجاوبه السلطان بالطف جواب وابره ولما وصلا الى السراچة المعدة لنزول السلطان انزله فيها وضرب للسلطان غيرها وباتا تلك الليلة بخارج الحضرة فلما كان بالغد دخلا الى دار الملك وانزله بالمدينة المعروفة بسيرى وبدار الخلافة أيضا فى القصر الذى بناه علاء الدين الخلجى وابنه قطب الدين وأمر السلطان جميع الامراء أن يمضوا معه اليه وأعد له فيه جميع ما يحتاج اليه من الاوانى الذهب والفضة حتى كان من جملتها مغتسل يغتسل فيه من ذهب وبعث له أربعمائة ألف دينار لغسل رأسه على العادة وبعث له جملة من الفتيان والخدم والجوارى وعين له عن نفقته فى كل يوم ثلاثمائة دينار وبعث له زيادة اليها عددا من الموائد بالطعام الخاص وأعطاه جميع مدينة سيرى اقطاعا وجميع ما احتوت عليه من الدور وما يتصل بها من بساتين المخزن وأرضه وأعطاه مائة قرية واعطاه حكم البلاد الشرقية المضافة لدهلى واعطاه ثلاثين بغلة بالسروج المذهبة ويكون علفها من المخزن وأمره أن لا ينزل عن دابته اذا أتى دار السلطان الا فى موضع خاص لا يدخله أحد راكبا سوى السلطان

وأمر

وأمر الناس جميعا من كبير وصغير أن يخدموه كما يخدمون للسلطان واذا دخل على السلطان ينزل له عن سريره وان كان على الكرسى قام قائما وخدم كل واحد منهما لصاحبه ويجلس مع السلطان على بساط واحد واذا قام قام السلطان لقيامه وخدم كل واحد منهما واذا انصرف الى خارج المجلس جعل له بساط يقعد عليه ما شاء ثم ينصرف يفعل هذا مرتين فى اليوم

❊(حكاية من تعظيمه اياه)❊

وفى اثناء مقامه بدهلى قدم الوزير من بلاد بنجالة فأمر السلطان كبار الامراء أن يخرجوا الى استقباله ثم خرج بنفسه الى استقباله وعظمه تعظيما كثيرا وصنعت القباب بالمدينة كما تصنع للسلطان اذا قدم وخرج بن الخليفة للقائه أيضا والفقهاء والقضاة والاعيان فلما عاد السلطان لقصره قال للوزير امض الى دار المخدوم زاده وبذلك يدعوه ومعنى ذلك ابن المخدوم فسار الوزير اليه واهدى له الفى تنكة من الذهب وأثوابا كثيرة وحضر الامير قبولة وغيره من كبار الامراء وحضرت أنا كذلك

❊(حكاية نحوها)❊

وفد على السلطان ملك غزنة المسمى ببهرام وكان بينه وبين ابن الخليفة عداوة قديمة فأمر السلطان بانزاله ببعض دور مدينة سيرى التى لابن الخليفة وأمر أن يبنى له بها دار فبلغ ذلك ابن الخليفة فغضب منه ومضى الى دار السلطان فجلس على البساط الذى عادته الجلوس عليه وبعث عن الوزير فقال له سلم عن خوندعالم وقل له ان جميع ما اعطانيه هو بمنزلى لم أتصرف فى شئ منه بل زاد عندى ونما وأنا لا أقيم معكم وقام وانصرف فسأل الوزير بعض أصحابه عن سبب هذا فاعلمه ان سببه أمر السلطان ببناء الدار لملك غزنة فى مدينة سيرى فدخل الوزير على السلطان فاعلمه بذلك فركب من حينه فى عشرة من ناسه وأتى منزل ابن الخليفة فاستأذن له ونزل عن فرسه خارج القصر حيث نزل الناس فتلقاه واعتذر له فقبل عذره وقال له السلطان والله ما أعلم انك راض عنى حتى تضع قدمك على عنقى فقال له هذا ما لا أفعله ولو قتلت فقال له السلطان وحق رأسى لا بدّ لك من ذلك ثم وضع رأسه فى الارض وأخذ الملك الكبير قبولة رجل ابن الخليفة بيده فوضعها على عنق السلطان ثم قام وقال الآن علمت انك راض عنى وطاب قلبى وهذه حكاية غريبة لم يسمع بمثلها عن ملك ولقد حضرته يوم عيد وقد جاءه الملك الكبير بثلاث خلع من عند السلطان مفرجة قد جعل مكان عقد الحرير التى تعلق بها حبات جوهر قدر البندق الكبير وأقام الملك الكبير ببابه حتى نزل من قصره فكساه اياها والذى أعطاه هو ما لا يحصره العدّ ولا يحيط به الحدّ وابن الخليفة مع ذلك كله أبخل خلق الله تعالى وله فى البخل أخبار عجيبة يعجب منها سامعها وكأنه كان من البخل بمنزلة السلطان من الكرم ولنذكر بعض أخباره فى ذلك

(حكاية من بخل ابن الخليفة)

وكانت بيني وبينه مودّة وكنت كثير التردّد الى منزله وعنده تركت ولدا لى سميته أحمد لما سافرت ولا أدرى ما فعل الله بهما فقلت له يوما لم تأكل وحدك ولا تجمع أصحابك على الطعام فقال لى لا أستطيع أن أنظر اليهم على كثرتهم وهم يأكلون طعامى فكان يأكل وحده ويعطى صاحبه محمد بن أبى الشرفى من الطعام لمن أحب ويتصرف فى باقيه وكنت أتردّد اليه فأرى دهليز قصره الذى يسكن به مظلما لا سراج به ورأيته مرارا يجمع الاعواد الصغار من الحطب بداخل بستانه وقد ملأ منها مخازن فكلمته فى ذلك فقال لى يحتاج اليها وكان يخدم أصحابه ومماليكه وفتيانه فى خدمة البستان وبنائه ويقول لا أرضى أن يأكلوا طعامى وهم لا يخدمون وكان على مرّ ديون فطلبت به فقال لى فى بعض الايام والله لقد هممت ان أؤدّى عنك دينك فلم تسمح نفسى بذلك ولا ساعدتنى عليه

(حكاية)

حدّثنى مرة قال خرجت عن بغداد وأنا رابع أربعة أحدهم محمد بن أبى الشرفى صاحبه ونحن على أقدامنا ولا زاد عندنا فنزلنا على عين ماء ببعض القرى فوجد أحدنا فى العين درهما فقلنا وما نصنع بدرهم فاتفقنا على أن نشترى به خبزا فبعثنا أحدنا لشرائه فأبى الخباز بتلك القرية أن يبيع الخبز وحده وانما يبيع خبزا بقيراط وتبنا بقيراط فاشترى منه الخبز والتبن فطرحنا التبن اذ لا دابة لنا تأكله وقسمنا الخبز لقمة لقمة وقد انتهى حالى اليوم الى ما تراه فقلت له ينبغى لك أن تحمد الله على ما أولاك وتؤثر على الفقراء والمساكين وتتصدّق فقال لا أستطيع ذلك ولم أره قط يجود بشئ ولا يفعل معروفا ونعوذ بالله من الشح

(حكاية)

كنت يوما ببغداد بعد عودتى من بلاد الهند وأنا قاعد على باب المدرسة المستنصرية التى بناها جدّه أمير المؤمنين المستنصر رضى الله عنه فرأيت شابا ضعيف الحال يشتدّ خلف رجل خارج عن المدرسة فقال لى بعض الطلبة هذا الشاب الذى تراه هو ابن الامير محمد حفيد الخليفة المستنصر الذى ببلاد الهند فدعوته فقلت له انى قدمت من بلاد الهند وانى أعرفك بخبر أبيك فقال قد جاءنى خبره فى هذه الايام ومضى يشتدّ خلف الرجل فسألت عن الرجل فقيل لى هو الناظر فى الحبس وهذا الشاب هو امام ببعض المساجد وله على ذلك أجرة درهم واحد فى اليوم وهو يطلب أجرته من الرجل فطال عجبى منه والله لو بعث اليه جوهرة من الجواهر التى فى الخلع الواصلة اليه من السلطان لاغناه بها ونعوذ بالله من مثل هذه الحال

❊(ذكر ما أعطاه السلطان للامير سيف الدين غدا ابن هبة الله بن مهنى أمير عرب الشام)❊

ولما قدم هذا الامير على السلطان أكرم مثواه وانزله بقصر السلطان جلال الدين داخل مدينة دهلى ويعرف بكشك لعل معناه القصر الاحمر وهو قصر عظيم فيه مشور كبير جدًّا ودهليز هائل على بابه قبة تشرف على هذا المشور وعلى المشور الثانى الذى يدخل منه الى القصر وكان السلطان جلال الدين يقعد بها وتلعب الكرة بين يديه فى هذا المشور وقد دخلت هذا القصر عند نزوله به فرأيته مملوءا أثاثا وفرشا وبسطا وغيرها وذلك كله متمزق لا منتفع فيه فان عادتهم بالهند أن يتركوا قصر السلطان اذا مات بجميع ما فيه لا يتعرضون له ويبنى المتولى بعده قصرا لنفسه ولما دخلته طفت به وصعدت الى أعلاه فكانت لى فيه عبرة نشأت عنها عبرة وكان معى الفقيه الطبيب الاديب جمال الدين المغربى الغرناطى الاصل البجائى المولد مستوطن بلاد الهند قدمها مع أبيه وله بها أولاد فأنشدنى عندما عايناه (خفيف)

وسلاطينهم سل الطين عنهم ❊ فالرؤوس العظام صارت عظاما

وبهذا القصر كانت وليمة عرسه كما نذكره وكان السلطان شديد المحبة فى العرب مؤثرا لهم معترفا بفضائلهم فلما وصله هذا الامير أجزل له العطاء وأحسن اليه احسانا عظيما واعطاه مرة وقد قدمت عليه هدية أعظم ملك البايزيدى من بلاد منكبور أحد عشر فرسا من عتاق الخيل وأعطاه مرة أخرى عشرة من الخيل مسرجة بالسروج المذهبة عليها اللجم المذهبة ثم زوجه بعد ذلك بأخته فيروزخونده

❊(ذكر تزوج الامير سيف الدين بأخت السلطان)❊

ولما أمر السلطان بتزويج أخته للامير غدا عين للقيام بشأن الوليمة ونفقاتها الملك فتح الله المعروف بشونويس (بشين معجم مفتوح وواوين أولهما مسكن والآخر مكسور بينهما نون وآخره سين مهمل) وعينى لملازمة الامير غدا والكون معه فى تلك الايام فأتى الملك فتح الله بالصيوانات فظلل بها المشورين بالقصر الاحمر المذكور وضرب فى كل واحد منهما قبة ضخمة جدًّا وفرش ذلك بالفرش الحسان وأتى شمس الدين التبريزى أمير المطربين ومعه الرجال المغنون والنساء المغنيات والرواقص وكلهن مماليك السلطان وأحضر الطباخين والخبازين والشوائين والحلوانيين والشربدارية والتنبول داران وذبحت الانعام والطيور وأقاموا يطعمون الناس خمسة عشر يوما ويحضر الامراء الكبار والاعزة ليلا ونهارا فلما كان قبل ليلة الزفاف بليلتين جاء الخواتين من دار السلطان ليلا الى هذا القصر فزينه وفرشنه بأحسن الفرش واستحضرن الامير سيف الدين وكان عربيا غريبا لا قرابة له فحففن به واجلسنه على مرتبة معينة له وكان السلطان قد أمر ان تكون ربيبته أم أخيه مبارك خان مقام أم الامير

غدا وان تكون امرأة أخرى من الخواتين مقام أخته وأخرى مقام عمته وأخرى مقام خالته حتى يكون كأنه بين أهله ولما أجلسنه على المرتبة جعلن له الحناء في يديه ورجليه وأقام باقيهنّ على رأسه يغنين ويرقصن وانصرفن الى قصر الزفاف وأقام هو مع خواص أصحابه وعين السلطان جماعة من الامراء يكونون من جهته وجماعة يكونون من جهة الزوجة وعادتهم ان تقف الجماعة التي من جهة الزوجة على باب الموضع الذي تكون به جلوتها على زوجها ويأتي الزوج بجماعته فلا يدخلون الا ان غلبوا أصحاب الزوجة أو يعطونهم الآلاف من الدنانير ان لم يقدروا عليهم ولما كان بعد المغرب أتي اليه بخلعة حرير زرقاء مزركشة مرصعة قد غلبت الجواهر عليها فلا يظهر لونها مما عليها من الجوهر وبشاشية مثل ذلك ولم أر قط خلعة أجمل من هذه الخلعة وقد رأيت ما خلعه السلطان على سائر أصهاره مثل ابن ملك الملوك عماد الدين السمناني وابن ملك العلماء وابن شيخ الاسلام وابن صدر جهان البخاري فلم يكن فيها مثل هذه ثم ركب الامير سيف الدين في أصحابه وعبيده وفي يد كل واحد منهم عصى قد أعدها وصنعوا شبه اكليل من الياسمين والنسرين وربيول وله رفرف يغطي وجه المتكلل به وصدره وأتوا به الامير ليجعله على رأسه فأبى من ذلك وكان من عرب البادية لا عهد له بأمور الملك والحضر فحاولته وحلفت عليه حتى جعله على رأسه وأتى باب الصرف ويسمونه باب الحرم وعليه جماعة الزوجة فحمل عليهم بأصحابه حملة عربية وصرعوا كل من عارضهم فغلبوا عليهم ولم يكن لجماعة الزوجة من ثبات وبلغ ذلك السلطان فأعجبه فعله ودخل الى المشور وقد جعلت العروس فوق منبر عال مزين بالديباج مرصع بالجوهر والمشور ملآن بالنساء والمطربات قد أحضرن أنواع الآلات المطربة وكلهن وقوف على قدم اجلالا له وتعظيما فدخل بفرسه حتى قرب من المنبر فنزل وخدم عند أول درجة منه وقامت العروس قائمة حتى صعد فأعطته التنبول بيدها فأخذه وجلس تحت الدرجة التي وقفت بها ونثرت دنانير الذهب على رؤوس الحاضرين من أصحابه ولقطتها النساء والمغنيات يغنين حينئذ والاطبال والابواق والانفار تضرب خارج الباب ثم قام الامير وأخذ بيد زوجته ونزل وهي تتبعه فركب فرسه يطأ به الفرش والبسط ونثرت الدنانير عليه وعلى أصحابه وجعلت العروس في محفة وحملها العبيد على أعناقهم الى قصره والخواتين بين يديها راكبات وغيرهن من النساء ماشيات واذا مر بدار أمير أو كبير خرج اليهم ونثر عليهم الدنانير والدراهم على قدر همته حتى أوصلوها الى قصره ولما كان بالغد بعث العروس الى جميع أصحاب زوجها الثياب والدنانير والدراهم وأعطى السلطان لكل واحد منهم فرسا مسرجا ملجما وبدرة دراهم من ألف دينار الى مائتي دينار وأعطى الملك فتح الله للخواتين ثياب الحرير المنوعة

والبدر

والبدر وكذلك لاهل الطرب وعادتهم ببلاد الهند أن لا يعطى أحد شيئا لاهل الطرب انما يعطيهم صاحب العرس وأطعم الناس جميعا ذلك اليوم وانقضى العرس وأمر السلطان أن يعطى الامير غدا بلاد المالوة والجزات وكنباية ونهروالة وجعل فتح الله المذكور نائبا عنه عليها وعظمه تعظيما شديدا وكان عربيا جافيا فلم يقدر قدر ذلك وغلب عليه جفاء البادية فأداه ذلك الى النكبة بعد عشرين ليلة من زفافه

❁(ذكر سجن الامير غدا)❁

ولما كان بعد عشرين يوما من زفافه اتفق انه وصل الى دار السلطان فأراد الدخول فمنعه أمير البرد (البرده) دارية وهم الخواص من البوابين فلم يسمع منه وأراد التقحم فامسك البواب بدبوقته وهى الضفيرة وردّه فضربه الامير بعصى كانت هنالك حتى أدماه وكان هذا المضروب من كبار الامراء يعرف أبوه بقاضى غزنة وهو من ذرية السلطان محمود بن سبكتكين والسلطان يخاطبه بالاب ويخاطب ابنه هذا بالاخ فدخل على السلطان والدم على ثيابه فأخبره بما صنع الامير غدا فنكر السلطان هنيهة ثم قال له القاضى يفصل بينكما وتلك جريمة لا يغفرها السلطان لاحد من ناسه ولا بدّ من الموت عليها وانما احتمله لغربته وكان القاضى كمال الدين بالمشور فأمر السلطان الملك تتر أن يقف معهما عند القاضى وكان تتر حاجا مجاورا يحسن العربية فحضر معهما وقال للامير أنت ضربته أوقل لا اقصد أن يعلمه الحجة وكان سيف الدين جاهلا مغترا فقال نعم انا ضربته وأتى والد المضروب فرام الاصلاح بينهما فلم يقبل سيف الدين فأمر القاضى بسجنه تلك الليلة فوالله ما بعثت له زوجته فراشا ينام عليه ولا سألت عنه خوفا من السلطان وخاف أصحابه فودعوا أموالهم وأردت زيارته بالسجن فلقينى بعض الامراء وفهم عنى انى أريد زيارته فقال لى أونسيت وذكرنى بقضية اتفقت لى فى زيارة الشيخ شهاب الدين ابن شيخ الجام وكيف أراد السلطان قتلى على ذلك حسبما يقع ذكره فرجعت ولم أزره وتخلص الامير غدا عند الظهر من سجنه فأظهر السلطان اهماله واضرب عما كان أمر له بولايته وأراد نفيه وكان للسلطان صهر يسمى بمغيث ابن ملك الملوك وكانت أخت السلطان تشكوه لاخيها الى أن ماتت فذكر جواريها انها ماتت بسبب قهره لها وكان فى نسبه مغمزة فكتب السلطان بخطه يجلى اللقيط يعنيه ثم كتب ويجلى موش خوار معناه آكل الفئران يعنى بذلك الامير غدا لان عرب البادية يأكلون اليربوع وهو شبه الفأر وأمر باخراجهما فجاءه النقباء ليخرجوه فأراد دخول داره ووداع أهله فترادف النقباء فى طلبه فخرج باكيا وتوجهت حين ذلك الى دار السلطان فبت بها فسألنى عن مبيتى بعض الامراء فقلت له جئت لا تكلم فى الامير سيف الدين حتى يردّ ولا ينفى فقال لا يكون ذلك

فقلت له والله لا بيتن بدار السلطان ولو بلغ مبيتي مائة ليلة حتى يرد فبلغ ذلك السلطان فأمر بردّه وأمره ان يكون في خدمة الامير ملك قبولة اللاهوري فأقام أربعة أعوام في خدمته يركب لركوبه ويسافر لسفره حتى تأدّب وتهذب ثم أعاده السلطان الى ما كان عليه أولا واقطعه البلاد وقدمه على العساكر ورفع قدره

﴿ذكر تزويج السلطان بنتي وزيره لابني خداوندزاده قوام الدين الذي قدم معنا عليه﴾

ولما قدم خداوندزاده أعطاه السلطان عطاء جزلا وأحسن اليه احسانا عظيما وبالغ في اكرامه ثم زوج ولديه في بنتي الوزير خواجه جهان وكان الوزير اذ ذاك غائبا فأتى السلطان الى داره ليلا وحضر عقد النكاح كأنه نائب عن الوزير ووقف حتى قرأ قاضي القضاة الصداق والقضاة والامراء والمشايخ قعود وأخذ السلطان بيده الاثواب والبدر فجعلها بين يدي القاضي وولدي خداوندزاده وقام الامراء وابوا أن يجعل السلطان ذلك بين أيديهم بنفسه فأمرهم بالجلوس وأمر بعض كبار الامراء أن يقوم مقامه وانصرف

﴿حكاية في تواضع السلطان وانصافه﴾

ادّعى عليه رجل من كبار الهنود انه قتل أخاه من غير موجب ودعاه الى القاضي فمضى على قدميه ولا سلاح معه الى مجلس القاضي فسلم وخدم وكان قد أمر القاضي قبل ذلك انه اذا جاءه الى مجلسه فلا يقوم له ولا يتحرك فصعد الى المجلس ووقف بين يدي القاضي فحكم عليه أن يرضي خصمه من دم أخيه فأرضاه

﴿حكاية مثلها﴾

وادّعى على السلطان مرة رجل من المسلمين انه له قبله حقا ماليا فتخاصما في ذلك عند القاضي فتوجه الحكم على السلطان باعطاء المال فأعطاه

﴿حكاية مثلها﴾

وادّعى عليه صبي من أبناء الملوك انه ضربه من غير موجب ورفعه الى القاضي فتوجه الحكم عليه بأن يرضيه بالمال ان قبل ذلك والا أمكنه من القصاص فشاهدته يومئذ وقد عاد لمجلسه واستحضر الصبي وأعطاه عصى وقال له وحق رأسي لتضربني كما ضربتك فأخذ الصبي العصى وضربه بها احدى وعشرين ضربة حتى رأيت الكلاء (الكلاه) قد طارت عن رأسه

﴿ذكر اشتداده في اقامة الصلاة﴾

وكان السلطان شديدا في إقامة الصلاة آمرا بلازمتها في الجماعات يعاقب على تركها أشدّ العقاب ولقد قتل في يوم واحد تسعة نفر على تركها كان أحدهم مغنيا وكان يبعث الرجال

الموكلين

الموكلين بذلك الى الاسواق فمن وجد بها عند اقامة الصلاة عوقب حتى انتهى الى عقاب الستائريين الذين يمسكون دواب الخدام على باب المشور اذا ضيعوا الصلاة وأمر ان يطالب الناس بعلم فرائض الوضوء والصلاة وشروط الاسلام فكانوا يسألون عن ذلك فمن لم يحسنه عوقب وصار الناس يتدارسون ذلك بالمشور والاسواق ويكتبونه

﴿ذكر اشتداده فى اقامة أحكام الشرع﴾

وكان شديدا فى اقامة الشرع ومما فعل فى ذلك ان أمر أخاه مبارك خان ان يكون قعوده بالمشور مع قاضى القضاة كمال الدين فى قبة مرتفعة هنالك مفروشة بالبسط وللقاضى بها مرتبة تحف بها المخاد كمرتبة السلطان ويقعد أخو السلطان عن يمينه فمن كان عليه حق من كبار الامراء وامتنع من ادائه لصاحبه يحضره رجال أخى السلطان عند القاضى لينصف منه

﴿ذكر رفعه للمغارم والمظالم وقعوده لانصاف المظلومين﴾

ولما كان فى سنة احدى وأربعين أمر السلطان برفع المكوس عن بلاده وأن لا يؤخذ من الناس الا الزكاة والعشر خاصة وصار يجلس بنفسه للنظر فى المظالم فى كل يوم اثنين وخميس برحبة امام المشور ولا يقف بين يديه فى ذلك اليوم الا أمير حاجب وخاص حاجب وسيد الحجاب وشرف الحجاب لا غير ولا يمنع أحد ممن أراد الشكوى من الوقوف بين يديه وعين أربعة من كبار الامراء يجلسون فى الابواب الاربعة من المشور لاخذ القصص من المشتكين والرابع منهم هو ابن عمه ملك فيروز فان أخذ صاحب الباب الاول الرفع من الشاكى فحسن والا أخذه الثانى أو الثالث أو الرابع وان لم يأخذوه منه مضى به الى صدر الجهان قاضى المماليك فان أخذه منه والا شكى الى السلطان فان صح عنده انه مضى به الى أحد منهم فلم يأخذه منه ادبه وكل ما يجتمع من القصص فى سائر الايام يطالعه السلطان بعد العشاء الآخرة

﴿ذكر اطعامه فى الغلاء﴾

ولما استولى القحط على بلاد الهند والسند واشتد الغلاء حتى بلغ من القمح الى ستة دنانير أمر السلطان أن يعطى لجميع أهل دهلى نفقة ستة أشهر من المخزن بحساب رطل ونصف من ارطال المغرب لكل انسان فى اليوم صغير أو كبير حر او عبد وخرج الفقهاء والقضاة يكتبون الازمة بأهل الحارات ويحضرون الناس ويعطى لكل واحد عولة ستة أشهر يقتات بها

﴿ذكر فتكات هذا السلطان وما نقم من أفعاله﴾

وكان على ما قدمنا من تواضعه وانصافه ورفقه بالمساكين وكرمه الخارق للعادة كثير التجاسر على اراقة الدماء لا يخلو بابه عن مقتول الا فى النادر وكنت كثيرا ما أرى الناس يقتلون على بابه ويطرحون هنالك ولقد جئت يوما فنفر بى الفرس ونظرت الى قطعة بيضاء

فى الارض فقلت ماهذه فقال بعض أصحابى هى صدر رجل قطع ثلاث قطع وكان يعاقب على الصغيرة والكبيرة ولا يحترم أحدا من أهل العلم والصلاح والشرف وفى كل يوم يرد على المشور من المسلسلين والمغلولين والمقيدين مئون فمن كان للقتل قتل أو للعذاب عذب أو للضرب ضرب وعادته أن يؤتى كل يوم بجميع من فى سجنه من الناس الى المشور ما عدى يوم الجمعة فانهم لا يخرجون فيه وهو يوم راحتهم يتنظفون فيه ويستريحون أعاذنا الله من البلاء

(ذكر قتله لاخيه)

وكان له أخ اسمه مسعود خان وأمه بنت السلطان علاء الدين وكان من أجمل صورة رأيتها فى الدنيا فاتهمه بالقيام عليه وسأله عن ذلك فأقر خوفا من العذاب فانه من أنكر ما يدّعيه عليه السلطان من مثل ذلك يعذب فيرى الناس ان القتل أهون عليهم من العذاب فأمر به فضربت عنقه فى وسط السوق وبقى مطروحا هنالك ثلاثة أيام على عادتهم وكانت أم هذا المقتول قد رجمت فى ذلك الموضع قبل ذلك بسنتين لاعترافها بالزنا فرجمها القاضى كمال الدين

(ذكر قتله لثلاثمائة وخمسين رجلا فى ساعة واحدة)

وكان مرة عين حصة من العسكر تتوجه مع الملك يوسف بغرة الى قتال الكفار ببعض الجبال المتصلة بحوز دهلى فخرج يوسف وخرج معه معظم العسكر وتخلف قوم منهم فكتب يوسف الى السلطان يعلمه بذلك فأمر أن يطاف بالمدينة ويقبض على من وجد من اولائك المتخلفين ففعل ذلك وقبض على ثلاثمائة وخمسين منهم فأمر بقتلهم أجمعين فقتلوا

(ذكر تعذيبه للشيخ شهاب الدين وقتله)

وكان الشيخ شهاب الدين ابن شيخ الجام الخراسانى الذى تنسب مدينة الجام بخراسان الى جدّه حسبما قصصنا ذلك من كبار المشايخ الصلحاء الفضلاء وكان يواصل أربعة عشر يوما وكان السلطانان قطب الدين وتغلق يعظمانه ويزورانه ويتبركان به فلما ولى السلطان محمد أراد أن يخدم الشيخ فى بعض خدمته فان عادته أن يخدم الفقهاء والمشايخ والصلحاء محتجا ان الصدر الاول رضى الله عنهم لم يكونوا يستعملون إلا أهل العلم والصلاح فامتنع الشيخ شهاب الدين من الخدمة وشافهه السلطان بذلك فى مجلسه العام فأظهر الاباية والامتناع فغضب السلطان من ذلك وأمر الشيخ الفقيه المعظم ضياء الدين السمنانى أن ينتف لحيته فأبى ضياء الدين من ذلك وقال لا أفعل هذا فأمر السلطان بنتف لحية كل واحد منهما فنتفت ونفى ضياء الدين الى بلاد التلنك ثم ولاه بعد مدّة قضاء ورنكل فمات بها ونفى شهاب الدين الى دولة آباد

فأقام

فأقام بها سبعة أعوام ثم بعث عنه فأكرمه وعظمه وجعله على ديوان المستخرج وهو ديوان بقايا العمال يستخرجها منهم بالضرب والتنكيل ثم زاد فى تعظيمه وأمر الامراء أن يأتوا للسلام عليه ويمتثلوا أقواله ولم يكن أحد فى دار السلطان فوقه ولما انتقل السلطان الى السكنى على نهر الكنك وبنى هنالك القصر المعروف بسرك دوار معناه شبيه الجنة وأمر الناس بالبناء هنالك طلب منه الشيخ شهاب الدين أن يأذن له فى الاقامة بالحضرة فأذن له الى أرض موات على مسافة ستة أميال من دهلى فحفر بها كهفا كبيرا صنع فى جوفه البيوت والمخازن والفرن والحمام وجلب الماء من نهر جون وعمر تلك الارض وجمع مالا كثيرا من مستغلها لانها كانت السنون قاحطة وأقام هنالك عامين ونصف عام مدة مغيب السلطان وكان عبيده يخدمون تلك الارض نهارا ويدخلون الغار ليلا ويسدّونه على أنفسهم وانعامهم خوف سراق الكفار لانهم فى جبل منيع هنالك ولما عاد السلطان الى حضرته استقبله الشيخ ولقيه على سبعة أميال منها فعظمه السلطان وعانقه عند لقائه وعاد الى غاره ثم بعث عنه بعد أيام فامتنع من اتيانه فبعث اليه مخلص الملك النذر بارى وكان من كبراء الملوك فتلطف له فى القول وحذره بطش السلطان فقال له لا أخدم ظالما أبدا فعاد مخلص الملك الى السلطان فأخبره بذلك فأمر أن يأتى به فأتى به فقال له أنت القائل انى ظالم فقال نعم أنت ظالم ومن ظلمك كذا وكذا وعدد أمورا منها تخريبه لمدينة دهلى واخراجه أهلها فأخذ السلطان سيفه ودفعه لصدر الجهان وقال ثبت هذا انى ظالم واقطع عنقى بهذا السيف فقال له شهاب الدين ومن يريد أن يشهد بذلك فيقتل ولكن أنت تعرف ظلم نفسك وأمر بتسليمه للملك نكبية رأس الدويدارية فقيده بأربعة قيود وغل يديه وأقام كذلك أربعة عشر يوما مواصلا لا يأكل ولا يشرب وفى كل يوم منها يؤتى به الى المشور ويجمع الفقهاء والمشايخ ويقولون له ارجع عن قولك فيقول لا أرجع عنه وأريد أن أكون فى زمرة الشهداء فلما كان اليوم الرابع عشر بعث اليه السلطان بطعام مع مخلص الملك فأبى أن يأكل وقال قد رفع رزقى من الارض ارجع بطعامك اليه فلما أخبر بذلك السلطان أمر عند ذلك ان يطعم الشيخ خمسة أستار (أساتير) من العذرة وهى رطلان ونصف من أرطال المغرب فأخذ ذلك الموكلون بمثل هذه الامور وهم طائفة من كفار الهنود فمدّوه على ظهره وفتحوا فمه بالكلبتين وحلوا العذرة بالماء وسقوه ذلك وفى اليوم بعده أتى به الى دار القاضى صدر الجهان وجمع الفقهاء والمشايخ ووجوه الاعزة فوعظوه وطلبوا منه أن يرجع عن قوله فأبى ذلك فضربت عنقه رحمه الله تعالى

﴿ذكر قتله للفقيه المدرسى عفيف الدين الكاسانى وفقيهين معه﴾

وكان السلطان فى سنى القحط قد أمر بحفر آبار خارج دار الملك وأن يزرع هنالك زرع وأعطى الناس البذر وما يلزم على الزراعة من النفقة وكلفهم زرع ذلك للمخزن فبلغ ذلك الفقيه عفيف الدين فقال هذا الزرع لا يحصل المراد منه فوشى به الى السلطان فسجنه وقال له لأى شئ تدخل نفسك فى أمور الملك ثم انه سرحه بعد مدة فذهب الى داره ولقيه فى طريقه اليها صاحبان له من الفقهاء فقالا له الحمد لله على خلاصك فقال الفقيه الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين وتفرقوا فلم يصلوا الى دورهم حتى بلغ ذلك السلطان فأمر بهم فأحضر ثلاثتهم بين يديه فقال اذهبوا بهذا يعنى عفيف الدين فاضربوا عنقه حمائل وهو ان يقطع الرأس مع الذراع وبعض الصدر واضربوا أعناق الآخرين فقالا له أما هو فيستحق العقاب بقوله وأما نحن فبأى جريمة تقتلنا فقال لهما انكما سمعتما كلامه فلم تنكراه فكأنكما وافقتما عليه فقتلوا جميعا رحمهم الله تعالى

﴿ذكر قتله أيضا لفقيهين من أهل السند كانا فى خدمته﴾

وأمر السلطان هذين الفقيهين السنديين ان يمضيا مع أمير عينه الى بعض البلاد وقال لهما انما سلمت أحوال البلاد والرعية لكما ويكون هذا الامير معكما يتصرف بما تأمرانه به فقالا له انما نكون كالشاهدين عليه ونبين له وجه الحق ليتبعه فقال لهما انما قصدكما ان تأكلا أموالى وتضيعاها وتنسبا ذلك الى هذا التركى الذى لا معرفة له فقالا له حاشا الله يا خوند عالم ما قصدنا هذا فقال لهما لم تقصدا غير هذا اذهبوا بهما الى الشيخ زاده النهاوندى وهو الموكل بالعذاب فذهب بهما اليه فقال لهما السلطان يريد قتلكما فأقرا بما قولكما اياه ولا تعذبا أنفسكما فقالا والله ما قصدنا الا ما ذكرنا فقال لزبانيته ذوقوهما بعض شئ يعنى من العذاب فبطحا على أقفائهما وجعل على صدر كل واحد منهما صفيحة حديد محماة ثم قلعت بعد هنيهة فذهب بلحم صدورهما ثم أخذ البول والرماد فجعل على تلك الجراحات فأقرا على أنفسهما انهما لم يقصدا الا ما قاله السلطان وانهما مجرمان مستحقان للقتل فلا حق لهما ولا دعوى فى دمائهما دنيا ولا أخرى وكتبا خطهما بذلك واعترفا به عند القاضى فسجل على العقد وكتب فيه ان اعترافهما كان عن غير اكراه ولا اجبار ولو قالا أكرهنا لعذبا أشد العذاب ورأيا ان تعجيل ضرب العنق خير لهما من الموت بالعذاب الاليم فقتلا رحمهما الله تعالى

﴿ذكر قتله للشيخ هود﴾

وكان الشيخ زاده المسمى بهود حفيد الشيخ الصالح الولى ركن الدين بن بهاء الدين بن أبى زكرياء الملتانى وجده الشيخ ركن الدين معظما عند السلطان وكذلك أخوه عماد الدين الذى كان

شبيها

شبيهاً بالسلطان وقتل يوم وقيعة كشلوخان وسنذكره ولما قتل عماد الدين أعطى السلطان لاخيه ركن الدين مائة قرية ليأكل منها ويطعم الصادر والوارد بزاويته فتوفى الشيخ ركن الدين وأوصى بمكانه من الزاوية لحفيده الشيخ هود ونازعه فى ذلك ابن أخى الشيخ ركن الدين وقال أنا أحق بميراث عمى فقدما على السلطان وهو بدولة آباد وبينها وبين ملتان ثمانون يوماً فاعطى السلطان المشيخة لهود حسبما أوصى له الشيخ وكان كهلاً وكان ابن أخى الشيخ فتى وأكرمه السلطان وأمر بتضييفه فى كل منزل يحله وان يخرج الى لقائه أهل كل بلد يمر به الى ملتان وتصنع له فيه دعوة فلما وصل الامر للحضرة خرج الفقهاء والقضاة والمشايخ والاعيان للقائه وكنت فيمن خرج اليه فتلقيناه وهو راكب فى دولة يحملها الرجال وخيله مجنوبة فسلمنا عليه وأنكرت أنا ما كان من فعله فى ركوبه الدولة وقلت انما كان ينبغى له أن يركب الفرس ويساير من خرج للقائه من القضاة والمشايخ فبلغه كلامى فركب الفرس واعتذر بان فعله اولاً كان بسبب ألم منعه عن ركوب الفرس ودخل الحضرة وصنعت له بها دعوة أنفق فيها من مال السلطان عدد كثير وحضر القضاة والمشايخ والفقهاء والاعزة ومدّ السماط وأتوا بالطعام على العادة ثم أعطيت الدراهم لكل من حضر على قدر استحقاقه فأعطى قاضى القضاة خمسمائة دينار وأعطيت أنا مائتين وخمسين ديناراً وهذه عادة لهم فى الدعوة السلطانية ثم انصرف الشيخ هود الى بلده ومعه الشيخ نور الدين الشيرازى بعثه السلطان ليجلسه على سجادة جده بزاويته ويصنع له الدعوة من مال السلطان هنالك واستقر بزاويته وأقام بها أعواماً ثم ان عماد الملك أمير بلاد السند كتب الى السلطان ان الشيخ وقرابته يشتغلون بجمع الاموال وانفاقها فى الشهوات ولا يطعمون أحداً بالزاوية فنفذ الامر بمطالبتهم بالاموال فطلبهم عماد الملك بها وسجن بعضهم وضرب بعضاً وصار يأخذ منهم كل يوم عشرين ألف دينار مدة أيام حتى استخلص ما كان عندهم ووجد لهم كثير من الاموال والذخائر من جملتها نعلان مرصعان بالجوهر والياقوت بيعا بسبعة آلاف دينار قيل انهما كانا لبنت الشيخ هود وقيل لسرية له فلما اشتد الحال على الشيخ هرب يريد بلاد الاتراك فقبض عليه وكتب عماد الملك بذلك الى السلطان فأمره أن يبعثه ويبعث الذى قبض عليه كلاهما فى حكم الثقاف فلما وصلا اليه سرح الذى قبض عليه وقال للشيخ هود أين أردت ان تفر فاعتذر بعذر فقال له السلطان انما أردت ان تذهب الى الاتراك فتقول أنا ابن الشيخ بهاء الدين زكرياء وقد فعل السلطان معى كذا وتأتى بهم لقتالنا اضربوا عنقه فضربت عنقه رحمه الله تعالى

(ذكر سجنه لابن تاج العارفين وقتله لاولاده)

وكان الشيخ الصالح شمس الدين ابن تاج العارفين ساكناً بمدينة كول منقطعاً للعبادة كبير

القدر ودخل السلطان الى مدينة كول فبعث عنه فرأيأته فذهب السلطان اليه ثم لما قارب منزله انصرف ولم يره واتفق بعد ذلك ان أميرا من الامراء خالف على السلطان ببعض الجهات وبايعه الناس فنقل للسلطان انه وقع ذكر هذا الامير بمجلس الشيخ شمس الدين فأثنى عليه وقال انه يصلح للملك فبعث السلطان بعض الامراء الى الشيخ فقيده وقيد أولاده وقيد قاضي كول ومحتسبها لانه ذكر انهما كانا حاضرين للمجلس الذى وقع فيه ثناء الشيخ على الامير المخالف وأمر بهم فسجنوا جميعا بعد ان سمل عيني القاضي وعيني المحتسب ومات الشيخ بالسجن وكان القاضي والمحتسب يخرجان مع بعض السجانين فيسألان الناس ثم يردان الى السجن وكان قد بلغ السلطان ان أولاد الشيخ كانوا يخالطون كفار الهنود وعصاتهم ويصحبونهم فلما مات أبوهم أخرجهم من السجن وقال لهم لا تعودوا الا ما كنتم تفعلون فقالوا له وما فعلنا فاغتاظ من ذلك وأمر بقتلهم جميعا فقتلوا ثم استحضر القاضي المذكور فقال أخبرني بمن كان يرى رأى هؤلاء الذين قتلوا ويفعل مثل أفعالهم فاملى أسماء رجال كثيرين من كفار البلد فلما عرض ما أملاه على السلطان قال هذا يحب أن يخرب البلد اضربوا عنقه فضربت عنقه رحمه الله تعالى

(ذكر قتله للشيخ الحيدرى)

وكان الشيخ على الحيدرى ساكنا بمدينة كنباية من ساحل الهند وهو عظيم القدر شهير الذكر بعيد الصيت ينذر له التجار بالبحر النذور الكثيرة واذا قدموا بدؤا بالسلام عليه وكان يكاشف بأحوالهم وربما نذر أحدهم النذر وندم عليه فاذا أتى الشيخ للسلام عليه اعلمه بما نذر له وأمر بالوفاء به واتفق له ذلك مرات واشتهر به فلما خالف القاضى جلال الافغانى وقبيلته بتلك الجهات بلغ السلطان ان الشيخ الحيدرى دعا للقاضى جلال واعطاه شاشيته من رأسه وذكر أيضا انه بايعه فلما خرج السلطان اليهم بنفسه وانهزم القاضى جلال خلف السلطان شرف الملك أمير بخت أحد الوافدين معنا عليه بكنباية وأمره بالبحث عن أهل الخلاف وجعل معه فقهاء يحكم بقولهم فاحضر الشيخ على الحيدرى بين يديه وثبت انه أعطى للقائم شاشيته ودعا له فحكموا بقتله فلما ضربه السياف لم يفعل شيئا وعجب الناس لذلك وظنوا انه يعفى عنه بسبب ذلك فأمر سيافا آخر بضرب عنقه فضربها رحمه الله تعالى

(ذكر قتله لطوغان وأخيه)

وكان طوغان الفرغانى وأخوه من كبار أهل مدينة فرغانة فوفدا على السلطان فأحسن اليهما وأعطاهما عطاء جزيلا واقاما عنده مدة فلما طال مقامهما أرادا الرجوع الى بلادهما وحاولا الفرار فوشى بهما أحد أصحابهما الى السلطان فأمر بتوسيطهما فوسطا واعطى للذى وشى بهما جميع مالهما وكذلك عادتهم بتلك البلاد اذا وشى أحد بأحد وثبت ماوشى به فقتل اعطى ماله

(*

﴿ذكر قتله لابن ملك التجار﴾

وكان ابن ملك التجار شابا صغيرا الانبات بعارضيه فلما وقع خلاف عين الملك وقيامه وقتاله للسلطان كما سنذكره غلب على ابن ملك التجار هذا فكان فى جملته مقهورا فلما هزم عين الملك وقبض عليه وعلى أصحابه كان من جملتهم ابن ملك التجار وصهره ابن قطب الملك فأمر بهما فعلقا من أيديهما فى خشب وأمر أبناء الملوك فرموهما بالنشاب حتى ماتا ولما ماتا قال الحاجب خواجه أمير على التبريزى لقاضى القضاة كمال الدين ذلك الشاب لم يجب عليه القتل فبلغ ذلك السلطان فقال هلا قلت هذا قبل موته وأمر به فضرب مائتى مقرعة أو نحوها وسجن وأعطى جميع ماله لامير السيافين فرأيته فى ثانى ذلك اليوم قد لبس ثيابه وجعل قلنسوته على رأسه وركب فرسه فظننت انه هو وأقام بالسجن شهورا ثم سرحه ورده الى ما كان عليه ثم غضب عليه ثانية ونفاه الى خراسان فاستقر بهراة وكتب اليه يستعطفه فوقع له على ظهر كتابه اكر بار آمدى باز (أى) معناه ان كنت تبت فارجع فرجع اليه

﴿ذكر ضربه لخطيب الخطباء حتى مات﴾

وكان قد ولى خطيب الخطباء بدهلى النظر فى خزانة الجواهر فى السفر فاتفق ان جاء سراق الكفار ليلا فضربوا على تلك الخزانة وذهبوا بشئ منها فأمر بضرب الخطيب حتى مات رحمه الله تعالى

﴿ذكر تخريبه لدهلى ونفى أهلها وقتل الاعمى والمقعد﴾

ومن أعظم ما كان ينقم على السلطان اجلاؤه لاهل دهلى عنها وسبب ذلك انهم كانوا يكتبون بطائق فيها شتمه وسبه ويختمون عليها ويكتبون عليها وحق رأس خوند عالم ما يقرأها غيره ويرمونها بالمشور ليلا فاذا فضها وجد فيها شتمه وسبه فعزم على تخريب دهلى واشترى من أهلها جميع دورهم ومنازلهم ودفع لهم ثمنها وأمرهم بالانتقال عنها الى دولة آباد فأبوا ذلك فنادى مناديه ان لا يبقى بها أحد بعد ثلاث فانتقل معظمهم واختفى بعضهم فى الدور فأمر بالبحث عمن بقى بها فوجد عبيده بازقتها رجلين أحدهما مقعد والآخر أعمى فأتوا بهما فأمر بالمقعد فرمى به فى المنجنيق وأمر أن يجر الاعمى من دهلى الى دولة آباد مسيرة أربعين يوما فتمزق فى الطريق ووصل منه رجله ولما فعل ذلك خرج أهلها جميعا وتركوا أثقالهم وأمتعتهم وبقيت المدينة خاوية على عروشها فحدثنى من اثق به قال صعد السلطان ليلة الى سطح قصره فنظر الى دهلى وليس بها نار ولا دخان ولا سراج فقال الآن طاب قلبى وتهدن خاطرى ثم كتب الى أهل البلاد أن ينتقلوا الى دهلى ليعمروها فخربت بلادهم ولم

تعمرذهلى لاتساعها وضخامتها وهى من أعظم مدن الدنيا وكذلك وجدناها لما دخلنا اليها خالية ليس بها الا القليل عمارة وقد ذكرنا كثيرا من ما ثر هذا السلطان ومما نقم عليه أيضا فلنذكر جملا من الوقائع والحوادث الكائنة فى أيامه

(ذكر ما افتتح به أمره أول ولايته من منه على بهادور بوره)

ولما ولى السلطان الملك بعد أبيه وبايعه الناس أحضر السلطان غياث الدين بهادور بوره الذى كان أسره السلطان تغلق فمن عليه وفك قيوده وأجزل له العطاء من الاموال والخيل والفيلة وصرفه الى مملكته وبعث معه ابن أخيه ابراهيم خان وعاهده على ان تكون تلك المملكة مشاطرة بينهما وتكتب أسماؤهما معا فى السكة ويخطب لهما وعلى أن يصرف غياث الدين ابنه محمدا المعروف ببرباط يكون رهينة عند السلطان فانصرف غياث الدين الى مملكته والتزم ما شرط عليه الا انه لم يبعث ابنه وادعى انه امتنع وأساء الادب فى كلامه فبعث السلطان العساكر الى ابن أخيه ابراهيم خان وأميرهم دلجى التترى فقاتلوا غياث الدين فقتلوه وسلخوا جلده وحشى بالتبن وطيف به على البلاد

(ذكر ثورة ابن عمته وما اتصل بذلك)

وكان للسلطان تغلق ابن أخت يسمى بهاء الدين كشت اسب (بضم الكاف وسكون الشين المعجم وتاء معلوة) واسب (بالسين المهمل والباء الموحدة مسكنين) فجعله أميرا ببعض النواحى فلما مات خاله امتنع من بيعة ابنه وكان شجاعا بطلا فبعث السلطان اليه العساكر فيهم الامراء الكبار مثل الملك مجير والوزير خواجه جهان أمير على الجيع فالتقى الفرسان واشتد القتال وصبر كلا العسكرين ثم كانت الكرة لعسكر السلطان ففر بهاء الدين الى ملك من ملوك الكفار يعرف بالراى كنبيلة والراى عندهم كمثل ماهو بلسان الروم عبارة عن السلطان وكنبيلة اسم الاقليم الذى هو به وهو (بفتح الكاف وسكون النون وكسر الباء الموحدة وياء ولام مفتوح) وهذا الراى له بلاد فى جبال منيعة وهو من أكابر سلاطين الكفار فلما هرب اليه بهاء الدين اتبعته عساكر السلطان وحصروا تلك البلاد واشتد الامر على الكافر ونفد ما عنده من الزرع وخاف أن يؤخذ باليد فقال لبهاء الدين ان الحال قد بلغت لما تراه وأنا عازم على هلاك نفسى وعيالى ومن تبعنى فاذهب أنت الى السلطان فلان لسلطان من الكفار سماه له فأقم عنده فانه سيمنعك وبعث معه من أوصله اليه وأمر راى كنبيلة بنار عظيمة فأججت واحرق فيها أمتعته وقال لنسائه وبناته انى أريد قتل نفسى فمن أرادت موافقتى فلتفعل فكانت المرأة منهن تغتسل وتدهن بالصندل المقاصرى وتقبل الارض بين يديه وترمى بنفسها فى النار حتى هلكن جميعا وفعل مثل ذلك نساء أمرائه و وزرائه وأرباب

دولته

دولته ومن اراد من سائر النساء ثم اغتسل الراى وادّهن بالصندل ولبس السلاح ما عدى الدرع وفعل كفعله من أراد الموت معه من ناسه وخرجوا الى عسكر السلطان فقاتلوا حتى قتلوا جميعا ودخلت المدينة فأسر أهلها وأسر من أولاد راى كنبيلة أحد عشر ولدا فأتى بهم السلطان فأسلموا جميعا وجعلهم السلطان أمراء وعظمهم لاصالتهم ولفعل أبيهم فرأيت عنده منهم نصرا و بختيار والمهردار وهو صاحب الخاتم الذى يختم به على الماء الذى يشرب السلطان منه وكنيته أبو مسلم وكانت بينى و بينه صحبة ومودة ولما قتل راى كنبيلة توجهت عساكر السلطان الى بلد الكفار الذى لجأ اليه بهاء الدين وأحاطوا به فقال ذلك السلطان أنا لا أقدر على ان أفعل ما فعله راى كنبيله فقبض على بهاء الدين وأسلمه الى عسكر السلطان فقيدوه وغلوه واتوا به اليه فلما أتى به اليه أمر بادخاله الى قرابته من النساء فشتمنه و بصقن فى وجهه وامر بسلخه وهو بقيد الحياة فسلخ وطبخ لحمه مع الارز و بعث لاولاده واهله وجعل باقيه فى صحفة وطرح للفيلة لتأكله فابت اكله وامر بجلده فحشى بالتبن وقرن بجلد بهادور بوره وطيف بهما على البلاد فلما وصلا الى بلاد السند وأمير أمرائها يومئذ كشلوخان صاحب السلطان تغلق ومعينه على أخذ الملك وكان السلطان يعظمه ويخاطبه بالعم ويخرج لاستقباله اذا وفد من بلاده أمر كشلوخان بدفن الجلدين فبلغ ذلك السلطان فشق عليه فعله وأراد الفتك به

(ذكر ثورة كشلوخان وقتله)

ولما اتصل بالسلطان ما كان من فعله فى دفن الجلدين بعث عنه وعلم كشلوخان انه يريد عقابه فامتنع وخالف وأعطى الاموال و جمع العساكر و بعث الى الترك والافغان وأهل خراسان فأتاه منهم العدد الجم حتى كافأ عسكره عسكر السلطان أو أربى عليه كثرة وخرج السلطان بنفسه لقتاله فكان اللقاء على مسيرة يومين من ملتان بصحراء أبوهر وأخذ السلطان بالحزم عند لقائه فجعل تحت الشطر عوضا منه الشيخ عماد الدين شقيق الشيخ ركن الدين الملتانى وهو حدثنى هذا وكان شبيها به فلما حمى القتال انفرد السلطان فى أربعة آلاف من عسكره وقصد عسكر كشلوخان قصد الشطر معتقدين ان السلطان تحته فقتلوا عماد الدين وشاع فى العسكران السلطان قتل فاشتغلت عساكر كشلوخان بالنهب وتفرقوا عنه ولم يبق معه الا القليل فقصده السلطان بمن معه فقتله و جز رأسه وعلم بذلك جيشه ففروا ودخل السلطان مدينة ملتان وقبض على قاضيها كريم الدين وأمر بسلخه فسلخ وأمر برأس كشلوخان فعلق على بابه وقد رأيته معلقا لما وصلت الى ملتان وأعطى السلطان للشيخ ركن الدين أخى عماد الدين ولابنه صدر الدين مائة قرية انعاما عليهم ليأكلوا منها ويطعموا بزاويتهم المنسوبة

لجدّهم بهاء الدين زكرياء وأمر السلطان وزيره خواجه جهان ان يذهب الى مدينة كمال پور وهي مدينة كبيرة على ساحل البحر وكان أهلها قد خالفوا فأخبرني بعض الفقهاء انه حضر دخول الوزير اياها قال واحضر بين يديه القاضي بها والخطيب فأمر بسلخ جلودهما فقالا له أقتلنا بغير ذلك فقال لهما بم استوجبتما القتل فقالا بمخالفتنا أمر السلطان فقال لهما فكيف أخالف أنا أمره وقد أمرني ان أقتلكما بهذه القتلة وقال للمتولين لسلخهما أحفروا لهما حفرا تحت وجوههما يتنفسان فيها فانهم اذا سلخوا والعياذ بالله يطرحون على وجوههم ولما فعل ذلك تمهدت بلاد السند وعاد السلطان الى حضرته

(ذكر الوقيعة بجبل قراجيل على جيش السلطان)

(وأول اسمه قاف وجيم معقودة) وجبل قراجيل هذا جبل كبير يتصل مسيرة ثلاثة أشهر وبينه وبين دهلي مسيرة عشر وسلطانه من أكبر سلاطين الكفار وكان السلطان بعث ملك نكبية رأس الدويدارية الى حرب هذا الجبل ومعه مائة ألف فارس ورجالة سواهم كثير فملك مدينة جدية (وضبطها بكسر الجيم وسكون الدال المهمل وفتح الياء آخر الحروف) وهي أسفل الجبل وملك ما يليها وسبى وخرب وأحرق وفر الكفار الى أعلى الجبل وتركوا بلادهم وأموالهم وخزائن ملكهم وللجبل طريق واحد وعن أسفل منه واد وفوقه الجبل فلا يجوز فيه الا فارس منفرد خلفه آخر فصعدت عساكر المسلمين على ذلك الطريق وتملكوا مدينة ورنكل التي بأعلى الجبل (وضبطها بفتح الواو والراء وسكون النون وفتح الكاف) واحتووا على ما فيها وكتبوا الى السلطان بالفتح فبعث اليهم قاضيا وخطيبا وأمرهم بالاقامة فلما كان وقت نزول المطر غلب المرض على العسكر وضعفوا وماتت الخيل وانحلت القسي فكتب الامراء الى السلطان واستأذنوه في الخروج عن الجبل والنزول الى أسفله بخلال ما ينصرم فصل نزول المطر فيعودون فأذن لهم في ذلك فأخذ الامير نكبية الاموال التي استولى عليها من الخزائن والمعادن وفرقها على الناس ليرفعوها ويوصلوها الى أسفل الجبل فعندما علم الكفار بخروجهم قعدوا لهم بتلك المهاوي وأخذوا عليهم المضيق وصاروا يقطعون الاشجار العادية قطعا ويطرحونها من أعلى الجبل فلا تمر بأحد الا أهلكته فهلك الكثير من الناس وأسر الباقون منهم وأخذ الكفار الاموال والامتعة والخيل والسلاح ولم يفلت من العسكر الا ثلاثة من الامراء كبيرهم نكبية وبدر الدين الملك دولة شاه وثالث لهما لا أذكره وهذه الوقيعة أثرت في جيش الهند أثرا كبيرا وأضعفته ضعفا بينا وصالح السلطان بعدها أهل الجبل على مال يؤدونه اليه لان لهم البلاد أسفل الجبل ولا قدرة لهم على عمارتها الا باذنه

(ذكر ثورة الشريف جلال الدين ببلاد المعبر وما اتصل بذلك من قتل ابن أخت الوزير)

وكان السلطان قد أمر على بلاد المعبر وبينها وبين دهلى مسيرة ستة اشهر الشريف جلال الدين أحسن شاه فخالف وادّعى الملك لنفسه وقتل نواب السلطان وعماله وضرب الدنانير والدراهم باسمه وكان يكتب فى احدى صفحتى الدينار سلالة طه ويس أبو الفقراء والمساكين جلال الدنيا والدين وفى الصفحة الاخرى الواثق بتأييد الرحمن أحسن شاه السلطان وخرج السلطان لما سمع بثورته يريد قتاله فنزل بموضع يقال له كشك زر معناه قصر الذهب وأقام به ثمانية أيام لقضاء حوائج الناس وفى تلك الايام أتى بابن أخت الوزير خواجه جهان وأربعة من الامراء أو ثلاثة وهم مقيدون مغلولون وكان السلطان قد بعث وزيره المذكور فى مقدمته فوصل الى مدينة ظهار وهى على مسيرة أربع وعشرين من دهلى وأقام بها أياما وكان ابن أخته شجاعا بطلا فاتفق مع الامراء الذين أتى بهم على قتل خاله والهروب بما عنده من الخزائن والاموال الى الشريف القائم ببلاد المعبر وعزموا على الفتك بالوزير عند خروجه الى صلاة الجمعة فوشى بهم أحد من أدخلوه فى أمرهم الى الوزير وكان يسمى الملك نصرة الحاجب وأخبر الوزير ان آية ما يرومونه لبسهم الدروع تحت ثيابهم فبعث الوزير عنهم فوجدهم كذلك فبعث بهم الى السلطان وكنت بين يدى السلطان حين وصولهم فرأيت أحدهم وكان طوالا الحى وهو يرعد ويتلو سورة يس فأمر بهم فطرحوا للفيلة المعلمة لقتل الناس وأمر بابن أخت الوزير فرد الى خاله ليقتله فقتله وسنذكر ذلك وتلك الفيلة التى تقتل الناس تكسى أنيابها حدائد مسنونة شبه سكك الحرث لها أطراف كالسكاكين ويركب الفيال على الفيل فاذا رمى بالرجل بين يديه لف عليه خرطومه ورمى به الى الهواء ثم يتلقفه بنابيه ويطرحه بعد ذلك بين يديه ويجعل يده على صدره ويفعل به ما يأمره الفيال على حسب ما أمره السلطان فان أمره بتقطيعه قطعه الفيل قطعا بتلك الحدائد وان أمره بتركه تركه مطروحا فسلخ وكذلك فعل بهؤلاء وخرجت من دار السلطان بعد المغرب فرأيت الكلاب تأكل لحومهم وقد ملئت جلودهم بالتبن والعياذ بالله ولما تجهز السلطان لهذه الحركة أمرنى بالاقامة بالحضرة كما سنذكره ومضى فى سفره الى أن بلغ دولة آباد فثار الامير هلاجون ببلاده وخرج ذلك وكان الوزير خواجه جهان قد بقى أيضا بالحضرة لحشد الحشود وجمع العساكر

(ذكر ثورة هلاجون)

ولما بلغ السلطان الى دولة آباد وبعد عن بلاده ثار الامير هلاجون بمدينة لاهور وادّعى الملك وساعده الامير قلجند على ذلك وصيره وزيراله واتصل ذلك بالوزير خواجه جهان وهو بدهلى فحشد الناس وجمع العساكر وجمع الخراسانيين وكل من كان مقيما من الخدام بدهلى

اخذ اصحابه وأخذ فى الجلة أصحابى لانى كنت بها مقيما وأعانه السلطان بأميرين كبيرين أحدهما قيران ملك صفدار ومعناه مرتب العساكر والثانى الملك تمور الشربدار وهو الساقى وخرج هلاجون بعساكره فكان اللقاء على ضفة احد الاودية الكبار فانهزم هلاجون وهرب وغرق كثير من عساكره فى النهر ودخل الوزير المدينة فسلخ بعض أهلها وقتل آخرين بغير ذلك من أنواع القتل وكان الذى تولى قتلهم محمد بن النجيب نائب الوزير وهو المعروف بأجدر ملك ويسمى أيضا صك (سك) السلطان والصك عندهم الكلب وكان ظالما قاسى القلب ويسميه السلطان أسد الاسواق وكان ربما عض أرباب الجنايات باسنانه شرها وعدوانا وبعث الوزير من نساء المخالفين نحو ثلاثمائة الى حصن كاليور فسجن به ورأيت بعضهن هنالك وكان أحد الفقهاء له فيهن زوجة فكان يدخل اليها حتى ولدت منه فى السجن

(ذكر وقوع الوباء فى عسكر السلطان)

ولما وصل السلطان الى بلاد التلنك وهو قاصد الى قتال الشريف ببلاد المعبر نزل مدينة بدركوت (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة وسكون الدال وفتح الراء وضم الكاف وواو وتاء معلوة) وهى قاعدة بلاد التلنك (وضبطها بكسر التاء المعلوة واللام وسكون النون وكاف معقودة) وبينها وبين بلاد المعبر مسيرة ثلاثة أشهر ووقع الوباء اذذاك فى عسكره فهلك معظمهم ومات العبيد والمماليك وكبار الامراء مثل ملك دولة شاه الذى كان السلطان يخاطبه بالعم ومثل امير عبد الله الهروى وقد تقدمت حكايته فى السفر الاول وهو الذى أمره السلطان ان يرفع من الخزانة ما استطاع من المال فربط ثلاث عشرة خريطة باعضاده ورفعها ولما راى السلطان ما حل بالعسكر عاد الى دولة آباد وخالفت البلاد وانتقضت الاطراف وكاد الملك يخرج عن يده لولا ما سبق به القدر من استحكام سعادته

(ذكر الارجاف بموته وفرار الملك هوشنج)

ولما عاد السلطان الى دولة آباد مرض فى طريقه فأرجف الناس بموته وشاع ذلك فنشأت عنه فتن عريضة وكان الملك هوشنج ابن الملك كمال الدين كرك بدولة آباد وكان بينه وبين السلطان عهد أن لا يبايع غيره أبدا الا فى حياته ولا بعد موته فلما أرجف بموت السلطان هرب الى سلطان كافر يسمى بربرة يسكن بجبال مانعة بين دولة آباد وكوكن تانة فعلم السلطان بفراره وخاف وقوع الفتنة فجد السير الى دولة اباد واقتفى أثر هوشنج وحصره بالخيل وأرسل الكافر أن يسلمه اليه فأبى وقال لا أسلم دخيلى ولو آل بى الامر لما آل براى كنبيلة وخاف هوشنج على نفسه فراسل السلطان وعاهده على أن يرحل السلطان الى دولة آباد ويبقى هنالك قطلوخان معلم السلطان ليستوثق منه هوشنج وينزل اليه على الامان فرحل السلطان

وزل

ونزل هو شيخ الى قطلوخان وعاهده أن لا يقتله السلطان ولا يحط منزلته وخرج بماله وعياله وأصحابه وقدم على السلطان فسر بقدومه وارضاه وخلع عليه وكان قطلوخان صاحب عهد يستنيم الناس اليه ويقولون فى الوفاء عليه ومنزلته عند السلطان علية وتعظيمه له شديد ومتى دخل عليه قام له اجلالا فكان بسبب ذلك لا يدخل عليه حتى يكون هو الذى يدعوه لئلا يتعبه بالقيام له وهو محب فى الصدقات كثير الايثار مولع بالاحسان للفقراء والمساكين

(ذكر ما هم به الشريف ابراهيم من الثورة ومآل حاله)

وكان الشريف ابراهيم المعروف بالخريطة دار وهو صاحب الكاغد والاقلام بدار السلطان واليا على بلاد حانسى وسرستى لما تحرك السلطان الى بلاد المعبر وأبوه هو القائم ببلاد المعبر الشريف أحسن شاه فلما أرجف بموت السلطان طمع ابراهيم فى السلطنة وكان شجاعا كريما حسن الصورة وكنت متزوجا بأخته حور نسب وكانت صالحة تتهجد بالليل ولها أوراد من ذكر الله عز وجل وولدت منى بنتا ولا أدرى ما فعل الله فيهما وكانت تقرأ لكنها لا تكتب فلما هم ابراهيم بالثورة اجتاز به أمير من أمراء السند معه الاموال يحملها الى دهلى فقال له ابراهيم ان الطريق مخوف وفيه القطع فأقم عندى حتى يصلح الطريق وأوصلك الى المأمن وكان قصده أن يتحقق موت السلطان فيستولى على تلك الاموال فلما تحقق حياته سرح ذلك الامير وكان يسمى ضياء الملك ابن شمس الملك ولما وصل السلطان الى الحضرة بعد غيبته سنتين ونصف وصل الشريف ابراهيم اليه فوشى به بعض غلمانه واعلم السلطان بما كان هم به فأراد السلطان أن يعجل قتله ثم تأنى لمحبته فيه فاتفق ان أتى يوما الى السلطان بغزال مذبوح بنظر الى ذبحته فقال لبس بجيد الذكاة اطرحوه فرآه ابراهيم فقال ان ذكاته جيدة وأنا آكله فأخبر السلطان بقوله فأنكر ذلك وجعله ذريعة الى أخذه فأمر به فقيد وغلل ثم قرره على مارمى به من انه أراد أخذ الاموال التى مر بها ضياء الملك وعلم ابراهيم انه انما يريد قتله بسبب أبيه وانه لا تنفعه معذرة وخاف ان يعذب فرأى الموت خيرا له فأقر بذلك فأمر به فوسط وترك هنالك وعادتهم انه متى قتل السلطان أحدا أقام مطروحا بموضع قتله ثلاثا فاذا كان بعد الثلاث أخذه طائفة من الكفار موكلون بذلك فحملوه الى خندق خارج المدينة يطرحونه به وهم يسكنون حول الخندق لئلا يأتى أهل المقتول فيرفعونه وربما أعطى بعضهم لهؤلاء الكفار مالا فتجافوا له عن قتيله حتى يدفنه وكذلك فعل بالشريف ابراهيم رحمه الله تعالى

(ذكر خلاف نائب السلطان ببلاد التلنك)

ولما عاد السلطان من التلنك وشاع خبر موته وكان ترك تاج الملك نصرة خان نائبا عنه ببلاد التلنك وهو من قدماء خواصه بلغه ذلك فعمل عزاء السلطان ودعى لنفسه وبايعه الناس بحضرة

بدركوت فبلغ خبره الى السلطان فبعث معاه قطلوخان فى عساكر عظيمة لحصره بعد قتال شديد هلك فيه أمم من الناس واشتد الحصار على أهل بدركوت وهى منيعة وأخذ قطلوخان فى نقبها فخرج اليه نصرتخان على الامان فى نفسه فأمنه وبعث به الى السلطان وأمن أهل المدينة والعسكر

(ذكر انتقال السلطان لنهر الكنك وقيام عين الملك)

ولما استولى القحط على البلاد انتقل السلطان بعساكره الى نهر الكنك الذى تحج اليه الهنود على مسيرة عشر من دهلى وأمر الناس بالبناء وكانوا قبل ذلك صنعوا اخبياما من حشيش الارض فكانت النار كثيرا ما تقع فيها وتؤذى الناس حتى كانوا يصنعون كهوفا تحت الارض فاذا وقعت النار رموا أمتعتهم بها وسدّوا عليها بالتراب ووصلت أنا فى تلك الايام لمحلة السلطان وكانت البلاد التى بغربى النهر حيث السلطان شديدة القحط والبلاد التى بشرقيه خصبة وأميرها عين الملك ابن ماهر ومنها مدينة عوض ومدينة ظفرآباد ومدينة اللكنو وغيرها وكان الامير عين الملك يحضر كل يوم خمسين ألف منّ منها قمح وارز وحمص لعلف الدواب فأمر السلطان أن تحمل الفيلة ومعظم الخيل والبغال الى الجهة الشرقية المخصبة لترعى هنالك وأوصى عين الملك بحفظها وكان لعين الملك أربعة اخوة وهم شهر الله ونصر الله وفضل الله ولا أذكر اسم الآخر فاتفقوا مع أخيهم عين الملك على أن يأخذوا فيلة السلطان ودوابه ويبايعوا عين الملك ويقوموا على السلطان وهرب اليهم عين الملك بالليل وكاد الامر يتم لهم ومن عادة ملك الهند انه يجعل مع كل أمير كبير أو صغير مملوكا له يكون عينا عليه ويعرفه بجميع حاله ويجعل أيضا جوارى فى الدور يكن عيونا له على أمرائه ونسوة يسمين الكناسات يدخلن الدور بلا استئذان ويخبرهن الجوارى بما عندهن فيخبر الكناسات بذلك ملك المخبرين فيخبر بذلك السلطان ويذكرون ان بعض الامراء كان فى فراشه مع زوجته فأراد ممازحتها فحلفته برأس السلطان أن لا يفعل فلم يسمع منها فبعث عنه السلطان صباحا وأخبره بذلك وكان سبب هلاكه وكان للسلطان مملوك يعرف بابن ملك شاه هو عين على عين الملك المذكور فأخبر السلطان بفراره وجوازه النهر فسقط فى يده وظن انها القاضية عليه لان الخيل والفيلة والزرع كل ذلك عند عين الملك وعساكر السلطان مفترقة فأراد ان يقصد حضرته ويجمع العساكر وحينئذ يأتى لقتاله وشاور أرباب الدولة فى ذلك وكان أمراء خراسان والغرباء أشد الناس خوفا من هذا القائم لانه هندى وأهل الهند مبغضون فى الغرباء لاظهار السلطان لهم فكرهوا ما ظهر له وقالوا ياخوند عالم ان فعلت ذلك بلغه الخبر فاشتد أمره ورتب العساكر وانثال عليه طلاب الشر ودعاة الفتن والاولى معاجلته قبل استحكام قوته وكان أول من تكلم بهذا

ناصر

ناصر الدين مطهر الاوهرى و وافقه جميعهم فعمل السلطان باشارتهم وكتب تلك الليلة الى من
قرب منه من الامراء والعساكر فأتوا من حينهم وادار فى ذلك حيلة حسنة فكان اذا قدم على
محلته مثلا مائة فارس بعث الآلاف من عنده للقائهم ليلا ودخلوا معهم الى المحلة كأن
جميعهم مدد له وتحرك السلطان مع ساحل النهر ليجعل مدينة قنوج وراء ظهره ويتحصن
بها لمنعتها وحصانتها وبينها وبين الموضع الذى كان به ثلاثة أيام فرحل أول مرحلة وقد عبأ
جيشه للحرب وجعلهم صفا واحدا عند نزولهم كل واحد منهم بين يديه سلاحه وفرسه الى
جانبه ومعه خباء صغير يأكل به ويتوضأ ويعود الى مجلسه والمحلة الكبرى على بعد منهم ولم
يدخل السلطان فى تلك الايام الثلاثة خباء ولا استظل بظل وكنت فى يوم منها بخبائى
فصاح بى فتى من فتيانى اسمه سنبل واستعجلنى وكان معى الجوارى فخرجت اليه فقال ان
السلطان امر الساعة أن يقتل كل من معه امرأته أو جاريته فشفع عنده الامراء فأمر ان
لا تبقى الساعة بالمحلة امرأة وان يحملن الى حصن هنالك على ثلاثة أميال يقال له كنبيل
فلم تبق امرأة بالمحلة ولا مع السلطان وبتنا تلك الليلة على تعبئة فلما كان فى اليوم الثانى
رتب السلطان عسكره أفواجا وجعل مع كل فوج الفيلة المدرعة عليها الابراج فوقها المقاتلة
وتدرّع العسكر وتهيؤا للحرب وباتوا تلك الليلة على اهبة ولما كان اليوم الثالث بلغ الخبر
بان عين الملك الثائر اجاز النهر فخاف السلطان من ذلك وتوقع انه لم يفعله الا بعد مراسلة
الامراء الباقين مع السلطان فأمر فى الحين بقسم الخيل العتاق على خواصه وبعث لى
حظا منها وكان لى صاحب يسمى أمير أميران الكرمانى من الشجعان فاعطيته فرسا منها
أشهب اللون فلما حركه جمح به فلم يستطع امساكه ورماه عن ظهره فمات رحمه الله تعالى
وجدّ السلطان ذلك اليوم فى مسيره فوصل بعد العصر الى مدينة قنوج وكان يخاف ان
يسبقه القائم اليها وبات ليلته تلك يرتب الناس بنفسه ووقف علينا ونحن فى المقدّمة مع ابن
عمه ملك فيروز ومعنا الامير غدا ابن مهنى والسيد ناصر الدين مطهر وامراء خراسان فاضافنا
الى خواصه وقال أنتم اعزة علىّ ما ينبغى ان تفارقونى وكان فى عاقبة ذلك الخير فان القائم
ضرب فى آخر الليل على المقدّمة وفيها الوزير خواجه جهان فقامت ضجة فى الناس كبيرة
فحينئذ أمر السلطان أن لا يبرح أحد عن مكانه ولا يقاتل الناس الا بالسيوف فاستلّ العسكر
سيوفهم ونهضوا الى أصحابهم وحمى القتال وأمر السلطان ان يكون شعار جيشه دهلى وغزنة
فاذا لقى أحدهم فارسا قال له دهلى فان أجابه بغزنة علم انه من أصحابه والا قاتله وكان القائم
انما قصد ان يضرب على موضع السلطان فأخطأ به الدليل فقصد موضع الوزير فضرب عنق
الدليل وكان فى عسكر الوزير الاعاجم والترك والخراسانيون وهم اعداء الهنود فصدقوا

القتال وكان جيش القائم نحو الحسين ألفا فانهزموا عند طلوع الفجر وكان الملك ابراهيم المعروف بالبنجى (بفتح الباء الموحدة وسكون النون وجيم) التترى قد اقطعه السلطان بلاد سنديلة وهى قرية من بلاد عين الملك فاتفق معه على الخلاف وجعله نائبه وكان داود بن قطب الملك وابن ملك التجار على فيلة السلطان وخيله فوافقاه ايضا وجعل داود حاجبه وكان داود هذا الماضر بوا على محلة الوزير يجهر بسب السلطان ويشتمه اقبح شتم والسلطان يسمع ذلك ويعرف كلامه فلما وقعت الهزيمة قال عين الملك لنائبه ابراهيم التترى ماذا ترى ياملك ابراهيم قد فرّ أكثر العسكر وذو النجدة منهم فهل لك ان تنجو بأنفسنا فقال ابراهيم لاصحابه بلسانهم اذا أراد عين الملك ان يفر فانى سأقبض على دبوقته فاذا فعلت ذلك فاضربوا انتم فرسه ليسقط الى الارض فنقبض عليه ونأتى به السلطان ليكون ذلك كفارة لذنبى فى الخلاف معه وسببا لخلاصى فلما أراد عين الملك الفرار قال له ابراهيم الى أين ياسلطان علاء الدين وكان يسمى بذلك وامسك بدبوقته وضرب أصحابه فرسه فسقط الى الارض ورمى ابراهيم بنفسه عليه فقبضه وجاء أصحاب الوزير ليأخذوه فنعهم وقال لا أتركه حتى أوصله للوزير أو اموت دون ذلك فتركوه فأوصله الى الوزير وكنت أنظر عند الصبح الى الفيلة والاعلام يؤتى بها الى السلطان ثم جاءنى بعض العراقيين فقال قد قبض على عين الملك وأتى به الوزير فلم أصدقه فلم يمر الايسير وجاءنى الملك تمور الشربدار فأخذ بيدى وقال ابشر فقد قبض على عين الملك وهو عند الوزير فتحرك السلطان عند ذلك ونحن معه الى محلة عين الملك على نهر الكنك فنهبت العساكر ما فيها واقتحم كثير من عسكر عين الملك النهر فغرقوا وأخذ داود بن قطب الملك وابن ملك التجار وخلق كثير معهم ونهبت الاموال والخيل والامتعة ونزل السلطان على المجاز وجاء الوزير بعين الملك وقد أركب على ثور وهو عريان مستور العورة بخرقة مربوطة بحبل وباقيه فى عنقه فوقف على باب السراچة ودخل الوزير الى السلطان فأعطاه الشربة عناية به وجاء ابناء الملوك الى عين الملك فجعلوا يسبونه ويبصقون فى وجهه ويصفعون أصحابه وبعث اليه السلطان الملك الكبير فقال له ما هذا الذى فعلت فلم يجد جوابا فأمر به السلطان ان يكسى ثوبا من ثياب الزمالة وقيد بأربعة كبول وغلت يداه الى عنقه وسلم للوزير ليحفظه وجاز اخوته النهر هاربين ووصلوا مدينة عوض فأخذوا أهلهم وأولادهم وماقدروا عليه من المال وقالوا لزوجة أخيهم عين الملك اخلصى بنفسك وبنيك معنا فقالت أفلا اكون كنساء الكفار اللائى يحرقن انفسهن مع أزواجهن فانا أيضا أموت لموت زوجى وأعيش لعيشه فتركوها وبلغ ذلك السلطان فكان سبب خيرها وأدركته لها رقة وأدرك الفتى سهيل نصر الله من أولائك الاخوة فقتله وأتى السلطان برأسه وأتى بأم

عين الملك واختـه وامرأته فسلمن الى الوزير وجعلن فى خباء بقرب خباء عـين الملك فكان يدخـل اليهن ويجلس معهن ويعود الى محبسه ولما كان بعـد العصر من يوم الهزيمـة أمر السلطان بسراح لفيف الناس الذين مع عين الملك من الزمالة والسوقة والعبيد ومن لا يعبأ به وأتى بملك ابراهيم البنجى الذى ذكرناه فقـال ملك العسكر الملك نوا ياخوند عالم اقتـل هـذا فانه من المخـالفين فقـال الوزير انه قد فدى نفسه بالقـائم فعفى عنه السلطان وسرحه الى بلاده ولمـا كان بعد المغرب جلس السلطان ببرج الخشب وأتى باثنين وستين رجلا من كبار أصحـاب القـائم وأتى بالفيـلة فطرحوا بين أيديهـا فجعلت تقطعهم بالحـدائد الموضوعة عـلى انيابهـا وترمى ببعضهـم الى الهواء وتتلقفه والابواق والانفـار والطبول تضرب عنـد ذلك وعـين الملك واقف يعـاين مقتلهـم ويطرح منهـم عليه ثم أعيـد الى محبسه وأقام السلطان عـلى جواز النهر أياما لكثرة النـاس وقلة القوارب واجاز امتعته وخزائنه عـلى الفيـلة وفرق الفيلة عـلى خواصه ليجـيز وا امتعتهـم وبعث الى بفيل منها اجزت عليه رحلى وقصد السلطان ونحن معه الى مدينة بهرايج (وضبط اسمهـا بفتح الباء الموحدة وهاء مسكن وراء وألف وياء آخر الحروف مكسورة وجيم) وهى مدينة حسنة فى عدوة نهر السرو وهو واد كبـير شـديد الانحـدار واجازه السلطان برسم زيارة قبر الشيخ الصالح البطل سالار عود الذى فتح أكثر تلك البـلاد وله اخبـار عجيبة وغزوات شهـيرة وتكـاثر الناس للجواز وتزاحموا حتى غرق مركب كبير كان فيـه نحو ثلاثمائة نفس لم ينج منهم الا عربى من اصحاب الامير غدا وكنا ركبنا نحن فى مركب صغير فسلمنا الله تعالى وكان العربى الذى سلم من الغرق يسمى بسالم وذلك اتفـاق عجيب وكان أراد ان يصعد معنـا فى مركبنا فوجـدنا قد ركبنا النهر فركب فى المركب الذى غرق فلمـا خرج ظن النـاس انه كان معنا فقامت ضجة فى أصحابنا وفى سائر الناس وتوهموا انا غرقنا ثم لمـا رأونا بعد استبشروا بسلامتنا وزرنا قبر الصالح المذكور وهو فى قبة لم نجـد سبيلا الى دخولها لكثرة الزحام وفى تلك الوجهة دخلنا غيضة قصب فخرج علينا منها الكركدن فقتـل وأتى الناس برأسـه وهو دون الفيل ورأسه أكبر من رأس الفيـل باضعاف وقد ذكرناه

❁(ذكر عودة السلطان لحضرته ومخـالفة على شاه كر)❁

ولمـا ظفر السلطان بعـين الملك كما ذكرنا عاد الى حضرته بعد مغيب عامين ونصف وعـفى عن عين الملك وعفى أيضا عن نصرة خان القـائم ببلاد التلنك وجعلهما معـا على عمل واحد وهو النظر عـلى بساتين السلطان وكساهما واركبهما وعـين لهـما نفقة من الدقيق واللحم فى كل يوم وبلغ الخبر بعد ذلك ان أحـد أصحاب قطلوخان وهو على شاه كر ومعنى كر الاطرش خالف عـلى

السلطان وكان شجاعا حسن الصورة والسيرة فغلب على بدركوت وجعلها مدينة ملكه وخرجت العساكر اليه وأمر السلطان معلمه ان يخرج الى قتاله فخرج فى عساكر عظيمة وحصره ببدركوت ونقبت ابراجها واشتدّ به الحال فطلب الامان فأمنه قطلوخان وبعث به الى السلطان مقيدا فعفى عنه ونفاه الى مدينة غزنة من طرف خراسان فأقام بها مدة ثم اشتاق الى وطنه فأراد العودة اليه لما قضاه الله من حينه فقبض عليه ببلاد السند وأتى به السلطان فقال له انما جئت لتثير الفساد ثانية وأمر به فضربت عنقه

﴿ذكر فرار أمير بخت وأخذه﴾

وكان السلطان قد وجد على أمير بخت الملقب بشرف الملك أحد الذين وفدوا معنا على السلطان فحط مرتبه من أربعين ألفا الى ألف واحد وبعثه فى خدمة الوزير الى دهلى واتفق ان مات أمير عبد الله الهروى فى الوباء فى التلنك وكان ماله عند أصحابه بدهلى فاتفقوا مع أمير بخت على الهروب فلما خرج الوزير من دهلى الى لقاء السلطان هربوا مع أمير بخت وأصحابه ووصلوا الى أرض السند فى سبعة أيام وهو مسيرة أربعين يوما وكانت معهم الخيل مجنوبة وعزموا على ان يقطعوا نهر السند عوما ويركب أمير بخت وولده ومن لا يحسن العوم فى معدية قصب يصنعونها وكانوا قد اعدّوا حبالا من الحرير برسم ذلك فلما وصلوا الى النهر خافوا من عبوره بالعوم فبعثوا رجلين منهم الى جلال الدين صاحب مدينة اوجة فقالا له ان ها هنا تجارا أرادوا أن يعبروا النهر وقد بعثوا اليك بهذا السرج لتبيح لهم الجواز فأنكر الامير ان يعطى التجار مثل ذلك السرج وأمر بالقبض على الرجلين ففر أحدهما ولحق بشرف الملك وأصحابه وهم نيام لما لحقهم من الاعياء ومواصلة السهر فأخبرهم الخبر فركبوا مذعورين وفروا وأمر جلال الدين بضرب الرجل الذى قبض عليه فاعترف بقضية شرف الملك فأمر جلال الدين نائبه فركب فى العسكر وقصدوا نحوهم فوجدوهم قد ركبوا فاقتفوا أثرهم فأدركوهم فرموا العسكر بالنشاب ورمى طاهر بن شرف الملك نائب الامير جلال الدين بسهم فأثبته فى ذراعه وغلب عليهم فأتى بهم الى جلال الدين فقيدهم وغل أيديهم وكتب الى الوزير فى شأنهم فأمره الوزير ان يبعثهم الى الحضرة فبعثهم اليها وسجنوا بها فمات طاهر فى السجن وأمر السلطان ان يضرب شرف الملك مائة مقرعة فى كل يوم فبقى على ذلك مدة ثم عفى عنه وبعثه مع الامير نظام الدين امير بخلة الى بلاد چنديرى فانتهت حاله الى ان كان يركب البقر ولم يكن له فرس يركبه وأقام على ذلك مدة ثم وفد ذلك الامير على السلطان وهو معه فجعله السلطان شاشنكيرة (چاشنكير) وهو الذى يقطع اللحم بين يدى السلطان ويمشى مع الطعام ثم انه بعد ذلك نوه به ورفع مقداره وانتهت حاله الا ان مرض فزاره السلطان وأمر بوزنه بالذهب وأعطاه

ذلك وقد قدمناها هذه الحكاية في السفر الاول وبعد ذلك زوجه بأخته واعطاه بلاد چنديرى التي كان بها البقر في خدمة الامير نظام الدين فسبحان مقلب القلوب ومحيل الاحوال

❁(ذكر خلاف شاه افغان بأرض السند)❁

وكان شاه افغان خالف على السلطان بأرض ملتان من بلاد السند وقتل الامير بها وكان يسمى بهزاد وادّعى السلطنة لنفسه وتجهز السلطان لقتاله فعلم انه لا يقاومه فهرب ولحق لقومه الافغان وهم ساكنون بجبال منيعة لا يقدر عليها فاغتاظ السلطان مما فعله وكتب الى عماله ان يقبضوا على من وجدوه من الافغان ببلاده فكان ذلك سببا لخلاف القاضي جلال

❁(ذكر خلاف القاضي جلال)❁

وكان القاضي جلال وجماعة من الافغانيين قاطنين بمقربة من مدينة كنباية ومدينة بلوذرة فلما كتب السلطان الى عماله بالقبض على الافغانيين كتب الى ملك مقبل نائب الوزير ببلاد الجزرات ونهر والة ان يحتال في القبض على القاضي جلال ومن معه وكانت بلاد بلوذرة اقطاعا لملك الحكماء وكان ملك الحكماء متزوجا بربيبة السلطان زوجة ابيه تغلق ولها بنت من تغلق هي التي تزوجها الامير غدا وملك الحكماء اذ ذاك في صحبة مقبل لان بلاده تحت نظره فلما وصلوا الى بلاد الجزرات أمر مقبل ملك الحكماء ان يأتي بالقاضي جلال وأصحابه فلما وصل ملك الحكماء الى بلاده حذرهم في خفية لانهم كانوا من أهل بلاده وقال ان مقبلا طلبكم ليقبض عليكم فلا تدخلوا عليه الا بالسلاح فركبوا في نحو ثلاثمائة مدرع وأتوه وقالوا لا ندخل الا جملة فظهر له انه لا يمكن القبض عليهم وهم مجتمعون وخاف منهم فأمرهم بالرجوع واظهر تأمينهم فخالفوا عليه ودخلوا مدينة كنباية ونهبوا خزانة السلطان بها وأموال الناس ونهبوا مال ابن الكولمي التاجر وهو الذي عمر المدرسة الحسنة باسكندرية وسنذكره أثر هذا وجاء ملك مقبل لقتالهم فهزموه هزيمة شنيعة وجاء الملك عزيز الخمار والملك جهان بنبل لقتالهم في سبعة آلاف من الفرسان فهزموهم أيضا وتسامع بهم أهل الفساد والجرائم فانثالوا عليهم وادّعى القاضي جلال السلطنة وبايعه أصحابه وبعث السلطان اليه العساكر فهزمها وكان بدولة آباد جماعة من الافغان فخالفوا أيضا

❁(ذكر خلاف ابن الملك مل)❁

وكان ابن الملك مل ساكنا بدولة آباد في جماعة من الافغان فكتب السلطان الى نائبه بها وهو نظام الدين أخو معلمه قطلوخان ان يقبض عليهم وبعث اليه باحمال كثيرة من القيود والسلاسل وبعث بخلع الشتاء وعادة ملك الهند ان يبعث لكل أمير على مدينة ولوجوه

عسكره خلعتين فى السنة خلعة الشتاء وخلعة الصيف واذا جاءت الخلع يخرج الامير والعسكر للقائها فاذا وصلوا الى الآتى بها نزلوا عن دوابهم وأخذ كل واحد خلعته وحملها على كتفه وخدم لجهة السلطان وكتب السلطان لنظام الدين اذا خرج الافغان ونزلوا عن دوابهم لاخذ الخلع فاقبض عليهم عند ذلك وأتى أحد الفرسان الذين أوصلوا الخلع الى الافغان فاخبرهم بما يراد بهم فكان نظام الدين ممن احتال فانعكست عليه فركب وركب الافغان معه حتى اذا لقوا الخلع ونزل نظام الدين عن فرسه حملوا عليه وعلى أصحابه فقبضوا عليه وقتلوا كثيرا من أصحابه ودخلوا المدينة فأخذوا الخزائن وقدّموا على أنفسهم ناصر الدين ابن ملك مل وانثال عليهم المفسدون فقويت شوكتهم

❊(ذكر خروج السلطان بنفسه الى كنباية)❊

ولما بلغ السلطان مافعله الافغان بكنباية ودولة آباد خرج بنفسه وعزم على ان يبدأ بكنباية ثم يعود الى دولة آباد وبعث أعظم ملك البايزيدى صهره فى أربعة آلاف مقدّمة فاستقبلته عساكر القاضى جلال فهزموه وحصروه ببلوذرة وقاتلوه بها وكان فى عسكر القاضى جلال شيخ يسمى جلول وهو احد الشجعان فلا يزال يفتك فى العساكر ويقتل ويطلب المبارزة فلا يتجاسر أحد على مبارزته واتفق يوما انه دفع فرسه فكبا به فى حفرة فسقط عنه وقتل ووجدوا عليه درعين فبعثوا برأسه الى السلطان وصلبوا جسده بسور بلوذرة وبعثوا يديه ورجليه الى البلاد ثم وصل السلطان بعساكره فلم يكن للقاضى جلال من ثبات ففرّ فى أصحابه وتركوا أموالهم وأولادهم فنهب ذلك كله ودخلت المدينة وأقام بها السلطان أياما ثم رحل عنها وترك بها صهره شرف الملك أمير بخت الذى قدّمنا ذكره وقضية فراره وأخذه بالسند وسجنه وما جرى عليه من الذل ثم من العز وأمره بالبحث عمن كان فى طاعة جلال الدين وترك معه الفقهاء ليحكم بأقوالهم فأدّى ذلك الى قتل الشيخ على الحيدرى حسبما قدّمناه ولما هرب القاضى جلال لحق بناصر الدين بن ملك مل بدولة آباد ودخل فى جملته فأتى السلطان بنفسه اليهم واجتمعوا فى نحو أربعين ألفا من الافغان والترك والهنود والعبيد وتحالفوا على ان لا يفروا وان يقاتلوا السلطان وأتى السلطان لقتالهم ولم يرفع الشطر الذى هو علامة عليه فلما استحرّ القتال رفع الشطر فلما عاينوه دهشوا وانهزموا اقبح هزيمة ولجأ ابن ملك مل والقاضى جلال فى نحو أربعمائة من خواصهما الى قلعة الدويقير وسنذكرها وهى من امنع قلعة فى الدنيا واستقر السلطان بمدينة دولة آباد والدويقير هى قلعتها وبعث لهم ان ينزلوا على حكمه فأبوا أن ينزلوا الا على الامان فأبى السلطان أن يؤمنهم وبعث لهم الاطعمة تهاونا بهم وأقام هنالك وعلى ذلك آخر عهدى بهم

❊(ذكر

❊(ذكر قتال مقبل وابن الكولمي)❊

وكان ذلك قبل خروج القاضي جلال وخلافه وكان تاج الدين بن الكولمي من كبار التجار فوفد على السلطان من ارض الترك بهدايا جليلة منها المماليك والجمال والمتاع والسلاح والثياب فاعجب السلطان فعله واعطاه اثني عشر لكا ويذكر انه لم تكن قيمة هديته الا لكا واحدا وولاه مدينة كنباية وكانت لنظر الملك المقبل نائب الوزير فوصل اليها وبعث المراكب الى بلاد المليبار وجزيرة سيلان وغيرها وجاءته التحف والهدايا في المراكب وضخمت حاله ولما لم يبعث اموال تلك الجهات الى الحضرة بعث الملك مقبل الى ابن الكولمي ان يبعث ما عنده من الهدايا والاموال مع هدايا تلك الجهات على العادة فامتنع ابن الكولمي من ذلك وقال انا احملها بنفسي أو ابعثها مع خدّامي ولا حكم لنائب الوزير علي ولا للوزير واغتر بما أولاه السلطان من الكرامة والعطية فكتب مقبل الى الوزير بذلك فوقع له الوزير على ظهر كتابه ان كنت عاجزا عن بلادنا فاتركها وارجع الينا فلما بلغه الجواب تجهز في عسكره ومماليكه والتقيا بظاهر كنباية فانهزم ابن الكولمي وقتل جماعة من الفريقين واستخفى ابن الكولمي في دار الناخودة (الناخذا) الياس أحد كبراء التجار ودخل مقبل المدينة فضرب رقاب أمراء عسكر ابن الكولمي وبعث له الامان على ان يأخذ ماله المختص به ويترك مال السلطان وهديته ومجبى البلد وبعث مقبل بذلك كله مع خدّامه الى السلطان وكتب شاكيا من ابن الكولمي وكتب ابن الكولمي شاكيا منه فبعث السلطان ملك الحكماء لينتصف بينهما وبأثر ذلك كان خروج القاضي جلال الدين فنهب مال ابن الكولمي وفرّ ابن الكولمي في بعض مماليكه ولحق بالسلطان

❊(ذكر الغلاء الواقع بأرض الهند)❊

وفي مدّة مغيب السلطان عن حضرته اذ خرج بقصد بلاد المعبر وقع الغلاء واشتدّ الامر وانتهى المن الى ستين درهما ثم زاد على ذلك وضاقت الاحوال وعظم الخطب ولقد خرجت مرة الى لقاء الوزير فرأيت ثلاث نسوة يقطعن قطعا من جلد فرس مات منذ أشهر ويأكلنه وكانت الجلود تطبخ وتباع في الاسواق وكان الناس اذا ذبحت البقرة أخذوا دماءها فأكلوها وحدّثني بعض طلبة خراسان انهم دخلوا بلدة تسمى اكروهة بين حانسي وسرستي فوجدوها خالية فقصدوا بعض المنازل ليبيتوا به فوجدوا في بعض بيوته رجلا قد اضرم نارا وبيده رجل آدمي وهو يشويها في النار ويأكل منها والعياذ بالله ولما اشتدّ الحال امر السلطان ان يعطى لجميع أهل دهلي نفقة ستة أشهر فكانت القضاة والكتّاب والامراء يطوفون بالازقة والحارات ويكتبون الناس ويعطون لكل أحد نفقة ستة أشهر بحساب رطل ونصف

من ارطال المغرب فى اليوم لكل واحد وكنت فى تلك المدّة اطعم الناس من الطعام الذى اصنعه بمقبرة السلطان قطب الدين حسبما ايذكرفكان الناس ينتعشون بذلك والله تعالى ينفع بالقصد فيه واذ قد ذكرنا من اخبار السلطان وما كان فى أيامه من الحوادث مافيه الكفاية فلنعد الى مايخصنا من ذلك ونذكر كيفية وصولنا اوّلا الى حضرته وتنقل الحال الى خروجنا عن الخدمة ثم خروجنا عن السلطان فى الرسالة الى الصين وعودنا منها الى بلادنا ان شاء الله تعالى

❊(ذكر وصولنا الى دار السلطان عند قدومنا وهو غائب)❊

ولما دخلنا حضرة دهلى قصدنا باب السلطان ودخلنا الباب الاول ثم الثانى ثم الثالث ووجدنا عليه النقباء وقد تقدم ذكرهم فلما وصلنا اليهم تقدم بنا نقيبهم الى مشور عظيم متسع فوجدنا به الوزير خواجه جهان ينتظرنا فتقدم ضياء الدين خداوندزادة ثم تلاه أخوه قوام الدين ثم اخوهما عماد الدين ثم تلوتهم ثم تلانى أخوهم برهان الدين ثم الامير مبارك السمرقندى ثم ارن بغا التركى ثم ملك زادة ابن أخت خداوندزادة ثم بدر الدين الفصال ولما دخلنا من الباب الثالث ظهر لنا المشور الكبير المسمى هزار اسطون (استون) ومعنى ذلك ألف سارية وبه يجلس السلطان الجلوس العام فخدم الوزير عند ذلك حتى قرب رأسه من الارض وخدمنا نحن بالركوع وأوصلنا أصابعنا الى الارض وخدمتنا الناحية سرير السلطان وخدم جميع من معنا فلما فرغنا من الخدمة صاح النقباء باصوات عالية بسم الله وخرجنا

❊(ذكر وصولنا الدار أم السلطان وذكر فضائلها)❊

وأم السلطان تدعى المخدومة جهان وهى من افضل النساء كثيرة الصدقات عمرت زوايا كثيرة وجعلت فيها الطعام للوارد والصادر وهى مكفوفة البصر وسبب ذلك انه لما ملك ابنها جاء اليها جميع الخواتين وبنات الملوك والامراء فى أحسن زى وهى على سرير الذهب المرصع بالجوهر فخدمن بين يديها جميعا فذهب بصرها للحين وعولجت بأنواع العلاج فلم ينفع وولدها أشدّ الناس برورا بها ومن بروره انها سافرت معه مرة فقدم السلطان قبلها بمدّة فلما قدمت خرج لاستقبالها وترجل عن فرسه وقبل رجلها وهى فى المحفة بمرأى من الناس أجمعين ولنعد لما قصدناه فنقول ولما انصرفنا عن دار السلطان خرج الوزير ونحن معه الى باب الصرف وهم يسمونه باب الحرم وهنالك سكنى المخدومة جهان فلما وصلنا بابها نزلنا عن الدواب وكل واحد منا قد أتى بهدية على قدر حاله ودخل معنا قاضى قضاة المماليك كمال الدين بن البرهان فخدم الوزير والقاضى عند بابها وخدمنا كخدمتهم وكتب كاتب بابها هدايانا ثم خرج من الفتيان جماعة وتقدم كبارهم الى الوزير فكاموه سرا ثم عادوا الى القصر ثم رجعوا الى الوزير

ثم

ثم عادوا الى القصر ونحن وقوف ثم أمرنا بالجلوس فى سقيف هنالك ثم أتوا بالطعام وأتوا بقلال من الذهب يسمونها السين (بضم السين والياء آخر الحروف) وهى مثل القدور ولها مرافع من الذهب تجلس عليها يسمونها السبك (بضم السين وبضم الباء الموحدة) وأتوا باقداح وطسوت وأباريق كلها ذهب وجعلوا الطعام سماطين وعلى كل سماط صفان ويكون فى رأس الصف كبير القوم الواردين ولما تقدمنا للطعام خدم الحجاب والنقباء وخدمنا لخدمتهم ثم أتوا بالشربة فشربنا وقال الحجاب بسم الله ثم أكلنا وأتوا بالفقاع ثم بالتنبول ثم قال الحجاب بسم الله فخدمنا جميعا ثم دعينا الى موضع هنالك فخلع علينا خلع الحرير المذهبة ثم أتوا بنا الى باب القصر فخدمنا عنده وقال الحجاب بسم الله ووقف الوزير ووقفنا معه ثم أخرج من داخل القصر تخت ثياب غير مخيطة من حرير وكتان وقطن فاعطى كل واحد منا نصيبه منها ثم أتوا بطيفور ذهب فيه الفاكهة اليابسة وبطيفور مثله فيه الجلاب وطيفور ثالث فيه التنبول ومن عادتهم ان الذى يخرج له ذلك يأخذ الطيفور بيده ويجعله على كاهله ثم يخدم بيده الاخرى الى الارض فأخذ الوزير الطيفور بيده قصدا ان يعلمنى كيف افعل ايناسا منه وتواضعا ومبرة جزاه الله خيرا ففعلت كفعله ثم انصرفنا الى الدار المعدة لنزولنا بمدينة دهلى وبمقربة من دروازة بالم منها وبعثت لنا الضيافة

﴿ذكر الضيافة﴾

ولما وصلت الى الدار التى أعدت لنزولى وجدت فيها ما يحتاج اليه من فرش وبسط وحصر وأوان وسرير الرقاد وأسرتهم بالهند خفيفة الحمل يحمل السرير منها الرجل الواحد ولا بد لكل أحد ان يستصحب السرير فى السفر يحمله غلامه على رأسه وهو أربع قوائم مخروطة يعرض عليها أربعة أعواد وتنسج عليها ضفائر من الحرير أو القطن فاذا نام الانسان عليه لم يحتج الى ما يرطبه به لانه يعطى الرطوبة من ذاته وجاءوا مع السرير بمضربتين ومخدتين ولحاف كل ذلك من الحرير وعادتهم ان يجعلوا المضربات والحوف (واللحف) وجوها تغشيها من كتان أو قطن بيضا فتى توسخت غسلوا الوجوه المذكورة وبقى ما فى داخلها مصونا واتوا تلك الليلة برجلين أحدهما الطاحونى ويسمونه الخراص والآخر الجزار ويسمونه القصاب فقالوا لنا خذوا من هذا كذا وكذا من الدقيق ومن هذا كذا وكذا من اللحم لاوزان لا أذكرها الآن وعادتهم ان يكون اللحم الذى يعطون بقدر وزن الدقيق وهذا الذى ذكرناه ضيافة أم السلطان وبعد ذلك وصلتنا ضيافة السلطان وسنذكرها ولما كان من غد ذلك اليوم ركبنا الى دار السلطان وسلمنا على الوزير فاعطانى بدرتين كل بدرة من ألف دينار دراهم وقال لى هذه سرشتى (شستى) ومعناه لغسل رأسك واعطانى خلعة من المرعز وكتب جميع أصحابى

وخدامي وغلماني فجعلوا أربعة اصناف فالصنف الاوّل منها أعطى كل واحد منهم مائتى دينار والصنف الثاني اعطى كل واحد منهم مائة وخمسين دينارا والصنف الثالث أعطى كل واحد مائة دينار والصنف الرابع اعطى كل واحد خمسة وسبعين دينارا وكانوا نحوأربعين وكان جملة ما اعطوه أربعة آلاف دينار ونيفا وبعد ذلك عينت ضيافة السلطان وهى ألف رطل هندية من الدقيق ثلثها من الميرا وهو الدرمك وثلثاها من الخشكار وهو المدهون وألف رطل من اللحم ومن السكر والسمن والسليف والفوفل ارطال كثيرة لاأذكر عددها والالف من ورق التنبول والرطل الهندي عشرون رطلا من أرطال المغرب وخمسة وعشرون من أرطال مصر وكانت ضيافة خداوندزاده أربعة آلاف رطل من الدقيق ومثلها من اللحم مع ما يناسبها مما ذكرناه

❋(ذكر وفاة بنتي وما فعلوا في ذلك)❋

ولما كان بعد شهر ونصف من مقدمنا توفيت بنت لى سنها دون السنة فاتصل خبر وفاتها بالوزير فأمر ان تدفن في زاوية بناها خارج دروازة بالم بقرب مقبرة هنالك لشيخنا ابراهيم القونوى فدفناها بها وكتب بخبرها الى السلطان فأتاه الجواب في عشى اليوم الثاني وكان بين متصيد السلطان وبين الحضرة مسيرة عشرة أيام وعادتهم ان يخرجوا الى قبر الميت صبيحة الثالث من دفنه ويفرشون جوانب القبر بالبسط وثياب الحرير ويجعلون على القبر الازاهير وهى لاتنقطع هنالك في فصل من الفصول كالياسمين وقل شبه (كل شبو) وهى زهر أصفر ورييول وهو أبيض والنسرين وهو على صنفين أبيض وأصفر ويجعلون اغصان النارنج والليمون بثمارها وان لم يكن فيها ثمار علقوا منها حبات بالخيوط ويصبون على القبر الفواكه اليابسة وجوز النارجيل ويجتمع الناس ويؤتى بالمصاحف فيقرأون القرآن فاذا ختموه اتوا بماء الجلاب فسقوه الناس ثم يصب عليهم ماء الورد صبا ويعطون التنبول وينصرفون ولما كان صبيحة الثالث من دفن هذه البنت خرجت عند الصبح على العادة واعددت ماتيسر من ذلك كله فوجدت الوزير قد أمر بترتيب ذلك وأمر بسراجة فضربت على القبر وجاء الحاجب شمس الدين الفوشنجى الذى تلقانا بالسند والقاضي نظام الدين الكرواني وجملة من كبار أهل المدينة ولم آت الا والقوم المذكورون قد أخذوا مجالسهم والحاجب بين أيديهم وهم يقرؤن القرآن فقعدت مع أصحابي بقربة من القبر فلما فرغوا من القراءة قرأ القراء باصوات حسان ثم قام القاضي فقرأ رثاء في البنت المتوفاة وثناء على السلطان وعند ذكر اسمه قام الناس جميعا قياما فخدموا ثم جلسوا ودعا القاضي دعاء حسنا ثم أخذ الحاجب وأصحابه براميل ماء الورد فصبوه على الناس ثم داروا عليهم باقداح شربة النبات ثم

فرقوا

فرقواعليهم التنبول ثم أتى باحدى عشرة خلعة لى ولاصحابى ثم ركب الحاجب وركبنامعه الى دار السلطان فخدمنا السرير على العادة وانصرفت الى منزلى فلما وصلت الاوقد جاء الطعام من دار المخدومة جهان ماملا الدار ودور أصحابى وأكلوا جميعا وأكل المساكين وفضلت الاقراص والحلواء والنبات فأقامت بقاياها اياما وكان فعل ذلك كله بأمر السلطان وبعد أيام جاء الفتيان من دار المخدومة جهان بالدولة وهى المحفة التى يحمل فيها النساء ويركبها الرجال أيضا وهى شبه السرير سطحها من صفائر الحرير أو القطن وعليها عود شبه الذى على البوجات عندنا معوج من القصب الهندى المغلوق ويحملها ثمانية رجال فى نوبتين يستريح اربعة ويحمل أربعة وهذه الدول بالهند كالحمير بديار مصر عليها يتصرف أكثر الناس فمن كان له عبيد حملوه ومن لم يكن له عبيد اكترى رجالا يحملونه وبالبلد منهم جماعة يسيرة يقفون فى الاسواق وعند باب السلطان وعند ابواب الناس للكرى وتكون دول النساء مغشاة بغشاء حرير وكذلك كانت هذه الدولة التى اتى الفتيان بها من دار أم السلطان فحملوا فيها جاريتى التى هى أم البنت المتوفاة وبعثت انا معها عن هدية جارية تركية فأقامت الجارية أم البنت عندهم ليلة وجاءت فى اليوم الثانى وقد اعطوها الف دينار دراهم واساور ذهب مرصعة وتهليلا من الذهب مرصعا أيضا وقيص كتان مزركشا بالذهب وخلعة حرير مذهبة وتختا باثواب ولما جاءت بذلك كله اعطيته لاصحابى وللتجار الذين لهم على الدين محافظة على نفسى وصونا للعرض لان المخبرين يكتبون الى السلطان بجميع احوالى

❊(ذكر احسان السلطان والوزير الى فى أيام غيبة السلطان عن الحضرة)❊

وفى اثناء مقامى أمر السلطان ان يعين لى من القرى مايكون فائدة خمسة آلاف دينار فى السنة فعينها الى الوزير واهل الديوان وخرجت اليها فنها قرية تسمى بدلى (بفتح الباء الموحدة وفتح الدال المهملة وكسر اللام) وقرية تسمى بسهى (بفتح الباء الموحدة والسين المهمل وكسر الهاء) ونصف قرية تسمى بلرة (بفتح الباء الموحدة واللام والراء) وهذه القرى على مسافة ستة عشر كروها وهو الميل بصدى يعرف بصدى هندبت والصدى عندهم مجموع مائة قرية واحواز المدينة مقسومة اصداء كل صدى له جوطرى وهو شيخ من كفار تلك البلاد ومتصرف وهو الذى يضم مجابيها وكان قد وصل فى ذلك الوقت سبى من الكفار فبعث الوزير الى عشر جوار منه فاعطيت للذى جاء بهن واحدة منهن فما رضى بذلك وأخذ أصحابى ثلاثا صغارا منهن وباقيهن لا اعرف مااتفق لهن والسبى هنالك رخيص الثمن لانهن قذرات لا يعرفن مصالح الحضر والمعلمات رخيصات الاثمان فلا يفتقر أحد الى شراء السبى والكفار ببلاد الهند فى بر متصل وبلاد متصلة مع المسلمين والمسلمون غالبون عليهم وانما يمتنع الكفار

بالجبال والاوعار ولهم غيضات من القصب وقصبهم غير مجوف ويعظم ويلتف بعضه على بعض ولاتؤثر فيه النار وله قوة عظيمة فيسكنون تلك الغياض وهى لهم مثل السور وبداخلها تكون مواشيهم وزروعهم ولهم فيها المياه مما يجتمع من ماء المطر فلا يقدر عليهم الا بالعساكر القوية من الرجال الذين يدخلون تلك الغياض ويقطعون تلك القصب بآلات معدة لذلك

﴿ذكر العيد الذى شهدته أيام غيبة السلطان﴾

واظل عيد الفطر والسلطان لم يعد بعد الى الحضرة فلما كان يوم العيد ركب الخطيب على الفيل وقد مهد له على ظهره شبه السرير وركزت أربعة اعلام فى اركانه الاربعة ولبس الخطيب ثياب السواد وركب المؤذنون على الفيلة يكبرون امامه وركب فقهاء المدينة وقضاتها وكل واحد منهم يستصحب صدقة يتصدق بها حين الخروج الى المصلى ونصب على المصلى صيوان قطن وفرش ببسط واجتمع الناس ذاكرين الله تعالى ثم صلى بهم الخطيب وخطب وانصرف الناس الى منازلهم وانصرفنا الى دار السلطان وجعل الطعام فحضره الملوك والامراء والاعزة وهم الغرباء وأكلوا وانصرفوا

﴿ذكر قدوم السلطان ولقائنا له﴾

ولما كان فى رابع شوال نزل السلطان بقصر يسمى تلبت (بكسر التاء المعلوة الاولى وسكون اللام وفتح الباء الموحدة ثم تاء كالاولى) وهى على مسافة سبعة اميال من الحضرة فأمرنا الوزير بالخروج اليه فخرجنا ومع كل انسان هديته من الخيل والجمال والفواكه الخراسانية والسيوف المصرية والمماليك والغنم المجلوبة من بلاد الاتراك فوصلنا الى باب القصر وقد اجتمع جميع القادمين فكانوا يدخلون الى السلطان على قدر مراتبهم ويخلع عليهم ثياب الكتان المزركشة بالذهب ولما وصلت النوبة الى دخلت فوجدت السلطان قاعدا على كرسى فظننته أحد الحجاب حتى رأيت معه ملك الندماء ناصر الدين الكافى الهروى وكنت عرفته ايام غيبة السلطان فخدم الحاجب فخدمت واستقبلنى أمير حاجب وهو ابن عم السلطان المسمى بفيروز وخدمت ثانية لخدمته ثم قال لى ملك الندماء بسم الله مولانا بدر الدين وكانوا يدعوننى بأرض الهند بدر الدين وكل من كان من أهل الطلب انما يقال له مولانا فقربت من السلطان حتى أخذ بيدى وصافحنى وامسك يدى وجعل يخاطبنى باحسن خطاب ويقول لى باللسان الفارسى حلت البركة قدومك مبارك اجمع خاطرك اعمل معك من المراحم واعطيك من الانعام مايسمع به أهل بلادك فيأتون اليك ثم سألنى عن بلادى فقلت له بلاد المغرب فقال لى بلاد عبد المؤمن فقلت له نعم وكان كلما قال لى كلاما جيدا

قبلت يده حتى قبلتها سبع مرات وخلع على وانصرفت واجتمع الواردون فمد لهم سماط ووقف على رؤوسهم قاضى القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمى وكان من كبار الفقهاء وقاضى قضاة المماليك صدر الجهان كمال الدين الغزنوى وعماد الملك عرض المماليك والملك جلال الدين الكيجى وجماعة من الحجاب والامراء وحضر لذلك خداوندزاده غياث الدين ابن عم خداوندزاده قوام الدين قاضى الترمذ الذى قدم معنا وكان السلطان يعظمه ويخاطبه بالاخ وتردد اليه مرارا من بلاده والواردون الذين خلع عليهم فى ذلك هم خداوند زاده قوام الدين واخوته ضياء الدين وعماد الدين وبرهان الدين وابن أخته أمير بخت ابن السيد تاج الدين وكان جده وجيه الدين وزير خراسان وكان خاله علاء الدين أمير هند ووزيرا أيضا والامير هبة الله بن الفلكى التبريزى وكان أبوه نائب الوزير بالعراق وهو الذى بنى المدرسة الفلكية بتبريز وملك كراى من أولاد بهرام جور (چوبين) صاحب كسرى وهو من أهل جبل بذخشان الذى منه يجلب الياقوت البلخش واللازورد والامير مبارك شاه السمرقندى وأرون بغا البخارى وملك زاده الترمذى وشهاب الدين الكازرونى التاجر الذى قدم من تبريز بالهدية الى السلطان فسلب فى طريقه

﴿ذكر دخول السلطان الى حضرته وما أمر لنا به من المراكب﴾

وفى الغد من يوم خروجنا الى السلطان أعطى كل واحد منا فرسا من مراكب السلطان عليه سرج ولجام محليان وركب السلطان لدخول حضرته وركبنا فى مقدمته مع صدر الجهان وزينت الفيلة امام السلطان وجعلت عليها الاعلام ورفعت عليها ستة عشر شطرا منها مزركشة ومنها مرصعة ورفع فوق رأس السلطان شطر منها وحملت امامه الغاشية وهى ستارة مرصعة وجعل على بعض الفيلة رعادات صغار فلما وصل السلطان الى قرب المدينة رمى فى تلك الرعادات بالدنانير والدراهم مختلطة والمشاة بين يدى السلطان وسواهم ممن حضر يلتقطون ذلك ولم يزالوا ينثرونها الى ان وصلوا الى القصر وكان بين يديه آلاف من المشاة على الاقدام وصنعت قباب الخشب المكسوة بثياب الحرير وفيها المغنيات حسبما ذكرنا ذلك

﴿ذكر دخولنا اليه وما انعم به من الاحسان والولايه﴾

ولما كان يوم الجمعة ثانى يوم دخول السلطان اتينا باب المشور فجلسنا فى سقائف الباب الثالث ولم يكن الاذن حصل لنا بالدخول وخرج الحاجب شمس الدين الفوشنجى فأمر الكتاب ان يكتبوا اسماءنا وأذن لهم فى دخولنا ودخول بعض أصحابنا وعين للدخول معى ثمانية فدخلنا ودخلوا معنا ثم جاؤا بالبدر والقبان وهو الميزان وقعد قاضى القضاة والكتاب

ودعوا من بالباب من الاعزة وهم الغرباء فعين نوالكل انسان نصيبه من تلك البدر فحصل لى منها خمسة آلاف دينار وكان مبلغ المال مائة ألف دينار تصدّقت به أم السلطان لما قدم ابنها وانصرفنا ذلك اليوم وكان السلطان بعد ذلك يستدعينا للطعام بين يديه ويسأل عن أحوالنا ويخاطبنا بأجمل كلام ولقد قال لنا في بعض الايام أنتم شرفتمونا بقدومكم فما نقدر على مكافاتكم فالكبير منكم مقام والدى والكهل مقام أخى والصغير مقام ولدى ومافى ملكى أعظم من مدينتى هذه أعطيكم اياها فشكرناه ودعونا له ثم بعد ذلك أمر لنا بالمرتبات فعين لى اثنى عشر ألف دينار فى السنة وزادنى قريتين على الثلاث التى أمر لى بها قبل احداهما قرية جوزة والثانية قرية ملك پور وفى بعض الايام بعث لنا خداوندزاده غياث الدين وقطب الملك صاحب السند فقالا لنا ان خوند عالم يقول لكم من كان منكم يصلح للوزارة أو الكتابة أو الامارة او القضاء أو التدريس أو المشيخة اعطيته ذلك فسكت الجميع لانهم كانوا يريدون تحصيل الاموال والانصراف الى بلادهم وتكلم أمير بخت ابن السيد تاج الدين الذى تقدّم ذكره فقال أما الوزارة فميراثى وأما الكتابة فشغلى وغير ذلك لا أعرفه وتكلم هبة الله بن الفلكى فقال مثل ذلك وقال لى خداوندزاده بالعربى ماتقول أنت ياسيدى وأهل تلك البلاد مايدعون العربى الا بالتسويد وبذلك يخاطبه السلطان تعظيما للعرب فقلت له أما الوزارة والكتابة فليست شغلى وأما القضاء والمشيخة فشغلى وشغل آبائى وأما الامارة فتعلمون ان الاعاجم ما اسلمت الا بأسياف العرب فلما بلغ ذلك الى السلطان أعجبه كلامى وكان بهزار اسطون يأكل الطعام فبعث عنا فأكلنا بين يديه وهو يأكل ثم انصرفنا الى خارج هزار اسطون فقعد أصحابى وانصرفت بسبب دمل كان يمنعنى الجلوس فاستدعانا السلطان ثانية فحضر أصحابى واعتذروا له عنى وجئت بعد صلاة العصر فصليت بالمشور المغرب والعشاء الآخرة ثم خرج الحاجب فاستدعانا فدخل خداوندزاده ضياء الدين وهو أكبر الاخوة المذكورين فجعله السلطان أمير داد وهو من الامراء الكبار فجلس بمجلس القاضى فمن كان له حق على أمير أو كبير احضره بين يديه وجعل مرتبه على هذه الخطة خمسين ألف دينار فى السنة عين له مجاشر فائدها ذلك المقدار فأمر له بخمسين ألفا عن يد وخلع عليه خلعة حرير مزركشة تسمى صورة الشير ومعناه صورة السبع لانه يكون فى صدرها وظهرها صورة سبع وقد خيط فى باطن الخلعة بطاقة بمقدار ما زركش فيها من الذهب وأمر له بفرس من الجنس الاول والخيل عندهم أربعة أجناس وسروجهم كسروج أهل مصر ويكسون اعظمها بالفضة المذهبة ثم دخل أمير بخت فأمره أن يجلس مع الوزير فى مسنده ويقف على محاسبات الدواوين وعين له مرتبا أربعين ألف دينار فى السنة أعطى مجاشر فائدها بمقدار ذلك

وأعطى

واعطى اربعين الفا عن يد واعطى فرسا مجهزا وخلع عليه كخلعة الذى قبله ولقب شرف الملك ثم دخل هبة الله ابن الفلكى فجعله رسول دار ومعناه حاجب الارسال وعين له مرتبا أربعين ألف دينار فى السنة أعطى مجاشر يكون فائدها بمقدار ذلك واعطى أربعة وعشرين ألفا عن يد واعطى فرسا مجهزا وخلعة وجعل لقبه بهاء الملك ثم دخلت فوجدت السلطان على سطح القصر مستندا الى السرير والوزير خواجه جهان بين يديه والملك الكبير قبولة واقف بين يديه فلما سلمت عليه قال لى الملك الكبير اخدم فقد جعلك خوند عالم قاضى دار الملك دهلى وجعل مرتبك اثنى عشر ألف دينار فى السنة وعين لك مجاشر بمقدارها وأمر لك باثنى عشر ألفا نقدا تأخذها من الخزانة غدا ان شاء الله واعطاك فرسا بسرجه ولجامه وأمر لك بخلعة محاربيز وهى التى يكون فى صدرها وظهرها شكل محراب فقلت خدمت وأخذ بيدى فتقدم بى الى السلطان فقال لى السلطان لا تحسب قضاء دهلى من اصغر الاشغال هو أكبر الاشغال عندنا وكنت افهم قوله ولا أحسن الجواب عنه وكان السلطان يفهم العربى ولا يحسن الجواب عنه فقلت له يا مولانا انا على مذهب مالك وهؤلاء حنفية وانا لا أعرف اللسان فقال لى قد عينت بهاء الدين الملتانى وكمال الدين البجنورى ينوبان عنك ويشاورانك وتكون أنت تسجل على العقود وأنت عندنا بمقام الولد فقلت له بل عبدكم وخديمكم فقال لى باللسان العربى بل أنت سيدنا ومخدومنا تواضعا منه وفضلا وإيناسا ثم قال لشرف الملك أمير بخت ان كان الذى رتب له لا يكفيه لانه كثير الانفاق فانا أعطيه زاوية ان قدر على اقامة حال الفقراء وقال قل له هذا بالعربى وكان يظن انه يحسن العربى ولم يكن كذلك وفهم السلطان ذلك فقال له برو ويكجا بخسبى (بخسبى) وان حكاية براو بكوى وتفهيم كنى (بكنى) تا فردا ان شاء الله پيش من بيايى (و) جواب او بكرى (بكوى) معناه امشوا الليلة فارقدوا فى موضع واحد وفهمه هذه الحكاية فاذا كان بالغد ان شاء الله تجئ الى وتعلمنى بكلامه فانصرفنا وذلك فى ثلث الليل وقد ضربت النوبة والعادة عندهم اذا ضربت لا يخرج أحد فانتظرنا الوزير حتى خرج وخرجنا معه ووجدنا أبواب دهلى مسدودة فبتنا عند السيد أبى الحسن العبادى العراقى بزقاق يعرف بسرا پورخان وكان هذا الشيخ يتجر بمال السلطان ويشترى له الاسلحة والامتعة بالعراق وخراسان ولما كان بالغد بعث عنا فقبضنا الاموال والخيل والخلع وأخذ كل واحد منا البدرة بالمال فجعلها على كاهله ودخلنا كذلك على السلطان فخدمنا وأتينا بالافراس فقبلنا حوافرها بعد ان جعلت عليها الخرق وقدناها بأنفسنا الى باب دار السلطان فركبناها وذلك كله عادة عندهم ثم انصرفنا وأمر السلطان لاصحابى بألفى دينار وعشر خلع ولم يعط لاصحاب احد سواى شيئا وكان أصحابى لهم رواء ومنظر فأعجبوا السلطان وخدموا بين يديه وشكرهم

﴿ذكر عطاء ثان أمر لي به وتوقفه مدة﴾

وكنت يوما بالمشور بعد أيام من تولي القضاء والاحسان الي وانا قاعد تحت شجرة هنالك والى جانبي مولانا ناصر الدين الترمذي العالم الواعظ فأتى بعض الحجاب فدعى مولانا ناصر الدين فدخل الى السلطان فخلع عليه وأعطاه مصحفا مكللا بالجوهر ثم أتاني بعض الحجاب فقال اعطني شيئا وآخذ لك خط خرد باثني عشر ألفا أمر لك بها خوند عالم فلم أصدقه وظننته يريد الحيلة علي وهو مجد في كلامه فقال بعض الاصحاب انا أعطيه فاعطاه دينارين أو ثلاثة وجاء بخط خرد ومعناه الخط الاصغر مكتوبا بتعريف الحاجب ومعناه أمر خوند عالم ان يعطى من الخزانة الموفورة كذا لفلان بتبليغ فلان أي بتعريفه ويكتب المبلغ اسمه ثم يكتب على تلك البراءة ثلاثة من الامراء وهم الخان الاعظم قطلوخان معلم السلطان والخريطة دار وهو صاحب خريطة الكاغد والاقلام والامير نكبية الدوادار صاحب الدوات فاذا كتب كل واحد منهم خطه يذهب بالبراءة الى ديوان الوزارة فينسخها كتاب الديوان عندهم ثم تثبت في ديوان الاشراف ثم تثبت في ديوان النظر ثم تكتب البروانة وهي الحكم من الوزير للخازن بالعطاء ثم يثبتها الخازن في ديوانه ويكتب تلخيصا في كل يوم بمبلغ ما أمر به السلطان ذلك اليوم من المال ويعرضه عليه فمن أراد التعجيل بعطائه أمر بتعجيله ومن أراد التوقيف وقفه له ولكن لابد من عطاء ذلك ولو طالت المدة فقد توقفت هذه الاثنا عشر ألفا ستة أشهر ثم أخذتها مع غيرها حسبما يأتي وعادتهم اذا أمر السلطان باحسان لاحد يحط منه العشر فمن أمر له مثلا بمائة ألف أعطى تسعين ألفا أو بعشرة آلاف أعطى تسعة آلاف

﴿ذكر طلب الغرماء مالهم قبلي ومدحي للسلطان وأمره بخلاص ديني وتوقف ذلك مدة﴾

وكنت حسبما ذكرته قد استدنت من التجار مالا انفقته في طريقي وما صنعت به الهدية للسلطان وما انفقته في اقامتي فلما أرادوا السفر الى بلادهم الحوا علي في طلب ديونهم فمدحت السلطان بقصيدة طويلة أولها

(طويل)

اليك أمير المؤمنين المبجلا ❊ اتينا نجد السير نحوك في الفلا
فجئت محلا من علائك زائرا ❊ ومغناك كهف للزيارة أهلا
فلو ان فوق الشمس للمجد رتبة ❊ لكنت لاعلاها اماما مؤهلا
فأنت الامام الماجد الاوحد الذي ❊ سجاياه حتما أن يقول ويفعلا
ولي حاجة من فيض جودك أرتجي ❊ قضاها وقصدي عند مجدك سهلا
أأذكرها أم قد كفاني حياؤكم ❊ فان حياكم ذكره كان أجملا

فعجل

فعجل لمن وافى محلك زائرا * قضادينه ان الغريم تعجلا

فقدمتها بين يديه وهو قاعد على كرسي فجعلها على ركبته وامسك طرفها بيده وطرفها الثاني بيدي وكنت اذا أكملت بيتا منها أقول لقاضى القضاة كمال الدين الغزنوى بين معناه لخوند عالم فيبينه ويعجب السلطان وهم يحبون الشعر العربي فلما بلغت الى قولى فعجل لمن وافى البيت قال مرحمة ومعناه ترحمت عليك فأخذ الحجاب حينئذ بيدى ليذهبوا بى الى موقفهم واخدم على العادة فقال السلطان اتركوه حتى يكملها فاكملتها وخدمت وهنأنى الناس بذلك وأقمت مدة وكتبت رفعا وهم يسمونه عرض داشت فدفعته الى قطب الملك صاحب السند فدفعه للسلطان فقال له امض الى خواجه جهان فقل له يعطى دينه فمضى اليه واعلمه فقال نعم وابطأ ذلك اياما وأمره السلطان فى خلالها بالسفر الى دولة آباد وفى اثناء ذلك خرج السلطان الى الصيد وسافر الوزير فلم آخذ شيئا منها الا بعد مدة والسبب الذى توقف به عطاؤها اذكره مستوفى وهوانه لما عزم الذين كان لهم على الدين الى السفر قلت لهم اذا أنا أتيت دار السلطان فدرهونى على العادة فى تلك البلاد لعلى ان السلطان متى يعلم بذلك خلصهم وعادتهم انه متى كان لاحد دين على رجل من ذوى العناية وأعوزه خلاصه وقف له بباب دار السلطان فاذا أراد الدخول قال له درو هى السلطان وحق رأس السلطان ماتدخل حتى تخلصنى فلا يمكنه أن يبرح من مكانه حتى يخلصه أو يرغب اليه فى تأخيره فاتفق يوما ان خرج السلطان الى زيارة قبر أبيه ونزل بقصر هنالك فقلت لهم هذا وقتكم فلما أردت الدخول وقفوا لى بباب القصر فقالوا لى درو هى السلطان ماتدخل حتى تخلصنا وكتب كتاب الباب بذلك الى السلطان فخرج حاجب قصة شمس الدين وكان من كبار الفقهاء فسألهم لاى شئ درهتموه فقالوا لنا عليه الدين فرجع الى السلطان فاعلمه بذلك فقال له اسألهم كم مبلغ الدين فسألهم فقالوا له خمسة وخمسون ألف دينار فعاد اليه فاعلمه فأمره ان يعود اليهم ويقول لهم ان خوند عالم يقول لكم المال عندى وانا أنصفكم منه فلا تطلبوه به وأمر عماد الدين السمنانى وخداوندزاده غياث الدين ان يقعدوا بهزار اسطون ويأتى أهل الدين بعقودهم وينظروا اليها ويتحققوها ففعلا ذلك وأتى الغرماء بعقودهم فدخلا الى السلطان واعلماه بثبوت العقود فضحك وقال ممازحا أنا أعلم انه قاض جهز شغله فيها ثم أمر خداوندزاده ان يعطينى ذلك من الخزانة فطمع فى الرشوة على ذلك وامتنع ان يكتب خط خرد فبعثت اليه مائتى تنكة فردها ولم يأخذها وقال لى عنه بعض خدامه انه طلب خمسمائة تنكه فامتنعت من ذلك واعلمت عميد الملك بن عماد الدين السمنانى بذلك فاعلم به اباه وعلمه الوزير وكانت بينه وبين خداوندزاده عداوة فاعلم السلطان بذلك وذكر له

كثيرا من افعال خداوندزاده فغير خاطر السلطان عليه فأمر بحبسه فى المدينة وقال لاى شئ اعطاه فلان ما أعطاه ووقفوا ذلك حتى يعلم هل يعطى خداوندزاده شيئا اذا منعته أو يمنعه اذا أعطيته فبهذ السبب توقف عطاء دينى

﴿ذكر خروج السلطان الى الصيد وخروجى معه وما صنعت فى ذلك﴾

ولما خرج السلطان الى الصيد خرجت معه من غير تربص وكنت قد أعددت ما يحتاج اليه وعملت ترتيب أهل الهند فاشتريت سراچة وهى افراج وضربها هنالك مباح ولابد منها لكبار الناس وتمتاز سراچة السلطان بكونها حمراء وسواها بيضاء منقوشة بالازرق واشتريت الصيوان وهو الذى يظلل به داخل السراچة ويرفع على عمودين كبيرين ويحمل ذلك الرجال على أعناقهم ويقال لهم الكيوانية والعادة هنالك ان يكترى المسافر الكيوانية وقد ذكرناهم ويكترى من يسوق له العشب لعلف الدواب لانهم لا يطعمونها التبن ويكترى الكهارين وهم الذين يحملون أوانى المطبخ ويكترى من يحمله فى الدولة وقد ذكرناها ويحملها فارغة ويكترى الفراشين وهم الذين يضربون السراچة ويفرشونها ويرفعون الاحمال على الجمال ويكترى الدوادوية وهم الذين يمشون بين يديه ويحملون المشاعل بالليل فاكتريت انا جميع من احتجت له منهم واظهرت القوة والهمة وخرجت يوم خروج السلطان وغيرى اقام بعده اليومين والثلاثة فلما كان بعد العصر من يوم خروجه ركب الفيل وقصده ان يتطلع على احوال الناس ويعرف من تسارع الى الخروج ومن ابطأ وجلس خارج السراچة على كرسى فجئت وسلمت ووقفت فى موقفى بالميمنة فبعث الى الملك الكبير قبولة سرجامدار وهو الذى يشرد الذباب عنه فأمرنى بالجلوس عناية بى ولم يجلس فى ذلك اليوم سوائى ثم أتى بالفيل والصق به سلم فركب عليه ورفع الشطر فوق رأسه وركب معه الخواص وجال ساعة ثم عاد الى السراچة وعادته اذا ركب أن يركب الامراء أفواجا كل أمير بفوجه وعلاماته وطبوله وانفاره وصرنا ياته ويسمون ذلك المراتب ولا يركب امام السلطان الا الحجاب وأهل الطرب والطبالة الذين يتقلدون الاطبال الصغار والذين يضربون الصرنايات ويكون عن يمين السلطان نحو خمسة عشر رجلا وعن يساره مثل ذلك منهم قضاة القضاة والوزير وبعض الامراء الكبار وبعض الاعزة وكنت انا من أهل ميمنته ويكون بين يديه المشاؤون والادلاء ويكون خلفه علاماته وهى من الحرير المذهب والاطبال على الجمال وخلف ذلك مماليكه وأهل دخلته وخلفهم الامراء وجميع الناس ولا يعلم أحد أين يكون النزول فاذا أمر السلطان بمكان يعجبه النزول به أمر بالنزول ولا تضرب سراچة احد حتى تضرب سراچته ثم يأتى الموكلون بالنزول فينزلون كل أحد فى منزله وفى خلال ذلك ينزل السلطان على نهر او بين اشجار وتقدم بين

يديه

يديه لحوم الاغنام والدجاج المسمنة والكراكى وغيرها من أنواع الصيد ويحضر ابناء الملوك وفى يد كل واحد منهم سفود ويوقدون النار ويشترون ذلك ويؤتى بسراچة صغيرة فتضرب للسلطان ويجلس من معه من الخواص خارجها ويؤتى بالطعام ويستدعى من شاء فيأكل معه وكان فى بعض تلك الايام وهو بداخل السراچة يسأل عمن بخارجها فقال له السيد ناصر الدين مطهر الاوهرى احد ندمائه ثم فلان المغربى وهو متغير فقال لماذا فقال بسبب الدين الذى عليه وغرماؤه يلحون فى الطلب وكان خوند عالم قد أمر الوزير باعطائه فسافر قبل ذلك فان أمر مولانا ان يصبر أهل الدين حتى يقدم الوزير أو أمر بانصافهم وحضر لهذا الملك دولة شاه وكان السلطان يخاطبه بالعم فقال ياخوند عالم كل يوم هو يكلمنى بالعربية ولا أدرى مايقول ياسيدى ناصر الدين ماذا وقصد ان يكرر ذلك الكلام فقال يتكلم لاجل الدين الذى عليه فقال السلطان اذا دخلنا دار الملك فامض انت ياأومار ومعناه ياعم الى الخزانة فاعطه ذلك المال وكان خداوندزاده حاضرا فقال ياخوند عالم انه كثير الانفاق وقد رأيته ببلادنا عند السلطان طرمشيرين وبعد هذا الكلام استحضرنى السلطان للطعام ولا علم عندى بما جرى فلما خرجت قال لى السيد ناصر الدين اشكر للملك دولة شاه وقال لى الملك دولة شاه اشكر لخداوندزاده وفى بعض تلك الايام ونحن مع السلطان فى الصيد ركب فى المحلة وكان طريقه على منزلى وانا معه فى الميمنة وأصحابى فى الساقة وكان لى خباء عند السراچة فوقف أصحابى عندها وسلموا على السلطان فبعث عماد الملك وملك دولة شاه ليسألا لمن تلك الاخبية والسراچة فقيل لهما لفلان فأخبراه بذلك فتبسم فلما كان بالغد نفذ الامر ان اعود انا وناصر الدين مطهر الاوهرى وابن قاضى مصر وملك صبيح الى البلد فخلع علينا وعدنا الى الحضرة

❊(ذكر الجمل الذى اهديته للسلطان)❊

وكان السلطان فى تلك الايام سألنى عن الملك الناصر هل يركب الجمل فقلت له نعم يركب المهارى فى أيام الحج فيسير الى مكة من مصر فى عشرة أيام ولكن تلك الجمال ليست كجمال هذه البلاد واخبرته ان عندى جملا منها فلما عدت الى الحضرة بعثت عن بعض عرب مصر فصور لى صورة الكور الذى تركب المهارى به من القير وأريتها بعض النجارين فعمل الكور واتقنه وكسوته بالملف وصنعت له ركبا وجعلت على الجمل عباءة حسنة وجعلت له خطام حرير وكان عندى رجل من أهل اليمن يحسن عمل الحلواء فصنع منها مايشبه التمر وغيره وبعثت الجمل والحلواء الى السلطان وأمرت الذى حملها ان يدفعها على يد ملك دولة شاه وبعثت له بفرس وجملين فلما وصله ذلك دخل على السلطان وقال ياخوند عالم رأيت العجب

قال وماذلك قال فلان بعث جملا عليه سرج فقال ائتوا به فادخل الجمل داخل السراچة واعجب به السلطان وقال لراجلي اركبه فركبه ومشاه بين يديه وأمر له بمائتي دينار دراهم وخلعة وعاد الرجل الى فاعلمني فسرني ذلك واهديت له جملين بعد عودته الى الحضرة

﴿ذكر الجملين اللذين اهديتهما اليه والحلواء وأمره بخلاص ديني وما تعلق بذلك﴾

ولما عاد الى راجلي الذي بعثته بالجمل فاخبرني بما كان من شأنه صنعت كورين اثنين وجعلت مقدم كل واحد ومؤخره مكسوا بصفائح الفضة المذهبة وكسوتهما بالملف وصنعت رسنا مصفحا بصفائح الفضة وجعلت لهما جلين من زردخانة مبطنين بالكمخا وجعلت للجملين الخلاخيل من الفضة المذهبة وصنعت احد عشر طيفورا وملاتها بالحلواء وغطيت كل طيفور بمنديل حرير فلما قدم السلطان من الصيد وقعد ثاني يوم قدومه بموضع جلوسه العام غدوت عليه بالجمال فأمر بها فحركت بين يديه وهرولت فطار خلخال احدها فقال لبهاء الدين بن الفلكي پايل ورداري معنى ذلك ارفع الخلخال فرفعه ثم نظر الى الطيافير فقال جداري (چه داري) درآن طبقها حلوا است معنى ذلك ما معك في تلك الاطباق حلواء هي فقلت له نعم فقال للفقيه ناصر الدين الترمذي الواعظ ما اكلت قط ولا رأيت مثل الحلواء التي بعثها الينا ونحن بالمعسكر ثم أمر بتلك الطيافير ان ترفع لموضع جلوسه الخاص فرفعت وقام الى مجلسه واستدعاني وأمر بالطعام فأكلت ثم سألني عن نوع من الحلواء الذي بعثت له قبل فقلت له ياخوندعالم تلك الحلواء انواعها كثيرة ولا أدري عن أي نوع تسألون منها فقال ائتوا بتلك الاطباق وهم يسمون الطيفور طبقا فاتوا بها وقدموها بين يديه وكشفوا عنها فقال عن هذا سألتك وأخذ الصحن الذي هي فيه فقلت له هذه يقال لها المقرصة ثم أخذ نوعا آخر فقال وما اسم هذه فقلت له هي لقيمات القاضي وكان بين يديه تاجر من شيوخ بغداد يعرف بالسامري وينتسب الى آل العباس رضي الله تعالى عنه وهو كثير المال ويقول له السلطان والدي فحسدني وأراد ان يخجلني فقال ليست هذه لقيمات القاضي بل هي هذه وأخذ قطعة من التي تسمى جلد الفرس وكان بازائه ملك الندماء ناصر الدين الكافي الهروي وكان كثيرا ما يمازح هذا الشيخ بين يدي السلطان فقال له ياخواجة انت تكذب والقاضي يقول الحق فقال له السلطان وكيف ذلك فقال ياخوندعالم هو القاضي وهي لقيماته فانه أتى بها فضحك السلطان وقال صدقت فلما فرغنا من الطعام أكل الحلواء ثم شرب الفقاع بعد ذلك وأخذنا التنبول وانصرفنا فلم يكن غير هنيهة واتاني الخازن فقال ابعث أصحابك يقبضون المال فبعثتهم وعدت الى داري بعد المغرب فوجدت المال بها وهو ثلاث بدر فيها ستة آلاف ومائتان وثلاث وثلاثون تنكة وذلك صرف الخمسة والخمسين ألفا التي هي دين علي

وصرف

وصرف الاثنى عشر ألفا التى امر لى بها فيما تقدّم بعد حط العشر على عادتهم وصرف التنكة ديناران ونصف دينار من ذهب المغرب

❀(ذكر خروج السلطان وأمره لى بالاقامة بالحضرة)❀

وفى تاسع جمادى الاولى خرج السلطان برسم قصد بلاد المعبر وقتال القائم بها وكنت قد خلصت أصحاب الدين وعزمت على السفر واعطيت مرتب تسعة أشهر للكهارين والفراشين والكيوانية والدوادوية وقد تقدّم ذكرهم فخرج الامر باقامتى فى جملة ناس وأخذ الحاجب خطوطنا بذلك لتكون حجة له وتلك عادتهم خوفا من ان ينكر المبلغ وأمر لى بستة آلاف دينار دراهم وأمر لابن قاضى مصر بعشرة آلاف وكذلك كل من أقام من الاعزة وأما البلديون فلم يعطوا شيئا وأمرنى السلطان ان اتولى النظر فى مقبرة السلطان قطب الدين الذى تقدّم ذكره وكان السلطان يعظم تربته تعظيما شديدا لانه كان خديما له ولقد رأيته اذا أتى قبره يأخذ نعله فيقبله ويجعله فوق رأسه وعادتهم ان يجعلوا نعل الميت عند قبره فوق متكأة وكان اذا وصل القبر خدم له كما كان يخدم أيام حياته وكان يعظم زوجته ويدعوها بالاخت وجعلها مع حرمه وزوّجها بعد ذلك لابن قاضى مصر واعتنى به من أجلها وكان يمضى لزيارتها فى كل جمعة ولما خرج السلطان بعث عنا للوداع فقام ابن قاضى مصر فقال أنا لا أوادع ولا أفارق خوند عالم فكان له فى ذلك الخير فقال له السلطان امض فتجهز للسفر وقدمت بعده للوداع وكنت أحب الاقامة ولم تكن عاقبتها محمودة فقال مالك من حاجة فأخرجت بطاقة فيها ست مسائل فقال لى تكلم بلسانك فقلت له ان خوند عالم أمر لى بالقضاء وما قعدت لذلك بعد وليس مرادى من القضاء الا حرمته فأمرنى بالقعود للقضاء وقعود النائبين معى ثم قال لى ايه فقلت وروضة السلطان قطب الدين ماذا افعل فيها فانى رتبت فيها اربعمائة وستين شخصا ومحصول أوقافها لا يفى بمرتباتهم وطعامهم فقال للوزير پنجاه هزار ومعناه خمسون ألفا ثم قال لك لابدّ لك من غلة بديه يعنى أعطه مائة ألف من من المغلة وهى القمح والارز ينفقها فى هذه السنة حتى تأتى غلة الروضة والمن عشرون رطلا مغربية ثم قال لى وماذا أيضا فقلت ان أصحابى سجنوا بسبب القرى التى اعطيتمونى فانى عوضتها بغيرها فطلب أهل الديوان ماوصلنى منها أو الاستظهار بأمر خوند عالم ان يرفع عنى ذلك فقال كم وصلك منها فقلت خمسة آلاف دينار فقال هى انعام عليك فقلت له ودارى التى امرتم لى بها مفتقرة الى البناء فقال للوزير عمارة كنيد أى معناه عمروها ثم قال لى ديكر غاند فقلت له لا معناه هل بقى لك كلام فقال لى وصية ديكر هست معناه أوصيك ان لا تأخذ الدين لئلا تطالب فلا تجد من يبلغ خبرك الى انفق على قدر ما أعطيتك قال الله

تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط وكلوا واشربوا ولا تسرفوا والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما فاردت ان أقبل قدمه فمنعنى وامسك رأسى بيده فقبلتها وانصرفت وعدت الى الحضرة فاشتغلت بعمارة دارى وأنفقت فيها أربعة آلاف دينار أعطيت منها من الديوان ستمائة دينار وزدت عليها الباقى وبنيت بازائها مسجدا واشتغلت بترتيب مقبرة السلطان قطب الدين وكان السلطان قد أمر ان تبنى عليه قبة يكون ارتفاعها فى الهواء مائة ذراع بزيادة عشرين ذراعا على ارتفاع القبة المبنية على قازان ملك العراق وأمر ان تشترى ثلاثون قرية تكون وقفا عليها وجعلها بيدى على ان يكون لى العشر من فائدها على العادة

﴿ذكر ما فعلته فى ترتيب المقبرة﴾

وعادة اهل الهند ان يرتبوا الاموات ترتيبا كترتيبهم بقيد الحياة ويؤتى بالفيلة والخيل فتربط عند باب التربة وهى مزينة فرتبت انا فى هذه التربة بحسب ذلك ورتبت من قراء القرآن مائة وخمسين وهم يسمونهم الختميين ورتبت من الطلبة ثمانين ومن المعيدين ويسمونهم المكررين ثمانية ورتبت لها مدرسا ورتبت من الصوفية ثمانين ورتبت الامام والمؤذنين والقراء بالاصوات الحسان والمداحين وكتاب الغيبة والمعرفين وجميع هؤلاء يعرفون عندهم بالارباب ورتبت صنفا آخر يعرفون بالحاشية وهم الفراشون والطباخون والدوادوية والابدارية وهم السقاؤون والشربدارية الذين يسقون الشربة والتنبول دارية الذين يعطون التنبول والسلحدارية والنيزدارية والشطردارية والطشت دارية والحجاب والنقباء فكان جميعهم أربعمائة وستين وكان السلطان أمر ان يكون الطعام بها كل يوم اثنى عشر منا من الدقيق ومثلها من اللحم فرأيت ان ذلك قليل والزرع الذى أمر به كثير فكنت أنفق كل يوم خمسة وثلاثين منا من الدقيق ومثلها من اللحم مع ما يتبع ذلك من السكر والنبات والسمن والتنبول وكنت أطعم المرتبين وغيرهم من صادر ووادر وكان الغلاء شديدا فارتفق الناس بهذا الطعام وشاع خبره وسافر الملك صبيح الى السلطان بدولة آباد فسأله عن حال الناس فقال له لو كان بدهلى اثنان مثل فلان لما شكا الجهد فأعجب ذلك السلطان وبعث الى بخلعة من ثيابه وكنت اصنع فى المواسم وهى العيدان والمولد الكريم ويوم عاشوراء وليلة النصف من شعبان ويوم وفاة السلطان قطب الدين مائة من من الدقيق ومثلها لحما فيأكل منها الفقراء والمساكين وأما أهل الوظيفة فيجعل امام كل انسان منهم ما يخصه ولنذكر عادتهم فى ذلك

﴿

﴿ذكر عادتهم فى اطعام الناس فى الولائم﴾

وعادتهم ببلاد الهند وبلاد السرا انه اذا فرغ من أكل الطعام فى الوليمة جعل امام كل انسان من الشرفاء والفقهاء والمشايخ والقضاة وعاشيه المهد له أربع توائم منسوج سطحه من الخوص وجعل عليه الرقاق ورأس غنم مشوى وأربعة اقراص معجونة بالسمن مملوءة بالحلواء الصابونية مغطاة باربع قطع من الحلواء كانها الاجر وطبقا صغيرا مصنوعا من الجلد فيه الحلواء والسموسك ويغطى ذلك الوعاء بثوب قطن جديد ومن كان دون من ذكرناه جعل امامه نصف رأس غنم ويسمونه الزلة ومقدار النصف مما ذكرناه ومن كان دون هؤلاء أيضا جعل امامه مثل الربع من ذلك ويرفع رجال كل أحد ما جعل امامه وأول ما رأيتهم يصنعون هذا بمدينة السرا حضرة السلطان أوزبك فامتنعت ان يرفع رجالى ذلك اذ لم يكن لى به عهد وكذلك يبعثون أيضا الدار كبراء الناس من طعام الولائم

﴿ذكر خروجى الى هزار أمروها﴾

وكان الوزير قد أعطانى من الغلة المأمور بها للزاوية عشرة آلاف من ونفذ لى الباقى فى هزار أمروها وكان والى الخراج بها عزيز الخمار وأميرها شمس الدين البذخشانى فبعثت رجالى فأخذوا بعض الاحالة وتشكوا من تعسف عزيز الخمار فخرجت بنفسى لاستخلاص ذلك وبين دهلى وهذه العمالة ثلاثة أيام وكان ذلك أوان نزول المطر فخرجت فى نحو ثلاثين من أصحابى واستصحبت معى اخوين من المغنيين المحسنين يغنيان لى فى الطريق فوصلنا الى بلدة بجنور وضبط اسمها (بكسر الباء الموحدة وسكون الجيم وفتح النون وآخره راء) فوجدت بها أيضا ثلاثة اخوة من المغنيين فاستصحبتهم فكانوا يغنون لى نوبة والآخران نوبة ثم وصلنا الى أمروها وهى بلدة صغيرة حسنة فخرج عمالها للقائى وجاء قاضيها الشريف أمير على وشيخ زاويتها واضافانى معا ضيافة حسنة وكان عزيز الخمار بموضع يقال له افغانپور على نهر السرو وبيننا وبينه النهر ولا معدية فيه فأخذنا الاثقال فى معدية صنعناها من الخشب والنبات وجزنا فى اليوم الثانى وجاء نجيب اخو عزيز فى جماعة من أصحابه وضرب لنا سراچة ثم جاء اخوه الى الوالى وكان معروفا بالظلم وكانت القرى التى فى عمالته ألفا وخمسمائة قرية ومجباها ستون لكا فى السنة له فيها نصف العشر ومن عجائب النهر الذى نزلنا عليه انه لا يشرب منه أحد فى أيام نزول المطر ولا تسقى منه دابة ولقد اقمنا عليه ثلاثا فما غرف منه أحد غرفة ولا كدنا نقرب منه لانه ينزل من جبل قراچيل التى بها معادن الذهب ويمر على الخشاش المسمومة فمن شرب منه مات وهذا الجبل متصل مسيرة ثلاثة أشهر وينزل منه الى بلاد تبت حيث غزلان المسك وقد ذكرنا ما اتفق على جيش المسلمين بهذا الجبل وبهذا

الموضع جاء الى جماعة من الفقراء الحيدرية وعملوا السماع وأوقدوا النيران فدخلوها ولم تضرهم وقد ذكرنا ذلك وكانت قد نشأت بين أمير هذه البلاد شمس الدين البذخشانى وبين واليها عزيز الخمار منازعة وجاء شمس الدين لقتاله فامتنع منه بداره وبلغت شكاية احدهما الوزير بدهلى فبعث الى الوزير والى الملك شاه أمير المماليك بأمرهما وهم أربعة آلاف مملوك للسلطان والى شهاب الدين الرومى ان ننظر فى قضيتهما فمن كان على الباطل بعثناه مثقفا الى الحضرة فاجتمعوا جميعا بمنزلى وادّعى عزيز على شمس الدين دعاوى منها ان خديما له يعرف بالرضى الملتانى نزل بدار خازن عزيز المذكور فشرب بها الخمر وسرق خمسة آلاف دينار من المال الذى عند الخازن فاستفهمت الرضى عن ذلك فقال لى ماشربت الخمر منذ خروجى من ملتان وذلك ثمانية أعوام فقلت له أوشربتها بملتان قال نعم فأمرت بجلده ثمانين وسجنته بسبب الدعوى للوث ظهر عليه وانصرفت عن أمروها فكانت غيبتى نحو شهرين وكنت فى كل يوم اذبح لاصحابى بقرة وتركت أصحابى ليأتوا بالزرع المنفذ على عزيز وحمله عليه فوزع على أهل القرى التى لنظره ثلاثين ألف من يحملونها على ثلاثة آلاف بقرة وأهل الهند لا يحملون الا على البقر وعليه يرفعون اثقالهم فى الاسفار وركوب الحمير عندهم عيب كبير وحميرهم صغار الاجرام يسمونها اللاشة واذا أرادوا اشهار أحد بعد ضربه اركبوه الحمار

❁(ذكر مكرمة لبعض الاصحاب)❁

وكان السيد ناصر الدين الاوهرى قد ترك عندى لما سافر ألفا وستين تنكة فتصرفت فيها فلما عدت الى دهلى وجدته قد أحال فى ذلك المال خداوندزاده قوام الدين وكان قدم نائبا عن الوزير فاستقبحت ان اقول له تصرفت فى المال فأعطيته نحو ثلثه واقمت بدارى اياما وشاع أنى مرضت فأتى ناصر الدين الخوارزمى صدر الجهان لزيارتى فلما رآنى قال ما أرى بك مرضا فقلت له انى مريض القلب فقال لى عرفنى بذلك فقلت له ابعث الى نائبك شيخ الاسلام اعرفه به فبعثه الى فاعلمته فعاد اليه بما علمه فبعث الى بألف دينار دراهم وكان له عندى قبل ذلك ألفا ثانيا ثم طلب منى بقية المال فقلت فى نفسى ما يخلصنى منه الا صدر الجهان المذكور لانه كثير المال فبعثت اليه بفرس مسرج قيمته وقيمة سرجه ألف وستمائة دينار وبفرس ثان قيمته وقيمة سرجه ثمانمائة دينار وببغلتين قيمتهما ألف ومائتا دينار وبتركش فضة وبسيفين غمداهما مغشيان بالفضة وقلت له انظر قيمة الجميع وابعث الى ذلك فأخذ ذلك وعمل لجميعه قيمة ثلاثة آلاف دينار فبعث الى ألفا واقتطع الالفين فتغير خاطرى ومرضت بالحمى وقلت فى نفسى ان شكوت به الى الوزير افتضحت فأخذت خمسة أفراس وجاريتين

ومملوكين

ومملوكين وبعثت الجميع للملك مغيث الدين محمد بن ملك الملوك عماد الدين السمنانى وهو فتى السن فردّ على ذلك وبعث الى مائتى تنكة واغزر وخلصت من ذلك المال فشتان بين فعل محمد ومحمد

(ذكر خروجى الى محلة السلطان)

وكان السلطان لما توجه الى بلاد المعبر وصل الى التلنك ووقع الوباء بعسكره فعاد الى دولة آباد ثم وصل الى نهر الكنك فنزل عليه وأمر الناس بالبناء وخرجت فى تلك الايام الى محلته واتفق ما سردناه من مخالفة عين الملك ولازمت السلطان فى تلك الايام واعطانى من عتاق الخيل لما قسمها على خواصه وجعلنى فيهم وحضرت معه الوقيعة على عين الملك والقبض عليه وجزت معه نهر الكنك ونهر السرو لزيارة قبر الصالح البطل سالار عود (مسعود) وقد استوفيت ذلك كله وعدت معه الى حضرة دهلى لما عاد اليها

(ذكر ما هم به السلطان من عقابى وما تداركنى من لطف الله تعالى)

وكان سبب ذلك انى ذهبت يوماً لزيارة الشيخ شهاب الدين بن الشيخ الجام بالغار الذى احتفره خارج دهلى وكان قصدى رؤية ذلك الغار فلما أخذه السلطان سأل أولاده عمن كان يزوره فذكروا ناسا أنا من جملتهم فأمر السلطان أربعة من عبيده بملازمتى بالمشور وعادته انه متى فعل ذلك مع أحد قلما يتخلص فكان أول يوم من ملازمتهم لى يوم الجمعة فالهمنى الله تعالى الى تلاوة قوله حسبنا الله ونعم الوكيل فقرأتها ذلك اليوم ثلاثة وثلاثين ألف مرة وبت بالمشور وواصلت الى خمسة أيام فى كل يوم منها اختم القرآن وافطر على الماء خاصة ثم افطرت بعد خمس وواصلت اربعا وتخلصت بعد قتل الشيخ والحمد لله تعالى

(ذكر انقباضى عن الخدمة وخروجى عن الدنيا)

ولما كان بعد مدة انقبضت عن الخدمة ولازمت الشيخ الامام العالم العابد الزاهد الخاشع الورع فريد الدهر ووحيد العصر كمال الدين عبد الله الغارى وكان من الاولياء وله كرامات كثيرة قد ذكرت منها ما شاهدته عند ذكر اسمه وانقطعت الى خدمة هذا الشيخ ووهبت ما عندى للفقراء والمساكين وكان الشيخ يواصل عشرة أيام وربما واصل عشرين فكنت أحب ان اواصل فكان ينهانى ويأمرنى بالرفق على نفسى فى العبادة ويقول لى ان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا ابقى وظهر لى من نفسى تكاسل بسبب شئ بقى معى فخرجت عن جميع ما عندى من قليل وكثير واعطيت ثياب ظهرى لفقير ولبست ثيابه ولازمت هذا الشيخ خمسة أشهر والسلطان اذ ذاك غائب ببلاد السند

﴿ذكر بعث السلطان عنى وابايتى عن الرجوع الى الخدمة واجتهادى فى العبادة﴾
ولما بلغ السلطان خبر خروجى عن الدنيا استدعانى وهو يومئذ بسيوستان فدخلت عليه فى زى الفقراء فكلمنى أحسن كلام والطفه وأراد منى الرجوع الى الخدمة فأبيت وطلبت منه الاذن فى السفر الى الحجاز فاذن لى فيه وانصرفت عنه ونزلت بزاوية تعرف بالنسبة الى الملك بشير وذلك فى أواخر جمادى الثانية سنة ثنتين وأربعين فاعتكفت بها شهر رجب وعشرا من شعبان وانتهيت الى مواصلة خمسة أيام وافطرت بعدها على قليل ارز دون ادام وكنت أقرأ القرآن كل يوم واتهجد بما شاء الله وكنت اذا أكلت الطعام أذانى فاذا طرحته وجدت الراحة وآقمت كذلك أربعين يوما ثم بعث عنى ثانية

﴿ذكر ما أمرنى به من التوجه الى الصين فى الرسالة﴾
ولما كملت لى أربعون يوما بعث الى السلطان خيلا مسرجة وجوارى وغلمانا وثيابا ونفقة فلبست ثيابه وقصدته وكانت لى جبة قطن زرقاء مبطنة لبستها ايام اعتكافى فلما جردتها ولبست ثياب السلطان أنكرت نفسى وكنت متى نظرت الى تلك الجبة أجد نورا فى باطنى ولم تزل عندى الى ان سلبنى الكفار فى البحر ولما وصلت الى السلطان زاد فى اكرامى على ما كنت أعهده وقال لى انما بعثت اليك لتتوجه عنى رسولا الى ملك الصين فانى أعلم حبك فى الاسفار والجولان فجهزنى بما احتاج له وعين للسفر معى من يذكر بعد

﴿ذكر سبب بعث الهدية للصين وذكر من بعث معى وذكر الهدية﴾
وكان ملك الصين قد بعث الى السلطان مائة مملوك وجارية وخمسمائة ثوب من الكمخا منها مائة من التى تصنع بمدينة الزيتون ومائة من التى تصنع بمدينة الخنسا وخمسة امنان من المسك وخمسة أثواب مرصعة بالجوهر وخمسة من التراكش مزركشة وخمسة سيوف وطلب من السلطان ان يأذن له فى بناء بيت الاصنام الذى بناحية جبل قراجيل المتقدم ذكره ويعرف الموضع الذى هو به بسمهل (بفتح السين المهمل وسكون الميم وفتح الهاء) واليه تحج أهل الصين وتغلب عليه جيش الاسلام بالهند فخربوه وسلبوه فلما وصلت هذه الهدية الى السلطان كتب اليه بأن هذا المطلب لا يجوز فى ملة الاسلام اسعافه ولا يباح بناء كنيسة بأرض المسلمين الا لمن يعطى الجزية فان رضيت باعطائها ابحنا لك بناءه والسلام على من اتبع الهدى وكافاه عن هديته بخير منها وذلك مائة فرس من الجياد مسرجة ملجمة ومائة مملوك ومائة جارية من كفار الهند مغنيات ورواقص ومائة ثوب بيرمية وهى من القطن ولا نظير لها فى الحسن قيمة الثوب منها مائة دينار ومائة شقة من ثياب الحرير المعروفة بالجز (بضم الجيم وزاى) وهى التى يكون حرير احداها مصبوغا بخمسة الوان وأربعة ومائة ثوب من الثياب المعروفة

بالصلاحية

بالصلاحية ومائة ثوب من الشيرين باف ومائة ثوب من الشان باف وخمسمائة ثوب من المرعز مائة منها سود ومائة بيض ومائة حمر ومائة خضر ومائة زرق ومائة شقة من الكتان الرومي ومائة فضلة من الملف وسراجة وست من القباب وأربع حسك من ذهب وست حسك من فضة منيلة وأربعة طسوت من الذهب ذات أباريق كمثلها وستة طسوت من الفضة وعشر خلع من ثياب السلطان مزركشة وعشر شواش من لباسه احداها مرصعة بالجوهر وعشرة تراكش مزركشة وأحدها مرصع بالجوهر وعشرة من السيوف أحدها مرصع الغمد بالجوهر ودشت بان (دستبان) وهو قفاز مرصع بالجوهر وخمسة عشر من الفتيان وعين السلطان للسفر معي بهذه الهدية الامير ظهير الدين الزنجاني وهو من فضلاء اهل العلم والفتى كافور الشربدار واليه سلمت الهدية وبعث معنا الامير محمد الهروي في ألف فارس ليوصلنا الى الموضع الذي نركب منه البحر وتوجه بصحبتنا ارسال ملك الصين وهم خمسة عشر رجلا يسمى كبيرهم ترسي وخدامهم نحو مائة رجل وانفصلنا في جمع كبير ومحلة عظيمة وامر لنا السلطان بالضيافة مدة سفرنا ببلاده وكان سفرنا في السابع عشر لشهر صفر سنة ثلاث وأربعين وهو اليوم الذي اختاروه للسفر لانهم يختارون للسفر من أيام الشهر ثانيه اوسابعه او الثاني عشر اوالسابع عشر او الثاني والعشرين او السابع والعشرين فكان نزولنا في اول مرحلة بمنزل تلبت على مسافة فرسخين وثلث من حضرة دهلي ورحلنا منها الى منزل او ورحلنا منه الى منزل هيلو ورحلنا منه الى مدينة بيانة (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة وفتح الياء آخر الحروف مع تخفيفها وفتح النون) مدينة كبيرة حسنة البناء مليحة الاسواق ومسجدها الجامع من أبدع المساجد وحيطانه وسقفه حجارة والامير بها مظفر ابن الداية وامه هي داية السلطان وكان بها قبله الملك مجير بن أبي الرجاء احد كبار الملوك وقد تقدم ذكره وهو ينتسب في قريش وفيه تجبر وله ظلم كثير قتل من أهل هذه المدينة جملة ومثل بكثير منهم ولقد رأيت من أهلها رجلا حسن الهيئة قاعدا في أسطوان منزله وهو مقطوع اليدين والرجلين وقدم السلطان مرة على هذه المدينة فتشكى الناس من الملك مجير المذكور فامر السلطان بالقبض عليه وجعلت في عنقه الجامعة وكان يقعد بالديوان بين يدي الوزير وأهل البلد يكتبون عليه المظالم فامره السلطان بارضائهم فارضاهم بالاموال ثم قتله بعد ذلك ومن كبار أهل هذه المدينة الامام العالم عز الدين الزبيري من ذرية الزبير بن العوام رضي الله عنه أحد كبار الفقهاء الصلحاء لقيته بكاليور عند الملك عز الدين البنتاني المعروف بأعظم ملك ثم رحلنا من بيانة فوصلنا الى مدينة كول (وضبط اسمها بضم الكاف) مدينة حسنة ذات بساتين وأكثر أشجارها العنبا ونزلنا بخارجها في بسيط أفيح ولقينا بها الشيخ الصالح العابد

شمس الدين المعروف بابن تاج العارفين وهو مكفوف البصر معمر وبعد ذلك سجنه السلطان ومات فى سجنه وقد ذكرنا حديثه

(ذكر غزوة شهدناها بكول)

ولما بلغنا الى مدينة كول بلغنا ان بعض كفار الهنود حاصر والبلدة الجلالى واحاطوا بها وهى على مسافة سبعة أميال من كول فقصدناها والكفار يقاتلون اهلها وقد أشرفوا على التلف ولم يعلم الكفار بنا حتى صدقنا الحملة عليهم وهم فى نحو ألف فارس وثلاثة آلاف راجل فقتلناهم عن آخرهم واحتوينا على خيلهم واسلحتهم واستشهد من أصحابنا ثلاثة وعشرون فارسا وخمسة وخمسون راجلا واستشهد الفتى كافور الساقى الذى كانت الهدية مسلمة بيده فكتبنا الى السلطان بخبره واقمنا فى انتظار الجواب وكان الكفار فى اثناء ذلك ينزلون من جبل هنالك منيع فيغيرون على نواحى بلدة الجلالى وكان أصحابنا يركبون كل يوم مع أمير تلك الناحية ليعينوه على مدافعتهم

(ذكر محنتى بالاسر وخلاصى منه وخلاصى من شدة بعده على يد ولى من أولياء الله تعالى)

وفى بعض تلك الايام ركبت فى جماعة من أصحابى ودخلنا بستانا نقيل فيه وذلك فصل القيظ فسمعنا الصياح فركبنا ولحقنا كفارا اغاروا على قرية من قرى الجلالى فاتبعناهم فتفرقوا وتفرق أصحابنا فى طلبهم وانفردت فى خمسة من أصحابنا فخرج علينا جملة من الفرسان والرجال من غيضة هنالك ففررنا منهم لكثرتهم واتبعنى نحو عشرة منهم ثم انقطعوا عنى الا ثلاثة منهم ولا طريق بين يدى وتلك الارض كثيرة الحجارة فنشبت يدا فرسى بين الحجارة فنزلت عنه واقتلعت يده وعدت الى ركوبه والعادة بالهند ان يكون مع الانسان سيفان احدهما معلق بالسرج ويسمى الركابى والآخر فى التركش فسقط سيفى الركابى من غمده وكانت حليته ذهبا فنزلت فأخذته وتقلدته وركبت وهم فى أثرى ثم وصلت الى خندق عظيم فنزلت ودخلت فى جوفه فكان آخر عهدى بهم ثم خرجت الى واد فى وسط شعراء ملتفة فى وسطها طريق فمشيت عليه ولا أعرف منتهاه فبينا أنا فى ذلك خرج على نحو اربعين رجلا من الكفار بايديهم القسى فاحدقوا بى وخفت ان يرمونى رمية رجل واحد ان فررت منهم وكنت غير متدرع فألقيت بنفسى الى الارض واستأسرت وهم لا يقتلون من فعل ذلك فأخذونى وسلبونى جميع ما على غير جبة وقميص وسروال ودخلوا بى الى تلك الغابة فانتهوا بى الى موضع جلوسهم منها على حوض ماء بين تلك الاشجار وأتونى بخبز ماش وهو الجلبان فأكلت منه وشربت من الماء وكان معهم مسلمان كلمانى بالفارسية وسألانى عن شأنى فأخبرتهما ببعضه وكتمتهما انى من جهة السلطان فقالا لى لا بد ان يقتلك هؤلاء او غيرهم ولكن هذا مقدمهم

واشارا

واشاروا الى رجل منهم فكلمته بترجمة المساين وتلطفت له فوكل بى ثلاثة منهم احدهم شيخ ومعه ابنه والآخر أسود خبيث وكلمنى اولئك الثلاثة ففهمت منهم انهم أمروا بقتلى واحتملونى عشى النهار الى كهف وسلط الله على الاسود منهم حمى مرعدة فوضع رجليه على ونام الشيخ وابنه فلما أصبح تكلموا فيما بينهم واشاروا الى بالنزول معهم الى الحوض وفهمت انهم يريدون قتلى فكلمت الشيخ وتلطفت اليه فرق لى وقطعت كمى قميصى واعطيته اياهما لكى لا يأخذه أصحابه فى ان فررت ولما كان عند الظهر سمعنا كلاما عند الحوض فظنوا انهم اصحابهم فاشاروا الى بالنزول معهم فنزلنا ووجدنا قوما آخرين فاشاروا عليهم ان يذهبوا فى صحبتهم فأبوا وجلس ثلاثتهم امامى وأنا مواجه لهم ووضعوا حبل قنب كان معهم بالارض وأنا انظر اليهم وأقول فى نفسى بهذا الحبل يربطوننى عند القتل وأقمت كذلك ساعة ثم جاء ثلاثة من أصحابهم الذين أخذونى فتكلموا معهم وفهمت انهم قالوا لهم لاى شئ ما قتلتموه فاشار الشيخ الى الاسود كانه اعتذر بمرضه وكان أحد هؤلاء الثلاثة شابا حسن الوجه فقال لى اتريد ان اسرحك فقلت نعم فقال اذهب فاخذت الجبة التى كانت على فاعطيته اياها واعطانى منيرة بالية عنده وارانى الطريق فذهبت وخفت ان يبدو لهم فيدركوننى فدخلت غيضة قصب واختفيت فيها الى أن غابت الشمس ثم خرجت وسلكت الطريق التى ارانيها الشاب فافضت بى الى ماء فشربت منه وسرت الى ثلث الليل فوصلت الى جبل فنمت تحته فلما أصبحت سلكت الطريق فوصلت ضحى الى جبل من الصخر عال فيه شجر أم غيلان والسدر فكنت أجنى النبق فآكله حتى أثر الشوك فى ذراعى اثارا هى باقية به حتى الآن ثم نزلت من ذلك الجبل الى أرض مزدرعة قطنا وبها أشجار الخروع وهنالك باين والباين عندهم بئر متسعة جدا مطوية بالحجارة لها درج ينزل عليها الى ورد الماء وبعضها يكون فى وسطه وجوانبه القباب من الحجر والسقائف والمجالس ويتفاخر ملوك البلاد وأمراؤها بعمارتها فى الطرقات التى لا ماء بها وسنذكر بعد ما رأيناه منها فيما بعد ولما وصلت الى الباين شربت منه ووجدت عليه شيأ من عساليج الخردل قد سقطت لمن غسلها فأكلت منها وادخرت باقيها ونمت تحت شجرة خروع فبينما انا كذلك اذ ورد الباين نحو أربعين فارسا مدرعين فدخل بعضهم الى المزرعة ثم ذهبوا وطمس الله أبصارهم دونى ثم جاء بعدهم نحو خمسين فى السلاح ونزلوا الى الباين وأتى أحدهم الى شجرة ازاء الشجرة التى كنت تحتها فلم يشعر بى ودخلت اذ ذاك فى مزرعة القطن وأقمت بها بقية نهارى وأقاموا على الباين يغسلون ثيابهم ويلعبون فلما كان الليل هدأت أصواتهم فعلمت انهم قد مروا أو ناموا فخرجت حينئذ واتبعت أثر الخيل والليل مقمر وسرت حتى انتهيت الى باين آخر عليه قبة فنزلت اليه

وشربت من مائه وأكلت من عساليج الخردل التي كانت عندي ودخلت القبة فوجدتها مملوءة بالعشب مما يجمعه الطير فنمت بها وكنت أحس حركة حيوان في تلك العشب أظنه حية فلا أبالي بها لما بي من الجهد فلما أصبحت سلكت طريقا واسعة تفضي الى قرية خربة وسلكت سواها فكانت كمثلها وأقمت كذلك اياما وفي بعضها وصلت الى أشجار ملتفة بينها حوض ماء وداخلها شبه بيت وعلى جوانب الحوض نبات الارض كالنجيل وغيره فاردت ان أقعد هنالك حتى يبعث الله من يوصلني الى العمارة ثم اني وجدت يسير قوة فنهضت على طريق وجدت بها أثر البقر ووجدت ثورا عليه بردعة ومنجل فاذا تلك الطريق تفضي الى قرى الكفار فاتبعت طريقا اخرى فافضت بي الى قرية خربة ورأيت بها أسودين عريانين فخفتهما وأقمت تحت أشجار هنالك فلما كان الليل دخلت القرية ووجدت دارا في بيت من من بيوتها شبه خابية كبيرة يصنعونها لاختزان الزرع وفي أسفلها نقب يسع منه الرجل فدخلتها ووجدت داخلها مفروشا بالتبن وفيه حجر جعلت رأسي عليه ونمت وكان فوقها طاير يرفرف بجناحيه أكثر الليل وأظنه كان يخاف فاجتمعنا خائفين وأقمت على تلك الحال سبعة أيام من يوم أسرت وهو يوم السبت وفي السابع منها وصلت الى قرية للكفار عامرة وفيها حوض ماء ومنابت خضر فسألتهم الطعام فأبوا أن يعطوني فوجدت حول بئر بها أوراق فجل فأكلته وجئت القرية فوجدت جماعة كفار لهم طليعة فدعاني طليعتهم فلم اجبه وقعدت الى الارض فأتى أحدهم بسيف مسلول ورفعه ليضربني به فلم التفت اليه لعظيم ما بي من الجهد ففتشني فلم يجد عندي شيأ فأخذ القميص الذي كنت اعطيت كميه للشيخ الموكل بي ولما كان في اليوم الثامن اشتد بي العطش وعدمت الماء ووصلت الى قرية خراب فلم اجد بها حوضا وعادتهم بتلك القرى ان يصنعوا أحواضا يجتمع بها ماء المطر فيشربون منه جميع السنة فاتبعت طريقا فافضت بي الى بئر غير مطوية عليها حبل مصنوع من نبات الارض وليس فيه آنية يستقي بها فربطت خرقة كانت على رأسي في الحبل وامتصصت ما تعلق بها من الماء فلم يروني فربطت خفي واستقيت به فلم يروني فاستقيت به ثانيا فانقطع الحبل ووقع الخف في البئر فربطت الخف الاخر وشربت حتى رويت ثم قطعته فربطت اعلاه على رجلي بحبل البئر وبخرق وجدتها هنالك فبينا أنا اربطها وأفكر في حالي اذ لاح لي شخص فنظرت اليه فاذا رجل أسود اللون بيده ابريق وعكاز وعلى كاهله جراب فقال لي سلام عليكم فقلت له عليكم السلام ورحمة الله وبركاته فقال لي بالفارسية جيكس (چه كسى) معناه من أنت فقلت له انا تائه فقال لي وأنا كذلك ثم ربط ابريقه بحبل كان معه واستقى ماء فأردت ان أشرب فقال لي اصبر ثم فتح جرابه فاخرج منه غرفة حمص اسود مقلو مع قليل

ارز

ارزفا كلت منه وشربت وتوضأ وصلى ركعتين وتوضأت انا وصليت وسألني عن اسمي فقلت محمد وسألته عن اسمه فقال لى القلب الفارح فتفألت بذلك وسررت به ثم قال لى بسم الله ترافقني فقلت نعم فمشيت معه قليلا ثم وجدت فتورا فى اعضائى ولم استطع النهوض فقعدت فقال ماشأنك فقلت له كنت قادرا على المشي قبل ان القاك فلما القيتك عجزت فقال سبحان الله اركب فوق عنقي فقلت له انك ضعيف ولا تستطيع ذلك فقال يقويني الله لابد لك من ذلك فركبت على عنقه وقال لى اكثر من قراءة حسبنا الله ونعم الوكيل فاكثرت من ذلك وغلبتني عيني فلم أفق الا لسقوطي على الارض فاستيقظت ولم أر للرجل أثرا واذا أنا فى قرية عامرة فدخلتها فوجدتها لرعية الهنود وحاكمها من المسلمين فاعلموه بي فجاء الى فقلت له ما اسم هذه القرية فقال لى تاج بوره وبينها وبين مدينة كول حيث أصحابنا فرسخان وحملني ذلك الحاكم الى بيته فاطعمني طعاما سخنا واغتسلت وقال لى عندي ثوب وعمامة اودعهما عندي رجل عربي مصري من اهل المحلة التي بكول فقلت له هاتهما البسهما الى ان اصل الى المحلة فأتى بهما فوجدتهما من ثيابي كنت قد وهبتهما لذلك العربي لما قدمنا كول فطال تعجبي من ذلك وافكرت فى الرجل الذي حملني على عنقه فتذكرت ما اخبرني به ولى الله تعالى أبو عبد الله المرشدي حسبما ذكرناه فى السفر الاول اذ قال لى ستدخل ارض الهند وتلقى بها اخي ويخلصك من شدة تقع فيها وتذكرت قوله لما سألته عن اسمه فقال القلب الفارح وتفسيره بالفارسية دلشاد فعلمت انه هو الذي اخبرني بلقائه وانه من الاولياء ولم يحصل لى من صحبته الا المقدار الذي ذكرت واتيت تلك الليلة الى أصحابي بكول معلما لهم بسلامتي فجاؤا الى بفرس وثياب واستبشروا بي ووجدت جواب السلطان قد وصلهم وبعث بفتى يسمى بسنبل الجامدار عوضا من كافور المستشهد وأمرنا ان نتمادى على سفرنا ووجدتهم أيضا قد كتبوا للسلطان بما كان من أمري وتشاءموا بهذه السفرة لما جرى فيها على وعلى كافور وهم يريدون ان يرجعوا فلما رأيت تأكيد السلطان فى السفر أكدت عليهم وقوى عزمي فقالوا ألا ترى ما اتفق فى بداية هذه السفرة والسلطان يعذرك فلنرجع اليه اونقيم حتى يصل جوابه فقلت لهم لايمكن المقام وحيثما كنا ادركنا الجواب فرحلنا من كول ونزلنا برج بوره وبه زاوية حسنة فيها شيخ حسن الصورة والسيرة يسمى بمحمد العريان لانه لايلبس عليه الاثوبا من سرته الى أسفل وباقي جسده مكشوف وهو تلميذ الصالح الولى محمد العريان القاطن بقرافة مصر نفع الله به

﴿ حكاية هذا الشيخ ﴾

وكان من أولياء الله تعالى قائما على قدم التجرد يلبس تنورة وهو ثوب يستر من سرته الى

أسفل ويذكر انه كان اذا صلى العشا الآخرة اخرج كل ما بقي بالزاوية من طعام وادام وماء وفرق ذلك على المساكين ورمى بفتيلة السراج واصبح على غير معلوم وكانت عادته ان يطعم اصحابه عند الصباح خبزا وفولا فكان الخبازون والفوالون يستبقون الى زاويته فيأخذ منهم مقدار ما يكفي الفقراء ويقول لمن اخذ منه ذلك أقعد حتى يأخذ أول ما يفتح به عليه في ذلك اليوم قليلا أو كثيرا ومن حكاياته انه لما وصل قازان ملك التتر الى الشام بعساكره وملك دمشق ما عدا قلعتها وخرج الملك الناصر الى مدافعته ووقع اللقاء على مسيرة يومين من دمشق بموضع يقال له شقحب والملك الناصر اذ ذاك حديث السن لم يعهد الوقائع وكان الشيخ العريان في صحبته فنزل واخذ قيدا فقيد به فرس الملك الناصر لئلا يتزحزح عند اللقاء لحداثة سنه فيكون ذلك سبب هزيمة المسلمين فثبت الملك الناصر وهزم التتر هزيمة شنعاء قتل منهم فيها كثير وغرق كثير بما أرسل عليهم من المياه ولم يعد التتر الى قصد بلاد الاسلام بعدها وأخبرني الشيخ محمد العريان المذكور تلميذ هذا الشيخ انه حضر هذه الوقيعة وهو حديث السن ورحلنا من برج بوره ونزلنا على الماء المعروف بآب سياه ثم رحلنا الى مدينة قنوج (وضبط اسمها بكسر القاف وفتح النون وواو وساكن وجيم) مدينة كبيرة حسنة العمارة حصينة رخيصة الاسعار كثيرة السكر ومنها يحمل الى دهلي وعليها سور عظيم وقد تقدم ذكرها وكان بها الشيخ معين الدين الباخرزي أضافنا بها وأميرها فيروز البدخشاني من ذرية بهرام جور (چوبين) صاحب كسرى ويسكن بها جماعة من الصلحاء الفضلاء المعروفين بمكارم الاخلاق يعرفون باولاد شرف جهان وكان جدهم قاضي القضاة بدولة آباد وهو من المحسنين المتصدقين وانتهت الرياسة ببلاد الهند اليه

﴿حكاية له﴾

يذكر انه عزل مرة عن القضاء وكان له أعداء فادعى أحدهم عند القاضي الذي ولي بعده ان له عشرة آلاف دينار قبله ولم تكن له بينة وكان قصده ان يحلفه فبعث القاضي عنه فقال لرسوله بم ادعى علي فقال بعشرة آلاف دينار فبعث الى مجلس القاضي عشرة آلاف وسلمت للمدعي وبلغ خبره السلطان علاء الدين وصح عنده بطلان تلك الدعوى فاعاده الى القضاء وأعطاه عشرة آلاف وأقمنا بهذه المدينة ثلاثا ووصلنا فيها جواب السلطان في شأني بأنه ان لم يظهر لفلان أثر فيتوجه وجيه الملك قاضي دولة آباد عوضا منه ثم رحلنا من هذه المدينة فنزلنا بمنزل هنول ثم بمنزل وزير بور ثم بمنزل البجالصة ثم وصلنا الى مدينة موري (وضبط اسمها بفتح الميم وواو وراء) وهي صغيرة ولها أسواق حسنة ولقيت بها الشيخ الصالح المعمر قطب الدين المسمى بحيدر الفرغاني وكان بحال مرض فدعا لي وزودني رغيف شعير واخبرني

ان

ان عمره ينيف على مائة وخمسين وذكر لي أصحابه انه يصوم الدهر ويواصل كثيرا ويكثر الاعتكاف وربما أقام في خلوته أربعين يوما يقتات فيها بأربعين تمرة في كل يوم واحدة وقد رأيت بدهلي الشيخ المسمى برجب البرقعي دخل الخلوة بأربعين تمرة فأقام بها أربعين يوما ثم خرج وفضل معه منها ثلاث عشرة تمرة ثم رحلنا ووصلنا الى مدينة مره وضبط اسمها (بفتح الميم وسكون الراء وهاء) وهي مدينة كبيرة أكثر سكانها كفار تحت الذمة وهي حصينة وبها القمح الطيب الذي ليس مثله بسواها ومنها يحمل الى دهلي وحبوبه طوال شديدة الصفرة ضخمة ولم أرقمحا مثله الا بأرض الصين وتنسب هذه المدينة الى المالوة (بفتح اللام) وهي قبيلة من قبائل الهنود ضخام الاجسام عظام الخلق حسان الصور ولنسائهم الجمال الفائق وهن مشهورات بطيب الخلوة ووفور الحظ من اللذة وكذلك نساء المرهتة ونساء جزيرة ذيبة المهل ثم سافرنا الى مدينة علابور (وضبط اسمها بفتح العين ولام وألف وباء موحدة مضمومة وواو وراء) مدينة صغيرة أكثر سكانها الكفار تحت الذمة وعلى مسيرة يوم منها سلطان كافر اسمه قتم (بفتح القاف والتاء المعلوة) وهو سلطان جنبيل (بفتح الجيم وسكون النون وكسر الباء الموحدة وياء مد ولام) الذي حاصر مدينة كاليور وقتل بعد ذلك

❊(حكاية)❊

كان هذا السلطان الكافر قد حاصر مدينة رابري وهي على نهر الجون كثيرة القرى والمزارع وكان أميرها خطاب الافغاني وهو أحد الشجعان واستعان السلطان الكافر بسلطان كافر مثله يسمى رجو (بفتح الراء وضم الجيم) وبلده يسمى سلطان بور وحاصرا مدينة رابري فبعث خطابا الى السلطان يطلب منه الاغاثة فأبطأ عليه المدد وهو على مسيرة أربعين من الحضرة فخاف أن يتغلب الكفار عليه فجمع من قبيلة الافغان نحو ثلاثمائة ومثلهم من المماليك ونحو أربعمائة من سائر الناس وجعلوا العمائم في أعناق خيلهم وهي عادة أهل الهند اذا أرادوا الموت وباعوا نفوسهم من الله تعالى وتقدم خطاب وقبيلته وتبعهم سائر الناس وفتحوا الباب عند الصبح وحملوا على الكفار حملة واحدة وكانوا نحو خمسة عشر ألفا فهزموهم باذن الله وقتلوا سلطانيهم قتم ورجو وبعثوا برأسيهما الى السلطان ولم ينج من الكفار الا الشريد

❊(ذكر أمير علابور واستشهاده)❊

وكان أمير علابور بدر الحبشي من عبيد السلطان وهو من الابطال الذين تضرب بهم الامثال وكان لا يزال يغير على الكفار منفردا بنفسه فيقتل ويسبي حتى شاع خبره واشتهر أمره وهابه الكفار وكان طوالا ضخما يأكل الشاة عن آخرها في أكلة وأخبرت انه كان يشرب نحو رطل ونصف من السمن بعد غدائه على عادة الحبشة ببلادهم وكان له ابن يدانيه في الشجاعة

فاتفق ان أغار مرة فى جماعة من عبيده على قرية للكفار فوقع به الفرس فى مطمورة واجتمع عليه اهل القرية فضربه أحدهم بقتارة والقتارة (بقاف معقود وتاء معلوة) حديدة شبه سكة الحرث يدخل الرجل يده فيها فتكسو ذراعه ويفضل منها مقدار ذراعين وضربتها لا تبقى فقتله بتلك الضربة وما فيها وقتلوا رجالها وسبوا نساءها وقاتل عبيده أشد القتال فتغلبوا على القرية واخرجوا الفرس من المطمورة سالما فاتوا به ولده فكان من الاتفاق الغريب انه ركب الفرس وتوجه الى دهلى فخرج عليه الكفار فقاتلهم حتى قتل وعاد الفرس الى اصحابه فدفعوه الى اهله فركبه صهر له فقتله الكفار عليه ايضا ثم سافرنا الى مدينة كاليور (وضبط اسمها بفتح الكاف المعقود وكسر اللام وضم الياء آخر الحروف وواو وراء) ويقال فيه أيضا كاليير وهى مدينة كبيرة لها حصن منيع منقطع فى رأس شاهق على بابه صورة فيل وفيال من الحجارة وقدم ذكره فى اسم السلطان قطب الدين واميرهذه المدينة احمد بن سيرخان فاضل كان يكرمنى ايام اقامتى عنده قبل هذه السفرة ودخلت عليه يوما وهو يريد توسيط رجل من الكفار فقلت له بالله لا تفعل ذلك فانى ما رأيت احدا قط يقتل بمحضرى فامر بسجنه وكان ذلك سبب خلاصه ثم رحلنا من مدينة كاليور الى مدينة برون (وضبط اسمها بفتح الباء المعقودة وسكون الراء وفتح الواو وآخره نون) مدينة صغيرة للمسلمين بين بلاد الكفار اميرها محمد بن بيرم التركى الاصل والسباع بها كثيرة وذكر لى بعض اهلها ان السبع كان يدخل اليها ليلا وابوابها مغلقة فيفترس الناس حتى قتل من اهلها كثيرا وكانوا يعجبون فى شأن دخوله واخبرنى محمد التوفيرى من اهلها وكان جارا لى بها انه دخل داره ليلا وافترس صبيا من فوق السرير واخبرنى غيره انه كان مع جماعة فى دار عرس فخرج احدهم لحاجة فافترسه اسد فخرج اصحابه فى طلبه فوجدوه مطروحا بالسوق وقد شرب دمه ولم يأكل لحمه وذكروا انه كذلك فعله بالناس ومن العجب ان بعض الناس اخبرنى ان الذى يفعل ذلك ليس بسبع وانما هو آدمى من السحرة المعروفين بالجوكية يتصور فى صورة سبع ولما اخبرت بذلك انكرته واخبرنى به جماعة ولنذكر بعضا من اخبار هؤلاء السحرة

❊(ذكر السحرة الجوكية)❊

وهؤلاء الطائفة تظهر منهم عجائب منها ان احدهم يقيم الاشهر لا يأكل ولا يشرب وكثير منهم تحفر لهم حفر تحت الارض وتبنى عليه فلا يترك له الا موضع يدخل منه الهواء ويقيم بها الشهور وسمعت ان بعضهم يقيم كذلك سنة ورأيت بمدينة منجرور رجلا من المسلمين ممن يتعلم منهم قد رفعت له طبلة واقام بأعلاها لا يأكل ولا يشرب مدة خمسة وعشرين يوما وتركته كذلك فلا ادرى كم اقام بعدى والناس يذكرون انهم يركبون حبوبا يأكل الحبة منها لايام

معلومة

معلومة اواشهر فلايحتاج فى تلك المدة الى طعام ولاشراب ويخبرون بامور مغيبة والسلطان يعظمهم ويجالسهم ومنهم من يقتصر فى اكله على البقل ومنهم من لايأكل اللحم وهم الاكثرون والظاهر من حالهم انهم عودوا انفسهم الرياضة ولاحاجة لهم فى الدنيا و زينتها ومنهم من ينظر الى الانسان فيقع ميتا من نظرته وتقول العامة انه اذا اقتل بالنظر وشق عن صدر الميت وجد دون قلب و يقولون أكل قلبه وأكثر مايكون هذا فى النساء والمرأة التى تفعل ذلك تسمى كفتار

❊(حكاية)❊

لما وقعت المجاعة العظمى ببلاد الهند بسبب القحط والسلطان ببلاد التلنك نفذ أمره ان يعطى لاهل دهلى مايقوتهم بحساب رطل ونصف للواحد فى اليوم فجمعهم الوزير ووزع المساكين منهم على الامراء والقضاة ليتولوا أطعامهم فكان عندى منهم خمسمائة نفس فعمرت لهم سقائف فى دارى واسكنتهم بها وكنت اعطيهم نفقة خمسة أيام فى خمسة ايام فلما كان فى بعض الايام اتونى بمرأة منهم وقالوا انها كفتار وقد اكلت قلب صبى كان الى جانبها واتوا بالصبى ميتا فامرتهم ان يذهبوا بها الى نائب السلطان فامر باختبارها وذلك بأن ملوا اربع جرات بالماء و ربطوها بيديها ورجليها وطرحوها فى نهر الجون فلم تغرق فعلم انها كفتار ولولم تطف على الماء لم تكن بكفتار فامر باحراقها بالنار واتى أهل البلد رجالا ونساء فأخذوا رمادها وزعموا انه من تبخر به أمن فى تلك السنة من سحر كفتار

❊(حكاية)❊

بعث الى السلطان يوما وأنا عنده بالحضرة فدخلت عليه وهو فى خلوة وعنده بعض خواصه ورجلان من هؤلاء الجوكية وهم يلتحفون بالملاحف ويغطون رؤسهم لانهم ينتفونها بالرماد كما ينتف الناس آباطهم فأمرنى بالجلوس فجلست فقال لهما ان هذا العزيز من بلاد بعيدة فأرياه مالم يره فقالا نعم فتربع أحدهما ثم ارتفع عن الارض حتى صار فى الهواء فوقنا متربعا فعجبت منه وادركنى الوهم فسقطت الى الارض فأمر السلطان ان اسقى دواء عنده فأفقت وقعدت وهو على حاله متربع فاخذ صاحبه نعلاله من شكارة كانت معه فضرب بها الارض كالمغتاظ فصعدت الى ان علت فوق عنق المتربع و جعلت تضرب فى عنقه وهو ينزل قليلا قليلا حتى جلس معنا فقال لى السلطان ان المتربع هو تلميذ صاحب النعل ثم قال لولا انى اخاف على عقلك لامرتهم ان يأتوا باعظم مما رأيت فانصرفت عنه واصابنى الخفقان ومرضت حتى امر لى بشربة اذهبت ذلك عنى ولنعد لما كنا بسبيله فنقول سافرنا من مدينة برون الى منزل امواری ثم الى منزل كجراو به حوض عظيم طوله نحو ميل وعليه الكنائس فيها الاصنام

قد مثل بها المسلمون وفي وسطه ثلاث قباب من الحجارة الحمر على ثلاث طباق وعلى اركانه الاربعة أربع قباب ويسكن هنالك جماعة من الجوكية وقد لبدوا شعورهم وطالت حتى صارت في طولهم وغلبت عليهم صفرة الالوان من الرياضة وكثير من المسلمين يتبعونهم ليتعلموا منهم ويذكرون ان من كانت به عاهة من برص او جذام يأوي اليهم مدة طويلة فيبرأ باذن الله تعالى وأول ما رأيت هذه الطائفة بمحلة السلطان طرمشيرين ملك تركستان وكانوا نحو الخمسين حفر لهم غار تحت الارض وكانوا مقيمين به لا يخرجون الا لقضاء حاجة ولهم شبه القرن يضربونه اول النهار وآخره وبعد العتمة وشأنهم كله عجب ومنهم الرجل الذي صنع للسلطان غياث الدين الدمغاني سلطان بلاد المعبر حبوباً كلها تقوية على الجماع وكان من اخلاطها برادة الحديد فاعجبه فعلها فاكل منها ازيد من مقدار الحاجة فمات وولي ابن اخيه ناصر الدين فاكرم هذا الجوكي ورفع قدره ثم سافرنا الى مدينة جنديري (وضبط اسمها بفتح الجيم المعقود وسكون النون وكسر الدال المهمل وياء مد وراء) مدينة عظيمة لها اسواق حافلة يسكنها امير امراء تلك البلاد عز الدين البنتاني (بالباء الموحدة ثم النون ثم التاء المثناة مفتوحات ثم الف ونون) وهو المدعو باعظم ملك وكان خيراً فاضلا يجالس اهل العلم وممن كان يجالسه الفقيه عز الدين الزبيري والفقيه العالم وجيه الدين البياني نسبة الى مدينة بيانة التي تقدم ذكرها والفقيه القاضي المعروف بقاضي خاصة وامامهم شمس الدين وكان النائب عنه على أمور المخزن يسمى قمر الدين ونائبه على أمور العسكر سعادة التلنكي من كبار الشجعان وبين يديه تعرض العساكر وأعظم ملك لا يظهر الا في يوم الجمعة او في غيرها نادراً ثم سرنا من جنديري الى مدينة ظهار (وضبط اسمها بكسر الظاء المعجم) وهي مدينة المالوة أكبر عمالة تلك البلاد وزرعها كثير خصوصاً القمح ومن هذه المدينة تحمل أوراق التنبول الى دهلي وبينهما أربعة وعشرون يوماً وعلى الطريق بينهما أعمدة منقوش عليها عدد الاميال فيما بين كل عمودين فاذا أراد المسافر ان يعلم عدد ما سار في يومه وما بقي له الى المنزل او الى المدينة التي يقصدها قرأ النقش الذي في الاعمدة فعرفه ومدينة ظهار اقطاع للشيخ ابراهيم الذي من اهل ذيبة المهل

﴿حكاية﴾

كان هذا الشيخ ابراهيم قدم على هذه المدينة ونزل بخارجها فاحيى ارضاً مواتاً هنالك وصار يزدرع بها بطيخاً فتأتي في الغاية من الحلاوة ليس بتلك الارض مثلها ويزرع الناس بطيخاً فيما يجاوره فلا يكون مثله وكان يطعم الفقراء والمساكين فلما قصد السلطان الى بلاد المعبر اهدى اليه هذا الشيخ بطيخاً فقبله واستطابه واقطعه مدينة ظهار وأمره ان يعمر زاوية بربوة تشرف عليها فعمرها أحسن عمارة وكان يطعم بها الوارد والصادر وأقام على ذلك اعواماً ثم قدم على

السلطان

السلطان وحمل اليه ثلاثة عشر لكا فقال هذا فضل مما كنت أطعمه الناس وبيت المال احق به فقبضه منه ولم يعجب السلطان فعله لكونه جمع المال ولم ينفق جميعه فى اطعام الطعام وبهذه المدينة أراد ابن اخت الوزير خواجه جهان ان يقتل بخاله ويستولى على أمواله ويسير الى القائم ببلاد المعبر فنمى خبره الى خاله فقبض عليه وعلى جماعة من الامراء وبعثهم الى السلطان فقتل الامراء ورد ابن أخته اليه فقتله الوزير

﴿حكاية﴾

ولما رد ابن أخت الوزير اليه أمر به ان يقتل كما قتل اصحابه وكانت له جارية يحبها فاستحضرها واطعمها التنبول واطعمته وعانقها مودعا ثم طرح للفيلة وسلخ جلده وملئ تبنا فلما كان من الليل خرجت الجارية من الدار فرمت بنفسها فى بئر هنالك تقرب من الموضع الذى قتل فيه فوجدت ميتة من الغد فاخرجت ودفن لحمه معها فى قبر واحد وسمى ذلك قبور (كور) عاشقا وتفسير ذلك بلسانهم قبر العاشقين ثم سافرنا من مدينة ظهار الى مدينة أجين (وضبط اسمها بضم الهمزة وفتح الجيم وياء ونون) مدينة حسنة كثيرة العمارة وكان يسكنها الملك ناصر الدين بن عين الملك من الفضلاء الكرماء العلماء استشهد بجزيرة سندابور حين افتتاحها وقد زرت قبره هنالك وسنذكره وبهذه المدينة كان سكنى الفقيه الطبيب جمال الدين المغربى الغرناطى الاصل ثم سافرنا من مدينة أجين الى مدينة دولة آباد وهى المدينة الضخمة العظيمة الشان الموازية لحضرة دهلى فى رفعة قدرها واتساع خطتها وهى منقسمة ثلاثة اقسام أحدها دولة آباد وهو مختص بسكنى السلطان وعساكره والقسم الثانى يسمى الكتكة (بفتح الكافين والتاء المعلوة التى بينهما) والقسم الثالث قلعتها التى لا مثل لها ولا نظير فى الحصانة وتسمى الدويقير (بضم الدال المهمل وفتح الواو وسكون الياء وقاف معقود مكسور وياء مد وراء) وبهذه المدينة سكنى الخان الاعظم قطلوخان معلم السلطان بها وبلاد صاغر وبلاد التلنك وما اضيف الى ذلك وعمالتها مسيرة ثلاثة أشهر عامرة كلها الحكمة ونوابه فيها وقلعة الدويقير التى ذكرناها فى قطعة حجر فى بسيط من الارض قد نحتت وبنى باعلاها قلعة يصعد اليها بسلم مصنوع من جلود ويرفع ليلا ويسكن بها المفردون وهم الزماميون باولادهم وفيها يسجن أهل الجرائم العظيمة فى جبوب بها وبها فيران ضخام اعظم من القطوط والقطوط تهرب منها ولا تطيق مدافعتها لانها تغلبها ولا تصاد الا بحيل تدار عليها وقد رأيتها هنالك فعجبت منها

﴿حكاية﴾

أخبرنى الملك خطاب الافغانى انه سجن مرة فى جب بهذه القلعة يسمى جب الفيران قال فكانت تجتمع على ليلا لتأكلنى فاقاتلها والقى من ذلك جهدا ثم انى رأيت فى النوم قائلا يقول

لى اقرأ سورة الاخلاص مائة الف مرة ويفرج الله عنك قال فقرأتها فلما اتممتها اخرجت وكان سبب خروجى ان ملك مل كان مسجونا فى جب يجاورنى فرض واكلت الفيران اصابعه وعينيه فمات فبلغ ذلك السلطان فقال اخرجوا خطابا لئلا يتفق له مثل ذلك والى هذه القلعة لجأ ناصر الدين بن ملك مل المذكور والقاضى جلال حين هزمهما السلطان واهل بلاد دولة اباد هم قبيل المرهتة الذين خص الله نساءهم بالحسن وخصوصا فى الانوف والحواجب ولهن من طيب الخلوة والمعرفة بحركات الجماع ماليس لغيرهن وكفار هذه المدينة اصحاب تجارات واكثر تجاراتهم فى الجوهر واموالهم طائلة وهم يسمون الساهة واحدهم ساه باهمال السين وهم مثل الاكارم بديار مصر وبدولة آباد العنب والرمان ويثمران مرتين فى السنة وهى من اعظم البلاد مجبى واكبرها خراجا لكثرة عمارتها واتساع عمالتها واخبرت ان بعض الهنود التزم مغارمها وعمالتها جميعا وهى كما ذكرناه مسيرة ثلاثة اشهر بسبعة عشر كرورا والكرور مائة لك واللك مائة الف دينار ولكنه لم يف بذلك فبقى عليه بقية وأخذ ماله وسلخ جلده

﴿ذكر سوق المغنيين﴾

وبمدينة دولة آباد سوق للمغنيين والمغنيات تسمى سوق طرب آباد من اجمل الاسواق واكبرها فيه الدكاكين الكثيرة كل دكان له باب يفضى الى دار صاحبه وللدار باب سوى ذلك والحانوت مزين بالفرش وفى وسطه شكل مهد كبير تجلس فيه المغنية اوترقد وهى متزينة بانواع الحلى وجواريها يحركن مهدها وفى وسط السوق قبة عظيمة مفروشة مزخرفة يجلس فيها امير المطربين بعد صلاة العصر من يوم كل خميس وبين يديه خدامه ومماليكه وتأتى المغنيات طائفة بعد اخرى فيغنين بين يديه ويرقصن الى وقت المغرب ثم ينصرف وفى تلك السوق المساجد للصلاة ويصلى الائمة فيها التراويح فى شهر رمضان وكان بعض سلاطين الكفار بالهند اذا مر بهذه السوق ينزل بقبتها ويغنى المغنيات بين يديه وقد فعل ذلك بعض سلاطين المسلمين ايضا ثم سافرنا الى مدينة نذربار (وضبط اسمها بنون وبذال معجم مفتوحين وراء مسكن وباء موحدة مفتوحة والف وراء) مدينة صغيرة يسكنها المرهتة وهم أهل الاتقان فى الصنائع والاطباء والمنجمون وشرفاء المرهتة هم البراهمة وهم الكتريون أيضا وأكلهم الارز والخضر ودهن السمسم ولا يرون بتعذيب الحيوان ولا ذبحه ويغتسلون للاكل كغسل الجنابة ولا ينكحون فى اقاربهم الا من كان بينهم وبينه سبعة اجداد لا يشربون الخمر وهى عندهم أعظم المعائب وكذلك هى ببلاد الهند عند المسلمين ومن شربها من مسلم حد ثمانين جلدة وسجن فى مطمورة ثلاثة أشهر لا تفتح عليه الا حين طعامه ثم سافرنا من هذه المدينة الى مدينة صاغر (وضبط اسمها بفتح الصاد المهمل وفتح الغين المعجم واخره راء) وهى مدينة كبيرة على نهر

كبير

كبير يسمى أيضا صاغر كاسمها وعليه النواعير والبساتين فيها العنبا والموز وقصب السكر واهل هذه المدينة اهل صلاح ودين وأمانة واحوالهم كلها مرضية ولهم بساتين فيها الزوايا للوارد والصادر وكل من يبني زواية يحبس البستان عليها ويجعل النظر فيه لاولاده فان انقرضوا عاد النظر للقضاة وأعمارتها كثيرة والناس يقصدونها للتبرك باهلها ولكونها محررة من المغارم والوظائف ثم سافرنا من صاغر المذكورة الى مدينة كنباية (وضبط اسمها بكسر الكاف وسكون النون وفتح الباء الموحدة والف وياء آخر الحروف مفتوحة) وهي على خور من البحر وهو شبه الوادي تدخله المراكب وبه المد والجزر وعاينت المراكب به مرساة في الوحل حين الجزر فاذا كان المد عامت في الماء وهذه المدينة من أحسن المدن في اتقان البناء وعمارة المساجد وسبب ذلك ان أكثر سكانها التجار الغرباء فهم ابدا يبنون بها الديار الحسنة والمساجد العجيبة ويتنافسون في ذلك ومن الديار العظيمة بها دار الشريف السامري الذي اتفقت لي معه قضية الحلواء وكذبه ملك الندماء ولم ارقط اضخم من الخشب الذي رأيته بهذه الدار وبابها كانه باب مدينة والى جانبها مسجد عظيم يعرف باسمه ومنها دار ملك التجار الكازروني والى جانبها مسجده ومنها دار التاجر شمس الدين كلاه دوز ومعناه خياط الشواشي

(حكاية)

ولما وقع ما قدمناه من مخالفة القاضي جلال الافغاني اراد شمس الدين المذكور والناخودة الياس وكان من كفار أهل هذه المدينة وملك الحكماء الذي تقدم ذكره على ان يمتنعوا منه بهذه المدينة وشرعوا في حفر خندق عليها اذلا سور لها فتغلب عليهم ودخلها واختفى الثلاثة المذكورون في دار واحدة وخافوا ان يتطلع عليهم فاتفقوا على ان يقتلوا أنفسهم فضرب كل واحد منهم صاحبه بقتارة وقد ذكرنا صفتها فمات اثنان منهم ولم يمت ملك الحكماء وكان من كبار التجار ايضا بها نجم الدين الجيلاني وكان حسن الصورة كثير المال وبنى بها دارا عظيمة ومسجدا ثم بعث السلطان عنه وأمره عليها واعطاه المراتب فكان ذلك سبب تلف نفسه وماله وكان أمير كنباية حين وصلنا اليها مقبل التلنكي وهو كبير المنزلة عند السلطان وكان في صحبته الشيخ زاده الاصبهاني نائبا عنه في جميع اموره وهذا الشيخ له اموال عظيمة وعنده معرفة بامور السلطنة ولا يزال يبعث الاموال الى بلاده ويتحيل في الفرار وبلغ خبره الى السلطان وذكر عنه انه يروم الهروب فكتب الى مقبل ان يبعثه فبعثه على البريد وأحضر بين يدي السلطان ووكل به والعادة عنده انه متى وكل باحد قلما ينجو فاتفق هذا الشيخ مع الموكل به على مال يعطيه أياه وهربا جميعا وذكر لي أحد الثقاة انه رآه في ركن مسجد بمدينة قلهات وانه وصل بعد ذلك الى بلادهم فحصل على أمواله وآمن مما كان يخافه

حكاية

واضافنا الملك قبل يوما بداره فكان من النادر ان جلس قاضى المدينة وهو اعور العين اليمنى وفى مقابلته شريف بغدادى شديد الشبه به فى صورته وعوره الا انه أعور اليسرى فجعل الشريف ينظر الى القاضى ويضحك فزجره القاضى فقال له لا تزجرنى فانى أحسن منك قال كيف ذلك قال لانك أعور اليمنى وانا اعور اليسرى فضحك الامير والحاضرون وخجل القاضى ولم يستطع ان يرد عليه لان الشرفاء ببلاد الهند معظمون أشد التعظيم وكان بهذه المدينة من الصالحين الحاج ناصر من اهل ديار بكر وسكناه بقبة من قباب الجامع دخلنا اليه واكلنا من طعامه واتفق له لما دخل القاضى جلال مدينة كنباية حين خلا به انه اتاه وذكر للسلطان انه دعاله فهرب لئلا يقتل كما قتل الحيدرى وكان بها ايضا من الصالحين التاجر خواجه اسحاق وله زاوية يطعم فيها الوارد والصادر وينفق على الفقراء والمساكين وماله على هذا ينمى ويزيد كثرة وسافرنا من هذه المدينة الى بلدة كاوى وهى على خور فيه المد والجزر وهى من بلاد الرى جالنسى الكافر وسنذكره وسافرنا منها الى مدينة قندهار (وضبط اسمها بفتح القاف وسكون النون وفتح الدال المهمل وهاء والف وراء) وهى مدينة كبيرة للكفار على خور من البحر

ذكر سلطانها

وسلطان قندهار كافر اسمه جالنسى (بفتح الجيم واللام وسكون النون وكسر السين المهمل) وهو تحت حكم الاسلام ويعطى لملك الهند هدية كل عام ولما وصلنا الى قندهار خرج الى استقبالنا وعظمنا أشد التعظيم وخرج عن قصره فانزلنا به وجاء الينا من عنده من كبار المسلمين كاولاد خواجه بهره ومنهم الناخودة ابراهيم له ستة من المراكب مختصة له ومن هذه المدينة ركبنا البحر

ذكر ركوبنا البحر

وركبنا فى مركب لابراهيم المذكور تسمى الجاكر (بفتح الجيم والكاف المعقودة) وجعلنا فيه من خيل الهدية سبعين فرسا وجعلنا باقيها مع خيل أصحابنا فى مركب لاخى ابراهيم المذكور يسمى منورت (بفتح الميم ونون و واو مدّ وراء مسكن وياء معلوة) واعطانا جالنسى مركبا جعلنا فيه خيل ظهير الدين وسنبل وأصحابهما وجهزه لنا بالماء والزاد والعلف وبعث معنا ولده فى مركب يسمى العكيرى (بضم العين المهمل وفتح الكاف وسكون الياء وراء) وهو شبه الغراب الا انه اوسع منه وفيه ستون مجذافا ويسقف حين القتال حتى لا ينال الجذافين شئ من السهم ولا الحجارة وكان ركوبى انا فى الجاكر وكان فيه خمسون راميا وخمسون من المقاتلة الحبشة وهم زعماء هذا البحر واذا كان بالمركب أحد منهم تحاماه لصوص الهنود وكفارهم ووصلنا بعد يومين الى جزيرة بيرم (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة وسكون الياء وفتح الراء) وهى خالية وبينها

وبين

وبين البر أربعة أميال فنزلنا بها واستقينا الماء من حوض بها وسبب خرابها ان المسلمين دخلوها على الكفار فلم تعمر بعد وكان ملك التجار الذى تقدم ذكره أراد عمارتها وبنى سورها وجعل بها المجانيق واسكن بها بعض المسلمين ثم سافرنا منها ووصلنا فى اليوم الثانى الى مدينة قوقة وهى (بضم القاف الاولى وفتح الثانية) وهى مدينة كبيرة عظيمة الاسواق ارسينا على أربعة أميال منها بسبب الجزر ونزلت فى عشارى مع بعض أصحابى حين الجزر لادخل اليها فوحل العشارى فى الطين وبقى بيننا وبين البلد نحو ميل فكنت لما نزلنا فى الوحل اتوكأ على رجلين من اصحابى وخوفنى الناس من وصول المد قبل وصولى اليها وانا لا احسن السباحة ثم وصلت اليها وطفت باسواقها ورأيت بها مسجدا ينسب للخضر والياس عليهما السلام صليت به المغرب ووجدت به جماعة من الفقرا الحيدرية مع شيخ لهم ثم عدت الى المركب

﴿ذكر سلطانها﴾

وسلطانها كافر يسمى دنكول (بضم الدال المهمل وسكون النون وضم الكاف وواو ولام) وكان يظهر الطاعة لملك الهند وهو فى الحقيقة عاص ولما اقلعنا عن هذه المدينة وصلنا بعد ثلاثة أيام الى جزيرة سندابور (وضبط اسمها بفتح السين المهمل وسكون النون وفتح الدال المهمل والف وباء موحدة وواو ومدوراء) وهى جزيرة فى وسطها ست وثلاثون قرية ويدور بها خور واذا كان الجزر فماؤها عذب طيب واذا كان المد فهو ملح اجاج وفى وسطها مدينتان احداهما قديمة من بناء الكفار والثانية بناها المسلمون عند استفتاحهم لهذه الجزيرة الفتح الاول وفيها مسجد جامع عظيم يشبه مساجد بغداد عمره الناخودة حسن والد السلطان جمال الدين محمد الهنورى وسيأتى ذكره وذكر حضورى معه لفتح هذه الجزيرة الفتح الثانى ان شاء الله وتجاوزناها هذه الجزيرة لما مررنا بها وارسينا على جزيرة صغيرة قريبة من البر فيها كنيسة وبستان وحوض ماء ووجدنا بها احد الجوكية

﴿حكاية هذا الجوكى﴾

ولما نزلنا بهذه الجزيرة الصغرى وجدنا بها جوكيا مستندا الى حائط بدخانة وهى بيت الاصنام وهو فيما بين صنمين منها وعليه اثر المجاهدة فكلمناه فلم يتكلم ونظرنا هل معه طعام فلم نر معه طعاما وفى حين نظرنا صاح صيحة عظيمة فسقطت عند صياحه جوزة من جوز النارجيل بين يديه ودفعها الينا فعجبنا من ذلك ودفعنا له دنانير ودراهم فلم يقبلها واتيناه بزاد فرده وكانت بين يديه عباءة من صوف الجمال مطروحة فقلبتها بيدى فدفعها الى وكانت بيدى سبحة زيلع فقلبها فى يدى فاعطيته اياها ففركها بيده وشمها وقبلها واشار الى السماء ثم الى سمت القبلة فلم يفهم

اصحابي اشارته وفهمت انا عنه انه اشارانه مسلم يخفي اسلامه من اهل تلك الجزيرة ويتعيش من تلك الجوز ولما وادعناه قبلت يده فأنكر أصحابي ذلك ففهم انكارهم فأخذ يدي وقبلها وتبسم واشار لنا بالانصراف فانصرفنا وكنت آخر أصحابي خروجا فجذب ثوبي فرددت رأسي اليه فأعطاني عشرة دنانير فلما خرجنا عنه قال لي اصحابي لم جذبك فقلت لهم اعطاني هذه الدنانير واعطيت لظهير الدين ثلاثة منها ولسنبل ثلاثة وقلت لهما الرجل مسلم ألا ترون كيف اشار الى السماء يشير الى انه يعرف الله تعالى واشار الى القبلة يشير الى معرفة الرسول عليه السلام وأخذه السبحة يصدق ذلك فرجعا لما قلت لهما ذلك اليه فلم يجداه وسافرنا تلك الساعة وبالغد وصلنا الى مدينة هنور (وضبط اسمها بكسر الهاء وفتح النون وسكون الواو وراء) وهي على خور كبير تدخله المراكب الكبار والمدينة على نصف ميل من البحر وفي ايام البشكال وهو المطر يشتد هيجان هذا البحر وطغيانه فيبقى مدة اربعة اشهر لا يستطيع احد ركوبه الا للتصيد فيه وفي يوم وصولنا اليها جاءني احد الجوكية من الهنود في خلوة واعطاني ستة دنانير وقال لي البرهمن بعثها اليك يعني الجوكي الذي أعطيته السبحة واعطاني الدنانير فاخذتها منه وأعطيته دينارا منها فلم يقبله وانصرف واخبرت اصحابي بالقضية وقلت لهما إن شئتما فخذا نصيبكما منها فابيا وجعلا يعجبان من شأنه وقالا لي ان الدنانير الستة التي أعطيتنا اياها جعلنا معها مثلها وتركناها بين الصنمين حيث وجدناها فطال عجبي من أمره واحتفظت بتلك الدنانير التي أعطانيها وأهل مدينة هنور شافعية المذهب لهم صلاح ودين وجهاد في البحر وقوة وبذلك عرفوا حتى اذلهم الزمان بعد فتحهم لسندابور وسنذكر ذلك ولقيت من المتعبدين بهذه المدينة الشيخ محمد الناقوري اضافني بزاويته وكان يطبخ الطعام بيده استقذارا للجارية والغلام ولقيت بها الفقيه اسماعيل معلم كتاب الله تعالى وهو ورع حسن الخلق كريم النفس والقاضي بها نور الدين عليا والخطيب لا اذكر اسمه ونساء هذه المدينة وجميع هذه البلاد الساحلية لا يلبسن المخيط انما يلبسن ثيابا غير مخيطة تحتزم احداهن باحد طرفي الثوب وتجعل باقيه على رأسها وصدرها ولهن جمال وعفاف وتجعل احداهن خرص ذهب في انفها ومن خصائصهن انهن جميعا يحفظن القرآن العظيم ورأيت بالمدينة ثلاثة عشر مكتبا لتعليم البنات وثلاثة وعشرين لتعليم الاولاد ولم أر ذلك في سواها ومعاش أهلها من التجارة في البحر ولا زرع لهم واهل بلاد المليبار يعطون للسلطان جمال الدين في كل عام شيأ معلوما خوفا منه لقوته في البحر وعسكره نحو ستة آلاف بين فرسان ورجالة

﴿ذكر سلطان هنور﴾

وهو السلطان جمال الدين محمد بن حسن من خيار السلاطين وكبارهم وهو تحت حكم سلطان

كافر

كافر يسمى هريب سنذ كره والسلطان جمال الدين مواظب للصلاة فى الجماعة وعادته ان يأتى الى المسجد قبل الصبح فيتلو فى المصحف حتى يطلع الفجر فيصلى أول الوقت ثم يركب الى خارج المدينة ويأتى عند الضحى فيبدأ بالمسجد فيركع فيه ثم يدخل الى قصره وهو يصوم الايام البيض وكان أيام اقامتى عنده يدعونى للافطار معه فاحضر لذلك ويحضر الفقيه على والفقيه اسماعيل فتوضع أربع كراسى صغار على الارض فيقعد على احداها ويقعد كل واحد منا على كرسى

﴿ذكر ترتيب طعامه﴾

وترتيبه ان يؤتى بمائدة نحاس يسمونها خونجة ويجعل عليها طبق نحاس يسمونه الطالم (بفتح الطاء المهمل وفتح اللام) وتأتى جارية حسنة ملتحفة بثوب حرير فتقدم قدور الطعام بين يديه ومعها مغرفة نحاس كبيرة فتغرف بها من الارز مغرفة واحدة وتجعلها فى الطالم وتصب فوقها السمن وتجعل مع ذلك عناقيد الفلفل المملوح والزنجبيل الاخضر والليمون المملوح والعنبا فيأكل الانسان لقمة ويتبعها بشئ من تلك الموالح فاذا تمت الغرفة التى جعلتها فى الطالم غرفت غرفة أخرى من الارز وافرغت دجاجة مطبوخة فى سكرجة فيؤكل بها الارز أيضا فاذا تمت المغرفة الثانية غرفت وأفرغت لونا آخر من الدجاج تؤكل به فاذا تمت ألوان الدجاج اتوا بألوان من السمك فيأكلون بها الارز أيضا فاذا فرغت الوان السمك اتوا بالخضر مطبوخة بالسمن والالبان فيأكلون بها الارز فاذا فرغ ذلك كله اتوا بالكوشان وهو اللبن الرائب وبه يختمون طعامهم فاذا وضع علم انه لم يبق شئ يؤكل بعده ثم يشربون على ذلك الماء السخن لان الماء البارد يضر بهم فى فصل نزول المطر ولقد أقمت عند هذا السلطان فى كرة أخرى احد عشر شهرا لم آكل خبزا انما طعامهم الارز وبقيت أيضا بجزائر المهل وسيلان وبلاد المعبر والمليبار ثلاث سنين لا آكل فيها الا الارز حتى كنت لا أستسيغه الا بالماء ولباس هذا السلطان ملاحف الحرير والكتان الرقاق يشد فى وسطه فوطة ويلتحف ملحفتين احداهما فوق الاخرى ويعقص شعره ويلف عليه عمامة صغيرة واذا ركب لبس قباء والتحف بملحفتين فوقه وتضرب بين يديه طبول وابواق يحملها الرجال وكانت اقامتنا عنده فى هذه المرة ثلاثة أيام وزودنا وسافرنا عنه وبعد ثلاثة أيام وصلنا الى بلاد المليبار (بضم الميم وفتح اللام وسكون الياء آخر الحروف وفتح الباء الموحدة والف وراء) وهى بلاد الفلفل وطولها مسيرة شهرين على ساحل البحر من سندابور الى كولم والطريق فى جميعها بين ظلال الاشجار وفى كل نصف ميل بيت من الخشب فيه دكاكين يقعد عليها كل وارد وصادر من مسلم أو كافر وعند كل بيت منها بئر يشرب منها ورجل كافر موكل بها فمن كان كافرا سقاه فى الاوانى ومن

كان مسلما سقاه فى يديه ولا يزال يصب له حتى يشير له أو يكف وعادة الكفار ببلاد المليبار ان لا يدخل المسلم دورهم ولا يطعم فى آنيتهم فان طعم فيها كسروها او أعطوها للمسلمين واذا دخل المسلم موضعا منها لا يكون فيه دار للمسلمين طبخوا له الطعام وصبوه له على اوراق الموز وصبوا عليه الادام وما فضل عنه يأكله الكلاب والطير وفى جميع المنازل بهذا الطريق ديار المسلمين ينزل عندهم المسلمون فيبيعون منهم جميع ما يحتاجون اليه ويطبخون لهم الطعام ولولاهم لما سافر فيه مسلم وهذا الطريق الذى ذكرنا انه مسيرة شهرين ليس فيه موضع شبر فما فوقه دون عمارة وكل انسان بستانه على حده وداره فى وسطه وعلى الجميع حائط خشب والطريق يمر فى البساتين فاذا انتهى الى حائط بستان كان هنالك درج خشب يصعد عليها ودرج اخرى ينزل عليها الى البستان الاخر هكذا مسيرة الشهرين ولا يسافر احد فى تلك البلاد بدابة ولا تكون الخيل الا عند السلطان وأكثر ركوب أهلها فى دولة على رقاب العبيد أو المستأجرين ومن لم يركب فى دولة مشى على قدميه كائنا من كان ومن كان له رحل او متاع من تجارة وسواها اكترى رجالا يحملونه على ظهورهم فترى هنالك التاجر ومعه المائة فما دونها او فوقها يحملون امتعته وبيد كل واحد منهم عود غليظ له زج حديد وفى أعلاه محطاف حديد فاذا اعيا ولم يجد دكانة يستريح عليها ركز عوده بالارض وعلق حمله منه فاذا استراح اخذ حمله من غير معين ومضى به ولم أر طريقا آمن من هذا الطريق وهم يقتلون السارق على الجوزة الواحدة فاذا سقط شئ من الثمار لم يلتقطه احد حتى يأخذه صاحبه وأخبرت ان بعض الهنود مروا على الطريق فالتقط احدهم جوزة وبلغ خبره الى الحاكم فأمر بعود فركز فى الارض وبرى طرفه الاعلى وأدخل فى لوح خشب حتى برز منه ومد الرجل على اللوح وركز فى العود وهو على بطنه حتى خرج من ظهره وترك عبرة للناظرين ومن هذه العيدان على هذه الصورة بتلك الطرق كثير ليراها الناس فيتعظوا ولقد كنا نلقى الكفار بالليل فى هذه الطريق فاذا رأونا تنحوا عن الطريق حتى نجوز والمسلمون أعز الناس بها غير انهم كما ذكرناه لا يؤاكلونهم ولا يدخلونهم دورهم وفى بلاد المليبار اثنا عشر سلطانا من الكفار منهم القوى الذى يبلغ عسكره خمسين ألفا ومنهم الضعيف الذى عسكره ثلاثة آلاف ولا فتنة بينهم البتة ولا يطمع القوى منهم فى انتزاع ما بيد الضعيف وبين بلاد احدهم وصاحبه باب خشب منقوش فيه اسم الذى هو مبدأ عمالته ويسمونه باب امان فلان واذا فر مسلم أو كافر بسبب جناية من بلاد أحدهم ووصل باب أمان الاخر أمن على نفسه ولم يستطع الذى هرب عنه أخذه وان كان القوى صاحب العدد والجيوش وسلاطين تلك البلاد يورثون ابن الاخت ملكهم دون اولادهم ولم أر من يفعل ذلك الا مسوفة اهل اللثام (اللثام) وسنذكرهم فيما بعد فاذا

أراد

اراد السلطان من أهل بلاد المليبار منع الناس من البيع والشراء أمر بعض غلمانه فعلق على الحوانيت بعض اغصان الاشجار بأوراقها فلا يبيع احد ولا يشترى مادامت عليها تلك الاغصان

(ذكر الفلفل)

وشجرات الفلفل شبيهة بدوالى العنب وهم يغرسونها ازاء النارجيل فتصعد فيها كصعود الدوالى الا انها ليس لها عسلوج وهو الغزل كما للدوالى واوراق شجره تشبه آذان الخيل وبعضها يشبه أوراق العليق ويثمر عناقيد صغارا حبها كحب أبى قنينه اذا كانت خضرا واذا كان أوان الخريف قطفوه وفرشوه على الحصر فى الشمس كما يصنع بالعنب عند تزبيبه ولا يزالون يقلبونه حتى يستحكم يبسه ويسود ثم يبيعونه من التجار والعامة ببلادنا يزعمون انهم يقلونه بالنار وبسبب ذلك يحدث فيه التكريش وليس كذلك وانما يحدث ذلك فيه بالشمس ولقد رأيته بمدينة قالقوط يصب للكيل كالذرة ببلادنا واول مدينة دخلناها من بلاد المليبار مدينة ابى سرور (بفتح السين) وهى صغيرة على خور كبير كثيرة اشجار النارجيل وكبير المسلمين بها الشيخ جمعة المعروف بابى ستة احد الكرماء انفق امواله على الفقراء والمساكين حتى نفدت وبعد يومين منها وصلنا الى مدينة فاكنور (وضبط اسمها بفتح الفاء والكاف والنون وآخره راء) مدينة كبيرة على خور بها قصب السكر الكثير الطيب الذى لا مثل له بتلك البلاد وبها جماعة من المسلمين يسمى كبيرهم بحسين السلاط وبها قاض وخطيب وعمر بها حسين المذكور مسجدا لاقامة الجمعة

(ذكر سلطانها)

وسلطان فاكنور كافر اسمه باسدو (بفتح الباء الموحدة والسين المهمل والدال المهمل وسكون الواو) وله نحو ثلاثين مركبا حربية قائدها مسلم يسمى لولا وكان من المفسدين يقطع بالبحر ويسلب التجار ولما أرسينا على فاكنور بعث سلطانها الينا ولده فأقام بالمركب كالرهينة ونزلنا اليه فاضافنا ثلاثا بأحسن ضيافة تعظيما للسلطان الهند وقياما بحقه ورغبة فيما يستفيده فى التجارة مع أهل مراكبنا ومن عادتهم هنالك ان كل مركب يمر ببلد فلابد من ارسائه بها واعطائه هدية لصاحب البلد يسمونها حق البندر ومن لم يفعل ذلك خرجوا فى اتباعه بمراكبهم وأدخلوه المرسى قهرا وضاعفوا عليه المغرم ومنعوه عن السفر ماشاؤوا وسافرنا منها فوصلنا بعد ثلاثة أيام الى مدينة منجرور (وضبط اسمها بفتح الميم وسكون النون وفتح الجيم وضم الراء وواو وراء ثانية) مدينة كبيرة على خور يسمى خور الدنب (بضم الدال المهمل وسكون النون وباء موحدة) وهو اكبر خور ببلاد المليبار وبهذه المدينة ينزل معظم تجار فارس واليمن والفلفل والزنجبيل بها كثير جدا

﴿ ذكر سلطانها ﴾

وهو من اكبر سلاطين تلك البلاد واسمه رام دو (بفتح الراء والميم والدال المهمل وسكون الواو) وبها نحو أربعة آلاف من المسلمين يسكنون ربضا بناحية المدينة وربما وقعت الحرب بينهم وبين أهل المدينة فيصلح السلطان بينهم لحاجته الى التجار وبها قاض من الفضلاء الكرماء شافعي المذهب يسمى بدر الدين المعبري وهو يقرئ العلم صعد الينا الى المركب ورغب منا في النزول الى بلده فقلنا حتى يبعث السلطان ولده يقيم بالمركب فقال انما فعل ذلك سلطان فاكنور لانه لا قوة للمسلمين في بلده وأما نحن فالسلطان يخافنا فابينا عليه الا ان بعث السلطان ولده فبعث ولده كما فعل الآخر ونزلنا اليهم وأكرمونا اكراما عظيما وأقمنا عندهم ثلاثة ايام ثم سافرنا الى مدينة هيلي فوصلناها بعد يومين (وضبط اسمها بهاء مكسور وياء مد ولام مكسور) وهي كبيرة حسنة العمارة على خور عظيم تدخله المراكب الكبار والى هذه المدينة تنتهي مراكب الصين ولا تدخل الا مرساها ومرسى كولم وقالقوط ومدينة هيلي معظمة عند المسلمين والكفار بسبب مسجدها الجامع فانه عظيم البركة مشرق النور وركاب البحر ينذرون له النذور الكثيرة وله خزانة مال عظيمة تحت نظر الخطيب حسين وحسن الوزان كبير المسلمين وبهذا المسجد جماعة من الطلبة يتعلمون العلم ولهم مرتبات من مال المسجد وله مطبخة يصنع فيها الطعام للوارد والصادر ولاطعام الفقراء من المسلمين بها ولقيت بهذا المسجد فقيها صالحا من أهل مقدشو يسمى سعيدا حسن اللقاء والخلق يسرد الصوم وذكر لي انه جاور بمكة أربع عشرة سنة ومثلها بالمدينة وأدرك الامير بمكة ابانمي والامير بالمدينة منصور بن جماز وسافر في بلاد الهند والصين ثم سافرنا من هيلي الى مدينة جرفتن (وضبط اسمها بضم الجيم وسكون الراء وفتح الفاء وفتح التاء المعلوة وتشديدها وآخره نون) وبينها وبين هيلي ثلاثة فراسخ ولقيت بها فقيها من أهل بغداد كبير القدر يعرف بالصرصري نسبة الى بلدة على مسافة عشر أميال من بغداد في طريق الكوفة واسمها كاسم صرصر التي عندنا بالمغرب وكان له أخ بهذه المدينة كثير المال له أولاد صغار واوصى اليه بهم وتركته آخذا في حملهم الى بغداد وعادة اهل الهند كعادة السودان لا يتعرضون لمال الميت ولو ترك الآلاف انما يبقى ماله بيد كبير المسلمين حتى يأخذه مستحقه شرعا

﴿ ذكر سلطانها ﴾

وهو يسمى بكويل (بضم الكاف) على لفظ التصغير وهو من اكبر سلاطين المليبار وله مراكب كثيرة تسافر الى عمان وفارس واليمن ومن بلاده ده فتن وبدفتن وسنذكرهما وسرنا من جرفتن الى مدينة ده فتن (بفتح الدال المهمل وسكون الهاء) وقد ذكرنا ضبط فتن وهي

مدينة

مدينة كبيرة على خور كثيرة البساتين وبها النارجيل والفلفل والفوفل والتنبول وبها القلقاص الكثير ويطبخون به اللحم وأما الموز فلم أر في البلاد اكثر منه بها ولا أرخص ثمنا وفيها البائن الاعظم طوله خمسمائة خطوة وعرضه ثلاثمائة خطوة وهو مطوى بالحجارة الحمر المنحوتة وعلى جوانبه ثمان وعشرون قبة من الحجر في كل قبة اربع مجالس من الحجر وكل قبة يصعد اليها على درج حجارة وفي وسطه قبة كبيرة من ثلاث طبقات في كل طبقة اربع مجالس وذكر لي ان والد هذا السلطان كويل هو الذى عمر هذا البائن وبازائه مسجد جامع المسلمين وله ادراج ينزل منها اليه فيتوضأ منه الناس ويغتسلون وحدثني الفقيه حسين ان الذى عمر المسجد والبائن ايضا هو احد اجداد كويل وانه كان مسلما ولاسلامه خبر عجيب نذكره

❁(ذكر الشجرة العجيبة الشأن التي بازاء الجامع)❁

ورأيت ان بازاء الجامع شجرة خضراء ناعمة تشبه اوراقها اوراق التين الا انها لينة وعليها حائط يطيف بها وعندها محراب صليت فيه ركعتين واسم هذه الشجرة عندهم درخت الشهادة ودرخت (بفتح الدال المهمل والراء وسكون الخاء المعجم وتاء معلوة) واخبرت هنالك انه اذا كان زمان الخريف من كل سنة تسقط من هذه الشجرة ورقة واحدة بعد ان يستحيل لونها الى الصفرة ثم الى الحمرة ويكون فيها مكتوبا بقلم القدرة لا اله الا الله محمد رسول الله وأخبرني الفقيه حسين وجماعة من الثقات انهم عاينوا هذه الورقة وقرؤا المكتوب الذى فيها واخبرني انه اذا كانت ايام سقوطها قعد تحتها الثقات من المسلمين والكفار فاذا سقطت أخذ المسلمون نصفها وجعل نصفها في خزانة السلطان الكافر وهم يستشفون بها المرضى وهذه الشجرة كانت سبب اسلام جد كويل الذى عمر المسجد والبائن فانه كان يقرأ الخط العربي فلما قرأها وفهم ما فيها اسلم وحسن اسلامه وحكايته عندهم متواترة وحدثني الفقيه حسين ان أحد اولاده كفر بعد أبيه وطغى وأمر باقتلاع الشجرة من اصلها فاقتلعت ولم يترك لها اثر ثم انها نبتت بعد ذلك وعادت كأحسن ما كانت عليه وهلك الكافر سريعا ثم سافرنا الى مدينة بدفتن وهي مدينة كبيرة على خور كبير وبخارجها مسجد بمقربة من البحر يأوى اليه غرباء المسلمين لانه لا مسلم بهذه المدينة ومرساها من أحسن المراسى وماؤها عذب والفوفل بها كثير ومنها يحمل للهند والصين وأكثر أهلها براهمة وهم معظمون عند الكفار مبغضون في المسلمين ولذلك ليس بينهم مسلم

❁(حكاية)

اخبرت ان سبب تركهم هذا المسجد غير مهدوم ان أحد البراهمة خرب سقفه ليصنع منه سقفا لبيته فاستعلت النار في بيته فاحترق هو وأولاده ومتاعه فاحترموا هذا المسجد ولم يعرضوا

له بسوء بعدها وخدموه وجعلوا بخارجه الماء يشرب منه الصادر والوارد وجعلوا على بابه شبكة لئلا يدخله الطير ثم سافرنا من مدينة بدفتن الى مدينة فندرينا (وضبط اسمها بفاء مفتوح ونون ساكن ودال مهمل وراء مفتوحين وياء آخر الحروف) مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين واسواق وبها للمسلمين ثلاث محلات فى كل محلة مسجد والجامع بها على الساحل وهو عجيب له مناظر ومجالس على البحر وقاضيها وخطيبها رجل من أهل عمان وله أخ فاضل وبهذه البلدة تشتو مراكب الصين ثم سافرنا منها الى مدينة قالقوط (وضبط اسمها بقافين وكسر اللام وضم القاف الثانى وآخره طاء مهمل) وهى احدى البنادر العظام ببلاد المليبار يقصدها اهل الصين والجاوة وسيلان والمهل واهل اليمن وفارس ويجتمع بها تجار الآفاق ومرساها من اعظم مراسى الدنيا

﴿ذكر سلطانها﴾

وسلطانها كافر يعرف بالسامرى شيخ السن يحلق لحيته كما يفعل طائفة من الروم رأيته بها وسنذكره ان شاء الله وامير التجار بها ابراهيم شاه بندر من أهل البحرين فاضل ذو مكارم يجتمع اليه التجار ويأكلون فى سماطه وقاضيها فخر الدين عثمان فاضل كريم وصاحب الزاوية بها الشيخ شهاب الدين الكازرونى وله تعطى النذور التى ينذر بها اهل الهند والصين للشيخ ابى اسحاق الكازرونى نفع الله به وبهذه المدينة الناخودة مثقال الشهير الاسم صاحب الاموال الطائلة والمراكب الكثيرة لتجارته بالهند والصين واليمن وفارس ولما وصلنا الى هذه المدينة خرج الينا ابراهيم شاه بندر والقاضى والشيخ شهاب الدين وكبار التجار ونائب السلطان الكافر المسمى بقلاج (بضم القاف وآخره جيم) ومعهم الاطبال والانفار والابواق والاعلام فى مراكبهم ودخلنا المرسى فى بروز عظيم ما رأيت مثله بتلك البلاد فكانت فرحة تتبعها ترحة واقنا بمرساها وبه يومئذ ثلاثة عشر من مراكب الصين ونزلنا بالمدينة وجعل كل واحد منا فى دار واقنا ننتظر زمان السفر الى الصين ثلاثة أشهر ونحن فى ضيافة الكافر وبحر الصين لا يسافر فيه الا بمراكب الصين ولنذكر ترتيبها

﴿ذكر مراكب الصين﴾

ومراكب الصين ثلاثة أصناف الكبار منها تسمى الجنوك واحدها جنك (بجيم معقود مضموم ونون ساكن) والمتوسطة تسمى الزو (بفتح الزاى وواو) والصغار يسمى احدها الككم (بكافين مفتوحين) ويكون فى المركب الكبير منها اثنى عشر قلعا فما دونها الى ثلاثة وقلعها من قضبان الخيزران منسوجة كالحصر لا تحط أبدا ويديرونها بحسب دوران الريح واذا ارسوا تركوها واقفة فى مهب الريح ويخدم فى المركب منها الف رجل منهم البحرية ستمائة

ومنهم

ومنهم اربعمائة من المقاتلة تكون فيهم الرماة وأصحاب الدرق والجرخية وهم الذين يرمون بالنفط ويتبع كل مركب كبير منها ثلاثة النصفي والثلثي والربعي ولا تصنع هذه المراكب الا بمدينة الزيتون من الصين او بصين كلان وهي صين الصين وكيفية انشائها انهم يصنعون حائطين من الخشب يصلون ما بينهما بخشب ضخام جدا موصولة بالعرض والطول بمسامير ضخام طول المسمار منها ثلاث اذرع فاذا التأم الحائطان بهذه الخشب صنعوا على اعلاهما فرش المركب الاسفل ودفعوهما في البحر واتموا عمله وتبقى تلك الخشب والحائطان موالية للماء ينزلون اليها فيغتسلون ويقضون حاجتهم وعلى جوانب تلك الخشب يكون مجاذيفهم وهي كبار كالصواري يجتمع على احدها العشرة والخمسة عشر رجلا ويجذفون وقوفا على اقدامهم ويجعلون للمركب اربعة ظهور ويكون فيه البيوت والمصاري والغرف للتجار والمصرية منها يكون فيها البيوت والسنداس وعليها المفتاح يسدها صاحبها ويحمل معه الجواري والنساء وربما كان الرجل في مصريته فلا يعرف به غيره ممن يكون بالمركب حتى يتلاقيا اذا وصلا الى بعض البلاد والبحرية يسكنون فيها اولادهم ويزدرعون الخضر والبقول والزنجبيل في احواض خشب ووكيل المركب كأنه امير كبير واذا نزل الى البر مشت الرماة والحبشة بالحراب والسيوف والاطبال والابواق والانفار امامه واذا وصل الى المنزل الذي يقيم به ركزوا رماحهم عن جانبي بابه ولا يزالون كذلك مدة اقامته ومن أهل الصين من تكون له المراكب الكثيرة يبعث بها وكلاءه الى البلاد وليس في الدنيا اكثر اموالا من أهل الصين

﴿ذكر أخذنا في السفر الى الصين ومنتهى ذلك﴾

ولما حان وقت السفر الى الصين جهز لنا السلطان السامري جنكا من الجنوك الثلاث عشر التي بمرسى قالقوط وكان وكيل الجنك يسمى بسليمان الصفدي الشامي وبيني وبينه معرفة فقلت له اريد مصرية لا يشاركني فيها أحد لاجل الجواري ومن عادتي ان لا أسافر الا بهن فقال لي ان تجار الصين قد اكتروا المصاري ذاهبين وراجعين ولصهري مصرية اعطيكها لكنها لا سنداس فيها وعسى ان تمكن معاوضتها فأمرت اصحابي فاوسقوا ما عندي من المتاع وصعد العبيد والجواري الى الجنك وذلك في يوم الخميس واقمت لاصلي الجمعة والحق بهم وصعد الملك سنبل وظهير الدين مع الهدية ثم ان فتى لي يسمى بهلال اتاني غدوة الجمعة فقال ان المصرية التي أخذناها بالجنك ضيقة لا تصلح فذكرت ذلك للناخودة فقال ليست في ذلك حيلة فان أحببت ان تكون في الككم ففيه المصاري على اختيارك فقلت نعم وامرت اصحابي فنقلوا الجواري والمتاع الى الككم واستقروا به قبل صلاة الجمعة وعادة هذا البحران يشتد هيجانه كل يوم بعد العصر فلا يستطيع أحد ركوبه وكانت الجنوك قد سافرت ولم يبق منها الا الذي فيه الهدية

وجنك عزم اصحابه على ان يشتوا بفندرينا والكَكَم المذكور فبتنا ليلة السبت على الساحل لانستطيع الصعود الى الككم ولا يستطيع من فيه النزول الينا ولم يكن بقي معي الا بساط افترشه وأصبح الجنك والككم يوم السبت على بعد من المرسى ورمى البحر بالجنك الذي كان اهله يريدون فندرينا فتكسر ومات بعض أهله وسلم بعضهم وكانت فيه جارية لبعض التجار عزيزة عليه فرغب في اعطاء عشرة دنانير ذهبا لمن يخرجها وكانت قد التزمت خشبة في مؤخر الجنك فانتدب لذلك بعض البحرية الهرمزيين فاخرجها وأبى أن يأخذ الدنانير وقال انما فعلت ذلك لله تعالى ولما كان الليل رمى البحر بالجنك الذي كانت فيه الهدية فمات جميع من فيه ونظرنا عند الصباح الى مصارعهم ورأيت ظهير الدين قد انشق رأسه وتناثر دماغه والملك سنبل قد ضربه مسمار في احد صدغيه ونفذ من الآخر وصلينا عليهما ودفناهما ورأيت الكافر سلطان قالقوط وفي وسطه شقة بيضاء كبيرة قد لفها من سرته الى ركبته وفي رأسه عمامة صغيرة وهو حافي القدمين والشطر بيد غلام فوق رأسه والنار توقد بين يديه في الساحل وزبانيته يضربون الناس لئلا ينتهبوا ما يرمي البحر وعادة بلاد المليبار ان كل ما انكسر من مركب يرجع ما يخرج منه للمخزن الا في هذا البلد خاصة فان ذلك يأخذه اربابه ولذلك عمرت وكثر تردد الناس اليها ولما رآى اهل الككم ما حدث على الجنك رفعوا قلاعهم وذهبوا ومعهم جميع متاعي وغلماني وجواري وبقيت منفردا على الساحل ليس معي الا فتى كنت اعتقته فلما رأى ما حل بي ذهب عني ولم يبق عندي الا العشرة الدنانير التي اعطانيها الجوكي والبساط التي كنت أفترشه واخبرني الناس ان ذلك الككم لا بد له أن يدخل مرسى كولم فعزمت على السفر اليها وبينهما مسيرة عشر في البر أو في النهر أيضا لمن أراد ذلك فسافرت في النهر واكتريت رجلا من المسلمين يحمل لي البساط وعادتهم اذا سافروا في ذلك النهر ان ينزلوا بالعشي فيبيتوا بالقرى التي على حافتيه ثم يعودوا الى المركب بالغدو فكنا نفعل ذلك ولم يكن بالمركب مسلم الا الذي اكتريته وكان يشرب الخمر عند الكفار اذا نزلنا ويعربد علي فيزيد تغيير خاطري ووصلنا في اليوم الخامس من سفرنا الى كنجي كري (وضبط اسمها بكاف مضموم ونون ساكن وجيم وياء مد وكاف مفتوح وراء مكسور وياء) وهي بأعلى جبل هنالك يسكنها اليهود ولهم أمير منهم ويؤدون الجزية لسلطان كولم

﴿ذكر القرفة والبقم﴾

وجميع الأشجار التي على هذا النهر أشجار القرفة والبقم وهي حطبهم هنالك ومنها كنا نقد النار لطبخ طعامنا في ذلك الطريق وفي اليوم العاشر وصلنا الى مدينة كولم (وضبط اسمها بفتح الكاف واللام وبينهما واو) وهي من احسن بلاد المليبار واسواقها حسان وتجارها يعرفون

بالصوليين

بالصوليين (بضم الصاد) لهم أموال عريضة يشترى احدهم المركب بما فيه ويوسقه من داره بالسلع وبها من التجار المسلمين جماعة كبيرهم علاء الدين الاوجى من أهل آوة من بلاد العراق وهو رافضى ومعه أصحاب له على مذهبه وهم يظهرون ذلك وقاضيها فاضل من أهل قزوين وكبير المسلمين بها محمد شاه بندر وله اخ فاضل كريم اسمه تقى الدين والمسجد الجامع بها عجيب عمره التاجر خواجه مهزب وهذه المدينة اول مايوالى الصين من بلاد المليبار واليها يسافر اكثرهم والمسلمون بها أعزة محترمون

❋(ذكر سلطانها)❋

وهو كافر يعرف بالتيروري (بكسر التاء المعلوة وياء مد وراء مفتوحين وراء مكسور وياء) وهو معظم للمسلمين وله احكام شديدة على السراق والدعار

(حكاية)

ومما شاهدت بكولم ان بعض الرماة العراقيين قتل آخر منهم وفر الى دار الاوجى وكان له مال كثير واراد المسلمون دفن المقتول فمنعهم نواب السلطان من ذلك وقالوا لا يدفن حتى تدفعوا لنا قاتله فيقتل به وتركوه فى تابوته على باب الاوجى حتى انتن وتغير فمكنهم الاوجى من القاتل ورغب منهم ان يعطيهم امواله ويتركوه حيا فابوا ذلك وقتلوه وحينئذ دفن المقتول

(حكاية)

اخبرت ان سلطان كولم ركب يوما الى خارجها وكان طريقه فيما بين البساتين ومعه صهره زوج بنته وهو من أبناء الملوك فأخذ حبة واحدة من العنبة سقطت من بعض البساتين وكان السلطان ينظر اليه فامر به عند ذلك فوسط وقسم نصفين وصلب نصفه عن يمين الطريق ونصفه الآخر عن يساره وقسمت حبة العنبة نصفين فوضع عن كل نصف منه نصف منها وترك هنالك عبرة للناظرين

❋(حكاية)❋

ومما اتفق نحو ذلك بقالقوط ان ابن اخى النائب عن سلطانها اغصب سيفا لبعض تجار المسلمين فشكا بذلك الى عمه فوعده بالنظر فى امره وقعد على باب داره فاذا بابن اخيه متقلد ذلك السيف فدعاه فقال هذا سيف المسلم قال نعم قال اشتريته منه قال لا فقال لاعوانه امسكوه ثم امر به فضربت عنقه بذلك السيف واقمت بكولم مدة بزاوية الشيخ فخر الدين ابن الشيخ شهاب الدين الكازرونى شيخ زاوية قالقوط فلم أتعرف للككم خبرا وفى اثناء مقامى بها دخل اليها ارسال ملك الصين الذين كانوا معنا وكانوا مع احد تلك الجنوك فانكسر ايضا فكساهم تجار الصين وعادوا الى بلادهم ولقيتهم بها بعد واردت ان اعود من كولم الى السلطان لاعلمه بما

اتفق على الهدية ثم خفت ان يتعقب فعلى ويقول لم فارقت الهدية فعزمت على العودة الى السلطان جمال الدين الهنورى واقيم عنده حتى أتعرف خبر الكم فعدت الى قالقوط ووجدت بها بعض مراكب السلطان فبعث فيها أميرا من العرب يعرف بالسيد أبى الحسن وهو من البردداريه وهم خواص البوابين بعثه السلطان باموال يستجلب بها من قدر عليه من العرب من أرض هرمز والقطيف لمحبته فى العرب فتوجهت الى هذا الامير ورأيته عازما على ان يشتو بقالقوط وحينئذ يسافر الى بلاد العرب فشاورته فى العودة الى السلطان فلم يوافق على ذلك فسافرت بالبحر من قالقوط وذلك آخر فصل السفر فيه فكنا نسير نصف النهار الاول ثم نرسوا الى الغد ولقينا فى طريقنا اربعة اجفان غزوية فخفنا منها ثم لم يعرضوا النا بشر ووصلنا الى مدينة هنور فنزلت الى السلطان وسلمت عليه فانزلنى بدار ولم يكن لى خديم وطلب منى ان أصلى معه الصلوات فكان أكثر جلوسى فى مسجده وكنت أختم القرآن كل يوم ثم كنت أختم مرتين فى اليوم ابتدى القراءة بعد صلاة الصبح فاختم عند الزوال واجدد الوضوء وابتدى القراءة فاختم الختمة الثانية عند الغروب ولم ازل كذلك مدة ثلاثة اشهر واعتكفت فيها اربعين يوما

❋(ذكر توجهنا الى الغزو وفتح سندابور)❋

وكان السلطان جمال الدين قد جهز اثنين وخمسين مركبا وسفرته برسم غزو سندابور وكان وقع بين سلطانها وولده خلاف فكتب ولده الى السلطان جمال الدين ان يتوجه لفتح سندابور ويسلم الولد المذكور ويزوجه السلطان اخته فلما تجهزت المراكب ظهر لى ان أتوجه فيها الى الجهاد ففتحت المصحف انظر فيه فكان فى أول الصفح يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره فاستبشرت بذلك واتى السلطان الى صلاة العصر فقلت له انى أريد السفر فقال فانت اذا تكون اميرهم فاخبرته بما خرج لى فى أول المصحف فاعجبه ذلك وعزم على السفر بنفسه ولم يكن ظهر له ذلك قبل فركب مركبا منها وانا معه وذلك فى يوم السبت فوصلنا عشى الاثنين الى سندابور ودخلنا خورها فوجدنا اهلها مستعدين للحرب وقد نصبوا المجانيق فبتنا عليها تلك الليلة فلما اصبح ضربت الطبول والانفار والابواق وزحفت المراكب ورمت عليها بالمجانيق فلقد رأيت حجرا أصاب بعض الواقفين بقربة من السلطان ورمى أهل المراكب انفسهم فى الماء وبايديهم الترسة والسيوف ونزل السلطان الى العكيرى وهو شبه الشلير ورميت بنفسى فى الماء فى جملة الناس وكان عندنا طريدتان مفتوحتى المواخر فيها الخيل وهى بحيث يركب الفارس فرسه فى جوفها ويتدرع ويخرج ففعلوا ذلك واذن الله فى فتحها وانزل النصر على المسلمين فدخلنا بالسيف ودخل معظم الكفار فى قصر سلطانهم فرمينا النار فيه فخرجوا

وقبضنا عليهم ثم ان السلطان أمنهم ورد لهم نساءهم واولادهم وكانوا نحو عشرة آلاف واسكنهم بربض المدينة وسكن السلطان القصر وأعطى الديار بمقربة منه لاهل دولته وأعطاني جارية منهن تسمى لمكى فسميتها مباركة وأراد زوجها فداءها فأبيت وكساني فرجية مصرية وجدت في خزائن الكافر وأقمت عنده بسندابور من يوم فتحها وهو الثالث عشر لجمادى الاولى الى منتصف شعبان وطلبت منه الاذن في السفر فأخذ على العهد في العودة اليه وسافرت في البحر الى هنور ثم الى فاكنور ثم الى منجرور ثم الى هيلي ثم الى جرفتن وده فتن وبد فتن وفندرينا وقالقوط وقد تقدم ذكر جميعها ثم الى مدينة الشاليات (وهي بالشين المعجم والف ولام وياء آخر الحروف والف وتاء معلوة) مدينة من حسان المدن تصنع بها الثياب المنسوبة لها واقمت بها فطال مقامي نعدت الى قالقوط ووصل اليها غلامان كانا لي بالكم فاخبراني ان الجارية التي كانت حاملا وبسببها كان تغير خاطري توفيت واخذ صاحب الجاوة سائر الجواري واستولت الايدي على المتاع وتفرق اصحابي الى الصين والجاوة وبنجالة فعدت لما تعرفت هذا الى هنور ثم الى سندابور فوصلتها في آخر المحرم واقمت بها الى الثاني من شهر ربيع الآخر وقدم سلطانها الكافر الذي دخلنا عليه برسم أخذها وهرب اليه الكفار كلهم وكانت عساكر السلطان متفرقة في القرى فانقطعوا عنا وحصرنا الكفار وضيقوا علينا ولما اشتد الحال خرجت عنها وتركتها محصورة وعدت الى قالقوط وعزمت على السفر الى ذيبة المهل وكنت اسمع باخبارها فبعد عشرة أيام من ركوبنا البحر بقالقوط وصلنا جزائر ذيبة المهل وذيبة على لفظ مونث الذيب والمهل (بفتح الميم والهاء) وهذه الجزائر احدى عجائب الدنيا وهي نحو الفي جزيرة ويكون منها مائة فما دونها مجتمعات مستديرة كالحلقة لها مدخل كالباب لا تدخل المراكب الامنه واذا وصل المركب الى احداها فلابد له من دليل من أهلها يسير به الى سائر الجزائر وهي من التقارب بحيث تظهر رؤس النخل التي باحداها عند الخروج من الاخرى فان اخطأ المركب سمتها لم يمكنه دخولها وحملته الريح الى المعبر او سيلان وهذه الجزائر اهلها كلهم مسلمون ذوو ديانة وصلاح وهي منقسمة الى اقاليم على كل إقليم وال يسمونه الكردوبي ومن اقاليمها اقليم بالبور (وهو بباءين معقودتين وكسر اللام وآخره راء) ومنها كنلوس (بفتح الكاف والنون مع تشديدها وضم اللام وواو وسين مهمل) ومنها اقليم المهل وبه تعرف الجزائر كلها وبها يسكن سلاطينها ومنها اقليم تلاديب (بفتح التاء المعلوة واللام والف ودال مهمل وياء مد وباء موحدة) ومنها اقليم كرايدو (بفتح الكاف والراء وسكون الياء المسفولة وضم الدال المهمل وواو) ومنها اقليم التيم (بفتح التاء المعلوة وسكون الياء المسفولة) ومنها اقليم تلدمتي (بفتح التاء المعلوة الاولى واللام وضم الدال المهمل وفتح الميم وتشديدها وكسر التاء

الاخرى و ياء) ومنها اقليم هلدمتى وهو مثل لفظ الذى قبله الا ان الهاء اوله ومنها اقليم بريدو (بفتح الباء الموحدة والراء وسكون الياء وضم الدال المهمل و واو) ومنها اقليم كندكل (بفتح الكافين والدال المهمل وواو) ومنها اقليم ملوك (بضم الميم) ومنها اقليم السويد (بالسين المهمل) وهو أقصاها وهذه الجزائر كلها لا زرع بها الا ان فى اقليم السويد منها زرعا يشبه انلى ويجلب منه الى المهل وانما أكل أهلها سمك يشبه الليرون يسمونه قلب الماس (بضم القاف) ولحمه أحمر ولا زفر له انما ريحه كريح لحم الانعام واذا اصطادوه قطعوا السمكة منه أربع قطع وطبخوه يسيرا ثم جعلوه فى مكاتيل من سعف النخل وعلقوه للدخان فاذا استحكم يبسه اكلوه ويحمل منها الى الهند والصين واليمن ويسمونه قلب الماس (بضم القاف)

(ذكر اشجارها)

ومعظم اشجار هذه الجزائر النارجيل وهو من اقواتهم مع السمك وقد تقدم ذكره واشجار النارجيل شأنها عجيب وتثمر النخل منها اثنى عشر عذقا فى السنة يخرج فى كل شهر عذق فيكون بعضها صغيرا وبعضها كبيرا وبعضها يابسا وبعضها اخضر هكذا ابدا ويصنعون منه الحليب والزيت والعسل حسبما ذكرنا ذلك فى السفر الاول ويصنعون من عسله الحلواء فيأكلونها مع الجوز اليابس منه ولذلك كله وللسمك الذى يغتذون به قوة عجيبة فى الباءة لا نظير لها ولاهل هذه الجزائر عجب فى ذلك ولقد كان لى بها اربع نسوة وجوار سواهن فكنت اطوف على جميعهن كل يوم وابيت عند من تكون ليلتها واقمت بها سنة ونصف اخرى على ذلك ومن أشجارها الجموح والاترج والليمون والقلقاص وهم يصنعون من أصوله دقيقا يعملون منه شبه الاطرية ويطبخونها بحليب النارجيل وهى من أطيب طعام كنت أستحسنها كثيرا وآكلها

(ذكر اهل هذه الجزائر وبعض عوائدهم وذكر مساكنهم)

واهل هذه الجزائر اهل صلاح وديانة وايمان صحيح ونية صادقة اكلهم حلال ودعاؤهم مجاب واذا رأى الانسان أحدهم قال له الله ربى ومحمد نبيى وأنا أمى مسكين وابدانهم ضعيفة ولا عهد لهم بالقتال والمحاربة وسلاحهم الدعاء ولقد أمرت مرة بقطع يد سارق بها فغشى على جماعة منهم كانوا بالمجلس ولا تطرقهم لصوص الهند ولا تذعرهم لانهم جربوا ان من اخذ لهم شيئا اصابته مصيبة عاجلة واذا اتت اجفان العدو الى ناحيتهم اخذوا من وجدوا من غيرهم ولم يعرضوا لاحد منهم بسوء وان أخذ أحد الكفار ولو ليمونة عاقبه امير الكفار وضربه الضرب المبرح خوفا من عاقبة ذلك ولولا هذا لكانوا اهون الناس على قاصدهم بالقتال لضعف بنيتهم وفى كل جزيرة من جزائرهم المساجد الحسنة واكثر عمارتهم بالخشب وهم اهل نظافة وتنزه عن

الاقذار

الاقذار واكثرهم يغتسلون مرتين في اليوم تنظفا لشدة الحر بها وكثرة العرق ويكثرون من الادهان العطرية كالصندلية وغيرها ويتلطخون بالغالية المجلوبة من مقدشو ومن عادتهم انهم اذا صلوا الصبح اتت كل امرأة الى زوجها او ابنها بالمكحلة وبماء الورد ودهن الغالية فيكحل عينيه ويدهن بماء الورد ودهن الغالية فتصقل بشرته وتزيل الشحوب عن وجهه ولباسهم فوط يشدّون الفوطة منها على أوساطهم عوض السراويل ويجعلون على ظهورهم ثياب الوليان (بكسر الواو وسكون اللام وياء آخر الحروف) وهي شبه الاحاريم وبعضهم يجعل عمامة وبعضهم منديلا صغيرا عوضا منها واذا لقي احدهم القاضي او الخطيب وضع ثوبه عن كتفيه وكشف ظهره ومضى معه كذلك حتى يصل الى منزله ومن عوائدهم انه اذا تزوج الرجل منهم ومضى الى دار زوجته بسطت له ثياب القطن من باب دارها الى باب البيت وجعل عليها غرفات من الودع عن يمين طريقه الى البيت وشماله وتكون المرأة واقفة عند باب البيت تنتظره فاذا وصل اليها رمت على رجليه ثوبا يأخذه خدامه وان كانت المرأة هي التي تاتي الى منزل الرجل بسطت داره وجعل فيها الودع ورمت المرأة عند الوصول اليه الثوب على رجليه وكذلك عادتهم في السلام على السلطان عندهم لا بدّ من ثوب يرمى عند ذلك وسنذكره وبنيانهم بالخشب ويجعلون سطوح البيوت مرتفعة عن الارض توقيا من الرطوبات لان ارضهم ندية وكيفية ذلك ان ينحتوا حجارة يكون طول الحجر منها ذراعين او ثلاثة ويجعلونها صفوفا ويعرضون عليها خشب النارجيل ثم يضعون الحيطان من الخشب ولهم صناعة عجيبة في ذلك ويبنون في اسطوان الدار بيتا يسمونه المالم (بفتح اللام) يجلس الرجل به مع أصحابه ويكون له بابان احدهما الى جهة الاسطوان يدخل منه الناس والآخر الى جهة الدار يدخل منه صاحبها ويكون عند هذا البيت خابية مملوءة ماء ولها مستقى يسمونه الولنج (بفتح الواو واللام وسكون النون وجيم) هو من قشر جوز النارجيل وله نصاب طوله ذراعان وبه يسقون الماء من الآبار لقربها وجميعهم حفاة الاقدام من رفيع ووضيع وازقتهم مكنوسة نقية تظللها الاشجار فالماشي بها كانه في بستان ومع ذلك لا بدّ لكل داخل الى الدار ان يغسل رجليه بالماء الذي في الخابية بالمالم ويمسحها بحصير غليظ من الليف يكون هنالك ثم يدخل بيته وكذلك يفعل كل داخل الى المسجد ومن عوائدهم اذا قدم عليهم مركب ان تخرج اليه الكنادر وهي القوارب الصغار واحدها كندرة (بضم الكاف والدال) وفيها اهل الجزيرة معهم التنبول والكرنبة وهي جوز النارجيل الاخضر فيعطي الانسان منهم ذلك لمن شاء من اهل المركب ويكون نزيله ويحمل امتعته الى داره كانه بعض اقربائه ومن اراد التزوج من القادمين عليهم تزوج فاذا حان سفره طلق المرأة لانهن لا يخرجن عن بلادهن ومن لم يتزوج فالمرأة التي ينزل

بدارها تطبخ له وتخدمه وتزوده اذا سافر وترضى منه فى مقابلة ذلك باليسير شئ من الاحسان وفائدة المخزن ويسمونه البندران يشترى من كل سلعة بالمركب حظا بسوم معلوم سواء كانت السلعة تساوى ذلك او اكثر منه ويسمونه شرع البندر ويكون للبندر بيت فى كل جزيرة من الخشب يسمونه البجنصار (بفتح الباء الموحدة والجيم وسكون النون وفتح الصاد المهمل وآخره راء) يجمع به الوالى وهو الكردورى جميع سلعة ويبيع بها ويشترى وهم يشترون الفخار اذا جلب اليهم بالدجاج فتباع عندهم القدر بخمس دجاجات وست وتحمل المراكب من هذه الجزائر السمك الذى ذكرناه وجوز النارجيل والفوط والوليان والعمائم وهى من القطن ويحملون منها اوانى النحاس فانها عندهم كثيرة ويحملون الودع ويحملون القنبر (بفتح القاف وسكون النون وفتح الباء الموحدة والراء) وهو ليف جوز النارجيل وهم يدبغونه فى حفر على الساحل ثم يضربونه بالمرازب ثم يغزله النساء وتصنع منه الحبال لخياطة المراكب وتحمل الى الصين والهند واليمن وهو خير من القنب وبهذه الحبال تخاط مراكب الهند واليمن لان ذلك البحر كثير الحجارة فان كان المركب مسمرا بمسامير الحديد صدم الحجارة فانكسر واذا كان مخيطا بالحبال أعطى الرطوبة فلم ينكسر وصرف اهل هذه الجزائر الودع وهو حيوان يلتقطونه فى البحر ويضعونه فى حفر هنالك فيذهب لحمه ويبقى عظمه أبيض ويسمون المائة منه سياه (بسين مهمل وياء آخر الحروف) ويسمون السبعمائة منه الفال (بالفاء) ويسمون الاثنى عشر الفا منه الكتى (بضم الكاف وتشديد التاء المعلوة) ويسمون المائة ألف منه بستو (بضم الباء الموحدة والتاء المعلوة وبينهما سين مهمل) ويباع بها بقيمة اربعة بساتى بدينار من الذهب وربما رخص حتى يباع عشر بساتى منه بدينار ويبيعونه من أهل بنجالة بالارز وهو أيضا صرف اهل بلاد بنجاله ويبيعونه من أهل اليمن فيجعلونه عوض الرمل فى مراكبهم وهذا الودع ايضا هو صرف السودان فى بلادهم رأيته يباع بمالى وجوجو بحساب ألف ومائة وخمسين للدينار الذهبى

(ذكر نسائها)

ونساؤها لا يغطين رؤسهن ولا سلطانتهم تغطى رأسها ويمشطن شعورهن ويجمعنها الى جهة واحدة ولا يلبس اكثرهن الا فوطة واحدة تسترها من السرة الى اسفل وسائر اجسادهن مكشوفة وكذلك يمشين فى الاسواق وغيرها ولقد جهدت لما وليت القضاء بها ان اقطع تلك العادة وآمرهن باللباس فلم استطع ذلك فكنت لا تدخل الى منهن امرأة فى خصومة الا مستترة الجسد وما عدا ذلك لم تكن لى عليه قدرة ولباس بعضهن قمص زائدة على الفوطة وقمصهن قصار الاكمام عراضها وكان لى جوار كسوتهن لباس اهل دهلى يغطين رؤسهن فعابهن ذلك أكثر مما زانهن اذ لم يتعودنه وحليهن الاساور تجعل المرأة منها جملة فى ذراعيها بحيث تملا

مابين

مابين الكوع والمرفق وهي من الفضة ولا يجعل اساور الذهب الا نساء السلطان وأقاربه ولهن الخلاخيل ويسمونها البايل (بباء موحدة والف وياء آخر الحروف مكسورة) وقلائد ذهب يجعلنها على صدورهن ويسمونها البسدرد (بالباء الموحدة وسكون السين المهمل وفتح الدال المهمل والراء) ومن عجيب افعالهن انهن يؤجرن انفسهن للخدمة بالديار على عدد معلوم من خمسة دنانير فادونها على مستأجرهن نفقتهن ولا يرين ذلك عيبا ويفعله أكثر بناتهم فتجد في دار الانسان الغني منهن العشرة والعشرين وكل ماتكسره من الاواني يحسب عليها قيمته واذا أرادت الخروج من دار الى دار أعطاها أهل الدار التي تخرج اليها العدد الذي هي مرتهنة فيه فتدفعه لاهل الدار التي خرجت منها ويبقى عليها للاخرين وأكثر شغل هؤلاء المستأجرات غزل القنبر والتزوج بهذه الجزائر سهل لنزارة الصداق وحسن معاشرة النساء وأكثر الناس لا يسمى صداقا انما تقع الشهادة ويعطى صداق مثلها واذا قدمت المراكب تزوج اهلها النساء فاذا أرادوا السفر طلقوهن وذلك نوع من نكاح المتعة وهن لا يخرجن عن بلادهن أبدا ولم أر في الدنيا احسن معاشرة منهن ولا تكل المرأة عندهم خدمة زوجها الى سواها بل هي تأتيه بالطعام وترفعه من بين يديه وتغسل يده وتأتيه بالماء للوضوء وتغم رجليه عند النوم ومن عوائدهن أن لا تأكل المرأة مع زوجها ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة ولقد تزوجت بها نسوة فأكل معي بعضهن بعد محاولة وبعضهن لم تأكل معي ولا استطعت ان اراها تأكل ولا نفعتني حيلة في ذلك

﴿ذكر السبب في اسلام أهل هذه الجزائر﴾

(وذكر العفاريت من الجن التي تضر بها في كل شهر)

حدثني الثقاة من أهلها كالفقيه عيسى اليمني والفقيه المعلم علي والقاضي عبد الله وجماعة سواهم ان هذه الجزائر كانوا كفارا وكان يظهر لهم في كل شهر عفريت من الجن يأتي من ناحية البحر كأنه مركب مملوء بالقناديل وكانت عادتهم اذا رأوه اخذوا جارية بكرا فزينوها وادخلوها الى بدخانة وهي بيت الاصنام وكان مبنيا على ضفة البحر وله طاق ينظر اليه منه ويتركونها هنالك ليلة ثم يأتون عند الصباح فيجدونها مفتضة ميتة ولا يزالون في كل شهر يقترعون بينهم فمن أصابته القرعة أعطى بنته ثم انه قدم عليهم مغربي يسمى بابي البركات البربري وكان حافظا للقرآن العظيم فنزل بدار عجوز منهم بجزيرة المهل فدخل عليها يوما وقد جمعت أهلها وهن يبكين كأنهن في مأتم فاستفهمهن عن شأنهن فلم يفهمنه فأتى ترجمان فاخبره ان العجوز كانت القرعة عليها وليس لها الا بنت واحدة يقتلها العفريت فقال لها ابو البركات انا أتوجه عوضا من بنتك بالليل وكان سناطا لا لحية له فاحتملوه تلك الليلة وادخلوه

الى بدخانة وهو متوضئ واقام يتلو القرآن ثم ظهر له العفريت من الطاق فداوم التلاوة فلما كان منه بحيث يسمع القراءة غاص فى البحر وأصبح المغربى وهو يتلو على حاله فجاءت العجوز وأهلها وأهل الجزيرة ليستخرجوا البنت على عادتهم فيحرقوها فوجدوا المغربى يتلو فمضوا به الى ملكهم وكان يسمى شنورازة (بفتح الشين المعجم وضم النون وواو وراء والف وزاى وهاء) واعلموه بخبره فعجب منه وعرض المغربى عليه الاسلام ورغبه فيه فقال له اقم عندنا الى الشهر الآخر فان فعلت كفعلك ونجوت من العفريت اسلمت فأقام عندهم وشرح الله صدر الملك للاسلام فأسلم قبل تمام الشهر واسلم أهله وأولاده وأهل دولته ثم حمل المغربى لما دخل الشهر الى بدخانة ولم يأت العفريت فجعل يتلو حتى الصباح وجاء السلطان والناس معه فوجدوه على حاله من التلاوة فكسروا الاصنام وهدموا بدخانة وأسلم أهل الجزيرة وبعثوا الى سائر الجزائر فأسلم اهلها واقام المغربى عندهم معظما وتمذهبوا بمذهبه مذهب الامام مالك رضى الله عنه وهم الى هذا العهد يعظمون المغاربة بسببه وبنى مسجدا هو معروف باسمه وقرأت على مقصورة الجامع منقوشا فى الخشب اسلم السلطان أحمد شنورازة على يد أبى البركات البربرى المغربى وجعل ذلك السلطان ثلث مجابى الجزائر صدقة على أبناء السبيل اذ كان اسلامه بسببهم فسمى على ذلك حتى الآن وبسبب هذا العفريت خرب من هذه الجزائر كثير قبل الاسلام ولما دخلناها لم يكن لى علم بشأنه فبينا أنا ليلة فى بعض شأنى اذ سمعت الناس يجهرون بالتهليل والتكبير ورأيت الاولاد وعلى رؤسهم المصاحف والنساء يضربون (يضربن) فى الطسوت واوانى النحاس فعجبت من فعلهم وقلت ما شأنكم فقالوا ألا تنظر الى البحر فنظرت فاذا مثل المركب الكبير وكأنه مملوء سرجا ومشاعل فقالوا ذلك العفريت وعادته ان يظهر مرة فى الشهر فاذا فعلنا ما رأيت انصرف عنا ولم يضرنا

(ذكر سلطانة هذه الجزائر)

ومن عجائبها ان سلطانتها امرأة وهى خديجة بنت السلطان جلال الدين عمر بن السلطان صلاح الدين صالح البنجالى وكان الملك لجدها ثم لابيها فلما مات أبوها ولى أخوها شهاب الدين وهو صغير السن فتزوج الوزير عبد الله بن محمد الحضرمى امه وغلب عليه وهو الذى تزوج أيضا هذه السلطانة خديجة بعد وفاة زوجها الوزير جمال الدين كما سنذكره فلما بلغ شهاب الدين مبلغ الرجال اخرج ربيبه الوزير عبد الله ونفاه الى جزائر السويد واستقل بالملك واستوزر أحد مواليه ويسمى على كلكى ثم عزله بعد ثلاثة أعوام ونفاه الى السويد وكان يذكر عن السلطان شهاب الدين المذكور انه يختلف الى حرم أهل دولته وخواصه بالليل فخلعوه لذلك ونفوه الى اقليم هلدتنى وبعثوا من قتله بها ولم يكن بقى من بيت الملك الا اخواته

خديجة الكبرى ومريم وفاطمة فقدموا خديجة سلطانة وكانت متزوجة لخطيبهم جمال الدين فصار وزيرا وغالبا على الامر وقدّم ولده محمد للخطابة عوضا منه ولكن الاوامر انما تنفذ باسم خديجة وهم يكتبون الاوامر فى سعف النخل بحديدة معوجة شبه السكين ولا يكتبون فى الكاغد الا المصاحف وكتب العلم ويذكرها الخطيب يوم الجمعة وغيرها فيقول اللهم انصر امتك التى اخترتها على علم على العالمين وجعلتها رحمة لكافة المسلمين الا وهى السلطانة خديجة بنت السلطان جلال الدين بن السلطان صلاح الدين ومن عادتهم اذا قدم الغريب عليهم ومضى الى المشور وهم يسمونه الدار فلا بد له ان يستصحب ثوبين فيخدم لجهة هذه السلطانة ويرمى باحدهما ثم يخدم لوزيرها وهو زوجها جمال الدين ويرمى بالثانى وعسكرها نحو ألف انسان من الغرباء وبعضهم بلديون ويأتون كل يوم الى الدار فيخدمون وينصرفون ومرتبهم الارز يعطاهم من البندر فى كل شهر فاذا تم الشهر أتوا الدار وخدموا وقالوا للوزير بلغ عنا الخدمة واعلم بأنا أتينا نطلب مرتبنا فيؤمر لهم بها عند ذلك ويأتى أيضا الى الدار كل يوم القاضى وأرباب الخطط وهم الوزراء عندهم فيخدمون ويبلغ خدمتهم الفتيان وينصرفون

❊(ذكر أرباب الخطط وسيرهم)❊

وهم يسمون الوزير الاكبر النائب عن السلطانة كلكى (بفتح الكاف الاولى واللام) ويسمون القاضى فنديارقالوا (وضبط ذلك بفاء مفتوح ونون مسكن ودال مهمل مفتوح وياء آخر الحروف والف وراء وقاف والف ولام مضموم) واحكامهم كلها راجعة الى القاضى وهو أعظم عندهم من الناس اجمعين وأمره ممتثل كامر السلطان واشد ويجلس على بساط فى الدار وله ثلاث جزائر يأخذ مجباها لنفسه عادة قديمة اجراها السلطان أحمد شنورازة ويسمون الخطيب هنديجرى (وضبط ذلك بفتح الهاء وسكون النون وكسر الدال وياء مدّ وجيم مفتوح وراء وياء) ويسمون صاحب الديوان الفامدارى (بفتح الفاء والميم والدال المهمل) ويسمون صاحب الاشغال مافاكلوا (بفتح الميم والكاف وضم اللام) ويسمون الحاكم فتنايك (بكسر الفاء وسكون التاء المعلوة وفتح النون والف وياء آخر الحروف مفتوحة أيضا وكاف) ويسمون قائد البحر مانايك (بفتح الميم والنون والياء) وكل هؤلاء يسمى وزيرا ولا سجن عندهم بتلك الجزائر انما يحبس ارباب الجرائم فى بيوت خشب هى معدة لامتعة التجار ويجعل أحدهم فى خشبة كما يفعل عندنا باسارى الروم

❊(ذكر وصولى الى هذه الجزائر وتنقل حالى بها)❊

ولما وصلت اليها نزلت منها بجزيرة كنلوس وهى جزيرة حسنة فيها المساجد الكثيرة ونزلت بدار

رجل من صلحائها وأضافني بها الفقيه علي وكان فاضلا له أولاد من طلبة العلم ولقيت بها رجلا اسمه محمد من أهل ظفار الحوض فأضافني وقال لي ان دخلت جزيرة المهل امسكك الوزير بها فانهم لا قاضي عندهم وكان غرضي ان اسافر منها الى المعبر وسرنديب وبنجالة ثم الى الصين وكان قدومي عليها في مركب الناخوذة عمر الهنوري وهو من الحجاج الفضلاء ولما وصلنا كنلوس اقام بها عشرا ثم اكترى كندرة يسافر فيها الى المهل بهدية للسلطانة وزوجها فاردت السفر معه فقال لا تسعك الكندرة أنت وأصحابك فان شئت السفر منفردا عنهم فدونك فابيت ذلك وسافر فلعبت به الريح وعاد الينا بعد أربعة أيام وقد لقي شدائد فاعتذر لي وعزم علي في السفر معه باصحابي فكنا نرحل غدوة فننزل في وسط النهار ببعض الجزائر ونرحل فنبيت باخرى ووصلنا بعد أربعة أيام الى اقليم التيم وكان الكردوي يسمى بها هلالا فسلم علي وأضافني وجاء الي ومعه أربعة رجال وقد جعل اثنان عليهم عودا على أكتافهما وعلقا منه أربع دجاجات وجعل الآخران عودا مثله وعلقا منه نحو عشر من جوز النارجيل فعجبت من تعظيمهم لهذا الشيء الحقير فاخبرت انهم صنعوه على جهة الكرامة والاجلال ورحلنا عنهم فنزلنا في اليوم السادس بجزيرة عثمان وهو رجل فاضل من خيار الناس فاكرمنا واضافنا وفي اليوم الثامن نزلنا بجزيرة لوزير يقال له التلمذي وفي اليوم العاشر وصلنا الى جزيرة المهل حيث السلطانة وزوجها وارسينا بمرساها وعادتهم ان لا ينزل أحد عن المرسى الا باذنهم فأذنوا لنا بالنزول وأردت التوجه الى بعض المساجد فمنعني الخدام الذين بالساحل وقالوا لا بد من الدخول الى الوزير وكنت أوصيت الناخوذة ان يقول اذا سئل عني لا اعرفه خوفا من امساكهم اياي ولم اعلم ان بعض أهل الفضول قد كتب اليهم معرفا بخبري واني كنت قاضيا بدهلي فلما وصلنا الى الدار وهو المشور نزلنا في سقائف على الباب الثالث منه وجاء القاضي عيسى اليمني فسلم علي وسلمت على الوزير وجاء الناخوذة ابراهيم بعشرة أثواب فخدم لجهة السلطانة ورمى بثوب منها ثم خدم للوزير ورمى بثوب آخر كذلك ورمى بجميعها وسئل عني فقال لا أعرفه ثم اخرجوا الينا التنبول وماء الورد وذلك هو الكرامة عندهم وأنزلنا بدار وبعث الينا الطعام وهو قصعة كبيرة فيها الارز وتدور بها صحاف فيها اللحم الخليع والدجاج والسمن والسمك ولما كان بالغد مضيت مع الناخوذة والقاضي عيسى اليمني لزيارة زاوية في طرف الجزيرة عمرها الشيخ الصالح نجيب وعدنا ليلا وبعث الوزير الي صبيحة تلك الليلة كسوة وضيافة فيها الارز والسمن والخليع وجوز النارجيل والعسل المصنوع منها وهم يسمونه القرباني (بضم القاف وسكون الراء وفتح الباء الموحدة والف ونون وياء) ومعنى ذلك ماء السكر واتوا بمائة الف ودعة للنفقة وبعد عشرة أيام قدم مركب من سيلان فيه فقراء من

العرب

العرب والعجم يعرفوني فعرفوا خدّام الوزير بامري فزاد اغتباطابي وبعث عني عند استهلال رمضان فوجدت الامراء والوزراء واحضر الطعام في موائد يجتمع على المائدة طائفة فاجلسني الوزير الى جانبه ومعه القاضي عيسى والوزير الفاملداري والوزير عمر دهري ومعناه مقدم العسكر وطعامهم الارز والدجاج والسمن والسمك والخليع والموز المطبوخ ويشربون بعده عسل النارجيل مخلوطا بالافاوية وهو يهضم الطعام وفي التاسع من شهر رمضان مات صهر الوزير زوج بنته وكانت قبله عند السلطان شهاب الدين ولم يدخل بها أحد منهما لصغرها فردّها أبوها الداره واعطاني دارها وهي من أجمل الدور واستأذنته في ضيافة الفقراء القادمين من زيارة القدم فأذن لي في ذلك وبعث الى خمسا من الغنم وهي عزيزة عندهم لانها مجلوبة من المعبر والمليبار ومقدشو وبعث الارز والدجاج والسمن والابازير فبعثت ذلك كله الى دار الوزير سليمان مانايك فطبخ لي بها فاحسن في طبخه وزاد فيه وبعث الفرش واواني النحاس وافطرنا على العادة بدار السلطانة مع الوزير واستأذنته في حضور بعض الوزراء بتلك الضيافة فقال لي وأنا أحضر أيضا فشكرته وانصرفت الى داري فاذا به قد جاء ومعه الوزراء وأرباب الدولة فجلس في قبة خشب مرتفعة وكان كل من يأتي من الامراء والوزراء يسلم على الوزير ويرمي بثوب غير مخيط حتى اجتمع مائة ثوب اونحوها فاخذها الفقراء وقدم الطعام فاكلوا ثم قرأ القراء بالاصوات الحسان ثم أخذوا في السماع والرقص وأعددت النار فكان الفقراء يدخلونها ويطؤنها بالاقدام ومنهم من يأكلها كما تؤكل الحلواء الى ان خمدت

﴿ذكر بعض احسان الوزير الي﴾

ولما تمت الليلة انصرف الوزير ومضيت معه فمررنا ببستان للمخزن فقال لي الوزير هذا البستان لك وساعمر لك فيه دار السكنى فشكرت فعله ودعوت له ثم بعث لي من الغد بجارية وقال لي خديمه يقول لك الوزير ان اعجبتك هذه هي لك والا بعثت لك جارية مرهتية وكانت الجواري المرهتيات تعجبني فقلت له انما أريد المرهتية فبعثها الي وكان اسمها قل استان ومعناه زهر البستان وكانت تعرف اللسان الفارسي فاعجبتني وأهل تلك الجزائر لهم لسان لم اكن أعرفه ثم بعث الي في غد ذلك بجارية معبرية تسمى عنبري ولما كانت الليلة بعدها جاء الوزير الي بعد العشاء الاخيرة في نفر من أصحابه فدخل الدار ومعه غلامان صغيران فسلمت عليه وسألني عن حالي فدعوت له وشكرته فالقى أحد الغلامين بين يديه لقشة (بقشة) وهي شبه السبنية وأخرج منها ثياب حرير وحقا فيه جوهر وحلي فاعطاني ذلك وقال لي لو بعثته لك مع الجارية لقالت هو مالي جئت به من دار مولاي والآن هو مالك فأعطها اياه فدعوت له وشكرته وكان اهلا للشكر رحمه الله

﴿ذكر تغيره وما أردته من الخروج ومقامي بعد ذلك﴾

وكان الوزير سليمان مانايك قد بعث الى ان اتزوج بنته فبعثت الى الوزير جمال الدين مستأذنا في ذلك فعاد الى الرسول وقال لم يعجبه ذلك وهو يحب ان يزوجك بنته اذا انقضت عدتها فابيت انا ذلك وخفت من شؤمها لانه مات تحتها زوجان قبل الدخول واصابتني اثناء ذلك حمى مرضت بها ولا بد لكل من يدخل تلك الجزيرة ان يحم فقوى عزمي على الرحلة عنها فبعت بعض الحلي بالودع واكتريت مركبا أسافر فيه لبنجالة فلما ذهبت لوداع الوزير خرج الى القاضي فقال الوزير يقول لك ان شئت السفر فاعطنا ما اعطيناك وسافر فقلت له ان بعض الحلي اشتريت به الودع فشأنكم واياه فعاد الى فقال يقول انما اعطيناك الذهب ولم نعطك الودع فقلت له انا ابيعه وآتيكم بالذهب فبعثت الى التجار ليشتروه مني فامرهم الوزير ان لا يفعلوا وقصده بذلك كله ان لا أسافر عنه ثم بعث الى أحد خواصه وقال الوزير يقول لك أقم عندنا ولك كل ما أحببت فقلت في نفسي انا تحت حكمهم وان لم أقم مختارا اقمت مضطرا فالاقامة باختياري اولى وقلت لرسوله نعم انا اقيم معه فعاد اليه ففرح بذلك واستدعاني فلما دخلت اليه قام الى وعانقني وقال نحن نريد قربك وأنت تريد البعد عنا فاعتذرت له فقبل عذري وقلت له ان اردتم مقامي فأنا اشترط عليكم شروطا فقال نقبلها فاشترط فقلت له انا لا استطيع المشي على قدمي ومن عادتهم ان لا يركب أحد هنالك الا الوزير ولقد كنت لما أعطوني الفرس فركبته يتبعني الناس رجالا وصبيانا يعجبون مني حتى شكوت له فضربت الدنقرة وبرح في الناس ان لا يتبعني أحد والدنقرة (بضم الدال المهمل وسكون النون وضم القاف وفتح الراء) شبه الطست من النحاس تضرب بحديدة فيسمع لها صوت على البعد فاذا ضربوها حينئذ يبرح في الناس بما يراد فقال لي الوزير ان أردت أن تركب الدولة والا فعندنا حصان ورمكة فاختر أيهما شئت فاخترت الرمكة فاتوني بها في تلك الساعة وأتوني بكسوة فقلت له وكيف اصنع بالودع الذي اشتريته فقال ابعث أحد اصحابك ليبيعه لك ببنجالة فقلت له على ان تبعث انت من يعينه على ذلك فقال نعم فبعثت حينئذ رفيقي ابا محمد بن فرحان وبعثوا معه رجلا يسمى الحاج عليا فاتفق ان هال البحر فرموا بكل ما عندهم حتى الزاد والماء والصاري والقرية وأقاموا ست عشرة ليلة لا قلع لهم ولا سكان ولا غيره ثم خرجوا الى جزيرة سيلان بعد جوع وعطش وشدائد وقدم على صاحبي ابو محمد بعد سنة وقد زار القدم وزارها مرة ثانية معي

﴿ذكر العيد الذي شاهدته معهم﴾

ولما تم شهر رمضان بعث الوزير الى بكسوة وخرجنا الى المصلى وقد زينت الطريق التي يمر الوزير عليها من داره الى المصلى وفرشت الثياب فيها وجعلت كتائب الودع يمنة ويسرة وكل من

له

له على طريقه دار من الامراء والكبار قد غرس عندها النخل الصغار من النارجيل واشجار الفوفل والموز ومد من شجر الى أخرى شرائط وعلق منها الجوز الاخضر ويقف صاحب الدار عند بابها فاذا مر الوزير رمى على رجليه ثوبا من الحرير أو القطن فيأخذها عبيده مع الودع الذي يجعل على طريقه ايضا والوزير ماش على قدميه وعليه فرجية مصرية من المرعز وعمامة كبيرة وهو متقلد فوطة حرير وفوق رأسه أربعة شطور وفي رجليه النعل وجميع الناس سواه حفاة والابواق والانفار والاطبال بين يديه والعساكر امامه وخلفه وجميعهم يكبرون حتى اتوا المصلى فخطب ولده وبعد الصلاة ثم أتى بمحفة فركب فيها الوزير وخدم له الامراء والوزراء ورموا بالثياب على العادة ولم يكن ركب في المحفة قبل ذلك لان ذلك لا يفعله الا الملوك ثم رفعه الرجال وركبت فرسي ودخلنا القصر فجلس بموضع مرتفع وعنده الوزراء والامراء ووقف العبيد بالترسة والسيوف والعصى ثم أتى بالطعام ثم الفوفل والتنبول ثم أتى بصحفة صغيرة فيها الصندل المقاصري فاذا أكلت جماعة من الناس تلطخوا بالصندل ورأيت على بعض طعامهم يومئذ حوتا من السردين مملوحا غير مطبوخ أهدى لهم من كولم وهو ببلاد المليبار كثير فاخذ الوزير بسردينة وجعل يأكلها وقال لي كل منه فانه ليس ببلادنا فقلت كيف اكله وهو غير مطبوخ فقال انه مطبوخ فقلت أنا أعرف به فانه ببلادي كثير

﴿ذكر تزوجي وولايتي القضاء﴾

وفي الثاني من شوال اتفقت مع الوزير سليمان مانايك على تزوج بنته فبعثت الى الوزير جمال الدين ان يكون عقد النكاح بين يديه بالقصر فاجاب الى ذلك واحضر التنبول على العادة والصندل وحضر الناس وابطأ الوزير سليمان فاستدعى فلم يأت ثم استدعى ثانية فاعتذر بمرض البنت فقال لي الوزير سرا ان بنته امتنعت وهي مالكة أمر نفسها والناس قد اجتمعوا فهل لك ان تتزوج بربيبة السلطانة زوجة ابيها وهي التي ولده متزوج بنتها فقلت له نعم فاستدعى القاضي والشهود ووقعت الشهادة ودفع الوزير الصداق ورفعت الي بعد أيام فكانت من خيار النساء وبلغ حسن معاشرتها انها كانت اذا تزوجت عليها تطيبني وتبخر اثوابي وهي ضاحكة لا يظهر عليها تغير ولما تزوجتها اكرهني الوزير على القضاء وسبب ذلك اعتراضي على القاضي لكونه كان يأخذ العشر من التركات اذا قسمها على أربابها فقلت له انما لك اجرة تتفق بها مع الورثة ولم يكن يحسن شيأ فلما وليت اجتهدت جهدي في اقامة رسوم الشرع وليست هنالك خصومات كما هي ببلادنا فاول ما غيرت من عوائد السوء مكث المطلقات في ديار المطلقين وكانت احداهن لا تزال في دار المطلق حتى تتزوج غيره فحسمت علة ذلك وأتى الي بنحو خمسة وعشرين رجلا ممن فعل ذلك فضربتهم وشهرتهم بالاسواق وأخرجت النساء عنهم

ثم اشتددت فى اقامة الصلوات وأمرت الرجال بالمبادرة الى الازقة والاسواق اثر صلاة الجمعة فمن وجدوه لم يصل ضربته وشهرته والزمت الائمة والمؤذنين اصحاب المرتبات المواظبة على ما هم بسبيله وكتبت الى جميع الجزائر بنحو ذلك وجهدت ان أكسو النساء فلم أقدر على ذلك

﴿ذكر قدوم الوزير عبد الله بن محمد الحضرمى الذى نفاه السلطان شهاب الدين الى السويد وما وقع بينى وبينه﴾

وكنت قد تزوجت ربيبته بنت زوجته واحببتها حبا شديدا ولما بعث الوزير عنه ورده الى جزيرة المهل بعثت له التحف وتلقيته ومضيت معه الى القصر فسلم على الوزير وأنزله فى دار جيدة فكنت أزوره بها واتفق ان اعتكفت فى رمضان فزارنى جميع الناس الا هو وزارنى الوزير جمال الدين فدخل هو معه بحكم الموافقة فوقعت بيننا الوحشة فلما خرجت من الاعتكاف شكا الى اخوال زوجتى ربيبته اولاد الوزير جمال الدين السنجرى فان أباهم اوصى عليهم الوزير عبد الله وان مالهم باق بيده وقد خرجوا عن حجره بحكم الشرع وطلبوا احضاره بمجلس الحكم وكانت عادتى اذا بعثت عن خصم من الخصوم ابعث له قطعة كاغد مكتوبة فعندما يقف عليها يبادر الى مجلس الحكم الشرعى والا عاقبته فبعثت اليه على العادة فاغضبه ذلك وحقدها الى واضمر عداوتى ووكل من يتكلم عنه وبلغنى عنه كلام قبيح وكانت عادة الناس من صغير وكبير ان يخدموا له كما يخدمون للوزير جمال الدين وخدمتهم ان يوصلوا السبابة الى الارض ثم يقبلونها ويضعونها على رؤسهم فامرت المنادى فنادى بدار السلطان على رؤس الاشهاد انه من خدم للوزير عبد الله كما يخدم للوزير الكبير لزمه العقاب الشديد واخذت عليه ان لا يترك الناس لذلك فزادت عداوته وتزوجت أيضا زوجة اخرى بنت وزير معظم عندهم كان جده السلطان داود حفيد السلطان أحمد شنورازة ثم تزوجت زوجة كانت تحت السلطان شهاب الدين وعمرت ثلاث ديار بالبستان الذى أعطانيه الوزير وكانت الرابعة وهى ربيبة الوزير عبد الله تسكن فى دارها وهى احبهن الى فلما صاهرت من ذكرته هابنى الوزير وأهل الجزيرة وتخوفوا منى لاجل ضعفهم وسعوا بينى وبين الوزير بالنمائم وتولى الوزير عبد الله كبر ذلك حتى تمكنت الوحشه

﴿ذكر انفصالى عنهم وسبب ذلك﴾

واتفق فى بعض الايام ان عبدا من عبيد السلطان جلال الدين شكته زوجته الى الوزير واعلمته انه عند سرية من سرارى السلطان يزنى بها فبعث الوزير الشهود ودخلوا دار السرية فوجدوا الغلام نائما معها فى فراش واحد وحبسوهما فلما أصبحت وعلمت بالخبر توجهت

الى المشور وجلست فى موضع جلوسى ولم أتكلم فى شئ من امرها فخرج الىّ بعض الخواص فقال يقول لك الوزير ألك حاجة فقلت لا وكان قصده ان أتكلم فى شأن السرية والغلام اذ كانت عادتى ان لا اقطع قضية الا حكمت فيها فلما وقع التغير والوحشة قصرت فى ذلك فانصرفت الى دارى بعد ذلك وجلست بموضع الاحكام فاذا ببعض الوزراء فقال لى الوزير يقول لك انه وقع البارحة كيت وكيت لقضية السرية والغلام فاحكم فيهما بالشرع فقلت له هذه قضية لا ينبغى ان يكون الحكم فيها الا بدار السلطان فعدت اليها واجتمع الناس واحضرت السرية والغلام فامرت بضربهما للخلوة واطلقت سراح المرأة وحبست الغلام وانصرفت الى دارى فبعث الوزير الىّ جماعة من كبراء ناسه فى شأن تسريح الغلام فقلت لهم أتشفعون فى غلام زنجى يهتك حرمة مولاه وانتم بالامس خلعتم السلطان شهاب الدين وقتلتموه بسبب دخوله لدار غلام له وأمرت بالغلام عند ذلك فضرب بقضبان الخيزران وهى أشد وقعا من السياط وشهرته بالجزيرة وفى عنقه حبل فذهبوا الى الوزير فاعلموه فقام وقعد واستشاط غضبا وجمع الوزراء ووجوه العسكر وبعث عنى فجئته وكانت عادتى ان أخدم له فلم أخدم وقلت سلام عليكم ثم قلت للحاضرين اشهدوا على انى قد عزلت نفسى عن القضاء لعجزى عنه فكلمنى الوزير فصعدت وجلست بموضع اقابله فيه وجاوبته أغلظ جواب واذن مؤذن المغرب فدخل الى داره وهو يقول ويقولون انى سلطان وها انا ذا طلبته لاغضب عليه فغضب علىّ وانما كان اعتزازى عليهم بسبب سلطان الهند لانهم تحققوا امكانتى عنده وان كانوا على بعد منه فخوفه فى قلوبهم متمكن فلما دخل الى داره بعث الى القاضى المعزول وكان جرئ اللسان فقال لى ان مولانا يقول لك كيف هتكت حرمته على رؤس الاشهاد ولم تخدم له فقلت له انما كنت اخدم له حين كان قلبى طيبا عليه فلما وقع التغير تركت ذلك وتحية المسلمين انما هى السلام وقد سلمت فبعثه الىّ ثانية فقال انما غرضك السفر عنا فاعط صدقات النساء وديون الناس وانصرف اذا شئت فخدمت له على هذا القول وذهبت الى دارى فخلصت مما علىّ من الدين وكان قد اعطانى فى تلك الايام فرش دار وجهازها من أوانى نحاس وسواها وكان يعطينى كل ما أطلبه ويحبنى ويكرمنى ولكنه غير خاطره وخوف منى فلما عرف انى قد خلصت الدين وعزمت على السفر ندم على ما قاله وتلكأ فى الاذن لى فى السفر فحلفت بالايمان المغلظة ان لا بدّ من سفرى ونقلت ما عندى الى مسجد على البحر وطلقت احدى الزوجات وكانت احداهن حاملا فجعلت لها اجلا تسعة أشهر ان عدت فيها والا فامرها بيدها وحملت معى زوجتى التى كانت امرأة السلطان شهاب الدين لاسلمها لابيها بجزيرة ملوك وزوجتى الاولى التى بنتها اخت السلطانة وتوافقت مع الوزير عمر دهرد والوزير حسن قائد البحر على

ان أمضى الى بلاد المعبر وكان ملكها سلفى فاتى منها بالعساكر لترجع الجزائر الى حكمه وانوب اناعنه فيها وجعلت بينى وبينهم علامة رفع أعلام بيض فى المراكب فاذا رأوها ثاروا فى البر ولم أكن حدثت نفسى بهذا قط حتى وقع ما وقع من التغير وكان الوزير خائفا منى يقول للناس لابد لهذا ان يأخذ الوزارة امافى حياتى أو بعد موتى ويكثر السؤال عن حالى ويقول سمعت ان ملك الهند بعث اليه الاموال ليثور بها على وكان يخاف من سفرى لئلا آتى بالجيوش من بلاد المعبر فبعث الى ان أقيم حتى يجهز لى مركبا فابيت وشكت اخت السلطانة اليها بسفر امها معى فارادت منعها فلم تقدر على ذلك فلما رأت عزمها على السفر قالت لها ان جميع ما عندك من الحلى هو من مال البندر فان كان لك شهود بان جلال الدين وهبه لك والا فرده وكان حليا له خطر فردته اليهم واتانى الوزراء والوجوه وأنا بالمسجد وطلبوا منى الرجوع فقلت لهم لولا انى حلفت لعدت فقالوا تذهب الى بعض الجزائر ليبر قسمك وتعود فقلت لهم نعم ارضاء لهم فلما كانت الليلة التى سافرت فيها اتيت لوداع الوزير فعانقنى وبكى حتى قطرت دموعه على قدمى وبات تلك الليلة يحترس الجزيرة بنفسه خوفا ان يثور عليه اصهارى واصحابى ثم سافرت ووصلت الى جزيرة الوزير على فأصابت زوجتى اوجاع عظيمة واحبت الرجوع فطلقتها وتركتها هنالك وكتبت للوزير بذلك لانها أم زوجة ولده وطلقت التى كنت ضربت لها الاجل وبعثت عن جارية كنت أحبها وسرنا فى تلك الجزائر من اقليم الى اقليم

﴿ذكر النساء ذوات الثدى الواحد﴾

وفى بعض تلك الجزائر رأيت امرأة لها ثدى واحد فى صدرها ولها ابنتان احداهما كذلها ذات ثدى واحد والاخرى ذات ثديين الا ان أحدهما كبير فيه اللبن والآخر صغير لا لبن فيه فعجبت من شأنهن ووصلنا الى جزيرة من تلك الجزائر صغيرة ليس بها الا دار واحدة فيها رجل حائك له زوجة واولاد ونخيلات نارجيل وقارب صغير يصطاد فيه السمك ويسير به الى حيث اراد من الجزائر وفى جزيرته ايضا شجيرات موز ولم نر فيها من طيور البر غير غرابين خرجا الينا لما وصلنا الجزيرة وطافا بمركبنا فغبطت والله ذلك الرجل ووددت ان لو كانت تلك الجزيرة لى فانقطعت فيها الى ان يأتينى اليقين ثم وصلت الى جزيرة ملوك حيث المركب الذى للناخودة ابراهيم وهو الذى عزمت على السفر فيه الى المعبر فجاء الى ومعه أصحابه وأضافونى ضيافة حسنة وكان الوزير قد كتب لى ان أعطى بهذه الجزيرة مائة وعشرين بستوا من الكودة وهى الودع وعشرين قدحا من الاطوان وهو عسل النارجيل وعددا معلوما من التنبول والفوفل والسمك فى كل يوم واقمت بهذه الجزيرة سبعين يوما وتزوجت بها امرأتين وهى من أحسن الجزائر خضرة نضرة رأيت من عجائبها ان الغصن يقتطع من شجرها ويركز

فى الارض او الحائط فيورق ويصير شجرة ورأيت الرمان بها لا ينقطع له ثمر بطول السنة وخاف اهل هذه الجزيرة من الناخودة ابراهيم ان ينهبهم عند سفره فارادوا امساك ما فى مركبه من السلاح حتى يوم سفره فوقعت المشاجرة بسبب ذلك وعدنا الى المهل ولم ندخلها وكتبت الى الوزير معلما بذلك فكتب ان لا سبيل لاخذ السلاح وعدنا الى ملوك وسافرنا منها فى نصف ربيع الثانى عام خمسة واربعين وفى شعبان من هذه السنة توفى الوزير جمال الدين رحمه الله وكانت السلطانة حاملا منه فولدت اثر وفاته وتزوجها الوزير عبد الله وسافرنا ولم يكن معنا رئس عارف ومسافة ما بين الجزائر والمعبر ثلاثة أيام فسرنا نحن تسعة أيام وفى التاسع منها خرجنا الى جزيرة سيلان ورأينا جبل سرنديب فيها ذاهبا فى السماء كانه عمود دخان ولما وصلناها قال البحرية ان هذا المرسى ليس فى بلاد السلطان الذى يدخل التجار الى بلاده آمنين انما هذا مرسى فى بلاد السلطان ايرى شكروتى وهو لعتاة المفسدين وله مراكب تقطع فى البحر فخفنا ان ننزل بمرساه ثم اشتدت الريح فخفنا الغرق فقلت للناخودة انزلنى الى الساحل وانا آخذ لك الامان من هذا السلطان ففعل ذلك وانزلنى بالساحل فاتانا الكفار فقالوا وما أنتم فاخبرتهم انى سلف سلطان المعبر وصاحبه جئت لزيارته وان الذى فى المركب هدية له فذهبوا الى سلطانهم فاعلموه بذلك فاستدعانى فذهبت له الى مدينة بطالة (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة والطاء المهمل وتشديدها) وهى حضرته مدينة صغيرة حسنة عليها سور خشب وابراج خشب وجميع سواحلها مملوءة باعواد القرفة تأتى بها السيول فتجمع بالساحل كأنها الروابى ويحملها اهل المعبر والمليبار دون ثمن الا انهم يهدون للسلطان فى مقابلة ذلك الثوب ونحوه وبين بلاد المعبر وهذه الجزيرة مسيرة يوم وليلة وبها أيضا من خشب البقم كثير ومن العود الهندى المعروف بالكلخى الا انه ليس كالقمارى والقاقلى وسنذكره

﴿ذكر سلطان سيلان﴾

واسمه ايرى شكروتى (بفتح الهمزة وسكون الياء وكسر الراء ثم ياء وشين معجم مفتوح وكاف مثله وراء مسكنة وواو مفتوح وتاء معلوة مكسورة وياء) وهو سلطان قوى فى البحر رأيت مرة وأنا بالمعبر مائة مركب من مراكبه بين صغار وكبار وصلت الى هنالك وكانت بالمرسى ثمانية مراكب للسلطان برسم السفر الى اليمن فامر السلطان بالاستعداد وحشد الناس لحماية اجفانه فلما يئسوا من انتهاز الفرصة فيها قالوا انما جئنا فى حماية مراكب لنا تسير ايضا الى اليمن ولما دخلت على هذا السلطان الكافر قام الى واجلسنى الى جانبه وكلمنى باحسن كلام وقال ينزل أصحابك على الامان ويكونون فى ضيافتى الى أن يسافروا فان سلطان المعبر بينى وبينه الصحبة ثم أمر بانزالى فاقمت عنده ثلاثة ايام فى اكرام عظيم متزايد فى كل يوم وكان

يفهم اللسان الفارسي ويعجبه ما احدثه به عن الملوك والبلاد ودخلت عليه يوما وعنده
جواهر كثيرة أتى بها من مغاص الجوهر الذي ببلاده وأصحابه يميزون النفيس منها من غيره
فقال لي هل رأيت مغاص الجوهر في البلاد التي جئت منها فقلت له نعم رأيته بجزيرة قيس
وجزيرة كش التي لابن السواملي فقال سمعت بها ثم أخذ حبات منه فقال أيكون في تلك
الجزيرة مثل هذه فقلت له رأيت ما هو دونها فأعجبه ذلك وقال هي لك وقال لي لا تستحي
واطلب مني ما شئت فقلت له ليس مرادي منذ وصلت هذه الجزيرة الا زيارة القدم الكريمة
قدم آدم عليه السلام وهم يسمونه (بابا) ويسمون حوا (ماما) فقال هذا هين نبعث معك من
يوصلك فقلت ذلك أريد ثم قلت له وهذا المركب الذي جئت فيه يسافر آمنا الى المعبر واذا
عدت انا بعثتني في مراكبك فقال نعم فلما ذكرت ذلك لصاحب المركب قال لي لا أسافر
حتى تعود ولو أقمت سنة بسببك فأخبرت السلطان بذلك فقال يقيم في ضيافتي حتى تعود
فاعطاني دولة يحملها عبيده على أعناقهم وبعث معي أربعة من الجوكية الذين عادتهم السفر
كل عام الى زيارة القدم وثلاثة من البراهمة وعشرة من سائر أصحابه وخمسة عشر رجلا يحملون
الزاد وأما الماء فهو بتلك الطريق كثير ونزلنا ذلك اليوم على وادجزناه في معدية مصنوعة
من قصب الخيزران ثم رحلنا من هنالك الى منار مندلي (وضبط ذلك بفتح الميم والنون والف
وراء مسكنة وميم مفتوح ونون مسكن ودال مهمل مفتوح ولام مكسور وياء) مدينة حسنة
هي آخر عمالة السلطان اضافنا أهلها ضيافة حسنة وضيافتهم عجول الجواميس يصطادونها
بغابة هنالك ويأتون بها أحياء ويأتون بالارز والسمن والحوت والدجاج واللبن ولم نر بهذه
المدينة مسلما غير رجل خراساني انقطع بسبب مرضه فسافر معنا ورحلنا الى بندر سلاوات
(وضبطه بفتح الباء الموحدة وسكون النون وفتح الدال المهمل وسكون الراء وفتح السين المهمل
واللام والواو والف وتاء معلوة) بلدة صغيرة وسافرنا منها في أوعار كثيرة المياه وبها الفيلة
الكثيرة الا انها لا تؤذي الزوار والغرباء وذلك ببركة الشيخ ابي عبد الله بن خفيف رحمه الله وهو
أول من فتح هذا الطريق الى زيارة القدم وكان هؤلاء الكفار يمنعون المسلمين من ذلك
ويؤذونهم ولا يؤاكلونهم ولا يبايعونهم فلما اتفق للشيخ ابي عبد الله ما ذكرناه في السفر
الاول من قتل الفيلة لاصحابه وسلامته من بينهم وحمل الفيل له على ظهره صار الكفار من
ذلك العهد يعظمون المسلمين ويدخلونهم دورهم ويطعمون معهم ويطمئنون لهم باهلهم
واولادهم وهم الى الآن يعظمون الشيخ المذكور اشد تعظيم ويسمونه الشيخ الكبير ثم وصلنا بعد
ذلك الى مدينة كنكار (وضبط اسمها بضم الكاف الاولى وفتح النون والكاف الثانية وآخره راء)
وهي حضرة السلطان الكبير بتلك البلاد وبناؤها في خندق بين جبلين على خور كبير

يسمى

يسمى خور الياقوت لان الياقوت يوجد به وبخارج هذه المدينة مسجد الشيخ عثمان الشيرازى المعروف بشاوش (بشينين معجمين بينهما واو مضموم) وسلطان هذه المدينة وأهلها يزورونه ويعظمونه وهو كان الدليل الى القدم فلما قطعت يده ورجله صار الادلاء اولاده وغلمانه وسبب قطعه انه ذبح بقرة وحكم كفار الهنود انه من ذبح بقرة ذبح كمثلها او جعل فى جلدها وحرق وكان الشيخ عثمان معظما فقطعوا يده ورجله واعطوه مجبى بعض الاسواق

﴿ذكر سلطانها﴾

وهو يعرف بالكنار (بضم الكاف وفتح النون والف وراء) وعنده الفيل الابيض لم أر فى الدنيا فيلا أبيض سواه يركبه فى الاعياد ويجعل على جبهته أحجار الياقوت العظيمة واتفق له ان قام عليه أهل دولته وسملوا عينيه وولوا ولده وهو هنالك أعمى

﴿ذكر الياقوت﴾

والياقوت العجيب البهرمان انما يكون بهذه البلدة فمنه ما يخرج من الخور وهو عزيز عندهم ومنه ما يحفر عنه وجزيرة سيلان يوجد الياقوت فى جميع مواضعها وهى متملكة فيشترى الانسان القطعة منها و يحفر عن الياقوت فيجد احجارا بيضاء مشعبة وهى التى يتكون الياقوت فى أجوافها فيعطيها الحكاكين فيحكونها حتى تنفلق عن احجار الياقوت فمنه الاحمر ومنه الاصفر ومنه الازرق ويسمونه النيلم (بفتح النون واللام وسكون الياء آخر الحروف) وعادتهم ان ما بلغ ثمنه من أحجار الياقوت الى مائة فنم (بفتح الفاء والنون) فهو للسلطان يعطى ثمنه ويأخذه وما نقص عن تلك القيمة فهو لاصحابه وصرف مائة فنم ستة دنانير من الذهب وجميع النساء بجزيرة سيلان لهن القلائد من الياقوت الملون ويجعلنه فى أيديهن وارجلهن عوضا من الاسورة والخلاخيل وجوارى السلطان يصنعن منه شبكة يجعلنها على رؤسهن ولقد رأيت على جبهة الفيل الابيض سبعة أحجار منه كل حجر أعظم من بيضة الدجاجة ورأيت عند السلطان ايرى شكروتى سكرجة على مقدار الكف من الياقوت فيها دهن العود فجعلت أعجب منها فقال ان عندنا ما هو أضخم من ذلك ثم سافرنا من كنكار فنزلنا بمغارة تعرف باسم أسطا محمود اللورى (بضم اللام) وكان من الصالحين واحتفر تلك المغارة فى سفح جبل عند خور صغير هنالك ثم رحلنا عنها ونزلنا بالخور المعروف بخور بوزنه (بالباء الموحدة وواو وزاى ونون وهاء) وبوزنه هى القرود

﴿ذكر القرود﴾

والقرود بتلك الجبال كثيرة جدا وهى سود الالوان لها اذناب طوال ولذكورها لحى كما هى للآدميين واخبرنى الشيخ عثمان وولده وسواهما ان هذه القرود لها مقدم تتبعه كأنه سلطان

يشدّ على رأسه عصابة من اوراق الاشجار ويتوكأ على عصى ويكون عن يمينه ويساره أربعة من القرود لها عصى بايديها وانه اذا جلس القرد المقدم تقف القرود الاربعة على رأسه وتأتى أنثاه واولاده فتقعد بين يديه كل يوم وتأتى القرود فتقعد على بعد منه ثم يكلمها أحد القرود الاربعة فتنصرف القرود كلها ثم يأتى كل قرد منها بموزة أو ليمونة او شبه ذلك فيأكل القرد المقدم واولاده والقرود الاربعة واخبرنى بعض الجوكية انه رأى القرود الاربعة بين يدى مقدمها وهى تضرب بعض القرود بالعصى ثم تنتف وبره بعد ضربه وذكر لى الثقات انه اذا ظفر قرد من هذه القرود بصبية لا تستطيع الدفاع عن نفسها جامعها واخبرنى بعض أهل هذه الجزيرة انه كان بداره قرد منها فدخلت بنت له بعض البيوت فدخل عليها فصاحت به فغلبها قال ودخلنا عليها وهو بين رجليها فقتلناه ثم كان رحيلنا الى خور الخيزران ومن هذا الخور اخرج أبو عبد الله بن خفيف الياقوتتين اللتين اعطاهما السلطان هذه الجزيرة حسبما ذكرناه فى السفر الاول ثم رحلنا الى موضع يعرف ببيت العجوز وهو آخر العمارة ثم رحلنا الى مغارة باباطاهر وكان من الصالحين ثم رحلنا الى مغارة السبيك (بفتح السين المهمل وكسر الباء الموحدة وياء مد وكاف) وكان السبيك من سلاطين الكفار وانقطع للعبادة هنالك

(ذكر العلق الطيار)

وبهذا الموضع رأينا العلق الطيار ويسمونه الزلو (بضم الزاى واللام) ويكون بالاشجار والحشائش التى تقرب من الماء فاذا قرب الانسان منه وثب عليه فحيثما وقع من جسده خرج منه الدم الكثير والناس يستعدون له الليمون يعصرونه عليه فيسقط عنهم ويجردون الموضع الذى يقع عليه بسكين خشب معد لذلك ويذكران بعض الزوار مر بذلك الموضع فتعلقت به العلق فاظهر الجلد ولم يعصر عليها الليمون فنزف دمه ومات وكان اسمه باباخوزى (بالخاء المعجم المضموم والزاى) وهنالك مغارة تنسب اليه ثم رحلنا الى السبع مغارات ثم الى عقبة اسكندر وثم مغارة الاصفهانى وعين ماء وقلعة غير عامرة تحتها خور يعرف بغوطة كاه عارفان وهنالك مغارة النارنج ومغارة السلطان وعندها دروازة الجبل أى بابه

(ذكر جبل سرنديب)

وهو من أعلى جبال الدنيا رأيناه من البحر وبيننا وبينه مسيرة تسع ولما صعدناه كنا نرى السحاب أسفل منا قد حال بيننا وبين رؤية أسفله وفيه كثير من الاشجار التى لا يسقط لها ورق والازاهير الملونة والورد الاحمر على قدر الكف ويزعمون ان فى ذلك الورد كتابة يقرأ منها اسم الله تعالى واسم رسوله عليه الصلاة والسلام وفى الجبل طريقان الى القدم احدهما

يعرف

يعرف بطريق (بابا) والآخر بطريق (ماما) يعنون آدم وحواء عليهما السلام فاما طريق ماما فطريق سهل عليه يرجع الزوار اذا رجعوا ومن مضى عليه فهو عندهم كمن لم يزر وأما طريق بابا فصعب وعر المرتقى وفى أسفل الجبل حيث دروازته مغارة تنسب أيضا للاسكندر وعين ماء ونحت الاولون فى الجبل شبه درج يصعد عليها وغرزوا فيها أوتاد الحديد وعلقوا منها السلاسل ليتمسك بها من يصعده وهى عشر سلاسل ثنتان فى أسفل الجبل حيث الدروازة وسبع متوالية بعدها والعاشرة هى سلسلة الشهادة لان الانسان اذا وصل اليها ونظر الى أسفل الجبل ادركه الوهم فيتشهد خوف السقوط ثم اذا جاوزت هذه السلسلة وجدت طريقا مهملا ومن السلسلة العاشرة الى مغارة الخضر سبعة أميال وهى فى موضع فسيح عندها عين ماء تنسب اليه أيضا ملاءى بالحوت ولا يصطاده احد وبالقرب منها حوضان منحوتان فى الحجارة عن جنبتى الطريق وبمغارة الخضر يترك الزوار ماعندهم ويصعدون منها ميلين الى اعلى الجبل حيث القدم

(ذكر القدم)

واثر القدم الكريمة قدم أبينا آدم صلى الله عليه وسلم فى صخرة سوداء مرتفعة بموضع فسيح وقد غاصت القدم الكريمة فى الصخرة حتى عاد موضعها منخفضا وطولها احد عشر شبرا واتى اليها أهل الصين قديما فقطعوا من الصخرة موضع الابهام وما يليه وجعلوه فى كنيسة بمدينة الزيتون يقصدونها من اقصى البلاد وفى الصخرة حيث القدم تسع حفر منحوتة يجعل الزوار من الكفار فيها الذهب واليواقيت والجواهر فترى الفقراء اذا وصلوا مغارة الخضر يتسابقون منها لاخذ ما بالحفر ولم نجد نحن بها الا يسير حجيرات وذهب أعطيناه الدليل والعادة ان يقيم الزوار بمغارة الخضر ثلاثة أيام يأتون فيها الى القدم غدوة وعشيا وكذلك فعلنا ولما تمت الايام الثلاثة عدنا على طريق ماما فنزلنا بمغارة شيم وهو شيث بن آدم عليهما السلام ثم الى خور السمك ثم الى قرية كرمله (بضم الكاف وسكون الراء وضم الميم) ثم الى قرية جبركاوان (بفتح الجيم والباء الموحدة وسكون الراء وفتح الكاف والواو وآخره نون) ثم الى قرية دل دينوة (بدالين مهملين مكسورين بينهما لام مسكن وياء مد ونون مفتوح وواو مفتوح وتاء تأنيث) ثم الى قرية آت قلنجة (بهمزة مفتوحة وتاء مثناة مسكنة وقاف ولام مفتوحين ونون مسكن وجيم مفتوح وهنالك (كان) يشتى الشيخ ابو عبدالله بن خفيف وكل هذه القرى والمنازل هى بالجبل وعند أصل الجبل فى هذا الطريق درخت روان ودرخت هى (بفتح الدال المهمل والراء وسكون الخاء المعجم وتاء معلوة) وروان (بفتح الراء والواو والف ونون) وهى شجرة عادية لا يسقط ورقها ولم أر من رآى ورقها ويعرفونها أيضا بالماشية لان الناظر

اليها من أعلى الجبل يراها بعيدة منه قريبة من أسفل الجبل والناظر اليها من أسفل الجبل يراها بعكس ذلك ورأيت هنالك جملة من الجوكيين ملازمين أسفل الجبل ينتظرون سقوط ورقها وهي بحيث لا يمكن التوصل اليها البتة ولهم اكاذيب في شأنها من جملتها ان من اكل من اوراقها عاد له الشباب ان كان شيخا وذلك باطل وتحت هذا الجبل الخور العظم الذى يخرج منه الياقوت وماؤه يظهر في رأى العين شديد الزرقة ورحلنا من هنالك يومين الى مدينة دينور (وضبط اسمها بدال مهمل مكسور وياء مدونون وواو مفتوحين وراء) مدينة عظيمة على البحر يسكنها التجار وبها الصنم المعروف بدينور في كنيسة عظيمة فيها نحو الالف من البراهمة والجوكية ونحو خمسمائة من النساء بنات الهنود ويغنين كل ليلة عند الصنم ويرقصن والمدينة ومجابيها وقف على الصنم وكل من بالكنيسة ومن يرد عليها يأكلون من ذلك والصنم من ذهب على قدر الآدمي وفي موضع العينين منه ياقوتتان عظيمتان أخبرت انهما تضيئان بالليل كالقنديلين ثم رحلنا الى مدينة قالى (بالقاف وكسر اللام) وهي صغيرة على ستة فراسخ من دينور وبها رجل من المسلمين يعرف بالناخودة ابراهيم أضافنا بموضعه ورحلنا الى مدينة كلنبو (وضبط اسمها بفتح الكاف واللام وسكون النون وضم الباء الموحدة وواو) وهي من أحسن بلاد سرنديب وأكبرها وبها يسكن الوزير حاكم البحر جالستى ومعه نحو خمسمائة من الحبشة ثم رحلنا فوصلنا بعد ثلاثة أيام الى بطالة وقد تقدم ذكرها ودخلنا الى سلطانها الذى تقدم ذكره ووجدت الناخودة ابراهيم في انتظارى فسافرنا بقصد بلاد المعبر وقويت الريح وكاد الماء يدخل في المركب ولم يكن لنا رئيس عارف ثم وصلنا الى حجارة كاد المركب ينكسر فيها ثم دخلنا بحرا قصيرا فتجلس المركب ورأينا الموت عيانا ورمى الناس بما معهم وتوادعوا وقطعنا صارى المركب فرمينا به وصنع البحرية معدية من الخشب وكان بيننا وبين البر فرسخان فاردت ان أنزل في المعدية وكان لى جاريتان وصاحبان من أصحابي فقالا اتنزل وتتركنا فآثرتهما على نفسي وقلت انزلا انتما والجارية التى أحبها فقالت الجارية اني أحسن السباحة فاتعلق بحبل من حبال المعدية واعوم معهم فنزل رفيقاى واحدهما محمد بن فرحان التوزرى والآخر رجل مصرى والجارية معهم والاخرى تسبح وربط البحرية في المعدية حبالا وسبحوا بها وجعلت معهم ما عز على من المتاع والجواهر والعنبر فوصلوا الى البر سالمين لان الريح كانت تساعدهم وأقمت بالمركب ونزل صاحبه الى البر على الدقة وشرع البحرية في عمل أربع من المعادى فجاء الليل قبل تمامها ودخل معنا الماء فصعدت الى المؤخر وأقمت به حتى الصباح وحينئذ جاء الينا نفر من الكفار في قارب لهم ونزلنا معهم الى الساحل ببلاد المعبر فاعلمناهم انا من أصحاب سلطانهم وهم تحت ذمته فكتبوا اليه بذلك وهو على مسيرة يومين في

الغزو وكتبت أنا اليه أعلمه بما اتفق علي وادخلنا اولئك الكفار الى غيضة عظيمة فاتونا بفاكهة تشبه البطيخ ثمرها شجر المقل وفى داخلها شبه قطن فيه عسلية يستخرجونها ويصنعون منها حلواء يسمونها التل وهى تشبه السكر واتوا بسمك طيب واقمنا ثلاثة أيام ثم وصل من جهة السلطان امير يعرف بقمر الدين معه جماعة فرسان ورجال وجاؤا بالدولة وبعشرة أفراس فركبت وركب أصحابى وصاحب المركب واحدى الجاريتين وحملت الاخرى فى الدولة ووصلنا الى حصن هركاتو (وضبط اسمه بفتح الهاء وسكون الراء وفتح الكاف والف وتاء معلوة مضمومة وواو) وبتنا به وتركت فيه الجوارى وبعض الغلمان والاصحاب ووصلنا فى اليوم الثانى الى محلة السلطان

(ذكر سلطان بلاد المعبر)

هو غياث الدين الدامغانى وكان فى أول أمره فارسا من فرسان الملك مجير بن أبي الرجا احد خدام السلطان محمد ثم خدم الامير حاجي بن السيد السلطان جلال الدين ثم ولى الملك وكان يدعى سراج الدين قبله فلما ولى تسمى غياث الدين وكانت بلاد المعبر تحت حكم السلطان محمد ملك دهلى ثم ثار بها صهرى الشريف جلال الدين احسن شاه وملك بها خمسة أعوام ثم قتل وولى احد امرائه وهو علاء الدين أديجى (بضم الهمزة وفتح الدال المهمل وسكون الياء آخر الحروف وكسر الجيم) فاقام سنة ثم خرج الى غزو الكفار فاخذ لهم اموالا كثيرة وغنائم واسعة وعاد الى بلاده وغزاهم فى السنة الثانية فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة واتفق يوم قتله لهم ان رفع المغفر عن رأسه ليشرب فاصابه سهم غرب فمات من حينه فولوا صهره قطب الدين ثم لم يحمدوا سيرته فقتلوه بعد أربعين يوما وولى بعده السلطان غياث الدين وتزوج بنت السلطان الشريف جلال الدين التى كنت متزوجا اختها بدهلى

(ذكر وصولى الى السلطان غياث الدين)

ولما وصلنا الى قرب من منزله بعث بعض الحجاب لتلقينا وكان قاعدا فى برج خشب وعادتهم بالهند كلها ان لا يدخل أحد على السلطان دون خف ولم يكن عندى خف فاعطانى بعض الكفار خفا وكان هنالك من المسلمين جماعة فعجبت من كون الكافر كان أتم مروءة منهم ودخلت على السلطان فامر لى بالجلوس ودعا القاضى الحاج صدر الزمان بهاء الدين وانزلنى فى جواره فى ثلاثة من الاخبية وهم يسمونها الخيام وبعث بالفرش وبطعامهم وهو الارز واللحم وعادتهم هنالك ان يسقوا اللبن الرائب على الطعام كما يفعل ببلادنا ثم اجتمعت به بعد ذلك والقيت له أمر جزائر ذيبة المهل وان يبعث الجيش اليها فاخذ فى ذلك بالعزم وعين المراكب لذلك وعين الهدية لسلطانتها والخلع للوزراء والامراء والعطايا لهم وفوض الى فى عقد نكاحه

مع أخت السلطانة وأمر بوسق ثلاثة مراكب بالصدقة لفقراء الجزائر وقال لى يكون رجوعك بعد خمسة أيام فقال له قائد البحر خواجه سرلك لا يمكن السفر الى الجزائر الا بعد ثلاثة أشهر من الآن فقال لى السلطان اما اذا كان الامر هكذا فامض الى فتن حتى تقضى هذه الحركة وتعود الى حضرتنا مترة ومنها تكون الحركة فاقمت معه بخلال مابعثت عن الجوارى والاصحاب

(ذكر ترتيب رحيله وشنيع فعله فى قتل النساء والولدان)

وكانت الارض التى نسلكها غيضة واحدة من الاشجار والقصب بحيث لا يسلكها أحد فامر السلطان أن يكون مع كل واحد من فى الجيش من كبير وصغير قادوم لقطع ذلك فاذا نزلت المحلة ركب الى الغابة والناس معه فقطعوا تلك الاشجار من غدوة النهار الى الزوال ثم يؤتى بالطعام فيأكل جميع الناس طائفة بعد أخرى ثم يعودون الى قطع الاشجار الى العشى وكل من وجدوه من الكفار فى الغيضة أسروه وصنعوا خشبة محددة الطرفين فجعلوها على كتفيه يحملها ومعه امرأته واولاده ويؤتى بهم الى المحلة وعادتهم ان يصنعوا على المحلة سورا من خشب يكون له أربعة أبواب ويسمونه الكتكر (بفتح الكافين وسكون التاء المعلوة وآخره راء) ويصنعون على دار السلطان كتكرا ثانيا ويصنعون خارج الكتكر الاكبر مصاطب ارتفاعها نحو نصف قامة ويوقدون عليها النار بالليل ويبيت عندها العبيد والمشاؤن ومع كل واحد منهم حزمة من رقيق القصب فاذا اتى أحد من الكفار ليضربوا على المحلة ليلا اوقد كل واحد منهم الحزمة التى بيده فعاد الليل شبه النهار لكثرة الضياء وخرجت الفرسان فى اتباع الكفار فاذا كان عند الصباح قسم الكفار المأسورون بالامس أربعة أقسام وأتى الى كل باب من ابواب الكتكر بقسم منهم فركزت الخشب التى كانوا يحملونها بالامس عنده ثم ركزوا فيها حتى تنفذهم ثم تذبح نساؤهم ويربطن بشعورهن الى تلك الخشبات ويذبح الاولاد الصغار فى حجورهن ويتركون هنالك وتنزل المحلة ويشتغلون بقطع غيضة اخرى ويصنعون بمن أسروه كذلك وذلك أمر شنيع ما علمته لاحد من الملوك وبسببه عجل الله حينه ولقد رأيته يوما والقاضى عن يمينه وأنا عن شماله وهو يأكل معنا وقد أتى بكافر معه امرأته وولده سنه سبع فاشار الى السيافين بيده ان يقطعوا رأسه ثم قال لهم وزن اوو پسرا و معناه وابنه وزوجته فقطعت رقابهم وصرفت بصرى عنهم فلما قمت وجدت رؤسهم مطروحة بالارض وحضرت عنده يوما وقد أتى برجل من الكفار فتكلم بما لم أفهمه فاذا بجماعة من الزبانية قد استلوا سكاكينهم فبادرت القيام فقال لى الى أين فقلت أصلى العصر ففهم عنى وضحك وأمر بقطع يديه ورجليه فلما عدت وجدته متشحطا فى دمائه

ذكر

﴿ذكر هزيمته للكفار وهي من أعظم فتوحات الاسلام﴾

وكان فيما يجاور بلاده سلطان كافر يسمى بلال ديو (بفتح الباء الموحدة ولام وألف ولام ثانية ودال مهمل مكسور وياء آخر الحروف مفتوحة وواو مسكن) وهو من كبار سلاطين الكفار يزيد عسكره على مائة ألف ومعه نحو عشرين ألفا من المسلمين اهل الذعارة وذوى الجنايات والعبيد الفارين فطمع في الاستيلاء على بلاد المعبر وكان عسكر المسلمين بها ستة آلاف منهم النصف من الجياد والنصف الثانى لا خير فيهم ولا غناء عندهم فلقوه بظاهر مدينة كبان فهزمهم ورجعوا الى حضرة مترة ونزل الكافر على كبان وهي من أكبر مدنهم واحصنها وحاصرها عشرة أشهر ولم يبق لهم من الطعام الا قوت أربعة عشر يوما فبعث لهم الكافر ان يخرجوا على الامان ويتركوا له البلد فقالوا له لا بد من مطالعة سلطاننا بذلك فوعدهم الى تمام أربعة عشر يوما فكتب الى السلطان غياث الدين بامرهم فقرأ كتابهم على الناس يوم الجمعة فبكوا وقالوا نبيع أنفسنا من الله فان الكافر ان أخذ تلك المدينة انتقل الى حصارنا فالموت تحت السيوف اولى بنا فتعاهدوا على الموت وخرجوا من الغد ونزعوا العمائم عن رؤسهم وجعلوها في أعناق الخيل وهي علامة من يريد الموت وجعلوا ذوى النجدة والابطال منهم في المقدمة وكانوا ثلاثمائة وجعلوا على الميمنة سيف الدين بهادور وكان فقيها ورعا شجاعا وعلى الميسرة الملك محمد السلحدار وركب السلطان في القلب ومعه ثلاثة آلاف وجعل الثلاثة الآلاف الباقين ساقة لهم وعليهم اسد الدين كيخسر والفارسى وقصدوا محلة الكافر عند القايلة واهلها على غرة وخيلهم في المرعى فاغاروا عليها وظن الكفار انهم سراق فخرجوا اليهم على غير تعبية وقاتلوهم فوصل السلطان غياث الدين فانهزم الكفار شر هزيمة واراد سلطانها أن يركب وكان ابن ثمانين سنة فادركه ناصر الدين بن أخى السلطان الذى ولى الملك بعده فاراد قتله ولم يعرفه فقال له أحد غلمانه هو السلطان فاسره وحمله الى عمه فاكرمه في الظاهر حتى جبى منه الاموال والفيلة والخيل وكان يعده السراح فلما استصفى ما عنده ذبحه وسلخه وملأ جلده بالتبن فعلق على سور مترة ورأيته بها معلقا ولنعد الى كلامنا فنقول ورحلت عن المحلة فوصلت الى مدينة فتن (بفتح الفاء والتاء المثناة المشددة ونون) وهي كبيرة حسنة على الساحل ومرساها عجيب قد صنعت فيه قبة خشب كبيرة قائمة على الخشب الضخام يصعد اليها على طريق خشب مسقف فاذا جاء العدو ضموا اليها الاجفان التى تكون بالمرسى وصعدها الرجال والرماة فلا يصيب العدو فرصة وبهذه المدينة مسجد حسن مبنى بالحجارة وبها العنب الكثير والرمان الطيب ولقيت الشيخ الصالح محمد النيسابورى أحد الفقراء المولهين الذين يسدلون شعورهم على أكتافهم ومعه سبع ربّاه يأكل مع الفقراء ويقعد معهم وكان معه نحو ثلاثين فقيرا لاحدهم غزالة تكون

مع الاسد فى موضع واحد فلا يعرض لها وأقمت بمدينة فتن وكان السلطان غياث الدين قد صنع له احد الجوكية حبوبا للقوة على الجماع وذكروا ان من جملة اخلاطها برادة الحديد فأكل منها فوق الحاجة فمرض ووصل الى فتن فخرجت الى لقائه وأهديت له هدية فلما استقر بها بعث عن قائد البحر خواجه سرور فقال له لا تشتغل بسوى المراكب المعينة للسفر الى الجزائر واراد ان يعطيني قيمة الهدية فابيت ثم ندمت لانه مات فلم آخذ شيأ وأقام بفتن نصف شهر ثم رحل الى حضرته وأقمت أنا بعده نصف شهر ثم رحلت الى حضرته وهى مدينة مترة (بضم الميم وسكون التاء المعلوة وفتح الراء) مدينة كبيرة متسعة الشوارع واول من اتخذها حضرة صهرى السلطان الشريف جلال الدين احسن شاه وجعلها شبيهة بدهلى واحسن بناءها ولما قدمتها وجدت بها وباء يموت منه الناس موتا ذريعا فمن مرض مات من ثانى يوم مرضه او ثالثه وان ابطأ موته فالى الرابع فكنت اذا خرجت لا ارى الا مريضا أو ميتا واشتريت بها جارية على انها صحيحة فماتت فى يوم آخر ولقد جاءت الىّ فى بعض الايام امرأة كان زوجها من وزراء السلطان أحسن شاه ومعها ابن لها سنه ثمانية أعوام نبيل كيس فطن فشكت ضعف حالها فاعطيتهما نفقة وهما صحيحان سويان فلما كان من الغد جاءت تطلب لولدها المذكور كفنا واذا به قد توفى من حينه وكنت ارى بمشور السلطان حين مات المئين من الخدم اللاتى أتى بهنّ لدق الارز المعمول منه الطعام لغير السلطان وهنّ مريضات قد طرحن أنفسهن فى الشمس ولما دخل السلطان مترة وجد أمه وامرأته وولده مرضى فاقام بالمدينة ثلاثة أيام ثم خرج الى نهر على فرسخ منها كانت عليه كنيسة للكفار وخرجت اليه فى يوم خميس فامر بانزالى الى جانب القاضى فلما ضربت لى الاخبية رأيت الناس يسرعون ويموج بعضهم فى بعض فمن قائل ان السلطان مات ومن قائل ان ولده هو الميت ثم تحقق ذلك فكان الولد هو الميت ولم يكن له سواه فكان موته مما زاد فى مرضه وفى الخميس بعده توفيت أم السلطان

﴿ذكر وفاة السلطان وولاية ابن أخيه وانصرافى عنه﴾

وفى الخميس الثالث توفى السلطان غياث الدين وشعرت بذلك فبادرت الدخول الى المدينة خوف الفتنة ولقيت ناصر الدين ابن اخيه الوالى بعده خارجا الى المحلة قد وجه عنه اذ ليس للسلطان ولد فطلب فى الرجوع معه فابيت وأثر ذلك فى قلبه وكان ناصر الدين هذا خديما بدهلى قبل ان يملك عمه فلما ملك عمه هرب فى زى الفقراء اليه فكان من القدر ملكه بعده ولما بويع مدحته الشعراء فاجزل لهم العطاء واول من قام منشد القاضى صدر الزمان فاعطاه خمسمائة دينار وخلعة ثم الوزير المسمى بالقاضى فاعطاه الفى دينار دراهم واعطانى

انا ثلاثمائة دينار وخلعة وبث الصدقات فى الفقراء والمساكين ولما خطب الخطيب أول خطبة خطبها باسمه نثرت عليه الدنانير والدراهم فى أطباق الذهب والفضة وعمل عزاء السلطان غياث الدين فكانوا يختمون القرآن على قبره كل يوم ثم يقرأ العشارون ثم يؤتى بالطعام فيأكل الناس ثم يعطون الدراهم كل انسان على قدره وأقاموا على ذلك أربعين يوما ثم يفعلون ذلك فى مثل يوم وفاته من كل سنة واول ما بدأ به السلطان ناصر الدين ان عزل وزير عمه وطلبه بالاموال وولى الوزارة الملك بدر الدين الذى بعثه عمه الى وأنا بفتن ليتلقانى فتوفى سريعا فولى الوزارة خواجه سرور قائد البحر وأمر ان يخاطب بخواجه جهان كما يخاطب الوزير بدهلى ومن خاطبه بغير ذلك غرم دنانير معلومة ثم ان السلطان ناصر الدين قتل ابن عمته المتزوج بنت السلطان غياث الدين وتزوجها بعده وبلغه ان الملك مسعود ازاره فى محبسه قبل موته فقتله أيضا وقتل الملك بهادور وكان من الشجعان الكرماء الفضلاء وامر لى بجميع ما كان عينه عمه من المراكب برسم الجزائر ثم أصابتنى الحمى القاتلة هنالك فظننت انها القاضية والهمنى الله الى التمر الهندى وهو هنالك كثير فاخذت نحو رطل منه وجعلته فى الماء ثم شربته فاسهلنى ثلاثة ايام وعافانى الله من مرضى فكرهت تلك المدينة وطلبت الاذن فى السفر فقال لى السلطان كيف تسافر ولم يبق لايام السفر الى الجزائر غير شهر واحد اقم حتى نعطيك جميع ما أمر لك به خوند عالم فابيت وكتب لى الى فتن لاسافر فى أى مركب أردت وعدت الى فتن فوجدت ثمانية من المراكب تسافر الى اليمن فسافرت فى احدها ولقينا أربعة اجفان فقاتلتنا يسيرا ثم انصرفت ووصلنا الى كولم وكان فى بقية مرض فاقمت بها ثلاثة أشهر ثم ركبت فى مركب بقصد السلطان جمال الدين الهنورى فخرج علينا الكفار بين هنور وفاكنور

﴿ذكر سلب الكفار لنا﴾

ولما وصلنا الى الجزيرة الصغرى بين هنور وفاكنور خرج علينا الكفار فى اثنى عشر مركبا حربية وقاتلونا قتالا شديدا وتغلبوا علينا فاخذوا جميع ما عندى مما كنت أدخره للشدائد وأخذوا الجواهر واليواقيت التى اعطانيها ملك سيلان واخذوا ثيابى والزوادات التى كانت عندى مما اعطانيه الصالحون والاولياء ولم يتركوا الى ساترا خلا السراويل وأخذوا ما كان لجميع الناس وانزلونا بالساحل فرجعت الى قالقوط فدخلت بعض المساجد فبعث الى احد الفقهاء بثوب وبعث القاضى بعمامة وبعث بعض التجار بثوب آخر وتعرفت هنالك تزوج الوزير عبد الله بالسلطانة خديجة بعد موت الوزير جمال الدين وبأن زوجتى التى تركتها حاملا ولدت ولدا فخطر لى السفر الى الجزائر وتذكرت العداوة التى بينى وبين الوزير

عبد الله ففتحت المصحف فخرج لى تتنزل عليهم الملائكة ان لا تخافوا ولا تحزنوا فاستخرت الله وسافرت فوصلت بعد عشرة أيام الى جزائر ذيبة المهل ونزلت منها بكنلوس فاكرمني واليها عبد العزيز المقدشاوى وأضافني وجهز لى كندرة ووصلت بعد ذلك الى هللى وهى الجزيرة التي تخرج السلطانة واخواتها اليها برسم التفرج والسباحة ويسمون ذلك التجر ويلعبون في المراكب ويبعث لها الوزراء والامراء بالهدايا والتحف متى كانت بها ووجدت بها اخت السلطانة وزوجها الخطيب محمد بن الوزير جمال الدين وامها التي كانت زوجتي فجاء الخطيب الي واتوا بالطعام ومر بعض أهل الجزيرة الى الوزير عبد الله فاعلموه بقدومي فسأل عن حالي وعمن قدم معي واخبر اني جئت برسم حمل ولدي وكانت سنه نحو عامين واتته امه تشكو من ذلك فقال لها أنا لا أمنعه من حمل ولده وصادرني في دخول الجزيرة وأنزلني بدار تقابل برج قصره ليتطلع على حالي وبعث الي بكسوة كاملة وبالتنبول وماء الورد على عادتهم وجئت بثوبي حرير للرمي عند السلام فاخذوهما ولم يخرج الوزير الي ذلك اليوم واتى الي بولدي فظهر لى ان اقامته معهم خير له فرددته اليهم واقمت خمسة أيام وظهر لى ان تعجيل السفر اولى فطلبت الاذن في ذلك فاستدعاني الوزير ودخلت عليه واتوني بالثوبين اللذين اخذوهما مني فرميتهما عند السلام على العادة واجلسني الى جانبه وسألني عن حالي وأكلت معه الطعام وغسلت يدي معه في الطست وذلك شيء لا يفعله مع أحد واتوا بالتنبول وانصرفت وبعث الي باثواب وبساتي من الودع وأحسن في أفعاله وأجمل وسافرت فاقمنا على ظهر البحر ثلاثا واربعين ليلة ثم وصلنا الى بلاد بنجالة (وضبطها بفتح الباء الموحدة وسكون النون وجيم معقود وألف ولام مفتوح) وهي بلاد متسعة كثيرة الارز ولم أر في الدنيا أرخص أسعارا منها لكنها مظلمة وأهل خراسان يسمونها دوزخست (دوزخ) بور (بر) نعمة معناه جهنم ملآى بالنعم رأيت الارز يباع في اسواقها خمسة وعشرين رطلا دهلية بدينار فضي والدينار الفضي هو ثمانية دراهم ودرهمهم كالدرهم النقرة سواء والرطل الدهلي عشرون رطلا مغربية وسمعتهم يقولون ان ذلك غلاء عندهم وحدثني محمد المصمودي المغربي وكان من الصالحين وسكن هذا البلد قديما ومات عندي بدهلي انه كانت له زوجة وخادم فكان يشتري قوت ثلاثتهم في السنة بثمانية دراهم وانه كان يشتري الارز في قشره بحساب ثمانين رطلا دهلية بثمانية دراهم فاذا دقه خرج منه خمسون رطلا صافية وهي عشرة قناطير ورأيت البقرة تباع بها للحلب بثلاثة دنانير فضة وبقرهم الجواميس ورأيت الدجاج السمان تباع بحساب ثمان بدرهم واحد وفراخ الحمام يباع خمسة عشر منها بدرهم ورأيت الكبش السمين يباع بدرهمين ورطل السكر باربعة دراهم وهو رطل دهلي ورطل الجلاب بثمانية دراهم ورطل السمن باربعة

دراهم

دراهم ورطل السيرج بدرهمين ورأيت ثوب القطن الرقيق الجيد الذى ذرعه ثلاثون ذراعا يباع بدينارين ورأيت الجارية المليحة للفراش تباع بدينار من الذهب واحد وهو ديناران ونصف دينار من الذهب المغربى واشتريت بنحو هذه القيمة جارية تسمى عاشورة وكان لها جمال بارع واشترى بعض أصحابى غلاما صغير السن حسنا اسمه لؤلؤ بدينارين من الذهب وأول مدينة دخلناها من بلاد بنجالة مدينة سدكاوان (وضبط اسمها بضم السين وسكون الدال المهملين وفتح الكاف والواو وآخره نون) وهى مدينة عظيمة على ساحل البحر الاعظم ويجتمع بها نهر الكنك الذى يحج اليه الهنود ونهر الجون و يصبان فى البحر ولهم فى النهر مراكب كثيرة يقاتلون بها أهل بلاد اللكنوتى

﴿ذكر سلطان بنجالة﴾

وهو السلطان فخر الدين الملقب بفخره (بالفاء والخاء المعجم والراء) سلطان فاضل محب فى الغرباء وخصوصا الفقراء والمتصوفة وكانت مملكة هذه البلاد للسلطان ناصر الدين بن السلطان غياث الدين بلبن وهو الذى ولى ولده معز الدين الملك بدهلى فتوجه لقتاله والتقيا بالنهر وسمى لقاؤهما لقاء السعدين وقد ذكرنا ذلك وانه ترك الملك لولده وعاد الى بنجالة فاقام بها الى أن توفى وولى ابنه شمس الدين الى أن توفى فولى ابنه شهاب الدين الى أن غلب عليه اخوه غياث الدين بهادور بور فاستنصر شهاب الدين بالسلطان غياث الدين تغلق فنصره وأخذ بهادور بور أسيرا ثم أطلقه ابنه محمد لما ملك على ان يقاسمه ملكه فنكث عليه فقاتله حتى قتله وولى على هذه البلاد صهرا له فقتله العسكر واستولى على ملكها على شاه وهو اذ ذاك ببلاد اللكنوتى فلما رأى فخر الدين ان الملك قد خرج عن أولاد السلطان ناصر الدين وهو مولى لهم خالف بسدكاوان و بلاد بنجالة واستقل بالملك واشتدت الفتنة بينه وبين على شاه فاذا كانت أيام الشتاء والوحل أغار فخر الدين على بلاد اللكنوتى فى البحر لقوته فيه واذا عادت الايام التى لا مطر فيها اغار على شاه على بنجالة فى البر لقوته فيه

﴿حكاية﴾

وانتهى حب الفقراء بالسلطان فخر الدين الى ان جعل أحدهم نائبا عنه فى الملك بسدكاوان وكان يسمى شيدا (بفتح الشين المعجم والدال المهمل بينهما ياء آخر الحروف) وخرج الى قتال عدو له فخالف عليه شيدا واراد الاستبداد بالملك وقتل ولد السلطان فخر الدين لم يكن له ولد غيره فعلم بذلك فكر عائدا الى حضرته ففر شيدا ومن اتبعه الى مدينة سنركاوان وهى منيعة فبعث السلطان بالعساكر الى حصاره فخاف اهلها على أنفسهم فقبضوا على شيدا وبعثوه الى عسكر السلطان فكتبوا اليه بامره فامرهم ان يبعثوا له رأسه فبعثوه وقتل بسببه جماعة

كبيرة من الفقراء ولما دخلت سد كاوان لم أر سلطانها ولا لقيته لانه مخالف على ملك الهند فخفت عاقبة ذلك وسافرت من سد كاوان بقصد جبال كامرو وهي (بفتح الكاف والميم وضم الراء) وبينها وبين سد كاوان مسيرة شهر وهي جبال متسعة متصلة بالصين وتتصل ايضا ببلاد التبت حيث غزلان المسك وأهل هذا الجبل يشبهون الترك ولهم قوة على الخدمة والغلام منهم يساوي أضعاف ما يساويه الغلام من غيرهم وهم مشهورون بمعاناة السحر والاشتغال به وكان قصدي بالمسير الى هذه الجبال لقاء ولي من الاولياء بها وهو الشيخ جلال الدين التبريزي

﴿ذكر الشيخ جلال الدين﴾

وهذا الشيخ من كبار الاولياء وافراد الرجال له الكرامات الشهيرة والمآثر العظيمة وهو من المعمرين أخبرني رحمه الله انه أدرك الخليفة المستعصم بالله العباسي ببغداد وكان بها حين قتله واخبرني اصحابه بعد هذه المدة انه مات ابن مائة وخمسين وانه كان له نحو أربعين سنه يسرد الصوم ولا يفطر الا بعد مواصلة عشر وكانت له بقرة يفطر على حليبها ويقوم الليل كله وكان نحيف الجسم طوالا خفيف العارضين وعلى يديه أسلم أهل تلك الجبال ولذلك أقام بينهم

﴿كرامة له﴾

أخبرني بعض أصحابه انه استدعاهم قبل موته بيوم واحد واوصاهم بتقوى الله وقال لهم اني أسافر عنكم غدا ان شاء الله وخليفتي عليكم الله الذي لا اله الا هو فلما صلى الظهر من الغد قبضه الله في آخر سجدة منها ووجدوا في جانب الغار الذي كان يسكنه قبرا محفورا عليه الكفن والحنوط فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه به رحمه الله

﴿كرامة له أيضا﴾

ولما قصدت زيارة هذا الشيخ لقيني أربعة من أصحابه على مسيرة يومين من موضع سكناه فاخبروني ان الشيخ قال للفقراء الذين معه قد جاءكم سائح المغرب فاستقبلوه وانهم أتوا لذلك بامر الشيخ ولم يكن عنده علم بشئ من أمري وانما كوشف به وسرت معهم الى الشيخ فوصلت الى زاويته خارج الغار ولا عمارة عندها وأهل تلك البلاد من مسلم وكافر يقصدون زيارته ويأتون بالهدايا والتحف فيأكل منها الفقراء والواردون وأما الشيخ فقد اقتصر على بقرة يفطر على حليبها بعد عشر كما قدمنا ولما دخلت عليه قام الي وعانقني وسألني عن بلادي واسفاري فاخبرته فقال لي أنت مسافر العرب فقال له من حضر من أصحابه والعجم يا سيدنا فقال والعجم فاكرموه فاحتملوني الى الزاوية وأضافوني ثلاثة أيام

حكاية

﴿حكاية عجيبة فى ضمنها كرامات له﴾

ولما كان يوم دخولى الى الشيخ رأيت عليه فرجية مرعزفا عجبتنى وقلت فى نفسى ليت الشيخ اعطانيها فلما دخلت عليه للوداع قام الى جانب الغار وجرد الفرجية والبسنيها مع طاقية من رأسه ولبس مرقعة فاخبرنى الفقراء ان الشيخ لم تكن عادته ان يلبس تلك الفرجية وانما لبسها عند قدومى وانه قال لهم هذه الفرجية يطلبها المغربى ويأخذها منه سلطان كافر ويعطيها الاخينا برهان الدين الصاغرجى وهى له وبرسمه كانت فلما اخبرنى الفقراء بذلك قلت لهم قد حصلت لى بركة الشيخ بان كسانى لباسه وانا لا أدخل بهذه الفرجية على سلطان كافر ولا مسلم وانصرفت عن الشيخ فاتفق لى بعد مدة طويلة انى دخلت بلاد الصين وانتهيت الى مدينة الخنسا فافترق منى أصحابى لكثرة الزحام وكانت الفرجية علىّ فبينا أنا فى بعض الطرق اذا بالوزير فى موكب عظيم فوقع بصره علىّ فاستدعانى واخذ بيدى وسألنى عن مقدمى ولم يفارقنى حتى وصلت الى دار السلطان معه فاردت الانفصال فمنعنى وادخلنى على السلطان فسألنى عن سلاطين الاسلام فاجبته ونظر الى الفرجية فاستحسنها فقال لى الوزير جردها فلم يمكننى خلاف ذلك فاخذها وأمر لى بعشر خلع وفرس مجهز ونفقة وتغير خاطرى لذلك ثم تذكرت قول الشيخ انه يأخذها سلطان كافر فطال عجبى من ذلك ولما كان فى السنة الاخرى دخلت دار ملك الصين بخان بالق فقصدت زاوية الشيخ برهان الدين الصاغرجى فوجدته يقرأ والفرجية عليه بعينها فعجبت من ذلك وقلبتها بيدى فقال لى لم تقلبها وأنت تعرفها فقلت له نعم هى التى أخذها لى سلطان الخنسا فقال لى هذه الفرجية صنعها أخى جلال الدين برسمى وكتب الى ان الفرجية تصلك على يد فلان ثم أخرج لى الكتاب فقرأته وعجبت من صدق يقين الشيخ واعلمته باول الحكاية فقال لى اخى جلال الدين أكبر من ذلك كله هو يتصرف فى الكون وقد انتقل الى رحمة الله ثم قال لى بلغنى انه كان يصلى الصبح كل يوم بمكة وانه يحج كل عام لانه كان يغيب عن الناس يومى عرفة والعيد فلا يعرف أين ذهب ولما وادعت الشيخ جلال الدين سافرت الى مدينة حبنق (وضبط اسمها بفتح الحاء المهملة والباء الموحدة وسكون النون وقاف) وهى من أكبر المدن واحسنها يشقها النهر الذى ينزل من جبال كامرو ويسمى النهر الازرق ويسافر فيه الى بنجالة وبلاد اللكنوتى وعليه النواعير والبساتين والقرى يمنة ويسرة كما هى على نيل مصر وأهلها كفار تحت الذمة يؤخذ منهم نصف ما يزدرعون ووظائف سوى ذلك وسافرنا فى هذا النهر خمسة عشر يوما بين القرى والبساتين فكانا نمشى فى سوق من الاسواق وفيه من المراكب ما لا يحصى كثرة وفى كل مركب منها طبل فاذا التقى المركبان ضرب كل واحد طبله وسلم بعضهم على

بعض وأمر السلطان فخر الدين المذكور أن لا يؤخذ بذلك النهر من الفقراء نول وان يعطى الزاد لمن لا زاد له منهم واذا وصل الفقير الى مدينة اعطى نصف دينار وبعد خمسة عشر يوما من سفرنا في النهر كما ذكرناه وصلنا الى مدينة سنركاوان وسنر (بضم السين المهمل والنون وسكون الراء) وهي المدينة التي قبض أهلها على الفقير شيدا عندما لجأ اليها ولما وصلناها وجدنا بها جنكا يريد السفر الى بلاد الجاوة وبينهما أربعون يوما فركبنا فيه ووصلنا بعد خمسة عشر يوما الى بلاد البرهنكار الذين أفواههم كأفواه الكلاب (وضبطها بفتح الباء الموحدة والراء والنون والكاف وسكون الهاء) وهذه الطائفة من الهمج لا يرجعون الى دين الهنود ولا الى غيره وسكناهم في بيوت قصب مسقفة بحشيش الارض على شاطئ البحر وعندهم من أشجار الموز والفوفل والتنبول كثير ورجالهم على مثل صورنا الا ان أفواههم كافواه الكلاب وأما نساؤهم فلسن كذلك ولهن جمال بارع ورجالهم عرايا لا يستترون الا ان الواحد منهم يجعل ذكره وأنثييه في جعبة من القصب منقوشة معلقة في بطنه ويستتر نساؤهم باوراق الشجر ومعهم جماعة من المسلمين من أهل بنجالة والجاوة ساكنون في حارة على حدة اخبرونا انهم يتناكحون كالبهائم لا يستترون بذلك ويكون للرجل منهم ثلاثون امرأة فما دون ذلك أو فوقه وانهم لا يزنون واذا زنا أحد منهم فحد الرجل ان يصلب حتى يموت أو يؤتى صاحبه أو عبده فيصلب عوضا منه ويسرح هو وحد المرأة ان يأمر السلطان جميع خدامه فينكحونها واحدا بعد واحد بحضرته حتى تموت ويرمون بها في البحر ولاجل ذلك لا يتركون أحدا من أهل المراكب ينزل اليهم الا ان كان من المقيمين عندهم وانما يبايعون الناس ويشارونهم على الساحل ويسوقون اليهم الماء على الفيلة لانه بعيد من الساحل ولا يتركونهم لاستقائه خوفا على نسائهم لانهن يطمحن الى الرجال الحسان والفيلة كثيرة عندهم ولا يسعها أحد غير سلطانهم ثم تشترى منهم بالاثواب ولهم كلام غريب لا يفقهه الا من ساكنهم وأكثر التردد اليهم ولما وصلنا الى ساحلهم أتوا الينا في قوارب صغار كل قارب من خشبة واحدة منحوتة وجاؤا بالموز والارز والتنبول والفوفل والسمك

﴿ذكر سلطانهم﴾

وأتى الينا سلطانهم راكبا على فيل عليه شبه بردعة من الجلود ولباس السلطان ثوب من جلود المعزى وقد جعل الوبر الى خارج وفوق رأسه ثلاث عصائب من الحرير ملونات وفي يده حربة من القصب ومعه نحو عشرين من أقاربه على الفيلة فبعثنا اليه هدية من الفلفل والزنجبيل والقرفة والحوت الذي يكون بجزائر ذيبة المهل واثوابا بنجالية وهم لا يلبسونها انما يكسونها الفيلة في أيام عيدهم ولهذا السلطان على كل مركب ينزل ببلاده جارية ومملوك

وثياب

وثياب لكسوة الفيل وحلى ذهب تجعله زوجته فى محزمها واصابع رجليها ومن لم يعط هذه الوظيفة صنعوا له صحراء يجرى به البحر فيهلك أو يقارب الهلاك

﴿حكاية﴾

واتفق فى ليلة من ليالى اقامتنا برساهم ان غلاما لصاحب المركب ممن تردد الى هؤلاء الطائفة نزل من المركب ليلا وتواعد مع امرأة أحد كبرائهم الى موضع شبه الغار على الساحل وعلم بذلك زوجها فجاء فى جمع من أصحابه الى الغار فوجدهما به فحملا الى سلطانهم فامر بالغلام فقطعت انثياه وصلب وأمر بالمرأة فجامعها الناس حتى ماتت ثم جاء السلطان الى الساحل فاعتذر عما جرى وقال انا لا نجد بدا من امضاء احكامنا ووهب لصاحب المركب غلاما عوض الغلام المصلوب ثم سافرنا عن هؤلاء وبعد خمسة وعشرين يوما وصلنا الى جزيرة الجاوة (بالجيم) وهى التى ينسب اليها اللبان الجاوى رأيناها على مسيرة نصف يوم وهى خضرة نضرة وأكثر أشجارها النارجيل والفوفل والقرنفل والعود الهندى والشكى والبركى والعنبة والجون والنارنج الحلو وقصب الكافور وبيع أهلها وشراؤهم بقطع قصدير وبالذهب الصينى التبر غير المسبوك والكثير من أفاويه الطيب التى بها انما هو ببلاد الكفار منها وأما ببلاد المسلمين فهو أقل من ذلك ولما وصلنا المرسى خرج الينا اهلها فى مراكب صغار ومعهم جوز النارجيل والموز والعنبة والسمك وعادتهم ان يهدوا ذلك للتجار فيكافيهم كل انسان على قدره وصعد الينا أيضا نائب صاحب البحر وشاهد من معنا من التجار وأذن لنا فى النزول الى البر فنزلنا الى البندر وهى قرية كبيرة على ساحل البحر بها دور يسمونها السرحى (بفتح السين المهمل وسكون الراء وفتح الحاء المهمل) وبينها وبين البلد اربعة اميال ثم كتب بهروز نائب صاحب البحر الى السلطان فعرفه بقدومى فامر الامير دولسة بلقائى والقاضى الشريف اميرسيد الشيرازى وتاج الدين الاصبهانى وسواهم من الفقهاء فخرجوا لذلك وجاؤا بفرس من مراكب السلطان وافراس سواه فركبت وركب أصحابى ودخلنا الى حضرة السلطان وهى مدينة سمطرة (بضم السين المهمل والميم وسكون الطاء وفتح الراء) مدينة حسنة كبيرة عليها سور خشب وابراج خشب

﴿ذكر سلطان الجاوة﴾

وهو السلطان الملك الظاهر من فضلاء الملوك وكرمائهم شافعى المذهب محب فى الفقهاء يحضرون مجلسه للقراءة والمذاكرة وهو كثير الجهاد والغزو ومتواضع يأتى الى صلاة الجمعة ماشيا على قدميه وأهل بلاده شافعية محبون فى الجهاد يخرجون معه تطوعا وهم غالبون على من يليهم من الكفار والكفار يعطونهم الجزية على الصلح

﴿ذكر دخولنا الى داره واحسانه الينا﴾

ولما قصدنا الى دار السلطان وجدنا بالقرب منه رماحا مركوزة عن جانبى الطريق هى علامة على نزول الناس فلا يتجاوزها من كان راكبا فنزلنا عندها ودخلنا المشور فوجدنا نائب السلطان وهو يسمى عمدة الملك فقام الينا وسلم علينا وسلامهم بالمصافحة وقعدنا معه وكتب بطاقة الى السلطان يعلمه بذلك وختمها ودفعها لبعض الفتيان فاتاه الجواب على ظهرها ثم جاء أحد الفتيان ببقشة والبقشة (بضم الباء الموحدة وسكون القاف وفتح الشين المعجم) هى السبنية فاخذها النائب بيده واخذ بيدى وادخلنى الى دويرة يسمونها فردخانة على وزن زردخانة (الان أولها فاء) وهى موضع راحته بالنهار فان العادة ان يأتى نائب السلطان الى المشور بعد الصبح ولا ينصرف الا بعد العشاء الآخرة وكذلك الوزراء والامراء الكبار واخرج من البقشة ثلاث فوط احداها من خالص الحرير والاخرى حرير وقطن والاخرى حرير وكتان واخرج ثلاثة أثواب يسمونها التحتانيات من جنس الفوط وأخرج ثلاثة من الثياب مختلفة الاجناس تسمى الوسطانيات واخرج ثلاثة أثواب من الارمك احدها أبيض وأخرج ثلاث عمائم فلبست فوطة منها عوض السراويل على عادتهم وثوبا من كل جنس واخذ أصحابى مابقى منها ثم جاؤا بالطعام أكثره الارز ثم أتوا بنوع من الفقاع ثم أتوا بالتنبول وهو علامة الانصراف فاخذناه وقمنا وقام النائب لقيامنا وخرجنا عن المشور فركبنا وركب النائب معنا وأتوا بنا الى بستان عليه حائط خشب وفى وسطه دار بناؤها بالخشب مفروشة بقطائف قطن يسمونها المخملات (بالميم والخاء المعجم) ومنها مصبوغ وغير مصبوغ وفى البيت أسرة من الخيزران فوقها مضربات من الحرير ولحف خفاف ومخاد يسمونها البوالشت فجلسنا بالدار ومعنا النائب ثم جاء الامير دولسة بجاريتين وخادمين وقال لى يقول لك السلطان هذه على قدرنا لا على قدر السلطان محمد ثم خرج النائب وبقى الامير دولسة عندى وكانت بينى وبينه معرفة لانه كان ورد رسولا على السلطان بدهلى فقلت له متى تكون رؤية السلطان فقال لى ان العادة عندنا ان لا يسلم القادم على السلطان الا بعد ثلاث ليذهب عنه تعب السفر ويثوب اليه ذهنه فاقمنا ثلاثة أيام يأتى الينا الطعام ثلاث مرات فى اليوم وتأتينا الفواكه والطرف مساء وصباحا فلما كان اليوم الرابع وهو يوم الجمعة اتانى الامير دولسة فقال لى يكون سلامك على السلطان بمقصورة الجامع بعد الصلاة فاتيت المسجد وصليت به الجمعة مع حاجبه قيران (بفتح القاف وسكون الياء آخر الحروف وفتح الراء) ثم دخلت الى السلطان فوجدت القاضى أمير سيد والطلبة عن يمينه وشماله فصافحنى وسلمت عليه واجلسنى عن يساره وسألنى عن السلطان محمد وعن أسفارى فاجبته وعاد الى المذاكرة فى الفقه على

مذهب

مذهب الشافعي ولم يزل كذلك الى صلاة العصر فلما صلاها دخل بيتا هنالك فنزع الثياب التي كانت عليه وهي ثياب الفقهاء وبها يأتي المسجد يوم الجمعة ماشيا ثم لبس ثياب الملك وهي الاقبية من الحرير والقطن

﴿ذكر انصرافه الى داره وترتيب السلام عليه﴾

ولما خرج من المسجد وجد الفيلة والخيل على بابه والعادة عندهم انه اذا ركب السلطان الفيل ركب من معه الخيل واذا ركب الفرس ركبوا الفيلة ويكون أهل العلم عن يمينه فركب ذلك اليوم على الفيل وركبنا الخيل وسرنا معه الى المشور فنزلنا حيث العادة ودخل السلطان راكبا وقد اصطف في المشور الوزراء والامراء والكتاب وأرباب الدولة ووجوه العسكر صفوفا فاول الصفوف صف الوزراء والكتاب ووزراؤه اربعة فسلموا عليه وانصرفوا الى موضع وقوفهم ثم صف الامراء فسلموا ومضوا الى مواقفهم وكذلك تفعل كل طائفة ثم صف الشرفاء والفقهاء ثم صف الندماء والحكماء والشعراء ثم صف وجوه العسكر ثم صف الفتيان والمماليك ووقف السلطان على فيله ازاء قبة الجلوس ورفع فوق رأسه شطر مرصع وجعل عن يمينه خمسون فيلا مزينة وعن شماله مثلها وعن يمينه أيضا مائة فرس وعن شماله مثلها وهي خيل النوبة ووقف بين يديه خواص الحجاب ثم اتى أهل الطرب من الرجال فغنوا بين يديه وأتي بخيل مجللة بالحرير لها خلاخيل ذهب وارسان حرير مزركشة فرقصت الخيل بين يديه فعجبت من شأنها وكنت رأيت مثل ذلك عند ملك الهند ولما كان عند الغروب دخل السلطان الى داره وانصرف الناس الى منازلهم

﴿ذكر خلاف ابن أخيه وسبب ذلك﴾

وكان له ابن أخ متزوج بابنته فولاه بعض البلاد وكان الفتى يتعشق بنتا لبعض الامراء ويريد تزوجها والعادة هنالك انه اذا كانت لرجل من الناس اميرا أو سوقيا أو سواه بنت قد بلغت مبلغ النكاح فلا بد ان يستأمر للسلطان في شأنها ويبعث السلطان من النساء من تنظر اليها فان أعجبته صفتها تزوجها والا تركها يزوجها أولياؤها ممن يشاؤا والناس هنالك يرغبون في تزوج السلطان بناتهم لما يحوزون به من الجاه والشرف ولما استأمر والد البنت التي تعشقها ابن أخي السلطان بعث السلطان من نظر اليها وتزوجها واشتد شغف الفتى بها ولم يجد سبيلا اليها ثم ان السلطان خرج الى الغزو وبينه وبين الكفار مسيرة شهر فخالفه ابن أخيه الى سمطرة ودخلها اذ لم يكن عليها سور حينئذ وادعى الملك وبايعه بعض الناس وامتنع آخرون وعلم عمه بذلك فقفل عائدا اليها فاخذ ابن أخيه ما قدر عليه من الاموال والذخائر وأخذ الجارية التي تعشقها وقصد بلاد الكفار بل جاوة ولهذا بنى عمه السور على سمطرة وكانت

اقامتي عنده بسمطرة خمسة عشر يوما ثم طلبت منه السفر اذ كان أوانه ولا يتهيأ السفر الى الصين في كل وقت فجهز لنا جنكا وزودنا وأحسن وأجمل جزاه الله خيرا وبعث معنا من أصحابه من يأتي لنا بالضيافة الى الجنك وسافرنا بطول بلاده احدى وعشرين ليلة ثم وصلنا الى مل جاوة (بضم الميم) وهي بلاد الكفار وطولها مسيرة شهرين وبها الافاويه العطرة والعود الطيب القاقلي والقماري وقاقلة وقمارة من بعض بلادها وليس ببلاد السلطان الظاهر بالجاوة الا اللبان والكافور وشيء من القرنفل وشيء من العود الهندي وانما معظم ذلك بمل جاوة ولنذكر ما شاهدناه منها ووقفنا على أعيانه وحققناه

❊(ذكر اللبان)❊

وشجرة اللبان صغيرة تكون بقدر قامة الانسان الى ما دون ذلك وأغصانها كاغصان الخرشف وأوراقها صغار رقاق وربما سقطت فبقيت الشجرة منها دون ورقة واللبان صمغية تكون في أغصانها وهي في بلاد المسلمين أكثر منها في بلاد الكفار

❊(ذكر الكافور)❊

واما شجر الكافور فهي قصب كقصب بلادنا الا ان الانابيب منها اطول وأغلظ ويكون الكافور في داخل الانابيب فاذا كسرت القصبة وجد في داخل الانبوب مثل شكله من الكافور والسر العجيب فيه انه لا يتكون في تلك القصب حتى يذبح عند أصولها شيء من الحيوان والا لم يتكون شيء منه والطيب المتناهي في البرودة الذي يقتل منه وزن الدرهم بتجميد الروح وهو المسمى عندهم بالحردالة هو الذي يذبح عند قصبه الآدمي ويقوم مقام الآدمي في ذلك الفيلة الصغار

❊(ذكر العود الهندي)❊

وأما العود الهندي فشجره يشبه شجر البلوط الا ان قشره رقيق واوراقه كاوراق البلوط سواء ولا ثمر له وشجرته لا تعظم كل العظم وعروقه طويلة ممتدة وفيها الرائحة العطرة وأما عيدان شجرته وورقها فلا عطرية فيها وكل ما ببلاد المسلمين من شجره فهو متملك واما الذي في بلاد الكفار فأكثره غير متملك والمتملك منه ما كان بقاقلة وهو أطيب العود وكذلك القماري هو أطيب أنواع العود ويبيعونه لاهل الجاوة بالاثواب ومن القماري صنف يطبع عليه كالشمع وأما العطاس فانه يقطع العرق منه ويدفن في التراب أشهرا فتبقى فيه قوته وهو من أعجب أنواعه

❊(ذكر القرنفل)❊

وأما أشجار القرنفل فهي عادية ضخمة وهي ببلاد الكفار أكثر منها ببلاد الاسلام وليست بتملكة لكثرتها والمجلوب الى بلادنا منها هو العيدان والذي يسميه أهل بلادنا نوار القرنفل هو

الذى يسقط من زهره وهو شبيه بزهر النارنج وثمر القرنفل هو جوز بوا المعروفة فى بلادنا بجوزة الطيب والزهر المتكون فيها هو البسباسة رأيت ذلك كله وشاهدته ووصلنا الى مرسى قاقلة فوجدنا به جملة من الجنوك معدة للسرقة ولمن يستعصى عليهم من الجنوك فان لهم على كل جنك وظيفة ثم نزلنا من الجنك الى مدينة قاقلة وهى بقا فين آخرهما مضموم ولامها مفتوح وهى مدينة حسنة عليها سور من حجارة منحوتة عرضه بحيث تسير فيه ثلاثة من الفيلة وأوّل ما رأيت بخارجها الفيلة عليها الاحمال من العود الهندى يوقدونه فى بيوتهم وهو بقيمة الحطب عندنا أو أرخص ثمنا هذا اذا ابتاعوا فيما بينهم وأما للتجار فيبيعون الحمل منه بثوب من ثياب القطن وهى أغلى عندهم من ثياب الحرير والفيلة بها كثيرة جدا عليها يركبون ويحملون وكل انسان يربط فيلته على بابه وكل صاحب حانوت يربط فيله عنده يركبه الى داره ويحمل وكذلك جميع أهل الصين والخطا على مثل هذا الترتيب

﴿ذكر سلطان مل جاوة﴾

وهو كافر رأيته خارج قصره جالسا على قبة ليس بينه وبين الارض بساط ومعه أرباب دولته والعساكر يعرضون عليه مشاة ولا خيل هنالك الا عند السلطان وانما يركبون الفيلة وعليها يقاتلون فعرف شأنى فاستدعانى فجئت وقلت السلام على من اتبع الهدى فلم يفقهوا الا لفظ السلام فرحب بى وأمر ان يفرش لى ثوب أقعد عليه فقلت للترجمان كيف أجلس على الثوب والسلطان قاعد على الارض فقال هكذا عادته يقعد على الارض تواضعا وأنت ضيف وجئت من سلطان كبير فيجب اكرامك فجلست وسألنى عن السلطان فاوجز فى سؤاله وقال لى تقيم عندنا فى الضيافة ثلاثة أيام وحينئذ يكون انصرافك

﴿ذكر عجيبة رأيتها بمجلسه﴾

ورأيت فى مجلس هذا السلطان رجلا بيده سكين شبه سكين المسفر قد وضعه على رقبة نفسه وتكلم بكلام كثير لم افهمه ثم امسك السكين بيديه معا وقطع عنق نفسه فوقع رأسه لحدة السكين وشدة امساكه بالارض فعجبت من شأنه وقال لى السلطان أيفعل أحد هذا عندكم فقلت له ما رأيت هذا قط فضحك وقال هؤلاء عبيدنا يقتلون أنفسهم فى محبتنا وأمر به فرفع وأحرق وخرج لاحراقه النواب وأرباب الدولة والعساكر والرعايا وأجرى الرزق الواسع على أولاده وأهله واخوانه وعظموا لاجل فعله وأخبرنى من كان حاضرا فى ذلك المجلس ان الكلام الذى تكلم به كان تقرير المحبته فى السلطان وانه يقتل نفسه فى حبه كما قتل ابوه نفسه فى حب ابيه وجده نفسه فى حب جده ثم انصرفت عن المجلس وبعث الى بضيافة ثلاثة أيام وسافرنا فى البحر فوصلنا بعد أربعة وثلاثين يوما الى البحر الكاهل وهو الراكد وفيه حمرة زعموا انها من

تربة ارض تجاوره ولا ريح فيه ولا موج ولا حركة مع اتساعه ولاجل هذا البحر تتبع كل جنك من جنوك الصين ثلاثة مراكب كما ذكرناه تجذف به فتجره ويكون في الجنك مع ذلك نحو عشرين مجذافا كبارا كالصواري يجتمع على المجذاف منها ثلاثون رجلا أو نحوها ويقومون قياما صفين كل صف يقابل الآخر وفي المجذاف حبلان عظيمان كالطوابيس فتجذف احدى الطائفتين الحبل ثم تتركه وتجذف الطائفة الاخرى وهم يغنون عند ذلك باصواتهم الحسان وأكثر ما يقولون لعلى لعلى واقمنا على ظهر هذا البحر سبعة وثلاثين يوما وعجبت البحرية من التسهيل فيه فانهم يقيمون فيه خمسين يوما الى أربعين وهي انهى ما يكون من التيسير عليهم ثم وصلنا الى بلاد طوالسى وهي (بفتح الطاء المهمل والواو وكسر السين المهمل) وملكها هو المسمى بطوالسى وهي بلاد عريضة وملكها يضاهي ملك الصين وله الجنوك الكثيرة يقاتل بها أهل الصين حتى يصالحوه على شئ وأهل هذه البلاد عبدة أوثان حسان الصورة أشبه الناس بالترك في صورهم والغالب على الوانهم الحمرة ولهم شجاعة ونجدة ونساؤهم يركبن الخيل ويحسن الرماية ويقاتلن كالرجال سواء وارسينا من مراسيهم بمدينة كيلوكرى وضبطها بكاف مفتوح وياء آخر الحروف مسكنة ولام مضموم وكاف مفتوح وراء مكسور) وهي من أحسن مدنهم وأكبرها وكان يسكن بها ابن ملكهم فلما أرسينا بالمرسى جاءت عساكرهم ونزل الناخودة اليهم ومعه هدية لابن الملك فسألهم عنه فاخبروه ان أباه ولاه بلدا غيرهم وولى بنته بتلك المدينة (واسمها أردجا بضم الهمزة وسكون الراء وضم الدال المهمل وجيم)

﴿ذكر هذه الملكة﴾

ولما كان في اليوم الثاني من حلولنا بمرسى كيلوكرى استدعت هذه الملكة الناخودة صاحب المركب والكواني وهو الكاتب والتجار والرؤساء والتنديل وهو مقدم الرجال وسپاه سالار وهو مقدم الرماة لضيافة صنعتها لهم على عادتها ورغب الناخودة مني ان أحضر معهم فابيت لانهم كفار لا يجوز أكل طعامهم فلما حضروا عندها قالت لهم هل بقي أحد منكم لم يحضر فقال لها الناخودة لم يبق الا رجل واحد بخشي وهو القاضي بلسانهم وبخشي (بفتح الباء الموحدة وسكون الخاء وكسر الشين المعجمين) وهو لا يأكل طعامكم فقالت أدعوه فجاء جنادرتها وأصحاب الناخودة فقالوا أجب الملكة فاتيتها وهي بمجلسها الاعظم وبين يديها نسوة بايديهن الازمة يعرضن ذلك عليها وحولها النساء القواعد وهن وزراتها وقد جلسها تحت السرير على كراسي الصندل وبين يديها الرجال ومجلسها مفروش بالحرير وعليه ستور حرير وخشبه من الصندل وعليه صفائح الذهب وبالمجلس مساطب خشب منقوش عليها أواني ذهب كثيرة من كبار وصغار كالخوابي والقلال والبواقيل أخبرني الناخودة انها مملوءة بشراب

مصنوع

مصنوع من السكر مخلوط بالافاويه يشربونه بعد الطعام وانه عطر الرائحة حلو المطعم يفرح ويطيب النكهة ويهضم ويعين على الباءة فلما سلمت على الملكة قالت لى بالتركية حسن مسن يخشى مسن (خوشميسن يخشميسن) معناه كيف حالك كيف أنت وأجلستنى على قرب منها وكانت تحسن الكتاب العربى فقالت لبعض خدامها دواة وبتك كاتور (كتور) معناه الدواة والكاغد فأتى بذلك فكتبت بسم الله الرحمن الرحيم فقالت ما هذا فقلت لها تنضرى (تنكرى نام وتنضرى (بفتح التاء المعلوة وسكون النون وفتح الضاد وراء و ياء) ونام (بنون والف وميم) ومعنى ذلك اسم الله فقالت خشن (خوش) ومعناه جيد ثم سألتنى من أى البلاد قدمت فقلت لها من بلاد الهند فقالت بلاد الفلفل فقلت نعم فسألتنى عن تلك البلاد واخبارها فاجبتها فقالت لابد ان أغزوها وآخذها لنفسى فانى يعجبنى كثرة مالها وعساكرها فقلت لها افعلى وامرت لى باثواب وحمل فيلين من الارز وبجاموستين وعشر من الضأن وأربعة أرطال جلاب وأربعة مرطبانات وهى ضخمة مملوءة بالزنجبيل والفلفل والليمون والعنبا كل ذلك مملوح مما يستعد للبحر واخبرنى الناخودة ان هذه الملكة لها فى عسكرها نسوة وخدم وجوار يقاتلن كالرجال وانها تخرج فى العساكر من رجال ونساء فتغير على عدوّها وتشاهد القتال وتبارز الابطال واخبرنى انها وقع بينها وبين بعض اعدائها قتال شديد وقتل كثير من عسكرها وكادوا ينهزمون فدفعت بنفسها وخرقت الجيوش حتى وصلت الى الملك الذى كانت تقاتله فطعنته طعنة كان فيها حتفه فمات وانهزمت عساكره وجاءت برأسه على رمح فافتكه أهله منها بمال كثير فلما عادت الى أبيها ملكها تلك المدينة التى كانت بيد أخيها وأخبرنى ان أبناء الملوك يخطبونها فتقول لا اتزوج الا من يبارزنى فيغلبنى فيتحامون مبارزتها خوف المعرة ان غلبتهم ثم سافرنا عن بلاد طوالسى فوصلنا بعد سبعة عشر يوما والريح مساعدة لنا ونحن نسير بها أشد السير وأحسنه الى بلاد الصين واقليم الصين متسع كثير الخيرات والفواكه والزرع والذهب والفضة لا يضاهيه فى ذلك اقليم من اقاليم الارض ويخترقه النهر المعروف بآب حياة معنى ذلك ماء الحياة ويسمى ايضا نهر السبر (السرو) كاسم النهر الذى بالهند ومنبعه من جبال بقرب مدينة خان بالق تسمى كوه بوزنه معناه جبل القرود ويمر فى وسط الصين مسيرة ستة اشهر الى ان ينتهى الى صين الصين وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والاسواق كنيل مصر الا ان هذا أكثر عمارة وعليه النواعير الكثيرة وببلاد الصين السكر الكثير مما يضاهى المصرى بل يفضله والاعناب والاجاص وكنت أظن ان الاجاص العثمانى الذى بدمشق لا نظير له حتى رأيت الاجاص الذى بالصين وبها البطيخ

العجيب يشبه بطيخ خوارزم واصفهان وكل ما ببلادنا من الفواكه فان بها ما هو مثله واحسن منه والقمح بها كثير جدا ولم أر قمحا أطيب منه وكذلك العدس والحمص

ذكر الفخار الصيني

وأما الفخار الصيني فلا يصنع منها الا بمدينة الزيتون وبصين كلان وهو من تراب جبال هنالك تقد فيه النار كالفحم وسنذكر ذلك ويضيفون اليه حجارة عندهم ويوقدون النار عليها ثلاثة أيام ثم يصبون عليها الماء فيعود الجميع ترابا ثم يخمرونه فالجيد منه ما خمر شهرا كاملا ولا يزاد على ذلك والدون ما خمر عشرة أيام وهو هنالك بقيمة الفخار ببلادنا او أرخص ثمنا ويحمل الى الهند وسائر الاقاليم حتى يصل الى بلادنا بالمغرب وهو أبدع أنواع الفخار

ذكر دجاج الصين

ودجاج الصين وديوكها ضخمة جدا أضخم من الاوز عندنا وبيض الدجاج عندهم أضخم من بيض الاوز عندنا وأما الاوز عندهم فلا ضخامة لها ولقد اشترينا دجاجة فاردنا طبخها فلم يسع لحمها في برمة واحدة فجعلناها في برمتين ويكون الديك بها على قدر النعامه وربما انتتف ريشه فيبقى بضعة حمراء واول ما رأيت الديك الصيني بمدينة كولم فظننته نعامة وعجبت منه فقال لى صاحبه ان ببلاد الصين ما هو أعظم منه فلما وصلت الى الصين رأيت مصداق ما أخبرني به من ذلك

ذكر بعض من أحوال أهل الصين

وأهل الصين كفار يعبدون الاصنام ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود وملك الصين تترى من ذرية تنكيزخان وفي كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناهم ولهم فيها المساجد لاقامة الجمعات وسواها وهم معظمون محترمون وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبيعونها في أسواقهم وهم أهل رفاهية وسعة عيش الا انهم لا يحتفلون في مطعم ولا ملبس وترى التاجر الكبير منهم الذى لا تحصى أمواله كثرة وعليه جبة قطن خشنة وجميع أهل الصين انما يحتفلون في اواني الذهب والفضة ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه في المشي ويقولون هو الرجل الثالثة والحرير عندهم كثير جدا لان الدود تتعلق بالثمار وتأكل منها فلا تحتاج الى كثير مؤنة ولذلك كثر وهو لباس الفقراء والمساكين بها ولولا التجار لما كانت له قيمة ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالاثواب الكثيرة من الحرير وعادتهم ان يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعا تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه ويجعل ذلك على باب داره ومن كان له خمس قطع منها جعل في أصبعه خاتما ومن كانت له عشر جعل خاتمين ومن كان له خمس عشرة سموه الستى (بفتح السين المهمل وكسر

الثاء

التاء المعلوة) وهو بمعنى الكارمى بمصر ويسمون القطعة الواحدة منها بركالة (بفتح الباء الموحد وسكون الراء وفتح الكاف واللام)

﴿ ذكر دراهم الكاغد التى بها يبيعون ويشترون ﴾

وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعا كما ذكرناه وانما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد كل قطعة منها بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان وتسمى الخمس والعشرون قطعة منها بالشت (بباء موحدة والف ولام مكسور وشين معجم مسكن وتاء معلوة) وهو بمعنى الدينار عندنا واذا تمزقت تلك الكواغد فى يد انسان حملها الى دار كدار السكة عندنا فأخذ عوضها جددا ودفع تلك ولا يعطى على ذلك أجرة ولا سواها لان الذين يتولون عملها لهم الارزاق الجارية من قبل السلطان وقد وكل بتلك الدار أمير من كبار الامراء واذا مضى الانسان الى السوق بدرهم فضة او دينار يريد شراء شئ لم يؤخذ منه ولا يلتفت عليه حتى يصرفه بالبالشت ويشترى به ما أراد

﴿ ذكر التراب الذى يوقدونه مكان الفحم ﴾

وجميع أهل الصين والخطا انما فحمهم تراب عندهم منعقد كالطفل عندنا ولونه لون الطفل تأتى الفيلة بالاحمال منه فيقطعونه قطعا على قدر قطع الفحم عندنا ويشعلون النار فيه فيقد كالفحم وهو أشد حرارة من نار الفحم واذا صار رمادا عجنوه بالماء ويبسوه وطبخوا به ثانية ولا يزالون يفعلون به كذلك الى أن يتلاشى ومن هذا التراب يصنعون أوانى الفخار الصينى ويضيفون اليه حجارة سواه كما ذكرناه

﴿ ذكر ما خصوا به من احكام الصناعات ﴾

وأهل الصين أعظم الامم احكاما للصناعات وأشدهم اتقانا فيها وذلك مشهور من حالهم قد وصفه الناس فى تصانيفهم فاطنبوا فيه وأما التصوير فلا يجاريهم أحد فى احكامه من الروم ولا من سواهم فان لهم فيه اقتدارا عظيما ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك انى ما دخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت اليها الا ورأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة فى الحيطان والكواغد موضوعة فى الاسواق ولقد دخلت الى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين ووصلت الى قصر السلطان مع أصحابى ونحن على زى العراقيين فلما عدت من القصر عشيا مررت بالسوق المذكورة فرأيت صورتى وصورة أصحابى منقوشة فى كاغد قد الصقوه بالحائط فجعل كل واحد منا ينظر الى صورة صاحبه لا تخطئ شيأ من شبهه وذكر لى ان السلطان امرهم بذلك وأنهم أتوا الى القصر ونحن به فجعلوا ينظرون الينا ويصورون صورنا ونحن لم نشعر بذلك وتلك عادة لهم فى تصوير كل من يمر بهم وتنتهى حالهم فى ذلك الى ان الغريب اذا

فعل ما يوجب فراره عنهم بعثوا صورته الى البلاد وبحث عنه فحيثما وجد شبه تلك الصورة أخذ قال ابن جزى هذا مثل ما حكاه أهل التاريخ من قضية سابور ذى الاكتاف ملك الفرس حين دخل الى بلاد الروم متنكرا وحضر وليمة صنعها ملكهم وكانت صورته على بعض الاوانى فنظر اليها بعض خدام قيصر فانطبعت على صورة سابور فقال للملك ان هذه الصورة تخبرنى ان كسرى معنا فى هذا المجلس فكان الامر على ما قاله وجرى فيه ما هو مسطور فى الكتب

﴿ذكر عادتهم فى تقييد ما فى المراكب﴾

وعادة أهل الصين اذا أراد جنك من جنوكهم السفر صعد اليه صاحب البحر وكتابه وكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدام والبحرية وحينئذ يباح لهم السفر فاذا عاد الجنك الى الصين صعدوا اليه أيضا وقابلوا ما كتبوه باشخاص الناس فان فقدوا أحدا ممن قيدوه طلبوا صاحب الجنك به فاما ان يأتى ببرهان على موته أو فراره او غير ذلك مما يحدث عليه والا أخذ فيه فاذا فرغوا من ذلك أمروا صاحب المركب ان يملى عليهم تفسيرا بجميع ما فيه من السلع قليلها وكثيرها ثم ينزل من فيه ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم فان عثروا على سلعة قد كتمت عنهم عاد الجنك بجميع ما فيه مالا للمخزن وذلك نوع من الظلم ما رأيته ببلاد من بلاد الكفار ولا المسلمين الا بالصين اللهم الا انه كان بالهند ما يقرب منه وهو ان من عثر على سلعة له قد غاب على مغرمها أغرم احد عشر مغرما ثم رفع السلطان ذلك لما رفع المغارم

﴿ذكر عادتهم فى منع التجار عن الفساد﴾

واذا قدم التاجر المسلم على بلد من بلاد الصين خير فى النزول عند تاجر من المسلمين المتوطنين معين او فى الفندق فان أحب النزول عند التاجر حصر ماله وضمنه التاجر المستوطن وانفق عليه منه بالمعروف فاذا اراد السفر بحث عن ماله فان وجد شىء منه قد ضاع أغرمه التاجر المستوطن الذى ضمنه وان أراد النزول بالفندق سلم ماله لصاحب الفندق وضمنه وهو يشترى له ما أحب ويحاسبه فان أراد التسرى اشترى له جارية واسكنه بدار يكون بابها فى الفندق وانفق عليهما والجوارى رخيصات الاثمان الا ان أهل الصين أجمعين يبيعون أولادهم وبناتهم وليس ذلك عيبا عندهم غير انهم لا يجبرون على السفر مع مشتريهم ولا يمنعون أيضا منه ان اختاروه وكذلك ان أراد التزوج تزوج وأما انفاق ماله فى الفساد فشىء لا سبيل له اليه ويقولون لا نريد ان يسمع فى بلاد المسلمين انهم يخسرون أموالهم فى بلادنا فانها أرض فساد وحسن فائت

﴿ذكر حفظهم للمسافرين فى الطرق﴾

وبلاد الصين آمن البلاد واحسنها حالا للمسافر فان الانسان يسافر منفردا مسيرة تسعة أشهر وتكون معه الاموال الطائلة فلا يخاف عليها وترتيب ذلك ان لهم فى كل منزل ببلادهم فندقا عليه حاكم يسكن به فى جماعة من الفرسان والرجال فاذا كان بعد المغرب أو العشاء الآخرة جاء الحاكم الى الفندق ومعه كاتبه فكتب اسماء جميع من يبيت به من المسافرين وختم عليها واقفل باب الفندق عليهم فاذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه فدعا كل انسان باسمه وكتب بها تفسيرا وبعث معهم من يوصلهم الى المنزل الثانى له ويأتيه ببراءة من حاكمه ان الجميع قد وصلوا اليه وان لم يفعل طلبه بهم وهكذا العمل فى كل منزل ببلادهم من صين الصين الى خان بالق وفى هذه الفنادق جميع ما يحتاج اليه المسافر من الازواد وخصوصا الدجاج والاوز وأما الغنم فهى قليلة عندهم ولنعد الى ذكر سفرنا فنقول لما قطعنا البحر كانت اول مدينة وصلنا اليها مدينة الزيتون وهذه المدينة ليس بها زيتون ولا بجميع بلاد اهل الصين والهند ولكنه اسم وضع عليها وهى مدينة عظيمة كبيرة تصنع بها ثياب الكمخا والاطلس وتعرف بالنسبة اليها وتفضل على الثياب الخنساوية والخنبالقية ومرساها من أعظم مراسى الدنيا أو هو أعظمها رأيت به نحو مائة جنك كبار وأما الصغار فلا تحصى كثرة وهو خور كبير من البحر يدخل فى البر حتى يختلط بالنهر الاعظم وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للانسان بها البستان والارض وداره فى وسطها كمثل ما هى بلدة سجلماسة ببلادنا وبهذا اعظمت بلادهم والمسلمون ساكنون بمدينة على حدة وفى يوم وصولى اليها رأيت بها الامير الذى توجه الى الهند رسولا بالهدية ومضى فى صحبتنا وغرق به الجنك فسلم على وعرف صاحب الديوان بى فانزلنى فى منزل حسن وجاء الىّ قاضى المسلمين تاج الدين الاردويلى وهو من الافاضل الكرماء وشيخ الاسلام كمال الدين عبد الله الاصفهانى وهو من الصلحاء وجاء الىّ كبار التجار فيهم شرف الدين التبريزى أحد التجار الذين استدنت منهم حين قدومى على الهند واحسنهم معاملة حافظ القرآن مكثر للتلاوة وهؤلاء التجار لسكناهم فى بلاد الكفار اذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح وقالوا جاء من أرض الاسلام وله يعطون زكوات أموالهم فيعود غنيا كواحد منهم وكان بها من المشايخ الفضلاء برهان الدين الكازرونى له زاوية خارج البلد واليه يدفع التجار النذور التى ينذرونها للشيخ ابى اسحق الكازرونى ولما عرف صاحب الديوان اخبارى كتب الى القان وهو ملكهم الاعظم يخبره بقدومى من جهة ملك الهند فطلبت منه ان يبعث معى من يوصلنى الى بلاد الصين (صين الصين) وهم يسمونها صين كلان لاشاهد تلك البلاد وهى فى عمالته بخلال ما يعود جواب القان فاجاب الى ذلك وبعث معى من أصحابه

من يوصلنى وركبت فى النهر فى مركب يشبه أجفان بلادنا الغزوية الان الجذافين يجذفون فيه قياما وجميعهم فى وسط المركب والركاب فى المقدم والمؤخر ويظللون على المركب بثياب تصنع من نبات ببلادهم يشبه الكتان وليس به وهو أرق من القنب وسافرنا فى هذا النهر سبعة وعشرين يوما وفى كل يوم نرسو عند الزوال بقرية نشترى بها ما نحتاج اليه ونصلى الظهر ثم ننزل بالعشى الى أخرى هكذا الى أن وصلنا الى مدينة صين كلان (بفتح الكاف) وهى مدينة صين الصين وبها يصنع الفخار وبالزيتون أيضا وهنالك يصب نهر آب حياة فى البحر ويسمونه مجمع البحرين وهى من اكبر المدن وأحسنها اسواقا ومن أعظم أسواقها سوق الفخار ومنها يحمل الى سائر بلاد الصين والى الهند واليمن وفى وسط هذه المدينة كنيسة عظيمة لها تسعة أبواب داخل كل باب اسطوان ومصاطب يقعد عليه الساكنون بها وبين البابين الثانى والثالث منها موضع فيه بيوت يسكنها العميان وأهل الزمانات ولكل واحد منهم نفقته وكسوته من أوقاف الكنيسة وكذلك فيما بين الابواب كلها وفى داخلها المارستان للمرضى والمطبخة لطبخ الاغذية وفيها الاطباء والخدام وذكر لى ان الشيوخ الذين لا قدرة لهم على التكسب لهم نفقتهم وكسوتهم بهذه الكنيسة وكذلك الايتام والارامل ممن لا مال لهم وعمر هذه الكنيسة بعض ملوكهم وجعل هذه المدينة وما واليها من القرى والبساتين وقفا عليها وصورة ذلك الملك مصورة بالكنيسة المذكورة وهم يعبدونها وفى بعض جهات هذه المدينة بلدة المسلمين لهم بها المسجد الجامع والزاوية والسوق ولهم قاض وشيخ ولا بدّ فى كل بلد من بلاد الصين من شيخ الاسلام تكون أمور المسلمين كلها راجعة اليه وقاض يقضى بينهم وكان نزولى عند أوحد الدين السنجارى وهو أحد الفضلاء الاكابر ذوى الاموال الطائلة وأقمت عنده أربعة عشر يوما وتحف القاضى وسائر المسلمين تتوالى على وكل يوم يصنعون دعوة جديدة ويأتون اليها بالعشارين الحسان والمغنين وليس وراء هذه المدينة مدينة لا للكفار ولا للمسلمين وبينها وبين سد يأجوج ومأجوج ستون يوما فيما ذكر لى يسكنها كفار رحالة يأكلون بنى آدم اذا ظفروا بهم ولذلك لا تسلك بلادهم ولا يسافر اليها ولم أر بتلك البلاد من رأى السد ولا من رأى من رآه

﴿حكاية عجيبة﴾

ولما كنت بصين كلان سمعت ان بها شيخا كبيرا قد أناف على مائتى سنة وانه لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث ولا يباشر النساء مع قوته التامة وانه ساكن فى غار بخارجها يتعبد فيه فتوجهت الى الغار فرأيته على بابه وهو نحيف شديد الحمرة عليه أثر العبادة ولا لحية له فسلمت عليه فامسك يدى وشمها وقال للترجمان هذا من طرف الدنيا كما نحن من طرفها الآخر ثم

قال

قال لى لقد رأيت عجبا أتذكر يوم قدومك الجزيرة التى فيها الكنيسة والرجل الذى كان جالسا بين الاصنام واعطاك عشرة دنانير من الذهب فقلت نعم فقال أنا هو فقبلت يده وفكر ساعة ثم دخل الغار فلم يخرج الينا وكأنه ظهر منه الندم على ما تكلم به فتهجمنا ودخلنا الغار عليه فلم نجده ووجدنا بعض أصحابه ومعه جملة بوالشت من الكاغد فقال هذه ضيافتكم فانصرفوا فقلنا له ننتظر الرجل فقال لو أقمتم عشر سنين لم تروه فان عادته اذا اطلع أحد على سر من أسراره لايراه بعده ولا تحسب انه غاب عنك بل هو حاضر معك فعجبت من ذلك وانصرفت فاعلمت القاضى وشيخ الاسلام واوحد الدين السنجارى بقضيته فقالوا كذلك عادته مع من يأتى اليه من الغرباء ولا يعلم أحد ما ينتحله من الاديان والذى ظننتموه أحد أصحابه هو هو وأخبرونى انه كان غاب عن هذه البلاد نحو خمسين سنة ثم قدم عليها منذ سنة وكان السلاطين والامراء والكبراء يأتونه زائرين فيعطيهم التحف على أقدارهم ويأتيه الفقراء كل يوم فيعطى لكل أحد على قدره وليس فى الغار الذى هو به ما يقع عليه البصر وانه يحدث عن السنين الماضية ويذكر النبى صلى الله عليه وسلم ويقول لو كنت معه لنصرته ويذكر الخليفتين عمر بن الخطاب وعلى ابن أبى طالب باحسن الذكر ويثنى عليهما ويلعن يزيد بن معاوية ويقع فى معاوية وحدثونى عنه بامور كثيرة واخبرنى أوحد الدين السنجارى قال دخلت عليه بالغار فاخذ بيدى فخيل لى انى فى قصر عظيم وانه قاعد فيه على سرير وفوق رأسه تاج وعن جانبيه الوصائف الحسان والفواكه تتساقط فى أنهار هنالك وتخيلت انى أخذت تفاحة لآكلها فاذا أنا بالغار وبين يديه وهو يضحك منى وأصابنى مرض شديد لازمنى شهورا فلم أعد اليه وأهل تلك البلاد يعتقدون انه مسلم لكن لم يره أحد يصلى وأما الصيام فهو صائم أبدا وقال لى القاضى ذكرت له الصلاة فى بعض الايام فقال لى اتدرى أنت ما أصنع ان صلاتى غير صلاتك واخباره كلها غريبة وفى اليوم الثانى من لقائه سافرت راجعا الى مدينة الزيتون وبعد وصولى اليها بايام جاء أمر القان بوصولى الى حضرته على البر والكرامة ان شئت فى النهر والا ففى البر فاخترت السفر فى النهر فجهزوا لى مركبا حسنا من المراكب المعدة لركوب الامراء وبعث الامير معنا أصحابه ووجه لنا الامير والقاضى والتجار المسلمون أزوادا كثيرة وسرنا فى الضيافة نتغدى بقرية ونتعشى باخرى فوصلنا بعد سفر عشرة أيام الى مدينة قنجنفو (وضبط اسمها بفتح القاف وسكون النون وفتح الجيم وسكون النون الآخر وضم الفاء وواو) مدينة كبيرة حسنة فى بسيط أفيح والبساتين محدقة بها فكانها غوطة دمشق وعند وصولنا خرج الينا القاضى وشيخ الاسلام والتجار ومعهم الاعلام والطبول والابواق والانفار وأهل الطرب وأتونا بالخيل

فركبنا ومشوا بين أيدينا لم يركب معنا غير القاضي والشيخ وخرج امير البلد وخدامه وضيف السلطان عندهم معظم أشد التعظيم ودخلنا المدينة ولها أربعة أسوار يسكن ما بين السور الاول والثاني عبيد السلطان من حراس المدينة وسمارها ويسمون البصوانان (الپاسوانان) (بفتح الباء الموحدة وسكون الصاد المهمل وواو والف ونون والف ونون) ويسكن ما بين السور الثاني والثالث الجنود المركبون والامير الحاكم على البلد ويسكن داخل السور الثالث المسلمون وهنالك نزلنا عند شيخهم ظهير الدين القرلاني (بضم القاف وسكون الراء) ويسكن داخل السور الرابع الصينيون وهو أعظم المدن الاربعة ومقدار ما بين كل باب منها والذي يليه ثلاثة اميال وأربعة ولكل انسان كما ذكرناه بستانه وداره وأرضه

(حكاية)

وبينا أنا يوما في دار ظهير الدين القرلاني اذا بمركب عظيم لبعض الفقهاء المعظمين عندهم فاستؤذن له علي وقالوا مولانا قوام الدين السبتي فعجبت من اسمه ودخل الي فلما حصلت المؤانسة بعد السلام سنح لي اني أعرفه فاطلت النظر اليه فقال اراك تنظر الي نظر من يعرفني فقلت له من أي البلاد أنت فقال من سبتة فقلت له وأنا من طنجة فجدد السلام علي وبكى حتى بكيت لبكائه فقلت له هل دخلت بلاد الهند فقال لي نعم دخلت حضرة دهلي فلما قال لي ذلك تذكرت له وقلت أأنت البشري قال نعم وكان وصل الى دهلي مع خاله أبي القاسم المرسي وهو يومئذ شاب لا نبات بعارضيه من حذاق الطلبة يحفظ الموطأ وكنت أعلمت سلطان الهند بامره فاعطاه ثلاثة آلاف دينار وطلب منه الاقامة عنده فابى وكان قصده في بلاد الصين فعظم شأنه بها واكتسب الاموال الطائلة أخبرني ان له نحو خمسين غلاما ومثلهم من الجواري واهدى الي منهم غلامين وجاريتين وتحفا كثيرة ولقيت أخاه بعد ذلك ببلاد السودان فيا بعد ما بينهما وكانت اقامتي بقنجنفو خمسة عشر يوما وسافرت منها وبلاد الصين على ما فيها من الحسن لم تكن تعجبني بل كان خاطري شديد التغير بسبب غلبة الكفر عليها فمتى خرجت عن منزلي رأيت المناكير الكثيرة فاقلقني ذلك حتى كنت ألازم المنزل فلا أخرج الا لضرورة وكنت اذا رأيت المسلمين بها فكأني لقيت أهلي وأقاربي ومن تمام فضيلة هذا الفقيه البشري ان سافر معي لما رحلت عن قنجنفو أربعة أيام حتى وصلت الى مدينة بيوم قطلو (وهي بباء موحدة مفتوحة وياء آخر الحروف ساكنة وواو مفتوحة وميم وقاف مضموم وطاء مسكنة ولام مضموم وواو) مدينة صغيرة يسكنها الصينيون من جند وسوقة وليس بها للمسلمين الا أربعة من الدور أهلها من جهة الفقيه المذكور نزلنا بدار أحدهم وأقمنا عنده ثلاثة أيام ثم ودعت الفقيه وانصرفت فركبت النهر على العادة نتغدى بقرية ونتعشى

بأخرى

بأنهر الى ان وصلنا بعد سبعة عشر يوما منها الى مدينة الخنسا واسمها على نحو اسم الخنسا الشاعرة ولا أدرى أعربى هو أم وافق العربى وهذه المدينة أكبر مدينة رأيتها على وجه الارض طولها مسيرة ثلاثة أيام يرحل المسافر فيها وينزل وهى على ما ذكرناه من ترتيب عمارة الصين كل أحد له بستانه وداره وهى منقسمة الى ست مدن سنذكرها وعند وصولنا اليها خرج الينا قاضيها أفخر الدين وشيخ الاسلام بها وأولاد عثمان بن عفان المصرى وهم كبراء المسلمين بها ومعهم علم أبيض والاطبال والانفار والابواق وخرج أميرها فى موكبه ودخلنا المدينة وهى ست مدن على كل مدينة سور ويحدق بالجميع سور واحد فأول مدينة منها يسكنها حراس المدينة وأميرهم حدثنى القاضى وسواه انهم اثنا عشر ألفا فى زمام العسكرية وبتنا ليلة دخولنا فى دار أميرهم وفى اليوم الثانى دخلنا المدينة الثانية على باب يعرف بباب اليهود ويسكن بها اليهود والنصارى والترك عبدة الشمس وهم كثير وأمير هذه المدينة من أهل الصين وبتنا عنده الليلة الثانية وفى اليوم الثالث دخلنا المدينة الثالثة ويسكنها المسلمون ومدينتهم حسنة وأسواقهم مرتبة كترتيبها فى بلاد الاسلام وبها المساجد والمؤذنون سمعناهم يؤذنون بالظهر عند دخولنا ونزلنا منها بدار أولاد عثمان بن عفان المصرى وكان أحد التجار الكبار استحسن هذه المدينة فاستوطنها وعرفت بالنسبة اليه وأورث عقبه بها الجاه والحرمة وهم على ما كان عليه أبوهم من الايثار على الفقراء والاعانة للمحتاجين ولهم زاوية تعرف بالعثمانية حسنة العمارة لها أوقاف كثيرة وبها طائفة من الصوفية وبنى عثمان المذكور المسجد الجامع بهذه المدينة ووقف عليه وعلى الزاوية أوقافا عظيمة وعدد المسلمين بهذه المدينة كثير وكانت اقامتنا عندهم خمسة عشر يوما فكنا كل يوم وليلة فى دعوة جديدة ولا يزالون يحتفلون فى أطعمتهم ويركبون معنا كل يوم للنزهة فى أقطار المدينة وركبوا معى يوما فدخلنا الى المدينة الرابعة وهى دار الامارة وبها سكنى الامير الكبير قرطى ولما دخلنا من بابها ذهب عنى أصحابى ولقينى الوزير وذهب بى الى دار الامير الكبير قرطى فكان من أخذه الفرجية التى أعطانيها ولى الله جلال الدين الشيرازى ما قد ذكرته وهذه المدينة منفردة لسكنى عبيد السلطان وخدامه وهى أحسن المدن الست ويشقها أنهار ثلاثة أحدها خليج يخرج من النهر الاعظم وتأتى فيه القوارب الصغار الى هذه المدينة بالمرافق من الطعام وأحجار الوقد وفيه السفن للنزهة والمشور فى وسط هذه المدينة وهو كبير جدا ودار الامارة فى وسطه وهو يحف بها من جميع الجهات وفيه سقائف فيها الصناع يصنعون الثياب النفيسة وآلات الحرب أخبرنى الامير قرطى ان عددهم ألف وستمائة معلم كل واحد منهم يتبعه الثلاثة والاربعة من المتعلمين وهم أجمعون عبيد القان وفى أرجلهم القيود ومساكنهم خارج القصر ويباح لهم

الخروج الى أسواق المدينة دون الخروج على بابها ويعرضون كل يوم على الامير مائة مائة فان نقص أحدهم طلب به أميره وعادتهم انه اذا خدم أحدهم عشر سنين فك عنه قيده وكان يخير في النظرين اما ان يقيم في الخدمة غير مقيد واما ان يسير حيث شاء من بلاد القان ولا يخرج عنها واذا بلغ سنه خمسين عاما أعتق من الاشغال وأنفق عليه وكذلك ينفق على من بلغ هذه السن أو نحوها من سواهم ومن بلغ ستين سنة عدوه كالصبي فلم تجر عليه الاحكام والشيوخ بالصين يعظمون تعظيما كثيرا ويسمى أحدهم آطا ومعناه الوالد

﴿ذكر الامير الكبير قرطى﴾

وضبط اسمه (بضم القاف وسكون الراء وفتح الطاء المهمل وسكون الياء) وهو أمير أمراء الصين اضافنا بداره وصنع الدعوة ويسمونها الطوى (بضم الطاء المهملة وفتح الواو) وحضرها كبار المدينة وأتى بالطباخين المسلمين فذبحوا وطبخوا الطعام وكان هذا الامير على عظمته يناولنا الطعام بيده ويقطع اللحم بيده وأقمنا في ضيافته ثلاثة أيام وبعث ولده معنا الى الخليج فركبنا في سفينة تشبه الحراقة وركب ابن الامير في أخرى ومعه أهل الطرب وأهل الموسيقى وكانوا يغنون بالصيني وبالعربي وبالفارسي وكان ابن الامير معجبا بالغناء الفارسي فغنوا شعرا منه وأمرهم بتكريره مرارا حتى حفظته من أفواههم وله تلحين عجيب وهو (رجز)

تا دل بمحنت داديم * در بحر فكر افتاديم
چن (چون) در نماز استاديم * قوى بمحراب اندرى (اندريم)

واجتمعت بذلك الخليج من السفن طائفة كبيرة لهم القلاع الملونة ومظلات الحرير وسفنهم منقوشة أبدع نقش وجعلوا يتحاملون ويترامون بالنارنج والليمون وعدنا بالعشي الى دار الامير فبتنا بها وحضر أهل الطرب فغنوا بانواع من الغناء العجيب

﴿حكاية المشعوذ﴾

وفي تلك الليلة حضر أحد المشعوذة وهو من عبيد القان فقال له الامير أرنا من عجائبك فاخذ كرة خشب لها ثقب فيها سيور طوال فرمى بها الى الهواء فارتفعت حتى غابت عن الابصار ونحن في وسط المشور أيام الحر الشديد فلما لم يبق من السير في يده الا يسير أمر متعلما له فتعلق به وصعد في الهواء الى ان غاب عن أبصارنا فدعاه فلم يجبه ثلاثا فاخذ سكينا بيده كالمغتاظ وتعلق بالسير الى ان غاب أيضا ثم رمى بيد الصبي الى الارض ثم رمى برجله ثم بيده الاخرى ثم برجله الاخرى ثم بجسده ثم برأسه ثم هبط وهو ينفخ وثيابه ملطخة بالدم فقبل الارض بين يدي الامير وكلمه بالصيني وأمر له الامير بشيء ثم انه أخذ أعضاء الصبي فالصق بعضها ببعض وركضه برجله فقام سويا فعجبت منه وأصابني خفقان القلب كمثل ما كان أصابني عند

ملك

ملك الهند حين رأيت مثل ذلك فسقوني دواء اذهب عني ما وجدت وكان القاضي أفخر الدين الى جانبي فقال لي والله ما كان من صعود ولا نزول ولا قطع عضو وانما ذلك شعوذة وفي غد تلك الليلة دخلنا من باب المدينة الخامسة وهي أكبر المدن يسكنها عامة الناس وأسواقها حسان وبها الحذاق بالصنائع وبها تصنع الثياب الخنساوية ومن عجيب ما يصنعون بها الطباقا يسمونها الدست وهي من القصب وقد ألصقت قطعة أبدع الصاق ودهنت بصبغ أحمر مشرق وتكون هذه الاطباق عشرة واحدا في جوف آخر لطو رقتها تظهر لرائيها كانها طبق واحد ويصنعون غطاء يغطي جميعها ويصنعون من هذا القصب صحافا ومن عجائبها ان تقع من العلو فلا تنكسر ويجعل فيها الطعام السخن فلا يتغير صباغها ولا يحول وتجلب من هنالك الى الهند وخراسان وسواها ولما دخلنا هذه المدينة بتنا ليلة في ضيافة أميرها وبالغد دخلنا من باب يسمى كشتي وانان الى المدينة السادسة ويسكنها البحرية والصيادون والجلافطة والنجارون ويدعون دودكاران (درودكران) والاصباهية وهم الرماة والپيادة وهم الرجال وجميعهم عبيد السلطان ولا يسكن معهم سواهم وعددهم كثير وهذه المدينة على ساحل النهر الاعظم بتنا بها ليلة في ضيافة أميرها وجهزلنا الامير قرطي مركبا بما يحتاج اليه من زاد وسواه وبعث معنا أصحابه برسم التضييف وسافرنا من هذه المدينة وهي آخر اعمال الصين ودخلنا الى بلاد الخطا (بكسر الخاء المعجم وطاء مهمل) وهي أحسن بلاد الدنيا عمارة ولا يكون في جميعها موضع غير معمور فانه ان بقي موضع غير معمور طلب أهله أو من يواليهم بخراجه والبساتين والقرى والمزارع منتظمة بجانبي هذا النهر من مدينة الخنسا الى مدينة خان بالق وذلك مسيرة أربعة وستين يوما وليس بها أحد من المسلمين الا من كان خاطرا غير مقيم لانها ليست بدار مقام وليس بها مدينة مجتمعة انما هي قرى وبسائط فيها الزرع والفواكه والسكر ولم أر في الدنيا مثلها غير مسيرة أربعة أيام من الانبار الى عانة وكنا كل ليلة ننزل بالقرى لاجل الضيافة حتى وصلنا الى مدينة خان بالق (وضبط اسمها بخاء معجم وألف ونون مسكن وباء معقودة وألف ولام مكسور وقاف) وتسمى أيضا خانقو (بخاء معجم ونون مكسور وقاف وواو) وهي حضرة القان والقان هو سلطانهم الاعظم الذي مملكته بلاد الصين والخطا ولما وصلنا اليها ارسينا على عشرة أميال منها على العادة عندهم وكتب الى أمراء البحر بخبرنا فاذنوا لنا في دخول مرساها فدخلناه ثم نزلنا الى المدينة وهي من أعظم مدن الدنيا وليست على ترتيب بلاد الصين في كون البساتين داخلها انما هي كسائر البلاد والبساتين بخارجها ومدينة السلطان في وسطها كالقصبة حسبما نذكره ونزلت عند الشيخ برهان الدين الصاغرجي وهو الذي بعث اليه ملك الهند بأربعين ألف دينار واستدعاه فاخذ الدنانير وقضى بها دينه

وأبى ان يسير اليه وقدم على بلاد الصين فقدمه القان على جميع المسلمين الذين ببلاده وخاطبه بصدر الجهان

ذكر سلطان الصين والخطا الملقب بالقان

والقان عندهم سمة لكل من يلى الملك ملك الاقطار كمثل ما يسمى كل من ملك بلاد اللور باتابك واسمه باشاى (بفتح الباء المعقوده والشين المعجمة وسكون الياء) وليس للكفار على وجه الارض مملكة أعظم من مملكته

ذكر قصره

وقصره فى وسط المدينة المختصة بسكناه وأكثر عمارته بالخشب المنقوش وله ترتيب عجيب وعليه سبعة أبواب فالباب الاوّل منها يجلس به الكتوال وهو أمير البوّابين وله مصاطب مرتفعة عن يمين الباب و يساره فيها المماليك البردداريه وهم حفاظ باب القصر وعددهم خمسمائة رجل وأخبرت انهم كانوا فيما تقدّم ألف رجل والباب الثانى يجلس عليه الاصباهية وهم الرماة وعددهم خمسمائة والباب الثالث يجلس عليه النزارية (بالنون والزاى) وهم أصحاب الرماح وعددهم خمسمائة والباب الرابع يجلس عليه التغدارية (بالتاء المثناة والغين المعجم) وهم أصحاب السيوف والترسة والباب الخامس فيه ديوان الوزاره وبه سقائف كثيره فالسقيفة العظمى يقعد بها الوزير على مرتبة هائلة مرتفعة ويسمون ذلك الموضع المسند وبين يدى الوزير دواة عظيمة من الذهب وتقابل هذه السقيفة سقيفة كاتب السر وعن يمينها سقيفة كتاب الرسائل وعن يمين سقيفة الوزير سقيفة كتاب الاشغال وتقابل هذه السقائف سقائف أربع احداها تسمى ديوان الاشراف يقعد بها المشرف والثانية سقيفة ديوان المستخرج وأميرها من كبار الامراء والمستخرج هو ما يبقى قبل العمال وقبل الامراء من إقطاعاتهم والثالثة ديوان الغوث ويجلس فيها أحد الامراء الكبار ومعه الفقهاء والكتاب فمن لحقته مظلمة استغاث بهم والرابعة ديوان البريد يجلس فيها أمير الاخباريين والباب السادس من أبواب القصر يجلس عليه الجندارية وأميرهم الاعظم والباب السابع يجلس عليه الفتيان ولهم ثلاث سقائف احداها سقيفة الحبشان منهم والثانية سقيفة الهنود والثالثة سقيفة الصينيين ولكل طائفة منهم أمير من الصينيين

ذكر خروج القان لقتال ابن عمه وقتله

ولما وصلنا حضرة خان بالق وجدنا القان غائبا عنها إذ ذاك وخرج للقاء ابن عمه فيروز القائم عليه بناحية قراقرم و بش بالغ من بلاد الخطا وبينها وبين الحضرة مسيرة ثلاثة أشهر عامره وأخبرنى صدر الجهان برهان الدين الصاغرجى ان القان لما جمع الجيوش وحشد الحشود

اجتمع

اجتمع عليه من الفرسان مائة فوج كل فوج منها من عشرة آلاف فارس واميرهم يسمى اميرطومان وكان خواص السلطان وأهل دخلته خمسين الفا زائدا الى ذلك وكانت الرجالة خمسمائة الف ولما خرج خالف عليه أكثر الامراء واتفقوا على خلعه لانه كان قد غير احكام اليساق وهى الاحكام التى وضعها تنكيزخان جدهم الذى خرب بلاد الاسلام فمضوا الى ابن عمه القائم وكتبوا الى القان ان يخلع نفسه وتكون مدينة الخنسا اقطاعا له فابى ذلك وقاتلهم فانهزم وقتل وبعد أيام من وصولنا الى حضرته ورد الخبر بذلك فزينت المدينة وضربت الطبول والابواق والانفار واستعمل اللعب والطرب مدة شهر ثم جىء بالقان المقتول وبنحو مائة من المقتولين بنى عمه وأقاربه وخواصه فحفر للقان ناووس عظيم وهو بيت تحت الارض وفرش باحسن الفرش وجعل فيه القان بسلاحه وجعل معه ما كان فى داره من أوانى الذهب والفضة وجعل معه أربع من الجوارى وستة من خواص المماليك معهم أوانى شراب وبنى باب البيت وجعل فوقه التراب حتى صار كالتل العظيم ثم جاؤا باربعة أفراس فاجروها عند قبره حتى وقفت ونصبوا خشبا على القبر وعلقوها عليه بعد ان ادخلوا فى دبر كل فرس خشبة حتى خرجت من فمه وجعل أقارب القان المذكورون فى نواويس ومعهم سلاحهم واوانى دورهم وصلبوا على قبور كبارهم وكانوا عشرة ثلاثة من الخيل على كل قبر وعلى قبور الباقين فرسا فرسا وكان هذا اليوم يوما مشهودا لم يتخلف عنه أحد من الرجال ولا النساء المسلمين والكفار وقد لبسوا أجمعين ثياب العزاء وهى الطيالسة البيض للكفار والثياب البيض للمسلمين واقام خواتين القان وخواصه فى الاخبية على قبره أربعين يوما وبعضهم يزيد على ذلك الى سنة وصنعت هنالك سوق يباع فيها ما يحتاجون اليه من طعام وسواه وهذه الافعال لا أذكر ان أمة تفعلها سواهم فى هذا العصر فاما الكفار من الهنود واهل الصين فيحرقون موتاهم وسواهم من الامم يدفنون الميت ولا يجعلون معه أحدا لكن أخبرنى الثقاة ببلاد السودان ان الكفار منهم اذا مات ملكهم صنعوا له ناووسا وادخلوا معه بعض خواصه وخدامه وثلاثين من أبناء كبارهم وبناتهم بعد ان يكسروا أيديهم وأرجلهم ويجعلون معهم أوانى الشراب وأخبرنى بعض كبار مسوفة ممن يسكن بلاد كوبر مع السودان واختصه سلطانهم انه كان له ولد فلما مات سلطانهم ارادوا ان يدخلوا ولده مع من أدخلوه من أولادهم قال فقلت لهم كيف تفعلون ذلك وليس على دينكم ولا من ولدكم وفديته منهم بمال عريض ولما قتل القان كما ذكرناه واستولى ابن عمه فيروز على الملك اختار ان تكون حضرته مدينة قراقرم (وضبطها بفتح القاف الاولى والراء وضم الثانية وضم الراء الثانية) لقربها من بلاد بنى عمه ملوك

تركستان وما وراء النهر ثم خالفت عليه الامراء ممن لم يحضر لقتل القان وقطعوا الطرق وعظمت الفتن

﴿ذكر رجوعي الى الصين ثم الى الهند﴾

ولما وقع الخلاف وتسعرت الفتن اشار على الشيخ برهان الدين وسواه ان أعود الى الصين قبل تمكن الفتن ووقفوا معي الى نائب السلطان فيروز فبعث معي ثلاثة من أصحابه وكتب لى بالضيافة وسرنا منحدرين في النهر الى الخنسا ثم الى قنجنفو ثم الى الزيتون فلما وصلتها وجدت الجنوك على السفر الى الهند وفي جملتها جنك للملك الظاهر صاحب الجاوة اهله مسلمون وعرفني وكيله وسر بقدومي وصادفنا الريح الطيبة عشرة أيام فلما قاربنا بلاد طوالسي تغيرت الريح واظلم الجو وكثر المطر واقمنا عشرة أيام لا نرى الشمس ثم دخلنا بحرا لا نعرفه وخاف أهل الجنك فارادوا الرجوع الى الصين فلم يتمكن ذلك واقمنا اثنين وأربعين يوما لا نعرف في أي البحار نحن

﴿ذكر الرخ﴾

ولما كان في اليوم الثالث والاربعين ظهر لنا بعد طلوع الفجر جبل في البحر بيننا وبينه نحو عشرين ميلا والريح تحملنا الى صوبه فعجب البحرية وقالوا لسنا بقرب من البر ولا يعهد في البحر جبل وان اضطرتنا الريح اليه هلكنا فلجأ الناس الى التضرع والاخلاص وجددوا التوبة وابتهلنا الى الله بالدعاء وتوسلنا بنبيه صلى الله عليه وسلم ونذر التجار التصدقات الكثيرة وكتبتها لهم في زمام بخطي وسكنت الريح بعض سكون ثم رأينا ذلك الجبل عند طلوع الشمس قد ارتفع في الهواء وظهر الضوء فيما بينه وبين البحر فعجبنا من ذلك ورأيت البحرية يبكون ويودع بعضهم بعضا فقلت ما شأنكم فقالوا ان الذي تخيلناه جبلا هو الرخ وان رآنا أهلكنا وبيننا اذ ذاك وبينه أقل من عشرة أميال ثم ان الله تعالى من علينا بريح طيبة صرفتنا عن صوبه فلم نره ولا عرفنا حقيقة صورته وبعد شهرين من ذلك اليوم وصلنا الى الجاوة ونزلنا الى سمطرة فوجدنا سلطانها الملك الظاهر قد قدم من غزاة له وجاء بسبي كثير فبعث لى جاريتين وغلامين وانزلني على العادة وحضرت اعراس ولده مع بنت أخيه

﴿ذكر اعراس ولد الملك الظاهر﴾

وشاهدت يوم الجلوة فرأيتهم قد نصبوا في وسط المشور منبرا كبيرا وكسوه بثياب الحرير وجاءت العروس من داخل القصر على قدميها بادية الوجه ومعها نحو اربعين من الخواتين يرفعن اذيالها من نساء السلطان وامرائه ووزرائه وكلهن باديات الوجوه ينظر اليهن كل من حضر من رفيع أو وضيع وليست تلك بعادة لهن الا في الاعراس خاصة وصعدت العروس المنبر

وبين

وبين يديها اهل الطرب رجالا ونساء يلعبون ويغنون ثم جاء الزوج على فيل مزين على ظهره سرير وفوقه قبة شبيه البوجة والتاج على رأس العروس المذكور عن يمينه ويساره نحو مائة من أبناء الملوك والامراء قد لبسوا البياض وركبوا الخيل المزينة وعلى رؤسهم الشواشي المرصعة وهم اتراب العروس ليس فيهم ذو لحية ونثرت الدنانير والدراهم على الناس عند دخوله وقعد السلطان بمنظرة له يشاهد ذلك ونزل ابنه فقبل رجله وصعد المنبر الى العروس فقامت اليه وقبلت يده وجلس الى جانبها والخواتين يروحن عليها وجاؤا بالفوفل والتنبول فاخذه الزوج بيده وجعل منه فى فمها ثم أخذت هى بيديها وجعلت فى فمه ثم أخذ الزوج بفمه ورقة تنبول وجعلها فى فمها وذلك كله على أعين الناس ثم فعلت هى كفعله ثم وضع عليها الستر ورفع المنبر وهما فيه الى داخل القصر واكل الناس وانصرفوا ثم لما كان من الغد جمع الناس وجرى له أبوه ولاية العهد وبايعه الناس واعطاهم العطاء الجزل من الثياب والذهب وأقمت بهذه الجزيرة شهرين ثم ركبت فى بعض الجنوك واعطانى السلطان كثيرا من العود والكافور والقرنفل والصندل وردنى وسافرت عنه فوصلت بعد أربعين يوما الى كولم فنزلت بها فى جوار القزوينى قاضى المسلمين وذلك فى رمضان وحضرت بها صلاة العيد فى مسجدها الجامع وعادتهم ان يأتوا المسجد ليلا فلا يزالون يذكرون الله الى الصبح ثم يذكرون الى حين صلاة العيد ثم يصلون ويخطب الخطيب وينصرفون ثم سافرنا من كولم الى قالقوط واقمنا بها اياما واردت العودة الى دهلى ثم خفت من ذلك فركبت البحر فوصلت بعد ثمان وعشرين ليلة الى ظفار وذلك فى محرم سنة ثمان واربعين ونزلت بدار خطيبها عيسى بن طأطأ

(ذكر سلطانها)

ووجدت سلطانها فى هذه الكرة الملك الناصر بن الملك المغيث الذى كان ملكا بها حين وصولى اليها فيما تقدم ونائبه سيف الدين عمر امير جندر التركى الاصل وانزلنى هذا السلطان واكرمنى ثم ركبت البحر فوصلت الى مسقط (بفتح الميم) وهى بلدة صغيرة بها السمك الكثير المعروف بقلب الماس ثم سافرنا الى مرسى القريات (وضبطها بضم القاف وفتح الراء والياء آخر الحروف والف وتاء مثناة) ثم سافرنا الى مرسى شبة (وضبط اسمها بفتح الشين المعجم وفتح الباء الموحدة وتشديدها) ثم الى مرسى كلبة ولفظها على لفظ مؤنثة الكلب ثم الى قلهات وقد تقدم ذكرها وهذه البلاد كلها من عمالة هرمز وهى محسوبة من بلاد عمان ثم سافرنا الى هرمز واقمنا بها ثلاثا وسافرنا فى البر الى كورستان ثم الى اللار ثم الى خنج بال وقد تقدم ذكر جميعها ثم سافرنا الى كارزى (وضبط اسمها بفتح الكاف وسكون الراء وكسر الزاى) وأقمنا بها ثلاثا ثم سافرنا الى جمكان (وضبط اسمها بفتح الجيم والميم والكاف وآخره نون) ثم سافرنا منها الى ميمن (وضبط

اسمها بفتح الميمين وبينهما ياء آخر الحروف مسكنة وآخره نون) ثم سافرنا الى بسا (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة والسين المهملة مع تشديدها) ثم الى مدينة شيراز فوجدنا سلطانها ابا اسحاق على ملكه الا انه كان غائبا عنها ولقيت بها شيخنا الصالح العالم مجد الدين قاضي القضاة وهو وقد كف بصره نفعه الله ونفع به ثم سافرت الى ماين ثم الى يزدخاص ثم الى كليل ثم الى كشك زر ثم الى اصبهان ثم الى تستر ثم الى الحويزا ثم الى البصرة وقد تقدم ذكر جميعها وزرت بالبصرة القبور الكريمة التي بها وهي قبر الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وحليمة السعدية وابي بكرة وأنس بن مالك والحسن البصري وثابت البناني ومحمد بن سيرين ومالك بن دينار ومحمد بن واسع وحبيب العجمي وسهل بن عبد الله التستري رضي الله تعالى عنهم أجمعين ثم سافرنا من البصرة فوصلنا الى مشهد على بن ابي طالب رضي الله عنه وزرناه ثم توجهنا الى الكوفة فزرنا مسجدها المبارك ثم الى الحلة حيث مشهد صاحب الزمان واتفق في بعض تلك الايام ان وليها بعض الامراء فمنع أهلها من التوجه على عادتهم الى مسجد صاحب الزمان وانتظاره هنالك ومنع عنهم الدابة التي كانوا يأخذونها كل ليلة من الامير فاصابت ذلك الوالي علة مات منها سريعا فزاد ذلك في فتنة الرافضة وقالوا انما أصابه ذلك لاجل منعه الدابة فلم تمنع بعد ثم سافرت الى صرصر ثم الى مدينة بغداد ووصلتها في شوال سنة ثمان وأربعين ولقيت بها بعض المغاربة فعرفني بكائنة طريف واستيلاء الروم على الخضراء جبر الله صدع الاسلام في ذلك

﴿ذكر سلطانها﴾

وكان سلطان بغداد والعراق في عهد دخولي اليها في التاريخ المذكور الشيخ حسن بن عمة السلطان أبي سعيد رحمه الله ولما مات أبو سعيد استولى على ملكه بالعراق وتزوج زوجته دلشاد بنت دمشق خواجة بن الامير الجوبان حسبما كان فعله السلطان أبو سعيد من تزوج زوجة الشيخ حسن وكان السلطان حسن غائبا عن بغداد في هذه المدة متوجها لقتال السلطان أتابك افراسياب صاحب بلاد اللور ثم رحلت من بغداد فوصلت الى مدينة الانبار ثم الى هيت ثم الى الحديثة ثم الى عانة وهذه البلاد من أحسن البلاد وأخصبها والطريق فيما بينها كثير العمارة كأن الماشي في سوق من الاسواق وقد ذكرنا انا لم نر ما يشبه البلاد التي على نهر الصين الا هذه البلاد ثم وصلت الى مدينة الرحبة وهي التي تنسب الى مالك بن طوق ومدينة الرحبة أحسن بلاد العراق وأول بلاد الشام ثم سافرنا منها الى السخنة وهي بلدة حسنة أكثر سكانها الكفار من النصارى وانما سميت السخنة لحرارة مائها وفيها بيوت للرجال وبيوت للنساء يستحمون فيها ويستقون الماء ليلا ويجعلونه في السطوح ليبرد ثم سافرنا الى تدمر مدينة نبي الله سليمان عليه السلام التي بنتها له الجن كما قال النابغة (بسيط) (يبنون تدمر بالصفاح والعمد)

ثم

ثم سافرنا منها الى مدينة دمشق الشام وكانت مدة مغيبي عنها عشرين سنة كاملة وكنت تركت بها زوجة لي حاملا وتعرفت وأنا ببلاد الهند انها ولدت ولدا ذكرا فبعثت حينئذ الى جده للام وكان من أهل مكناسة المغرب أربعين دينارا ذهبا هنديا بالخين وصولي الى دمشق في هذه الكرة لم يكن لي هم الا السؤال عن ولدي فدخلت المسجد فوفق لي نور الدين السخاوي امام المالكية وكبيرهم فسلمت عليه فلم يعرفني فعرفته بنفسي وسألته عن الولد فقال مات منذ ثنتي عشرة سنة وأخبرني ان فقيها من أهل طنجة يسكن بالمدرسة الظاهرية فسرت اليه لاسأله عن والدي وأهلي فوجدته شيخا كبيرا فسلمت عليه وانتسبت له فاخبرني ان ولدي توفي منذ خمس عشرة سنة وان الوالدة بقيد الحياة وأقمت بدمشق الشام بقية السنة والغلاء شديد والخبز قد انتهى الى قيمة سبع أواقي بدرهم نقرة وأوقيتهم أربع أواقي مغربية وكان قاضي قضاة المالكية اذ ذاك جمال الدين المسلاتي وكان من أصحاب الشيخ علاء الدين القونوي وقدم معه دمشق فعرف بها ثم ولي القضاء وقاضي قضاة الشافعية تقي الدين ابن السبكي وأمير دمشق ملك الامراء ارغون شاه

﴿حكاية﴾

ومات في تلك الايام بعض كبراء دمشق واوصى بمال للمساكين فكان المتولي لانفاذ الوصية يشتري الخبز ويفرقه عليهم كل يوم بعد العصر فاجتمعوا في بعض الليالي وتزاحموا واختطفوا الخبز الذي يفرق عليهم ومدوا ايديهم الى خبز الخبازين وبلغ ذلك الامير أرغون شاه فاخرج زبانيته فكانوا حيث مالقوا أحدا من المساكين قالوا له تعال تأخذ الخبز فاجتمع منهم عدد كثير فحبسهم تلك الليلة وركب من الغد وأحضرهم تحت القلعة وأمر بقطع أيديهم وأرجلهم وكان أكثرهم برآء عن ذلك وأخرج طائفة الحرافيش عن دمشق فانتقلوا الى حمص وحماه وحلب وذكر لي انه لم يعش بعد ذلك الا قليلا وقتل ثم سافرت من دمشق الى حمص ثم حماه ثم المعرة ثم سرمين ثم الى حلب وكان أمير حلب في هذا العهد الحاج رغطي (بضم الراء وسكون الغين المعجم وفتح الطاء المهمل وياء آخر الحروف مسكنة)

﴿حكاية﴾

واتفق في تلك الايام ان فقيرا يعرف بشيخ المشايخ وهو ساكن في جبل خارج مدينة عينتاب والناس يقصدونه وهم يتبركون به وله تلميذ ملازم له وكان متجردا عزبا لا زوجة له قال في بعض كلامه ان النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يصبر عن النساء وأنا أصبر عنهن فشهد عليه بذلك وثبت عند القاضي ورفع أمره الى ملك الامراء واتى به وبتلميذه الموافق له على قوله فافتى القضاة الاربعة وهم شهاب الدين المالكي وناصر الدين العديم الحنفي وتقي الدين ابن الصائغ

الشافعي وعز الدين الدمشقي الحنبلي بقتلهما معا فقتلا وفي أوائل شهر ربيع الاول عام تسعة وأربعين بلغنا الخبر في حلب ان الوباء وقع بغزة وانه انتهى عدد الموتى فيها الى زائد على الالف في يوم واحد فسافرت الى حمص فوجدت الوباء قد وقع بها ومات يوم دخولي اليها نحو ثلاثمائة انسان ثم سافرت الى دمشق ووصلتها يوم الخميس وكان أهلها قد صاموا ثلاثة أيام وخرجوا يوم الجمعة الى مسجد الاقدام حسبما ذكرناه في السفر الاول فخفف الله الوباء عنهم فانتهى عدد الموتى عندهم الى ألفين وأربعمائة في اليوم ثم سافرت الى عجلون ثم الى بيت المقدس ووجدت الوباء قد ارتفع عنه ولقيت خطيبه عز الدين بن جماعة ابن عم عز الدين قاضي القضاة بمصر وهو من الفضلاء الكرماء ومرتبه على الخطابة الف درهم في الشهر

﴿حكاية﴾

وصنع الخطيب عز الدين يوما دعوة ودعاني فيمن دعاه اليها فسألته عن سببها فاخبرني انه نذر أيام الوباء انه ان ارتفع ذلك ومر عليه يوم لا يصلي فيه على ميت صنع الدعوة ثم قال لي ولما كان بالامس لم أصل على ميت فصنعت الدعوة التي نذرت ووجدت من كنت أعهده من جميع الاشياخ بالقدس قد انتقلوا الى جوار الله تعالى رحمهم الله فلم يبق منهم الا القليل مثل المحدث العالم الامام صلاح الدين خليل ابن كيكلدي العلائي ومثل الصالح شرف الدين الخشي شيخ زاوية المسجد الاقصى ولقيت الشيخ سليمان الشيرازي فاضافني ولم ألق بالشام ومصر من وصل الى قدم آدم عليه السلام سواه ثم سافرت عن القدس ورافقني الواعظ المحدث شرف الدين سليمان المليانى وشيخ المغاربة بالقدس الصوفي الفاضل طلحة العبد الوادي فوصلنا الى مدينة الخليل عليه السلام وزرناه ومن معه من الانبياء عليهم السلام ثم سرنا الى غزة فوجدنا معظمها خاليا من كثرة من مات بها في الوباء وأخبرنا قاضيها ان العدول بها كانوا ثمانين فبقي منهم الربع وان عدد الموتى بها انتهى الى الف ومائة في اليوم ثم سافرنا في البر فوصلت الى دمياط ولقيت بها قطب الدين النقشواني وهو صائم الدهر ورافقني منها الى فارسكور وسمنود ثم الى أبي صير (بكسر الصاد المهمل وياء وراء) ونزلنا في زاوية لبعض المصريين بها

﴿حكاية﴾

وبينما نحن بتلك الزاوية اذ دخل علينا أحد الفقراء فسلم وعرضنا عليه الطعام فابى وقال انما قصدت زيارتكم ولم يزل ليلته تلك ساجدا وراكعا ثم صلينا الصبح واشتغلنا بالذكر والفقير بركن الزاوية فجاء الشيخ بالطعام ودعاه فلم يجبه فمضى اليه فوجده ميتا فصلينا عليه ودفناه رحمة الله عليه ثم سافرت الى المحلة الكبيرة ثم الى نحرارية ثم الى أبيار ثم الى دمنهور ثم الى الاسكندرية فوجدت الوباء قد خف بها بعد ان بلغ عدد الموتى الى ألف وثمانين في اليوم ثم سافرت الى

القاهرة وبلغني ان عدد الموتى أيام الوباء انتهى فيها الى أحد وعشرين ألفا في اليوم ووجدت جميع من كان بها من المشايخ الذين أعرفهم قد ماتوا رحمهم الله تعالى

(ذكر سلطانها)

وكان ملك ديار مصر في هذا العهد الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاون وبعد ذلك خلع عن الملك وولى أخوه الملك الصالح ولما وصلت القاهرة وجدت قاضي القضاة عز الدين ابن قاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة قد توجه الى مكة في ركب عظيم يسمونه الرجبي لسفرهم في شهر رجب وأخبرت ان الوباء لم يزل معهم حتى وصلوا عقبة أيلة فارتفع عنهم ثم سافرت من القاهرة على بلاد الصعيد وقد تقدم ذكرها الى عيذاب وركبت منها البحر فوصلت الى جدة ثم سافرت منها الى مكة شرفها الله تعالى وكرمها فوصلتها في الثاني والعشرين لشعبان سنة تسع وأربعين ونزلت في جوار امام المالكية الصالح الولي الفاضل ابي عبد الله محمد بن عبد الرحمن المدعو بخليل فصمت شهر رمضان بمكة وكنت أعتمر كل يوم على مذهب الشافعي ولقيت ممن أعهده من أشياخها شهاب الدين الحنفي وشهاب الدين الطبري وأبا محمد اليافعي ونجم الدين الاصفوني والحرازي وحججت في تلك السنة ثم سافرت مع الركب الشامي الى طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وزرت قبره المكرم المطيب زاده الله طيبا وتشريفا وصليت في المسجد الكريم طهره الله وزاده تعظيما وزرت من بالبقيع من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم ولقيت من الاشياخ أبا محمد بن فرحون ثم سافرنا من المدينة الشريفة الى العلا وتبوك ثم الى بيت المقدس ثم الى مدينة الخليل صلى الله عليه وسلم ثم الى غزة ثم الى منازل الرمل وقد تقدم ذكر ذلك كله ثم الى القاهرة وهنالك تعرفنا ان مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين ابا عنان أيده الله تعالى قد ضم الله به نشر الدولة المرينية وشفى ببركته بعد اشفائها البلاد المغربية وافاض الاحسان على الخاص والعام وغمر جميع الناس بسابغ الانعام فتشوفت النفوس الى المثول ببابه وأملت لثم ركابه فعند ذلك قصدت القدوم على حضرته العلية مع ما شاقني من تذكار الاوطان والحنين الى الاهل والخلان والمحبة الى بلادي التي لها الفضل عندي على البلدان (طويل)

بلاد بها نيطت علي تمائمي ❊ وأول أرض مس جلدي ترابها

فركبت البحر في قرقورة لبعض التونسيين صغيرة وذلك في صفر سنة خمسين وسرت حتى نزلت بجربة وسافر المركب المذكور الى تونس فاستولى العدو عليه ثم سافرت في مركب صغير الى قابس فنزلت في ضيافة الاخوين الفاضلين أبي مروان وأبي العباس ابني مكي أميري جربة وقابس وحضرت عندهما مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ركبت في مركب الى سفاقس

ثم توجهت فى البحر الى بلبانة ومنها سرت فى البر مع العرب فوصلت بعد مشقات الى مدينة تونس والعرب محاصرون لها

﴿ ذكر سلطانها ﴾

وكانت تونس فى ايالة مولانا أمير المسلمين وناصر الدين المجاهد فى سبيل رب العالمين علم الاعلام وأوحد الملوك الكرام أسد الآساد وجواد الاجواد القانت الاواب الخاشع العادل أبى الحسن ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين ناصر دين الاسلام الذى سارت الامثال بجوده وشاع فى الاقطار أثر كرمه وفضله ذى المناقب والمفاخر والفضائل والمآثر الملك العادل الفاضل ابى سعيد ابن مولانا أمير المسلمين وناصر الدين المجاهد فى سبيل رب العالمين قاهر الكفار ومبيدها ومبدى آثار الجهاد ومعيدها ناصر الايمان الشديد السطوة فى ذات الرحمان العابد الزاهد الراكع الساجد الخاشع الصالح أبى يوسف ابن عبد الحق رضى الله عنهم أجمعين وأبقى الملك فى عقبهم الى يوم الدين ولما وصلت تونس قصدت الحاج أبا الحسن النامسى لما بينى وبينه من موات القرابة والبلدية فانزلنى بداره وتوجه معى الى المشور فدخلت المشور الكريم وقبلت يد مولانا أبى الحسن رضى الله عنه وأمرنى بالقعود فقعدت وسألنى عن الحجاز الشريف وسلطان مصر فاجبته وسألنى عن ابن تيفراجين فاخبرته بما فعلت المغاربة معه وارادتهم قتله بالاسكندرية وما لقى من اذايتهم انتصارا منهم لمولانا ابى الحسن رضى الله عنه وكان فى مجلسه من الفقهاء الامام أبو عبد الله السطى والامام أبو عبد الله محمد ابن الصباغ ومن أهل تونس قاضيها أبو على عمر بن عبد الرفيع وأبو عبد الله بن هارون وانصرفت عن المجلس الكريم فلما كان بعد العصر استدعانى مولانا أبو الحسن وهو ببرج يشرف على موضع القتال ومعه الشيوخ الجلة أبو عمر عثمان بن عبد الواحد التنالفتى وأبو حسون زيان بن أمريون العلوى وأبو زكريا يحيى بن سليمان العسكرى والحاج أبو الحسن النامسى فسألنى عن ملك الهند فاجبته عما سأل ولم أزل أتردد الى مجلسه الكريم أيام اقامتى بتونس وكانت ستة وثلاثين يوما ولقيت بتونس اذ ذاك الشيخ الامام خاتمة العلماء وكبيرهم أبا عبد الله الابلى وكان فى فراش المرض وباحثنى عن كثير من أمور رحلتى ثم سافرت من تونس فى البحر مع القطلانيين فوصلنا الى جزيرة سردانية من جزر الروم ولها مرسى عجيب عليه خشب كبار دائرة به وله مدخل كانه باب لا يفتح الا باذن منهم وفيها حصون دخلنا أحدها وبه أسواق كثيرة ونذرت لله تعالى ان خلصنا الله منها صوم شهرين متتابعين لاننا تعرفنا ان أهلها عازمون على اتباعنا اذا خرجنا عنها ليأسرونا ثم خرجنا عنها فوصلنا بعد عشر الى مدينة تنس ثم الى مازونة ثم الى مستغانم ثم الى تلمسان فقصدت العباد وزرت الشيخ أبا مدين رضى الله عنه ونفع به

ثم

ثم خرجت عنها على طريق ندرومة وسلكت طريق أخندقان وبت بزاوية الشيخ ابراهيم ثم سافرنا منها فبينما نحن بقرب ازغنغان اذ خرج علينا خمسون راجلا وفارسان وكان معي الحاج ابن قريعات الطنجي وأخوه محمد المستشهد بعد ذلك في البحر فعزمنا على قتالهم ورفعنا علماثم سالمونا وسالمناهم والحمد لله ووصلت الى مدينة تازى وبها تعرفت خبر موت والدتي بالوباء رحمها الله تعالى ثم سافرت عن تازى فوصلت يوم الجمعة في أواخر شهر شعبان المكرم من عام خمسين وسبعمائة الى حضرة فاس فمثلت بين يدى مولانا الاعظم الامام الاكرم أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين ابى عنان وصل الله علاوه وكبت عدوه فانستني هيبته هيبة سلطان العراق وحسنه حسن ملك الهند وحسن اخلاقه حسن خلق ملك اليمن وشجاعته شجاعة ملك الترك وحلمه حلم ملك الروم وديانته ديانة ملك تركستان وعلمه علم ملك الجاوة وكان بين يديه وزيره الفاضل ذو المكارم الشهيره والمآثر الكثيره أبو زيان بن ودرار فسألني عن الديار المصرية اذ كان قد وصل اليها فاجبته عما سأل وغمرني من احسان مولانا ايده الله تعالى بما أعجزني شكره والله ولي مكافاته والقيت عصى التسيار ببلاده الشريفة بعد ان تحققت بفضل الانصاف انها أحسن البلدان لان الفواكه بها متيسره والمياه والاقوات غير متعذره وقل أقليم يجمع ذلك كله ولقد احسن من قال (مجتث)

الغرب أحسن ارض ❋ ولي دليل عليه

البدر يرقب منه ❋ والشمس تسعى اليه

ودراهم الغرب صغيره وفوائدها كثيره واذا تأملت أسعاره مع أسعار ديار مصر والشام ظهر لك الحق في ذلك ولاح فضل بلاد المغرب فاقول ان لحوم الاغنام بديار مصر تباع بحساب ثمان عشرة أوقية بدرهم نقرة والدرهم النقرة ستة دراهم من دراهم المغرب وبالمغرب يباع اللحم اذا غلا سعره ثمان عشرة أوقية بدرهمين وهما ثلث النقرة وأما السمن فلا يوجد بمصر في اكثر الاوقات والذي يستعمله أهل مصر من أنواع الادام لا يلتفت اليه بالمغرب ولان أكثر ذلك العدس والحمص يطبخونه في قدور راسيات ويجعلون عليه السيرج والبسلاوهو صنف من الجلبان يطبخونه ويجعلون عليه الزيت والقرع يطبخونه ويخلطونه باللبن والبقلة الحمقاء يطبخونها كذلك وأعين أغصان اللوز يطبخونها ويجعلون عليها اللبن والقلقاس يطبخونه وهذا كله متيسر بالمغرب لكن أغنى الله عنه بكثرة اللحم والسمن والزبد والعسل وسوى ذلك وأما الخضر فهي أقل الاشياء ببلاد مصر وأما الفواكه فاكثرها مجلوبة من الشام وأما العنب فاذا كان رخيصا بيع عندهم ثلاثة ارطال من ارطالهم بدرهم نقرة ورطلهم ثنتا عشرة أوقية وأما بلاد الشام فالفواكه بها كثيرة الا انها ببلاد المغرب أرخص منها ثمنا فان العنب يباع بها بحساب

رطل من أرطالهم بدرهم نقرة ورطلهم ثلاثة ارطال مغربية واذا رخص ثمنه بيع بحساب رطلين بدرهم نقرة والاجاص يباع بحساب عشر أواق بدرهم نقرة وأما الرمان والسفرجل فتباع الحبة منه بثمانية فلوس وهى درهم من دراهم المغرب وأما الخضر فيباع بالدرهم النقرة منها اقل مما يباع فى بلادنا بالدرهم الصغير وأما اللحم فيباع فيها الرطل منه من أرطالهم بدرهمين ونصف درهم نقرة فاذا تأملت ذلك كله تبين لك ان بلاد المغرب أرخص البلاد أسعارا واكثرها خيرات واعظمها مرافق وفوائد ولقد زاد الله بلاد المغرب شرفا الى شرفها وفضلا الى فضلها بامامة مولانا أمير المؤمنين الذى مدّ ظلال الامن فى أقطارها واطلع شمس العدل فى ارجائها وأفاض سحاب الاحسان فى باديتها وحاضرتها وطهرها من المفسدين وأقام بها رسوم الدنيا والدين وأنا اذكر ما عاينته وتحققته من عدله وحلمه وشجاعته واشتغاله بالعلم وتفقهه وصدقته الجارية ورفع المظالم

﴿ذكر بعض فضائل مولانا أيده الله﴾

أما عدله فاشهر من ان يسطر فى كتاب فمن ذلك جلوسه للمشتكين من رعيته وتخصيصه يوم الجمعة للمساكين منهم وتقسيمه ذلك اليوم بين الرجال والنساء وتقديمه النساء لضعفهن فتقرأ قصصهن بعد صلاة الجمعة الى العصر ومن وصلت نوبتها نودى باسمها ووقفت بين يديه الكريمتين يكلمها دون واسطة فان كانت متظلمة عجل انصافها او طالبة احسان وقع اسعافها ثم اذا صليت العصر قرئت قصص الرجال وفعل مثل ذلك فيها ويحضر المجلس الفقهاء والقضاة فيرد اليهم ما تعلق بالاحكام الشرعية وهذا شئ لم أر فى الملوك من يفعله على هذا التمام ويظهر فيه مثل هذا العدل فان ملك الهند عين بعض امرائه لاخذ القصص من الناس وتلخيصها ورفعها اليه دون حضور أربابها بين يديه وأما حلمه فقد شاهدت منه العجائب فانه أيده الله عفى عن الكثير ممن تعرض لقتال عساكره والمخالفة عليه وعن أهل الجرائم الكبار التى لا يعفو عن جرائمهم الامن وثق بربه وعلم علم اليقين معنى قوله تعالى والعافين عن الناس قال ابن جزى من أعجب ما شاهدته من حلم مولانا ايده الله انى منذ قدومى على بابه الكريم فى آخر عام ثلاثة وخمسين الى هذا العهد وهو اوائل عام سبعة وخمسين لم أشاهد أحدا أمر بقتله الامن قتله الشرع فى حد من حدود الله تعالى قصاص أو حرابة هذا على اتساع المملكة وانفساح البلاد واختلاف الطوائف ولم يسمع بمثل ذلك فيما تقدم من الاعصار ولا فيما تباعد من الاقطار وأما شجاعته فقد علم ما كان منه فى المواطن الكريمة من الثبات والاقدام مثل يوم قتال بنى عبد الوادى وغيرهم ولقد سمعت خبر ذلك اليوم ببلاد السودان وذكر ذلك عند سلطانهم فقال هكذا والا فلا قال ابن جزى لم يزل الملوك الاقدمون تتفاخر بقتل الاساد وهزائم الاعادى

ومولانا

ومولانا ايده الله كان قتل الاسد عليه أهون من قتل الشاة على الاسد فانه لما خرج الاسد على الجيش بوادى النجارين من المعمورة بحوز سلا وتحامته الابطال وفرت امامه الفرسان والرجال برز اليه مولانا أيده الله غير محتفل به ولا متهيب منه فطعنه بالرمح ما بين عينيه طعنة خربها صريعا لليدين والفم وأما هزائم الاعادى فانها اتفقت للملوك بثبوت جيوشهم واقدام فرسانهم فيكون حظ الملوك الثبوت والتحريض على القتال وأما مولانا أيده الله فانه أقدم على عدوه منفردا بنفسه الكريمة بعد علمه بفرار الناس وتحققه انه لم يبق معه من يقاتل فعند ذلك وقع الرعب فى قلوب الاعداء وانهزموا امامه فكان من العجائب فرار الامم امام واحد وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والعاقبة للمتقين وما هو الاثمرة ما تمتن به أعلى مقامه من التوكل على الله والتفويض اليه واما اشتغاله بالعلم فها هو أيده الله تعالى يعقد مجالس العلم فى كل يوم بعد صلاة الصبح ويحضر لذلك اعلام الفقهاء ونجباء الطلبة بمسجد قصره الكريم فيقرأ بين يديه تفسير القران العظيم وحديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وفروع مذهب مالك رضى الله عنه وكتب المتصوفة وفى كل علم منها له القدح المعلى يجلو مشكلاته بنور فهمه ويلقى نكته الرائقة من حفظه وهذا شأن الائمة المهتدين والخلفاء الراشدين ولم أر من ملوك الدنيا من بلغت عنايته بالعلم الى هذه النهاية فقد رأيت ملك الهند يتذاكر بين يديه بعد صلاة الصبح فى العلوم المعقولات خاصة ورأيت ملك الجاوة يتذاكر بين يديه بعد صلاة الجمعة فى الفروع على مذهب الشافعى خاصة وكنت أتعجب من ملازمة ملك تركستان لصلاتى العشاء الاخرة والصبح فى الجماعة حتى رأيت ملازمة مولانا أيده الله فى العلوم كلها فى الجماعة ولقيام رمضان والله يختص برحمته من يشاء قال ابن جزى لوان عالما ليس له شغل الا بالعلم ليلا ونهارا لم يكن يصل الى أدنى مراتب مولانا أيده الله فى العلوم مع اشتغاله بامور الائمة وتدبيره لسياسة الاقاليم النائية ومباشرته من حال ملكه ما لم يباشره أحد من الملوك ونظره بنفسه فى شكايات المظلومين ومع ذلك كله فلا تقع بمجلسه الكريم مسألة علم فى أى علم كان الا جلا مشكلها وباحث فى دقائقها واستخرج غوامضها واستدرك على علماء مجلسه ما فاتهم من مغلقاتها ثم سما أيده الله الى العلم الشريف التصوفى ففهم اشارات القوم وتخلق باخلاقهم وظهرت آثار ذلك فى تواضعه مع رفعته وشفقته على رعيته ورفقه فى أمره كله واعطى للاداب حظا جزيلا من نفسه فاستعمل أحسنها منزعا واعظمها موقعا وصارت عنه الرسالة الكريمة والقصيدة اللتان بعثهما الى الروضة الشريفة المقدسة الطاهرة روضة سيد المرسلين وشفيع المذنبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتبهما بخط يده الذى يخجل الروض حسنا وذلك شئ لم يتعاط أحد من ملوك الزمان انشاءه ولا رام ادراكه ومن تأمل التوقيعات الصادرة عنه أيده الله تعالى واحاط علما بحصولها لاح

له فضل ما وهب الله لمولانا من البلاغة التى فطره عليها وجمع له بين الطبيعى والمكتسب منها واما صدقاته الجارية وما أمر به من عمارة الزوايا بجميع بلاده لاطعام الطعام للوارد والصادر فذلك مالم يفعله أحد من الملوك غير السلطان أتابك أحمد وقد زاد عليه مولانا أيده الله بالتصدق على المساكين بالطعام كل يوم والتصدق بالزرع على المتسترين من أهل البيوت قال ابن جزى اخترع مولانا ايده الله فى الكرم والصدقات امورا لم تخطر فى الاوهام ولا تهدت اليها السلاطين فمنها اجراء الصدقة على المساكين بكل بلد من بلاده على الدوام ومنها تعيين الصدقة الوافرة للمسجونين فى جميع البلاد أيضا ومنها كون تلك الصدقات خبزا مخبوزا متيسرا للانتفاع به ومنها كسوة المساكين والضعفاء والعجائز والمشايخ والملازمين للمساجد بجميع بلاده ومنها تعيين الضحايا لهؤلاء الاصناف فى عيد الاضحى ومنها التصدق بما يجتمع فى مجابى أبواب بلاده يوم سبعة وعشرين من رمضان اكراما لذلك اليوم الكريم وقياما بحقه ومنها اطعام الناس فى جميع البلاد ليلة المولد الكريم واجتماعهم لاقامة رسمه ومنها اعذار اليتامى من الصبيان وكسوتهم يوم عاشورا ومنها صدقته على الزمنى والضعفاء بازواج الحرث يقيمون بها أودهم ومنها صدقته على المساكين بحضرته بالطنافس الوثيرة والقطائف الجياد يفترشونها عند رقادهم وتلك مكرمة لا يعلم لها نظير ومنها بناء المرستانات فى كل بلد من بلاده وتعيين الاوقاف الكثيرة لمؤن المرضى وتعيين الاطباء لمعالجتهم والتصرف فى طبهم الى غير ذلك مما أبدع فيه من أنواع المكارم وضروب المآثر كافى الله اياديه وشكر نعمه وأما رفعه للمظالم عن الرعيه فمنها الرتب التى كانت تؤخذ بالطرقات امر ايده الله بمحو رسمها وكان لها مجبى عظيم فلم يلتفت اليه وما عند الله خير وابقى وأما كفه ايدى الظلام فامر مشهور وقد سمعته ايده الله يقول لعماله لا تظلموا الرعيه ويؤكد عليهم فى ذلك الوصيه قال ابن جزى ولو لم يكن من رفق مولانا ايده الله برعيته الا رفعه التضييف الذى كانت عمال الزكاة وولاة البلاد تأخذه من الرعايا لكفى ذلك أثرا فى العدل ظاهرا ونورا فى الرفق باهرا فكيف وقد رفع من المظالم وبسط من المرافق مالا يحيط به الحصر وقد صدر فى أيام تصنيف هذا من أمره الكريم فى الرفق بالمسجونين ورفع الوظائف الثقيلة التى كانت تؤخذ منهم ماهو اللائق باحسانهم والمعهود من رأفته وشمل الامر بذلك جميع الاقطار وكذلك صدر من التنكيل بمن ثبت جوره من القضاة والحكام ما فيه زجر الظلمة وردع المعتدين وأما فعله فى معاونة اهل الاندلس على الجهاد ومحافظته على امداد الثغور بالاموال والاقوات والسلاح وفته فى عضد العدو باعداد العدد واظهار القوة فذلك امر شهير لم يغب علمه عن أهل المغرب والمشرق ولا سبق اليه احد من الملوك قال ابن جزى حسب المتشوف الى علم ما عند مولانا أيده الله من سداد

القطر

القطر للمسلمين ودفاع القوم الكافرين ما فعله فى فداء مدينة طرابلس افريقية فانها لما استولى العدو عليها ومدّ يد العدوان اليها ورأى أيده الله ان بعث الجيوش الى نصرتها لا يتأتى لبعد الاقطار كتب الى خدامه ببلاد أفريقية ان يفدوها بالمال ففديت بخمسين ألف دينار من الذهب العين فلما بلغه خبر ذلك قال الحمد لله الذى استرجعها من أيدى الكفار بهذا النزر اليسير وأمر للحين ببعث ذلك العدد الى افريقية وعادت المدينة الى الاسلام على يديه ولم يخطر فى الاوهام ان أحدا تكون عنده خمسة قناطير من الذهب نزرا يسيرا حتى جاء بها مولانا أيده الله مكرمة بعيدة ومأثرة فائقة قل فى الملوك امثالها وعز عليهم مثالها ومما شاع من افعال مولانا ايده الله فى الجهاد انشاؤه الاجفان بجميع السواحل واستكثاره من عدد البحر وهذا فى زمان الصلح والمهادنة اعدادا لايام الغزاة واخذا بالحزم فى قطع أطماع الكفار وكذلك يتوجه أيده الله بنفسه الى جبال جاناتة فى العام الفارط ليباشر قطع الخشب للانشاء ويظهر قدر ماله بذلك من الاعتناء ويتولى بذاته اعمال الجهاد مترجيا ثواب الله تعالى وموقنا بحسن الجزاء

(رجع) ومن أعظم حسناته أيده الله عمارة المسجد الجديد بالمدينة البيضاء دار ملكه العلى وهو الذى امتاز بالحسن واتقان البناء واشراق النور وبديع الترتيب وعمارة المدرسة الكبرى بالموضع المعروف بالقصر مما يجاور قصبة فاس ولا نظير لها فى المعمور اتساعا وحسنا وابداعا وكثرة ماء وحسن وضع ولم أرفى مدارس الشام ومصر والعراق وخراسان مايشبهها وعمارة الزاوية العظمى على غدير الحمص خارج المدينة البيضاء فلا مثل لها أيضا فى عجب وضعها وبديع صنعها وابدع زاوية رأيتها بالمشرق زاوية سرياقص (سرياقوس) التى بناها الملك الناصر وهذه أبدع منها وأشد احكاما واتقانا والله سبحانه ينفع مولانا أيده الله بمقاصده الشريفه ويكافى فضائله المنيفه ويديم للاسلام والمسلمين ايامه وينصر الويته المظفرة واعلامه

ولنعد الى ذكر الرحلة فنقول ولما حصلت لى مشاهدة هذا المقام الكريم وعمنى فضل احسانه العميم قصدت زيارة قبر الوالدة فوصلت الى بلدى طنجة وزرتها وتوجهت الى مدينة سبتة فاقمت بها أشهرا وأصابنى بها المرض ثلاثة أشهر ثم عافانى الله فاردت ان يكون لى حظ من الجهاد والرباط فركبت البحر من سبتة فى شطى لاهل اصيلا فوصلت الى بلاد الاندلس حرسها الله تعالى حيث الاجر موفور للساكن والثواب مذخور للمقيم والظاعن وكان ذلك أثر موت طاغية الروم الفونس وحصاره الجبل عشرة أشهر وظنه انه يستولى على مابقى من بلاد الاندلس للمسلمين فاخذه الله من حيث لم يحتسب ومات بالوباء الذى كان أشد الناس

خوفا منه واول بلد شاهدته من البلاد الاندلسية جبل الفتح فلقيت به خطيبه الفاضل أبا زكريا يحيى بن السراج الرندى وقاضيه عيسى البربرى وعنده نزلت وتطوفت معه على الجبل فرأيت عجائب ما بنى به مولانا أبو الحسن رضى الله عنه واعد فيه من العدد وما زاد على ذلك مولانا أيده الله ووددت أن لو كنت ممن رابط به الى نهاية العمر قال ابن جزى جبل الفتح هو معقل الاسلام المعترض شجى فى حلوق عبدة الاصنام حسنة مولانا ابى الحسن رضى الله عنه المنسوبة اليه وقربته التى قدمها نورا بين يديه محل عدد الجهاد ومقر آساد الاجناد والثغر الذى افترعن نصر الايمان واذاق أهل الاندلس بعد مرارة الخوف حلاوة الامان ومنه كان مبدأ الفتح الاكبر وبه نزل طارق بن زياد مولى موسى بن نصير عند جوازه فنسب اليه فيقال له جبل طارق وجبل الفتح لان مبدأه كان منه وبقايا السور الذى بناه ومن معه باقية الى الآن تسمى بسور العرب شاهدتها ايام اقامتى به عند حصار الجزيرة اعادها الله ثم فتحه مولانا أبو الحسن رضوان الله عليه واسترجعه من أيدى الروم بعد تملكهم له عشرين سنة ونيفا وبعث الى حصاره ولده الامير الجليل اباما لك وأيده بالاموال الطائلة والعساكر الجرارة وكان فتحه بعد حصار ستة أشهر وذلك فى عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ولم يكن حينئذ على ما هو الآن عليه فبنى به مولانا أبو الحسن رحمة الله عليه المأثرة العظمى باعلى الحصن وكانت قبل ذلك برجا صغيرا تهدم باحجار المجانيق فبناها مكانه و بنى به دار الصناعة ولم يكن به دار صنعة وبنى السور الاعظم المحيط بالتربة الحمراء الاخذ من دار الصنعة الى القرمدة ثم جدد مولانا أمير المؤمنين ابو عنان أيده الله عهد تحصينه وتحسينه وزاد بها بناء السور بطرف الفتح وهو اعظم أسواره غناء واعمها نفعا وبعث اليه العدد الوافرة والاقوات والمرافق العامة وعامل الله تعالى فيه بحسن النية وصدق الاخلاص ولما كان فى الاشهر الاخيرة من عام ستة وخمسين وقع بجبل الفتح ما ظهر فيه أثر يقين مولانا أيده الله وثمرة توكله فى أموره على الله وبان مصداق ما اطرد له من السعادة الكافية وذلك ان عامل الجبل الخائن الذى ختم له بالشقاء عيسى بن الحسن بن أبى منديل نزع يده المغلولة عن الطاعه وفارق عصمة الجماعه واظهر النفاق وجمع فى الغدر والشقاق وتعاطى ما ليس من رجاله وعمى عن مبدأ حاله السيئ وماله وتوهم الناس ان ذلك مبدأ فتنة تنفق على اطفائها كرائم الاموال و يستعد لاتقائها بالفرسان والرجال فحكمت سعادة مولانا ايده الله ببطلان هذا التوهم وقضى صدق يقينه بانخراق العادة فى هذه الفتنة فلم تكن الا ايام يسيرة وراجع أهل الجبل بصائرهم وثاروا على الثائر وخالفوا الشقى المخالف وقاموا بالواجب من الطاعة وقبضوا عليه وعلى ولده المساعد له فى النفاق واتى بهما مصفدين الى الحضرة العالية فنفذ فيهما حكم الله فى المحاربين واراح الله من شرهما ولما خمدت

نار

نار الفتنة اظهر مولانا أيده الله من العناية ببلاد الاندلس مالم يكن فى حساب أهلها وبعث الى جبل الفتح ولده الاسعد المبارك الارشد أبابكر المدعو من السماة السلطانيه بالسعيد أسعده الله تعالى وبعث معه انجاد الفرسان ووجوه القبائل وكفاة الرجال وادر عليهم الارزاق ووسع لهم الاقطاع وحرر بلادهم من المغارم وبذل لهم جزيل الاحسان وبلغ من اهتمامه بامور الجبل ان أمر أيده الله ببناء شكل يشبه شكل الجبل المذكور فمثل فيه أشكال اسواره وابراجه وحصنه وابوابه ودار صنعته ومساجده ومخازن عدده واهرية زرعه وصورة الجبل وما اتصل به من التربة الحمراء فصنع ذلك بالمشور السعيد فكان شكلا عجيبا أتقنه الصناع اتقانا يعرف قدره من شاهد الجبل وشاهد هذا المثال وما ذلك الا لتشوقه أيده الله الى استطلاع أحواله وتهممه بتحصينه واعداده والله تعالى يجعل نصر الاسلام بالجزيرة الغربيه على يديه ويحقق ما يؤمله فى فتح بلاد الكفار وشت شمل عباد الصليب وتذكرت حين هذا التقييد قول الاديب البليغ المفلق أبى عبد الله محمد بن غالب الرصافى البلنسى رحمه الله فى وصف هذا الجبل المبارك من قصيدته الشهيرة فى مدح عبد المؤمن بن على التى أولها (بسيط)

لو جئت نار الهدى من جانب الطور ❋ قبست ما شئت من علم ومن نور

وفيها يقول فى وصف الجبل وهو من البديع الذى لم يسبق اليه بعد وصفه السفن وجوازها

حتى رمت جبل الفتحين من جبل ❋ معظم القدر فى الاجبال مذكور
من شامخ الانف فى سحنائه طلس ❋ له من الغيم جيب غير مزرور
تمسى النجوم على تكليل مفرقه ❋ فى الجو حائمة مثل الدنانير
فربما مسحته من ذوائبها ❋ بكل فضل على فوديه مجرور
وادرد من ثناياه بما أخذت ❋ منه معاجم أعواد الدهارير
محنك حلب الايام أشطرها ❋ وساقها سوق حادى العير للعير
مقيد الخطو جوال الخواطر فى ❋ عجيب أمريه من ماض ومنظور
قد واصل الصمت والاطراق مفتكرا ❋ بادى السكينة مغفر الاسارير
كأنه مكمد مما تعبده ❋ خوف الوعيدين من دك وتسيير
اخلق به وجبال الارض راجفة ❋ أن يطمئن غدا من كل محذور

ثم استمر فى قصيدته على مدح عبد المؤمن بن على قال ابن جزى ولنعد الى كلام الشيخ أبى عبد الله قال ثم خرجت من جبل الفتح الى مدينة رندة وهى من أمنع معاقل المسلمين واجلها وضعا وكان قائدها اذ ذاك الشيخ أبو الربيع سليمان بن داود العسكرى وقاضيها ابن عمى الفقيه ابو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطه ولقيت بها الفقيه القاضى الاديب أبا الحجاج يوسف بن

موسى المنتشاقرى واضافنى بمنزله ولقيت بها أيضا خطيبها الصالح الحاج الفاضل أبا اسحاق ابراهيم المعروف بالشندرخ المتوفى بعد ذلك بمدينة سلا من بلاد المغرب ولقيت بها جماعة من الصالحين منهم عبد الله الصفار وسواه وأقمت بها خمسة ايام ثم سافرت منها الى مدينة مربلة والطريق فيما بينهما صعب شديد الوعورة ومربلة بليدة حسنة خصبة ووجدت بها جماعة من الفرسان متوجهين الى مالقة فاردت التوجه فى صحبتهم ثم ان الله تعالى عصمنى بفضله فتوجهوا وقبلى فاسروا فى الطريق كما سنذكره وخرجت فى اثرهم فلما جاوزت حوز مربلة ودخلت فى حوز سهيل مررت بفرس ميت فى بعض الخنادق ثم مررت بقفة حوت مطروحة بالارض فرابنى ذلك وكان امامى برج الناظور فقلت فى نفسى لو ظهر هاهنا عدو لانذر به صاحب البرج ثم تقدمت الى دار هنالك فوجدت عليه فرسا مقتولا فبينما انا هنالك اذ سمعت الصياح من خلفى وكنت قد تقدمت أصحابى فعدت اليهم فوجدت معهم قائد حصن سهيل فاعلمنى ان أربعة اجفان للعدو ظهرت هنالك ونزل بعض عمارتها الى البر ولم يكن الناظور بالبرج فمر بهم الفرسان الخارجون من مربلة وكانوا اثنى عشر فقتل النصارى أحدهم وفر واحد وأسر العشرة وقتل معهم رجل حوات وهو الذى وجدت قفته مطروحة بالارض وأشار على ذلك القائد بالمبيت معه فى موضعه ليوصلنى منه الى مالقة فبت عنده بحصن الرابط المنسوبة الى سهيل والاجفان المذكورة مرساة عليه وركب معى بالغد فوصلنا الى مدينة مالقة احدى قواعد الاندلس وبلادها الحسان جامعة بين مرافق البر والبحر كثيرة الخيرات والفواكه رأيت العنب يباع فى اسواقها بحساب ثمانية ارطال بدرهم صغير ورمانها المرسى الياقوتى لا نظير له فى الدنيا وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن أحوازها الى بلاد المشرق والمغرب قال ابن جزى والى ذلك أشار الخطيب أبو محمد عبد الوهاب بن على المالقى فى قوله وهو من مليح التجنيس (سريع)

مالقة حييت يا تينها ❁ فالفلك من اجلك يا تينها

نهى طبيبى عنك فى علة ❁ ما لطبيبى عن حياتى نها

وذيلها قاضى الجماعة أبو عبد الله بن عبد الملك بقوله فى قصد المجانسة (سريع)

وحمص لا تنس لها تينها ❁ وأذكر مع التين زياتينها

(رجع) وبمالقة يصنع الفخار المذهب العجيب ويجلب منها الى اقاصى البلاد ومسجدها كبير الساحة شهير البركة وصحنه لا نظير له فى الحسن فيه أشجار النارنج البعيدة ولما دخلت مالقة وجدت قاضيها الخطيب الفاضل اباعبد الله ابن خطيبها الفاضل ابى جعفر ابن خطيبها ولى الله تعالى ابى عبد الله الطنجالى قاعدا بالجامع الاعظم ومعه الفقهاء ووجوه الناس يجمعون مالا

برسم

برسم فداء الاسارى الذين تقدم ذكرهم فقلت له الحمد لله الذى عافانى ولم يجعلنى منهم واخبرته بما اتفق لى بعدهم فعجب من ذلك وبعث الى بالضيافة رحمه الله واضافنى أيضا خطيبها أبو عبد الله الساحلى المعروف بالمعمم ثم سافرت منها الى مدينة بلش وبينهما أربعة وعشرون ميلا وهى مدينة حسنة بها مسجد عجيب وفيها الاعناب والفواكه والتين كمثل مالقة ثم سافرنا منها الى الحمة وهى بلدة صغيرة لها مسجد بديع الوضع عجيب البناء وبها العين الحارة على ضفة واديها وبينها وبين البلد ميل أو نحوه وهنالك بيت لاستحمام الرجال وبيت لاستحمام النساء ثم سافرت منها الى مدينة غرناطة قاعدة بلاد الاندلس وعروس مدنها وخارجها لا نظير له فى بلاد الدنيا وهو مسيرة أربعين ميلا يخترقه نهر شنيل المشهور وسواه من الانهار الكثيرة والبساتين والجنات والرياضات والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة ومن عجيب مواضعها عين الدمع وهو جبل فيه الرياضات والبساتين لا مثل له بسواها قال ابن جزى لولا خشيت ان انسب الى العصبية لاطلت القول فى وصف غرناطة فقد وجدت مكانه ولكن ما اشتهر كاشتهارها لا معنى لاطالة القول فيه ولله در شيخنا أبى بكر محمد بن أحمد بن شيرين البستى نزيل غرناطة حيث يقول (طويل)

رعى الله من غرناطة متبوّا ❊ يسر حزينا أو يجير طريدا
تبرم منها صاحبى عندما رأى ❊ مسارحها بالثلج عدن جليدا
هى الثغر صان الله من أهلت به ❊ وما خير ثغر لا يكون برودا

❊(رجع ذكر سلطانها)❊

وكان ملك غرناطة فى عهد دخولى اليها السلطان أبو الحجاج يوسف بن السلطان ابى الوليد اسماعيل بن فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر ولم القه بسبب مرض كان به وبعثت الى والدته الحرة الصالحة الفاضلة بدنانير ذهب ارتفقت بها ولقيت بغرناطة جملة من فضلائها منهم قاضى الجماعة بها الشريف البليغ أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسينى السبتى ومنهم فقيهها المدرس الخطيب العالم أبو عبد الله محمد بن ابراهيم البيانى ومنهم عالمها ومقرئها الخطيب أبو سعيد فرج بن قاسم الشهير بابن لب ومنهم قاضى الجماعة نادرة العصر وطرفة الدهر أبو البركات محمد بن محمد بن ابراهيم السلمى البلفيقى قدم عليها من المرية فى تلك الايام فوقع الاجتماع به فى بستان الفقيه ابى القاسم محمد بن الفقيه الكاتب الجليل ابى عبد الله بن عاصم واقمنا هنالك يومين وليلة قال ابن جزى كنت معهم فى ذلك البستان وامتعنا الشيخ أبو عبد الله باخبار رحلته وقيدت عنه أسماء الاعلام الذين لقيهم فيها واستفدنا منه الفوائد العجيبة وكان معنا جملة من وجوه أهل غرناطة منهم الشاعر المجيد الغريب الشأن أبو جعفر أحمد بن رضوان بن عبد العظيم

الجذامى وهذا الفتى أمره عجيب فانه نشأ بالبادية ولم يطلب العلم ولا مارس الطلبة ثم انه نبغ بالشعر الجيد الذى يندر وقوعه من كبار البلغاء وصدور الطلبة مثل قوله (رمل)

يامن اختار فؤادى منزلا ❋ بابه العين التى ترمقه

فتح الباب سهادى بعدكم ❋ فابعثوا طيفكم يغلقه

(رجع) ولقيت بغرناطة شيخ الشيوخ والمتصوفين بها الفقيه ابا على عمر بن الشيخ الصالح الولى ابى عبد الله محمد بن المحروق واقمت اياما بزاويته التى بخارج غرناطة واكرمنى أشد الاكرام وتوجهت معه الى زيارة الزاوية الشهيرة البركة المعروفة برابطة العقاب والعقاب جبل مطل على خارج غرناطة وبينهما نحو ثمانية أميال وهو مجاور لمدينة البيرة الخربة ولقيت أيضا ابن أخيه الفقيه أبا الحسن على بن أحمد بن المحروق بزاويته المنسوبة للجام باعلى ربض نجد من خارج غرناطة المتصل بجبل السبيكة وهو شيخ المتسببين من الفقراء وبغرناطة جملة من فقراء العجم استوطنوها لشبهها بلادهم منهم الحاج أبو عبد الله السمرقندى والحاج أحمد التبريزى والحاج ابراهيم القونوى والحاج حسين الخراسانى والحاجان على ورشيد الهنديان وسواهم ثم رحلت من غرناطة الى الحمة ثم الى بلش ثم الى مالقة ثم الى حصن ذكوان وهو حصن حسن كثير المياه والاشجار والفواكه ثم سافرت منه الى رندة ثم الى قرية بنى رياح فانزلنى شيخها ابو الحسن على سليمان الرياحى وهو أحد كرماء الرجال وفضلاء الاعيان يطعم الصادر والوارد وأضافنى ضيافة حسنة ثم سافرت الى جبل الفتح وركبت البحر فى الجفن الذى جزت فيه أولا وهو لاهل اصيلا فوصلت الى سبتة وكان قائدها اذ ذاك الشيخ أبو مهدى عيسى بن سليمان بن منصور وقاضيها الفقيه أبو محمد الزجندرى ثم سافرت منها الى اصيلا واقمت بها شهورا ثم سافرت منها الى مدينة سلا ثم سافرت من سلا فوصلت الى مدينة مراكش وهى من أجمل المدن فسيحة الارجاء متسعة الاقطار كثيرة الخيرات بها المساجد الضخمة كمسجدها الاعظم المعروف بمسجد الكتبيين وبها الصومعة الهائلة العجيبة صعدتها وظهر لى جميع البلد منها وقد استولى عليه الخراب فاشبهته الا ببغداد الا ان أسواق بغداد أحسن وبمراكش المدرسة العجيبة التى تميزت بحسن الوضع واتقان الصنعة وهى من بناء الامام مولانا أمير المسلمين أبى الحسن رضوان الله عليه قال ابن جزى فى مراكش يقول قاضيها التاريخى أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الاوسى (بسيط)

لله مراكش الغراء من بلد ❋ وحبذا اهلها السادات من سكن

ان حلها نازح الاوطان مغترب ❋ أسلوه بالانس عن أهل وعن وطن

بين الحديث بها او العيان لها ❋ ينشا التحاسد بين العين والاذن

رجع

﴿رجع﴾ ثم سافرت من مراكش صحبة الركاب العلى ركاب مولانا ايده الله فوصلنا الى مدينة سلا ثم الى مدينة مكناسة العجيبة الخضر النضرة ذات البساتين والجنات المحيطة بها بحائر الزيتون من جميع نواحيها ثم وصلنا الى حضرة فاس حرسها الله تعالى فوادعت بها مولانا أيده الله وتوجهت برسم السفر الى بلاد السودان فوصلت الى مدينة سجلماسة وهى من احسن المدن وبها التمر الكثير الطيب وتشبهها مدينة البصرة فى كثرة التمر لكن تمر سجلماسة اطيب وصنف ايرارمنه لانظير له فى البلاد ونزلت منها عند الفقيه ابى محمد البشرى وهو الذى لقيت اخاه بمدينة قنجنفو من بلاد الصين فياشد ماتباعدا فاكرمنى غاية الاكرام واشتريت بها الجمال وعلفتها أربعة أشهر ثم سافرت فى غرة شهر الله المحرم سنة ثلاث وخمسين فى رفقة مقدمها أبو محمد يندكان المسوفى رحمه الله وفيها جماعة من تجار سجلماسة وغيرهم فوصلنا بعد خمسة وعشرين يوما الى تغازى وضبط اسمها (بفتح التاء المثناة والغين المعجم والف وزاى مفتوح) أيضا وهى قرية لاخير فيها ومن عجائبها ان بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقفها من جلود الجمال ولاشجر بها انما هى رمل فيه معدن الملح يحفر عليه فى الارض فيوجد منه الواح ضخام متراكبة كأنها قد نحتت ووضعت تحت الارض يحمل الجمل منها لوحين ولايسكنها الا عبيد مسوفة الذين يحفرون على الملح ويتعيشون بما يجلب اليهم من تمر درعة وسجلماسة ومن لحوم الجمال ومن انلى المجلوب من بلاد السودان ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح ويباع الحمل منه بايوالاتن بعشرة مثاقيل الى ثمانية وبمدينة مالى بثلاثين مثقالا الى عشرين وربما انتهى الى أربعين مثقالا وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعا ويتبايعون به وقرية تغازى على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر واقمنا بها عشرة ايام فى جهد لان ماءها زعاق وهى أكثر المواضع ذبابا ومنها يرفع الماء لدخول الصحراء التى بعدها وهى مسيرة عشر لاماء فيها الا فى النادر ووجدنا نحن بها ماء كثيرا فى غدران ابقاها المطر ولقد وجدنا فى بعض الايام غديرا بين تلين من حجارة ماؤه عذب فتروينا منه وغسلنا ثيابنا والكمأة بتلك الصحراء كثير ويكثر القمل بها حتى يجعل الناس فى اعناقهم خيوطا فيها الزئبق فيقتلها وكنا فى تلك الايام نتقدم امام القافلة فاذا وجدنا مكانا يصلح للرعى رعينا الدواب به ولم نزل كذلك حتى ضاع فى الصحراء رجل يعرف بابن زيرى فلم اتقدم بعد ذلك ولاتأخرت وكان ابن زيرى وقعت بينه وبين ابن خاله ويعرف بابن عدى منازعة ومشاتمة فتأخر عن الرفقة فضل فلما نزل الناس لم يظهر له خبر فاشرت على ابن خاله بان يكترى من مسوفة من يقص أثره لعله يجده فابى وانتدب فى اليوم الثانى رجل من مسوفة دون اجرة لطلبه فوجد أثره وهو يسلك الجادة طورا ويخرج عنها تارة ولم يقع له على خبر ولقد لقينا قافلة

فى طريقنا فاخبرونا ان بعض رجال انقطعوا عنهم فوجدنا أحدهم ميتا تحت شجيرة من أشجار الرمل وعليه ثيابه وفى يده سوط وكان الماء على نحو ميل منه ثم وصلنا الى تاسرهلا (بفتح التاء المثناة والسين المهمل والراء وسكون الهاء) وهى احساء ماء تنزل القوافل عليها ويقيمون ثلاثة أيام فيستريحون ويصلحون اسقيتهم ويملؤونها بالماء ويخيطون عليها التلاليس خوف الريح ومن هنالك يبعث التكشيف

ذكر التكشيف

والتكشيف اسم لكل رجل من مسوفة يكتريه أهل القافلة فيتقدم الى ايوالاتن بكتب الناس الى أصحابهم بها ليكتروا لهم الدور ويخرجون للقائهم بالماء مسيرة أربع ومن لم يكن له صاحب بايوالاتن كتب الى من شهر بالفضل من التجار بها فيشاركه فى ذلك وربما هلك التكشيف فى هذه الصحراء فلا يعلم أهل ايوالاتن بالقافلة فيهلك اهلها او الكثير منهم وتلك الصحراء كثيرة الشياطين فان كان التكشيف منفردا لعبت به واستهوته حتى يضل عن قصده فيهلك اذ لا طريق يظهر بها ولا اثر انما هى رمال تسفيها الريح فترى جبالا من الرمل فى مكان ثم تراها قد انتقلت الى سواه والدليل هنالك من كثر تردده وكان له قلب ذكى ورأيت من العجائب ان الدليل الذى كان لنا هو أعور العين الواحدة مريض الثانية وهو أعرف الناس بالطريق واكترينا التكشيف فى هذه السفرة بمائة مثقال من الذهب وهو من مسوفة وفى ليلة اليوم السابع رأينا نيران الذين خرجوا للقائنا فاستبشرنا بذلك وهذه الصحراء منيرة مشرقة ينشرح الصدر فيها وتطيب النفس وهى آمنة من السراق والبقر الوحشية بها كثير يأتى القطيع منها حتى يقرب من الناس فيصطادونه بالكلاب والنشاب لكن لحمها يولد اكله العطش فيتحاماه كثير من الناس لذلك ومن العجائب ان هذه البقر اذا قتلت وجد فى كروشها الماء ولقد رأيت أهل مسوفة يعصرون الكرش منها ويشربون الماء الذى فيه والحيات أيضا بهذه الصحراء كثيرة

حكاية

وكان فى القافلة تاجر تلمسانى يعرف بالحاج زيان ومن عادته ان يقبض على الحيات ويعبث بها وكنت انهاه عن ذلك فلا ينتهى فلما كان ذات يوم ادخل يده فى جحر ضب ليخرجه فوجد مكانه حية فاخذها بيده واراد الركوب فلسعته فى سبابته اليمنى وأصابه وجع شديد فكويت يده وزاد المه عشى النهار فنحر جملا وأدخل يده فى كرشه وتركها كذلك ليلة ثم تناثر لحم إصبعه فقطعها من الاصل وأخبرنا اهل مسوفة ان تلك الحية كانت قد شربت الماء قبل لسعه ولو لم تكن شربت لقتلته ولما وصل الينا الذين استقبلونا بالماء شربت خيلنا ودخلنا صحراء شديدة

الحرليست كالتى عهدناو كنانرحل بعد صلاة العصر ونسرى الليل كله وننزل عند الصباح وتأتى الرجال من مسوفة وبردامة وغيرهم باحمال الماء للبيع ثم وصلنا الى مدينة ايوالاتن فى غرة شهر ربيع الاول بعد سفر شهرين كاملين من سجلماسة وهى أول عمالة السودان ونائب السلطان بها فربا حسين وفربا (بفتح الفاء وسكون الراء وفتح الباء الموحده) ومعناه النائب ولما وصلناها جعل التجار امتعتهم فى رحبة وتكفل السودان بحفظها وتوجهوا الى الفربا وهو جالس على بساط فى سقيف واعوانه بين يديه بايديهم الرماح والقسى وكبراء مسوفة من ورائه ووقف التجار بين يديه وهو يكلمهم بترجمان على قربهم منه احتقارا لهم فعند ذلك ندمت على قدومى بلادهم لسوء ادبهم واحتقارهم للابيض وقصدت دار ابن بداء وهو رجل فاضل من أهل سلا كنت كتبت له ان يكترى لى دارا ففعل ذلك ثم ان مشرف ايوالاتن ويسمى منشاجو (بفتح الميم وسكون النون وفتح الشين المعجم والف وجيم مضموم وواو) استدعى من جاء فى القافلة الى ضيافته فابيت من حضور ذلك فعزم الاصحاب على أشد العزم فتوجهت فيمن توجه ثم اتى بالضيافة وهى جريش انلى مخلوط بيسير عسل ولبن قد وضعوه فى نصف قرعة صيروه شبه الجفنة فشرب الحاضرون وانصرفوا فقلت لهم الهذا دعانا الاسود قالوا نعم وهو الضيافة الكبيرة عندهم فايقنت حينئذ ان لاخير يرتجى منهم واردت ان أسافر مع حجاج ايوالاتن ثم ظهر لى ان اتوجه لمشاهدة حضرة ملكهم وكانت اقامتى بايوالاتن نحو خمسين يوما واكرمنى اهلها واضافونى منهم قاضيها محمد بن عبد الله بن ينومر واخوه الفقيه المدرس يحيى وبلدة ايوالاتن شديدة الحر وفيها يسير نخيلات يزدرعون فى ظلالها البطيخ وماؤهم من احساء بها ولحم الضأن كثير بها وثياب أهلها حسان مصرية واكثر السكان بها من مسوفة ولنسائها الجمال الفائق وهن أعظم شأنا من الرجال

(ذكر مسوفة الساكنين بايوالاتن)

وشأن هؤلاء القوم عجيب وأمرهم غريب فاما رجالهم فلا غيرة لديهم ولا ينتسب أحدهم الى أبيه بل ينتسب لخاله ولا يرث الرجل الا أبناء اخته دون بنيه وذلك شئ ما رأيته فى الدنيا الا عند كفار بلاد المليبار من الهنود واما هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن واما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن مع مواظبتهن على الصلوات ومن اراد التزوج منهن تزوج لكنهن لا يسافرن مع الزوج ولو ارادت احداهن ذلك لمنعها اهلها والنساء هنالك يكون لهن الاصدقاء والاصحاب من الرجال الاجانب وكذلك للرجال صواحب من النساء الاجنبيات ويدخل أحدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها فلا ينكر ذلك

﴿حكاية﴾

دخلت يوما على القاضى بايوالاتن بعد اذنه فى الدخول فوجدت عنده امرأة صغيرة السن بديعة الحسن فلما رأيتها ارتبت واردت الرجوع فضحكت منى ولم يدركها خجل وقال لى القاضى لم ترجع انها صاحبتى فعجبت من شأنهما فانه من الفقهاء الحجاج وأخبرت انه استأذن السلطان فى الحج فى ذلك العام مع صاحبته لا أدرى اهى هذه ام لا فلم يأذن له

﴿حكاية نحوها﴾

دخلت يوما على ابى محمد يندكان المسوفى الذى قدمنا فى صحبته فوجدته قاعدا على بساط وفى وسط داره سرير مظلل عليه امرأة معها رجل قاعد وهما يتحدثان فقلت له ما هذه المرأة فقال هى زوجتى فقلت وما الرجل الذى معها منها فقال هو صاحبها فقلت له اترضى بهذا وانت قد سكنت بلادنا وعرفت امور الشرع فقال لى مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وحسن طريقة لا تهمة فيها ولسن كنساء بلادكم فعجبت من رعونته وانصرفت عنه فلم اعد اليه بعدها واستدعانى مرات فلم اجبه ولما عزمت على السفر الى مالى وبينها وبين ايوالاتن مسيرة أربعة وعشرين يوما للمجد اكتريت دليلا من مسوفة اذ لا حاجة الى السفر فى رفقة لأمن تلك الطريق وخرجت فى ثلاثة من أصحابى وتلك الطريق كثيرة الاشجار واشجارها عادية ضخمة تستظل القافلة بظل الشجرة منها وبعضها لا اغصان لها ولا ورق ولكن ظل جسدها بحيث يستظل به الانسان وبعض تلك الاشجار قد استأسن داخلها واستنقع فيه ماء المطر فكأنها بئر ويشرب الناس من الماء الذى فيها ويكون فى بعضها النحل والعسل فيشتاره الناس منها ولقد مررت بشجرة منها فوجدت فى داخلها رجلا حائكا قد نصب بها مرمته وهو ينسج فعجبت منه قال ابن جزى ببلاد الاندلس شجرتان من شجر القسطل فى جوف كل واحدة منهما حائك ينسج الثياب احداهما بسند وادى آش والاخرى ببشارة غرناطة رجع وفى أشجار هذه الغابة التى بين ايوالاتن ومالى ما يشبه ثمره الاجاص والتفاح والخوخ والمشمش وليست بها وفيها اشجار تثمر شبه الفقوص فاذا طاب انفلق عن شئ شبه الدقيق فيطبخونه ويأكلونه ويباع بالاسواق ويستخرجون من هذه الارض حبات كالفول فيقلونها ويأكلونها وطعمها كطعم الحمص المقلو وربما طحنوها وصنعوا منها شبه الاسفنج وقلوه بالغرتى والغرتى (بفتح الغين المعجم وسكون الراء وكسر التاء المثناة) وهو ثمر كالاجاص شديد الحلاوة مضر بالبيضان اذا اكلوه ويدق عظمه فيستخرج منه زيت لهم فيه منافع فمنها انهم يطبخون به ويسرجون السرج ويقلون به هذا الاسفنج ويدهنون به ويخلطونه بتراب عندهم ويسطحون به الدور كما تسطح بالجير وهو عندهم كثير متيسر ويحمل من بلد الى بلد فى قرع كبار تسع القرعة منها قدر ما تسعه القلة ببلادنا والقرع ببلاد السودان يعظم

ومنه

ومنه يصنعون الجفان يقطعون القرعة نصفين فيصنعون منها جفنتين وينقشونها نقشا حسنا واذا سافر أحدهم يتبعه عبيده وجواريه يحملون فرشه واوانيه التي يأكل ويشرب فيها وهي من القرع والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زادا ولا اداما ولا دينارا ولا درهما انما يحمل قطع الملح وحلى الزجاج الذى يسميه الناس النظم وبعض السلع العطرية وأكثر ما يعجبهم منها القرنفل والمصطكى وتاسرغنت وهو بخورهم فاذا وصل قرية جاء نساء السودان بانلى واللبن والدجاج ودقيق النبق والارز والفونى وهو كحب الخردل يصنع من الكسكسو والعصيدة ودقيق اللوبيا فيشترى منهن ما أحب من ذلك الا ان الارز يضر اكله بالبيضان والفونى خير منه وبعد مسيرة عشرة أيام من ايوالاتن وصلنا الى قرية زاغرى (وضبطها بفتح الزاى والغين المعجم وكسر الراء) وهى قرية كبيرة يسكنها تجار السودان ويسمون ونجراتة (بفتح الواو وسكون النون وفتح الجيم والراء والف وتاء مثناة وتاء تأنيث) ويسكن معهم جماعة من البيضان يذهبون مذهب الاباضية من الخوارج ويسمون صغنغو (بفتح الصاد المهمل والغين المعجم الاول والنون وضم الغين الثانى وواو) والسنيون المالكيون من البيض يسمون عندهم تورى (بضم التاء المثناة وواو وراء مكسورة) ومن هذه القرية يجلب انلى الى ايوالاتن ثم سرنا من زاغرى فوصلنا الى النهر الاعظم وهو النيل وعليه بلدة كارسخو (بفتح الكاف وسكون الراء وفتح السين المهمل وضم الخاء المعجم وواو) والنيل ينحدر منها الى كابرة (بفتح الباء الموحدة والراء) ثم الى زاغة (بفتح الزاى والغين المعجم) ولكابرة وزاغة سلطانان يؤديان الطاعة لملك مالى وأهل زاغة قدماء فى الاسلام لهم ديانة وطلب للعلم ثم ينحدر النيل من زاغة الى تنبكتو ثم الى كوكو وسنذكرهما ثم الى بلدة مولى (بضم الميم وكسر اللام) من بلاد الليميين وهى آخر عمالة مالى ثم الى يوفى (واسمها بضم الياء آخر الحروف وواو وفاء مكسورة) وهى من أكبر بلاد السودان وسلطانها من أعظم سلاطينهم ولا يدخلها الابيض من الناس لانهم يقتلونه قبل الوصول اليها ثم ينحدر منها الى بلاد النوبة وهم على دين النصرانية ثم الى دنقلة وهى أكبر بلادهم (وضبطها بضم الدال والقاف وسكون النون بينهما وفتح اللام) وسلطانها يدعى بابن كنز الدين اسلم على ايام الملك الناصر ثم ينحدر الى جنادل وهى آخر عمالة السودان وأول عمالة اسوان من صعيد مصر ورأيت التمساح بهذا الموضع من النيل بالقرب من الساحل كانه قارب صغير ولقد نزلت يوما الى النيل لقضاء حاجة فاذا باحد السودان قد جاء ووقف فيما بيني وبين النهر فعجبت من سوء ادبه وقلة حيائه وذكرت ذلك لبعض الناس فقال انما فعل ذلك خوفا عليك من التمساح فحال بينك وبينه ثم سرنا من كارسخو فوصلنا الى نهر صنصرة (بفتح الصادين المهملين والراء وسكون النون) وهو على نحو عشرة أميال من مالى وعادتهم ان يمنع الناس من دخولها الا بالاذن

وكنت كتبت قبل ذلك لجماعة البيضان وكبيرهم محمد بن الفقيه الجزولي وشمس الدين بن النقويش المصري ليكتروا لي دارا فلما وصلت الى النهر المذكور جزت في المعدية ولم يمنعني أحد فوصلت الى مدينة مالي حضرة ملك السودان فنزلت عند مقبرتها ووصلت الى محلة البيضان وقصدت محمد ابن الفقيه فوجدته قد اكترى لي دارا ازاء داره فتوجهت اليها وجاء صهره الفقيه المقرى عبد الواحد بشمعة وطعام ثم جاء ابن الفقيه الي من الغد وشمس الدين (بن) النقويس وعلي الزودي المراكشي وهو من الطلبة ولقيت القاضي بمالي عبد الرحمن جاءني وهو من السودان حاج فاضل له مكارم أخلاق بعث الي بقرة في ضيافته ولقيت الترجمان دوغا (بضم الدال واو وغين معجم) وهو من أفاضل السودان وكبارهم وبعث الي بثور وبعث الي الفقيه عبد الواحد غرارتين من الفوني وقرعة من الغرتي وبعث الي ابن الفقيه الارز والفوني وبعث الي شمس الدين بضيافة وقاموا بحق اتم قيام شكر الله حسن افعالهم وكان ابن الفقيه متزوجا بابنة عم السلطان فكانت تتفقدنا بالطعام وغيره واكلنا بعد عشرة ايام من وصولنا عصيدة تصنع من شئ شبه القلقاس يسمى القافي (بقاف والف وفاء) وهي عندهم مفضلة على سائر الطعام فاصبحنا جميعا مرضى وكنا ستة فمات احدنا وذهبت انا لصلاة الصبح فغشي علي فيها وطلبت من بعض المصريين دواء مسهلا فاتى بشئ يسمى بيدر (بفتح الباء الموحدة وتسكين الياء) آخر الحروف وفتح الدال المهمل وراء وهو عروق نبات وخلطه بالانيسون والسكر ولته بالماء فشربته وتقيات ما اكلته مع صفراء كثيرة وعافاني الله من الهلاك ولكني مرضت شهرين

﴿ ذكر سلطان مالي ﴾

وهو السلطان منسى سليمان ومنسى (بفتح الميم وسكون النون وفتح السين المهمل) ومعناه السلطان وسليمان اسمه وهو ملك بخيل لا يرجى منه كبير عطاء واتفق اني اقمت هذه المدة ولم اره بسبب مرضي ثم انه صنع طعاما برسم عزاء مولانا ابي الحسن رضي الله عنه واستدعى الامراء والفقهاء والقاضي والخطيب وحضرت معهم فاتوا بالربعات وختم القرآن ودعوا لمولانا ابي الحسن رحمه الله ودعوا المنسى سليمان ولما فرغ من ذلك تقدمت فسلمت على منسى سليمان واعلمه القاضي والخطيب وابن الفقيه بحالي فاجابهم بلسانهم فقالوا لي يقول لك السلطان اشكر الله فقلت الحمد لله والشكر على كل حال

﴿ ذكر ضيافتهم التافهة وتعظيمهم لها ﴾

ولما انصرفت بعث الي الضيافة فوجهت الى دار القاضي وبعث القاضي بها مع رجاله الى دار ابن الفقيه فخرج ابن الفقيه من داره مسرعا حافي القدمين فدخل علي وقال قم قد جاءك قماش السلطان وهديته فقمت وظننت انها الخلع والاموال فاذا هي ثلاثة اقراص من الخبز وقطعة

لحم

لحم بقرى مقلو بالغرتى وقرعة فيها لبن رائب فعندما رأيتها ضحكت وطال تعجبى من ضعف عقولهم وتعظيمهم للشئ الحقير

﴿ ذكر كلامى للسلطان بعد ذلك واحسانه الى ﴾

وأقمت بعد بعث هذه الضيافة شهرين لم يصل الى فيهما شئ من قبل السلطان ودخل شهر رمضان وكنت خلال ذلك أتردد الى المشور وأسلم عليه واقعد مع القاضى والخطيب فتكلمت مع دوغا الترجمان فقال تكلم عنده وأنا أعبر عنك بما يجب فجلس فى اوائل رمضان وقمت بين يديه وقلت له انى سافرت بلاد الدنيا ولقيت ملوكها ولى ببلادك منذ أربعة أشهر ولم تضفنى ولا أعطيتنى شيأ فماذا اقول عنك عند السلاطين فقال انى لم ارك ولا علمت بك فقام القاضى وابن الفقيه فردا عليه وقالا انه قد سلم عليك وبعثت اليه الطعام فامر لى عند ذلك بدار انزل بها ونفقة تجرى على ثم فرق على القاضى والخطيب والفقهاء مالا ليلة سبع وعشرين من رمضان يسمونه الزكاة واعطانى معهم ثلاثة وثلاثين مثقالا وثلثا وأحسن الى عند سفرى بمائة مثقالا ذهبا

﴿ ذكر جلوسه بقبته ﴾

وله قبة مرتفعة بابها بداخل داره يقعد فيها أكثر الاوقات ولها من جهة المشور طيقان ثلاثة من الخشب مغشاة بصفائح الفضة وتحتها ثلاثة مغشاة بصفائح الذهب او هى فضة مذهبة وعليها ستور ملف فاذا كان يوم جلوسه بالقبة رفعت الستور فعلم انه يجلس فاذا جلس أخرج من شباك احدى الطاقات شرابة حرير قد ربط فيها منديل مصرى مرقوم فاذا رأى الناس المنديل ضربت الاطبال والابواق ثم يخرج من باب القصر نحو ثلاثمائة من العبيد فى ايدى بعضهم القسى وفى أيدى بعضهم الرماح الصغار والدرق فيقف اصحاب الرماح منهم ميمنة وميسرة ويجلس أصحاب القسى كذلك ثم يؤتى بفرسين مسرجين ملجمين ومعهما كبشان يذكرون انهما ينفعان من العين وعند جلوسه يخرج ثلاثة من عبيده مسرعين فيدعون نائبه قنجا موسى وتأتى الفرارية (بفتح الفاء) وهم الامراء ويأتى الخطيب والفقهاء فيقعدون امام السلحدارية يمنة ويسرة فى المشور ويقف دوغا الترجمان على باب المشور وعليه الثياب الفاخرة من الزردخانه وغيرها وعلى رأسه عمامة ذات حواشى لهم فى تعميمها صنعة بديعة وهو متقلد سيفا غمده من الذهب وفى رجليه الخف والمهاميز ولا يلبس أحد ذلك اليوم خفا غيره ويكون فى يده رمحان صغيران احدهما من ذهب والآخر من فضة واسنتهما من الحديد ويجلس الاجناد والولاة والفتيان ومسوفة وغيرهم خارج المشور فى شارع هنالك متسع فيه أشجار وكل فرارى بين يديه أصحابه بالرماح والقسى والاطبال والابواق وبوقهم من أنياب الفيلة وآلات

الطرب المصنوعة من القصب والقرع وتضرب بالسطاعة ولها صوت عجيب وكل فراري له كنانة قد علقها بين كتفيه وقوسه بيده وهو راكب فرسا وأصحابه بين مشاة وركبان ويكون بداخل المشور تحت الطيقان رجل واقف فمن أراد ان يكلم السلطان كلم دوغا ويكلم دوغا لذلك الواقف ويكلم الواقف السلطان

﴿ذكر جلوسه بالمشور﴾

ويجلس أيضا فى بعض الايام بالمشور وهنالك مصطبة تحت شجرة لها ثلاث درجات يسمونها البنبي (بفتح الباء المعقودة الاولى وكسر الثانية وسكون النون بينهما) وتفرش بالحرير وتجعل المخاد عليها ويرفع الشطر وهو شبه قبة من الحرير وعليه طائر من ذهب على قدر البازي ويخرج السلطان من باب فى ركن القصر وقوسه بيده وكنانته بين كتفيه وعلى رأسه شاشية ذهب مشدودة بعصابة ذهب لها اطراف مثل السكاكين رقاق طولها ازيد من شبر وأكثر لباسه جبة حمراء موبرة من الثياب الرومية التى تسمى المطنفس ويخرج بين يديه المغنون بايديهم قنابر الذهب والفضة وخلفه نحو ثلاثمائة من العبيد أصحاب السلاح ويمشي مشيا رويدا ويكثر التأني وربما وقف ينظر فى الناس ثم يصعد برفق كما يصعد الخطيب المنبر وعند جلوسه تضرب الطبول والابواق والانفار ويخرج ثلاثة من العبيد مسرعين فيدعون النائب والفرارية فيدخلون ويجلسون ويؤتى بالفرسين والكبشين معهما ويقف دوغا على الباب وسائر الناس فى الشارع تحت الاشجار

﴿ذكر تذلل السودان لملكهم وتتربيهم له وغير ذلك من أحوالهم﴾

والسودان أعظم الناس تواضعا لملكهم وأشدهم تذللا له ويحلفون باسمه فيقولون منسى سليمان كي فاذا دعا باحدهم عند جلوسه بالقبة التى ذكرناها نزع المدعو ثيابه ولبس ثيابا خلقة ونزع عمامته وجعل شاشية وسخة ودخل رافعا ثيابه وسراويله الى نصف ساقه وتقدم بذلة ومسكنة وضرب الارض بمرفقيه ضربا شديدا ووقف كالراكع يسمع كلامه واذا كلم أحدهم السلطان فرد عليه جوابه كشف ثيابه عن ظهره ورمى بالتراب على رأسه وظهره كما يفعل المغتسل بالماء وكنت أعجب منهم كيف لا تعمى أعينهم واذا تكلم السلطان فى مجلسه بكلام وضع الحاضرون عمائمهم عن رؤوسهم وانصتوا للكلام وربما قام أحدهم بين يديه فيذكر أفعاله فى خدمته ويقول فعلت كذا يوم كذا وقتلت كذا يوم كذا فيصدقه من علم ذلك وتصديقهم ان ينزع أحدهم فى وتر قوسه ثم يرسلها كما يفعل اذا رمى فاذا قال له السلطان صدقت أو شكره نزع ثيابه وترب وذلك عندهم من الادب قال ابن جزي وأخبرني الصاحب العلامة الفقيه أبو القاسم بن رضوان اعزه الله انه لما قدم الحاج موسى الونجراتي رسولا عن منسى سليمان الى

مولانا

مولانا أبى الحسن رضى الله عنه كان اذا دخل المجلس الكريم حمل بعض ناسه معه قفة تراب فيترب مهما قال له مولانا كلاما حسنا كما يفعل ببلاده

﴿ذكر فعله فى صلاة العيد وأيامه﴾

وحضرت بها الى عيدى الاضحى والفطر فخرج الناس الى المصلى وهو بقربة من قصر السلطان وعليهم الثياب البيض الحسان وركب السلطان وعلى رأسه الطيلسان والسودان لا يلبسون الطيلسان الا فى العيد ما عدى القاضى والخطيب والفقهاء فانهم يلبسونه فى سائر الايام وكانوا يوم العيدين يدى السلطان وهم يهللون ويكبرون وبين يديه العلامات الحمر من الحرير ونصب عند المصلى خباء فدخل السلطان اليها واصلح من شأنه ثم خرج الى المصلى فقضيت الصلاة والخطبة ثم نزل الخطيب وقعد بين يدى السلطان وتكلم بكلام كثير وهنالك رجل بيده رمح يبين للناس بلسانهم كلام الخطيب وذلك وعظ وتذكير وثناء على السلطان وتحريض على لزوم طاعته واداء حقه ويجلس السلطان فى أيام العيدين بعد العصر على البنبى وتأتى السلحدارية بالسلاح العجيب من تراكش الذهب والفضة والسيوف المحلاة بالذهب واغمادها منه ورماح الذهب والفضة ودبابيس البلور ويقف على رأسه أربعة من الامراء يشردون الذباب وفى أيديهم حلية من الفضة تشبه ركاب السرج ويجلس الفرارية والقاضى والخطيب على العادة ويأتى دوغا الترجمان بنسائه الاربع وجواريه وهن نحو مائة عليهن الملابس الحسان وعلى رؤسهن عصائب الذهب والفضة فيها تفافيح ذهب وفضة وينصب لدوغا كرسى يجلس عليه ويضرب الآلة التى هى من قصب وتحتها قريعات ويغنى بشعر يمدح السلطان فيه ويذكر غزواته وافعاله ويغنى النساء والجوارى معه ويلعبن بالقسى ويكون معهن نحو ثلاثين من غلمانه عليهم جباب الملف الحمر وفى رؤوسهم الشواشى البيض وكل واحد منهم متقلد طبله يضربه ثم يأتى أصحابه من الصبيان فيلعبون ويتقلبون فى الهواء كما يفعل السندى ولهم فى ذلك رشاقة وخفة بديعة ويلعبون بالسيوف أجمل لعب ويلعب دوغا بالسيف لعبا بديعا وعند ذلك يأمر السلطان له بالاحسان فيأتى بصرة فيها ائتا مثقال من التبر ويذكر له مافيها على رؤوس الناس وتقوم الفرارية فينزعون فى قسيهم شكرا للسلطان وبالغد يعطى كل واحد منهم لدوغا عطاء على قدره وفى كل يوم جمعة بعد العصر يفعل دوغا مثل هذا الترتيب الذى ذكرناه

﴿ذكر الاضحوكة فى انشاد الشعراء للسلطان﴾

واذا كان يوم العيد وأتم دوغا لعبه جاء الشعراء ويسمون الجلا (بضم الجيم) واحدهم جالى وقد دخل كل واحد منهم فى جوف صورة مصنوعة من الريش تشبه الشقشاق وجعل لها رأس من الخشب له منقار أحمر كأنه رأس الشقشاق ويقفون بين يدى السلطان بتلك الهيئة المضحكة

فينشدون أشعارهم وذكر لى ان شعرهم نوع من الوعظ يقولون فيه للسلطان ان هذا البنبى الذى عليه جلس فوقه من الملوك فلان وكان من حسن أفعاله كذا وفلان وكان من أفعاله كذا فافعل أنت من الخير ما يذكر بعدك ثم يصعد كبير الشعراء على درج البنبى ويضع رأسه فى حجر السلطان ثم يصعد الى أعلى البنبى فيضع رأسه على كتف السلطان الايمن ثم على كتفه الايسر وهو يتكلم بلسانهم ثم ينزل وأخبرت ان هذا الفعل لم يزل قديما عندهم قبل الاسلام فاستمروا عليه

(حكاية)

وحضرت مجلس السلطان فى بعض الايام فاتى أحد فقهائهم وكان قدم من بلاد بعيدة وقام بين يدى السلطان وتكلم كلاما كثيرا فقام القاضى فصدقه ثم صدقهما السلطان فوضع كل واحد منهما عمامته عن رأسه وترب بين يديه وكان الى جانبى رجل من البيضان فقال لى اتعرف ما قالوه فقلت لا أعرف فقال ان الفقيه أخبر ان الجراد وقع ببلادهم فخرج أحد صلحائهم الى موضع الجراد فهاله أمرها فقال هذا جراد كثير فاجابته جرادة منها وقالت ان البلاد التى يكثر فيها الظلم يبعثنا الله لفساد زرعها فصدقه القاضى والسلطان وقال عند ذلك للامراء انى برىء من الظلم ومن ظلم منكم عاقبته ومن علم بظالم ولم يعلمنى به فذنوب ذلك الظالم فى عنقه والله حسيبه وسائله ولما قال هذا الكلام وضع الفرارية عمائمهم عن رؤسهم وتبرؤوا من الظلم

(حكاية)

وحضرت الجمعة يوما فقام أحد التجار من طلبة مسوفة ويسمى بابى حفص فقال يا اهل المسجد أشهدكم ان منسى سليمان فى دعوتى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قال ذلك خرج اليه جماعة رجال من مقصورة السلطان فقالوا له من ظلمك من أخذ لك شيأ فقال منشا جو ايوالان يعنى مشرفها اخذ منى ما قيمته ستمائة مثقال واراد ان يعطينى فى مقابلته مائة مثقال خاصه فبعث السلطان عنه للحين فحضر بعد أيام وصرفهما للقاضى فثبت للتاجر حقه فأخذه وبعد ذلك عزل المشرف عن عمله

(حكاية)

واتفق فى ايام اقامتى بمالى ان السلطان غضب على زوجته الكبرى بنت عمه المدعوة بقاسا ومعنى قاسا عندهم الملكة وهى شريكته فى الملك على عادة السودان ويذكر اسمها مع اسمه على المنبر وسجنها عند بعض الفرارية وولى فى مكانها زوجته الاخرى بنجو ولم تكن من بنات الملوك فاكثر الناس الكلام فى ذلك وانكروا فعله ودخل بنات عمه على بنجو يهنئنها بالمملكة فجعلن الرماد على اذرعهن ولم يتربن رؤسهن ثم ان السلطان سرح قاسا من ثقافها

فدخل

فدخل عليها بنات عمه يهنئنها بالسراح وتزين على العادة فشكت بنجوانى السلطان بذلك فغضب على بنات عمه فخفن منه واستجرن بالجامع فعفا عنهن واستدعاهن وعادتهن اذا دخلن على السلطان ان يتجردن عن ثيابهن ويدخلن عرايا ففعلن ذلك ورضى عنهن وصرن يأتين باب السلطان غدوا وعشيا مدة سبعة أيام وكذلك يفعل كل من عفا عنه السلطان وصارت قاسا تركب كل يوم فى جواريها وعبيدها وعلى رؤسهم التراب وتقف عند المشور متنقبة لا يرى وجهها وأكثر الامراء الكلام فى شأنها فجمعهم السلطان فى المشور وقال لهم دوغا على لسانه انكم قد أكثرتم الكلام فى أمر قاسا وانها أذنبت ذنبا كبيرا ثم اتى بجارية من جواريها مقيدة مغلولة فقيل لها تكلمى بما عندك فاخبرت ان قاسا بعثتها الى جاطل ابن عم السلطان الهارب عنه الى كنبرنى واستدعته ليخلع السلطان عن ملكه وقالت له انا وجميع العساكر طوع أمرك فلما سمع الامراء ذلك قالوا ان هذا ذنب كبير وهى تستحق القتل عليه فخافت قاسا من ذلك واستجارت بدار الخطيب وعادتهم ان يستجير واهنالك بالمسجد وان لم يتمكن فبدار الخطيب وكان السودان يكرهون منسى سليمان لبخله وكان قبله منسى مغا وقبل منسى مغا منسى موسى وكان كريما فاضلا يحب البيضان ويحسن اليهم وهو الذى اعطى لابى اسحاق الساحلى فى يوم واحد أربعة آلاف مثقال وأخبرنى بعض الثقاة انه أعطى لمدرك بن فقوص ثلاثة آلاف مثقال فى يوم واحد وكان جده سارق جاطة أسلم على يدى جد مدرك هذا

حكاية

وأخبرنى الفقيه مدرك هذا ان رجلا من أهل تلمسان يعرف بابن شيخ اللبن كان قد أحسن الى السلطان منسى موسى فى صغره بسبعة مثاقيل وثلث وهو يومئذ صبى غير معتبر ثم اتفق ان جاء اليه فى خصومة وهو سلطان فعرفه وادعاه وأدناه منه حتى جلس معه على البنبى ثم قرره على فعله معه وقال للامراء ما جزاء من فعل ما فعله من الخير فقالوا له الحسنة بعشر أمثالها فاعطه سبعين مثقالا فاعطاه عند ذلك سبعمائة مثقال وكسوة وعبيدا وخدما وأمره ان لا ينقطع عنه وأخبرنى بهذه الحكاية أيضا ولد ابن شيخ اللبن المذكور وهو من الطلبة يعلم القرآن بمالى

ذكر ما استحسنته من أفعال السودان وما استقبحته منها

فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم فهم ابعد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح أحدا فى شئ منه ومنها شمول الامن فى بلادهم فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان ولو كان القناطير المقنطرة انما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه ومنها مواظبتهم للصلوات والتزامهم لها فى الجماعات

وضربهم أولادهم عليها واذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الانسان الى المسجد لم يجد أين يصلى لكثرة الزحام ومن عاداتهم ان يبعث كل انسان غلامه بسجادته فيبسطها له بموضع يستحقه بها حتى يذهب الى المسجد وسجاداتهم من سعف شجر يشبه النخل ولا ثمر له ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة ولو لم يكن لاحدهم الا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم وهم يجعلون لاولادهم القيود اذا ظهر فى حقهم التقصير فى حفظه فلا تفك عنهم حتى يحفظوه ولقد دخلت على القاضى يوم العيد وأولاده مقيدون فقلت له ألا تسرحهم فقال لا أفعل حتى يحفظوا القرآن ومررت يوما بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة وفى رجله قيد ثقيل فقلت لمن كان معى ما فعل هذا أقتل ففهم عنى الشاب وضحك وقيل لى انما قيد حتى يحفظ القرآن ومن مساوى أفعالهم كون الخدم والجوارى والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا باديات العورات ولقد كنت أرى فى رمضان كثيرا منهن على تلك الصورة فان عادة الفراريه ان يفطروا بدار السلطان ويأتى كل واحد منهم بطعامه تحمله العشرون فما فوقهن من جواريه وهن عرايا ومنها دخول النساء على السلطان عرايا غير مستترات وتعرى بناته ولقد رأيت فى ليلة سبع وعشرين من رمضان نحو مائة جارية خرجن بالطعام من قصره عرايا ومعهن بنتان له ناهدان ليس عليهما ستر ومنها جعلهم التراب والرماد على رؤسهم تأدبا ومنها ما ذكرته من الاضحوكة فى انشاد الشعراء ومنها ان كثيرا منهم يأكلون الجيف والكلاب والحمير

﴿ذكر سفرى عن مالى﴾

وكان دخولى اليها فى الرابع عشر لجمادى الاولى سنة ثلاث وخمسين وخروجى عنها فى الثانى والعشرين لمحرم سنة أربع وخمسين ورافقنى تاجر يعرف بابى بكر بن يعقوب وقصدنا طريق ميمة وكان لى جمل أركبه لان الخيل غالية الاثمان يساوى أحدها مائة مثقال فوصلنا الى خليج كبير يخرج من النيل لا يجاز الا فى المراكب وذلك الموضع كثير البعوض فلا يمر أحد به الا بالليل ووصلنا الخليج ثلث الليل والليل مقمر

﴿ذكر الخيل التى تكون بالنيل﴾

ولما وصلنا الخليج رأيت على صفته ست عشرة دابة ضخمة الخلقة فعجبت منها وظننتها فيلة لكثرتها هنالك ثم انى رأيتها دخلت فى النهر فقلت لابى بكر بن يعقوب ما هذه الدواب فقال هى خيل البحر خرجت ترعى فى البر وهى أغلظ من الخيل ولها اعراف وأذناب ورؤسها كرؤس الخيل وأرجلها كارجل الفيلة ورأيت هذه الخيل مرة أخرى لما ركبنا النيل من تنبكتو الى كوكو وهى تعوم فى الماء وترفع رؤسها وتنفخ وخاف منها أهل المركب فقربوا من البر لئلا

تغرقهم

نغرقهم ولهم حيلة فى صيدها حسنة وذلك ان لهم رماحا مثقوبة قد جعل فى ثقبها شرائط وثيقة فيضربون الفرس منها فان صادفت الضربة رجله أو عنقه انفذته وجذبوه بالحبل حتى يصل الى الساحل فيقتلونه ويأكلون لحمه ومن عظامها بالساحل كثير وكان نزولنا عند هذا الخليج بقرية كبيرة عليها حاكم من السودان حاج فاضل يسمى فربامغا (بفتح الميم والغين المعجم) وهو ممن حج مع السلطان منسى موسى لما حج

(حكاية)

أخبرنى فربامغا ان منسى موسى لما وصل الى هذا الخليج كان معه قاض من البيضان يكنى بابى العباس ويعرف بالدكالى فاحسن اليه باربعة آلاف مثقال لنفقته فلما وصلوا الى ميمة شكا الى السلطان بان الاربعة آلاف مثقال سرقت له من داره فاستحضر السلطان أمير ميمة وتوعده بالقتل ان لم يحضر من سرقها وطلب الامير السارق فلم يجد أحدا ولا سارق يكون بتلك البلاد فدخل دار القاضى واشتد على خدامه وهددهم فقالت له احدى جواريه ما ضاع له شئ وانما دفنها بيده فى ذلك الموضع وأشارت له الى الموضع فاخرجها الامير واتى بها السلطان وعرفه الخبر فغضب على القاضى ونفاه الى بلاد الكفار الذين يأكلون بنى آدم فاقام عندهم أربع سنين ثم رده الى بلده وانما لم يأكله الكفار لبياضه لانهم يقولون ان أكل الابيض مضر لانه لم ينضج والاسود هو النضيج بزعمهم

(حكاية)

قدمت على السلطان منسى سليمان جماعة من هؤلاء السودان الذين يأكلون بنى آدم معهم أمير لهم وعادتهم ان يجعلوا فى آذانهم اقراطا كبارا وتكون فتحة القرط منها نصف شبر ويلتحفون فى ملاحف الحرير وفى بلادهم يكون معدن الذهب فاكرمهم السلطان واعطاهم فى الضيافة خادما فذبحوها وأكلوها ولطخوا وجوههم وأيديهم بدمها واتوا السلطان شاكرين وأخبرت ان عادتهم متى ما وفدوا عليه ان يفعلوا ذلك وذكر لى عنهم انهم يقولون ان أطيب ما فى لحوم الادميات الكف والثدى ثم رحلنا من هذه القرية التى عند الخليج فوصلنا الى بلدة قرى منسا وقرى (بضم القاف وكسر الراء) ومات لى بها الجمل الذى كنت أركبه فاخبرنى راعيه بذلك فخرجت لانظر اليه فوجدت السودان قد اكلوه كعادتهم فى اكل الجيف فبعثت غلامين كنت استأجرتهما على خدمتى ليشتريا لى جملا بزاغرى وهى على مسيرة يومين وأقام معى بعض أصحاب ابى بكر بن يعقوب وتوجه هو لينتظرنا بميمة فاقمت ستة أيام اضافنى فيها بعض الحجاج بهذه البلدة حتى وصل الغلامان بالجمل

﴿حكاية﴾

وفى ايام اقامتى بهذه البلدة رأيت ليلة فيما يرى النائم كان انسانا يقول لى يا محمد بن بطوطة لماذا لا تقرأ سورة يس فى كل يوم فمن يومئذ ما تركت قراءتها كل يوم فى سفر ولا حضر ثم رحلت الى بلدة ميمة (بكسر الميم الاول وفتح الثانى) فنزلنا على ابار بخارجها ثم سافرنا منها الى مدينة تنبكتو (وضبط اسمها بضم التاء المعلوة وسكون النون وضم الباء الموحدة وسكون الكاف وضم التاء المعلوة الثانية وواو) وبينها وبين النيل أربعة اميال واكثر سكانها مسوفة اهل اللثام وحاكمها يسمى فربا موسى حضرت عنده يوما وقد قدم أحد مسوفة اميرا على جماعة فجعل عليه ثوبا وعمامة وسروالا كلها مصبوغة وأجلسه على درقة ورفعه كبراء قبيلته على رؤسهم وبهذه البلدة قبر الشاعر المفلق ابى اسحاق الساحلى الغرناطى المعروف ببلده بالطويجن وبها قبر سراج الدين بن الكويك أحد كبار التجار من أهل الاسكندرية

﴿حكاية﴾

كان السلطان منسى موسى لما حج نزل بروض لسراج الدين هذا ببركة الحبش خارج مصر وبها ينزل السلطان واحتاج الى مال فتسلفه من سراج الدين وتسلف منه امراؤه أيضا وبعث معهم سراج الدين وكيله يقتضى المال فاقام بمالى فتوجه سراج الدين بنفسه لاقتضاء ماله ومعه ابن له فلما وصل تنبكتو اضافه أبو اسحاق الساحلى فكان من القدر موته تلك الليلة فتكلم الناس فى ذلك واتهموا انه سم فقال لهم ولده انى أكلت معه ذلك الطعام بعينه فلو كان فيه سم لقتلنا جميعا لكنه انقضى اجله ووصل الولد الى مالى واقتضى ماله وانصرف الى ديار مصر ومن تنبكتو ركبت النيل فى مركب صغير منحوت من خشبة واحدة وكنا ننزل كل ليلة بالقرى فنشترى ما نحتاج اليه من الطعام والسمن بالملح وبالعطريات وبحلى الزجاج ثم وصلت الى بلد أنسيت اسمه له أمير فاضل حاج يسمى فربا سليمان مشهور بالشجاعة والشدة لا يتعاطى أحد النزع فى قوسه ولم أر فى السودان أطول منه ولا أضخم جسما واحتجت بهذه البلدة الى شئ من الذرة فجئت اليه وذلك يوم مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه وسألنى عن مقدمى وكان معه فقيه يكتب له فاخذت لوحا كان بين يديه وكتبت فيه يا فقيه قل لهذا الامير انا نحتاج الى شئ من الذرة للزاد والسلام وناولت الفقيه اللوح يقرأ ما فيه سرا ويكلم الامير فى ذلك بلسانه فقرأه جهرا وفهمه الامير فاخذ بيدى وادخلنى الى مشوره وبه سلاح كثير من الدرق والقسى والرماح ووجدت عنده كتاب المدهش لابن الجوزى فجعلت اقرأ فيه ثم اتى بمشروب لهم يسمى الدقنو (بفتح الدال المهمل وسكون القاف وضم النون وواو) وهو ماء فيه جريش الذرة مخلوط بيسير عسل اولبن وهم يشربونه عوض الماء لانهم ان شربوا الماء خالصا

أضر

اضربهم وان لم يجدوا الذرة خلطوه بالعسل او اللبن ثم اتى ببطيخ أخضر فأكلنا منه ودخل غلام
خماسى فدعاه وقال لى هذا ضيافتك واحفظه لئلا يفر فأخذته واردت الانصراف فقال أقم
حتى يأتى الطعام وجاءت الينا جارية له دمشقية عربية فكلمتنى بالعربى فبينما نحن فى ذلك
اذ سمعنا صراخا بداره فوجه الجارية لتعرف خبر ذلك فعادت اليه فاعلمته ان بنتا له قد توفيت
فقال انى لا أحب البكاء فتعال نمشى الى البحر يعنى النيل وله على ساحله ديار فأتى بالفرس
فقال لى اركب فقلت لا اركبه وأنت ماش فمشينا جميعا ووصلنا الى دياره على النيل واتى
بالطعام فأكلنا وودعته وانصرفت ولم ار فى السودان أكرم منه ولا افضل والغلام الذى
أعطانيه باق عندى الى الآن ثم سرت الى مدينة كوكو وهى مدينة كبيرة على النيل من
أحسن مدن السودان وأكبرها واخصبها فيها الارز الكثير واللبن والدجاج والسمك وبها
الفقوص العنانى الذى لا نظير له وتعامل اهلها فى البيع والشراء بالودع وكذلك أهل مالى
واقمت بها نحو شهر واضافنى بها محمد ابن عمر من أهل مكناسة وكان ظريفا مزاحا فاضلا وتوفى
بها بعد خروجى عنها واضافنى بها الحاج محمد الوجدى التازى وهو ممن دخل اليمن والفقيه محمد
الفيلالى امام مسجد البيضان ثم سافرت منها برسم تكدا فى البر مع قافلة كبيرة للغدامسيين
دليلهم ومقدمهم الحاج وجين (بضم الواو وتشديد الجيم المعقودة) ومعناه الذئب بلسان
السودان وكان لى جمل لركوبى وناقة لحمل الزاد فلما رحلنا أول مرحلة وقفت الناقة فأخذ الحاج
وجين ما كان عليها وقسمه على أصحابه فتوزعوا حمله وكان فى الرفقة مغربى من أهل تادلى فأبى
ان يرفع من ذلك شيأ كما فعل غيره وعطش غلامى يوما فطلبت منه الماء فلم يسمح به ثم وصلنا
الى بلاد بردامة وهى قبيلة من البربر (وضبطها بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وفتح الدال
المهمل والف وميم مفتوح وتاء تأنيث) ولا تسير القوافل الا فى خفارتهم والمرأة عندهم فى ذلك
أعظم شأنا من الرجل وهم رحالة لا يقيمون وبيوتهم غريبة الشكل يقيمون أعوادا من الخشب
ويضعون عليها الحصر وفوق ذلك أعواد مشتبكة وفوقها الجلود أو ثياب القطن ونساؤهم اتم
النساء جمالا وابدعهن صورا مع البياض الناصع والسمن ولم أر فى البلاد من يبلغ مبلغهن فى
السمن وطعامهن حليب البقر وجريش الذرة يشربنه مخلوطا بالماء غير مطبوخ عند المساء
والصباح ومن أراد التزوج منهن سكن بهن فى أقرب البلاد اليهن ولا يتجاوز بهن كوكو ولا
ايولاتن وأصابنى المرض فى هذه البلاد لاشتداد الحر وغلبة الصفراء واجتهدنا فى السير الى ان
وصلنا الى مدينة تكدا (وضبطها بفتح التاء المعلوة والكاف المعقودة والدال المهمل مع تشديده)
ونزلت بها فى جوار شيخ المغاربة سعيد بن على الجزولى واضافنى قاضيها أبو ابراهيم اسحاق
الجاناتى وهو من الافاضل واضافنى جعفر بن محمد المسوفى وديار تكدا مبنية بالحجارة الحمر
وماؤها يجرى على معادن النحاس فيتغير لونه وطعمه بذلك ولا زرع بها الا يسير من القمح يأكله

التجار والغرباء ويباع بحساب عشرين مدّا من امدادهم بمثقال ذهب ومدهم ثلث المدّ ببلادنا وتباع الذرة عندهم بحساب تسعين مدّا بمثقال ذهب وهي كثيرة العقارب وعقاربها تقتل من كان صبيا لم يبلغ وأما الرجال فقلما تقتلهم ولقد لدغت يوما وانا بها ولد للشيخ سعيد بن على عند الصبح فمات لحينه وحضرت جنازته ولا شغل لاهل تكدا غير التجارة يسافرون كل عام الى مصر ويجلبون من كل ما بها من حسان الثياب وسواها ولاهلها رفاهية وسعة حال ويتفاخرون بكثرة العبيد والخدم وكذلك أهل مالى وايولاتن ولا يبيعون المعلمات منهن الا نادرا وبالثمن الكثير

(حكاية)

اردت لما دخلت تكدا اشراء خادم معلمة فلم أجدها ثم بعث الى القاضي أبو ابراهيم بخادم لبعض أصحابه فاشتريتها بخمسة وعشرين مثقالا ثم ان صاحبها ندم ورغب فى الاقالة فقلت له ان دللتنى على سواها اقلتك فدلنى على خادم لعلى اغيول وهو المغربى التادلى الذى ابى ان يرفع شيأ من اسبابى حين وقعت ناقتى وابى ان يسقى غلامى الماء حين عطش فاشتريتها منه وكانت خيرا من الاولى وأقلت صاحبى الاول ثم ندم هذا المغربى على بيع الخادم ورغب فى الاقالة والح فى ذلك فابيت الا ان اجازيه بسوء فعله فكاد ان يجن أو يهلك أسفا ثم اقلته بعد

(ذكر معدن النحاس)

ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عليه فى الارض ويأتون به الى البلد فيسبكونه فى دورهم يفعل ذلك عبيدهم وخدمهم فاذا سبكوه نحاسا أحمر صنعوا منه قضبانا فى طول شبر ونصف بعضها رقاق وبعضها غلاظ فتباع الغلاظ منها بحساب أربعمائة قضيب بمثقال ذهب وتباع الرقاق بحساب ستمائة وسبعمائة بمثقال وهى صرفهم يشترون برقاقها اللحم والحطب ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح ويحملون النحاس منها الى مدينة كوبر من بلاد الكفار والى زغاى والى بلاد برنو وهى على مسيرة أربعين يوما من تكدا وأهلها مسلمون لهم ملك اسمه ادريس لا يظهر للناس ولا يكلمهم الامن وراء حجاب ومن هذه البلاد يؤتى بالجوارى الحسان والفتيان والثياب المجسدة ويحمل النحاس أيضا منها الى جوجو وبلاد المورتبين وسواها

(ذكر سلطان تكدا)

وفى أيام اقامتى بها توجه القاضي أبو ابراهيم والخطيب محمد والمدرس أبو حفص والشيخ سعيد ابن على الى سلطان تكدا وهو بربرى يسمى ازار (بكسر الهمزة وزاى وألف وراء) وكان على مسيرة يوم منها ووقعت بينه وبين التكركرى وهو من سلاطين البربر أيضا منازعة فذهبوا الى الاصلاح بينهما فاردت ان القاه فاكتريت دليلا وتوجهت اليه واعلمه المذكورون بقدومى فجاء الىّ راكبا فرسا دون سرج وتلك عادتهم وقد جعل عوض السرج طنفسة حمراء بديعة وعليه ملحفة وسراويل وعمامة كلها زرق ومعه أولاد اخته وهم الذين يرثون ملكه فقمنا اليه

وصافحنا

وصافحناه وسأل عن حالي ومقدمي فأعلم بذلك وانزلني بيت من بيوت اليناطبين وهم كالوصفان عندنا وبعث برأس غنم مشوي في السفود وقعب من حليب البقر وكان في جوارنا بيت امه واخته فجاءتا الينا وسلمت علينا وكانت امه تبعث لنا الحليب بعد العتمة وهو وقت حلبهم ويشربونه ذلك الوقت وبالغدو واما الطعام فلا يأكلونه ولا يعرفونه وأقمت عندهم ستة أيام وفي كل يوم يبعث بكبشين مشويين عند الصباح والمساء وأحسن الي بناقة وعشرة مثاقيل من الذهب وانصرفت عنه وعدت الى تكدا

﴿ذكر وصول الامر الكريم الي﴾

ولما عدت الى تكدا وصل غلام الحاج محمد بن سعيد السجلماسي بامر مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين آمر الي بالوصول الى حضرته العلية فقبلته وامتثلته على الفور واشتريت جملين لركوبي بسبعة وثلاثين مثقالا وثلث وقصدت السفر الى توات ورفعت زاد سبعين ليلة اذ لا يوجد الطعام فيما بين تكدا وتوات انما يوجد اللحم واللبن والسمن يشترى بالاثواب وخرجت من تكدا يوم الخميس الحادي عشر لشعبان سنة أربع وخمسين في رفقة كبيرة فيهم جعفر التواتي وهو من الفضلاء ومعنا الفقيه محمد بن عبد الله قاضي تكدا وفي الرفقة نحو ستمائة خادم فوصلنا الى كاهر من بلاد السلطان الكركري وهي أرض كثيرة الاعشاب يشتري بها الناس من برابرها الغنم ويقددون لحمها ويحمله أهل توات الى بلادهم ودخلنا منها الى برية لا عمارة بها ولا ماء وهي مسيرة ثلاثة أيام ثم سرنا بعد ذلك خمسة عشر يوما في برية لا عمارة بها الا ان بها الماء ووصلنا الى الموضع الذي يفترق به طريق غات الآخذ الى ديار مصر وطريق توات وهنالك احساء ماء يجري على الحديد فاذا غسل به الثوب الابيض اسود لونه وسرنا من هنالك عشرة أيام ووصلنا الى بلاد هكار وهم طائفة من البربر ملثمون لا خير عندهم ولقينا أحد كبرائهم فحبس القافلة حتى غرموا له أثوابا وسواها وكان وصولنا الى بلادهم في شهر رمضان وهم لا يغيرون فيه ولا يعترضون القوافل واذا وجد سراقها المتاع بالطريق في رمضان لم يعرضوا له وكذلك جميع من بهذه الطريق من البرابر وسرنا في بلاد هكار شهرا وهي قليلة النبات كثيرة الحجارة طريقها وعر ووصلنا يوم عيد الفطر الى بلاد برابر أهل اللثام كهؤلاء فاخبرونا باخبار بلادنا واعلمونا ان أولاد خراج وابن يغمور خالفوا وسكنوا تسابيت من توات نخاف أهل القافلة من ذلك ثم وصلنا الى بودا (بضم الباء الموحدة) وهي من أكبر قرى توات وارضها رمال وسباخ وتمرها كثير ليس بطيب لكن أهلها يفضلونه على تمر سجلماسه ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت وانما يجلب لها ذلك من بلاد المغرب وأكل أهلها التمر والجراد وهو كثير عندهم يختزنونه كما يختزن التمر ويقتاتون به ويخرجون الى صيده قبل طلوع الشمس فانه لا يطير اذ ذاك لاجل البرد واقمنا ببودا اياما ثم سافرنا في قافلة ووصلنا في اوسط ذي القعدة الى مدينة

سجلماسة وخرجت منها فى ثانى ذى الحجة وذلك اوان البرد الشديد ونزل بالطريق ثلج كثير ولقد رأيت الطرق الصعبة والثلج الكثير بخارى وسمرقند وخراسان وبلاد الاتراك فلم أر أصعب من طريق ام جنيبة ووصلنا ليلة عيد الاضحى الى دار الطمع فاقمت هنالك يوم الاضحى ثم خرجت فوصلت الى حضرة فاس حضرة مولانا أمير المؤمنين أيده الله فقبلت يده الكريمة وتيمنت بمشاهدة وجهه المبارك وأقمت فى كنف احسانه بعد طول الرحلة والله تعالى يشكر ما اولانيه من جزيل احسانه وسابغ امتنانه ويديم ايامه ويمتع المسلمين بطول بقائه وههنا انتهت الرحلة المسماة تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار وكان الفراغ من تقييدها فى ثالث ذى الحجة عام ستة وخمسين وسبعمائة والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

قال ابن جزى

انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ ابى عبد الله محمد بن بطوطه اكرمه الله ولا يخفى على ذى عقل ان هذا الشيخ هو رحال العصر ومن قال رحال هذه الملة لم يبعد ولم يجعل بلاد الدنيا للرحلة واتخذ حضرة فاس قرارا ومستوطنا بعد طول جولانه الا لما تحقق ان مولانا أيده الله أعظم ملوكها شأنا واعمهم فضائل وأكثرهم احسانا وأشدهم بالواردين عليه عنايه واتمهم لمن ينتمى الى طلب العلم حمايه فيجب على مثلى ان يحمد الله تعالى لان وفقه فى اول حاله وترحاله لاستيطان هذه الحضرة التى اختارها هذا الشيخ بعد رحلة خمسة وعشرين عاما انها النعمة لا يقدر قدرها ولا يوفى شكرها والله تعالى يرزقنا الاعانة على خدمة مولانا أمير المؤمنين ويبقى علينا ظل حرمته ورحمته ويجزيه عنا معشر الغرباء المنقطعين اليه أفضل جزاء المحسنين اللهم وكما فضلته على الملوك بفضيلتى العلم والدين وخصصته بالحلم والعقل الرصين فمد لملكه أسباب التأييد والتمكين وعرفه عوارف النصر العزيز والفتح المبين واجعل الملك فى عقبه الى يوم الدين وأره قرة العين فى نفسه وبنيه وملكه ورعيته يا أرحم الراحمين وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا ونبينا محمد خاتم النبيين وامام المرسلين والحمد لله رب العالمين وكان الفراغ من كتبها فى صفر عام سبعة وخمسين وسبعمائة عرف الله من كتبها

تم الجزء الثانى من رحلة ابن بطوطه وبه تم طبع هذا الكتاب الجليل بمطبعة وادى النيل بتصحيح الفقير أبى السعود أفندى فى منتصف جمادى الثانية سنة ١٢٨٨ هجريه على أصله المطبوع مع ترجمته بالفرانساويه بمدينة باريس فى سنة ١٨٥٨ ميلاديه ولله الشكر التام

وبه حسن المبدا

والختام